غابرييل غارسيا ماركيز

نعيشها لنرويها

مُذكّرات

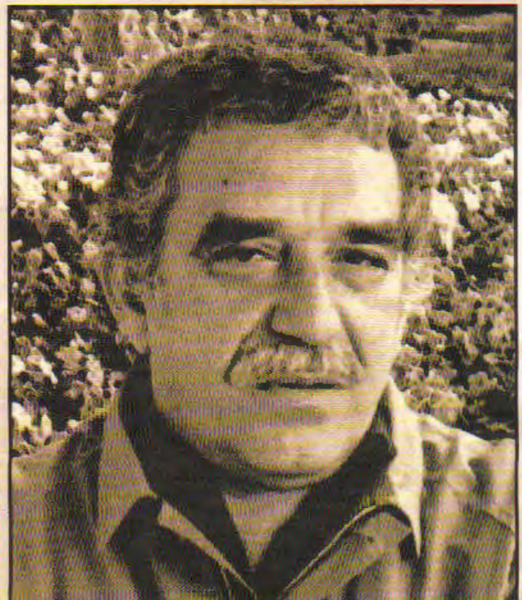

ترجمة: رفعت عطفة

نعيشها لنرويها

* غابرييل غارسيّا ماركيز
* نعيشها لنرويها
* ترجمة رفعت عطفة
* جميع الحقوق محفوظة © Copyright
* الطبعة الأولى 2003
* موافقة وزارة الإعلام رقم 75800
* الناشـــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053 - 5141441 ص. ب 30249

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, inclouding photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

غابرييل غارسيّا ماركيز

نعيشها لنرويها

مذكرات

ترجمة: رفعت عطفة

العنوان الأصلي للكتاب:
Vivir para contarla

ليست الحياة ما عاشه المرء،
بل ما يتذكّره وكيف يتذكّره كي يرويه.

1

طلبت مني أمّي أن أرافقَها كي تبيعَ البيت. كانت قد وصلتْ في ذلك الصباح إلى بارّانكيّا من البلدة القصيّة التي كانت تعيش فيها الأسرةُ، ولم يكن عندها أدنى فكرة عن كيفية العثور عليّ. وبالسؤال عنّي بين معارفي هنا وهناك أشاروا إليها أن تبحث عنّي في مكتبة موندو(*) أو في المقاهي المجاورة، حيثُ كنتُ أذهبُ مرّتين في اليوم لأتبادلَ الحديث مع أصدقائيَ الكتّاب. حذّرها من قال لها ذلك قائلاً: «حذارِ منهم فإنّهم مجانين تماماً». وصلتْ في تمام الساعة الثانية عشرة، شقّت طريقها بمشيتها الرشيقة بين طاولات الكتب المعروضة، وانتصبت أمامي تنظر إلى عينيّ بابتسامة ماكرة من ابتسامات أحسن أيّامها، ثمّ قالت لي قبل أن أتمكّن من القيام بردّ فعل:

ـ أنا أمّك.

شيءٌ ما تغيّرَ فيها منعني من معرفتها من النظرة الأولى. كانت في الخامسة والأربعين من عمرها. وبإضافة ولاداتها الإحدى عشرة، نجد أنّها أمضت عشر سنوات تقريباً في الحمل ومثلها على الأقل في إرضاع أبنائها. كانت قد شابت تماماً قبل أوانها، وبدت عيناها أكبر وأكثر ذهولاً خلفِ عدستيها الأوليين ثنائيتي البؤرة

(*) معناها: العالم، وقد آثرنا عدم ترجمة أسماء الأماكن والاكتفاء بالإشارة إلى معناها في الهامش. م.

وتلتزم حداداً كاملاً وجدّياً على وفاة أمّها، لكنّها تحتفظ بجمال صورة عرسها الروماني، المُكلّل الآن بهالة خريفية. قبل أيّ شيء، بل وقبل أن تعانقني قالت لي بأسلوبها الاحتفالي المعهود:

ـ جئت أطلبُ منك معروفاً بأن ترافقني لبيع البيت.

لم تُضطر لأن تقول لي أيّ بيت ولا أين يقع، إذ لم يكن لدينا غير بيت واحدٍ في العالم: بيت الجدّين القديم في أراكاتاكا، الذي من حسن حظّي أنّني ولدت فيه ولم أعشْ فيه بعد الثامنة. كنت قد غادرت كلّية الحقوق للتو بعد ستّة فصول دراسية(*)، كرَّستُها أكثر من أيِّ شيءٍ آخر لقراءة ما وقع بين يديّ ولإلقاء شعرِ العصر الذهبي الأسباني الفريد عن ظهر قلبٍ. كما قرأتُ في طبعات عابرة ومترجمة كلّ الكتب التي تكفيني لتعلّم تقنيات الرواية، ونشرتُ ستَّ قصص قصيرة في ملاحق صحفية، استحقّت حماس أصدقائي وانتباه بعض النقاد. كنتُ سأتمّ الثالثة والعشرين من عمري بعد شهر، ومتخلّفاً عن الخدمة العسكرية ومررت بمحنة السيلان الأبيض مرّتين وأدخِّن دون تفكير بالعواقبِ ستين سيجارة من النوع المريع. كنت أمضي أوقات فراغي متنقِّلاً بين بارَّانكيّا وكارتاخِنا دِ إندياس، على شاطئ كولومبيا الكاريبي، أعيش مثل ملك بما يدفعونه لي عن الزوايا اليومية في صحيفة «إلْ هِرالدو»، الذي لم يكد يُشكّل شيئاً؛ أنامُ حيثُ يُباغِتني الليل بأفضل رفقةٍ ممكنة. كما لو لم يكن التشوّش الذي لفّ تطلّعاتي والفوضى في حياتي كافيين رحنا أنا ومجموعة من أصدقائي الملازمين لي نستعدُّ لإصدار مجلّة متهوِّرة بلا إمكانيات، كان ألفونسو فونْمايور يُخطِّط لها منذ ثلاث سنوات. ماذا كان باستطاعتي أن أتمنى أكثر من ذلك؟

سبقتُ الموضةَ بعشرين سنة بسبب ضيق الحال لا بسبب الذوق: شاربان ريفيان، شعر أشعث، بنطلون جينز، قمصان بأزهار ملتبسة ونعل حاج. في ظلمة إحدى دور السينما قالت إحدى صديقاتي آنذاك لشخص معها، دون أن تدري أنّني قريب منها: «مسكين غابيتو،

(*) مدّة الفصل ستّة أشهر.

حالته يرثى لها». وهكذا لم أجد حين طلبت مني أمّي أن أرافقها لبيع البيت أيّ مانعٍ يمنعني من أن أجيبها بالموافقة. وضّحت لي أنّها لا تحمل ما يكفي من النقود فأجبتها بكبرياء أنّني سأدفع نفقاتي.

لم يكن من الممكن حلّ المسألة في الصحيفة التي كنتُ أعمل فيها. كانوا يدفعون لي ثلاثة بيزوات عن الزاوية اليومية وأربعة بيزوات عن كلّ افتتاحية أكتبها حين يغيب أحد المحرّرين الدائمين، ولم تكن تكفيني إلاّ بشقّ النفس. حاولت الحصول على سلفة، لكنّ المديرَ ذكّرني أنّ ديني الأصليّ يتجاوز الخمسين بيزو. ارتكبت في ذلك المساء شططاً لا يمكن لأيٍّ من أصدقائي أن يرتكبه. عند خروجي من مقهى كولومبيا وبجانب المكتبة لحقت بدون رامون بينِييش، المعلم القديم وصاحب المكتبة وطلبت منه أن يقرضني عشرة بيزوات. لم يكن معه غير ست.

طبعاً لم يكن باستطاعة أمّي، ولا باستطاعتي، أنّ نتصوّر أنّ تلك الرحلة البسيطة التي دامت يومين فقط ستكون حاسمةً بالنسبة لي، والتي لن تكفيني أطول الحيوات وأكثرها نشاطاً لأن أروي قصّتها. الآن وقد تجاوزت الخامسة والسبعين فعلاً، أعرف أنّه كان من أهمّ القرارات التي اضطررت لاتخاذها خلال مسيرتي ككاتب. أي في حياتي كلّها.

تهتمّ الذاكرةُ حتى مرحلة المراهقة بالمستقبل أكثر من بالماضي. ولذا فإنّ الحنين لم يكن قد جعلِ ذكرياتي عن القرية مثالية. كنت أتذكرها كما هي: مكاناً حسناً للعيش، الجميع فيه يعرفون بعضهم بعضاً، على ضفّة نهر، تتدفّق مياهه الصافية في مجرى من الحجارة الضخمة المصقولة والبيضاء كأنّها بيوض ما قبل التاريخ. كانت جبال سييرّا نِيفادا في سانتا ماريّا تبدو عند الغروب، وخاصّة في كانون الأوّل، حين ينقضي موسم المطر ويصبح الجوّ ماسيّاً، كأنّها تقترب بقممها البيضاء من مزارع الموز على الضفّة المقابلة. وكان الهنود الأروهاكويون يظهرون وهم يجرون في صفوف كصفوف النمل على حواف الجبال، يحملون على ظهورهم أكياس الزنجبيل ويمضغون كرات الكوكا يشغلون بها

حياتهم. كنّا نحن الأطفال نتلهف لصنع كرات من تلك الثلوج الأبدية ونلعب بها لعبة الحرب في الشوارع الملتهبة. فالحرّ كان غير معقول، لا سيّما أثناء القيلولة، إلى حدّ أنّ الكبار يتذمّرون منه كما لو أنّه صار مفاجأة يومية. منذ ولادتي سمعتهم يكرِّرون بلا كللٍ أن خطوط السكك الحديدية ومعسكرات يونايتد فروت كومباني(*) أشيدت ليلاً، لأنّ الإمساك بالمعدات التي حمّتها الشمس كان محالاً في النهار.

كانت الوسيلة الوحيدة للوصول إلى أراكاتاكا هي زورق بمحرّك مخلّع عبر قناة مائيّة حفرت بأيدي عبيد المرحلة الاستعمارية، ثمّ عبر مستنقع فسيح مياهه عكرة وموحشة، حتى بلدة ثييناغا الغامضة. من هناك كانوا يستقلّون القطارَ العاديّ الذي كان في بدايته أفضل قطارات البلد وتُقطع فيه المرحلة الأخيرة عبر مزارع الموز المترامية الأطراف، مع وقفات كثيرة عبثية في ضياع متربة وملتهبة ومحطات مقفرة موحِشة. تلك هي الطريق التي سلكتُها أنا وأمّي في السابعة من مساء يوم السبت، الثامن عشر من شباط من عام 1950 ـ عشية الكرنفال ـ تحت وابل غزيرٍ من مطرٍ في غير أوانه وليس معنا غير اثنين وثلاثين بيزو تكاد لا تكفي للعودة إذا لم يُبع البيت بالشروط المتوقّعة.

كانت الريح التجارية في تلك الليلة من العتوّ حيث وجدتُ صعوبة في إقناع أمّي في الميناء النهريّ بركوب الزورق. لم تكن تنقصها الحجّة؛ فالزوارق كانت تقليداً محدوداً لبواخر نيوأورليانز، لكن بمحركات تعمل على البنزين، وتنقل ارتعاشات البردية إلى كلّ من يكون على متنها. كانت تحتوي على صالة صغيرة فيها قوائم لتعليق شباك النوم على مستويات مختلفة ومقاعد خشبية، حيث يستطيع كلّ واحدٍ أن يرتاح عليها دفعاً بمرفقه وكيفما استطاع مع أمتعته الزائدة وطرود بضائعه وأقفاص دجاجه وحتى خنازيره الحيّة. كان فيها عدد قليل من القمرات الصغيرة الخانقة تحتوي

(*) شركة الفواكه المتحدة.

الواحدةُ منها على سريري ثكنة فرديين، تكاد تشغلها دائماً عاهرات رديئات، يقدّمن خدماتهنّ السريعة خلال الرحلة. وبما أنّنا لم نعثر في اللحظة الأخيرة على أيّة قمرة شاغرة ولم نكن نحمل معنا شباك نوم، فقد استولينا أنا وأمّي على كرسيين حديديين من الممر الأوسط وتهيّأنا لنقضي ليلتنا هناك.

تساطت العاصفةُ، كما خشيت أمّي، المركبَ أثناء عبورنا لنهر مغدلِنا، الذي يصبح على مسافة قصيرة من مصبّه بحريَّ المزاج. كنتُ قد ابتعتُ مؤونة جيّدة من أرخص سجائر التبغ الأسود، الذي لا ينقصُ ورقه غير القليل كي يكون ورقَ صَرٍّ وشرعت أدخّن على طريقتي آنذاك، أشعل سيجارةً من عقب أخرى، بينما أعيد قراءة «نور في آب» لويليام فوكنر، الذي كان من أكثر شياطيني الحافظة وفاءً لي. تعلّقت أمّي بمسبحتها كما لو كانت دولاباً قادراً على أن يُسيّر جرّاراً أو يبقي على طائرة في الجوّ. وكعادتها لم تطلب شيئاً لنفسها، بل ازدهاراً وحياةً مديدة لأيتامها الأحد عشر. يبدو أنّ صلاتها وصلت حيث يجب أن تصل، فالمطر صار وديعاً حين دخلنا القناة والريح هبّت هبوباً لا يكاد يبعد البعوض. عندئذٍ خبّأت أمي المسبحةَ وتأملت بصمتٍ ولبرهة طويلة صخبَ الحياة التي كانت تجري من حولنا.

كانت قد ولدت في بيت متواضع، لكنّها ترعرعت في ظلّ ازدهار شركة الموز العابر، الذي بقي لها منه على الأقل التربية الحسنة التي حظيت بها كطفلة غنية في مدرسة بِرسنتاثيون دِ لا سانتِسيما بيرخِن(*)، في سانتا ماريّا. كانت خلال عطل أعياد الميلاد تطرّز مع صديقاتها على الطارة وتعزف على موتّرة المفاتيح في الأسواق الخيرية وتحضر مع عمة صعبةِ المراس أكثر رقصات الأرستقراطية المحلية الورعة طهراً. لكنّ أحداً لم يعرف لها خطيباً حين تزوّجت، ضدّ إرادة أبويها، من عامل تلغراف القرية. ومنذ ذلك الوقت صارت روح الدعابة والصحة الحديدية من أبرز مزاياها، التي لم يتمكّن

(*) تجلّي العذراء المقدسة.

مكر الخطوب من هزيمتهما طوال حياتها المديدة. لكن أكثرها دهشة ومن ثمّ أقلها إثارة للريبة منذ ذلك الوقت إنما كانت قريحتها الرائعة التي كانت تمكنها من إخفاء قوّة مزاجها الرهيبة: برج أسد تام. وقد مكّنها هذا من أن تُقيم سلطةً أموميّةً غطّت هيمنتها على أبعد الأقارب وفي الأماكن التي لا تخطر ببال، كنظام فلكي تُديره من مطبخها بصوت خافت ودون أن يرفّ لها جفن تقريباً، بينما تسلق قدر الفاصولياء.

كنتُ أتساءل، وأنا أراها تتحمَّلُ تلك الرحلة القاسية دون أن تتبدّل، كيف استطاعت أن تُذلِّل بكلّ تلك السرعة وتلك القدرة ظلمَ الفقر. لا شيء مثل تلك الليلة للتأكّد من ذلك. البعوض المفترِس والحر الشديد، المثير للغثيان في وحل القنوات الذي راح الزورق يُحرّكه أثناء عبوره، وحركة الركاب المؤرَّقين الذين لا يجدون راحة في ذلك الزحام. كلّ شيء كان يبدو كما لو وجد من أجل زعزعة أكثر الطبائع اعتدالاً. كانت أمي تتحمّل هذا جامِدةً في كرسيّها، بينما فتيات الإيجار يجمعن غلّة كرنفال في القمرات القريبة، متنكرات بزي الرجال أو الظريفات(*). كانت إحداهنَّ تدخل قمرتها وتخرج منها عدّة مرات، ومعها دائماً زبون مختلف وبجانب مقعد أمي ذاته. ظننتها لم ترها. لكنّها تابعتها في المرّة الرابعة أو الخامسة التي دخلت وخرجت فيها في أقلّ من ساعة، بنظرةٍ أسى حتى نهاية الممر.

ـ يا لهنّ من فتيات مسكينات ـ تنهّدت ـ ما عليهن أن يفعلنه كي يعشن أسوأ من العمل ذاته.

وهكذا مكثتُ حتى منتصف الليل، حين تعبتُ من القراءة مع الاهتزاز غير المحتمل وأضواء الممر البائسة، جلستُ أدخِّن بجانبها، محاولاً أن أنجو بجلدي من رمال أراضي كونت يوكناباتاوْفا المتحرّكة. كنت قد تركتُ الجامعة قبل عام مدفوعاً بالوهم المتهور بأن أعيش من الصحافة والأدب دون الحاجة

(*) Manola و manolo اسم كان يُطلق في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر على فتيان وفتيات من بعضِ أحياء مدريد الشعبية، كانوا يرتدون ثياباً لافتة للانتباه، وعرفوا بالظرافة.

لتعلُّمِهما، تدفعني إلى ذلك جملة أظنّ أنّني قرأتها عند برنارد شو: «اضطررتُ منذ نعومة أظفاري إلى أن أقطع تربيتي كي أذهب إلى المدرسة». لم أقدر على مناقشة الأمر مع أحد، لأنّني كنتُ أشعر، دون أن أستطيعَ تفسيرَ ذلك، أنّ أسبابي لا يمكن أن تكون صالحة إلا لي بالذات.

كان إضاعة للوقت أن أحاول إقناع والديّ بمثل ذلك الجنون في الوقت الذي عقدا فيه عليّ كلّ تلك الآمال وأنفقا كلّ تلك الأموال التي لم يملكاها. خاصّة والدي الذي كان من الممكن أن يغفر لي أيّ شيء باستثناء ألاّ أعلّق على الجدار شهادة جامعيّة، لم يستطع هو الحصول عليها. انقطع التواصل بيننا. بعد عام تقريباً فيما كنتُ ما أزال أفكّر بزيارته كي أقدّم له مبرراتي، ظهرت أمي تطلب مني مرافقتها لبيع البيت. ومع ذلك لم تذكر المسألة إلاّ بعد منتصف الليل، في الزورق حين شعرت أنّها عثرت أخيراً، بنوعٍ من الإلهام الرباني، على الفرصة المناسبة لتقول لي ما كان، دونَ شك، سبباً حقيقيّاً لرحلتها، وبدأت بالطريقة والنبرة والكلمات الدقيقة التي لا بدّ أنّها أنضجتها في وحدة أرقها، قبل أن تشرع بالرحلة بكثير.

ـ أبوك حزين جدّاً ـ قالت.

كان هذا هو الجحيم الذي طالما أرهبنا. كانت تبدأ كعادتها دائماً، في اللحظة التي لا أحد يتوقّعها، وبصوت مُريحٍ لا يتبدّل أمام أيّ شيء. سألتها لمجرّد الكلام، لأنّني كنتُ أعرف الجُواب أكثر من اللازم:

ـ ولماذا؟

ـ لأنّك تركت الدراسة.

ـ لم أتركها ـ قلتُ لها ـ بدّلتُ الاختصاص فقط.

شجعتها فكرةُ الغوص في النقاش.

ـ يقول أبوك إن الأمرَ واحد ـ قالت.

قلت لها وأنا أعرف أنّه غير صحيح:

ـ هو أيضاً ترك الدراسة ليعزفَ على الكمان.

ـ الأمر مختلف ـ ردّت بحيوية كبيرة ـ فهو كان يعزف على الكمان في الأعياد والسهرات فقط. إذا كان قد ترك دراسته فهو لم يفعل ذلك إلاّ لأنّه لم يكن يملك ثمن طعامه. لكنّه تعلمّ مهنة التلغراف في أقل من شهر، وكانت في ذلك الوقت مهنة ممتازة، خاصّة في أراكاتاكا.

ـ أنا أيضاً أعيش من الكتابة في الصحف ـ قلتُ لها.

ـ أنتَ تقول هذا كيلا تُعذِّبني ـ قالت هي ـ لكن الحالة السيئة تظهر عليك عن بُعد. لماذا لم أعرفك حين رأيتك في المكتبة؟

ـ أنا أيضاً لم أعرفك ـ قلت لها.

ـ لكن ليس للسبب ذاته ـ قالت ـ ظننتُك شحّاذاً ـ ونظرت إلى نعلي المتآكل، وأضافت: ودون جوارب.

ـ أكثر راحة ـ قلت لها ـ قميصان، زوج من السراويل الداخلية: أرتدي واحداً وأُجَفِّف آخر. ماذا يمكن أن أحتاج أكثر من ذلك؟

ـ قليلاً من الكرامة ـ قالت، لكنها سرعان ما لطّفت ذلك بنبرة أخرى: أقول لك هذا لأنّنا نُحبُّك كثيراً.

ـ أعرفُ ـ قلت لها ـ لكن قولي لي شيئاً واحداً: لو كنتِ مكاني ألن تفعلي الشيءَ ذاته؟

ـ لن أفعل ـ قالت ـ إذا كنتُ سأخالف بذلك والديّ.

قلتُ لها وأنا أضحكُ وأتذكّر عنادها الذي استطاعت أن تكسر به معارضةَ أسرتها لزواجها.

ـ تجرّئي وانظري إليّ.

لكنها تفادتني بجدّية، لأنّها كانت تعلم تماماً ما كنتُ أفكِّر به.

ـ لم أتزوّج قبل أن أحصل على مباركة والديَّ ـ قالت ـ بالقوّة، صحيح، لكنّني حصلت عليها.

قطعت النقاش، ليس لأنّ مبرِّراتي كانت ستفحمها، بل لأنّها

أرادت أن تذهب إلى المرحاض، الذي لا تثق بوضع النظافة فيه. سألتُ المراقبَ عما إذا كان يوجد مكان أكثر نظافة، لكنّه وضّح لي أنّه هو نفسه يستخدم المرحاض العام. وخلص كما لو أنّه يقرأ كونراد: «في البحر جميعنا متساوون». وهكذا انصاعت أمّي للقانون الشامل للجميع. حين خرجت وعلى عكس ما كنتُ أخشاهُ لم تكد تستطيع أن تسيطر على ضحكتها.

ـ تصوَّر ـ قالت لي ـ ماذا سيُظنّ أبوك لو عدت حاملة مرضاً من أمراض الحياة السيّئة؟

تأخرنا، بعد منتصف الليل، ثلاث ساعات لأنّ تجمعات شقائق ماء(*) القنال عطّلت مراوح المحرّك، فجنح الزورق في منطقة السبخة(**) فاضطُرّ كثيرٌ من الركّاب إلى سحبه بحبال شباك النوم. صار الحرّ والبعوض لا يحتملان، لكنّ أمّي تفادتهما برشقاتٍ من النوم الفوري والمتقطع، المشهور في العائلة، وكان يسمح لها بالراحة دون أن تضيع سير الحديث. حين عاودت الرحلة سيرها ودخلت النسمة الرطبة صحت تماماً.

ـ في جميع الأحوال ـ تنهّدت ـ يجب أن أحمل معي جواباً ما لوالدك.

ـ خير لك ألاّ تقلقي ـ قلت لها بالبراءة ذاتها ـ سأذهب في كانون الأوّل وعندئذٍ سأوضِّح له كلّ شيء.

ـ بقي عشرة أشهر ـ قالت.

ـ بعد كلّ حساب، لم يعد بالإمكان عمل شيء في الجامعة ـ قلت لها.

ـ هل تعدني جدّياً بأنّ تذهب؟

ـ أعدُك ـ قلت لها. وشعرت لأول مرّة بشيء من القلق في صوتها.

(*) Anmonas تعني هنا حيوانات بحرية شبيهة بالزهر تلتصق بالصخر.
(**) Manglar أرض سبخة في المناطق الاستوائية يُغطيها المدّ بالمياه، وتنمو فيها الأشجار التي تعيش على المياه المالحة.

ـ هل أستطيع أن أقول لأبيك بأنّك ستقول له نعم؟

ـ لا ـ أجبتها جازماً ـ لن تستطيعي هذا.

كان واضحاً أنّها تبحث عن مخرج آخر. لكنّني لم أمنحه لها.

ـ إذاً من الأفضل أن أقول له الحقيقة دفعة واحدة ـ قالت ـ وهكذا لن تبدو خديعة.

ـ حسناً ـ قلت مرتاحاً ـ قوليها له.

اتفقنا على هذا، وأيّ شخص لا يعرفها كان سيظنّ أنّ كلّ شيء قد انتهى عند ذلك الحد، لكنّني كنتُ أعلم أنّها هدنة لالتقاط الأنفاس. بعدها بقليل نامت بعمق. أبعدت نسمةٌ رقيقةٌ البعوضَ وملأت الهواء الجديدَ بعبقِ الأزهار، وانطلق الزورق برشاقة زورق شراعي.

كنّا في ثييناغا غراندِ(*)، وهو إحدى أساطير طفولتي الأخرى. فقد أبحرت فيه عدّة مرات، حين كان جدّي الكولونيل نيكولاس ريكاردو ماركيز مِخيّا ـ الذي كنّا ندعوه نحن أحفاده بَابّالِلو ـ يحملني معه من أراكاتاكا إلى بارّانكيّا لزيارة والديَّ. «يجب عدم الخوف من المستنقع، لكن فعلاً يجب احترامه» قال لي وهو يحدثني عن المزاج المباغت لمياهه، التي حيناً تبدو مثل غدير وحيناً آخر مثل محيط جامح. كان في فصل الأمطار عرضة لعواصف الجبال. تعصفُ به الرياح التجارية الشمالية العاتية، منذ كانون الأوّل وحتى نيسان، حين يجب أن يكون الطقس رائقاً فتتحوّل كلّ ليلة إلى مغامرة. لم تكن جدّتي لأمّي ترانكيلينا إغواران ـ مينا ـ بعد رحلةٍ مرعبة اضطروا فيها للبحث عن ملجأ في مصب ريّوفريّو لاذوا به حتى الفجر، تُخاطِر بعبوره إلا في حالات الضرورة القصوى.

من حسن الحظّ أنّه كان في تلك الليلة وديعاً. من نوافذ القيدوم، إلى حيث خرجتُ قبيل الفجر بقليلٍ لأتنفّس، كانت أنوارُ زوارق

(*) Cinaga تأتي بمعنى مستنقع كثير الطمي. وهي في الوقت ذاته اسم منطقة في كولومبيا. وهنا تعني المستنقع الكبير. وقد آثرنا عدم ترجمتها لأنّها تُشير إلى منطقة بعينها.

الصيد تطفو مثل نجوم في الماء. كانت لا تُحصى والصيادون غير المرئيين يتسامرون كما لو أنّهم في زيارة، فقد كان للأصوات وقع شبحي في جوّ المستنقع. وبينما كنت أتكئ على الدرابزين وأحاول أن أتبينّ جانب الجبال داهمتني ضربةُ مخلب الحنين الأولى.

في فجر آخر كهذا وبينما كنّا نجتاز المستنقع الكبير تركني بَابّالِلو في القمرة وذهب إلى الحانة. لا أدري كم كانت الساعة حين أيقظني صخب ناس كثيرين عبر صرير المروحة الصدئة وطقطقة صفائح القمرة. لا أظنّ أنّ عمري كان أكثر من خمس سنوات فشعرت برعب كبير، لكن سرعان ما استتبت السكينة وفكّرت أنّه يمكن أن يكون حلماً. في الصباح وكنّا قد وصلنا مرفأ ثييناغا كان جدّي يحلق ذقنه بالموسى بينما الباب مفتوح والمرآة معلّقة إلى إطاره. الذكرى دقيقة: لم يكن قد ارتدى قميصَه بعدُ، لكنّ حاملَ بنطلونه المطاطيَّ الأبديَّ العريض بخطوطه الخضراء كان فوق قميصه الداخلي، بخطوطهما الخضراء. وبينما هو يحلق راح يتحدّث مع رجل ما زال باستطاعتي التعرف عليه من النظرة الأولى. كان له مظهر غُرابٍ لا لبس فيه؛ على يده اليمنى وشم بحار، يعلّق حول عنقه عدداً من سلاسل الذهبِ الثقيلة ويضع في معصميه أساورَ وسحباتٍ(*) ذهبية أيضاً. كنت قد ارتديتُ ملابسي توّاً وجلستُ على السرير أنتعل حذائي حين قال الرجلُ لجدّيّ:

- ثِق، يا كولونيل أنّ ما كانوا يريدون فعله هو رميك في الماء.

ابتسم جدّي دون أن يتوقّف عن الحلاقة وردّ بكبرياء، هي من ميزاته الخاصّة جدّاً:

- لصالحهم أنّهم لم يجرؤوا.

عندها أدركتُ لغطَ الليلة السابقة، وشعرت بالتأثر الشديد من فكرة أنّه كان هناك من يمكن أن يلقي بجدّي إلى المستنقع.

باغتتني ذكرى تلك الحادثة التي لم تتَّضِح لي قط، في ذلك

(*) Esclavas هي أساور خالية من أيّة زخرفة، وتُسمى عندنا سحبات.

الفجر، الذي كنتُ ذاهباً فيه مع أمّي لبيع البيت، وأنا أتأمل ثلوج الجبال التي تُصبِغ زرقاءَ مع خيوط الشمس الأولى. سمح لنا التأخر أن نرى، في عزّ النهار، الحاجِزَ الرمليّ البرّاق الذي لا يكاد يفصل البحر عن المستنقع، حيث توجد ضيع صيادين وشباك منشورة على الشاطئ لتجفّ وأطفال متسخون وضامرون يلعبون كرة القدم بكرة من خرق. كان مشهدُ الصيادين الكثيرين في الشوارع وقد بترت أيديهم لأنّهم لم يلقوا بأصابع الديناميت في الوقت المناسب، مؤثّراً. عند مرور الزورق راحَ الأطفالُ يغوصون بحثاً عن قطع النقود التي كان يلقي لهم بها المسافرون.

قاربت الساعة السابعةَ حين رسونا في مستنقع منتنٍ على مسافة قصيرة من بلدة ثييناغا. استقبلتنا شراذم الحمالين الغائرين في الطين حتى ركبهم وبين أذرعهم حملونا متخبطين في الوحل إلى الرصيف وسط تحليق طيور الزماح الملكية التي تتنازع على قاذورات المستنقع. كنّا نتناول طعام إفطارنا، المكون من أسماك الكحلاء وشرائح الموز الأخضر المقلية على طاولات الميناء، حين استأنفت أمي هجوم حربها الشخصية:

ـ إذن قلْ لي وخلّصني ـ قالت لي دون أن ترفع بصرها ـ ما الذي سأقوله لأبيك؟

حاولت كسب الوقت للتفكير.

ـ عَمّ؟

ـ عن الشيء الوحيد الذي يهمه ـ قالت مثارةً قليلاً ـ دراستك.

حالفني الحظ بأن جليساً صفيقاً فضولياً مأخوذاً بعنف الحوار أراد أن يعرف مبرراتي. لم يُخفني جواب أمّي الفوري وحسب بل فاجأني أن يصدر عنها وهي الغيورة على حياتها الخاصّة.

ـ المسألة أنّه يريد أن يصبح كاتباً ـ قالت.

ـ إنّ كاتباً جيّداً يستطيع أن يكسب مالاً كثيراً ـ ردّ الرجلُ بجدّية ـ خاصّة إذا كان يعمل مع الحكومة.

لا أدري ما إذا كان تحاشي أمّي للموضوع كان بدافع التحفظ أو الخوف من حجج المحاور غير المتوقّع، لكن كلاهما انتهيا إلى الإشفاق على تردّد جيلنا وتقاسم الحنين إلى الماضي. في النهاية وبتتبع أسماء معارف مشتركين انتهيا إلى اكتشاف أنّنا أقرباء من ناحيتي آل كوتِسْ وآل إغواران. هذا ما كان يحدث لنا مع كلّ شخصين من ثلاثة أشخاص نلتقي بهم على الساحل الكاريبي وهو ما كانت تحتفي به أمّي دائماً كحدث غير معهود.

ذهبنا إلى محطّة السكك الحديدية في عربة من طراز فيكتوريا بحصان واحد، ربّما هي الأخيرة من سلالة أسطورية انقرضت في بقية أنحاء العالم. مضت أميّ غارقة في الدهشة وهي تنظر إلى السهل الذي أحرقهُ الملح الذي يبدأ في مستنقع الميناء ويختلط بالأفق. كان بالنسبة إليّ مكاناً تاريخياً: كان جدّي قد أخذني من يدي وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري في أوّل رحلة لي إلى بارّانكيّا، عبر تلك الفلاة الملتهبة، يمشي بسرعة دون أن يقول لي السبب لنجد أنفسنا فجأة أمام امتداد فسيح من المياه الخضراء يفور فيها الزبد، وتطفو كلُّ أنواع الدجاج المخنوق على سطحها.

ـ إنّه البحر ـ قال لي.

سألته خائباً ماذا يوجد على الضفّة الأخرى فأجابني دون تردّدٍ:

ـ على الجانب الآخر لا توجد ضفّة.

اليوم وبعد أن رأيتُ بحاراً كثيرةً وجهاً وقفا، ما زلت أفكّر أنّه كان جواباً آخر من أجوبته العظيمة. على كلّ حال ما من تصوّر من تصوراتي السابقة انطبق على ذلك الخضمّ القذر، الذي كان من المحال السير على شاطئه ذي الحجارة المدبّبة بين أغصان القرم الضخمة المتعفنة وشظايا المحار. كان مريعاً.

يبدو أنّ أميّ كانت تفكر بالشيء ذاته عن بحر ثييناغا فهي ما إن رأته يظهر على يسارِ العربة حتى تنهدت قائلةً:

ـ لا بحر كبحر ريوهاتشا!

حكيتُ لها في تلك المناسبة ذكرياتي عن الدجاج المخنوق، فبدت لها كما تبدو لجميع الكبار وهماً من أوهام الطفولة. ثمّ راحت تتأمّل كلَّ مكانٍ نمرُّ به في طريقنا وكنتُ أعرف ماذا كان يعتمل في فكرها من كلّ تبدّلٍ في صمتها. مررنا بجانب حي التسامح على الجانب الآخر من خطّ القطار ببيوته الملونة وأسقفه الصدئة وببغاوات بّاراماريبو القديمة، التي كانت تنادي الزبائن بالبرتغالية من الحلقات المعلقة إلى الأفاريز. مررنا بمرآب القاطرات بقبّته الحديدية الهائلة التي كانت تلوذ إليها الطيور المهاجرة والنوارس الضائعة لتنام. طفنا حول المدينة دون أن ندخلها، لكنّنا شاهدنا الشوارع العريضة والمقفرة وبيوت مرحلة الازدهار القديمة، ذات الطابق الواحد والنوافذ التامّة، حيث كانت تتكرَّر دروس البيانو منذ الفجر دون انقطاع. فجأة أشارت أميّ بإصبعها:

ـ انظر ـ قالت ـ هناك انتهى العالم.

تابعتُ اتجاهَ سبابتها فرأيت المحطّة: بناء من خشب متآكل وأسقف من التوتياء المتموّجة، وشرفات على كامل الواجهة وأمامها ساحة صغيرة مُنفِّرة لا يمكن أن تتسع لأكثر من مئتي شخص. هناك، وكما وضّحت لي أمّي، قتل الجيش في ذلك اليوم من عام 1928 عدداً لم يحدد قط من عمال مزارع الموز المياومين. كنت أعرف الحادث كما لو أنّني عشتُهُ بعد أن سمعتُ جدّي يحكيه ويكرِّره ألف مرّة منذ أن وعيتُ وصرت أتذكر: العسكريّ يتلو الأمر الذي يعتبر العمال المياومين المضربين عصابة من المجرمين؛ الرجال والنساء والأطفال الثلاثة آلاف، جامدون تحت الشمس المريعة بعد أن أعطاهم الضابط مهلة خمس دقائق كي يُخلوا الساحة؛ الأمر بإطلاق النار، جلجلة رشقاتِ بصاق الرصاص المتوهّج، أصيبت الحشود المحاصرة بالذعر بينما راحوا يُقلّمونهم شبراً فشبراً بمقصات الرشاشات المدروسة والنهمة.

كان القطار يصل إلى ثييناغا في التاسعة صباحاً، يجمع ركاب الزوارق والهابطين من الجبال ويتابعُ، بعد ربع ساعةٍ، طريقَهُ داخل منطقة الموز. وصلتُ مع أمّي إلى المحطّة بعد الثامنة. لكنّ القطار

كان قد تأخّر. ومع ذلك كنّا الراكبين الوحيدين. لاحظتْ هي ذلك ما إن دخلتْ العربةَ الفارغة فهتفتْ بمزاج احتفاليّ:

ـ يا للترف! القطار بكامله لنا نحن الاثنين!

دائماً فكّرت أنّه كان سروراً مفتعلاً لإخفاء خيبةً أملها، فآثار الزمن على حالة العربات كانت تظهر من النظرة البسيطة. كانت عربات الدرجة الثانية قديمة، وقد خلت من مقاعد الخيزران وزجاج النوافذ الذي يُرفَعُ ويُنَزَّلُ، التي حلّت محلّها مقاعد خشبية صقلتها مؤخرات الفقراء الملساء والحارة. صار القطارُ، لا العربة وحدها، شبحَ ذاته بالمقارنة مع ما كان عليه في ذلك الزمن. كان في السابق يحتوي على ثلاث درجات. الثالثة التي يسافر فيها الأكثر فقراً هي ذاتها الأقفاص الخشبيةُ التي كان يُنقل فيها الموزُ أو ماشية الذبح وقد كُيِّفَت للركاب بمقاعد طولية من الخشب الخام. الدرجة الثانية، مجهزة بمقاعد من الخيزران وأطر من البرونز. أمّا الدرجة الأولى، التي كان يُسافر فيها أهل الحكومة وكبار موظفي شركة الموز، فكانت مفروشة بالسجاد في الممرات ومزودة بكراسٍ منجدة بالقطيفة الحمراء، يمكن تغيير وضعيتها. عندما كانَ يُسافر المراقب العام للشركة، أو أسرته أو ضيوفه الخاصّين، تُلْحَقُ بالقطار عربة فاخرة بنوافذ زجاجُها ضدَّ الشمس وأفاريزها مذهبة وفيها شرفة مكشوفة مزوّدة بطاولات صغيرة لتناول الشاي أثناء الرحلة. لم أعرف أيّ مخلوق رأى هذه العربة الخيالية من الداخل. عمل جدّي عمدةً مرّتين، وكان عنده مفهوم راقٍ للمال، لكنّه إذا كان برفقة إحدى نساء الأسرة لم يكن يُسافر إلا في الدرجة الثانية، وإذا ما سألوه لماذا يُسافر في الدرجة الثالثة، أجابهم: «لأنّه لا توجد رابعة». ومع ذلك فإنّ أكثر ما يُذكر عن قطار تلك الأزمنة هي دقة مواعيده؛ فساعات القرى كانت تُضبط على صفيره. لسببٍ أو لآخر انطلق في ذلك اليوم متأخِّراً ساعةً ونصف. حين انطلقَ، ببطء شديدٍ وصرير كئيب، رسمت أمّي علامةَ الصليب، لكنّها سرعان ما عادت إلى الواقع.

ـ هذا القطارُ ينقصه زيت في النوابض ـ قالت.

كنّا المسافرين الوحيدين، ربّما في القطار كلّه، وما من شيء أثار حتى تلك اللحظة اهتمامي، وغرقت في وسن «نور في آب»، أدخّن دون توقّف، وأنظر نظرات سريعة وخاطِفة كي أتعرّف على الأماكن التي رحنا نخلِّفُها وراءنا. عَبَر القطار بصفرة طويلة مناطق غمر المستنقع ودخل بسرعةٍ كبيرة ممرّاً صخريّاً أحمر رجراجٍ، حيث أصبح دويّ العربات لا يُطاق، لكنّه خفّف بعد خمس عشرة دقيقة سرعتَه ودخل بشخيرٍ خافت في شبه ظلّ المزارع المُنعِش، وصار الطقسُ أكثر تشوّشاً ولم نعد نشعر بنسمة البحر. لم أُضطرّ لقطع القراءة كي أعرف أنّنا دخلنا في مملكة منطقة الموز الكتيمة.

لقد تبدَّل العالم. فعلى هذا الجانب وذاك من السكّة الحديدية راحت تنتشر الطرق العريضة المتناسقة اللامتناهية لمزارع الموز، التي تمرّ فيها عربات الثيران المحمّلة بأقراط الموز الأخضر. فجأة تظهر في مساحات غير مناسبة وغير مزروعة معسكراتٌ من الآجر الأحمر ومكاتب يغطي نوافذها قماش خشن وتتدلى من سقوفها مروحيات ومشفى معزول في حقل من شقائق النعمان. كلّ قرية ولها نهرها وجسرها الحديديّ الذي يمرّ فوقه القطارُ عاوياً فتقفز الفتيات اللواتي يستحممن في المياه شديدة البرودة عند مروره مثل أسماك الشابل، ليربكن المسافرين بأدائهن الخاطف.

صعد في بلدة ريّوفريّو عدد من عائلات الأَروهاكو(*) محملين بأكياس الظهر المليئة بثمار الأفوكاتو الجبلية، وهي من أشهى ما في البلد. جابوا العربة قافزين جيئة وذهاباً يبحثون عن مكان يجلسون فيه، لكن لم يبقَ حين انطلق القطار من جديد غير امرأتين بيضاوين ومعهما طفلٌ وليد وراهب شاب. لم يتوقّف الصغير عن البكاء بقيّةَ الرحلة. كان الراهب ينتعل جزمة ويعتمرُ خوذة مستكشفٍ ويرتدي دثاراً من الكتان الخشن المرقع برقع مربعة، كأنّه شراع إبحار، ويتكلّم في الوقت الذي يبكي فيه الطفل، دائماً كما لو أنّه على

(*) شعب أمريكي من السكان الأصليين يقطن جبال سانتا مارتا في كولومبيا ويتكلّم اللغة التشيبتشية.

المنبر. كان موضوعُ موعظته إمكانيةَ عودة شركة الموز. فمنذ أن رحلت هذه لم يعد أحد يتكلّم في المنطقة عن شيءٍ آخر وكانت الآراء تتراوح بين من يريدونها أن تعود ومن لا يريدون. لكنّ الجميع كانوا يسلمون بعودتها. كان الراهب ضدَّ عودتها وقد عبّر عن ذلك بمبرِّر شخصيّ جداً بدا للنساء غير معقول:

ـ حيث تحلُّ الشركة تُخلّف الخراب.

كان هذا هو الشيء الوحيد الأصيل الذي قاله، لكنّه لم يتمكن من توضيحه وأم الطفل شوّشته بقولها أن الله لا يمكن أن يوافقه على ذلك.

كان الحنين، كما هي العادة دائماً، قد محا الذكرياتِ السيِّئةَ وعظَّم الحسنة. ما من أحد كان ينجو من أذاه. من نافذة العربة كان يظهر الرجال جالسين في أبواب دورهم ويكفي المرءَ أن ينظر إلى وجوههم كي يعرف ما كانوا ينتظرونه. وكانت الغاسلات على حجارة الشواطئ المدببة ينظرن إلى القطار يمرّ بالأمل ذاته. كلّ غريبٍ كان يصل حاملاً حقيبة رجل أعمالٍ يبدو لهم رجلَ اليونايتد فروتْ كومباني العائد ليجدّد الماضي. في كلّ لقاء، في كلّ زيارة، في كلّ رسالة كانت تظهر عاجلاً أو آجلاً الجملة المقدسة: «يقولون إن الشركة ستعود». لا أحد كان يعرف من قال ذلك ولا متى ولا لماذا، لكنّ أحداً لم يكن يشكّ بذلك.

كانت أميّ تظنّ أنّها شُفِيَت من الفزع، إذ ما إن مات أبواها حتى قطعت كلّ علاقة لها مع أراكاتاكا. ومع ذلك فأحلامها كانت تخونها. على الأقل حين كان هناك حلم يهمّها إلى حدّ أن تحكيه على مائدة الإفطار، وكان دائماً على علاقة بحنينها لمنطقة الموز. تخطّت أقسى المراحل دون أن تبيع البيت، متوهمة أن تقبض أربعة أضعاف ثمنه حين تعود الشركة. هزمها أخيراً ضغطُ الواقع الذي لا يُطاق. لكنّها حين سمعت الراهب يقول إنّ الشركة سوف تعود، قامت بحركة حزينة وقالت هامسة في أذني:

ـ مؤسف أنّنا لا نستطيع أن ننتظر زمناً قصيراً لنبيع البيت بثمن أكبر.

بينما كان الراهب يتكلّم مررنا عبوراً بمكانٍ اجتمعت في ساحته فرقةٌ موسيقية تعزف موسيقى فَرِحة تحت شمسٍ ماحقة. دائماً كانت تبدو لي تلك القرى متشابهة. حين كان بابّالِلو يحملني معه إلى سينما إوليبميا لصاحبها دون أنطونيو داكونتِ لاحظتُ أنَّ محطّاتِ أفلام رعاةِ البقر تشبه محطات قطاراتنا. بعد ذلك وحين بدأت أقرأ فوكنِر بدت لي قرى رواياته مثل قرانا أيضاً. ولم يكن هذا مفاجئاً فهي قد بنيت بإيحاء تبشريّ من اليونايتد فروت كومباني، وبأسلوب معسكراتها المؤقتة. كنتُ أتذكّرُ كلَّ شيء، بما في ذلك كنيسةَ الساحة وبيوت حكايات الجنيات الصغيرة، الملونة بألوان بدائية، وأتذكّر مجموعات العمال الزنوج المياومين وهم يغنون عند الغروب، عنابرَ المزارع حيث كان يجلس العمال ليروا قطاراتِ الشحن تمر، التخومَ حيث يأتي الصباح على عمّال جني القصب برؤوس مناجلهم المقطوعة بعد سكرات أيام السبت. أتذكُر مدن الأمريكيين الشماليين الخاصّة في أراكاتاكا وفي سِبيَّا(*)، على الجانب الآخر من السكّة الحديدية، المسيّجة بالشبك المعدني، كأنّها خمّ دجاج مكهرب تصبح في أيّام الصيف الرطبة سوداء من السنونو المحترقة. أتذكّر مروجها الزرقاء بطواويسها وأحجالها، مساكنها بسطوحها الحمراء ونوافذها وشباكها المعدنية وطاولاتها الصغيرة وكراسيها القابلة للطي لتناول الطعام في الشرفات، بين النخيل والورد المغبر. كانت تظهر أحيانا من خلال الأسلاك الشائكة نساء جميلات وخمولات، بملابس الموسلين وقبعات الشف، يقطفن من حدائقهنّ الأزهار بمقصاتهن الذهبية.

لم يكن سهلاً عليَّ أن أميّز في طفولتي بين قرية وأخرى. بعد عشرين سنة صار ذلك أصعب، لأنّ اللافتات التي تحمل الأسماء الرعوية ـ توكورينكا، غواكاماتشيتو، نيرلانديا، غواكامايال ـ في بوّابات المحطات، وجميعها كانت مقفرة كما في الذاكرة، كانت قد

(*) Sevilla هي سميُّ إشبيليا في أسبانيا. وقد آثرنا الإبقاء على اللفظ الأسباني، كما سنفعل مع بقيّة أسماء المدن الأندلسية والمتوسطية التي حملها معهم الأسبان إلى العالم الجديد.

سقطت. توقَّف القطار في سِبيّا في قرابة الحادية عشرة والنصف صباحاً لتبديل القاطرة والتزوّد بالماء خلال خمس عشرة دقيقة سرمدية. هناك بدأ الحرّ. حين انطلق القطار من جديد كانت القاطرة الجديدة ترسل إلينا في كلّ منعطفٍ رشقة من هباب الفحم، تدخلُ من النافذة الخالية من البلور وتغمرنا بالثلج الأسود. كان الراهب والمرأتان قد نزلوا في إحدى القرى دون أن ننتبه وهذا ما زاد من انطباعي بأنّني أمضي أنا وأمي وحيدين في قطار ليس لأحد. أمّي الجالسة أمامي وهي تنظر عبر النافذة الصغيرة كانت قد قطعت رأس حلمين أو ثلاثة، لكنّها انتعشت فجأة وأفلتت السؤالَ المخيف من جديد:

ـ إذن ماذا أقول لأبيك؟

فكرتُ أنّها لن تُذعِن أبداً وهي تبحث عن منفذٍ تكسر من خلاله قراري. كانت قبل ذلك بقليل قد اقترحت بعض صيغ الالتزام استبعدتُ مبرراتها، لكنّني كنتُ أعرف أنّ تراجعها لن يدوم طويلاً. ومع ذلك فقد باغتتني بمحاولتها الجديدة، أنا المهيّأُ لمعركة عقيمة. فأجبتها بهدوء أكبر من المرات السابقة:

ـ قولي له إنّ الشيءَ الوحيد الذي أريده في هذه الحياة هو أن أصبح كاتباً وإنّني سأصبح.

ـ هو لا يعترض على أن تصبح ما تريد ـ قالت ـ ما دمت ستنال شهادة في أيّ شيء.

كانت تتكلّم دون أن تنظر إليَّ، متظاهرة بأنّها تهتمّ بالحياة خارج النافذة الصغيرة أكثر مما هي مهتمّة بحديثنا.

ـ لا أدري لماذا تصريّن إلى هذا الحدّ إذا كنتِ تعرفين أنني لن أذعن ـ قلتُ لها.

وعلى الفور نظرت إلى عينيَّ وسألتني بفضول:

ـ ولماذا تعرف أنّني أعرف؟

ـ لأنّنا أنا وأنتِ متساويان ـ قلتُ.

توقّف القطار في محطّة بلا قرية، وبعدها بقليل مرّ في مزرعة الموز الوحيدة في الطريق التي تحمل اسماً مكتوباً على البوابة: «ماكوندو». كانت تلك الكلمة قد لفتت انتباهي منذ الرحلات الأولى مع جدّي، لكنّني فقط وأنا في مرحلة الرشد اكتشفتُ أنّ وقعها الشعريّ يعجبني، لكنّني لم أكتشف أنّ وقعها الموسيقي يعجبني إلا عندما كبرت. لم أسمعه قط من أحدٍ كما لم أسأل عن معناه. كنتُ قد استخدمته في ثلاثة كتب كاسم لبلدة متخيّلة، حين عرفتُ بالمصادفة من موسوعة أنّه اسم لشجرة أستوائية، تُشبه شجرة الثيبا(*)، لكنّها لا تُعطي أزهاراً ولا ثماراً ويُستخدمُ خشبُها الاسفنجيُّ في صناعة زوارق الكانُوَا وفي صناعة أدوات المطبخ. اكتشفت فيما بعد في الموسوعة البريطانية أنّه توجد في تنجانيقا سلالة آل ماكوندو وفكّرت أنّها يمكن أن تكون أصل الكلمة. لكنّني لم أتحقّق قط من ذلك، كما لم أعرف الشجرة،

فقد سألت عنها كثيراً في منطقة الموز دون أن يعرف أحد كيف يقوله لي. ربّما لم توجد قط.

كان القطار يمرّ في مزرعة ماكوندو في الحادية عشرة ويتوقّف بعد عشر دقائق في أراكاتاكا. في اليوم الذي ذهبتُ فيه مع أمّي لبيع البيت مرّ متأخِّراً ساعة ونصفاً. كنتُ في المرحاض حين بدأ يُسرع ودخلت عبر النافذة المكسورة ريح ملتهبة وجافّة مختلطة بصرير العربات القديمة وصفير القاطرة المذعور. كان قلبي يقرع في صدري وغثيان صقيعي جمّد داخلي. خرجت بكلّ ما أوتيت من سرعة مدفوعاً بذعر شبيه بالذي يشعر به المرء حين تُزَلزَلُ الأرض، فوجدتُ أمي على حالها في مقعدها تحصي بصوت عالٍ الأماكنَ التي تراها تمرّ عبر النافذة كرشقاتٍ عابرة من الحياة التي انقضت ولن تعود أبداً.

(*) Ceiba كلمة من أصل هايتي، وهي شجرة سامقة ضخمة الجذع، أزهارها حمراء وثمرتُها مخروطية تحتوي على ستّة بذور ملفوفة بندفٍ كالقطن. تستخدم في صناعة الوسائد، بعكس شجرة ماكوندو التي تُصنع منها زوارق الكانُوَا، المذكورة أعلاه والتي تصنع من جذعٍ واحد.

- هذه هي الأراضي التي باعوها لأبيك بكذبةِ وجود الذهب - قالت.

مرّ مثل شهاب بيتُ المعلمين المقْدَمِيّين(*) بحديقتِهِ المزهرة ولافتةِ بابه: الشمس تشرِق للجميع.

- كان هذا أوّل ما تعلّمتَه بالإنكليزية - قالت لي أمّي.

- ليس الأوّل، بل الوحيد - قلتُ لها.

عبرَ جسر الإسمنت والساقية بمياهها التي تعكّرت بعد أن حوّل الأمريكيون الشماليون النهرَ إلى مزارع الموز.

- إنّه حي نساء الدنيا، الذي كان يطلع فيه الصباحُ على الرجال وهم يرقصون الكومبيامبا ويُشعلون رزم الأوراق النقدية بدل الشموع - قالت هي.

مصاطِب مسقى الأبقار، أشجارُ اللوز التي صدئت بفعل الشمس وحديقة المدرسة الصغيرة المونوتوسورية(**)، التي تعلّمت فيها القراءة. وأشرقت للحظةٍ صورةُ القرية كاملةً عبر النافذة في ذلك الأحد الساطع من شباط.

- المحطّة! - صاحت أمّي - آه كيف تغيّر العالم حتى ما عاد أحدٌ ينتظر القطار.

عندها انتهت القاطرة من الصفير وخفّفت سرعتها وتوقّفت مطلقة أنيناً طويلاً. أوّل ما أثّر فيَّ هو الصمت. كان صمتاً مادّياً باستطاعتي أن أميِّزه وأنا مغمضَ العينين من بين أنواع الصمت أخرى في العالم. كان انعكاس القيظ من الكثافة حيث راح كلُّ شيء يظهر وكأنّه يُرى من خلف بلوّر متموّج. ما من ذكرى عن كائن

(*) Adventista من adventismo مقدمي من مقدمية، وهو طائفة مسيحية أمريكية تنتظرُ عودة ثانية للسيّد المسيح.

(**) نسبة إلى مونتِسوري: المربية والطبيبة وعالمة النفس الإيطالية، التي كانت تعتبر أنّ التربية بمجملها تربية ذاتية تقوم على نشاط الطفل حسب حاجاته. مؤلفها الرئيسي هو منهج التربية العلمية.

بشري على مدّ البصر وما من شيءٍ لم يُغطّه غبارٌ كالندى ملتهبٌ. بقيت أمّي بعد ذلك عدّة دقائق جالسةً في مقعدها وهي تنظر إلى القرية الميتة والمتمدّدة في الشوارع المقفرة، وأخيراً هتفت مذعورة:

- يا إلهي! - هذا هو الشيء الوحيد الذي قالته قبل أن تنزل.

انتابني أثناء توقُّفِ القطار هناك إحساس بأنّنا لم نكن وحدنا تماماً. لكن ما إن أقلع مطلقاً صفرةً تلقائية تمزّق القلب حتى بقينا أنا وأمّي وحيدين تحت الشمس الجهنمية وهبطت فوقنا كلّ كآبة القرية. لكنّ أحداً منّا لم يقل شيئاً للآخر. كانت المحطّة الخشبية القديمة بسطح توتيائها وشرفتها التي تغطي الواجهة نسخة عن تلك التي عرفناها في أفلام رعاة البقر. عبرنا المحطّة المهجورةَ التي بدأ بلاطها يتشقّق تحت ضغط الأعشاب وغصنا في كسل القيلولة باحثَيْن دائماً عن حماية أشجار اللوز.

كنتُ منذ طفولتي أمقتُ تلك القيلولات الخمولة، لأنّنا لم نكن ندري ماذا نفعل؛ والنيام يهمسون دون أن يستيقظوا: «اسكتوا، إنّنا نائمون». كانت المخازنُ والمكاتبُ العامّة والمدارسُ تغلق أبوابها منذ الثانية عشرة ولا تعود لتفتحها إلاّ قبل الثالثة بقليل، وكان داخلُ البيوت يطفو عالقاً في ليمبوس من السبات. كان الحرّ في بعضها لا يحتمل إلى حدّ أنّهم يعلقون شباكَ النومِ أو يضعون الكراسي الصغيرة تحت ظلال أشجار اللوز وينامون جالسين في وسط الشارع، فلا يبقى مفتوحاً غير الفندق وحانته وصالة البلياردو مقابلَ المحطة ومكتب التلغراف خلف الكنيسة. كان كلّ شيء مطابقاً للذكريات، لكنّه أكثر اضمحلالاً وفقراً، خرّبته ريح قدرية مدمّرة: البيوت ذاتها متآكلة، أسطح التوتياء ذاتها منخورة بالصدأ، مشارب الحيوانات وبقايا المصاطِب الغرانيتية وأشجار اللوز الكئيبة. قد شوّه ذلك الغبارُ الخفيُّ والملتهبُ الذي يخدع البصرَ ويحرق الجلد كلّ شيء. كانت جنّة شركة الموز الخاصّة على الجانب الآخر من السكّة الحديدية قد اختفى سياج أسلاكها المكهربة وصارت أرضاً للأعشاب الضارة دون نخيل، وتهدّمت بيوتها بين شقائق النعمان

وبقايا المشفى المحترق. ما من باب، ما من صدع في جدار، ما من أثر لإنسان إلا وكان له في داخلي وقع خارق للطبيعة.

كانت أمّي تسير مستقيمة تماماً، رشيقةَ الخطو، تتصبّب عرقاً في ثوب حدادها وبصمت مطلق، لكّن شحوبها الجنائزي وبروفيلها المسنون كانا يشيان بما كان يعتمل في داخلها. في نهاية المسقى رأينا أوّل كائن بشري: امرأة صغيرة الحجم بائسة المظهر ظهرت في زاوية خاكوبو بِراكاثا ومرّت بجانبنا تحمل قدراً من البيوتر(*) كان غطاؤه المقلقل يحدّد إيقاع خطوها. همست لي أمّي دون أن تنظر إليها:

- إنّها بيتا.

عرفتُها. فهي قد اشتغلت منذ طفولتها في مطبخ جدّي، ومهما نكن قد تغيّرنا كان لا بدّ لها أن تعرفنا لو أنّها تكرَّمت علينا بنظرة. لكن هذا لم يحدث: مرّت في عالم آخر. ما زلتُ إلى اليوم أتساءل ترى ألم تمت بيتا قبل ذلك اليوم بكثير.

حين انعطفنا في الزاوية كان الغبار يضطرم في قدميّ من خلال نسيج النعلين. الإحساس بالخذلان والهجر صار لا يُطاق. وعندئذ رأيت نفسي ورأيت أميّ تماماً كما رأيت وأنا طفل أمَّ وأختَ اللص الذي قتلته ماريّا كونْشوِغرا بطلقة واحدة قبل أسابيع، حين كان يُحاول أن يفتح بابَ بيتها عنوةً.

أيقظتها في الساعة الثالثة فجراً حركة من يحاول أن يفتح الباب من الخارج عنوةً. نهضت دون أن تُشعِل النور. بحثت في الظلمة عن مسدس قديم في خزانة الثياب، لم يُطلق به أحد النار منذ حرب الألف يوم ولم تُحدّد في الظلمة مكان البابِ وحسب بل والارتفاع الدقيق للقفل. عندئذٍ سدّدت سلاحها بيديها، أغمضت عينيها وضغطت على الزناد. لم تكن قد أطلقت ناراً من قبل، ومع ذلك فالطلقة أصابت هدفها عبر الباب.

(*) خليط معدني مكوّنه الرئيسي هو القصدير.

كان ذلك هو أوّل ميت أراه. فحين مررت في طريقي إلى المدرسة في السابعة صباحاً، كان جسدُه ما يزال ممدّداً على الرصيف وسط بقعةٍ من الدم الجاف، مخرَّبَ الوجه بفعل الرصاصة التي حطّمت أنفه وخرجت من إحدى أذنيه. كان يرتدي قميص بحّار داخلياً ذا خطوط ملونة، وبنطلوناً عادياً مشدوداً بحبل من السيزال بدل الزنار وكان حافياً، إلى جانبه عثروا على المفتاح المدلّس اليدوي الذي حاول أن يفتح القفل به عنوة.

هرع وجهاء البلدة إلى بيت ماريّا كونشوِغرا كي يُعزّوها لأنّها قتلت اللص. ذهبتُ في تلك الليلة مع بّابّالِو فوجدناها جالسة على كرسيّ بمسندٍ مصنوع في مانيلا، كأنّها طاووس ضخم من الخيزران وسط حماس الأصدقاء الذين راحوا يُصغون إلى القصّة التي كرّرتها ألف مرّة. كان الجميع متفقين معها على أنّها أطلقت النارِ بمحض الخوف. عندئذ حدث أن سألها جدّي عما إذا سمعت شيئاً آخر بعد إطلاق النار، فأجابته بأنّها شعرت في البداية بصمت كبير، ثمّ صوت المفتاح المدلس المعدني هو يسقط على الأرض الإسمنتية تلاه صوت موجوع خافت جدّاً يقول: «آخ، يا أمّي». يبدو أن ماريّا كونْشوِغرا لم تعِ هذا الأنين الممزق للقلب إلا بعد أن وجّه جدّي السؤال إليها. عندها فقط انفجرت بالبكاء.

حدث هذا يوم اثنين. يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي وفي ساعة القيلولة، كنتُ ألعب بالترومبو مع أقدم صديق لي في حياتي وهو لويس كارمِلو كورِّيا حين فوجئنا أنّ النيام استيقظوا قبل الأوان وراحوا يُطلون من النوافذ. عندها رأينا في الشارع المقفر امرأة مسربلة بالحداد ومعها طفلة في الثانية عشرة من عمرها تقريباً تحمل باقة من الأزهار الذابلة الملفوفة في صحيفة. كانتا تحميان نفسيهما من الشمس الحارقة بمظلة سوداء، غير آبهتين أبداً بوقاحة الناس الذين ينظرون إليهما تمرّان. تلك هما أم اللص القتيل وأخته الصغرى تحملان أزهاراً إلى قبره.

لاحقتني تلك الرؤية سنواتٍ كثيرةً من حياتي، مثل حلم مجهول رآه جميع أهل القرية من النوافذ يمرُّ، إلى أن تمكّنت من تفريغها في

قصّة قصيرة. لكنّني لم أعِ في الحقيقة مأساة المرأة والطفلة ولا كرامتهما الصامِدة إلاّ يومَ ذهبتُ برفقةِ أمي لبيع البيت وفوجئتُ بنفسي أسير في ذلك الشارع الموحش وفي الساعة القاتلة ذاتها.

ـ أشعر وكأنّني اللص ـ قلتُ.

لم تفهم أمّي ما عنيت. بل وأكثر من ذلك: لم تنظر حين مررنا ببيت ماريّا كونْسْوِغرا إلى الباب الذي كانت ما تزال تظهر فيه الرقعة الخشبية التي وضعت فوق ثقب الطلقة. بعد سنوات تبيّنتُ وأنا أستذكر تلك الرحلة معها، أنّها تتذكّر المأساةَ، لكنّها تتمنّى أن تقدّم روحها مقابل أن تنساها. وقد ظهر هذا بجلاء أكبر حين مررنا بالدار التي كان يعيش فيها دون إميليو، المعروف أكثر بالبلجيكي، الجندي المحنّك في الحرب العالمية الأولى الذي فقد ساقيه في حقل للألغام في النورماندي، ونجا ذات أحدٍ من آحاد العنصرة من عذاب الذاكرة باستنشاق بخارِ حمض الذهب. لم أكن قد تجاوزتُ الستّ سنوات، ومع ذلك أتذكّر الهرجَ والمرج الذي أحدثه الخبرُ في السابعة صباحاً كأنّه البارحة. كان من الحضور بحيث كسرت أمّي صمتها بعد عشرين سنة، حين عدنا إلى البلدة لبيع البيت.

ـ مسكين البلجيكي ـ تنهّدت ـ كما قلتَ لم يلعب الشطرنج بعدها قط.

كان هدفنا أن نذهب مباشرةً إلى الدار. ومع ذلك وحين أصبحنا على بعد فرسخٍ منها توقّفت أمّي فجأةً وانعطفتْ قبل زاوية من البيت.

ـ أفضل لنا أن نذهب من هنا ـ قالت لي. وبما أنّني أردت أن أعرف لماذا، أجابتني: لأنّني خائفة.

وهكذا عرفتُ سبب غثياني: إنّه الخوف، ليس فقط من مواجهة أشباحي، بل من كلّ شيء. وبذلك تابعنا السيرَ في شارع موازٍ لنقوم بدورة مبررها الوحيد أن لا نمرّ بدارنا. قالت لي أمّي فيما بعد: «لم أكن لأجرؤ على رؤيتها قبل أن أتكلّم مع أحدٍ». وهكذا كان بأن حملتني بما يشبه الجرّ ودخلت دون سابق إنذار إلى صيدلية الدكتور

ألفرِدو باربوثا، وهي بيت يشكل زاوية على بعد أقلّ من مئة خطوة من بيتنا.

كانت أدريانا بِردوغو زوجة الدكتور، تخيط ساهية على آلة خياطة دومِتيك البدائية، بحيث أنّها لم تشعر بأمّي حين أصبحت أمامها، وقالت لها بما يشبه الهمس:

ـ صديقتي.

رفعت أدريانا نظرها الباهت من سماكة نظارة الرؤية البعيدة، خلعتها، تردّدت برهة ونهضت قافزة فاتحة ذراعيها ومطلقة أنّة:

ـ آه، يا صديقتي!

كانت أمّي قد أصبحت خلف طاولة العرض فتعانقتا دون أن تقولا شيئاً وشرعتا بالبكاء. مكثتُ أنظر إليهما من خارج طاولة العرض، لا أدري ماذا أفعل، مرتعداً من يقين أنّ ذلك العناق الطويل والبكاء الصامت شيء ينحفر لا محالة في حياتي للأبد.

كانت الصيدلية أفضلَ الصيدليات في عهد شركة الموز، لكنه لم يبقَ من مجموعِ آنيتها في الخزائن الملساء إلاّ بعض القوارير الخزفية التي عُلّمت بأحرفٍ ذهبية. آلة الخياطة، granatario، شعار الصيدلة، ساعة الرقاص التي ما تزال تعمل، لوحة قَسَم أبقراط، الكراسي الهزّازة المخلّعة، كلّ الأشياء التي رأيتها في طفولَتي كانت ما تزال ذاتها وفي مكانها، لكنّها تغيّرت بفعل عوامل الزمن.

أدريانا نفسها كانت ضحيةً. رغم أنّها ترتدي كما في السابق فستاناً بأزهار استوائية كبيرة، لا يكاد يُلحظ عليها شيء من الحيوية والشيطنة اللتين اشتهرت بهما حتى سنّ متقدّمة. الشيء الوحيد الذي بقي على حاله من حولها هو رائحة حشيشة القطّ، التي تُجَنِّنُ القطط، والتي بقيت أستحضرها بإحساس بالغرق بقيّة حياتي.

حين نفدت دموع أدريانا وأميّ، سمع سعال كثيف وقصير خلف الحاجز الخشبيّ الذي كان يفصلنا عن خلفية الحانوت. استعادت أدريانا شيئاً من ملاحة أيّام زمان وتكلّمت كي تُسمَعَ من خلف الحاجز:

ـ يا دكتور ـ قالت ـ احزر من هنا.

سأل صوتُ رجلٍ قاسٍ مُحَبحَب دون اهتمام من الجانب الآخر:

ـ من؟

لم تُجب أدريانا، بل أشارت إلينا أن ندخل إلى خلفية الحانوت. رعب طفولةٍ شلّني في أرضي وامتلأ فمي بلعاب ضارب إلى الزرقة، لكنّني دخلتُ مع أمّي إلى المكان المختلط، الذي كان فيما مضى مختبراً صيدلانياً، وأُعِدَّ كمكان طارئ للنوم. كان الدكتور ألفرِدو باربوثا هناك عجوزاً أكثر من كلّ الرجال والحيوانات العجوزة على اليابسة وفي الماء، متمدّداً على ظهره في شبك نومه الأزليّ، دون حذاء، في بيجاما أسطورية من القطن الخام، تبدو أقرب إلى ثوب السجن. كان نظره عالقاً في السقف، لكنّه ما إن سمعنا ندخل حتى استدار برأسه وحدّق فينا بعينيه الشفافتين الصفراوين حتى تمكّن من معرفة أمّي.

ـ لويسا سانتياغو! ـ صاح.

جلس في شبك النوم متعباً مثل أثاث قديم، استعاد إنسانيته تماماً وسلّم علينا بشدَّةٍ سريعة من يده الملتهبة. لاحظ تأثري فقال لي: «منذ عام عندي حرارة دائمة». عندها غادر شبكَ النوم وجلس على السرير وقال لنا بنفس واحد:

ـ لا تستطيعان أن تتصوّرا ما عانت منه هذه البلدة.

كفت تلك الجملة، التي لخّصت حياة بكاملها، وحدها كي أراه ربّما كما كان دائماً: رجلاً متوحّداً وحزيناً. كان طويلاً، بشعر معدني طويل يقصّه كيفما اتفق وعينين صفراوين وكثيفتين هما أكثر ما خفتُ منه في طفولتي. كنّا في المساء حين نعودُ من المدرسة، نتسلّقُ نافذةَ غرفة نومه مشدودين بسحر الخوف. كان هناك يُهزهز نفسه بقوّة كي يخفّف الحر. كان لعبنا يقوم على التحديق به حتى ينتبه ويلتفت لينظر إلينا بسرعة بعينيه الملتهبتين.

رأيته لأوّل مرّة وأنا في الخامسة أو السادسة من عمري ذات صباح تسللت فيه مع رفاق مدرسة آخرين إلى فناء داره الداخلي

بقصد سرقة ثمار مانغا هائلة عن أشجارها. فجأة فُتح باب المرحاض الخشبيّ المبني في زاوية من الفناء وخرج وهو يربط سرواله القطني. رأيته كما لو كان شبحاً من العالم الآخر، بقميص مستشفى أبيض، شاحباً ناتئ العظام، فنظر إليّ بعينيه الصفراوين كعيني كلب جهنّمي نظرة أبديّة. هرب الآخرون عبر البوابات الصغيرة، بينما بقيت أنا وقد جمّدتني نظرته الثابتة. أمعن النظر في ثمار المانغا التي قطفتها توّاً من الشجرة ومدّ إليّ يدَه.

- هاتِها! - أمرني وأضاف، وهو يشملني بنظرته باحتقار كبير -: نشّال فناء.

ألقيت بالثمار عند قدميه وهربت مذعوراً.

كان شبحي الشخصي المخيف. إذا مشيت قمت بدورة كبيرة كيلا أمرّ ببيته. وإذا ما كنتُ مع رفاق كبار لا أكاد أجرؤ على النظر خلسةً إلى الصيدلية. كنت أرى أنّ أدريانا حُكِم عليها مؤبّداً بالالتصاق بآلة خياطتها خلف طاولة العرض وأراه هو عبر نافذة غرفة نومه يهزهز نفسه هزات كبيرة في شبك نومه فتوقفُ نظرته وحدها شعرَ رأسي.

كان قد وصل إلى البلدة في بداية القرن بين عدد لا يُحصى من الفنزويليين، الذين تمكنوا من الفرار عبر حدود لا غواخيرا من استبداد خوان بيثِنتِ غومِث الوحشي. كان الدكتور واحداً من أوائل من تجاذبتهم قوّتان متناقضان: وحشية بلده الاستبدادية، ووهم رخاء مزارع الموز في بلدنا. منذ أن وصل نال الثقة بعينه المشخِّصة - كما كان يُقال آنذاك - وبسماحة روحه. كان أكثر أصدقاء جدّيّ تردداً على بيتهما حيث المائدة مُحضّرة دائماً، فهم لا يعرفون من سيصل في القطار. كانت أمّي إشبينة ابنه البكر وعلّمه جدّي الطيران بأجنحته الأولى. ترعرعتُ بينهم، تماماً كما رحتُ أترعرع بين منفيّي الحرب الأهلية الأسبانية.

فجأةً تبدّدت آخر آثار الخوف الذي كان يُسبّبه لي ذلك المنبوذ المنسيّ وأنا أصغي، جالساً مع أمي بجانب سريره، إلى تفاصيل

المأساة التي محقت السكان. كان يملك من القدرة على الاستحضار ما يجعلُ كلّ ما يرويه يبدو مجسّداً بصرياً في الغرفة التي يغشاها الحر. كان أصلُ كلّ الفواجع بالطبع مجزرة العمال التي ارتكبتها قوى الأمن، لكنّ الشكّ كان ما يزال قائماً حول الحقيقة التاريخية: ثلاثة أم ثلاثة آلاف؟ ربّما لم يبلغوا هذا الرقم، قال، لكنّ كلّ واحد كان يزيدُ العدد حسب ألمه الخاص. الآن ولّت الشركة دون رجعة.

ـ لن يعود الأمريكيون الشماليون أبداً ـ استنتج.

الشيء الوحيد الصحيح هو أنّهم حملوا معهم كلَّ شيء: المال، نسائم كانون الأوّل، سكين الخبز، رعود قطارات الثالثة مساء، أريج الياسمين، الحبّ. لم يبق غير أشجار اللوز المغبرة، الشوارع الملتهبة، بيوت الخشب وسطوح التوتياء الصدئة بناسها الصموتين، الذين دمّرتهم الذكريات.

المرّة الأولى التي أمعن فيها الدكتور النظر إليّ في ذلك المساء حدثت حين رآني مندهشاً من الطقطقة التي تُسمع على سطح التوتياء مثل مطر متقطِّع: «إنّها طيور الزمّاج الملكية ـ قال لي ـ تقضي النهار بالسير على السطوح»، ثمّ أشار بسبابته الهزيلة إلى الباب المغلق واستنتج:

ـ الحالة تسوء ليلاً، لأنّنا نحسُّ بالموتى الذين يسيرون على هواهم في هذه الشوارع.

دعانا للغداء ولم يكن ثمّة مانع فموضوع البيت لا يحتاج إلاّ تسجيله رسمياً. المستأجرون هم أنفسهم المشترون والتفاصيل تمّ الاتفاق عليها برقياً. هل سيكون لدينا متسع من الوقت؟

ـ أكثر من اللازم ـ قالت أدريانا ـ الآن لا نعرف حتى متى يعود القطار.

وهكذا شاركناهم طعاماً كريّوياً(*)، لم يكن لبساطته علاقة

(*) Criolla أصل الكلمة برتغاليّ، وتُطلق على أبناء المهاجرين الأسبان، وخاصّة الأوروبيين والزنوج الذين لا ينحدرون من العبيد الذين حُملوا إلى أمريكا الجنوبية بشكل عام. وهي أيضاً صفة تُطلق على كلّ ما له علاقة بهم.

بالفقر، بل بنوعٍ من القناعة كان يُطبِّقُها وينصح بها ليس في الطعام وحسب في كلِّ مجالات الحياة. منذ أن ذقتُ الحساء انتابني شعور بأنّ عالماً كاملاً كان نائماً واستيقظ في ذاكرتي. مذاقات كانت لي في طفولتي وفقدتها منذ أن غادرت البلدة كانت تعود لتظهر على حالها مع كلّ ملعقة وتشدّ على قلبي.

شعرتُ منذ بداية الحديث أنّني أمام الدكتور وهو في العمر ذاته الذي كان له حين كنت أسخر منه من النافذة، بحيث أنّه أخافني حين توجّه إليَّ بالجدّية والودّ اللذين كلّم بهما أمّي. كنتُ في طفولتي وفي الحالات الصعبة أحاولُ أن أخفي ارتباكي بأن أطرف جفوني طرفاً سريعاً ومتواصلاً وما لبث أن عاد إليّ هذا الفعل الانعكاسي الخارج عن السيطرة، حين نظر إليّ الدكتور. عاد الحرّ ليصبح غير محتمل. بقيتُ على هامش الحديث برهةً، متسائلاً كيف أمكن لذلك العجوز اللطيف والمفعم بالحنين أن يُشّكل رعبَ طفولتي. فجأةً وبعد وقفة طويلةٍ وبإشارة غير ذات معنى نظرَ إليّ بابتسامةٍ جَدٍّ وقال:

ـ إذاً أنت غابي العظيم. ماذا تدرس؟

داريتُ ارتباكي معدّداً دراساتي بطريقة حلزونية: أنهيت الثانوية، بتقدير جيّد في مدرسة داخلية رسمية، مضى على دراستي الفوضوية للحقوق سنتان وعدّة أشهر، أمارس الصحافة التجريبية. أصغت إليّ أمّي وبحثت على الفور عن مساندة من الدكتور.

ـ تصوّر، أيّها الصديق ـ قالت ـ يريدُ أن يُصبِح كاتباً.

برقت عينا الدكتور في وجهه.

ـ ياللروعة، يا صديقتي! ـ قال ـ إنّها هديّة من السماء ـ ثمَّ التفت إليّ ـ: شعر؟

ـ رواية وقصص قصيرة ـ قلتُ له مذعوراً.

تحمّس:

ـ هل قرأت دونيا باربارا؟

ـ طبعاً ـ أجبته ـ وبقية أعمال رومولو غاليغوس كلّها تقريباً.

حكى لنا كما لو أنّ حماساً مباغتاً قد بعث فيه روح الحياة أنّه تعرّف عليه في محاضرة قدّمها في ماراكايبو وبدا له مؤلِّفاً يستحق كتبَهُ. الحقيقة أنّني في تلك اللحظة وقد بلغت حرارتي أربعين درجة بسبب أساطير الميسيسيبي، بدأت أرى نسيجَ الرواية الأصلية. لكنّ التواصل السهل والحميم جدّاً مع الرجل الذي شكّل رعب طفولتي بدا لي معجزة ففضّلت أن أساير حماسه. حدّثته عن «الزرافة» ـ زاويتي اليومية في صحيفة «إلْ هِرالدو» ـ وأخبرته مسبقاً أنّنا نفكّر بإصدارِ مجلّة نعقد عليها آمالاً كبيرة. ثمّ حكيتُ له وقد ازدادتْ ثقتي بنفسي عن المشروع بل كشفتُ له عن اسمها: كرونيكا.

تفحّصني من فوق إلى تحت.

ـ لا أدري كيف تكتب ـ قال لي ـ لكنّك تتكلّمُ مثل كاتب.

سارعت أمّي لتوضح الحقيقة: ما من أحد يعارض أن أصبح كاتباً، ما دمتُ أدرس دراسات أكاديمية تمنحني أرضاً صلبة. قلّل الدكتور من أهميّة كلّ شيء وتحدّث عن مهنة الكاتب. هو أيضاً ودَّ لو يُصبِح كاتباً، لكنّ والديه وبحجج والدتي ذاتها أجبراه على دراسة الطب حين لم يستطيعا أن يجعلاه يصبح عسكرياً.

ـ انظري، يا صديقتي ـ استنتج ـ أنا طبيب، وها أنت ترين أنّني لا أعلم كم من مرضاي مات بإرادة الله وكم منهم مات من أدويتي.

شعرت أميّ بالضياع.

ـ أسوأ ما في الأمر ـ قالت ـ أنّه ترك دراسة الحقوق، بعد كلّ التضحيات التي بذلناها من أجله.

بدا ذلك للدكتور، على عكس أمّي، برهاناً رائعاً على إلهام جارف: القوّة الوحيدة القادرة على أن تنافس الحبّ على امتيازاته؛ بخاصّة الإلهام الفنّي، أكثر الإلهامات غموضاً، الذي يُكرّس له المرءُ حياته كاملةً دون أن يُنتظر منه شيئاً.

ـ إنّه شيء يأتي مع الإنسان في داخله منذ أن يولد ومعاكسته

هي أسوأ شيء على الصحّة ـ قال. وختمها بابتسامة ساحرة من ماسونيّ أبديّ: ليكن كذلك إلهام الراهب.

ذُهلت من الطريقة التي وضّح بها ما لم أتمكن من توضيحه قط. يبدوٍ أنّ أمي شاطرته ذلك لأنّها تأمّلتني بصمتٍ بطيء واستسلمت لحظها.

ـ ما هي أفضل طريقة لقول كلّ هذا لأبيك؟ ـ سألتني.

ـ التي سمعناها الآن ـ قلتُ لها.

ـ لا، هذا لن يعطي نتيجة ـ قالت، وختمت بعد تأمل آخر: لكن لا تهتمّ، سأجد طريقة جيّدة لأقوله له.

لا أدري ما إذا فعلت ذلك بهذه الطريقة أم بطريقة أخرى، لكنّ النقاش انتهى عند هذا الحد. دقّت الساعة دقّتين مثل قطرتين من بلور. جفلت أمّي. «يا إلهي ـ قالت ـ لقد نسيت ما جئنا لأجله.» ثمّ نهضت:

ـ علينا أن نذهب.

لم يكن للبيت على الرصيف المقابل من النظرة الأولى علاقة تقريباً بذكراي عنه كما لم تكن له أيّة علاقة بحنيني. كانت شجرتا اللوز الحاميتان للدار، اللتان شكّلتا علامة فارقة قد قُطعتا من جذورهما والبيت صار في مهب الريح. ما بقي تحت الشمس النارية لا يتجاوز الثلاثين متراً من الواجهة: نصف المواد وسطح القرميد يُذكرُ ببيت دمى والنصف الآخر كان من ألواح الخشب غير المصقول. قرعت أمّي الباب المغلق ببطء شديد، ثمّ بقوّة أكبر وسألت عبر النافذة.

ـ أما من أحد؟

شُقّ البابُ ببطء شديد وسألت امرأة من شبه الظل:

ـ ماذا تريدين؟

ردّت أمّي بتسلّط ربّما غير واعٍ:

ـ أنا لويسا ماركيز.

عندئذٍ فُتِحَ الباب الخارجيّ ونظرت إلينا امرأة شاحبة ناتئة العظام ترتدي ثياب الحداد، من عالم آخر. في عمق القاعة رجل طاعنٌ في السن يهزهز في كرسيّ مُقْعَدٍ. إنّهما المستأجران اللذان قرّرا بعد سنوات كثيرة أن يشتريا البيت، لكن لا مظهرهما يدلّ على أنّهما مشتريان ولا البيت في وضع يهمّ أحداً. حسب البرقية التي تلقّتها أمّي كان المستأجران على استعداد لأنّ يُسدّدا نصف الثمن نقداً بإيصال توقّعه هي ويدفعان الباقي حين يتمّ التوقيع على السندات خلال العام، لكنّ أحداً لم يكن يتذكّر أنَّ هناك زيارة متفقاً عليها. الشيء الوحيد الذي توضّح بعد حديث طرشان طويل هو أنّه لم يكن هناك أيّ اتفاق.

ألقت أمّي، التي كانت تتصبّب عرقاً وأثارت حفيظتها البلادة والحرّ اللئيم، نظرةً حولها وأفلت منها مع التنهيدة:

- هذا البيت البائس يلفظ آخر أنفاسه.

- بل أسوأ - قال الرجلُ - إذا لم يكن قد سقط فوقنا فبسبب ما أنفقناه للحفاظ عليه.

كان معهما قائمة بالإصلاحات المتبقية، إضافة إلى أخرى اقتطعت من الأجرة، إلى حدّ أنّنا كنّا نحن المدينين لهما. أمّي التي كانت دائماً سهلة الدمع كانت أيضاً قادرة على أن تُظهر تماسكاً مخيفاً لمواجهة مكائد الحياة. ناقشتهما جيّداً، لكنني لم أتدخّل، لأنّني أدركتُ منذ العقبةِ الأوّل أنّ الحقَّ مع المشتريين. لا شيء واضح في البرقية حول التاريخ وطريقة البيع بينما يُفهم منها أنه شيء يجب الاتفاق عليه. كانت وضعاً تقليدياً في نزعة الأسرة التخمينية. كان باستطاعتي أن أتصوّر كيف تمّ القرار على مائدة الغداء، لحظة وصول البرقية. كانوا عشرة أخوة، دون أن أحسب نفسي ولهم الحقوق ذاتها. أخيراً جمعت أمّي عدّة بيزوات من هنا وأخرى من هناك، ووضّبت حقيبتها المدرسية، وذهبت دون أيّة إمكانيات أخرى غير بطاقة العودة.

راجعت أمّي مع المستأجرة كلّ شيءٍ منذ البداية، وفي أقلّ من

نصف ساعة توصّلنا إلى نتيجة مفادها أنّه ليس هناك من نتيجة. لأسباب لا مخرج منها، منها أنّنا لم نذكر أنّ العقار تحت رهن رسمي لم يُحل إلاّ بعد سنوات كثيرة حين بيعَ بيعاً حقيقياً. وهكذا حين حاولت المستأجرة أن تكرّر الحجّة ذاتها مرّة أخرى، قاطعتها أمّي بإرادتها الجازمة وبالتي هي أحسن.

ـ لن نبيعٍ البيت ـ قالت ـ فلنأخذ بالاعتبار أنّنا هنا ولدنا وهنا سنموت جميعاً.

قضينا بقية المساء نلملم حنيناً في بيت الأشباح بانتظار أن يصل قطار العودة. كان كلّه لنا، لكن القسم المؤجّر المطلّ على الشارع، حيث مكاتب جدّي، كان الوحيد المستخدم. ما تبقى كان قشرة من جدران متآكلة وسقوف توتياء صدئة تحت رحمة العظاءات. أطلقت أمّي المتجمّدة في العتبة صيحة حاسمة:

ـ ليس هذا هو البيت!

لكنّها لم تقل أيّ بيت، فهم كانوا يصفونه وعلى امتداد طفولتي بطرق هي من الكثرة بحيث أنّها كانت ثلاثة بيوت تبدّل شكلها واتجاهها بحسب راويها. كان البيتُ الأصلي حسب ما سمعته من جدّتي بطريقتها في الوصف كوخَ هنود حمر. أمّا الثاني الذي بناه جدّيَ فكانت جدرانه من القصب وسقوفه من سعف النخيل المرّ، وفيه صالة واسعة وحسنة الإضاءة وغرفة طعام على شكل شرفة فيها أزهار زاهية الألوان، وغرفتا نوم وفناء فيه شجرة كستناء عملاقة، وبستان مزروع بشكلٍ جيّد وزريبة تعيش فيها الجديان مسالمة معٍ الخنازير والدجاج. تحوّل هذا البيتُ، حسب الرواية الأكثر شيوعاً، إلى رماد بفعل سهم ناريّ سقط على سطح سعف النخيل خلال أحد احتفالات عيد الاستقّلال في العشرين من تموز، والذي لا أحد يدري في أيّ عام من أعوام الحروب الكثيرة حدث. الشيء الوحيد الذي بقي منه هو الأرضية الإسمنتية وغرفتين بباب على الشارع، هما مكاتب بَابّالِلو في المرات الكثيرة التي عمل فيها موظّفاً عمومياً.

فوق الأنقاض التي كانت ما تزال ساخنة بنت الأسرة مأواها

النهائي. دار طولية من ثمانية غرف متتالية، على امتداد ممرٍّ فيه درابزين من البيغونيا حيث تجلس نساء الأسرة ليطرزن على الطارة ويتسامرن في رطوبة المساء. كانت الغرف بسيطة ومتشابهة، لكن كفتني نظرة واحدة لأنتبه إلى أنّ في كلّ تفصيلٍ من تفاصيلها لحظة مفصلية من حياتي.

كانت الغرفة الأولى تُستَخدَمُ كقاعة زيارة ومكتب شخصيّ لجدّي. كان عنده مكتب من ستائر وكرسي دوّار بنوابض، مروحة كهربائية ورف كتب فارغ فيه كتاب واحد ضخم ومفكّك: قاموس اللغة ويليه مباشرة مشغل الفضّة الذي يقضي فيه جدي أفضل ساعاته في صناعة أسماكه الذهبيّة الصغيرة بجسم مفصل وعيون صغيرة من الزمرد، والتي كانت تمتِعُهُ أكثر مما تُطعمه. هناك استُقبِلت بعض الشخصيات المهمة، وخاصة السياسية، وبينهم موظّفون مفصولون من عملهم، ورجالات حرب. بينهم وفي مناسبات مختلفة زائران تاريخيان: الجنرالان رافائيل أوريبِ أوريبِ وبِنخامين هِرِّرا، اللذان تناولا طعام الغداء مع الأسرة. ومع ذلك فإنّ ما ذكره عن أوريبِ أوريبِ بقيّة حياته هي قناعته على المائدة: «كان يأكل مثل عصفور صغير».

كان المكان المشترك بين المكتب ودكان الفضيات محظوراً على النساء، بفعل ثقافتنا الكاريبية وكذلك حانات البلدة بفعل القانون. ومع ذلك انتهى مع الزمن ليتحوّل إلى غرفة مستشفى، حيث توفِّيت الخالة بِترا وتحمّلت الشهور الأخيرة من مرضها الطويل وينفريدا ماركيز، أخت بَابّالِلو. هناك كانت تبدأ جنّة النساء الكثيرات المقيمات والعابرات، اللواتي مررن بالبيت في طفولتي. كنتُ الذكر الوحيد الذي تمتّع بميّزات العالمين.

كانت غرفة الطعام لاتكاد تشكل جزءاً من ممر وُسِّع بضم الشرفة إليه، حيث تجلس النسوة للخياطة وتوجدُ مائدة لستّة عشر شخصاً متوقّعين أو غير متوقّعين يصلون يوميّاً في قطار الظهيرة. تأمّلت أمّي من هناك أصص البيغونيا المبهجة، الجذامات المتعفّنة، وجذع الياسمينة الذي نخره النمل واستعاد أنفاسه.

ـ أحياناً كنّا لا نستطيع التنفس من رائحة الياسمين الدافئة ـ قالت وهي تنظر إلى السماء المبهرة، وتنهّدت من كلِّ روحها ـ ومع ذلك فإنّ أكثر ما احتجتُ إليه منذ ذلك الوقت هو رعد الساعة الثالثة.

أدهشتني لأنّني أنا أيضاً كنتُ أتذكّر الانفجار الوحيد الذي كان يُوقظنا من قيلولتنا مثل وابل من حجارة، لكنّني لم أعِ قطّ أنّه كان يحدث في الساعة الثالثة فقط.

كان هناك بعد الممر قاعة استقبالٍ محجوزة للمناسبات الخاصّة، فالزيارات اليومية تتمّ في المكتب إذا كانوا رجالاً وتُقدّم فيها البيرة المثلجة، وفي ممر البيغونيا إذا كنّ نساءً. هناك كان يبدأ عالم غرف النوم الأسطوريّ. أولاً غرفة الجدّين ببابها الكبير المؤدي إلى الحديقة ولوحة خشبية حفر عليها تاريخ البناء: 1925، وهناك دون أيّ إعلان زفّت لي أمّي المفاجأة الأقل توقّعاً بنبرة انتصارية:

ـ وهنا وُلِدتَ أنت!

لم أعرف ذلك حتى تلك اللحظة أو أنّني نسيت، لكنّنا في الغرفة التالية وجدنا المهد الذي نمتُ فيه حتى سنّ الرابعة، واحتفظت به جدّتي دائماً. كنت قد نسيته، لكن ما إن رأيته حتى تذكّرت نفسي وأنا أبكي بصوت عالٍ في جلباب النوم بأزهاره الصغيرة الزرقاء الذي كنتُ قد دشّنته توّاً، كي يهرع أحد وينزع عني القماطات المتسخة بالخراء. بالكاد كنتُ أستطيع أن انتصب على قدميَّ مستنداً إلى حاجز المهد، الصغير والهشّ مثل سلّة موسى. كان هذا سبباً لنقاشاتِ وسخرياتِ الأقاربِ والأصدقاء، الذين بدا لهم ضيقي في ذلك اليوم عقلانياً أكثر من اللازم بالنسبة لذلك العمر المبكر. خاصّة حين أصررت على أنّ سبب ضيقي لم يكن القرف من أشيائي البائسة، بل الخوف من أن يتسخ جلبابي الجديد. أيّ أنّ الأمر لم يكن يتعلّق بهوس بالنظافة، بل بعائق جمالي، وجعلتني الطريقة التي استمرّت فيها في ذاكرتي أظنّ أنّها كانت أوّل معايشة لي ككاتب.

كان في تلك الغرفة مذبح أيضاً فيه قديسون بالحجم الإنساني،

أكثر واقعية وضبابية من القديسين الموجودين في الكنيسة. هناك نامت دائماً الخالة فرانسيسكا سيمودوسيا مِخيّا، ابنة عمّ جدّي التي كنّا نناديها الخالة ماما، التي عاشت في البيت كمالكة وسيّدة منذ توفّي والداها. أنا كنتُ أنام في شبك النوم المجاور مذعوراً من ارتعاش القديسين تحت مصباح القربان المقدّس الذي لم يُطفأ حتى مات الجميع، وكذلك نامت أمّي في عزوبتها هناك مذعورة من رهبة القديسين.

في عمق الممر كان هناك غرفتان محظورتان عليّ. تعيش في الأولى ابنة خالي إميليا ماركيز، ابنة خالي خوان دِ ديوس، قبل زواجها، والتي ربّاها جداي. وبالإضافة إلى استعدادها الطبيعي منذ الطفولة كانت لها شخصية قوية فتحت لي شهيّتي الأولى على الأدب من خلال مجموعة رائعة من قصص كالييخا، الموضّحة بالصور الملونة بكلّ الألوان، التي لم تفتح لي المجال إليها قط خوفاً من أن أخرّب ترتيبها. كانت تلك هي أولى خيباتي ككاتب وأكثرها مرارة.

كانت الغرفة الأخيرة مستودعاً للأثاث والصناديق المستهلكة، التي أبقت فضولي يقظاً لسنوات، لكنّهم لم يسمحوا لي قط بسبرها. علمت فيما بعد أن المباول السبعين التي اشتراها جدّاي حين دعت أمّي رفيقاتها في الصفّ لقضاء العطلة في البيت كانت هناك.

أمام هاتين الحجرتين وفي الممر ذاته كان المطبخ الكبير، بمواقده الحجرية البدائية المتكلسة وفرن جدّتي الكبير، الخبّازة وصانعة الحلوى، والتي كانت حلوى حيواناتها الصغيرة تملأ الفجر برائحتها المغذية. كان مملكة النساء اللواتي يعشن أو يخدمن في البيت ويُغنين في جوقة مع الجدّة، يساعدنها في أعمالها المتعدِّدة. صوت آخر هو صوت لورِنثو إل المغنيفيكو(*)، ببغاء ابن المئة عام الموروث عن أباء أجدادي الذي كان يصيح مردِّداً شعارات ضدَّ أسبانيا ويغني أغاني حرب الاستقلال. وقد أصبح من العمى بحيث

(*) لورِنثو الرائع.

أنّه سقط في قدر السانكوتشو(*) وأنقِذ بأعجوبة، لأنّ الماء لم يكد يسخن بعد. وفي العشرين من تموز من أحد الأعوام وفي الثالثة مساء ملأ البيت بزعيقه المرعب.

ـ الثور، الثور! لقد جاء الثور!

لم يكن في الدار غير النسوة، فالرجال كانوا قد ذهبوا إلى مضمار العيد الوطني، فحسبن أنَّ زعيق الببغاء لم يكن إلا هذياناً من هذيانات خرف الشيخوخة. نساء البيت اللواتي كنّ يعرفن الكلام معه لم يفهمن مغزى صراخه إلا بعد أن اقتحم ثورٌ شاردٌ، هاربٌ من زرائب ميدان مصارعة الثيران، المطبخَ بِجؤار باخرة ناطحاً على غير هدى الأثاث والمخبز والقدور على المواقد. كنت أمضي بعكس اتجاه عاصفة النساء المذعورات اللواتي رفعنني بقلق وحبسنني معهنّ في غرفة المؤونة. هزّ جُؤَار الثور التائه في المطبخ ووقع أظلافه على أرض الممر البيت. أطلّ فجأة من كوّة التهوية فجمّد نخير نَفَسِه الناريّ وعيناه الكبيرتان الجاحظتان دمي. حين تمّكن الرمَّاحون من حمله إلى الزريبة كانت قد بدأت في البيت أفراح الخروج من المأساة، التي استمرَّت لأكثر من أسبوع مع قدور لا نهاية لها من القهوة وحلوى الأعراس لمرافقة القصة المكرّرة ألف مرّة من الناجيات المذعورات ببطولة كانت في كلّ مرّة أكبر.

لم يكن الفناء يبدو كبيراً جدّاً، لكنّ فيه تنويعة من الأشجار وحماماً عامّاً غير مسقوف فيه بركة من الإسمنت لجمع مياه المطر ومنصة مرتفعة كان يُصعَد إليها على درجٍ هشٍّ ارتفاعه ثلاثة أمتار تقريباً. هناك كان برميلان يملؤهما الجدُّ في الفجر بمضخّة يدوية. وفيما وراء هذا كان إسطبل الخيول المبني من الخشب غير المصقول وغرف الخدمة، وأخيراً الفناء الخلفي بأشجار فاكهته الضخمة ومرحاضه الوحيد الذي كانت الهنديات الحمراوات يفرغن فيه مباول البيت ليلاً ونهاراً. الشجرة الأكثر وريفاً وسخاءً كانت شجرة كستناء على حافّة العالم والزمن، تحت ظلالها الوارفة

(*) طبق أمريكيّ، مصنوع من اللحم وإبرة آدم والموز ومكوِّناتٍ أخرى.

القديمة يبدو أنّه مات أكثر من عقيدين متقاعدين من عقداء حروب القرن المنصرم الأهلية الكثيرة.

كانت الأسرة قد وصلت إلى أراكاتاكا قبل ولادتي بسبعة عشر عاماً حين بدأت خدع يونايتد فروت كومباني لاحتكار الموز. حملا معهما ابنهما خوان دِ ديوث، وكان في الحادية والعشرين من عمره وابنتيهما مرغريتا ماريّا مينياتا دِ ألاكوكِ في التاسعة عشر من عمرها ولويسا سانتياغا، أميّ ابنة في الخامسة. وكانا قد فقدا قبلهما توأمين من الإناث في إجهاض طارئ بعد أربعة أشهر من بدء الحمل. حين جاءت أمي أعلنت الجدّة أنّها ستكون آخر ولادة لها، فقد أتمّت الثانية والأربعين من عمرها. بعد نصف قرن تقريباً وفي العمر ذاته، وفي ظروف مماثلة، قالت أمّي الشيء ذاته حين وُلِد إليخيو غابرييل، ابنها الحادي عشر.

الانتقال إلى أراكاتاكا كان مقدّراً من قِبل الجدّين كرحلة إلى النسيان. حملا معهما هنديّين غوخيروويين يخدمانهما - أليريو وأبّولينار - وهندية - مم - اشترياهم في بلدهما الأصلي كلّ واحدٍ بمئة بيزو في الوقت الذيَ كان قد أُلغي فيه الرِّقُّ. حمل الكولونيل معه كلّ ما هو ضروريّ لإعادة صياغة ماضٍ أبعد ما يكون عن ذكرياته السيّئة، يلاحقه الندم المشؤوم على قتله لرجل في حادث شرف. كان يعرف المنطقة قبل ذلك بكثير حين مرّ في طريقه إلى ثييناغا في حملة حربية، وحضر بصفته مدير تموين عامّ توقيع مَعاهدة نيرلانديا.

لم تُعد الدارُ الجديدة لهم السكينةَ، لأنّ الندم كان وبيلاً حيث أنّه لوّث بعدواه أحدَ أحفاد أحفاده الفاسقين. أكثر الذكريات تكراراً وحضوراً التي شكّلنا منها رواية منظمة، قدّمتها الجدّة مينا، التي كانت قد عميت وأصبحت نصف مجنونة. ومع ذلك وفي غمرة لغطِ المأساة القاسية والجلية كانت الوحيدة التي لم تعلم بالمبارزة إلا بعد حدوثها.

وقعت المأساة في بارّانكيا، البلدة المسالمة والمزدهرة، الواقعة في تفرعات جبال سييرّا نِيفادا حيث تعلّم الكولونيل من أبيه

وجدّه مهنة صياغة الذهب، وحيث عاد كي يستقرَّ بعد توقيع معاهدات السلام. كان الخصمُ عملاقاً أصغر منه بستّة عشر عاماً، وليبرالياً قويّ العظم، مثله، ومجاهداً كاثوليكياً، ومزارعاً فقيراً، حديث الزواج وله ولدان واسم رجل طيّب: مِدرادو بّاتشِكو. أكثر ما أحزن الكولونيل هو أنّ خصمه لم يكن أيّاً من أعدائه العديدين الخفيين الذين مرّوا به في ميدان المعركة، بل صديقاً قديماً من أنصار حزبه، وجندياً من جنوده في حرب الألف يوم، وعليه أن يواجهه حتى الموت في الوقت الذي اعتقدا فيه أنّهما كسبا السلام.

كانت أولى حالات الحياة الحقيقية التي أثارت غرائزي ككاتب ولم أستطع حتى الآن تفاديها. منذ أن وعيت استخدام العقل انتبهت إلى هول وثقل تلك المأساة في دارنا، لكنّ تفاصيلها بقيت ملفوفة بالضباب. أمّي، التي لم تكد تكمل الثالثة عشر من عمرها، تَذَكَّرَتْها دائماً كحلم غير محتمل. الكبار خلطوها أمامي كي يشوّشوني ولم أستطع قط أن أركبّ اللغز كاملاً، لأنّ كلّ واحد من الطرفين، كان يرتّب القطع على طريقته. الرواية الأكثر ثقة هي أنّ أمّ مِدرادو بّاتشِكو كانت قد حثّته على الانتقام لشرفها المهان بتعليق حقير عزوه إلى جدّي. كذّبه جدّي كافتراء وراضى المهانين علناً، لكنّ مِدرادو بّاتشِكو أصرّ على ضغينته، وانتهى إلى أن انتقل من مهان إلى مهين مرفقاً ذلك بمسبّة خطيرة لجدّي تناولت سلوكه الليبرالي. لم أعلم قط علم اليقين ما هي؟ جدّي المطعون في شرفه تحدّاه حتى الموت دون تاريخ محدّد.

كان الزمن الذي تركه يمرُّ بين التحدّي والمبارزة برهاناً مثالياً عن طبيعة الكولونيل. رتّب المسائل بكتمانٍ مطلق كي يضمن أمن أسرته بالخيار الوحيد الذي حباه له القدر: الموت أو السجن. بدأ ببيع، دون أدنى سرعة، القليلَ الذي تبقّى له للعيش بعد الحرب الأخيرة: ورشة الصياغة ومزرعة صغيرة ورثها عن أبيه، كان يُربي فيها الجديان للذبح ويزرع قطعة منها قصبَ سكّر. خبّأ بعد ستّة أشهر الأموال المجمّعة في عمق خزانة، وانتظر بصمتٍ اليومَ الذي كان قد حدّده بنفسه: الثاني عشر من تشرين الأوّل من العام 1908، ذكرى اكتشاف أمريكا.

كان مِدرادو بّاتشِكو يعيش في ضواحي البلدة، لكنّ جدي يعرف أنّه لا يستطيع أن يغيب في ذلك اليومِ عن موكب لا بيرخِن دِل البلار. كتب قبل أن يخرج للبحث عنه رسالةً قصيرة ورقيقة، يقول لامرأته فيها أين يُخبّئ النقود وأعطاها بعض التعليمات الأخيرة حول مستقبل الأولاد. تركها تحت الوسادة المشتركة حيث ستعثر عليها زوجته دون شكّ حين ستستلقي لتنام، وخرج دون أيّ وداع للقاء ساعته المشؤومة.

حتى أقل الروايات قبولاً تلتقي على أنّه كان يومَ اثنينِ معهودٍ من تشرين الأوّل الكاريبيّ، مطر حزين من غيوم منخفضة وريح جنائزية. كان مِدرادو بّاتشِكو الذي ارتدى ثيابَ الأحد قد دخل توّاً في زقاق مغلق حين قطع عليه الكولونيل ماركيز الطريق. كلاهما كان مسلّحاً. اعتادت جدّتي أن تقول بعد سنوات وفي هذياناتها الجنونية: «لقد منح الله نيكولاسيتو الفرصةَ كي يعفو عن حياة ذلك الرجل المسكين، لكنّه لم يعرف كيف يستفيد من ذلك». ربّما كانت تفكّر هكذا لأنّ الكولونيل قال لها إنّه رأى بريقَ أسىً في عيني الخصم الذي أُخِذَ على حين غرّة. أيضاً قال لها أنّه حين هوى بجسده الهائل كشجرة ثيبا فوق الدغل أطلق أنيناً دون كلمات.، «مثل قطّ مبلَّل». النقل الشفوي عزا لبّابالِلو جملةً بليغةً قالها لحظةَ سلّم نفسه للعمدة: «لقد انتصرت رصاصة الشرف على رصاصة القوّة». إنّها جملة وفيّة لأسلوب العصر الليبرالي، لكنّني لم أستطع أن أُوَفِّقَ بينها وبين إرادة جدّي. الحقيقة أنّه لم يكن هناك شهود. رواية معتمَدة كان من الممكن أن تكون رواية شهود قضائيين لجدّي ومعاصري الفريقين، لكنّ لم يبق من التقرير، هذا إنْ وُجِد، أيّ شيء. لم أجد من بين الروايات العديدة التي سمعتها اثنتين تتطابقان.

قَسمَ الحادث أسرَ البلدة بما فيها أسرة القتيل. قسم من هذه نوى على الانتقام، بينما آوى آخرون ترانكيلينا إغواران وولديها في بيوتهم إلى أن خفّت مخاطر الانتقام. أثّرَت بي هذه التفاصيلُ في طفولتي إلى حدّ أنّني لم أتحمّل فقط وزر الذنب القديم، كما لو كان

ذنبي، بل شعرتُ وأشعرُ حتى الآن وأنا أكتب ذلك بشفقة على أسرة القتيل أكثر مما على أسرتي.

نقلوا بّابّالِلو إلى ريوهاتشا لمزيد من الأمان، ثمّ إلى سانتا مارتا، حيث حكموا عليه بالسجن لمدّة عام: يقضي نصفها في الحبس ونصفها الآخر في نظام مفتوح(*). ما إن أطلق سراحه حتى سافر مع الأسرة إلى بلدة ثييناغا، ثمّ إلى بنما، حيث أنجب ابنة جديدة من حبٍّ عابر، وأخيراً إلى دائرة أراكاتاكا المشؤومة الجافّة بوظيفة محصّل ضرائب ماليةِ الناحية. لم يحمل بعدها سلاحاً في الشارع قط، ولا حتى في أسوأ أيّام عنف مرحلة الموز، لكنّه وضع المسدّسَ تحت الوسادة ليحمي الدار.

كانت أراكاتاكا أبعد أن تكون المكانَ الوديع الذي حلم به بعد كابوس مِدرادو بّاتشِكا. كانت قد نشأت ككفرٍ تشيميليّ(**) ودخلت التاريخ بحظّ عاثرٍ كناحية بعيدة بلا إله ولا قانون، تابعة لبلدية ثييناغا، وقد تردّت أكثر مما أثرت من حمّى الموز. اسمها ليس اسم بلدة بل اسم نهر، ونهر هو آرا في اللغة التشيميلية، وكاتاكا، التي هي الكلمة التي كان يُعرف بها في المنطقة من كان يحكم. لذلك لا نسميها نحن أبناء البلد أراكاتاكا بل كما يجب: كاتاكا.

حين حاول الجدّ أن يُشجِّع الأسرة بوهم أنّ النقود تجري هناك في الشوارع، قالت مينا: «المال خراء الشيطان». كانت بالنسبة إلى أمّي أرض الرعب كلّه. وأقدم رعب كانت تتذكّره هو وباء الجراد الذي أتى على الزرع وهي ما تزال صغيرة السنّ جدّاً. «كان يُسمع أثناء مروره كأنّه ريح من حجارة»، قالت لي حين ذهبنا لنبيع البيت. اضطُرَّ السكانُ المذعورون إلى أن يتخندقوا في غرفهم، ولم تتم هزيمة الآفة إلا بفنون السحر.

(*) بمعنى أنه يمكن أن يخرج في النهار ويعود لينام في السجن ليلاً.

(**) Chimila نسبة إلى قبيلة تعيش في حالة وحشية في غابات سييرّا نِيفادا في سانتا مارتا في جمهورية كولومبيا، يتغذى أعضاؤها على الصيد المتوفّر في تلك المنطقة. يعيشون في بطالة تامة دون أيّة صناعات أو زراعات.

في كلٍّ وقت كانت تباغتنا أعاصيرُ جافّة تقتلع سقوف المزارع وتأتي على الموز الجديد وتترك البلدة مغطاة بغبار نجمي. في الصيف كانت القطعانُ تعاني من قحطٍ رهيب، وفي الشتاء تسقط بعض الأمطار الكوكبية تحوّل الشوارع إلى أنهار مضطربة. كان المهندسون الغرينغويون يبحرون في زوارق من الفلين بين الفرش العائمة والأبقار الميتة. وكانت شركة يونايتد فروت كومباني، التي كانت أنظمة ريّها الصناعية مسؤولة عن فرط المياه، وحوّلت مجرى النهرِ، حين نبش، أخطر تلك الفيضانات، الجثث من المقبرة.

ومع ذلك فأسوأ تلك الجائحات إنّما كان الإنسان. قطارٌ كان يبدو لعبة رمى على رمالها شرذمة من المغامرين من كلّ أنحاء العالم سيطروا على الشوارع بقوّة السلاح. حمل ازدهارُها الصاعق معه نموّاً سكّانياً وفوضى اجتماعية خليعة. كانت على بعد خمسة فراسخ فقط من مستعمرة بوينس أيرِس الجنائية، على نهر فونُداثيون، التي كان سجناؤها يهربون في نهايات الأسبوع ليلعبوا لعبة الرعب في أراكاتاكا. أكثر ما كنّا نشبه هي القرى الطارئة في أفلام الغرب منذ أن بدأت أكواخ نخيل وقصب نجيل التشيميليين تُستَبْدَل ببيوت يونايتد فروت كومباني الخشبية بسقوف توتيائها المتموّجة، ونوافذ نسيجها الخشن وطنفها المزيّنة بالنباتات المتسلقة ذات الأزهار المتربة. وسط تلك العاصفة من الوجوه المجهولة والمظلات في الطريق العام، والرجال الذين يُبدّلون ثيابهم وسط الشارع، والنساء الجالسات على صناديق بمظلاتهن المفتوحة، والبغال ثم البغال ثمّ البغال التي تموت جوعاً في إسطبلات الفندق كان أوّل الواصلين آخرهم. كنا الغرباء أنفسهم دائماً،الدخلاء.

لم تكن مشاجرات أيّام السبت هي السبب الوحيد للمجازر. فقد سمعنا ذات مساء في الشارع صيحات، ورأينا رجلاً دون رأس يمرُّ ممتطياً حماراً. كان قد قُطع رأسه ضرباً بالمناجل في تصفية حسابات مزارع الموز وجرفت تيارات مياه الساقية المثلجة رأسَه.

في تلك الليلة سمعت من جدّتي التفسيرات ذاتها دائماً: «شيء بهذه الفظاعة لا يمكن أن يقوم به إلاّ غندور(*)».

والغنادرة هم أبناء الهضبة الأصليون، ولم نكن نميّزهم عن بقية البشرية بأخلاقهم الضعيفة وألفاظهم الرذيلة وحسب، بل بعصاباتهم كرسل للعناية الإلهية. وقد أصبحت صورهم مكروهة إلى حدّ أنّنا وبعد عمليات القمع الوحشية التي قام بها عسكر الداخل ضدّ إضرابات الموز، صرنا لا نسمّي رجال القوات جنوداً بل غنادرة. كنّا ننظر إليهم كمنتفعين وحيدين من السلطة السياسية وكان كثيرون منهم يتصرّفون كما لو أنهم كذلك. بهذه الطريقة فقط يمكن تفسير رعب «الليلة السوداء في أراكاتاكا»، المذبحة الأسطورية التي خلّفت أثراً غامضاً في الذاكرة الشعبية، ولا يوجد شيء واضح يؤكّد أنّها حدثت فعلاً.

بدأت في أسوأ يوم سبتٍ حين دخل أحد أبناء البلد الأصليين الميسورين، لم يدخل التاريخ اسمه، حانةٍ ليطلب كأساً من الماء لطفل كان يمسك بيده. غريب كان يشرب وحيداً على طاولة البار أراد أن يُجبر الطفل على أن يشرب جرعة روم بدلاً من الماء. حاول الأبُ أن يمنعه، لكنّ الغريب أصرّ على فعلته، إلى أن سفح الطفل المذعور الجرعة بضربة من يده دون قصد. قتله الغريب بطلقة وبدم بارد.

كان هذا شبحاً آخر من أشباح طفولتي. كثيراً ما ذكّرني به بابّالِلو حين كنّا ندخل معاً لنتناول بعض المرطبات في الحانات، لكن بطريقة كانت من البعد عن الواقع إلى حدّ أنّه هو نفسه لم يبدُ أنّه يُصدّقها. لا بدّ أنّه حدث بعد وصوله بقليل إلى أراكاتاكا، فأمّي لم تكن تتذكّره إلا من خلال الرعب الذي كان يُثيره في كبار أهلها.

لم يُعرف عن المعتدي سوى أنّه كان يتكلّم بنبرة الأنديزيين المتكلّفة. وهكذا فإنّ عمليات انتقام البلدة لم تقم ضدّه وحده، بل ضدّ الغرباء الكثيرين والمضجرين الذين كانوا يتكلّمون بنبرته ذاتها.

(*) Cachaco تحمل أكثر من معنى حسب البلد. لكنّ أبرز معانيها هو شرطيّ، عسكريّ، غندور، كما تعني أسبانياً. حسن الحال في بورتوريكو.

مجموعات من أبناء البلد الأصليين المسلحين بسكاكين بالمناجل تنزل إلى الشوارع في الظلام يمسكون بالشخص الذي يفاجئونه في الظلمة ويأمرونه:

ـ تكلّم!

كانوا من مجرّد طريقته بالكلام يقطّعونه ضرباً بالسكاكين دون أن يأخذوا بالحسبان استحالة أن يكونوا عادلين وسط طرق الكلام كثيرة التنوّع. وقد أوشك دون رافائيل كينتِرو أورتيغا، زوج خالتي ونيفريدا ماركيز، أكثر الغنادرة شراسة وأكثرهم حبّاً من الناس، أن يحتفل بعيد ميلاده المئة، فقط لأنّ جدّي حبسه في غرفة مؤونة حتى هدأت الخواطر.

بلغ شقاء الأسرة أوجَهُ بعد عشر سنوات من العيش في أراكاتاكا بموت مرغريتا ماريّا مينياتا، التي كانت نور الدار. بقيت صورتها الداغرية(*) معروضة في القاعة لسنواتٍ، وراح اسمها يتردّد من جيل إلى جيل كعلامة من علامات أخرى مميّزة لهوية الأسرة. لا يبدو أنّ الأجيال الحديثة متأثّرة بتلك الأميرة ذات التنورة المكشكشة والحذاء الأبيض والجديلة الطويلة التي تصل إلى خصرها، التي لا يمكن أن تجعلها تنطبق على الصورة المجازية لأم الجدّ، لكن لديّ انطباع بأنّه وتحت وطأة الندم والآمال الخائبة بعالم أفضل، كانت تلك الحالة من الاستنفار الدائم بالنسبة لجدّيّ أقرب ما تكون إلى السلام. فقد بقيا حتى وفاتهما يشعران بأنهما غريبان في كلّ مكان.

كانا كذلك، تماماً، لكنّه بات من الصعب التمييز الفوري بين حشود القطار التي جاءتنا من العالم. فقد وصل بالدافع ذاته، الذي جاء بجدّيَّ وقبيلتهما، آلُ فِرغوسّون، آل دوران، وآل بِراكاثا، داكونتِ، كورِّيا، بحثاً عن حياة أفضل. ومع التيارات المضطربة استمرّ الإيطاليون والكناريون والسوريون ـ الذين كنّا نناديهم

(*) صورة قديمة كانت تُظهَّر على ألواحٍ فضيّة. واسم هذه الطريقة بالتصوير نسبة إلى مكتشفها، الفنان الفرنسي لويس ـ جاك داغير (1787 ـ 1851).

أتراكاً ـ بالوصول متسلّلين عبر حدود بروبينثيا بحثاً عن الحرّية وطرقٍ أخرى للعيش مفقودة في بلادهم. كان هناك أناس من كلّ الألوان والظروف. جاء بعضهم من جزيرة إل ـ ديابلو ـ مستعمرة العقاب الفرنسية في غوايانا ـ ملاحقاً بسبب أفكاره أكثر مما بجرائم عامة. أحدهم هو رينيه بلِفِنوا، الصحفي الفرنسي المحكوم لأسباب سياسية، مرّ فارّاً بمنطقة الموز وكشف في كتاب رائع عن أهوال أسره. بفضلهم جميعاً ـ صالحين وطالحين ـ كانت أراكاتاكا منذ بداياتها بلداً بلا حدود.

لكنّ الجالية التي لا تُنسى بالنسبة إلينا إنّما هي الفنزويلية، التي كان يستحم في أحدِ بيوتها عند الفجر بالقادوس بدلاء من ماء البرك المثلجة طالبان مراهقان في إجازة: رومولو بِتانكور وراؤول ليوني، وسيصبحان بعد نصف قرن وعلى التوالي رئيسين لبلدهما. أمّا أقرب الفنزويليين إلينا فكانت السيِّدة خوانا دِ فرِيْتِسْ، وهي سيّدة أنيقة كانت تملك موهبة قصّ الكتاب المقدّس. أوّل قصّة رسمية عرفتها كانت «جِنوبِبا دِ باربانتِ» وقد سمعتها منها إلى جانب روائع الأعمال الأدبيَة العالمية، التي حوّلتها إلى قصص للأطفال: الأوديسا وأورلاندو الغاضب ودون كيخوتِ، وكونت مونت كريستو وفصول من الكتاب المقدّس.

كانت ذرّية جدّي من أكثر الذريّات احتراماً وأقلّها نفوذاً في آن معاً. ومع ذلك تميّزت باحترام مُعترف به حتى من قبل أباطرة شركة الموز المحليين. إنّه احترام رجالات الحرب الأهلية الليبراليين الذين بقوا هناك بعد المعاهدتين الأخيرتين، بنموذجه الجيّد الجنرال بنخامين هِرِّرا، الذي كانت تُسمع من مزرعته في أماسي نيرلانديا الفالسات الحزينة من بوق سلامه.

هناك في ذلك المكان المشؤوم دخلت أمّي سنَّ البلوغ، وشغلت فضاءات العشق كلها منذ أن حصدَ التيفوس مرغريتا ماريّا مينياتا. هي أيضاً كانت عليلة. فقد نشأت في طفولة قلقة من حمّيات الثلث(*)،

(*) نوع من الحمّى التي تنتج عن التعرض لحرارة خارجية شديدة، ويمكن أن تكون ضربة شمس، وتهيض كلّ ثلاثة أيّام.

لكنّها ما إن شفيت من آخرها حتى تعافت كلّياً وللأبد، وأصبحت تتمتع بصحّة سمحت لها بالاحتفال بسنواتها السبع والتسعين، ولها أحد عشر ولداً إضافة إلى أربعة آخرين من زوجها، وخمسة وستين حفيداً، وثمانية وثمانين ابن حفيد، وأربعة عشر ابن حفيد، حفيد. هذا دون أن نعد من لم يُعرَفوا قط. ماتت ميتة طبيعية يومٍ التاسع من حزيران من العام 2002 في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، حين كنّا نعدّ للاحتفال بمئويتها الأولى وفي اليوم ذاته، والساعة ذاتها تقريباً التي كنت أضع النقطة الأخيرة في هذه المذكرات.

كانت قد وُلِدت في بارّانكاس يوم الخامس والعشرين من تموز من عام 1905 حين بدأت الأسرة تتعافى من كارثة الحروب وقد أعطوها الاسم الأوّل على ذكرى لويسا مِخيا بيدال، أمّ الكولونيل، التي كان قد مضى شهر على وفاتها. والثاني جاءها بالحظّ لأنّها وُلِدت يوم الرسول سانتياغو، الأكبر، الذي قُطع رأسه في القدس. أخفت هي هذا الاسم خلال نصف عمرها إلى أن وشى بها ابن غير وفيّ في رواية له، لأنّه بدا لها مُذكراً وفخماً.

كانت تلميذة مجتهدة إلا في دروس البيانو، التي فرضتها عليها أمّها لأنّها لم تكن تتصوّر آنسة محترمة ليست عازفة بيانو بارعة. درست لويسا سانتياغا البيانو امتثالاً لأمّها مدّة ثلاث سنوات وهجرته ذات يوم سأماً من التمارين اليومية في قيظ القيلولة. ومع ذلك فإنّ الفضيلة الوحيدة التي أفادتها في زهرة سنواتها العشرين إنّما هي قوّة عريكتها، حين اكتشفت الأسرة أنّها هائمة حبّاً بعاملِ تلغراف أراكاتاكا الشاب والأنوف.

كانت قصّة هذه الغراميات الممنوعة إحدى أعاجيب شبابي. واكتملت تقريباً من كثرةِ ما سمعتُ أبويَ يرويانها، سويّة أو كلّ منهما على حدة، حين كتبتُ الأوراق المتساقِطة، روايتي الأولى في السابعة والعشرين من عمري، لكنّني كنتُ أعي أيضاً أنّه ما يزال أمامي الكثير مما عليّ تعلّمه عن فنّ القَصّ. كلاهما كان راويةً رائعاً ويتمتّعُ بذاكرة سعيدة عن الحبّ، لكنّهما وصلا إلى حدّ من الشغف بقصصهما حتى أنّني لم أستطع التمييز بين الواقع والشعر، حين

قرّرت استخدامها في الحب في أزمنة الكوليرا بعدَ أن تجاوزتُ الخمسين.

التقيا، حسب رواية أمّي، لأوّل مرّة في سهرة على طفل ميتٍ لم يستطع أيٌّ منهما أن يحدده لي. هي كانت تُغنّي في الفناء مع صديقاتها، حسب العادة الشعبية بالتغلُب على ليالي الأبرياء التسعِ بأغاني الحب. فجأة وإذا بصوت رجل ينضمّ إلى الجوقة. التفتنَ جميعاً وارتبكن أمام طلعته الجميلة. «سنتزوّج منه». فردَّدنها مغنيات إيّاها على إيقاع الأيدي. لم يُدهش أمّي، وعبّرت عن ذلك على الشكل التالي: « بدا لي غريباً من الغرباء الآخرين» وكان كذلك؛ فقد وصل توّاً من كارتاخِنا دِ لا إندياس(*) بعد أن قطع دراسة الطب والصيدلة لعدم توافر الإمكانيات، وبدأ حياة تافهة قليلاً في عددٍ من قرى المنطقة ممارساً مهنة عامل التلغراف الحديثة. تُظهره إحدى صور تلك الأيام بهيئة ملتبسة لشاب فقير، يرتدي ثوباً من التفتا داكنة اللون، وسترة بأربعة أزرار ضيّقةً جدّاً حسب موضة تلك الأيّام، وقبّة قاسية وربطة عنق عريضة وقبّعة قشٍّ. كما كان يضع نظارة دارجة، دائرية ناعمة الإطار وطبيعية العدستين. الذين عرفوه في تلك الأيام، رأوا فيه رجلاً بوهيمياً، يحبّ السهر والنساء، ومع ذلك فهو لم يشرب جرعة أو يدخّن سيجارة واحدة طوال حياته المديدة.

كانت المرّة الأولى التي رأته فيها أمّي ومع ذلك فهو قد رآها في قدّاس الساعة الثامنة من يوم الأحد السابق، تحرسها الخالة فرانسيسكا سيمودوسيا التي كانت قهرمانتها الملازمة منذ أن عادت من المدرسة. عاد لرؤيتهما يوم الثلاثاء التالي، كانتا تخيطان تحت أشجار اللوز عند باب الدار، وهذا يعني أنّه كان يعرف ليلة السهر على الطفل الميت أنّها ابنة الكولونيل نيكولاس ماركيز، الذي كان يحمل منه عدّة بطاقات تعريف. هي عرفت أيضاً أنّه كان عازباً وعاشقاً هائماً ويتمتع بنجاح كبير، نظراً لطلاقة لسانه، وشاعريته

(*) Cartagena قرطاجنة.

السهلة، والدعة التي يرقص بها على إيقاع الموسيقى العاطفية الدارجة المدروسة التي يعزفها على الكمان. كانت أمي تحكي لي أنّ من يسمعه في الفجر لا يستطيع أن يُقاوم الرغبة بالبكاء. بطاقة تعريفه في المجتمع كانت: «حين انتهى الرقص». وهي فالس رومانسيةٍ مضنية حملها معه ضمن لائحة الأعمال الموسيقية وصارت لحناً لا غنى عنه في الحفلات الليلية. فتحت له جوازات المرور الحميمة هذه، إضافة إلى ملاحته الشخصية، أبوابَ الدار ومنحته مكاناً على مائدة غداء الأسرة. تبنّته الخالة فرانسيسكا، المنتمية إلى أخوية كارمن دِ بوليفار، دون تحفّظ حين علمت أنّه وُلِد في سينثٍ، البلدة القريبة من بلدتها. كانت لويسا سانتياغا تسرُّ في الحفلات الاجتماعية من مكائد إغوائه، لكنّه لم يخطر ببالها قط أنه كان يرمي إلى أكثر من ذلك. على العكس: فعلاقاته الجيّدة قامت على أرضية أنّها شكّلت غطاءً لغرامياته السرية مع زميلة لها في المدرسة، وقبلت هي أن تصبح إشبينته في العرس. ومنذ ذلك الوقت صار يناديها إشبينتي وتناديه فليوني. بهذه الطريقة يصبح من السهل أن نتصوّر كم كانت مفاجأة لويسا سانتياغا ذات ليلة رقصٍ كبيرة، حين نزع عامل التلغراف الجسور الزهرةَ التي كان يضعها في عروة سترته، وقال لها:

- أُسلمك حياتي في هذه الوردة.

لم يكن شيئاً مرتجلاً، قال لي ذلك مرّات كثيرة، فهو بعد أن عرفهنّ جميعاً وصل إلى نتيجة مفادها أنّ لويسا سانتياغا خُلِقت له. فهمت هي الوردة كمزحة من مزحات الملاطفة التي اعتاد أن يمارسها مع صديقاتها، حتى أنّها نسيتها في مكان ما حين خرجت فانتبه هو. لم يكن لها هي غير مريد واحد سرّي وصديق جيّد لم يتمكن من الوصول إلى قلبها قط بأشعاره الملتهبة. بينما تمكّنت وردة غابرييل إليخيو من أن تعكر صفو حلمها بهياجٍ غامض. اعترفت لي في حديثنا الرسمي الأول عن غرامياتها وكانت مثقلة بالأولاد، قائلة: «لم يكن باستطاعتي أن أنام غضباً من أنّني أفكر به، لكن أكثر ما كان يغضبني، هو أنني كلّما ازداد شعوري بالغضبٍ

فكّرتُ به أكثر». قاومت في بقية الأسبوع بصعوبة كبيرة رعبها من رؤيته وعذاب أنها لا تستطيع رؤيته. وقد تحوّلا في علاقتهما من إشبينة وفليون، كما كانا، إلى أنهما صارا يتعاملان كأنّهما لا يعرف أحدهما الآخر. في أحد تلك المساءات، وبينما كانتا تخيطان تحت أشجار اللوز، همست الخالة فرانسيسكا في أذن الحفيدة بخبث هنديّ أحمر.

ـ قالوا لي إنّهم أعطوك وردة.

كما يحدث عادة، كانت لويسا سانتياغا آخر من علم بأنّ عذابات قلبها أصبحت في متناول الجميع. خلال الأحاديث العديدة التي أجريتها معها، ومع أبي، كانا متفقين على أنّ حبّهما العاصف مرّ بثلاث مناسبات حاسمة. الأولى جاءت ذات يوم من آحاد الشعانين في القدّاس العظيم. كانت تجلس مع الخالة فرانسيسكا على مقعد بجانب الرسالة، حين عرفت وقع كعبِ حذائه الفلامنكي على قرميد الأرض، ورأته يمرّ قريباً منها إلى حدّ أنّها تلقت نفحة عطر العريس الدافئة. يبدو أنّ الخالة فرانسيسكا لم تره، كما يبدو أنه لم يرها بدوره، لكنّ الحقيقة أنّ كلّ شيء كان مدروساً من قِبله، هو الذي لحق بهما حين مرّتا بمركز التلغراف. بقي واقفاً بجانب أقرب عمود من الباب بحيث يراها من الخلف ولا تستطيع هي أن تراه. بعد دقائق متوترة لم تستطع لويسا سانتياغا مقاومة القلق، ونظرت إلى الباب من فوق كتفها. عندئذ اعتقدت أنّها ماتت من الغضب، فقد كان ينظر إليها والتقت نظراتهما. «هذا تماماً ما خططتُ له» كان أبي يقول سعيداً وهو يردّد الحكايةَ في شيخوخته. بالمقابل كانت أمّي لا تملّ أبداً من تكرار أنّها بقيت ثلاثة أيام لا تستطيع أن تسيطر على حنقها من وقوعها في المصيدة.

المناسبة الثانية كانت رسالة كتبها إليها. ليست الرسالة التي يمكن أن تتوقعها من شاعر وعازفِ كمانٍ في أسحارٍ مختلَسَة، بل بَطاقة آمرة تطالبها بالرد قبل سفره إلى سانتا مارتا في الأسبوع القادم. لم تُجبه. حبست نفسها في غرفتها، عازمة على أن تقتل الدودة التي لا تسمح لها بالتقاط النفس للعيش، إلى أن حاولت

الخالة فرانسيسكا أن تقنعها بأن تستسلم وترتاح قبل فوات الأوان. وفي محاولة منها للتغلُّب على مقاومتها حكت لها قصّة خوبنتينو تريّو النموذجية، المتودِّد الذي راح يُرابط كلَّ ليلة من السابعة مساءً وحتى العاشرة ليلاً تحت شرفة حبيبته المستحيلة. هاجمته هي بكلّ ما خطر ببالها، وانتهت إلى أن أفرغت مبولةً فوقه من الشرفة ليلة بعد ليلة. لكنّها لم تتمكّن من إبعاده. تزوّجت منه بعد كلّ أنواع الاعتداءات التي عمّدته بها(*) ـ متأثرة بتفاني ذلك الحب الذي لا يهزم ـ. قصّةُ حبٍّ أبويَّ لم تصل إلى هذا الحد.

المناسبة الثالثة للحصار كان عرساً طناناً دُعيا إليه كإشبيني شرف. لم تعثر لويسا سانتياغا على حجّة للتهرّب من التزام مُلزم جدّاً للأسرة. وكان غابرييل إليخيو قد فكّرَ بالشيء ذاته، وذهبَ إلى العرس مستعداً لكلِّ شيء. هي لم تستطع أن تسيطر على قلبها حين رأته يعبر القاعة بعزيمة جليّة للعيان ودعاها للرقصة الأولى. «كان الدم يخبط داخلَ جسدي فلم أعرف إن كان حنقاً أو خوفاً» قالت لي. انتبه هو فوجّه إليها ضربة مخلب وحشية: «لم يعد عليك أن تقولي نعم، لأنّ قلبك يقوله لي».

تركتْهُ، دون لف أو دوران، مصلوباً في القاعة في منتصف الرقصة. لكنَّ أبي فهم هذا على طريقته.

ـ سررتُ ـ قال لي.

لم تستطع لويسا سانتياغا أن تُقاوِم الحنق الذي كانت تشعر به تجاه نفسها في الفجرِ، حين أيقظها غزلُ الفالس المسموم: «حينٍ انتهى الرقص». أعادت في اليوم التالي، وفي الساعة الأولى، كلَّ الهدايا إلى غابرييل إليخيو. هذا الصدُّ غير المستَحَقّ وثرثرة عن تركها له في العرس كأنّه ريش ألقي في مهب الريح، لم تعد هناك ريح تعيدها. الجميع اعتبروا ذلك نهاية باهتة لعاصفة صيفية. تعزّز هذا الانطباع لأنّ لويسا سانتياغا انتكست وأصيبت بحمى طفولتها

(*) إشارة إلى إفراغ المبولة عليه من الشرفة.

الغبّية، فحملتها أمّها للتخفيف عنها إلى بلدة ماناور، وهي ركن فردوسي في مرتفعات سييرّا نيفادا. كلاهما أنكر دائماً أن يكونا قد اتصل بالآخر خلال تلك الأشهر، لكن لا يمكن تصديق هذا تماماً، لأنّها عندما عادت معافاةً من أمراضها شوهد كلاهما معافيان أيضاً من شكوكهما. تقول أمّي أنّه ذهب لينتظرها في المحطّة، لأنّه قرأ البرقية التي أعلنت فيها مينا العودة إلى البيت، ومن الطريقة التي صافحته بها حين سلّم عليها شعرَ بشيءٍ شبيه بإشارة ماسونية فسّرها هو كرسالة حبّ. هي أنكرت ذلك بالخجل والحنق اللذين كانت تستحضر بهما تلك السنوات. لكنّ الحقيقة هي أنّهما منذ ذلك الوقت شوهدا معاً بتكتّم أقلّ. لم ينقصها إلا النهاية التي قدّمتها الخالة فرانسيسكا في الأسبوع التالي، بينما هنا تخيطان في ممر البيغونيا:

- مينا صارت على علمٍ بذلك.

لويسا سانتياغا قالت دائماً أنّ معارضة الأسرة هي التي جعلتها تقفز من فوق سدود التيار الجارف الذي كانت تحمله مكبوتاً في قلبها، منذ الليلة التي تركت فيها العاشق مصلوباً في منتصف الرقصة. كانت حرباً ضروساً حاول الكولونيل أن يبقى فيها على الحياد، لكنّه لم يستطع أن يتفادى الذنب الذي ألقت به مينا في وجهه، حين انتبهت إلى أنّه هو أيضاً لم يكن بريئاً كما يتظاهر. كان يبدو واضحاً بالنسبة للجميع أنّ عدم التسامح لم يكن منه بل منها. والواقع أنّ قانون القبيلة ينصّ على أنّ كلّ خطيب دخيل. هذا الحكم الجائر القديم، الذي لم يخبُ جمره، جعل منا أخويّة كبيرة من النساء العازبات والرجال مفتوحي أزرار البنطلونات ومن عددٍ كبير من الأبناء غير الشرعيين.

انقسم الأصدقاء بحسب العمر لصالح العاشقين أو ضدّهما ومن لم يكن لهم موقف جذري جاءت الأحداث وفرضته عليه. تحوّل الشباب إلى متواطئين مبتهجين، لاسيّما معه، هو الذي تمتع بوضعه كضحية مناسبة للأحكام الاجتماعية الجائرة. بالمقابل نظرت غالبية الكبار إلى لويسا سانتياغا على أنّها أثمن جوهرة في أسرة ثرية

ومقتدرة، وعامل التلغراف الدخيل لا يبتغيها حبّاً بها بل لمصلحة. هي نفسها، المطيعة والوديعة، واجهت معارضيها بضراوة لبؤة ولود. في نقاش من أكثر نقاشاتها المنزلية الكثيرة خشونة فقدت مينا صوابها ورفعت سكين الخبز على ابنتها. واجهتها لويسا سانتياغا بشجاعة. وما إن وعت مينا بسرعة زخم غضبها الإجرامي حتى أفلتت السكين وصرخت مذعورة: «يا إلهي!». ووضعت يدها في جمر النار كنوع من التوبة الوحشية.

أحد المآخذ القويّة على غابرييل إليخيو هو وضعه كابن طبيعي لعازبة أنجبته في الرابعة عشرة من عمرها اليسير في لقاء عابر بمعلّم مدرسة. كانت تُدعى أرخِميرا غارثيّا باتِرنينا، بيضاء ممشوقة القوام، حرَّة الروح، أنجبت خمسة ذكور آخرين وابنتين من ثلاثة آباء مختلفين، لم تتزوّجهم ولم تَعِشْ معهم تحت سقف واحدٍ قط. كانت تعيش في بلدة سينثِ، التي ولدت فيها، وتعيل قبيلتها بأظافرها وروحها المستقلة والبهيجة، كنّا نتمناه لنا، نحن أحفادها، لأحدٍ من آحاد الشعانين. كان غارثيّا إليخيو نموذجاً متميّزاً لتلك الذرّية البائسة. فقد كانت له منذ السابعة عشرة من عمره خمس عاشقات عذراوات، حسب ما صرّح به لأمّي كنوعٍ من التوبة في ليالي عرسهما على متن سفينة ريوهاتشا المنحوسةَ التي كانت تعصف بها العاصفة. اعترف لها أنّه أنجب من واحدة منهن، وهو في السابعة عشرة من عمره، وكان يعمل عامل تلغرافٍ في بلدة أتشي، ابناً هو أبِلاردو الذي كان على وشك أن يتمّ الثالثة من عمره. ومن أخرى وهو عامل تلغراف في أيابِّل، وفي العشرين من عمره أنجب ابنة عمرها أشهر، لم يعرفها، وكانت تُدعى كارمِن روسا. وقد وعد أمّها أن يعود ليتزوّج منها، وكان التزامه قائماً حين انعطف مجرى حياته مع حبّ لويسا سانتياغا. اعترف بابنه الأكبر أمام الكاتب بالعدل وهو ما فعله بعد ذلك مع الابنة، لكنّ هذا لم يكن إلاّ شكليات بيزنطية ليس لها أيّ مفعول أمام القانون. مدهش أن يكون قد سبب ذلك السلوك الشاذ قلقاً أخلاقياً لدى الكولونيل ماركيز، الذي كان له، بالإضافة لأولاده الثلاثة الرسميين، تسعة

آخرون من زوجات مختلفات، قبل وبعد الزواج واستقبلتهم زوجته جميعاً وكأنهّم أولادها.

ليس باستطاعتي أن أحدّد متى علمتُ بأول خبر عن هذه الأحداث، على كلّ حال لم تكن تهمّني انتهاكات أسلافي أبداً. بالمقابل كانت أسماء الأسرة تلفت انتباهي لأنّها تبدو لي فريدة. أولاً أسماء سلالة الأم: ترانكيلينا، ونيفريدا، فرانسيسكا سيمودوسيا. ثم اسم جدّي من جهة الأب: أرخِميرا، واسما والديه: لوثانا وأميناداب. ربّما من هنا جاء اعتقادي بأنّ شخصيات رواياتي لن تسير على أقدامها، ما لم يكن لها أسماؤها التي تتوافق مع طريقتها في الحياة.

الحجج ضدّ غابرييل إليخيو تتفاقم لأنّه عضو فعال في الحزب المحافِظ، الذي خاض الكولونيل نيكولاس ماركيز حروبه ضدّه. السلام لم يقم كاملاً منذ توقيع اتفاقات نيرلانديا وويسكونسين فالمركزية المبكرة كانت ما تزال في السلطة، ولا بدّ أن يمرّ زمن طويل قبل أن يتوقف المحافظون والليبراليون عن التكشير عن أنيابهم. ربّما جاءت ميول طالب الود المحافظة من عدوى الأسرة أكثر مما جاءت من القناعة العقائدية، لكنّهم أخذوه بحسبانهم أكثر مما أخذوا سمات طبيعته الطيبة الأخرى، كذكائه المتيقّظ دائماً واستقامته المثبتة.

كان أبي رجلاً يصعب سبره وإرضاؤه. كان دائماً أفقر مما يبدو، ونظر إلى الفقر دائماً كعدوّ بغيض لم يُذعن إليه، لكنّه لم يستطع هزمه قط. وبالعزيمة ذاتها وبعزّة النفس ذاتها تحمّل موانع حبّه للويسا سانتياغا، في الغرفة الخلفية لمركز تلغراف أراكاتاكا، حيث علّق دائماً شبكة نومه لينام فيها وحيداً. ومع ذلك كان بجانبه سرير عازب فرديّ شحّم نوابضه جيّداً من أجل ما يمكن أن يُقدّمه له الليل. في مرحلة من المراحل أغوتني قليلاً عاداته كصيادً سريّ، لكنّ الحياةَ علَّمتني أنّها أكثر أشكال الوحدة وعورة، فشعرت بشفقة كبيرة عليه.

حتى قبل موته بقليل سمعته يروي أنّه اضطرَّ أن يذهب في أحد

تلك الأيام الصعبة إلى دار الكولونيل مع عدد من الأصدقاء، وأنّهم دعوا الجميع للجلوس باستثنائه. لكنّ أسرتها أنكرت ذلك دائماً وعزته إلى جمرة الاستياء عند أبي، أو على الأقل إلى ذكرى مزيّفة. لكنّه أُفْلِتَ من جدّتي ذات مرّة في هذيانات مئويتها المغناة ما لا يبدو مستحضراً، بل عائداً ليعيش من جديد، وقالته بحزن حقيقيٍّ:

- ها هو هذا الرجل المسكين واقف في باب القاعة ونيكولاس لم يدعه للجلوس.

سألتها وأنا مشدود دائماً إلى اعترافاتها الهاذية من هو الرجل وأجابتني بجفاف:

- غارثيّا، عازف الكمان.

في وسط الكثير من التخريفات، اشترى مسدساً تحسّباً لما قد يجري له مع محارب في حالة كمون مثل الكولونيل ماركيز، وهو أبعد ما يكون عن طبيعة أبي. كان مسدّساً مهماً، طويلاً علامة سميث أند ويسون 38. لا أحد يدري كم من االمالكين السابقين والقتلى على كاهله. الشيء الوحيد الأكيد أنّه لم يُطلق ناره قط حذراً أو فضولاً. عثرنا عليه نحن أبناؤه الكبار بعد سنوات، وفيه خمس رصاصات أصلية، في خزانة الأمتعة غير المفيدة إلى جانب كمان الحفلات الليلية.

لا غابرييل إليخيو ولا لويسا سانتياغا خافا من تشدّد الأسرة. فقد تمكّنا في البداية من اللقاء خفية في بيوت الأصدقاء، وحين أُحكم عليها الحصار صارت الرسائل المستلمة والمرسلة بطرق ساذجة وسيلتهما الوحيدة للتواصل. وحين لم يسمحوا لها بحضور الحفلات التي كان يُدعى هو إليها صارا يريان بعضهما بعضاً من بعيد. لكنّ القمع بلغ من الشدّة بحيث لم يتجرأ أحد منهما على تحدّي غضب ترانكيلينا إغواران، وهكذا اختفى العاشقان من الحياة العامّة. حين لم يعد هناك من منفذ صغير للرسائل السرية اخترع الخطيبان وسائل اليائسين. تمكّنت هي من إخفاء بطاقة تهنئة في قالب حلوى أوصى عليه شخص لعيد ميلاد غابرييل إليخيو، ولم يألُ

هذا جهداً في أن يُرسل إليها برقيات مزيفة وغير مؤذية مع الرسالة الحقيقية المشفرة، أو المكتوبة بالحبر السرّي. صار تواطؤ العمّة فرانسيسكا جليّاً جداً رغم إنكارها القاطع، وهو ما أثر لأوّل مرة على سلطتها في البيت، فلم يسمحوا لها بعد ذلك بمرافقة ابنة الأخ إلاّ إلى الخياطة في ظلّ أشجار اللوز. عندئذٍ صار غابرييل إليخيو يرسل رسائل غرامه عبر نافذة الدكتور ألفِردو باربوثا على الرصيف المقابل، بوساطة البرقيات اليدوية الخاصّة بالصم البكم، فأتقنتها وأقامت في غفلة من العمّة حواريات حميمة مع الخطيب. ولم تكن هذه سوى حيلة من الحيل التي ابتدعتها أدريانا بِردوغو، صديقة لويسا سانتياغا في السرّ المقدّس والمتواطئة معها والأكثر عوناً وجرأة.

استطاعت تحايلات مواساة النفس تلك أن تكفيهما للاستمرار للنضوج بهدوء، حتى تلقى غابرييل إليخيو رسالةً مُقلقة من لويسا سانتياغا أجبرته على أن يبتّ بتفكيره. كانت قد كتبتها بسرعة على ورق صحّي، تضمّنها الخبر السيئ بأنّ أبويها قرّرا حملها إلى بارّانكاس، من بلدة إلى بلدة، كعلاج قاسٍ لمرض غرامها. لن تكون رحلة عادية في ليلة سيئة في سفينة ريوهاتشا، بل على البغال وفي العربات على طريق مرتفعات سييرا نيفادا البربري، عبر مقاطعة باديليا الشاسعة.

«كنتُ أفضّل الموت على تلك الرحلة»، قالت لي أمّي يومَ ذهبنا لنبيع الدار. وحاولت ذلك حقيقة، إذ حبست نفسها وقفلت عليها الغرفة بالمزلاج، وعاشت ثلاثة أيّام على الخبز والماء إلى أن فرض وقار الرعب الذي كانت تشعر به تجاه أبيها نفسه عليها. انتبه غابرييل إليخيو إلى أنّ التوتر بلغ أقصاه فاتخذ قراراً متطرّفاً أيضاً، لكنّه عملي. عَبَر الشارع من بيت الدكتور باربوثا، وحتى ظلّ أشجار اللوز، بخطى واسعة ووقف أمام المرأتين، اللتين انتظرتاه مرعوبتين وشغل الإبرة في حضنهما.

ـ اعملي معروفاً واتركيني لحظةً على انفرادٍ مع الآنسة ـ قال للعمّة فرانسيسكا ـ لدي شيء مهم أقوله لها وحدها.

ـ وقح! ـ أجابته العمّة ـ لا شيء عندها لا أستطيع أن أسمعه.

ـ إذن لن أقوله لها ـ قال ـ لكنّني أحذّرك من أنّك ستكونين مسؤولة عما سيحدث.

توسّلت لويسا سانتياغا عمّتها أن تتركهما وحيدين وتحمّلت المجازفة. وعندئذٍ عبّر لها غابرييل إليخيو عن موافقته على سفرها مع والديها مهما كانت الطريقة والوقت، لكن بشرط أن تَعِده مقسمة ومتحملة خطورة القسم بأن تتزوج منه. فعلت هي ذلك بسرور، وأضافت من ناحيتها مجازفةً أنّ الموتَ وحده يستطيع أن يفرِّق بينهما.

كلاهما أمضى عاماً تقريباً كي يبرهن عن جديّة وعوده، لكن أحداً منهما لم يتصوّر كم كان سيكلفهما ذلك. استغرقت المرحلةُ الأولى من الرحلة أسبوعين في قافلة بغالٍ على ظهر بغلة عبر سفوح سييرانيفادا. كانت ترافقهم تشون ـ اسم التصغير الودي لإنكارناثيون ـ، خادمة وينفريدا التي انضمّت إلى الأسرة منذ أن رحلوا عن بارّانكاس. كان الكولونيل يعرف جيّداً تلك الطريق شديدة الانحدار، فقد ترك هناك سلسلة من الأبناء في ليالي حروبه المتفرقة، لكنّ زوجته فضّلتها دون أن تعرفها نظراً لذكرياتها السيّئة عن السفينة. شكّلتُ الرحلة بالنسبة إلى أمّي، التي كانت تمتطي البغلَ لأوّل مرّة، كابوسَ شموسٍ عاريةٍ ووابلاً من الأمطار العنيفة، وكانت مذعورة من بخار الوهاد المنوّم. التفكير بخطيب غير أكيد يرتدي أطقمَ منتصف الليل ومعه كمان الفجر، بدا سخرية من سخريات الخيال. في اليوم الرابع، بينما لم تعد قادرةً على الاستمرار، هدّدت أمّها بأنّها سترمي نفسها إلى الهاوية إن لم يعودوا إلى البيت. لكنّ صاحب القافلة بينّ لها على الخارطة أن لا فرق بين العودة والمتابعة. الراحة جاءت في اليوم الحادي عشر، حين لمحوا من آخر قمةٍ سهلَ بالييدوبّار المشع.

قبل أن تبلغ المرحلة الأولى أوجها ضَمِن غابرييل إليخيو أوّلَ تواصل دائم مع الخطيبة بفضل تواطؤ عمال تلغراف البلدات السبع، التي توقفت فيها مع أمّها قبل الوصول إلى بارّانكاس. كما أنَّ لويسا

سانتياغا قامت بما عليها. كانت المنطقة كلّها مليئة بآل إغواران وكوتِسْ، الذين ينطوي وعيهم بأصلهم على قوّةٍ متاهةٍ عصيّةٍ تمكّنتْ من توظيفها لصالحها، مما سمح لها بتواصل متواتر مع غابرييل إليخيو، بدءاً من بالييدوبّار التي مكثت فيها ثلاثة أشهر وحتى نهاية الرحلة، بعد عام تقريباً. كان يكفيها أن تمرّ بمركزِ تلغراف كلّ بلدة بتواطؤ من أقربّاء لها شبّانٍ ومتحمسين لِتَلقّي رسائله والردِّ عليها. لعبت تشون، الصموتة، دوراً لا يُقدّر بثمن، لأنّها كانت تحمل الرسائل مخبّأة بين خرقها دون أن تُقلق لويسا سانتياغا أو تخدش حياءها، لأنّها لم تكن تعرف القراءة والكتابة، ويمكن أن تموت لأجل سرّ.

بعد ستين عاماً تقريباً سألتُ أبي حين حاولت أن أسطو على هذه الذكريات لروايتي الخامسة «الحب في زمن الكوليرا»، عمّا إذا كان يوجد في لغة عمال التلغراف الاصطلاحية كلمة محدَّدة لعملية الربط بين مكتب وآخر. لم يحتج للتفكير بذلك: «التعشيق»، الكلمة موجودة في القواميس، ليس للاستخدام المحدّد الذي كنتُ أحتاجه، لكنّها بدت لي تامّة لشكوكي، فالاتصال بين مختلف المكاتب كان يتمّ بالاتصال من خلال مفتاح موجود على لوحات الطرفيات البرقية. لم أتطرّق لذلك مع أبي قط. ومع ذلك سألوه في مقابلة صحفية معه قبل وفاته عمّا إذا كان بودّه لو كتب رواية وأجاب: نعم، لكنّه تراجع حين استشرته حول الفعل عشّق، لأنّه اكتشف أنّ الكتاب الذي كنتُ أكتبه هو ذاته الذي فكّر بكتابته.

ذكر في تلك المناسبة معلومة خفية كان باستطاعتها أن تغيِّر مجرى حياتنا، وهي أنّه بعد ستة أشهر من الرحلة، حين كانت أمّي في سان خوان دِل ثِسَر وصلته وشاية سرية، بأنّ مينا كانت مكلّفة بتجهيز العودة النهائيّة للأسرة إلى بارانكاس، ما إن تلتئم جراح الهيجان من موت مِدرادو باتشِكو. بدا له أمراً غير معقول في الوقت الذي رمى فيه الأيام السيئة خلفه وإمبراطورية الموز بدأت تحقق ما بدا أنه أحلام الأرض الموعودة. لكن أيضاً كان معقولاً أن يقود عنادُ آل ماركيز إغواران إلى التضحية بسعادتهم ذاتها مقابل أن يخلّصوا الابنة من براثن الباشق. وكان القرار الفوري لغابرييل إليخيو هو

القيام بإجراءات النقل إلى مركز تلغراف ريوهاتشا، على بعد عشرين فرسخاً تقريباً من بارّانكاس. لم يكن ممكناً، لكنّهم وعدوه أن يأخذوا طلبه بالحسبان.

لم تستطع لويسا سانتياغا أن تتحقّق من نوايا أمّها، لكنّها أيضاً لم تستطع أن تنكرها، فقد لفت انتباهها أنّهم كلّما اقتربوا من بارّانكاس أكثر كلّما بدت لها أمها أكثر حسرة ودماثة، ولم تقدم لها تشون، جاسوسة الجميع، أيّ دليل. ولكي تستخلص لويسا سانتياغا الحقائقَ من أمّها قالت لها إنّها تتمنّى لو تبقَ لتعيش في بارّانكاس. تردّدت الأمّ لحظة، لكنّها لم تُقرّر أن تقول شيئاً، وخلصت الابنة بانطباع أنّها تلامس السر. وقرّرت قلقةً أن تلجأ إلى قراءة الورق عند غجرية سوقية، لكنّها لم تُعطها أيّ دليل على مستقبلها في بارّانكاس. بالمقابل بشرتها أنّه لن يكون هناك أيّ عائق أمامها لتعيش حياة طويلة وسعيدة مع رجل بعيد لا تكاد تعرفه، لكنّه سيحبّها حتى يموت. الوصف الذي قدّمته لها عنه أعاد روحها إلى جسدها، لأنّها وجدت أنه يملك ملامح مشتركة مع خطيبها، لا سيّما مع طريقته بالحياة. أخيراً تكهّنت لها بأنّها ستنجب منه ستّة أولاد. «متُّ رعباً» قالت لي أمّي في المرّة الأولى التي روت لي ذلك، دون أن تتصوّر أنّ سيكون لها خمسة أولاد زيادة. كلاهما أخذ النبوءة بكثير من الحماس حتى أن الرسالة البرقية لم تعد تشكّل تناغماً بين نوايا وهمية، بل صارت منهجية وعملية وأكثر تركيزاً من أيّ وقت مضى، جدّدا تواريخ، وحدّدا طرقاً ورهنا حياتيهما بقرارٍ مشترك بالزواج دون استشارة أحد، حيث يستطيعان، وبأيّ طريقة كانت، حين يعودان ليلتقيا.

كانت لويسا سانتياغا من الوفاء لعهدها بحيث بدا لها في بلدة فونْسِكا أنَّه من غير اللائق أن تحضر حفل رقص، دون موافقة خطيبها. كان غابرييل إليخيو في شبك نومه، يتصبَّب عرقاً من حمى حرارته التي بلغت الأربعين درجة حين رنّت إشارة موعدٍ برقيٍّ مستعجل. كان هذا هو زميله في فونْسِكا. ولمزيد من الأمان التام سألت من كان يعمل على الجهاز في الطرف الآخر. أرسل الخطيبُ

بذهولاً أكثر مما بفرحِ جملةَ تعريفٍ: «قلْ لها إنّي فليونها». عرفت أمّي القديسَ والعلامةَ وبقيت ترقص حتى السابعة صباحاً، حين اضطرّت لتبديل ملابسها على وجه السرعة كيلا تصل متأخّرة إلى القدّاس.

لم يجدوا في بارّانكاس أدنى أثر للضغينة ضدّ الأسرة، على العكس فقد غلب على أقرباء مِدرادو باتشِكو روح الغفران والنسيان المسيحية، بعد سبعة عشر سنة من الفاجعة. كان استقبال الأقرباء حميماً إلى حدّ أن لويسا سانتياغا هي التي فكّرت بإمكانية أن تعود الأسرة إلى ذلك المستنقع في الجبال، المختلف تماماً عن حر وغبار وأيام سبت أراكاتاكا وأشباحها مقطوعة الرأس. تمكّنت من التلميحِ بذلك إلى غابرييل إليخيو، ما دامَ يستطيع الانتقال إلى ريوهاتشا، فوافق. ومع ذلك عرفَ الناسُ في تلك الأيّام أن مسألة النقل لا تخلو فقط من أيّ أساس وحسب، بل وأنّه ما من أحد أرادها غير مينا. هذا ما أكّدته رسالة جوابية على رسالة أرسلتها هي إلى ابنها خوان دِ ديوث، حين كتب لها هذا متخوّفاً من أن يعودوا إلى بارّانكاس في الوقت الذي لم يكن قد مضى عشرون عاماً على مقتل مِدرادو باتشِكو. فقد كان مقتنعاً دائماً بقدرية قانون غواخيرا إلى حدٍّ أنّه أبى أن يؤدّي ابنه الخدمةَ الطبية الاجتماعية في بارّانكاس، بعد نصف قرن من ذلك.

وبعكس كلّ المخاوف، حُلَّت جميعُ عقد الوضع هناك خلال ثلاثة أيّام. يوم الثلاثاء ذاته الذي أكّدت فيه لويسا سانتياغو لغابرييل إليخيو أنّ مينا لا تُفكّر بالانتقال إلى بارّانكاس، أعلنوا له أنّ مركز تلغراف ريوهاتشا تحت تصرّفه نظراً لموت عامله المفاجئ. فرّغت مينا جميع الأدراج في غرفة المؤونة بحثاً عن مقصّ التقطيع، ورفعت غطاء علبة البسكويت الإنكليزي حيث خبّأت الابنةُ برقيات الحبّ. بلغ غضبها حدّاً لم تستطع فيه أن تقول ترهة واحدة من الترهات الشهيرة التي ترتجلها في لحظاتها السيئة: «غفر اللهُ لها كلّ شيء إلا عقوقها». سافروا في نهاية ذلك الأسبوع إلى ريوهاتشا كي يدركوا يوم الأحد سفينة سانتا مارتا. ما من واحدة

منهما وعت الليلة الرهبية المعنفة بريح شباط: الأم منهارة بسبب الهزيمة، والابنة مذعورة، لكنّها سعيدة.

أعادت اليابسة إلى مينا وقارها الذي ذهب به عثورُها على الرسائل. تابعت في اليوم التالي طريقها وحيدة إلى أراكاتاكا، وتركت لويسا سانتياغا في سانتا مارتا بحماية ابنها خوان دِ ديوثْ، واثقة من أنّها في أمان بعيداً عن شياطين الحبّ. حدث العكس: سافر غابرييل إليخيو وقتها من أراكاتاكا إلى سانتا مارتا ليراها كلّما سنحت لها الفرصة بذلك. الخال خوانيتو الذي عانى من تشدّد مماثل من والديه في غرامياته مع ديليا كاباليرو، كان قد قرَّر ألاّ يتدخل في غراميات أخته. لكنَّه حين جدّ الجدّ وجد نفسه محصوراً بين حبّ لويسا سانتياغا وبين احترامه لأبويه، فلجأ إلى صيغة منسجمة مع طيبتهِ التي يُضرب بها المثل: قَبِلَ أن يلتقي الخطيبان خارج البيت، لكن ليس على انفراد أبداً ولا دون علمه. زوجته، ديليا كاباليرو، التي كانت تغفر، لكنّها لا تنسى دبّرت لأختِ زوجها المصادفات الصائبة والحيل ذاتها التي تحايلت بها هي على مراقبة حمويها. بدأ غابرييل ولويسا يلتقيان في بيوت الأصدقاء، لكنّهما راحا يجازفان شيئاً فشيئاً في أماكن عامّة غير مطروقة كثيراً. وتجرأا أخيراً على التحادث عبر النافذة حين لا يكون الخال خوانيتو، الخطيبة في القاعة والخطيب في الشارعِ، مخلصين لعدم اللقاء في البيت. كانت النافذة وكأنّها صنعت عمداً للحب الممنوع عبر شبك حديدٍ أندلسيّ على قدّ القامة في إطار من النباتات المتسلقة، لم تخلُ من نفحة ياسمين في وسن الليل. كانت ديليا قد أعدّت كلّ شيء، بما في ذلك تواطؤ بعض الجيران بصفرات مشفرةٍ لتنبيه الخطيبين من أيٍّ خطر داهم. ورغم ذلك فشلت ذات ليلةٍ كلُّ الضمانات، واستسلم خوان دِ ديوث للحقيقة. استغلت ديليا الفرصة كي تدعو الخطيبين إلى الجلوس في القاعة والنوافذ مفتوحة كي يشاركهما العالم في حبّهما. لم تنسَ أمّي قط تنهيدة الأخ: «ياللراحة!».

كان غابرييل إليخيو قد تلقّى تعيينه الرسميّ في مركز تلغراف ريوهاتشا. أمّي القلقة من فراق جديد لجأت إلى صاحب الغبطة بِدرو

إسبِخو، وكيل الأبرشية آنذاك، بأمل أن يُزوِّجها دون إذن أبويها. وكان الاعتبار الذي أدركه صاحب الغبطة آنذاك قد جعل الكثيرين من رعاياه يخلطون بينه وبين القداسة، حتى أنّ بعضهم كان يذهب إلى القداس لمجرّد أن يتأكّدَ من أنّه كان يرتفع عدّة سنتيمترات عن مستوى الأرض في لحظة رفع القربان. حين طلبت لويسا سانتياغا مساعدته، قدّم برهاناً آخر على أنّ الذكاء إحدى خصائص القداسة. رفض التدخّل في اختصاص أسرة غيورة على خصوصيتها، لكنّها اختار الخيار السرّي بالاستعلام عن أسرة أبي من خلال المحكمة الكنسية. تغاضى راعي الكنيسة عن أريحية أرخِميرا غارثيّا، وردّ بصيغةٍ لطيفة: «إنّها أسرة محترمة، وإن كانت قليلة الورِع». وعندئذٍ تحدَّث صاحب الغبطة مع الخطيبين مجتمعين، ومع كلٍّ منهما على انفراد، وكتب رسالة إلى نيكولاس وترانكيلينا عبّر لهما فيها عن يقينه المتأثّر بأنّه ما من قوّة إنسانية قادرة على هزيمة ذلك الحبّ شديد المراس. جدّاي، اللذان هزمتهما قوّة الله، اتفقا على أن يقلبا الصفحة المؤلمة ومنحا خوان دِ ديوث كامل الصلاحيات لتنظيم العرس في سانتا مارتا. لكنَّهما لم يحضرا، بل أرسلا فرانسيسكا سيمودوسيا كإشبينة.

تزوّجا يوم الحادي عشر من حزيران من العام 1926 في كاتدرائية سانتا مارتا، متأخّرين أربعين دقيقة، لأنّ الخطيبة نسيت التاريخ واضطُرّوا إلى إيقاظها بعد الثامنة صباحاً. وفي الليلة ذاتها، ركبا مرّة أخرى السفينة المريعةَ كي يلتحق غابرييل إليخيو بعمله في مركز تلغراف ريوهاتشا، وقضيا ليتلهما الأولى في عفّة مهزومين بالدوار.

كانت أمّي تشتاق كثيراً للبيت الذي أمضت فيه شهر عسلها، كان باستطاعتنا نحن أبنائها الكبار أن نصفه: غرفةً غرفة كما لوأنّنا عشنا فيه، وما يزال حتى اليوم إحدى ذكرياتي الزائفة. ومع ذلك فإنّ المرّة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى جزيرة غواخيرا، قبل أنّ أتمّ الستين بقليل، فاجأني أنّه لا علاقة لبيت مركز البرق أبداً بالذي في ذاكرتي. وريوهاتشا الرعوية التي أحملها في قلبي منذ طفولتي

بشوارعها الملحية التي كانت تنحدر نحو شاطئ موحلٍ لم تكن أكثر من أحلام مستعارة من جدّيّ. بل وأكثر من ذلك: وأنا أعرف الآن ريوهاتشا، لا أستطيع أن أجسدها بصرياً كما هي، بل كما بنيتها حجراً فحجراً في مخيلتي.

بعد شهرين من العرس تلقّى خوان دِ ديوث برقية من أبي يُعلن له فيها أنّ لويسا سانتياغا حاملٌ فهزّ الخبر أسس بيت أراكاتاكا، حيث لم تكن مينا قد تعافت بعد من مرارتها. ألقت هي والكولونيل سلاحهما كي يعود الزوجان الحديثان معهما. لم يكن ذلك سهلاً. قَبِل غابرييل إليخيو بعد عدّة أشهر من الرفض الجليل والعقلاني بأن تلد زوجته في بيت أبويها.

بعد قليل استقبله جدّي في محطّة القطار بجملة بقيت في إطار ذهبي في مفكرة الأسرة التاريخية: «أنا على استعداد لأنّ أفعل كلّ ما هو ضروري لإرضائك». جدّدت الجدّة غرفة النوم التي كانت حتى ذلك الوقت غرفتها، ووضعت فيها أبويّ. خلال السنة تخلّى غابرييل إليخيو عن مهنة التلغراف الجيّدة وكرَّس ذكاءه كرجلٍ عصاميٍّ لدراسة علم كان يتراجع: المعالجة المثلية(*). سعى الجدّ امتناناً أو ندماً أمام السلطات كي تُطلق على الشارع الذي كنّا نعيش فيه الاسمَ الذي ما يزال يحمله حتى الآن: شارع صاحب الغبطة إسبِخو.

هكذا كان وهكذا وُلِد هناك أول الذكور السبعة والإناث الأربع، يومَ الأحد السادس من آذار من العام 1927، في التاسعة صباحاً مع وابل جارف من مطرٍ في غير أوانه، بينما سماء تاوْرو صافية في الأفق. كاد يخنقه حبلُ السرّة، لأنّ قابلة الأسرة سانتوس بيِّرو فقدت سيطرتها على فنها في أسوأ اللحظات وأضاعته أكثر منها العمّة فرانسيسكا، التي هرعت إلى باب الشارع وهي تصرخ صرخة حريق:

(*) مُعالجة المصاب بإعطائه جرعاتٍ صغيرة من دواءٍ لو أُعطِيَ لشخصٍ سليم لأحدث عنده مثل أعراض المرَضِ المُعالَج.

ـ ذكر! ذكر! ـ ثمّ وفي الحال وكأنّها تُنذِر بخطر: روم، إنّه يختنق!

تفترضُ الأسرة أنّ الروم لم يكن للاحتفال، بل لإنعاش المولود الجديد بالتدليك. كثيراً ما حكت لي السيّدة خوانا دِ فرِيْتِسْ، التي جاء دخولها إلى الغرفة رحمةً ربّانيّة، أنّ الخطر الأكبر لم يكن من حبل السرّة، بل من وضعية أمّي السيئة في السرير. صحّحتها في الوقت المناسب، لكن لم يكن من السهل إنعاشي، حيث أنّ الخالة فرانسيسكا سكبت عليّ ماء العماد بتعجل. كان يجب أن أحمل اسم أوليغاريو، قديس ذلك اليوم، لكن سجلّ القديسين لم يكن في متناول يد أحد، ولهذا أطلقوا عليّ اسم أبي الأوّل يتبعه اسم خوسِه، نسبه إلى يوسف النجار لأنّه قديس أراكاتاكا، ولأنّني ولدتُ في آذار، شهره. اقترحتْ السيّدة خوانا دِ فرِيْتِسْ اسماً ثالثاً هو «كونكورديا» في ذكرى المصالحة العامة التي تمّت بين العائلات والأصدقاء بمناسبة مجيئي إلى العالم، لكنهم نسوا وضعه في شهادة التعميد الرسمية التي نظّموها لي بعد ثلاث سنوات: غابرييل خوسِهْ دِ لا كونكورديا.

2

في اليوم الذي ذهبتُ فيه معي أمي لبيع البيت كنتُ أتذكّرُ كلّ ما طبع طفولتي بطابعه، لكنّني لم أكن متأكّداً مما كان قبل ذلك ولا ما كان بعد. ولا ما عناه هذا في حياتي. بالكاد كنتُ أعي أنّه وفي وسط ازدهار شركة الموز الزائف، كان زواج أبويَّ يدخل ضمن السيرورة التي ستنتهي بانحطاط أراكاتاكا. منذ أن بدأت أتذكّر سمعتهم يردّدون - في البداية بكثير من الكتمان، ثمّ بصوت عال وفزع - الجملةَ المشؤومة: «يقولون إن الشركة سوف تُغادِر» ومع ذلك فإما أنّ أحداً لم يكن يصدّق ذلك أو أنه ما من أحد تجرّأ على التفكّير بتبعاته.

كانت روايةُ أمّي تحتوي على أرقام زهيدة ومشهدٍ فقير جدّاً بالنسبة لمأساة بحجم المأساة التي كنت قد تخيّلتُها وأحدثت عندي شعوراً بالخيبة. تحدّثت فيما بعد مع باقين أحياء وشهود وفتشت في مجموعات صحفية ووثائق رسمية، وانتبهت إلى أنّ الحقيقة لم تكن عندَ أيّ من الطرفين. وبالفعل كان الموالون يقولون إنّه لم يقع قتلى. بينما الطرف المناقض يؤكّد، دون أين يهتزّ له صوت، أنّهم تجاوزوا المئة، وأنّهم رأوهم ينزفون في الساحة وأنّهم حملوهم في قطار شحن ليلقوا بهم في البحر مثل الموز المرفوض. وهكذا بقيت حقيقتي تائهة للأبد في نقطة مقلقلة بين الطرفين، ومع ذلك بقيت تُلحّ عليّ حتى حكيت في إحدى رواياتي عن المجزرة بالدقة والرعب اللذين احتضنتها بهما خلال سنوات في مخيلتي. هكذا كان

أن جعلتُ عدد القتلى ثلاثة آلاف للحفاظ على الأبعاد الملحمية للمأساة. وقد أنصفتني الحياة الواقعية في النهاية: فمنذ فترة قصيرة، وفي ذكرى المأساة، طلب أحد المُتكلّمين في مجلس الشيوخ الوقوفَ دقيقةَ صمت حداداً على الشهداء الثلاثة آلاف المجهولين الذين قتلتهم قوى الأمن العام.

جاءت مجزرة مزارع الموز تتويجاً لمجازر أخرى سابقة، لكن بذريعة إضافية تُشير إلى أنّ زعماءها شيوعون، وربّما كانوا كذلك. أبرزهم وأكثرهم ملاحقة إدواردو ماهِتشا، وقد تعرفت إليه بالمصادفة في سجن مودِلو بارّانكيليا في الأيام التي ذهبت فيها مع أمّي لبيع البيت، ومنذ أن قدّمتُ له نفسي كحفيد لنيكولاس ماركيز قامت بيني وبينه صداقة جيّدة. هو الذي كشف لي أنّ جدّي لم يكن محايداً، بل وسيطاً في إضراب 1928، وكان يعتبره رجلاً عادِلاً. وهكذا أكمل لي الفكرة التي تكوّنت لدي دائماً عن المجزرة، وكوّنت تصوّراً أكثر موضوعية عن الصراع الاجتماعي. الشكّ الوحيد بين ذكريات الجميع دار حول عدد القتلى، الذي لن يكون في جميع الأحوال الشيء الوحيد المجهول في تاريخنا.

الروايات الكثيرة المتناقضة كانت السبب في زيف ذكرياتي. من بين أكثرها إلحاحاً

ذكرايَ عن نفسي في باب الدار بخوذة بروسية وبندقيّة لعب صغيرة، وأنا أرى فصيلاً من الغنادرة المتصببين عرقاً في عرضٍ عسكري تحت أشجار اللوز. عند مروره حيّاني ضابط كان يقودهم بلباس العرض الموحّد:

- وداعاً، يا نقيب غابي.

الذكرى صافية، لكن ليس هناك أيّة إمكانية كي تكون صحيحة. اللباس الموحّد، الخوذة، البندقية وجدت معاً، لكن بعد سنتين من الإضراب، حيث لم تعد هناك قوات حربية في كاتاكا. حالات عديدة مثل هذه خلقت لي في البيت سمعة سيّئة بأنّ لي ذكريات رحميّة وأحلاماً منذرة.

تلك كانت حالة العالم حين بدأت أعي جوّي العائلي، ولا أتمكّن من استحضاره بطريقة أخرى: أحزان، قلق، تردّد، في وحشة بيت فسيح. خلال سنوات بدا لي أنّ تلك المرحلة قد تحوّلت إلى كابوس متكرِّر في كلّ ليلة تقريباً، لأنّني كنتُ أُصبح على رعب غرفة القديسين ذاته. كنتُ خلال مرحلة المراهقة وأنا طالب في مدرسة داخلية شديدة البرودة في جبال الأنديز أستيقظ باكياً في منتصف الليل. احتجت إلى هذه الشيخوخة الخالية من الندم كي أفهم أنّ سبب شقاء الجدين في بيت كاتاكا أنّهما بقيا دائماً أسيرَي حنينهما، الذي كان يزداد كلّما أصرّا على تفاديه.

بل وأبسط من ذلك: كانا في كاتاكا لكنّهما ما يزالان يعيشان في مقاطعة بّاديّا، التي ما نزال ندعوها بالمقاطعة، دون أيّة معلومات أخرى، كما لو أنّه لا يوجد غيرها في العالم. ربّما ودون أن يُفكّرا بذلك بنيا بيت كاتاكا كنسخة احتفاليّة عن بيت بارّانكاس، الذي كان يُشاهد من نوافذه على الطرف الآخر من الشارع المقبرة الكئيبة التي يرقد فيها مِدرادو بّاتشِكو. كانا في كاتاكا محبوبين وسعيدين، لكنّ حياتهما محكومة بخدمة الأرض التي ولدا فيها. تخندقا في أذواقهما ومعتقداتهما وأهوائهما، وصدّا الباب في وجه كلّ ما هو مختلف.

أقرب الصداقات إليهما كانت قبل أيّة صداقة أخرى هي تلك التي تأتي من المقاطعة، واللغة المألوفة في البيت هي اللغة التي جاء بها أجدادهما من أسبانيا عبر فنزويلا في القرن الماضي، والتي كانت تمنحها المصطلحات الكاريبية المحلية والأفريقية التي جاء بها العبيد، وبعض الكلمات المتفرقة من اللغة الغواخيرية، راحت تتسرَّبُ قطرة فقطرة إلى لغتنا. كانت الجدّة تستخدمها كي تضلّلَني دون أن تدري أنّني كنتُ أفهمها أفضل منها نظراً لتعاملي المباشر مع الخدم. ما زلتُ أذكر منها الكثير: أونتْكِشي، أنا نعسان؛ خاموسايتشي تايا، أنا جائع؛ إيبووتس، المرأة الحامل،؛ أريخونا الغريب، التي كانت تستخدمها جدّتي بطريقة ما للإشارة إلى الأسباني، والرجل الأبيض وفي نهاية المطاف إلى العدوّ. من

ناحيتهم كان الغواخيريون يتكلمون نوعاً من الأسبانية بلا قوام وبومضات مشعة، مثل لهجة تشون الخاصّة وبدقّة معيبة إلى حدّ أن جدّي منعها من ذلك لأنّها كانت تحيل قطعاً إلى مغالطة كقولها: «شفتا الفم».

كان اليومُ يبقى ناقصاً ما لم تصل أخبار من وُلِد في بارّانكاس، وكم قتل الثور في زريبة حوش فونْسِكا، من تزوّج في ماناورا أو مات في ريوهاتشا، وكيف أصبح الجنرال سوكارّاس الذي كان في حالة خطرة في سان خوان دِل ثِسر. في منطقة حكم شركة الموز كانوا يبيعون بسعر التنزيلات تفاح كاليفورنيا الملفوف بورق الحرير، وأسماك الفُجّاج المتحجّرة في الثلج، وجامبون غاليثيا وزيتون اليونان. ومع ذلك لا شيء يؤكَل في البيت إن لم يتبل بمرق الحنين: سمك المالانغا للحساء يجب أن يكون من ريوهاتشا، والذرة لخبز الإفطار يجب أن تكون من فونسِكا، والجديان مرباة على ملح لاغواخيرا، والسلاحف وجراد البحر يأتون بها حيّة من ديبويا.

وهكذا فإنّ معظم الزوار الذي كانوا يصلون يومياً في القطار يأتون من المقاطعة، أو يُرسَلون من قبل شخصٍ ما. لم تكن الكنى هي ذاتها دائماً: آل رياسكو، نوغِرا، أوباليي، متقاطعة دائماً مع قبائل آل كوتِس وإغواران المقدسة. كانوا يمرون عابرين لا يحملون غير الحقيبة على ظهورهم، وكان متوقّعاً أنّهم سيبقون لتناول الغداء حتى ولو لم يعلنوا عن الزيارة. لم أنس قط جملة الجدّة شبه الشعائرية التي كانت ترددها عند الدخول إلى المطبخ: «يجب أن نعدّ طعاماً من كلّ الأصناف، لأنّنا لا نعرف ما يحبه القادمون».

كانت تلك الروح المراوِغة الأبديّة تستند إلى واقع جغرافي. كانت المقاطعة تتمتّع باستقلالَ عالمٍ خاصٍّ ووحدة ثقافية محكمة وقديمة في فالق في جبال سييرا نيفادا سانتا مارتا وجبال بّرِيخا، في منطقة الكاريبي الكولومبية، وكان اتصالها مع العالم أسهل من اتصالها مع بقية البلد، فحياتها اليومية تتقاطع بشكلٍ أفضل مع الحياة في أرخبيل الأنتيل نظراً لسهولة التجارة مع جامايكا أو كوراثاو. وهكذا كانت تختلط مع فنزويلا عبر حدود مفتوحة لا تميّز

بين شخصٍ وآخر في المكانة أو اللون. ولا يكاد يصل من داخل البلد الذي كان يُطبخ على نار هادئة في مرقه ذاته سوى صداً السلطة: القوانين، الضرائب، الجنود، الأخبار السيّئة التي تتطوّر على ارتفاع ألفين وخمسمئة متر، وثمانية أيّام من الإبحار في نهر مغدلِنا في باخرة تتغذّى على الحطب.

كانت تلك الطبيعة الخاصّة بالجزز قد ولَّدت ثقافة راكِدة ذات صبغة خاصة فرضها الجدَّان في كاتاكا. فدار قرية أكثر مما هي دار. دائماً كان هناك عدّة نوبات على المائدة، لكنّ النوبتين الأوليتين كانتا مقدّستين منذ كنت في الثالثة من عمري: الكولونيل على رأس المائدة وأنا في الزاوية على يمينه، ويشغل بقيّةَ الأماكن الرجال أوّلا ثمّ النساء ثانياً، لكنهم كانوا مفصولين دائماً. وكانت هذه القواعد تُنتَهك خلال العيد الوطني، في العشرين تموز، والتناوب على الغداء يمتدّ حتى يأكل الجميع. أما ليلا فلا يقدّم طعام، بل تُوزَّع فناجين القهوة بالحليب في المطبخ مع حلوى الجدّة اللذيذة. وحين تُغلَقُ الأبواب كان كلّ واحد يعلّق شبك نومه حيث يستطيع على مستوياتٍ مختلفة وحتى بين أشجار الفناء.

إحدى فانتازيات تلك السنوات جموحاً عشتها يومَ جاءت مجموعةُ رجالٍ متساوين في اللباس والقبعات ومهاميز الخيالة، وقد رسم الجميعُ صليباً بالرماد على جباههم. إنّهم أولاد الكولونيل الذين أنجبهم على امتداد المقاطعة خلال حرب الألف يوم. وقد جاءوا من قراهم ليهنئوه بعد شهر بعيد ميلاده. حضروا قبل أن يأتوا إلى الدارِ أربعاءَ الرماد، وبدا لي الصليب الذي رسمه على جباههم الأبُ أنغاريتا شعاراً خارقاً للطبيعة، لاحقني لغزه لسنوات حتى بعد أن تآلفتُ مع طقوس أسبوع الآلام.

كان معظمهم قد وُلِد بعد زواج جدّيّ. كانت مينا تسجِّلُ أسماءهم وكناهم في دفتر ملاحظات ما إنْ تعلم بخبر ولادتهم، ثم تنتهي بتسامحٍ صعب، فتدخلهم من كلّ قلبها في عداد الأسرة. ومع ذلك لم يكن سهلاً عليها ولا على غيرها أن تُميِّز بينهم قبل تلك الزيارة الصاخبة التي كشف فيها كلّ واحدٍ منهم طريقته الخاصّة

بالحياة. كانوا جدّيين، كادحين، ملتزمين ببيوتهم ومسالمين. ومع ذلك لم يكن يُخيفهم أن يغيبوا عن الوعي في لهوهم الليليّ. كسّروا الصحون، وخرّبوا شجيرات الورد وهم يُلاحقون عجلاً كي يُصارعوه، قتلوا الدجاجات رمياً بالرصاص لطهو السانكوتشو وأفلتوا خنزيراً مشحماً تعثر بِمُطَرِّزات الممر، لكنّ أحداً لم ينزعج من تلك البلايا نظراً لعاصفة الفرح التي يحملونها في داخلهم.

بقيت ألتقي دائماً باستِبان كارِّيليو، توأم الخالة إلبيرا، الماهر في الأعمال اليدوية، الذي كان يُسافر حاملاً معه صندوقَ أدواتِ تصليحٍ يصلح بها أيّ عطل في البيوت التي يزورها مجاناً. ملأ بروحه المرحة وذاكرته الجيّدة فراغاتٍ عديدة كانت تبدو عصيّة في تاريخ الأسرة. كما تردَّدتُ في مراهقتي على الخال نيكولاس غومِثْ، الشديد الشقرة ذي النمش الملون الذي حافظ على عمله كحانوتيّ في مستعمرة فونداثيون الجنائية القديمة. كان يودّعني متأثراً بسمعتي كرجلٍ ميؤوس منه، بكيسٍ مجهز جيّداً لمتابعة السفر. كان رافائيل أرياس يصل دائماً بلباس الفروسية على متن بغل بشكلٍ عابر وسريع، لا يكاد يمكث الوقت الكافي لتناول فنجان قهوة وقوفاً في المطبخ. التقيت بالآخرين فرادى في رحلات الحنين التي قمت بها إلى قرى المقاطعة لكتابة رواياتي الأولى، وقد اشتقت دائماً لصليب الرماد على الجبين كعلامة مميّزة للأسرة.

بعد سنوات من وفاة الجدّين، وترك بيت النبيل لقدره وصلت إلى فونداثيون في قطار الليل، وجلستُ في دكان الطعام الوحيدة المفتوحة في المحطّة في تلك الساعة. لم يكن قد بقي فيها إلا القليل مما يُقدَّم، لكنّ صاحبته ارتجلت صحناً على شرفي. كانت ثرثارة وخدومة بدا لي كأنّني أستشفُّ في أعماقِ تلك الفضائل الوديعة عريكةَ نساء القبيلة القوية. تأكّدت من ذلك بعد سنوات: الجميلةُ صاحبة المحل كانت سارة توريبيغا، واحدة أخرى من خالاتي المجهولات.

أبّولينار، العبد القديم الصغير والخلاسي الذي تذكّرته دائماً كعمّ، اختفى لسنوات من الدار ليظهر ذات مساء دون مبرر، مرتدياً

ثيابَ حِدادٍ، طقماً من الجوخ الأسود، ويضع قبعةً هائلة سوداء، بدورها قد هبطت حتى عينيه العنيدتين. قال أثناء عبوره بالمطبخ إنّه ذاهب إلى الجنازة، لكنّ أحداً لم يفهم ما عناه حتى اليوم التالي، حين وصل خبر أنّ الجدّ توفّي لتوّه في سانتا مارتا، التي حملوه إليها بسرعة وسريّة.

الخال الوحيد الذي كانت له شهرة عامة هو أكبرهم والوحيد المُحافِظ، خوسِهْ ماريّا بالدِبلانكِثْ، الذي صار سيناتور الجمهورية خلال حرب الألف يوم. حضر بصفته هذه توقيعَ استسلام الليبراليين قرب مزرعة نيرلانديا. أمامه، وفي طرف المهزومين كان يجلس والده.

أعتقد أنّني مدينٌ بجوهر طريقتي في الحياة والتفكير إلى مساء الأسرة إلى كثيرٍ من الخادمات اللواتي رعين طفولتي. كنَّ قويّات المزاج، رقيقاتِ القلب ويُعاملنني بطبيعيةِ الفردوسِ الأرضيّ. من بين الكثيرات اللواتي أذكرهنّ، لوثيّا الوحيدة التي فاجأتني بخبثها الصبياني، حين حملتني إلى زقاق الضفادع ورفعت ثوبها حتى خصرها كي تُريني عانتها النحاسية الشعثاء. ومع ذلك ما لفت انتباهي بقعة جلدية(*) تنتشر في بطنها كأنّها خريطة العالم بهضاب بنفسجية ومحيطات صفراء. كانت الأخريات يبدين ملائكة في النقاء، يبدّلن ملابسهنّ أمامي يغسلنني أثناء استحمامهنّ، يُقعدنني على مبولتي، ويجلسن أمامي على مباولهنّ ليفضينَ بمكنونهنَّ، ويخفّفن آلامهنّ وحنقهنّ كأنّني لا أفهم، فلا ينتبهن إلى أنّني كنتُ أعرف كلَّ شيء، لأنّني كنتُ أجمع بين ما يُخلّفنه متفرّقاً.

كانت تشون تنتمي للخدم وللشارع. وصلت من باراّنكاس مع جدّيَّ وهي ما تزال طفلة. ترعرعت في المطبخ، لكنّها اندمجت في الأسرة، عاملوها معاملة خالةٍ قليلة الخبرة بعد رحلتها إلى المقاطعة مع أمّي العاشقة. انتقلت في سنواتها الأخيرة إلى غرفة في أفقر أنحاء البلدة، لأنّه خطر لها ذلك، وصارت تعيش مما تبيعه من كرات

(*) Mancha de carate من أمراض الزنوج في أمريكا الوسطى، وخاصّة في كولومبيا.

الذرة المطحونة للخبز في الشارع منذ الفجر بنداء صار مألوفاً في صمت السحر: «عجائن العجوز تشون المثلجة».

كان لها لون هنديّة جميل، وبدت منذ البداية عظاماً خالصة، تسير حافية وعلى رأسها عمامة بيضاء وتلف نفسها بملاءات منشاة. كانت تسير ببطء شديد على قارعة الطريق تحيط بها ثلة من الكلاب الوديعة والصامتة، تتقدّم حائمة حولها. انتهت بأن أصبحت جزءاً من فولكلور البلدة. ظهر في أحد الكرنفالات قناع مطابق لها بملاءاتها وندائها، وإن لم يتمكّنوا من ترويض ثلة حرس من الكلاب ككلابها. وصار نداؤها عن الكرات المثلجة من الشعبية بحيث أنّه كان دافعاً لأغنية لعازفي الأكورديون. وفي صباح مشؤوم هاجم كلبان شرسان كلابَها، فدافعت هذه عن نفسها بشراسة وسقطت تشون على الأرض وانكسر عمودها الفقري. لم تعش بعدها رغم العلاجات الطبية التي قدّمها إليها جدّايَ.

ثمّة ذكرى أخرى موحية من تلك الأيام هي ولادة ماتيلدِ أرمِنتا، الغاسلة التي عملت في الدار حين كنت في السادسة من عمري تقريباً. دخلتُ إلى غرفتها خطأً فرأيتها عارية مباعدة بين ساقيها على سرير الخيش تعوي ألماً بين مجموعة من القابلات بلا نظام ولا عقل تقاسمن جسدها ليساعدنها على الولادة صارخات بأعلى أصواتهنّ. واحدة تمسح العرق عن وجهها بمنشفة مبللة، وأخريات يمسكنها بالقوّة من ذراعيها وساقيها ويدلكنَ بطنها لتسريع الولادة. كانت سانتوس بيِّروس، باردة الأعصاب وسط الفوضى، تتمتم صلوات الأمان مغمضةَ العينين بينما تبدو كأنّها تحفر بين فخذي النفساء. كان الحرّ لا يُطاق في الغرفة المليئة بالبخار بسبب قدور الماء المغلي التي كنّ يأتين بها من المطبخ. بقيت في زاوية موزّعاً بين الخوف والفضول إلى أن أخرجت المولِّدة شيئاً من لحم حيٍّ من رسغيه، بأحشاءٍ دامية معلقة إلى السرّة مثل عجل خرج من بطن أمّه توّاً. اكتشفتني إحدى النسوة في الزاوية وأخرجتني جرّاً من الغرفة.

ـ لقد ارتكبتَ خطيئة قاتلة ـ قالت لي. وأمرتني بإصبع متوعّدٍ ـ: إيّاك أن تتذكّر ما رأيت.

بينما المرأة التي انتزعت براءتي لم تقصد ذلك، ولم تعرف به قط، فقد كانت تُدعى ترينيداد، وهي ابنة مجهولة الأب عملت في الدار، ولم تكد تزهر في ربيع عمرها القاتل. كانت في حدود الثالثة عشرة من عمرها، وما تزال تستخدم ثياب التاسعة، التي تضغط على جسدها فتبدو عارية أكثر مما لو كانت بدون ثياب. وذات ليلة بينما كنّا وحدنا في الفناء انفجرت فجأة موسيقى جوقة في الدار المجاورة، فأخرجتني ترينيداد للرقص بعناق كان من الشدّة بحيث قطع عني الهواء. لا أدرى ماذ حلّ بها، لكنّني ما زلتُ حتى الآن أستيقظُ في منتصف الليل مضطرباً من التأثّر، وأعرف أنّ باستطاعتي التعرف عليها في الظلمة من ملمس كلّ فترٍ من جسدها ورائحة الحيوانِ عندها. في لحظة أدركتُ عمل جسدي بوضوحِ الغرائزَ التي لم أشعر بها بعدها قط وأجرؤ على تذكّرها كموت لَذيذ. مذّاك عرفت بطريقة مشوّشة وخيالية أنّ هناك لغزاً عصياً لا أعرفه، لكنّه يقلقني كما لو كنت أعرفه. كانت نساء الأسرة اللواتي حملنني دائماً عبر طريق الحشمة الوعر على النقيض منها.

علّمني فقداني لبراءتي في الوقت ذاته أنّه ليس الطفل الربّ من كان يأتي بالألعاب في عيد الميلاد، لكنّني تفاديت قوله. في العاشرة من عمري كشفه لي أبي كنوع من سرّ الكبار، لأنّه كان يعتبر معرفتي به بحكم القائم فأخذني إلى حوانيت ليلة رأس السنة لأختار ألعاب أخوتي. الشيء ذاته حدث لي مع لغز الولادة قبل أن أحضر ولادة ماتيلدِ أرمِنتا. كنتُ أختنق من الضحك وأنا أسمع أنَّ الأطفال يأتي بهم اللقلق من باريس. لكن عليّ أن أعترف أنّني لم أتمكن وقتها ولا الآن من الربط بين الولادة والجنس. في جميع الأحوال أعتقد أنّ حميميتي مع الخادمات يمكن أن تشكل خيط الوصال السري الذي أعتقد أنّه قائم بيني وبين النساء والذي سمح لي على امتداد حياتي أن أشعر بالراحة والأمانِ بين النساء أكثر مما بين الرجال. من هناك يمكن أن تأتي أيضاً قناعتي بأنّهن عماد العالم الذي نخرّبه نحن الرجال بوحشيتنا التاريخية.

كان لسارا إميليا ماركيز علاقة ما بمصيري دون أن تدري.

حزمت أمرها، هي التي لاحقها الراغبون بها، دون أن تُكلّف خاطرها بالنظر إليهم، على أوّل واحد بدا لها جيّداً وللأبد. كان بين المختار وبين أبي شيء مشترك، فهو غريب وافِد لا أحد يعرف كيف ولا من أين جاء، مع حسن سلوك، لكن دون موارد معروفة. كان يُدعى خوسِهْ دِل كارمِن أوريبِ بِرخِل، لكنّه كان يوقّع أحياناً بِـ خ. دِل ث. وقد مرّ بعض الوقت قبل أن يُعرف من كان ومن أين جاء إلى أن عُرف ذلك من خلال الخطابات التي كان يكتبها للموظفين العموميين، وأشعار الحب التي ينشرها في مجلته الثقافية الخاصّة، التي كان صدورها يتعلق بإرادة الله. منذ أن مَثُل في الدار شعرتُ بإعجاب كبير بشهرته ككاتب، فهو أوّل كاتب عرفته في حياتي. وعلى الفور أردتُ أن أصبح مثله، ولم أرتح حتى تعلّمت الخالة ماما(*) أن تسرِّح لي شعري مثله.

كنتُ أوّل من علم من الأسرة بغرامياته، فقد دخل ذات ليلة البيت المقابل بينما كنتُ ألعب مع بعض أصدقائي. ناداني جانباً وهو في وضعٍ واضحِ التوتر، وأعطاني رسالة إلى سارا إميليا. كنتُ أعرف أنّها تجلس في باب دارنا تهتمّ بزيارة صديقة. عبرتُ الشارع واختبأتُ خلف إحدى أشجار اللوز ورميت بالرسالة بدقّة بلغت حدّ أنّها سقطت في حضنها. رفعتْ يديها مذعورةً، لكنّ صرختها بقيت في حنجرتها حين عرفت حبر المغلّف. مذاك صارت إميليا و خ. دِل ث. صديقين لي.

إلبيرا كارِّيو توأم الخال إستِبان كانت تلوي قصبة سكّر وتعصرها بيديها، وتستخرج عصيرها بقوّة مَعصرة. كانت مشهورة بصراحتها الفجّة أكثر من رقتها التي تعرف كيف تسلي الأطفال من خلالها، وخاصّة أخي لويس إنريكِهْ، الأصغر مني بسنة. والذي كانت ملكته وفي آنٍ معاً شريكته المتواطئة، وعمّدها بالاسم الغامض الخالة بّا. اختصّت دائماً بحلِّ المشاكل المستعصية على الحلّ. كانت هي وإستِبان أوّل من وصل إلى بيت كاتاكا، لكن بينما عثر هو على

(*) ماما هو لقبُ الخالة.

طريقه في جميع أنواعِ المهن والصفقات المثمرة، بقيت هي خالةً ضرورية في الأسرة دون أن تدري قط أنّها كذلك. كانت تختفي حين لا تكون ضرورية، لكن لا أحد يعرف كيف ولا من أين تظهر حين الحاجة. كانت في لحظاتها السيّئة تُكَلِّم نفسها وهي تُحَرِّك القدرَ، وتكشف بصوتٍ عالٍ عن مكان الأشياء التي تُعتَبَر مفقودة. بقيت في الدار بعد أن دَفنت الكبار، بينما راحت الأعشابُ تلتهم المكانَ شبراً فشبراً، والحيواناتُ تتوه في غرف نومه، كان سعال من العالم الآخر يُعكِّرُ صفوَها في الغرفة المجاورة.

كانت فرانسيسكا سيمودوسيا ـ الخالة ماما ـ جنرال القبيلة، التي توفّيت عذراء في التاسعة والسبعين من عمرها، مختلفةً عن الجميع في عاداتها ولغتها. فثقافتها لم تكن ثقافة المقاطعة، بل ثقافة الفردوس الإقطاعي في سهوب بوليفار، الذي كان قد هاجر إليه أبوها، خوسِه ماريّا مِخيّا بيدال من ريوهاتشا في ريعان الشباب، حاملاً معه فنون صياغة الذهب. كانت قد تركت شعرَها الذي يُشبِه شعر خنزير داكن، وأبى الشيبَ حتى عمرٍ متقدّمٍ من شيخوختها، يطول حتى عرقوبيها. كانت تغسله بماء العطر مرّةً في الأسبوع، وتجلسُ عدّةَ ساعات في باب غرفةِ نومها لتسرّحه بطقوس قدسية، مستهلكة بلا كلل بقايا تبغ خشن تُدخِّنه بالعكس، النار داخل فمها، مثلما كانت تفعل القوّاتُ الليبرالية كيلا يكتشفها العدوّ في ظلمة الليل، مثلما كانت طريقتها باللباسِ مختلفة: سروال وصدرة من الكتان النقيّ، وبابوج مخملي.

على العكس من نقاء لغة الجدّة الفصيحة كانت ماما الأكثر طلاقة في المصطلحات الشعبية. لا تتحفَّظ أمام أحد، ولا في أيّ ظرف، وتعطي كلّ ذي حقّ حقّه في وجهه. بما في ذلك الراهبة، معلمة أمّي في مدرسة سانتا مارتا الداخلية. التي جمّدتها بسبب وقاحتها المبتذلة: «أنتِ ممن لا يفرقون بين الإست وأيام الصوم الأربعة». ومع ذلك كانت تتدبّر أمرها دائماً فلا تبدو فظّة ولا مهينة.

بقيت نصف حياتها حاملة مفاتيح المقبرة، تُسجّل وتُصدِر بيانات الوفاة وتصنع في البيت الخبز المقدس للقداس الكبير. كانت

الوحيدة في الأسرة من كلا الجنسين، التي يبدو أنّ ألم الحبّ المعارَض لم يخترق قلبها. وعينا ذلك ذات ليلة حين استعدّ الطبيب ليضع لها مجسّاً ومنعته لسبب لم أفهمه إذاك: «أريد أن ألفت انتباهك، يا دكتور إلى أنّني لم أعرف رجلاً قط».

بقيتُ مذاك أسمع هذا منها باستمرار، لكنّني لم ألاحظ أنّه تبجّح ولا ندم، بل عمل نافذ لم يترك أيّ أثرٍ على حياتها. بالمقابل كانت واسطة زواج ماكرة، لا بدّ أنّها عانت في لعبتها المزدوجة بترتيبها غرفة والديّ دون أن تخون مينا.

يبدو لي أنّها كانت تتفاهم مع الأطفال أكثر مما مع الكبار. هي من اهتمّت بسارا إميليا، حتى انتقلت هذه من تلقاء نفسها إلى غرفة كُتيبات كالييخا. وعندئذ استقبلتنا أنا ومارغوت مكانها وإن بقيت جدّتي هي من تقوم على نظافتي الشخصية، وجدّي على إعدادي كرجل.

أكثر ذكرياتي مصدراً للقلق من تلك المرحلة هي ذكرى الجدّة بِترا، أخت جدّي الكبرى التي تركت ريوهاتشا لتعيش معهم حين عميت. كانت تعيش في الغرفة المجاورة للمكتب، التي صارت محل الصياغة لاحقاً. وطوّرت مهارة سحرية للتصرف في ظلماتها دون مساعدة من أحد. ما زلتُ أتذكّرها كما لو أنه البارحة، وهي تسير دون عكّازٍ وكأنّها بكلتي عينيها، بطيئة، لكن دون تردّد تهتدي بالروائح المختلفة وحدها. كانت تعرف غرفتها من رائحة حامض الهيدروكلوريك المنبعث من حانوت الصياغة المجاور، والممر من رائحة ياسمين الحديقة، وغرفة نوم الجدين من رائحة كحول الخشب الذي كانا يستخدمانه في تدليك جسديهما قبل النوم، وغرفة الخالة ماما من رائحة زيت مصابيح المذبح، ونهاية الممر من رائحة المطبخ اللذيذة. كانت رشيقة وصموتة، لها بشرة سوسنة ذابلة، وشعر مشع، لؤلؤي اللون تعتني به بنفسها وتتركه مسدلاً حتى خصرها. كانت حدقتاها الخضراوان، الصافيتان، حدقتا المراهقة، تبدلان نورهما حسب حالتها النفسيّة. في جميع الأحوال كانت مشاوير عرضية، فقد كانت تقضي اليوم كلّه في غرفتها موصدة

الباب، وحيدة دائماً تقريباً. تغنّي أحياناً لنفسها بصوت خافت يمكن أن يُخلط بينه وبين صوت مينا، لكنّ أغانيها كانت مختلفة وأكثر حزناً. سمعتُ أحدَهم يقول إنّها من أغاني ريوهاتشا الفردية، ولم أعرف أنّها كانت تبتدعها بنفسها أثناء غنائها إلا بعد أن كبرتُ. لم أستطع مرتين أو ثلاث مرّاتٍ أن أُقاوم إغواء الدخول إلى غرفتها دون أن ينتبه أحد، لكنّني لم أجدها. بعد سنوات رويت لأمّي في عطلة الثانوية تلك الذكريات فسارعت لتُقنعني بخطئي. كانت حجتها مطلقة، واستطعت أن أتأكّد منها دون أدنى شك: الجدّة بّترا ماتت حين لم أكن قد بلغتُ العامين.

كنّا ننادي الخالةَ وِينفريدا نانا، وكانت أكثر أبناء القبيلة مرحاً وظرافة، لكنّني لا أستطيع تذكّرها إلا وهي على فراش المرض. كانت متزوّجة من رافائيل كينتِرو أورتيغا ـ العم كينتِ ـ محامي الفقراء المولود في تشيّا، على بعد خمسة عشر فرسخاً تقريباً من بوغوتا وعلى مستوى البحر ذاته. لكنّه تكيّف مع الكاريبي إلى حد أنّه كان يحتاج في جحيم كاتاكا إلى زجاجات الماء الساخن عند قدميه كي يستطيع أن ينام في برد كانون الأول الخفيف. كانت الأسرة قد تعافت من فاجعة مِدرادو باتشِكو، حين جاء دور العم كينتِ ليعاني من فاجعة قتله لمحامي الخصم في جدالٍ قضائي. كان له صورة رجل طيّبٍ ومسالم، لكنّ الخصم ضايقه بشكلٍ متواصِل ولم يبق أمامه من وسيلة إلا أن يتسلّح. كان من صغر الحجم والضعف بحيث أنّه كان ينتعل حذاء طفل ويسخر منه أصدقائه سخريات ودّية، لأنّ المسدس يبدو مدفعاً تحت قميصه. حذّره الجدّ جدّياً بجملة مشهورة: «أنت لا تعرف كم يُثْقِل عليك المقتول». لكنّ العمّ كينتِ لم يملك وقتاً كي يُفكِّر بالأمر حين قطع عليه العدوّ الطريق بصراخ مجنون في قاعة انتظار المحكمة، وارتمى فوقه بجسده الهائل. «لم أنتبه ولا حتى كيف سحبت المسدس وأطلقت النار في الهواء، بكلتا يديّ، وبعينين مغمضتين» قال لي العمّ كينتِ قبل موته المئوي بقليل. «حين فتحتُ عينيّ ـ حكى لي ـ رأيته ما يزال منتصباً على قدميه، ضخماً وشاحباً، وراح يهوي ببطء شديد إلى أن بقي جالساً على

الأرض». لم يكن العمّ كينتِ قد انتبه حتى تلك اللحظة إلى أنّه أصابه في وسط جبهته. سألته بماذا شعر حين رآه يسقط، وفاجأتني صراحته:

ـ براحة هائلة!

آخر ذكرى لي عن زوجته وينفريدا هي ذكرى ليلة غزيرة الأمطار، رَقَتها فيها ساحرة. لم تكن ساحرة عادية، بل امرأة ظريفة، ترتدي ملابس جيّدة على الموضة، تبعد بحزمة من القرّاص الأمزجةَ السيّئة من الجسد، بينما هي تغنّي تعويذة كأنّها أغنية مهدٍ. فجأة تلوّت نانا باختلاجات عميقة وفرّ عصفور بحجم فروج متموِّج الألوان من بين الملاحف. أمسكت به المرأةُ بضربة ماهرة في الهواء، ولفّته في خرقة سوداء كانت قد حضّرتها، وقذفت بالعصفور دون أيّ طقس بين النيران. لكنّ نانا لم تُشفَ من أمراضها.

عادت نار الفناء يعد قليل لتشتعل، ووضعت دجاجة بيضة خيالية بدت مثل كرة الطاولة، ولها زائدة مثل قبعة الجمهورية الفرنسية. عرفتها جدّتي على الفور: «إنّها بيضة أفعوان»، ورمت بها هي نفسها إلى النار متمتمةً بصلوات التعاويذ.

لم أستطع قطّ أن أتصوّر الجدَّيْن في عمر مختلف عن العمر الذي احتفظتُ به في ذاكرتي عن تلك المرحلة. إنّه ذاته الذي لهما في الصور التي التقطوها لهما على أبواب الشيخوخة، بنسخها التي راحت تبهت في كلّ مرّة أكثر وتنتقل مثل طقس قبليّ عبر أربعة أجيال كثيرة النسل. خاصّة صور الجدّة ترانكيلينا، أكثر النساء اللواتي عرفتهنّ في حياتي تصديقاً وحساسيةً نظراً للذعر الذي كانت تسبّبه لها ألغاز الحياة اليومية. كانت تُحاول أن تنسى أعمالها اليومية مغنيّة بأعلى صوتها أغاني عشاق قديمة، لكن سرعان ما تقطعها بصيحات حرب ضدّ الجبرية.

ـ يا مريم الطاهرة!

كانت ترى أنّ الكراسي الهزّازة تهتزّ لوحدها، وشبح حمى النفاس قد دخلت إلى غرف نوم النفساوات، وأن رائحةَ ياسمين

الحديقة شبحٌ غير مرئيّ، وأنّ حبلاً مرمياً على الأرض له شكل أرقام ورقة يا نصيب الجائزة الكبرى، وطائراً بلا عينين تاه في غرفة الطعام ولم يستطيعوا أن يبعدوه إلا بـ «الرائعة المغناة». كانت تعتقد أنّها تفكّ برموز سرية هويةَ أبطالِ وأماكن الأغاني التي كانت تصلها من المقاطعة. كانت تتصوّر فواجع ستحدث عاجلاً أو آجلاً. تشعر مسبقاً بمن سيصل من ريوهاتشا بقبّعة بيضاء، أو من ماناورِ وقد أصيب بمغصٍ لا يمكن شفاؤه إلاّ بصفراء طائر الزمّاح الملكي، فهي بالإضافة إلى أنّها كانت تمتهن التنبؤ كانت طبيبة شعبية سريّة.

كان لها نظامها الشخصي جدّاً في تفسير الأحلام الخاصة والغريبة التي تحكم حياة كلّ واحدٍ منّا وتحدّد حياة البيت. ومع ذلك كانت على وشك أن تموت دون سابق إنذار، حين نزعت بشدّةٍ واحدة ملاحفَ السرير، وخرجت طلقة من المسدس الذي كان يُخبِّئه الكولونيل ليكون في متناول يده أثناء نومه. ثبت من خطّ سيرِ الطلقة التي دخلت في السقف أنّها مرّت قريبة جدّاً من وجهها.

منذ أن صرت أتذكّر عانيت من العذاب الصباحي بأنّ مينا تنظِّفُ لي أسناني بالفرشاة، بينما هي تتمتع بميزة سحرية تخلع بها أسنانها لتغسلها وتتركها في كأسٍ من الماء أثناء نومها. وبما أنّني كنتُ مقتنعاً بأنّها تنزع أسنانها الطبيعية وتضعها بفنون غواخيرية، جعلتها تريني داخل فمها كي أرى كيف هو قفا العينين والدماغ والأنف والأذنين، وأصبت بالخيبة لأنّني لم أر غير سقف الحلق. لكنّ أحداً لم يفكّ لي لغز تلك الميزة، وأصررت لزمن على أن يفعل لي طبيب الأسنان ما فعله لجدّتي كي تغسل لي أسناني بينما أنا ألعب في الشارع.

كان بيننا نوع من الشيفرة السرية نتواصل بها مع كون خفيّ. كان عالمها السحري يبدو لي مذهلاً في النهار، لكنّه يسبّب لي في الليلِ رعباً خالصاً وبسيطاً: الخوف من الظلمةِ السابقة على وجودنا، الخوفُ الذي لاحقني طوال حياتي في دروب موحشة، بل وحتى في مغاور رقص العالم كلّه. في دار جدّي كان لكلّ قديس غرفته ولكلّ غرفة ميّتها. لكنّ الدار الوحيدة التي عُرِفَتْ رسمياً باسم «دار الميت»

كانت الدار المجاورة لدارنا، وميّتُها هو الوحيد الذي عرّف بنفسه في جلسة استحضار أرواح باسم إنساني: ألفونسو مورا. شخص قريب منه أخذ على عاتقه تحديد هويته في سجلات التعميد والوفيات، وعثر على عدد من أسماء السميِّين، لكن ما من واحد منها دلّ على أنّه الاسم المقصود. كانت تلك لسنوات دار الخوري، وراجت كذبة أنّ الشبح هو نفسه الأب أنغاريتا، لإبعاد الفضوليين الذين راحوا يتجسّسون عليه في أثناء مغامراته الليلية.

لم أتمكن من معرفة مم(*)، العبدة الغواخيرية التي حملتها الأسرة معها من بارّانكاس وهربت ذات ليلة عاصفة مع أليريو، أخيها المراهق، لكنّني سمعت دائماً أنّهما هما من تَبَّلا لغةَ الدار بلغتهم الأصلية. لغتها القشتالية المعقدة أدهشت الشعراء منذ اليوم الذي عثرت فيه على علبة ثقاب أضاعها الخال خوان دِ ديوثْ، وأعادتها إليه بلغتها الخاصّة الانتصارية:

- أنا هنا ثقابك.

كان من الصعب تصديق أنّ الجدّة مينا ونساءها الساهيات كنَّ العماد الاقتصادي للبيت حين راحت تتداعى الموارد الاقتصادية. كان الكولونيل يملك بعض الأراضي المبعثرة التي راح يشغلها المستعمرون الكاتشاكويون، ورفض أن يطردهم منها. اضطر في إحدى حالاته الحرجة أن يرهن دار كاتاكا لينقذ شرف أحد أبنائه وكلّفه ثروة طائلة عدم خسارته. وحين لم يعد هناك ما يكفي بقيت مينا تُعيل الأسرة بعزيمة بعملها في الفرنِ، وحيواناتِ السكاكر التي كانت تُباع في كلّ أنحاء البلدة، والدجاجاتِ الملونة، وبيضِ البط وخضراوات الفناء الداخلي. خفَّضَت عددَ الخدم إلى أدنى حدّ، مبقية على أكثرهم فائدة. صار لا معنى للنقود في تقاليد البيت الشفوية؛ حتى أنّهم حين اضطروا لأن يشتروا بيانو لأمّي عند عودتها من المدرسة عملت الخالة «بّا» والحسابَ الدقيق بالعملة المنزلية: «البيانو يُكَلّف خمسمئة بيضة».

(*) اسم العبدة.

وسط ذلك الجيش من النساء الإنجيليات شكّل الجدُّ بالنسبة إليَّ الأمان التام. معه وحده فقط كانٍ يختفي القلقُ، وأشعرُ بقدميّ راسختين على الأرض وبي راسخاً تماماً في الحياة. الغريب في الأمر، أفكّرُ الآن، أنّني كنتُ أريدُ أن أُصبح مثله، واقعياً، شجاعاً، واثقاً، لكنّني لم أستطع قط أن أُقاوم الإغواء المُلِح بالإطلال على حياة الجدّة. أتذكّره رجلاً ربعاً، متورِّداً، بصلعته البرّاقة التي تعلوها بعض الشعرات الشائبة؛ بشاربيه حسني التشذيب، الشبيه بفرشاة، ونظارته الدائرية بإطارها الذهبيّ. كان هادئ الكلام، متفهماً ومصالحاً في أيام السلم، لكنّ أصدقاءه المحافظين يَذكرونَهُ عدوّاً مهيباً في خطوب الحرب.

لم يستخدم اللباس العسكري الموحّد قط، فرتبته كانت ثورية وليست أكاديمية، لكنّه بقي يستخدم القميص النصفي ذا الجيوبِ، الذي كان شائع الاستخدام بين عسكر الكاريبي المجربين زمناً طويلاً بعد انتهاء الحروب. منذ أن صدر قانون التقاعد الحربي ملأ الأوراق المطلوبة كي يحصل على معاشه، وبقي كما بقيت زوجته وورثته الأقربون ينتظرونه حتى مات. جدّتي ترانكيلينا، التي ماتت بعيداً عن ذلك البيت، عمياء، هرمة، نصف معتوهة، قالت لي في آخر لحظات صحوها: «سأموت مطمئنة، لأنّني أعلم أنكم ستتلقون مَعاش نيكولاسيتو».

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها تلك الكلمة الأسطورية التي زرعت في الأسرة بذرة الأوهام الخالدة: التقاعد. دخلت إلى البيت قبل ولادتي حين خصَّصت الحكومة معاشات لقدماء محاربي حرب الألف يوم. وضع جدّي بنفسه المحضر مع فرط بالشهادات المحلفة والوثائق المثبتة وأخذها بنفسه إلى سانتا مارتا كي يوقّع بروتوكول التسليم. وحسب أقلِّ التقديرات تفاؤلاً كان مبلغاً كافياً له ولذريته حتى الجيل الثاني. «لا تقلقوا ـ كانت الجدّةُ تقول لنا ـ فنقود التقاعد يجب أن تكفي الجميع». البريد، الذي لم يكن مستعجلاً قط في الأسرة تحوّل إلى رسولِ العنايةِ الإلهية.

أنا نفسي لم أستطع تفادي ذلك، رغم شحنة الشك التي أحملها

في داخلي. ومع ذلك كان مزاج ترانكيلينا في بعض المناسبات لا ينطبق أبداً على اسمها(*). سُجِن جدّي في حرب الألف يوم في ريوهاتشا على يدِ ابن عمّ لها كان ضابطاً في جيشِ المحافظين. فاعتبره الأقرباء الليبراليون، واعتبرته هي أيضاً عملاً حربياً لا دور فيه للسلطة العائلية. لكن حين علمت الجدّة أنّهم يُكبّلونه بالأغلال، كما لو كان مجرماً عادياً، واجهت ابن العمِّ مثل شرذمة كلابٍ شاردة وأجبرته على أن يُسلّمه إليها سليماً معافى.

كان عالَمُ الجدّ عالَماً آخر مختلفاً جداً. فهو حتى في سنواته الأخيرة كان يبدو رشيقاً أينما كان يسير، حاملاً معه صندوق معداته لإصلاح أعطال البيوت، أو حين كان يضخّ الماءَ للحمّام بمضخة الفناءِ الداخلي اليدوية ساعاتٍ بطولها، أو حين كان يصعد السلّم شديد الانحدار كي يتأكّد من كمية الماء في البراميل. بالمقابل كانَ يطلب مني أن أعقد له رباطَ حذائِهِ لأنّ نَفَسَهُ كان ينقطع حين يُحاوِلُ أن يفعلَ ذلك بنفسه. ومن المعجزة أنّه لم يمت في الصباح الذي حاول فيه أن يمسك بالببغاء الأعشى الذي صعد إلى البراميل. كان قد تمكّن من الإمساك به من عنقه حين انزلق عن السلم وسقط على الأرض عن ارتفاع أربعة أمتار. لم يستطع أحد أن يفسّر كيف استطاع أن ينجو بوزنه البالغ تسعين كيلوغراماً وسنواته الخمسين ونيّف. إنّه بالنسبةِ إليّ اليوم الذي لا يُنسى، الذي فحصه فيه الطبيب عارياً في السرير، شبراً شبراً، وسأله عن تلك الندبة القديمة التي اكتشفها في أُربيته بطول نصف فتر،.

ـ رصاصة من الحرب ـ قال الجدّ.

حتى الآن لم أخرج من تأثري. كما لا أخرج من اليوم الذي أطلّ فيه من نافذة مكتبه على الشارع ليتعرف عرضاً على جواد أرادوا بيعه وشعر فجأة بعينه تمتلئ ماءً. حاول أن يحمي نفسه بيده فاستقرّت في يده قطرات قليلة من سائل صاف. لم يفقد عينه اليمنى وحسب، بل لم تسمح له جدّتي بشراء الحصان المسكون بالشيطان.

(*) يمكن ترجمتها بسكينة، من هنا الإشارة إلى تطابق المزاج مع الاسم.

استخدم لزمن قصير عصابة القرصان الجلدية على التجويف الغائم إلى أن استبدلها له طبيب العينية بنظارة حسنة الدرجات، ووصف له عكّازاً de carreto أصبح علامة مميزة له، مثله مثل ساعة الصدرة بسلسلتها الذهبية، التي كان غطاؤها ينفتح بغتة على نغمة موسيقية. اشتهر دائماً بأنّ غدر السنين الذي بدأ يُقلقه لم يؤثّر قط على مهارته كغاوٍ سرّيٍّ وعاشق ممتاز.

في حمام الساعة السادسة صباحاً الطقسي، الذي مارسه في سنواته الأخيرة معي دائماً. كنّا نضع ماء في البركة بآنية التوتوما، وننتهي مبللين بماء فلوريد لانمان وكِمبز، الذي كان يبيعه مهربو كوراثاو في صناديق واصلاً إلى البيوت مثل البراندي وقمصان الحرير الصينية. سُمع أحياناً يقول إنّه العطر الوحيد الذي كان يستخدمه، لأنّه لا يشعر به إلاّ من يضعه، لكنّه لم يعد يصدّق ذلك بعد أن اكتشفه أحدهم على وسادة غريبة. قصّة أخرى سمعتهم يردّدونها لسنوات كثيرة، هي أنّ الجدّ سكب ذات ليلة انقطع فيها الكهرباء عبوةَ حبر على رأسه ظانّاً أنّها ماء فلوريد.

كان يستخدم لأعماله اليومية في الدار بنطلونَ الكتان بحامله المطاطي الدائم، وحذاءً ناعماً وقبعة مخملية ذات شفّ. أمّا بالنسبة إلى قداسات أيّام الآحاد التي لم يغِبْ عنها إلاّ لأسباب قاهرة أو إلى المناسبات أو المذكرات اليومية، فقد كان يرتدي طقماً كاملاً من الكتان الأبيض بقبّة من السيليولويد (الباغة) وربطة عنق سوداء. لا شكّ أنّ هذه المناسبات النادرة جعلته يشتهر بأنّه مغفّل ومتعجرف. الانطباع الذي عندي اليوم هو أنّ الدار بكلّ ما كان فيها لم توجد إلاّ له. كانا زوجين نموذجيّين للفحولية في مجتمع أموميّ، يُعتبر الرجلُ فيه ملكاً مطلقاً على بيته، بينما الحاكم الفعلي فيه الزوجة. وإذا ما تكلّمنا دون لف ولا دوران قلنا إنّه هو الفحل، بمعنى: أنّه كان رجلاً في جلساته الحميمة، رقيقاً رقّةً يخجل منها أمام الآخرين، في الوقت الذي تتفانى فيه زوجته لإسعاده.

قام الجدّان برحلة أخرى إلى بارّانكيّا في الأيام التي احتفلوا فيها بالذكرى المئوية الأولى لوفاة سيمون بوليفار، في كانون الأوّل

عام 1930، لحضور ولادة أختي عائدة روسا، ابنة الأسرة الرابعة. أخذا معهما في أثناء العودة إلى كاتاكا مارغوت، التي كانت قد تجاوزت العام قليلاً، وأبقى أبواي معهما على لويس إنريكه والمولودة الجديدة. كلّفني كثيراً التأقلم مع الانتقال، لأنّ مارغوت وصلت إلى الدار كما لو أنها من عالم آخر، واهنة وبرّية وبعالم داخليّ عصي على الاختراق. حين رأتها أبيغائيل - أم لويس كارمِلو كورِّيا - لم تفهم كيف يتحمّل جدّاي تلك الورطة وقالت «إنّها طفلة مُحتَضَرَة». في جميع الأحوال قالوا الشيءَ ذاتَهُ عنّي، لأنّني كنتُ آكل قليلاً وأرمشُ بعينيّ، ولأنّ الأشياء التي كنتُ أحكيها لهم تبدو هائلة إلى حدٍّ أنّهم يظنونها أكاذيب، دون أن يُفكّروا بأنّ معظمها كان صحيحاً بطريقة أخرى. لم أدرك إلاّ بعد سنوات فقط أنّ الدكتور باربوثا الوحيد الذي دافع عنّي بحجة حكيمة: «أكاذيب الأطفال دليل ذكاء كبير».

مرّت سنوات كثيرة قبل أن تُذعِن مارغوت للحياة الأسرية. كانت تجلس في كرسيّها الهزّاز الصغير لتمصّ إصبعها في الزاوية التي قد لا تخطر ببال. لا شيء كان يلفت انتباهها، باستثناء جرس الساعة، الذي كانت تبحث عنه بعينيها الواسعتين من الانبهار مع مرور كلّ ساعة. بقوا عدّة أيّام لا يستطيعون أن يجعلوها تأكل. كانت ترفض الطعامَ بمأساوية، بل وترمي به أحياناً في الزوايا. لا أحد فهم كيف بقيت حية دون طعام حتى انتبهوا إلى أنّها لا تُحب غير تراب الحديقة الرطب وشرائح الكلس التي تنتزعها بأظافرها من الجدران. وحين اكتشفت الجدّة الأمر وضعت صفراء البقر في أكثر الزوايا شهية من الحديقة، وخبأت فلفلاً حاراً في الأصص. عمّدها الأب أنغاريتا في الاحتفال ذاته الذي صحّح بِه تعميدي المستعجل الذي أقامه لي عند ولادتي. استقبلته واقفاً على كرسيّ وتحمّلت بشجاعة حَضَرية ملحَ المطبخ الذي وضعه الأب على لساني، وإبريق الماء الذي سكبه على رأسي. بينما ثارت مارغوت بالمقابل ضد الشيئين بزمجرةِ وحشٍ ضار جريح، وتمرّد كامل الجسد الذي تمكّن الأشابنة والإشبينات من التحكم به في جرن التعميد.

اليوم أفكّر أنّها كانت في علاقتها معي تستخدم العقل أكثر مما يستخدمه الكبار فيما بينهم. كان التواطؤ فيما بيننا من الغرابة بحيث أنّنا كنّا في أكثر من مناسبة نتكهّن بأفكارنا. وذات صباحٍ كنّا أنا وهي نلعب في الحديقة وانطلق صفير القطار كما في كلّ يوم في الحادية عشرة. لكنّني شعرتُ في تلك المرّة، وأنا أسمعه بنوعٍ من الوحي الغامض، بأنّ طبيب شركة الموز، الذي كان قد أعطانيً قبل أشهرٍ مغليّ الراوند المخزني الذي تسبّب لي بنوبة تقيؤ، قادمٌ في ذلك القطار. جبت الدار كلّها وأنا أصرخُ صراخاً مرعباً، لكن لم يصدقني أحدٌ غير أختي مارغوت، التي بقيت مختبئة معي حتى انتهى الطبيب من تناول طعام الغداء، وغادر في قطار العودة. «يا مريم الطاهرة! ـ هتفت جدّتي حين رأونا مختبئين تحت سريرها ـ لا حاجة للبرقيات مع هؤلاء الأطفال».

لم أستطع قط أن أتخطى الخوف من البقاء وحيداً، وخاصة في الظلمة، لكن يبدو أنّ لهذا أصلاً محدّداً وهو أنّ الأشباح وتكهنات الجدّة تتجسّد. حتى الآن وأنا في السبعين من عمري أرى في الأحلام اشتعال الياسمين في الممر وشبح غرف النوم المظلمة بالشعور ذاته الذي خرّب طفولتي: رهبة الليل. كثيراً ما أحسستُ في أرقي، الذي هو أرق العالم كلّه، أنّني أنا أيضاً أجرجر أغلالَ تلك الدار الأسطورية في عالم سعيد كنّا نموتُ فيه كلّ ليلة.

أكثر الأشياء غرابة أنّ الجدّة كانت تعيل الدار بشعورها غير الواقعي. كيف كان بالإمكان الحفاظ على قطار الحياة ذاك بتلك الموارد اليسيرة. الحسابات لا تفي. كان الكولونيل قد تعلّم مهنة أبيه، الذي تعلّمها بدوره من أبيه، ورغم شهرة أسماكه الذهبية الصغيرة، التي كانت تُشاهد في كلّ مكان، إلاّ أنّ تجارته لم تكن رابحة. بل وأكثر من ذلك: كان لديّ انطباع، حين كنتُ طفلاً، بأنّه يصنعها بين فينة وأخرى أو حين يجهّز هديّةَ عرس. الجدّة كانت تقول إنّه يعمل كي يهدي. ومع ذلك فإنّ شهرته كموظّف جيّد تعزّزت حين كسب الحزب الليبرالي السلطةَ، وعمل خازناً لسنوات، ومديراً للمالية عدّة مرات.

لا أستطيع أن أتصوّر وسيلة أسرية أكثر ملاءمة لميولي من تلك الدار المجنونة، لاسيّما طبيعة النساء الكثيرات اللواتي ربّينني. كنّا أنا وجدّي الرجلين الوحيدين، وكان قد بدأ يُدخلني في واقع الكبار الحزين، بحكايات المعارك الدامية والتفسيرات المدرسية لطيران العصافير ورعود المساء، وشجّعني على هواية الرسم. في البداية كنتُ أرسم على الجدران، إلى أن وصل صوت نساء الدار إلى عنان السماء: « الجدران والحيطان ورق المجانين». جُنَّ جنون جدّي وأمر بطلاء أحد جدران غرفة الصياغة بالأبيض، واشترى لي أقلاماً ملونة ثمّ علبة ألوان مائية، كي أرسم على هواي بينما هو يصنع أسماكه الذهبية الصغيرة المشهورة. سمعته يقول أحياناً إنّ الحفيد سيصبح رساماً، ولم يلفت ذلك انتباهي، لأنّني كنتُ أعتقد أن الرسامين هم فقط الذين يدهنون الأبواب.

يقول من عرفني وأنا في الرابعة من عمري أنّني كنتُ شاحب اللون وشارد الذهن. وأنّني لا أتكلّم إلا كي أقول حماقات، لكن حكاياتي كانت في معظمها من وقائع الحياة اليومية البسيطة، وأجعلها أكثر جاذبية بالتفاصيل الخيالية كي يُصغوا إليّ. كانت أحاديث الكبار أمامي هي أفضل مصادر إلهامي، لأنّهم كانوا يظنون أنّني لا أفهمها. على العكس تماماً: كنتُ أمتصّها مثل إسفنجة، وأركّبها في مقطوعات، وأبدّل فيها كي أخفي الأصل، وحين كنتُ أحكيها لمن حكوها كانوا يُصعقون من المطابقة بين ما كنتُ أقوله وما كانوا هم أنفسهم يُفكّرون به.

كنتُ أحياناً لا أعرف ماذا أفعل بوعيي وأُحاول أن أخفي ذلك بالرمش السريع بعينيّ. وقد وصل الأمرّ حدّ أنّ أحد عقلاء الأسرة قرّر أن يراني طبيب عيون، عزا رمشي عيني إلى تأثيرات مرض في اللوزتين ووصف لي شراب فجل باليود أفاد تماماً لتهدئة الكبار. من جهتها وصلت الجدّة إلى نتيجة من العناية الإلهية التي تقول بأن الحفيد كان مقدّساً. وقد حوّلها هذا إلى ضحّيّتي المفضّلة، حتى جاء اليوم الذي أُغمِيَ فيه عليها لأنّني حلمت أنّ عصفوراً حيّاً خرجَ من فم الجدّ. كان الخوف من أن تموت بسببي العنصر الأوّل المخفف

لخلاعتي المبكّرة. الآن أفكّر أنّها ليست عيباً من عيوب الطفولة، كما يمكن أن نفكّر، بل تقنيات أوّليّة لراوٍ في بداياته كي يجعل الواقع أكثر متعةً وفهماً.

خطوتي الأولى باتجاه الحياة الواقعية كانت اكتشافي لكرة القدم وسط الشارع أو في بعض البساتين المجاورة. كان معلّمي هو لويس كارمِلو كورّيا، الذي ولد حاملاً غريزة خاصّة بالرياضة وموهبة فطرية بالرياضيات. كنتُ أكبر منه بخمسة أشهر، لكنّه كان يسخر منّي، لأنّه كان يكبر أكثر وأسرع منيّ. بدأنا نلعب بكرات الخرق وأصبحتُ حارس مرمى جيّداً، لكن ما إن انتقلنا إلى الكرة النظامية حتى تعرّضت لضربة منه على معدتي كانت من القوّة بحيث وصلت الضمادات إليها. في المرات التي التقينا فيها ونحن كبار تبيّنت بسعادة كبيرة أنّنا ما زلنا نتعامل كما في طفولتنا. ومع ذلك فإنّ أكثر ذكرياتي تأثيراً في تلك المرحلة كان المرور السريع للمفتش العام لشركة الموز في سيارة فاخرة مكشوفة بجانب امرأة ذات شعر ذهبي طويل، متروك للريح، مع كلب حراسة ألماني جالس مثل ملك في مقعد الشرف. كانوا أشباحاً عابرة من عالم وهميّ بعيدٍ محظور علينا نحن البشر.

بدأت أساعد في القداس دونما إيمان كبير، لكن بدقة ربّما جعلتهم يسجلونه لي كعنصرٍ أساسي من عناصر الإيمان. يجب أن تكون هذه الفضائل الطيبة السبب في أنّهم حملوني وعمري سبع سنواتٍ للبدء بأسرار المناولة الأولى. بدّل هذا حياتي. بدؤوا يعاملونني معاملة الكبار، وعلّمني القندلفت المساعدة في القدّاس. مشكلتي الوحيدة كانت في أنّني لم أستطع أن أعرف في أيّة لحظة عليّ أن أقرع الناقوس، وكنتُ أقرعه متى جاءني الإلهام الخالص والبسيط. في المرّة الثالثة التفت إليّ الأب وأمرني بفظاظة ألاّ أقرعه مرّة أخرى. الجانب الحسن من الطقس هو وقت بقائنا أنا والمساعد الآخر والقندلفت، وحيدين لنرتب غرفة المقدسات فنتناول خبز القربان الزائد مع كأس من النبيذ.

في عشية التناول أخذَ الأبُ اعترافي، دون مقدمات وهو جالس

مثل بابا حقيقي على كرسي العرش، وأنا راكع أمامه على وسادة مخملية. وعيي للخير وللشرّ كان بسيطاً كفاية، لكنّ الأب أمدّني بقاموس خطايا كي أجيب عمّا ارتكبته ولم أرتكبه منها. أعتقد أنّني أجبتُ جيّداً، حتى سألني عما إذا كنت لا أمارس أشياء بشعة مع حيوانات. كان لديّ فكرة مشوشة عن أنّ بعض الكبار ارتكبوا خطيئة ما لم أفهمها قط مع الحمير. فقط في تلك الليلة فهمت أنّ ذلك ممكنٌ مع الدجاجات أيضاً. وبذلك شكّلت خطوتي الأولى نحو المناولة الأولى العتبة الكبرى لفقداني براءتي، ولم أجد أيّ حافز للاستمرار في عمل مساعد القسّ.

تجربتي النارية كانت حين انتقل أبواي مع لويس إنريكه وعائدة وأخويّ الآخرين إلى كاتاكا. مارغوت التي تتذكّر أباها تقريباً، كانت ترتعب منه. وأنا أيضاً، لكنّه دائماً كان معي أكثر حذراً. مرّة واحدة فقط نزع زناره ليضربني ووقفت في وضعية استعداد وعضضتُ على شفتيّ ونظرتُ إليه بعينين مستعدتين لتحمّل أيّ شيء، كيلا أبكي. أنزل يده وراح يضع زناره بينما يعاتبني مزمجراً بين أسنانه على ما فعلته. خلال أحاديثنا الطويلة ككبار اعترف لي أنّه كان يؤلمه جدّاً أن يجلدنا، لكنّه ربّما فعل ذلك مرعوباً من أن نخرج منحرفين. كان في لحظات انبساطه مرحاً. يسحره أن يروي نكاتاً على المائدة، لكنّه كان يكرّرها إلى حدّ أنّ لويس إنريكه نهض ذات يوم وقال:

- أخبروني حين تنتهون من الضحك.

ومع ذلك فإنّ الجلدة التاريخيّة وقعت في الليلة التي لم يظهر فيها في بيت الوالدين ولا في بيت الجدّين، وفتشوا عنه نصف البلدة حتى عثروا عليه في السينما. كان ثِلسو داثا بائع المرطبات قد قدَّم له مرطب زعرور أمريكي في الثامنة ليلاً واختفى مع الكأس دون أن يدفع له، وبائعة المقالي باعته فطيرة ورأته بعد قليل يتحدّث مع بوّاب السينما، الذي تركه يدخل مجاناً لأنّه قال له إن والده ينتظره في الداخل. كان الفيلم هو دراكولا، تمثيل كارلوس بيّاريّاس ولوبّيتا توبار وإخراج جورج ميلفورد. بقي لويس إنريكِهْ سنوات

يحكي لي عن رعبه في اللحظة التي أشعلوا فيها أنوار المسرح، في الوقت الذي كان دراكولا سينشب أنيابه، أنياب الخفّاش في عنق الحسناء. كان في أكثر الأماكن التي وجدها خالية في الصالة خفية، ومن هناك رأى الوالد والجدّ يبحثان عنه صفّاً صفّاً في المقاعد برفقة صاحب السينما وشرطيين. كان على وشك الاستسلام حين اكتشفه بّابّالِلو في آخر صف من القاعة وأشار إليه بعكّازه:

- هو ذا هناك!

أخرجه أبي ممسكاً به من شعره، وجلده في البيت جلّدةً بقيت درساً أسطورياً في تاريخ الأسرة. بقي رعبي من فعلة أخي المستقلية وإعجابي بها حيّة للأبد في ذاكرتي. لكنّه كان يبدو أنّه يتخطى كلّ شيء وهو في كلّ مرّة أكثر بطولة. ومع ذلك فإنني أُذهل اليوم من أنّ تمرّده لم يكن يظهر في الفترات النادرة التي يغيب فيها أبي عن البيت

لذتُ أكثر من أيّ وقت مضى بظلّ جدّي. دائماً كنّا سويّة، في الصباحات في حانوت الصياغة أو في مكتب مدير المالية، حيث كلّفني بعمل ممتع: رسم علامات وسم الأبقار التي كان يأخذونها للذبح، وقد أخذت ذلك بجدّية بلغت حدّ أنّه راح يترك لي مكانه وراء المكتب. وعند الغداء كنّا نجلس أنا وهو بوجود كلّ المدعوّين على رأس الطاولة، هو يضع أمامه إبريقاً كبيراً من الألمنيوم للماء المثلّج، وأنا أمسك بملعقتي الفضية التي أستخدمها لكلّ شيء. كان يلفت الانتباه أنّني إذا ما أردت قطعة ثلج أدخل يدي في الإبريق لآخذها فيظهر في الماء طبقة دهنية. كان الجدُّ يُدافِع عنّي: «إنه يتمتع بكل».

كنّا نذهب في الساعة الحادية عشرة مع وصول القطار. فابنه خوان دِ ديوس، الذي ما يزال يعيش في سانتا مارتا، كان يرسل له كلّ يوم رسالة مع السائق المناوب، الذي يقبض خمسة سنتيمات مقابل ذلك. وكان الجدّ يردّ عليها بخمسة سنتيمات أخرى في قطار العودة. وفي المساء يأخذني مع غروب الشمس من يدي ليقوم بتحركاته الشخصية. كنّا نذهب إلى حانوت الحلاقة، وهي أطول ربع ساعة في طفولتي ـ لنشاهد أسهم العيد الوطني النارية ـ التي كانت ترعبني ـ ولنشاهد مواكب أسبوع الآلام ـ يحملون تمثال المسيح

الميت، الذي دائماً ظننتُه من لحم ودم ـ كنت أستعمل وقتها قبعة ذات مربعات اسكتلندية، شبيهة بأخرى لجدّي، اشترتها لي مينا كي أبدو أكثر شبهاً به. وقد نجحت في ذلك بحيث أنّ الخال كينتو كان ينظر إلينا كشخصٍ واحد في عمرين مختلفين.

كان الجدّ يحملني معه في أيّة ساعة من ساعات النهار ليقوم بمشترياته من متجر شركة الموز الممتعة. هناك عرفت سمك القجاج، ووضعت يدي لأوّل مرّة على الثلج، وأرعشني اكتشاف أنّه بارد. كنتُ سعيداً وأنا آكلُ ما يحلو لي، لكنّ أشواط الشطرنج مع البلجيكي والأحاديث السياسية كانت تُصيبني بالملل. ومع ذلك فاليوم أنتبه إلى أنّنا كنّا نرى في تلك المشاوير الطويلة عالمين مختلفين. جدي يرى عالمَه في أفقه، وأنا أرى عالمي على مستوى نظري. هو يُحَيّي أصدقاءه في الشرفات، وأنا أهفو لدمى باعة الخزفيات على الأرصفة.

كنّا نتباطأ في هزيع الليل الأوّل في صخب الجهات الأربع الكوني، هو كان يتحدّث مع دون أنطونيو داكونتِ، الذي كان يستقبله وقوفاً في باب حانوته المختلطة وأنا تُدهشني مستجدات العالم كلّه. كان يفتنني سَحَرةُ السوق الذين يخرجون الأرانب من أكمامهم وبالعو النار والمتكلمون من بطونهم الذين يجعلون الحيوانات تتكلّم، وعازفو الأكورديونات الذين يغنون بصوت عالٍ أشياءَ كانت تحدث في المقاطعة. اليوم أنتبه إلى أنّ واحداً منهم، عجوزاً جدّاً، بلحية بيضاء، يمكن أن يكون الأسطوريّ فرانسيسكو إل هومبرِ

كان أنطونيو داكونتِ يدعونا كلّما بدا له الفيلم مناسباً لحضور العرض الباكر في دار سينما أوليمبيا، مما كان يُثير ذعر الجدّة التي ترى فيها فسوقاً لا يليق بحفيد بريء. لكنّ بابَالِلو كان يصرّ، ويجعلني أروي الفيلم في اليوم التالي على المائدة، ويصحّح لي ما يفوتني وأخطئ به ويساعدني على إعادة بناء الأحداث الصعبة. كانت لمحات من فن الدراما لا شكّ أفادتني قليلاً، خاصّة حين بدأت أرسم القصص المصوّرة قبل أن أتعلم الكتابة. في البداية راحوا يتلقفونها كظرافات صبيانية. لكنّ ولعي بإطراءات الكبار الهينة، بلغ

حدّاً جعلهم يهربون منّي ما إن يشعروا بوصولي. حدث لي فيما بعد الشيء ذاته مع الأغاني التي كانوا يُجبرونني على أدائها في الأعراس وأعياد الميلاد.

كنّا قبل النوم نقضي برهة طويلة في ورشة البلجيكي، العجوز المريع الذي ظهر في أراكاتاكا بعد الحرب العالمية الأولى، ولا أشكّ في أنّه كان بلجيكياً بسبب ما أذكره من نبرته النزقة وحنين البحار الذي ينطوي عليه. الكائن الحيّ الآخر في بيته كان دانمركياً كبيراً، أصمّ ولوطيّ. كان يُدعى مثل رئيس الولايات التحدة: وودرو ويلسون. عرفت البلجيكي في الرابعة من عمري، حين كان يذهب جدّي ليلعب معه أشواط شطرنج خرساء ولامتناهية. أدهشني منذ الليلة الأولى أنّه لم يكن في بيته شيء أعرف له استخداماً. كان فنّاناً في كلّ شيء، يعيش في فوضى أعماله ذاتها: مناظر بحرية بالباستيل، صور أطفال في أعياد ميلادهم ومناولاتهم الأولى، نسخ مجوهرات آسيوية، أشكال منحوتة من قرون البقر وأثاث من عصور وطرز متفرّقة، متراكم بعضها فوق بعض.

لفت انتباهي جلده الملتصق بعظمه، الذي كان بلون شعره الأصفر الشمسي الذي تهبط خصلة منه على وجهه وتزعجه في الكلام. كان يُدخّن غليون ذئب بحر لا يشعله إلاّ للشطرنج، وكان جدي يقول إنّه حيلة ليصعق الخصم. كانت له عين زجاجية خارج مدارها تبدو أكثر تركيزاً على مُحدِّثه من العين السليمة. كان معاقاً من خصره ومنحنياً إلى الأمام ومفتولاً نحو اليسار، لكنّه يبحر مثل سمكة بين شعاب ورشته متدلياً من عكازتيه الخشبيتين أكثر مما هو مستند إليهما. لم أسمعه يتحدّث قط عن إبحاراته، التي يبدو أنّها كانت كثيرة وجريئة. شغفه الوحيد المعروف خارج بيته هو السينما، فهو لم يكن يغيب عن أيّ فيلم من أيّ نوعٍ في نهايات الأسبوع.

لم أحبّه قط، وخاصّة خلال أشواط الشطرنج حيث كان يقضي ساعات لتحريك قطعة بينما أنا انهار من النعاس. رأيته ذات ليلة شاحباً جداً فانتابني إحساسٌ بأنّه سيموت في القريب العاجل،

وشعرت بالحزن عليه. لكنّه راح مع مرور الزمن يُفكّر بحركة القطع إلى حدّ أنّني انتهيت إلى أنّني وددت من كلّ قلبي أن يموت.

في تلك المرحلة علّق جدّي في غرفة الطعام صورةَ المُحرِّر سيمون بوليفار وهو في قدّاس ما قبل الدفن. جهدت كثيراً كي أستوعِب لماذا لم يكن يرتدي كفنَ الموتى الذي كنتُ قد رأيته في ليالي السهر على الموتى، وكان مُسجّى على طاولةِ مكتبٍ بلباسه الموحَّدِ أيّامَ مجده. أخرجني جدّي من حيرتي بجملة حاسمة:

ـ هو كان مختلفاً.

ثمّ قرأ بصوت مرتجف لا يبدو كأنه صوته، قصيدة طويلة معلقة إلى جانب اللوحة، أتذكّر منها فقط أبياتها الأخيرة إلى الأبد: « أنتِ، كنتِ، يا سانتا مارتا، مضيافة، ومنحته في أحضانك هذه الرقعة الصغيرة من شاطئ البحر كي يموت فيها». منذ ذلك الوقت علقت بذهني ولسنواتٍ طويلة فكرة أنّهم عثروا على بوليفار ميتاً على الشاطئ. جدّي هو الذي علّمني وطلب منّي ألاّ أنسى أبداً أنّ ذلك الرجل أعظم رجل ولد في تاريخ العالم. سألتُ جدّي، مشوّشاً من تناقض جملته مع جملة كانت قد قالتها لي جدّتي بتأكيدٍ مماثل، عمّا إذا كان بوليفار أعظم من المسيح. فأجابني وهو يهزّ برأسه ودون القناعة السابقة:

ـ لا علاقة لهذا بذاك.

أعلم الآن أنّ جدّتي هي التي فرضت على جدّي أنّ يأخذني معه في مشاويره المسائية، فهي كانت واثقة من أنّها ذريعة كي يزور عشيقاته الحقيقيات أو المفترضات. ممكن أن تكون قد أفادته أحياناً كغطاء، لكنّه في الحقيقة لم يذهب قط معي إلى أي مكان لم يكن في برنامجه. ومع ذلك في ذهني صورة واضحة عن ليلةٍ مررت فيها مصادفة وأحدٌ يمسك بيدي بدارٍ مجهولة، ورأيتُ الجدَّ يجلس مثل مالك وسيّد في قاعتها. لم أستطع أن أفهم قط لماذا بدا لي جليّاً أنّ عليّ ألاّ أحكي ذلك لأحد، حتى شمس هذا اليوم.

جدّي كان أيضاً أوّل عرّفني على الحرف المكتوب في الخامسة

من عمري، فقد حملني ذات مساء ليعرفني على الحيوانات في سيركٍ عابرٍ في كاتاكا تحت خيمة كبيرة مثل كنيسة. أكثر ما لفت انتباهي كان حيواناً مجتراً بائساً وكئيباً تعلوه سيماءُ أمٍّ مرعبة.

ـ إنّه جمل ـ قال لي الجدّ.

أحدٌ كان هناك قاطعه:

ـ عفواً، يا كولونيل، إنّه جمل بسنمٍ واحد.

يُمكنني أن أتصوّر الآن ماذا كان شعور الجدّ لأنَّ شخصاً صحح له في حضرة حفيده. ومع ذلك تجاوزه دون أن يُفكّر بالأمر بسؤال محترم:

ـ ما الفرق؟.

ـ لا أدري ـ قال له الآخر ـ لكنّ هذا جمل بسنمٍ واحد.

لم يكن الجدُّ رجلاً مثقّفاً، ولا يزعم ذلك، فقد هرب من مدرسة ريوهاتشا العامّة ليذهب ويُطلق النار في واحدة من حروب الكاريبي الأهلية، ولم يعد بعدها للدراسة، لكنّه بقي طوال حياته واعياً لنقصه المعرفيّ ونهماً للمعارف الآنية التي يسدُّ بها عيوبه تماماً. عاد في مساء يوم السيرك إلى المكتب مكتئباً وراجع القاموس باهتمام صبيانيّ. عندئذ عرف وعرفتُ للأبد الفارق بين جمل بسنمين وجمل عادي. أخيراً وضع في حضني الكتاب المجيد الذي باستطاعته أن يهدَّ حماراً وقال لي:

ـ هذا الكتاب لا يعرف فقط كلّ شيء، بل هو الوحيد الذي لا يُخطئ أبداً.

كان مجلّداً ضخماً مصوّراً، على كعبه عملاق ضخم على كاهله قبّة الكون. لم أكن أعرف القراءةَ والكتابة بعدُ، لكن كان باستطاعتي أن أتصوّر كم كان الكولونيل محقّاً فصفحاته تكادُ تصل إلى ألفي صفحة كبيرة مزركشة ومزوَّدة برسوم رائعة. كان قد أدهشني في الكنيسة حجم كتاب القدّاس، لكنّ القاموس كان أسمك منه. كنتُ وكأنَّني أُطلّ على العالم كاملاً لأوّل مرّة.

ـ كم كلمة يحتوي؟ ـ سألتُه.

ـ كلّ الكلمات ـ قال الجدّ.

الحقيقة أنّني لم أكن أحتاج وقتذاك للكلمة المكتوبة، لأنّني كنتُ أستطيعُ التعبيرَ عن كلّ ما كان يؤثّر فيّ بالرسم. ففي الرابعة من عمري رسمتُ ساحراً يقطع رأسَ زوجته ويعود ليلصقه كما فعل ريتشاردين في عرضه بسينما أوليمبيا. كانت الرسومات تبدأ بقطع الرأس بالمنشار، يليه العرض الانتصاري للرأس الدامي، وتنتهي بالمرأة التي تردّ على تصفيق الجمهور بعد إعادة رأسها إلى مكانه. القصص المرسومة كانت قد اختُرعت لكنّني لم أكن أعرفها إلاّ لاحقاً في ملحق صحف الأحد الملونة. وعندئذٍ بدأت أخترع الحكايات المرسومة دون حوار. ومع ذلك، وحين أهداني الجدّ القاموس أيقظ عندي الفضول تجاه الكلمات التي كنتُ أقرؤها في الرواية، حسب الحروف الأبجدية، ودون أن أفهمها تقريباً. هكذا جاء تواصلي الأوّل مع ما سيصبح فيما بعد الكتاب الأساسي لقدري ككاتب.

يُحكى للأطفال حكاية أولى تلفت انتباههم، ويكلّف كثيراً جعلهم يستمعون لحكاية أخرى. أعتقد أنّ هذا ليس حال الأطفال القاصين ولم يكن حالي. كنتُ أريد أكثر. النهم الذي كنتُ أصغي به إلى الحكايات كان يجعلني دائماً أنتظر أخرى أفضلَ في اليوم التالي، خاصّة تلك التي لها علاقة بألغاز التاريخ المقدّس.

كل الذي كان يحدث لي في الشارع كان يلقى صداه في البيت؛ تحكيه نساءُ المطبخ للغرباء الذين يصلون في القطار ـ ويأتون معهم بدَوْرِهم بأشياء أخرى يحكونها ـ فينضمُّ كلُّ ذلك مجتمعاً إلى تيار التراث الشفوي. بعض الأحداث كان يُعرف أوّلاً من خلال عازفي الأكورديونات الذين كانوا يغنونها في الأسواق الموسمية، يحكيه المسافرون ويُثْرونه. ومع ذلك فأكثره إدهاشاً في طفولتي ظهر لي ذات يوم أحد باكراً ونحن في طريقنا إلى القدّاس الأكبر في جملة تائهة من جدّتي:

ـ المسكين نيكولاس سوف يضيع منه قدّاس عيد العنصرة.

سررتُ، لأنّ قدّاس أيّام الآحاد كان طويلاً جدّاً بالنسبة إلى عمري، وعِظات الأب أنغاريتا، الذي أحببته كثيراً في طفولتي كانت تبدو لي منوّمة. لكنّ ذلك كان وهماً عبثياً، فالجدّ حملني بما يشبه الجرّ إلى ورشة البلجيكي، بلباسي المخملي الأخضر الذي ألبسوني إياه للقدّاس، وكان يضغط عليّ بين ساقيّ. عناصر الحرس عرفوا الجدّ من بعيد وفتحوا له الباب بالطريقة المراسمية:

ـ تفضَّل، سيّدي الكولونيل.

عندئذ فقط علمتُ أن البلجيكي استنشق أبخرةَ سيانور الذهب ـ الذي تقاسمه مع كلبه ـ بعد أن رأى فيلمَ «لا جديد على الجبهة»، لِلويس مَيلستون المأخوذ عن رواية إريك ماريا ريمارك. الحدسُ الشعبي، الذي يعثر دائماً على الحقيقة حتى حيث يكون ذلك غير ممكن، فهمَ الأمر وأعلنَ أنّ البلجيكي لم يحتمل صدمةَ أن يرى نفسه متمرّغاً مع دوريته المدمّرة في أحدِ مستنقعات النورماندي.

قاعة الاستقبال الصغيرة كانت شبه معتمة لأنّ الشبابيك مغلقة، لكنّ نور الصباح الباكر كان يضيء غرفة النوم، التي ينتظر فيها العمدة وعنصران من الشرطة الجدّ. هناك كانت الجثّة مغطاة ببطانية على سرير عسكري فردي والعكازان اللذان تركهما صاحبهما قريباً منه قبل أن يستلقي ليموت. إلى جانبه وعلى مقعد صغير السطل الذي بخّر فيه السيانيد وورقة كتب عليها بحروف كبيرة مرسومة بالقلم: « لا تتهموا أحداً، قتلت نفسي لأنّني أحمق». الإجراءات القانونية وتفاصيل الجنازة حلّها الجدّ بسرعة، لم تستمر لأكثر من عشر دقائق. لكنّها كانت بالنسبة إليّ الدقائق العشر الأكثر تأثيراً والتي سأذكرها في حياتي.

كان أوّل شيءٍ هزّني من المدخل رائحة غرفة النوم، بعد زمن طويل فقط عرفت أنّها رائحة اللوز المر للسيانور، التي استنشقها البلجيكي كي يموت. لكن لا هذا التأثر ولا غيره سيكون له ضغط وديمومة رؤيتي للجثة حين رفعَ العمدةُ البطانية عنها كي يريها لجدّي. كانت عارية، متخشّبة وملتوية، خشنة الجلد يغطيها شعر أصفر، بينما العينان رائقتان تنظران إلينا كما لو أنّهما حيّتان. هذا

الإحساس بأن أكون مراقباً من الموت هزّني سنواتٍ في كلّ مرّة مررت فيها بجانب قبور المنتحرين الخالية من الصلبان والموارين التراب بأمر من الكنيسة خارج المقبرة. ومع ذلك فإنّ أكثر ما راود ذاكرتي بشحنة الرعب من رؤية الجثّة كان مللي من الليل في بيته. ربّما لهذا السبب قلت لجدّي حين غادرنا البيت:

ـ لن يلعب البلجيكيّ الشطرنج ثانية.

كانت فكرة سهلة، لكنّ جدّي حكاها للأسرة، كما لو أنها خاطرة فذّة. وراحت النسوةُ ينشرنها بحماس بدا من الشدّة حيث بقيتُ زمناً أتفادى الزيارات، خشية أن يحكوها أمامي، أو أن يجبروني على روايتها. وقد كشف لي هذا إضافة إلى ذلك عن شرط من شروط الكبار سيفيدني جدّاً ككاتب: كلّ واحد كان يرويها بتفاصيل جديدة، يضيفها من عنده، إلى حدّ أنّ الروايات المختلفة كانت تنتهي لتصبح مختلفة عن الأصل. لا أحد كان يتصوّر الشفقة التي صرتُ أشعر بها من يومها تجاه الأطفال المساكين الذين يعتبرهم آباؤهم عباقرة، يحملونهم على الغناء، يُقلّدون أصوات العصافير، بل ويكذبون كي يسلوهم خلال الزيارات. ومع ذلك أنتبهُ اليوم إلى أنّ تلك الجملة شديدة البساطة شكّلت نجاحي الأدبي الأوّل.

تلك هي حياتي في العام 1932، حين أُعلن أنّ قوات البيرو، في ظلّ حكم الجنرال لويس ميغل سانتِشث ثِرُّو العسكري استولت على بلدة لِتيثيا العزلاء على ضفّة نهر الأمازون في أقصى كولومبيا. دوّى الخبرُ في جوّ البلد. أعلنت الحكومة الاستنفار الوطني وتشكيل لجنة عامة لجمع المجوهرات المنزلية الأكثر قيمة من بيت لبيت. وقد أثارت الروح الوطنية التي خلّفها الهجوم المدفعي للقوات البيروية ردّاً شعبياً لا سابق له. كان جامعو الضرائب الطوعية لا يتوانون عن تلقيها من بيتٍ إلى بيت، وخاصّة الخواتم الزوجية، المقدّرة عالياً نظراً لقيمتها الحقيقيّة، كما لقيمتها الرمزية.

كانت بالنسبة إليّ أسعد مرحلة نظراً لما كان عندي من فوضى. تحطّمت صرامة المدارس العقيمة وحلّ محلّها في الشوارع والبيوت الإبداعُ الشعبي. شُكّل الطابور المدني من صفوة الشباب، دون تمييز

في الطبقة أو اللون، وشُكّلت ألوية الصليب الأحمر النسائية، ارتجِلت أناشيد حربٍ حتى الموت ضدّ المعتدي الشرير، وصرخة إجماعية دوّت في جوِّ الوطن: «عاشت كولومبيا، تسقط البيرو!».

لم أعرف قط كيف انتهت تلك المأثرة لأنّه بعد فترة من الزمن هدأت الأنفس دون تفسيرات كافية. تعزّز السلام مع اغتيال الجنرال سانتشِثْ ثِرّو على يدِ أحد المعارضين لحكمه الدموي. وصارت صيحة الحرب روتيناً للاحتفال بانتصارات كرة القدم المدرسية. لكنّ أبويّ اللذين تبرَّعا بخاتِمَي زواجهما لم يفيقا من سذاجتهما.

منذ أن بدأت أتذكّر تكشّفت ميولي الموسيقية في تلك السنوات عن الافتتان الذي أحدثه في نفسي عازفو الأكورديونات بأغاني الجوّالين. كنتُ أعرف بعضها عن ظهر قلب، مثل الأغاني التي كانت تغنيها النساء خفيةً في المطبخ لأنَّ جدَّتي كانت تعتبرها دهمائية. ومع ذلك فحاجتي الماسّة للغناء كي أشعر بنفسي حيّاً قد بعثتها عندي أغاني تانغو كارلوس غاردِلْ التي أصابت بعدواها نصف العالم. كانت تجعلني ألبس مثله، قبّعة لباد ولِفاعاً حريرياً ولم أكن أحتاج إلى كثير من التوسل كي أشرع بأغنية تانغو من كلّ صدري. إلى أن جاء الصباح المشؤوم حين أيقظتني الخالة ماما على نبأ أنّ غاردِل قد توفِّي في حادثِ اصطدام طائرتين في ميدلين. قبل أشهر كنتُ قد غنيتُ: «نحو الهاوية» في سهرة خيريّة بمرافقة الأختين إتشبِرّي، البوغوتيتين الخالصتين، اللتين كانتا معلّمتي معلّمين، وروح كل السهرات الخيريّة والأعياد الوطنية التي كان يحتفلون بها في كاتاكا. وقد غنّيتُ بمزاج رفيع جعل أمّي لا تجرؤ على معارضتي حين قلت لها إنّني أريدُ أن أتعلّم العزف على البيانو بدل الأكورديون الذي تكرهه الجدّة.

في تلك الليلة ذاتها حملتني إلى حيث الأختين إتشبِرّي كي تعلّماني. وبينما كنَّ يتحدّثن رحتُ أنظر إلى البيانو من الطرف الآخر للقاعة بشغف كلبٍ لا صاحب له، أقدّر ما إذا كانت ساقاي ستصلان إلى الدواستين، وأشكّ بأن تصل إبهامي وخنصري إلى المفاتيح المتباعدة، أو ما إذا سأقدر على فكّ رموز المدرّج الموسيقي الهيروغليفية. كانت زيارة زاهية الآمال دامت ساعتين. لكنّ بلا

جدوى، فالمعلمتان أخبرتانا بأن البيانو غير صالحٍ ولا تدريان كم سيبقى على تلك الحال. أُجِّلت الفكرةُ حتى يعود المَدَوْزِنُ السنوي، ولم نعد للكلام عن ذلك إلا بعد نصف عمرٍ، حين ذكّرتُ أميّ في حديث عرضي عن الألم الذي شعرت به لأنّني لم أتعلّم العزفَ على البيانو. تنهّدت وقالت:

ـ والأسوأ، أنّه لم يكن مُعطّلاً.

عندئذٍ علمت أنّها اتفقت مع المعلمتين على حجّة البيانو المعطل كي تجنّبني العذاب الذي عانت هي منه خلال خمس سنوات من التدريبات الغبية في مدرسة لا برِسِنتاثيون. العزاء كان في تلك السنوات أنّهم افتتحوا المدرسة المونتِيسورية، والتي كانت معلماتها يوقظن الحواس الخمس بتمارين عملية ويعلمن الغناء. ونظراً لذكاء وجمال المديرة روسا إلِنا فِرْغوسون كانت الدراسة رائعةً روعةَ لعبة الأحياء. تعلّمتُ تقدير حاسّة الشمّ، التي تعتبر قدرتها على استذكار الحنين جارفة. وصقلت حاسة الذوق حتى أنّني جرّبت مشروباتٍ لها طعم النافذة والخبز القديم الذي له طعم صندوق، ومغلياتٍ لها طعم قدّاس. نظرياً يصعبُ فهم هذه الملذات الذاتية، لكنّ من عاشها سيفهمها على الفور.

لا أظنّ أنّ هناك منهجاً أفضل من المنهج المونتِيسوري لزيادة رهافة الأطفال تجاه جماليات العالم وإيقاظ فضولهم تجاه أسرار الحياة. وقد أُخذ عليها أنّها تحرّضُ الشعورَ على الاستقلالية والفردية ـ ربّما كان هذا صحيحاً في حالتي. بالمقابل لم أتعلّم قط استخراج جذر تربيع ولا استخدام أفكار مجرّدة. كنت من صغر السنّ حيث أنّني لا أتذكّر إلاّ زميلين. الأولى هي خوانيتا مِندوثا التي توفيت بالتيفوس في السابعة من عمرها، بعد تدشين المدرسة بقليل وأثّرت فيّ فلم أستطع نسيانها وهي في إكليل وطرحة العروس في التابوت. الآخر هو غيِّرمو بالِنسيا عبدالله، صديقي منذ الاستراحة المدرسية الأولى وطبيبي الذي لا يخطئ بالنسبة إلى خُمارٍ(*) أيام الاثنين.

(*) صداع الخمرة.

يبدو أنّ أختي مارغوت كانت شقيّة جدّاً في تلك المدرسة، رغم أنّني لا أتذكر أنّها قالت ذلك أبداً. كانت تجلسُ في كرسيّ صفّها التحضيري وتبقى هناك صامتة ـ حتى خلال ساعات الاستراحة ـ دون أن ترفع نظرها عن نقطة غير محددة إلى أن يُقرع جرسُ الانتهاء. لم أعلم في الوقت المناسب أنّها كانت تمضغ ترابَ حديقة الدار الذي تحمله معها مخبّأً في جيب مريلتها.

تعذّبتُ كثيراً حتى تعلّمتُ القراءة. لم يكن يبدو لي منطقياً أن حرف م يُسمى ميم ثم لا يُلفظ حين يأتي بعده الألف مِيما بل ما. كان من المحال عليّ أن أقرأ بهذه الطريقة. أخيراً حين وصلت إلى مدرسة مونتِسوري لم تُعلمني المُعلّمةُ أسماءَ الأحرف الساكنة، بل أصواتها. وهكذا استطعت أن أقرأ أوّل كتابٍ عثرت عليه في صندوق يعلوه الغبارُ في مستودع البيت. كان مفكّكاً وغيرِ كامل، لكنّه شدّني إلى حدّ أنّ خطيب سارا أطلق حين مرّ بي تحذيراً مرعباً: «يا للهول! هذا الصبيُّ سيصبح كاتباً».

أن يكون هو الذي كان يعيش من الكتابة قال لي هذا، فقد أثّر بي تأثيراً عظيماً. مرّت سنوات عدّة قبل أن أعرف أنّ الكتاب هو «ألف ليلة وليلة». أكثر حكايةٍ أعجبتني ـ هي أقصر وأبسطُ ما قرأته ـ بقيتْ تبدو لي الأفضل على امتداد حياتي، رغم أنّني لست متأكّداً من أنّني قرأتها هناك ولم يستطع أحد أن يُبيِّنَ لي ذلك. الحكاية هي التالية: وعد صياد جارة له أن يهديها أوّل سمكة يصطادها إذا ما أعارته رصاصة لطرّاحة(*) صيده، وحين فتحت المرأةُ السمكةَ لتقليها وجدت في داخلها ماسة بحجم حبّة اللوز.

لقد ربطت دائماً بين حرب البيرو وانحطاط كاتاكا، فما أن أُعلن السلام حتى ضاع أبي في متاهة التردّد، وانتهى به الأمرُ أخيراً إلى الانتقال بالأسرة إلى مسقط رأسه في بلدة سينثِ. في الحقيقة كانت بالنسبة إليّ وإلى لويس إنريكه، نحن اللذين رافقناه في رحلة استكشافه، مدرسةَ حياةٍ جديدةً، ثقافتها مختلفة تماماً عن ثقافتنا،

(*) atarraya من العربية طرّاحة وهي شبكة صيدٍ دائرية.

حتى أنّهما بدتا من كوكبين مختلفين. منذ اليوم التالي لوصولنا أخذونا إلى البساتين المجاورة حيث تعلّمنا ركوب الحمار، وحلب الأبقار وخصي العجول، ونصب الأفخاخ للتماسيح والصيد بالصنارة، وفهم لماذا كانت الكلاب تبقى عالقة بأناثها. كان لويس إنريكه يتقدّمني دائماً في اكتشاف العالم الذي أبقت عليه مينا محظوراً عنا وكانت الجدّة أرخِميرا تحدّثنا عنه في سينثٍ دون أيّ خبث. كان ذلك العدد الكبير من الأعمام والعمات وأبناء الأعمام بألوانهم المختلفة، وذلك العدد الكبير من الأقارب من ذوي الكنى الغريبة، الذين يتحدثون بلغات محلية متباينة جداً يصيبنا في البداية بالتشويش أكثر من معرفة الجديد، إلى أن فهمنا أنّه كان طريقة أخرى في الحب. استقبلنا والدُ أبي، دون غابرييل مارتينِث، الذي كان معلم مدرسة أسطورياً، أنا ولويس إنريكه في فناء الأشجار الهائلة التي كانت تحمل أشهر ثمار المانغا بطعمها وحجمها في البلدة. كان يعدّها كلَّ يوم، منذ أوّل أيّام المحصول السنوي، واحدةً واحدة، ويقطفها واحدةً فواحدة بيديه لحظةَ بيعها بسعر خرافي، وهو سنتيم مقابل كلّ واحدة، قطف لنا عندما ودّعنا، بعد حديث ودّي حول مذكراته كمعلم صالح، ثمرةَ مانغا عن الشجرة الأكثر وريفاً وأعطاها لنا نحن الاثنين.

كان أبي قد سوّق إلينا تلك الرحلة على أنّها خطوة هامّة نحو لمّ شمل الأسرة، لكنّنا لاحظنا منذ وصولنا أنّ هدفه السرّي كان فتح صيدلية في الساحة الرئيسية الكبرى. سجّلنا أنا وأخي في مدرسة المُعلّم لويس غابرييل مِسا، حيث شعرنا أنّنا أكثر حرّية واندماجاً بالمجتمع الجديد. استأجرنا داراً هائلةً من طابقين مع شرفة على طول الواجهة مطلة على الساحة عند أفضل زاوية في البلدة. يغني في غرفها الفارغة طوال الليل شبحُ كروان خفيّ.

كلّ شيء كان جاهزاً لنزول سعيد للأم والأخوات حين وصلت البرقيةُ التي تحمل خبر أنّ الجدّ نيكولاس ماركيز قد مات بعد أن باغته ضيق في حنجرته، شُخّص على أنّه سرطان في مراحله الأخيرة، ولم يكد يسعفهم الوقت لنقله إلى سانتا مارتا ليموت هناك.

الوحيد الذي رآه في احتضاره كان أخي غوستابو، وهو ابن ستّة أشهر وضعه شخص ما في سرير الجدّ كي يودّعه. داعبه الجدّ المحتَضَر مداعبة وداع. احتجت لسنواتٍ كثيرة كي أعي ما كان يعنيه ذلك الموت غير المتصور بالنسبة إليّ.

في جميع الأحوال تمّ الانتقالُ إلى سينثٍ، ليس برفقة الأبناء وحسب، بل والجدّة مينا والخالة ماما، المريضة آنذاك وكلتيهما على عاتق الخالة «بّا». لكنّ فرحةَ التجديد وفشلَ المشروع حدثا في آن معاً تقريباً، وعدنا جميعاً في أقلّ من عام إلى كاتاكا، ونحن «نجلد القبّعة» كما كانت تقول أمّي في الحالاتِ المستعصية التي لا علاج لها. بقي أبي في بارَّانكيّا يدرس طريقة لفتحِ صيدليته الرابعة.

آخر ذكرى لي عن بيت كاتاكا في تلك الأيام المريعة كان صلاء الفناء الذي أحرقوا فيه ثياب جدّي: كانت بلوزته الحربية ذات الجيوب، وثيابه، ثياب الكولونيل المدني الكتانية البيضاء وهي تحترق تُشبهه كما لو أنّه ما يزال حيّاً فيها، وخاصّة قبعات القطيفة الكثيرة المختلفة الألوان، وهي أفضل ما كان يميّزه عن بعد. ميّزت بينها قبّعتي ذات المربعات الاسكتلندية، التي أحرقت سهواً، وقد هزّني إيحاء أنّ طقس الإبادة ذاك يمنحني دور بطولة أكيد في موت الجدّ. اليوم أرى الأمر واضحاً، فشيء مني كان قد مات معه. لكنّني أعتقد دون أيّ شك أنّني في تلك اللحظة أصبحت في المدرسة الابتدائية كاتباً لا ينقصه سوى أن يتعلّم الكتابة.

هذه هي الحالة المعنوية هي نفسها التي شجّعتني على البقاء حيّاً حين خرجت مع أمّي من الدار التي لم نستطع أن نبيعها. وبما أنّ قطار العودة يمكن أن يصل في أيّة ساعة، ذهبنا إلى المحطّة حتى دون أن نُفكّر بالسلام على أحد. «سنعود في يوم آخر لوقتٍ أطول»، قالت، بالطريقة الوحيدة الملطفة التي خطرت لها لتقول أنّها لن تعود أبداً. من ناحيتي، كنتُ أعلم أنّني لن أنقطع أبداً ما دمتُ حيّاً عن الحنين إلى رعد الساعة الثالثة مساء.

كنّا الشبحين الوحيدين في المحطّة ما عدا المستخدم الذي يرتدي أفرولاً ويبيع التذاكر ويقوم، إضافة إلى ذلك، بما يحتاج في

زمننا إلى عشرين أو ثلاثين رجلاً مستعجلاً. كان الحرّ حديدياً. لم يكن قد بقي على الطرف الآخر من خط القطار غير آثار مدينة شركة الموز المحرّمة، بيوتها القديمة التي ذهبت سقوفها الحمراء ونخيلها الذابل بين أعشاب وأنقاض المستشفى. وفي أقصى الرابية بيت المونتِسوري المهجور بين أشجار اللوز الهرمة، وساحة الحصى الصغيرة أمام المحطّة دون أدنى أثر للعظمة التاريخية.

كلّ شيء وبمجرّد النظر إليه كان يُثير عندي توقاً لا يقاوم للكتابة كي لا أموت. عانيت ذلك في مرّات أخرى، لكنّني لم أعرفه إلا في ذلك الصباح كلحظة إلهام، هذه الكلمة المقيتة، لكنّها الحقيقية إلى حدّ أنّها تجرف كلّ ما تجده في طريقها للوصول في الوقت المناسب إلى رمادها.

لا أذكر أنّنا تكلّمنا عن شيء آخر، ولا حتى في القطار. في الزورق وفي فجر يوم الاثنين، مع نسمة المستنقع الغافي المنعشة، انتبهت أمّي إلى أنّني أنا أيضاً لم أنم فسألتني:

ـ بماذا تُفكِّر؟

ـ أنا أكتب ـ أجبتها، وسارعتُ لأن أكون أكثر لطفاً: أو بالأحرى أفكّر بما سأكتب حين أصل إلى المكتب.

ـ ألا تخاف أن يموتَ أبوك غمّاً؟

تهربتُ لائذاً بستار من الصمت طويل.

ـ كانت هناك أسباب كثيرة كي يموت، وهذا لا بدّ هو أقلّها إماتة.

لم تكن مرحلة مناسبة كي أغامر في كتابة رواية ثانية بعد أن كنتُ غارقاً في الرواية الأولى، ولو أنّني حاولت، بنجاح أو عدم نجاح، أشكالاً أخرى من الرواية المتخيلة. لكنّني أنا فرضتُه في تلك الليلة على نفسي كالتزام حرب: أن أكتبها أو أموت، أو كما قال ريلكه: «إذا كنتَ تعتقد أنّك قادر على أن تعيش دون كتابة، فلا تكتب».

من سيارة الأجرة التي أقلّتنا إلى مرفأ الزوارق، بدت لي مدينتي بارَّانكيّا غريبة وحزينة وسط الأنوار الأولى من شهر شباطِ الربّاني ذاك. قبطان الزورق إلين مِرثِدِس دعاني لأن أرافق أمّي إلى بلدة سوكرِ، حيث كانت تعيش الأسرة منذ عشر سنوات. لم يخطر لي أن أفكّر بالأمر. ودّعتها بقبلة ونظرت هي إلى عينيّ؛ ابتسمت لي لأوّل مرّة منذ مساء اليوم السابق وسألتني بخبثها الدائم:

ـ إذن ماذا سأقول لأبيك؟

ـ قولي له إنّني أحبّه كثيراً وإنّني بفضله سأصبح كاتباً. ـ واستبقتُ أيّ خيار، دون أيّ تأثّر ـ لا شيء غير كاتب.

كنتُ أحبّ أن أقول ذلك، مازحاً أحياناً وجاداً أحياناً أخرى، لكنّني لم أقله بمثل قناعة ذلك اليوم. بقيتُ في المرفأ أردّ على تلويحات الوداع البطيئة التي راحت تلوّحُ لي بها أمّي من الشرفة حتى اختفى الزورق بين أنقاض الزوارق. عندئذ اندفعت إلى مكتب «إل هِرالدو»، متأثّراً بالحزن الذي كان يستنفدني من داخلي وبدأتُ، وأنا لا أكاد أستطيع التنفس، كتابة الروايةَ الجديدة بجملة أمّي: «جئتُ أطلب منك معروفاً بأن ترافقني لبيع البيت».

كان منهجي إذاك مختلفاً عن الذي تبنيته فيما بعد ككاتب محترف. كنتُ أكتبُ بالسبّابتين فقط ـ كما ما زلت أفعل ـ لكنّني لم أكن أمزّق أيّ مقطع حتى أتركه على أحسن وجه ـ كما هو الحال الآن ـ، بل كنتُ أدفقُ كلّ ما في داخلي من مادة أوّلية. أفكّر أنّ النظام كان يفرضه حجم الورق، الذي كان شرائط عمودية مقصوصة من لفافات ورق المطبعة، ويمكن أن تكون بطول خمسة أمتار. الناتج كان أصول طويلة وضيّقة مثل ورق البردي يخرج من الآلة الكاتبة على شكل شلال وينتشر على الأرض مع الاستمرار بالكتابة. رئيس التحرير لم يكن يُكلّف بكاتبة المقالات حسب حجم ورق الكتابة ولا عدد الكلمات أو الأحرف، بل حسب سنتيمترات الورق». كان يقول: «تحقيق بطول متر ونصف». عدت لأشتاق إلى مثل هذا القطع من الورق في أوج نضجي، حين انتبهت إلى أنّه كان عملياً مثل شاشة الحاسوب.

كان الزخم الذي بدأت به الرواية من القوّة بحيث أنني فقدت الإحساس بالوقت. في العاشرة صباحاً، كنتُ قد كتبتُ أكثر من متر حين فتح ألفونسو فونمايور الباب الرئيسيّ فجأة، وجمد والمفتاح في القفل، كما لو أنّه خلط بينه وبين باب الحمّام، إلى أن عرفني.

ـ وأنت أيّ هراء تفعل هنا في هذه الساعة! ـ قال لي.

ـ أكتب رواية العمر ـ قلتُ له.

ـ أخرى؟ ـ قال ألفونسو بمرحه العاق ـ أنت لك أرواحاً أكثر من القط.

ـ نفسها، لكن بطريقة أخرى ـ قلت له كي لا أقدّم إليه توضيحات غير مجدية.

لم نرفع الكلفة بيننا بسبب العادة الكولومبية الغريبة ـ القائمة على رفع الكلفة منذ السلام الأوّل، والانطلاق منها إلى الرسمي حين يحصل قدر أكبر من الثقة ـ كما بين الأزواج.

أخرج كتباً وأوراقاً من الحقيبة ووضعها على المكتب. وخلال ذلك استمع بفضوله النهم إلى التحوّل العاطفي الذي حاولت أن أنقله إليه من خلال قصّة رحلتي المحمومة. أخيراً لم أستطع أن أتفادى فاجعة أن ألخص له ما لم أكن قادراً على توضيحه، بجملةٍ لا ردّ عليها.

ـ إنّها أعظم ما حدث لي في حياتي ـ قلت له.

ـ من حسن الحظّ أنّها لن تكون الأخيرة ـ قال ألفونسو.

لم يفكّر بالأمر، فهو أيضاً لم يكن قادراً على قبول فكرة دون أن يردّها إلى حجمها الدقيق. ومع ذلك كنتُ أعرفه بما يكفي كي أنتبه إلى أنّه من الممكن ألا يكون تأثّري بالرحلة قد لينه، كما كنتُ أتوقّع، لكنّني لا شكّ أثرتُ فضوله. وهكذا كان: فمنذ اليوم التالي شرع يوجّه إليّ كلّ أنواع الأسئلة العرضية والنبيهة في آنٍ معاً عن سير الكتابة، وكانت إيماءة واحدة منه كافية كي تجعلني أفكّر أنّ شيئاً ما يجب أن يُصّحح.

وبينما كنّا نتحدّث لملمتُ أوراقي كي أفرغ المكتب. فألفونسو عليه أن يكتب في ذلك الصباح افتتاحية «كرونيكا»(*) الرئيسية. لكنّ الخبر الذي حمله إليّ أسعدَ يومي: فالعدد الأوّل المتوقّع صدوره في الأسبوع التالي قد أُجّل للمرّة الخامسة، نظراً للخلل في توريد الورق. من حسن الحظ أنّ ألفونسو قال إنّنا سنصدره خلال ثلاثة أسابيع.

فكّرتُ أنّ تلك المهلة الربّانية ستكفيني كي أحدِّدَ بدايةَ الكتاب، فقد كنتُ حتى ذلك الوقت غرّاً كي لا أدرك أنّ الروايات لا تبدأ كما يريد المرء، بل كما تريد هي. حتى أنّني اضطررت بعد ستّة أشهر حين ظننت أنّني في الطريق الصحيح والنهائي، أن أراجع بعمق الصفحات العشر الأولى كي يصدّقها القارئ، وما زالت حتى اليوم تبدو لي غير مقنعة. يبدو أنّ التأجيل شكّل راحة بالنسبة إلى ألفونسو، لأنّه وبدل أن يأسف له خلع سترته وجلس إلى المكتب ليتابع تصحيح الطبعة الحديثة لقاموس الأكاديمية الملكية، التي كانت قد وصلتنا في تلك الأيّام. كانت تلك تسليته المفضّلة منذ أن اكتشف خطأً عرضياً في قاموس إنكليزي، وأرسل التصحيح المُوَثّق إلى ناشريه في لندن، ربّما دون أيّ تطلّع آخر غير إرفاق الرسالة بنكتة من نكاتنا: «أخيراً ها قد أصبحت إنكلترا مدينة لنا نحن الكولومبيين». ردّ عليه الناشرون برسالة لطيفة جدّاً يعترفون فيها بخطئهم، ويطلبون منه أن يستمرّ بالتعاون معهم. وهذا ما حدث لعدّة سنوات فهو لم يعثر على سقطات أخرى وحسب في القاموس ذاته، بل في قواميس أخرى من مختلف اللغات. وحين قَدُمَت العلاقةُ أدمن العادة الانطوائية في تصحيح قواميس أسبانية، إنكليزية أو فرنسية وإذا ما اضطر للانتظار في قاعة انتظار أو في الحافلات، أو في أيّ من الصفوف الكثيرة في الحياة، يتسلّى بالمهمة الميليمترية القائمة على صيد الأغلاط المطبعية في حراج اللغات.

في الثانية عشرة صار الجو الحار لا يُطاق. فدخان سجائرنا نحن الاثنين كان قد غطّى على النور القليل للنافذتين الوحيدتين،

(*) يمكن ترجمتها حوادث، أخبار.

ومع ذلك ما من أحد منّا كلّف نفسه عناء تهوية المكتب، ربّما لإدماننا الثانوي على الاستمرار بتدخين الدخان ذاته حتى نموت. كان الوضع مع الحرّ مختلفاً. أنا محظوظ بالفطرة بأنّني أستطيع تجاهله حتى الثلاثين درجة في الظل. بالمقابل كان ألفونسو يمضي بخلع ملابسه قطعة بعد قطعة كلّما اشتداد الحرّ أكثر، دون أن يقطع عمله: ربطة العنق، القميص، القميص الداخليّ. وهكذا يتمتع بميّزة أخرى هي أنّ ثيابه تبقى جافّة بينما هو يذوب متصبّباً عرقاً، ويستطيع أن يرتديها مرّة أخرى حين تغيبُ الشمس، حسنةَ الكيّ وطازجة كما عند الإفطار. يبدو أنّ هذا هو السرّ الذي سمح له أن يظهر دائماً في أيّ مكان بثيابه الكتانية البيضاء، وربطات عنقه بعقدتها المفتولة، وشعره الهنديِّ القاسي المفروق في وسط الرأس بخطّ رياضيّ. هكذا كان يعود ليكون من جديد في الساعة الواحدة ظهراً حين يخرج من الحمام، كما لو أنّه استيقظ للتو من نومه المرمّم. حين مرّ بجانبي سألني:

ـ هل نتناول طعام الغداء؟

ـ لا جوع، يا معلّم ـ قلت له.

كان الجواب مباشراً في نظام القبيلة الرمزي: فلو قلتُ نعم لعنى هذا أنّني في وضع حرج ومستعجل، ربّما مضى عليَّ يومان أعيش فيهما على الخبز والماء، وفي هذه الحال أذهب معه دون أي تعليق آخر ولظهر أنّني أتدبّر أمري كي يدعوني. كان من الممكن لجواب ـ لا جوع ـ أن يعني أيّ شيء، لكن من الطريقة التي قلتها له بها يعني أنّه ليس عندي مشكلة في الغداء. اتفقنا أن نلتقي في مكتبة موندو(*) مساءً، كما هي العادة دائماً.

بعد الظهيرةِ بقليل وصل رجلٌ شابّ بدا فناناً سينمائياً، شديد الشقرة، متشقّق الجلد بفعل عوامل الطقس، عيناه زرقاوان غامضتان، في صوته دفءُ أرغنّ. وبينما كنّا نتحدّث عن المجلة وشيكة الصدور، رسم على سطح المكتب بروفيل ثور هائجٍ بستّة

(*) العالم.

خطوط متقنة، ووقعَّه مع رسالة إلى فونِمايور؛ ثم رمى بالقلم على الطاولة، وودّع صافقاً الباب خلفه. كنتُ غارقاً في الكتابة فلم أنظر حتى إلى اسمه. وهكذا كتبتُ بقيّة النهار دون طعامٍ ولا شراب، وحين انتهى نور المساء اضطررت أن أخرج متلمساً دربي مع خطوط الرواية الأولى، سعيداً، واثقاً من أنّني عثرتُ أخيراً على طريق مختلف عن شيء كنتُ أكتبه بلا أمل منذ أكثر من عام.

في تلك الليلة كان أن اكتشفتُ أنّ زائر المساء هو الرسام ألِخاندرو أوبرِغون، الذي وصل توّاً من واحدة من رحلاته الكثيرة إلى أوروبا. لم يُصبِح مذاك واحداً من كبار رسامي كولومبيا وحسب، بل أيضاً واحداً من أحبّ الرجال إلى أصدقائه، وقد سرَّع عودته كي يُشارك في إطلاق «كرونيكا». وجدته مع أحبائه في حانة بلا اسم من زقاق لا لوث المغلق في وسط حي باريو أباخو، الذي كان ألفونسو فونِمايور قد عمَّدها باسم كتاب صدر توّاً لغراهام غرين: الرجل الثالث.

كانت عوداته دائماً تاريخية، وعودته في تلك الليلة تُوِّجت بمشهد جدجد مروَّضٍ يُطيع أوامر صاحبه كأنّه إنسان. كان يقف على قائمتين، ينشر جناحيه، يشدو صافراً صفيراً موقَّعاً ويشكر المصفقين بحركات احترام مسرحية. أخيراً وأمام المروِّض الثملِ من حرارة التصفيق، ودهشةِ الجميع أمسك أوبرِغون الجدجدَ من جناحيه برؤوس أصابعه ووضعه في فمه ومضغه حيّاً بتلذُّذٍ شهواني. لم يكن سهلاً إرضاء المروِّضِ، فاقدِ العزاء بكلّ أنواع التدليل والعطايا مجتمعة. علمت فيما بعد أنّه لم يكن الجدجد الأوّل ولا الأخير الذي يأكله أوبرِغون في عرض عام.

لم أشعر قط كما شعرت في تلك الأيام باندماجي بتلك المدينة والأصدقاء الست، الذين بدؤوا يُعرَفون في أوساط صحافة ومثقفي البلد بمجموعة بارَّانكيّا. كانوا كتّاباً وفنانين شباباً يمارسون نوعاً من الزعامة في الحياة الثقافية في المدينة، يأخذ بأيديهم دون رامون بينيِّسْ، المُعلّم الكتلاني والمسرحي، والمكتبي الأسطوري المُدرج في موسوعة إسباسا منذ العام 1924.

كنتُ قد تعرّفت عليهم في أيلول من العام السابق، حين ذهبتُ من كارتاخِنا - حيث كنتُ أعيش - بتوصية مستعجلة من كلِمِنْتِ مانوِل ثابالا، رئيس تحرير صحيفة «إلْ أونيفِرسال»، حيث كنتُ أكتب أولى زواياي الصحافية. أمضينا ليلةً تكلّمنا فيها عن كلّ شيء وبقينا على علاقة حماسية ومتواصلة، نتبادل الكتب والغمزات الأدبية التي انتهيت إلى العمل عليها. ثلاثة من المجموعة تميّزوا باستقلاليتهم وقوّة إلهامهم: خِرمان بارغاس، ألفونسو فونْمايور وألبارو ثِبِدا ساموديو. كان لدينا أشياء مثيرة مشتركة حتى أنّه كان يُقال بخبث أنّنا أبناء لأبٍ واحد، لكنّنا كنّا معلمين يشار إلينا بالبنان، ولا يحبوننا كثيراً في بعض الأوساط نظراً لاستقلاليتنا، وإلهامنا الذي لا يُقاوَم، والعزيمة الخلاّقة التي راحت تشقّ طريقها بصعوبة وخوفٍ يحلّه كلٌّ منا بطريقته دون أن ينجح دائماً.

كان ألفونسو فونمايور كاتباً رائعاً في الثامنة والعشرين من عمره حافَظَ لزمن طويل على عمودٍ عن الراهن - جوّ اليوم - في «إلْ هِرالدو» يوقّعه باسم بوك الشكسبيري المستعار، وكلّما كنّا نزداد معرفة باستهتاره وروح الدعابة عنده كلّما قل استيعابنا لأن يكون قد قرأ كلّ تلك الكتب والموضوعات التي يمكن أن نتصوّرها بأربع لغات. آخر تجربة حيوية له حين صار في الخمسين من عمره هي تجربة سيارة ضخمة ويُرثى لها كان يسوقها مخاطراً بسرعة عشرين كيلومتر في الساعة. كان سائقو سيارات الأجرة، وكبار أصدقائه وأكثر قرّائه معرفة به يُميِّزونه عن بعد، ويتنحّون جانباً كي يخلوا له الطريق.

كان خِرمان بارغاس كانتيّو كاتب عمود في «إلْ ناثيونال» المسائية، وناقداً أدبياً سديداً ولاذعاً، نثره مطواع يمكن أن يقنع القارئ بأنّ الأشياء كانت تحدثُ فقط لأنّه هو الذي يرويها. كان واحداً من أفضل مذيعي الإذاعة، وأكثرهم ثقافة دون شكّ، في تلك الأزمنة الطيبة للوظائف الجديدة والنموذجَ الصعب لكاتب التحقيقات الطبيعية الذي وددت لو أكونه. كان أشقر، قاسي العظم، وعينين زرقاوين زرقة خطرة، ولم يكن ممكناً قط معرفة متى كان يقرأ في

كلّ ما كان جديراً بأن يُقرَأ في لحظته. لم يتراجع لحظةً عن هوسه المبكّر في اكتشاف القيم الأدبية الخفيّة في زوايا قصية من المقاطعة المنسية كي يخرجها إلى النور. من حسن حظّنا أنّه لم يتعلم قط قيادة السيارة في تلك الأخوية من الساهين، فقد كنّا نخاف ألاّ يُقاوم إغواء القراءة وهو يقودها.

بالمقابل كان ألبارو ثِبِّدا ساموديو قبل أيّ شيء سائقاً مهووساً ـ للسيارات كما للآداب ـ؛ ومن القاصين الجيّدين، حين يريد أن يجلس للكتابة، وناقداً سينمائياً ماهراً والأكثر ثقافة وإثارةً للجدل الجريء دون شكّ. كان يبدو غجرياً من ثييناغا غراندِ، جلده مدبوغ ورأسه أسود جميل وأشعث الخصلات، وعيناه مجنونتان لا تخفيان قلبه الرقيق. نعله المفضّل كان صندلاً من الخرق ومن أرخص الأنواع، ويحمل بين أسنانه سيجاراً ضخماً يكاد يكون مطفَأً دائماً. مارس في «إلْ ناثيونال» أوّل كتاباته الصحافية ونشر فيها قصصه الأولى. كان في ذلك العام في نيويورك ينهي دورة صحفية عليا في جامعة كولومبيا.

ثمّة عضو جوّال في المجموعة كان الأكثر تميّزاً إلى جانب دون رامون هُوَ خوسِهْ فِليكس فونْمايور، والد ألفونسو، وكان صحفياً تاريخياً وقاصّاً من أعظم القاصين، نشر في العام 1910 ديوان شعر، «حوريات الإستواء» وروايتين: «كوسمِهْ» 1927 و«مغامرة حزينة لأربعة عشر حكيماً» في 1928، ما من كتاب واحدٍ منها نجح في المكتبات، لكنّ النقد المتخصّص اعتبر خوسِهْ فِليكس دائماً واحداً من أفضل القاصين المختنقين في أدغال المقاطعة.

لم أسمع أحداً يتحدّث عنه قط حين عرفته. تصادفنا ذات ظهيرة وحيدين في خابّي فبهرني على الفور بمعرفته وبساطة حديثه. كان رجلاً من رجالات حرب الألف يوم الناجين من أحدِ سجونها السيِّئة. لم يكن يملك أهلية بينيِّسْ، لكنّه كان بطريقته في الحياة وثقافته الكاريبية أقرب إليّ منه. ومع ذلك فأكثر ما أعجبني فيه هو قدرته الغريبة على نقل معرفته وكأنه ينقل شيئاً يتعلّق بالخياطة والغناء. كان محافظاً عنيداً ومعلّماً في الحياة، تختلف طريقته في التفكير

تماماً عن طرقِ كلّ الذين عرفتهم حتى ذلك الوقت. كنّا نقضي أنا وألبارو ثِبِّدا ساعاتٍ نصغي إليه، وخاصة إلى مبدئه الأساسي القائل بأنّ الاختلافات في العمق بين الحياة والأدب هي أخطاء بسيطة في الشكل. كتب ألبارو بعد ذلك، لا أدري أين، جملة لامعة صائبة: «جميعنا ننحدِر من خوسِهْ فِليكس».

كانت المجموعة قد تشكّلت بطريقة تلقائية، بقوّة الجاذبية تقريباً وبفضل الألفة الراسخة، لكن الصعبة على الفهم للوهلة الأولى. كثيراً ما سألونا كيف نحن متفقون دائماً ومختلفون جدّاً في آنٍ معاً وكان علينا أن نرتجل أيّ جواب كي لا نقول الحقيقة: لم نكن كذلك دائماً، لكنّنا كنّا نتفهّم الأسباب؛ واعين أنّ صورتنا خارج جوّنا هي صورة جبّارين، نرجسيين وفوضويين. خاصّة في هويّاتنا السياسية. فقد كان يُنْظَرُ إلى ألفونسو فِليكس على أنّه ليبرالي متشدّد، وإلى خِرمان على أنّه مفكّر حرّ بالإكراه، وإلى ألبارو على أنّه فوضوي اعتباطي، وإليّ كشيوعي غير مؤمن وانتحاريّ كامن. ومع ذلك أعتقد بما لا يقبل أدنى شكّ أنّ فضيلتنا الأكبر كانت في أنّنا قد نفقد صبرنا في المواقف الحرجة، لكنّنا لا نفقد مرحنا أبداً.

كنّا لا نناقش تناقضاتنا الجدّية القليلة، التي تصل حرارتها أحياناً إلى حدٍ خطيرٍ، إلا فيما بيننا، لكنّنا ما إن ننهض عن الطاولة أو يصل صديق غريب حتى ننساها. أقل الدروس نسياناً تعلّمته للأبد في بار لوس ألمِنْدْروس، في ليلة قريبة العهد، وكنتُ قد وصلت توّاً، اشتبكنا فيها أنا وألبارو في نقاش حول فوكنر. الشاهدان الوحيدان اللذان كانا على الطاولة هما خِرمان وألفونسو، وبقيا على الهامش بصمتٍ رخامي وصل حدّاً لا يُحتَمَل. لا أدري في أيّة لحظة بعد أن أخذ منّي الغضب والأغوارديينتِ الوحشي كلّ مأخذٍ تحديتُ ألبارو أن يحلّ النقاش بالضرب. هممنا أنا وهو بالنهوض عن الطاولة والخروج إلى وسط الشارع حين جمَّدنا صوت خِرمان بارغاس الصارم بدرس خالِد:

ـ من ينهض أوّلاً يخسر.

ما من أحدٍ منّا كان قد بلغ الثلاثين، فأنا، بسنواتي الثلاث

والعشرين، كنتُ أصغر أفراد المجموعة، وتبنوني منذ أن وصلت في كانون الأوّل الماضي كي أبقى معهم. لكّننا على طاولة دون رامون بينيِّش كنّا نتصرَّف أربعتنا كمشجّعين على الإيمانٍ وطالبين له، وكنّا نتكلّم دائماً معاً عن الشيء ذاته، ونسخر من كلٍ شيء، متفقين تماماً على المعاكسة التي جعلتنا ننتهي إلى أن نبدو وكأنّنا واحد.

المرأة الوحيدة التي كنّا نعتبرها واحداً من المجموعة هي مِيْرا دِلْمار، التي كانت قد بدأت زخمها الشعري، لكنّنا لم نكن نتكلّم معها إلاّ في المناسبات النادرة التي كنّا نخرج فيها من فلك عاداتنا السيِّئة. جديرة بالذكر السهرات التي كنّا نقضيها في بيتها مع الكتّاب والفنانين المشهورين الذين يمرّون بالمدينة. صديقة أخرى لوقت أقصر وتواتر أقل هي الرسامة ثِثيليا بّورّاسْ التي كانت تأتي بين الحين والآخر من كارتاخِنا وترافقنا في جولاتنا الليلية، فهي لم يكنِ يهمّها قيد أنملة أن تظهر النساء في مقاهي السكارى وبيوت المهَالِك.

كنّا نلتقي نحن أفراد المجموعة مرَّتين في اليوم في مكتبة موندو. كانت مرتع سلام وسط صخب شارع سان بلاس، الشريان التجاري الصاخب والملتهب الذي يصبّ فيه مركز المدينة في السادسة مساءً. كنّا أنا وألفونسو نكتبُ حتى الهزيع الأوّل من الليل في مكتبنا المتاخم لقاعة تحرير «إلْ هِرالدو»، مثل تلميذين مجتهدين، هو يكتب افتتاحياته الحكيمة وأنا زواياي المخيفة. كنّا نتبادل الأفكار من آلة إلى أخرى، نستعير صفاتٍ من بعضنا بعضاً، نتداول معلوماتٍ ذهاباً وغدوّاً، حتى أنّه كان من الصعب في بعض الحالات معرفة لمن منّا هذه الفقرة أو تلك.

كانت حياتنا اليومية تكاد تكون متوقّعة دائماً، باستثناء ليالي الجمعة حيث كنّا في مهبِّ الإلهام، ونوصلها أحيانا حتى فطور الاثنين. وإذا ما حاصرتنا المصلحة نُشرعُ نحنُ الأربعة، برحلة أدبيّة بلا كابح ولا حدٍّ، تبدأ في حانة «إلْ تِرتِر هومبْرِ» مع حرفيي الحيّ وميكانيكيّي ورشة السيارات، إضافة إلى موظّفين عامّين جامحين وآخرين أقلّ جموحاً. أغربهم هو لصُّ بيوت يصل قبل

منتصف الليل بقليل مرتدياً لباس الحرفة: بنطلون باليه، حذاء لاعبِ تنس، قبّعة لاعب كرة وحقيبة معدَّات خفيفة. تمكّن شخصٌ فاجأه يسرق بيتَهُ من تصويره ونشر الصورة في الصحافة عسى أن يتعرّف عليه أحد. الشيء الوحيد الذي حصل عليه هو عدد من رسائل القرّاء الغاضبين، لأنّه يلعب لعبةً وسخة مع النشالين المساكين.

كان اللصُّ يحمل ميولاً أدبية بجدارة، ولم يكن يضيع كلمة من الأحاديث حول الفنّ والكتب، ونعلم أنّه مؤلّف لقصائد حبٍّ مخجلة يلقيها على الزبائن حين لا نكون نحن. كان يذهب في منتصف الليل إلى السرقة في الأحياء العالية، كما لو أنّها وظيفة ويعودُ بعد ثلاث أو أربع ساعات حاملاً إلينا هديّةً عديمة القيمة مستخلصة من الغنيمة الكبرى. «للصغيرات» كان يقول لنا، دون حتى أن يسأل ما إذا كان عندنا صغيرات. وحين كان يلفت انتباهه كتاب ما يأتينا به هديّة، وإذا كان قيّماً نتبرّع به لمكتبة المنطقة التي تُديرها مِيْرا دِلمار.

كراسي الأستاذية الجوّالة تلك استحققنا عليها سمعة سيّئة بين الجارات الصالحات اللواتي كنّا نلقاهنّ عند خروجهنَّ من قدّاس الساعة الخامسة، ويبدلن الرصيف، كيلا يلتقين بسكارى الفجرُ. لكنّ الحقيقة أنّه لم يكن هناك من سهرات أنبل ولا أكثر فائدةً من عربدتنا. إذا كان هناك من عرف ذلك على الفور فهو أنا، الذي كنتُ أرافقهم في صراخهم في المواخير حول أعمال جون دوس باسّوس أو الأهداف الضائعة لفريق نادي دِبورتيبو خونيور؛ حتى أنّ إحدى بغايا «الغاتو نِغرو» الظريفات، المنزعجة من ليلة كاملة من النقاشات المجانية صرخت بنا حين مرّت:

ـ لو أنّكم تقذفون بقدر ما تصرخون، لكنّا سبحنا في الذهب.

كثيراً ما كنّا نذهب لنرى طلوع شمس اليوم التالي في ماخورٍ بلا اسم في الحيّ الصيني، حيث عاش أورلاندو ريبِرا، الملقب فيغوريتّا لسنوات، بينما كان يرسم جداريّةً شكّلت ذاكرةً مرحلة. لا أتذكر شخصاً له نظرة مجنونة أكثر هذياناً منه، ولحية جدي وطيبة قلب يتيم. منذ المدرسة الابتدائية لفحته سمعة أنّه كوبيّ، وانتهى إلى

أن أصبح كذلك أكثر مما لو كان حقيقة. كان يتكلّم ويأكل ويرسم ويلبس ويعشق ويرقص ويعيشُ حياته ككوبي، ومات كوبياً دون أن يعرف كوبا.

لم يكن ينام. وحين كنّا نزوره فجراً يقفز عن السقالةِ ملوَّناً أكثر من الجدارية ذاتها ويجدِّفُ بلغة المامبيس(*) من خدر الماريغوانا. كنّا أنا وألفونسو نحملُ إليه مقالاتٍ وقصصاً ليرسم لها رسوماً توضيحية، ونضطرُّ لأن نحكيها له بصوت حيّ، لأنّه لم يكن يملك صبراً لفهمها مقروءةً؛ فينفذ الرسوم في لحظة بتقنيات الكاريكاتير، الوحيدة التي كان يؤمن بها. فتكادُ تخرج معه دائماً جيّدة، رغم أنّ خِرمان بارغاس كان يقول بمزاج رائق إنّها أفضل بكثير حين تخرج سيّئة.

هكذا كانت بارّانكيّا، مدينة لا تشبه أيّة مدينة أخرى، خاصّة بين كانون الأوّل وآذار، حيثُ تُعوِّض ريحُ الشمال التجارية الليلية جهنّمَ النهارات، بهبّاتٍ ليلية تُشكِّل دواماتٍ في فناءات الدور وتحمل معها الدجاج. فلا تستمرُّ الحياة إلاّ في فنادقِ العابرين وحاناتِ البحارةِ حول المرفأ. كانت بعضُ نساء الليل ينتظرن ليالٍ بطولها وصولَ زبائن بواخرِ نهرٍ غير أكيدين. بينما كانت فرقة نحاسيات تعزفُ فالساً فاتراً في شارعٍ محفوفٍ بالحور، لا يُصغي إليها أحد بسبب صياح السائقين الذين يتناقشون حول كرة القدم بين سيارات الأجرة المصطفّة والمتوقفة على قارعة شارع بوليفار العريض. المحل الوحيد الممكن كان مقهى روما، حانة اللاجئين الأسبان التي لا تُغلق أبوابها أبداً، لسبب وحيد هو أنّه لم يكن لها باب، ولا سقف، في مدينةٍ هطولاتها المعتادة طقوسية، ومع ذلك لم يسمع أحدٌ عن شخصٍ تخلى عن تناول صحن عجّة بطاطا أو عقد صفقة بسبب المطرِ. كان المقهى مرتعاً في الهواء الطلق بطاولات دائرية مطلية بالأبيض، وكراسٍ حديدية صغيرة تحت أغصان الأكاسيا المزهرة.

(*) اسم أطلِق على المتمرّدين الذين ثاروا ضدّ أسبانيا في حروب استقلالِ كوبا في القرن التاسع عشر.

في الساعة الحادية عشر حين كانت تُغلق الصحف الصباحية ـ إلْ هِرالدو و لابرِنْسا ـ أبوابها كان المحرِّرون الليليون يجتمعون على العشاء. بينما يتواجدُ اللاجئون الأسبان هناك منذ السابعة بعد سماعهم في البيت النشرةَ الإخبارية من الأستاذ خوان خوسِهْ بِرِثْ دومِنِش، الذي كان ما يزال يذيع أخبارَ الحرب الأهلية الأسبانية بعد اثنتي عشرة سنة من خسارتها.

وفي ليلة فألها حسن رسا هناك الكاتب إدواردو ثالاميا عائداً من لا غواخيرا وأطلق على نفسه النار في صدره دون أن تتأتى عن ذلك نتائج خطيرة. تحوّلت الطاولة إلى نوع من الأثر التاريخي يعرضها أصحاب المحل على السياح دون السماح بإشغالها. بعد سنواتٍ نشر ثالاميا مغامرته في: «أربع سنوات علَى متن نفسي»، الرواية التي فتحت آفاقاً لا شكّ فيها أمامَ جيلنا.

كنتُ أكثر أعضاء الأخوّية فقراً، ولذتُ مرّات كثيرة في زاوية معزولة من مقهى روما لأكتب حتى الفجر، فالوظيفتان معاً كانتا مهمتين وسيئتي الأجر في آنٍ معاً. كان الفجر يُباغتني هناك وأنا أقرأ بلا رحمة، فإذا حاصرني الجوعُ تناولتُ فنجان شوكولاته كثيفة مع سندويشةِ جامبون أسباني جيّد، وتنزّهتُ مع خيوط الفجر الأولى تحت شجيرات الماتارّاتون(*) المزهرة في شارع بوليفار العريض. كنتُ أكتب في الأسابيع الأولى حتى ساعة متأخرة جدّاً في قاعة تحرير الصحيفة، أو على لفافات ورق المطبعة، لكنّني وجدت نفسي مع مرور الوقتِ مضطرّاً للبحث عن مكان أقل أصالة.

جاءني الحلُّ، كما في مرّات مستقبليةٍ كثيرة أخرى، من سائقي سيارات الأجرة السعداء في شارع بوليفار العريض، في فندق للعابرين على بعد قصبةٍ من الكاتدرائية، حيث ينام المرء وحيداً أو مرافقاً ببيزو ونصف. كان البناء قديماً جدّاً، لكنّه مُصانٌ على حساب العاهرات الصغيرات البائسات اللواتي كنّ يتجولن في شارع بوليفار العريض منذ السابعة مساءً يترصدن غراميات فاجرة. كان البوّاب

(*) شُجيرة زينة من فصيلة القرنيات تُعطي أزهاراً بنفسجية وأوراقاً ضاربة إلى الزرقة.

يُدعى لاثيدِسْ، له عين بلوريةٌ مائلة المحور يتلعثم خجلاً. ما زلتُ أذكره بكثيرٍ من الامتنان منذ الليلة الأولى التي وصلتُ فيها حتى الآن. رمى البيزو والنصف في درج طاولة العرض المليء بالأوراق النقدية المبعثرة والمجعدة، للهزيع الأوّل من الليل، وأعطاني مفتاحَ الغرفة رقم ستة.

لم أجد نفسي قط في مكان بمثل ذلك الهدوء. أكثر ما كان يُسْمَع هو وقع الخطوات الخافتة وهمسٌ غير مفهوم. ومن حين إلى آخر متباعد صريرٌ مزعج لنوابض صدئة. لكن ما من همسة ولا تنهيدة: لا شيء. الشيء الوحيد الصعب كان حرّ الفرن نظراً، لأن النافذة مغلقة بشبك خشبي. ومع ذلك قرأتُ ويليام إيريش بشكلٍ جيّدٍ منذ أوّل ليلة حتى الفجر تقريباً.

كان بيتاً لمالكي سفنٍ قدماء، كُسيت أعمدتُه بالرخام الأبيض، وكانت أفاريزه من الصفيح الأصفر حول فناء داخلي مسقوف بالزجاج الملون الذي يشعّ منه وهجٌ دفيئة. كانت مكاتب التوثيق العامّة المدينة في الطابق الأسفل منه، وفي كلّ طابقٍ من طوابق البيت الأصلي الثلاثة ست حجرات من الرخام، تحوّلت إلى علبٍ من الكرتون ـ مثل حجرتي ـ تجمع فيها نساء ليل القطّاع غلالهنّ. وقد اتخذ داقّ الأعناق السعيد هذا ذات مرّة اسم فندق نيويورك، بينما سمّاه ألفونسو فونْمايور فيما بعد ناطحة السحاب تخليداً لذكرى المنتحرين الذين كانوا يلقون بأنفسهم في تلك الأيّام من شرفاتِ الأمباير ستيت.

في جميع الأحوال كان محور حياتنا هو مكتبة موندو، في القصبة الأكثر ازدحاماً من شارع سان بلاس، حيث نذهب في الثانية عشرة ظهراً والسادسة مساءً. كان خِرمان بارغاس الصديق الحميم لصاحبها دون خورخِه روندون، وهو من أقنعه بإقامة تلك التجارة. تحوّلت خلال وقت قصير إلى مركز اجتماع للصحافيين والكتاب والسياسيين الشباب. لم يكن روندون ذا تجربة في تلك التجارة، لكنّه سرعان ما تعلّمها بحماس وكرم حوّلاه إلى نصير لا ينسى للفنون والآداب. كان خِرمان وألبارو وألفونسو مساعديه في طلبات الكتب

وخاصّة الجديد من منشورات بوينس أيريس، التي بدأَ ناشروها بترجمة وطباعة الأعمال الأدبية الجديدة، وتوزيعها بالجملة في كلّ أنحاء العالم بعد الحرب العالمية. وبفضلهم كان باستطاعتنا أن نقرأ في الوقت المناسب الكتب التي ما كانت لتصل إلى المدينة بطريقة أخرى. هم أنفسهم كانوا يُشجّعون الزبائن واستطاعوا أن يحوّلوا بارّانكيّا من جديد إلى مركز للقراءة، كان قد انحسر قبل سنوات حين غابت مكتبة دون رامون التاريخية عن الوجود.

لم يمضِ وقت طويل على وصولي، حتى دخلت في تلك الأخويّة التي كانت تنتظر الباعة الجوّالين لكتب دور النشر الأرجنتينية، كأنّهم مرسلون من السماء. بفضلهم أعجبنا في وقتٍ مبكّرٍ بخورخِ لويس بورخِس وخوليو كورتاثار وفليسبِرتو هِرنانذِث والروائيين الإنكليز والأمريكيين الشماليين المترجَمين بشكل جيّد من قبل فريق فيكتوريا أوكامبو. كانت «كورُ متمرِّد»، لأرتورو باريا، رسالة الأمل الأولى التي جاءت من أسبانيا البعيدة، التي أخمدت حربان صوتها. أحد أولئك المسافرين، دقيقي المواعيد كان غيِّرمو دابالوس، الذي تميّز بعادته الطيبة في المشاركة بسهراتنا، وإهدائنا عيّناتٍ من الكتب الجديدة بعد إنهاء تجارته في المدينة.

لم تكن المجموعة التي كانت تعيش بعيداً عن مركز المدينة تذهب ليلاً إلى مقهى روما إلاّ لأسباب محدّدة. أمّا بالنسبة إلي فقد كان المقهى هو البيتَ الذي لم أملكه. كنتُ أعمل صباحاً في قاعة تحرير «إل هِرالدو» اللطيفة وأتناول غدائي كيفما اتفق ومتى أستطيع وحيثما أستطيع، لكن دائماً ضمن المجموعة وبدعوة أصدقاء طيبين وسياسيين مصلحيين. وفي المساء أكتب «الزرافة» زاويتي اليومية أو أيّ نص عرضيّ. وكنت من أكثر المواظبين حرصاً على الوصول إلى مكتبة موندو في الثانية عشرة ظهراً والسادسة مساءً تماماً. مقبلات الغداء التي اعتادت المجموعة تناولها لسنواتٍ في مقهى كولومبيا، انتقلت فيما بعد إلى مقهى خابّي، على الرصيف المقابل، لأنّه أكثر مقاهي شارع سان بلاس تهوية وفرحاً. وقد حوّلناه إلى مكان للزيارات، والمقابلات، والصفقات، ومكتب، ومكان سهل للقائاتنا.

كان لطاولة دون رامون في خابّي قواعد غير قابلة للاختراق فرضتها العادةُ. كان أوّل من يصل نظراً لأن دوام عمله كمعلّم يستمرّ حتى الرابعة مساءً. لم تكن تتسع لأكثر من ستة. اخترنا أماكننا حسب مكانِهِ، وكان يعتبر من قلّة الذوق تقريب كراس أخرى إلى حيث لا متسع لها. ونظراً لعلاقته القديمة به ومستوى صداقته معه جلسَ خِرمان على يمينه منذ اليوم الأول. كان المكلّف بالمسائل المادية. يحلّها حتى ولو لم يُطلَب منه ذلك، لأنّ الحكيم يملك ميلاً خلقياً لعدم التفاهم مع الحياة العملية. كانت المسألة الأساسية في تلك الأيام هي بيع كتبه إلى مكتبة المنطقة، وإنهاء أمورٍ أخرى قبل سفره إلى برشلونة. كان خِرمان يبدو ابناً صالحاً أكثر مما هو سكرتير.

بالمقابل ارتكزت العلاقة بين دون رامون وألفونسو على المشاكل الأدبية والسياسية الأصعب. أمّا ألبارو فقد بدا لي دائماً أنّه يتثبَّطُ حين يجده وحيداً على طاولته، ويحتاج إلى وجود آخرين كي يشرع بالإبحار. الكائن البشريّ الوحيد الذي كان له الحق بحرّية اختيار المكان على الطاولة هو خوسِهْ فِليكس. لم يكن دون رامون يذهب ليلاً إلى خابّي، بل يذهب مع أصدقاء منفاه الأسبان إلى مقهى روما القريب.

آخر من وصل إلى طاولته هو أنا، وجلستُ منذ اليوم الأوّل دون حقّ خاص على كرسيّ ألبارو ثِبِّدا طوال وجوده في نيويورك. استقبلني دون رامون كتلميذٍ آخر، لأنّه كان قد قرأ قصصي في «إلْ إسبِّكتادور». ومع ذلك لم أتصوّر قط أنْ يصلَ بي الأمر إلى التجاسر على طلب استدانة المال منه من أجل سفري إلى أراكاتاكا مع أمّي. بعد فترة قصيرة، وبمصادفة لا يمكن تصوّرها، جرى بيننا الحديث الأول والوحيد على انفراد، ذهبت إلى خابّي مبكّراً أكثر من الآخرين كي أدفع له البيزوات الستة التي استدنتها منه دون شهود.

ـ سلام، أيّها العبقريّ ـ حيّاني كعادته دائماً، لكنّ شيئاً في وجهي استنفرة: هل أنت مريض؟

ـ لا أعتقد ذلك، يا سيّدي ـ قلت له قلقاً ـ لماذا؟

- ألاحظ أنّك هزيل - قال - لكن لا تأخذ بكلامي فجميعنا في هذه الأيّام مخترقون في مؤخراتنا(*).

خبّأ البيزوات الستة في محفظته بحركةٍ منكمشة، كما لو أنّه اعتبره مالاً غير مشروع.

- آخذه - وضّح لي خجلاً - كذكرى من شاب فقير جدّاً، قادرٍ على أن يدفع ديناً دون أن يطلبوه منه.

لم أعرف ما أقول وأنا غارقٌ في صمت تحمّلته مثل بئر من رصاص في ضوضاء القاعة. لم أحلم قط بذلك اللقاء. كان لديّ انطباع بأنّ كلّ واحد يُساهِمُ في دردشات المجموعة بحبّة رملٍ في الفوضى، وأنَّ ظرافة كلّ واحد ونواقصه تختلط بظرافة ونواقص الآخرين، ولم يخطر لي قط أنّ أتحدّث عن الفن والمجد على انفرادٍ مع رجل يعيش منذ سنوات في الموسوعة. بقيت أسحاراً كثيرة أتصوّر، وأنا أقرأ في وحشة غرفتي، الحوارات المثيرة التي كان بودّي أن أجريها معه حول شكوكي الأدبية، لكنّها كانت تذوبُ دون أن تترك أثراً تحت نور الشمس. خجلي كان يزداد حدّة حين يُغيرُ ألفونسو بفكرة من أفكاره الخارقة، أو حين يفنّدُ خِرمان رأياً متسرّعاً للمعلّم، أو حين يصرخ ألبارو بمشروعٍ يخرجنا عن طورنا.

من حسن الحظّ أنّ دون رامون هو الذي بادر في ذلك اليوم في خابّي بسؤالي كيف تسير قراءاتي. كنتُ قد قرأتُ في ذلك الوقت كلّ الذي استطعت أن أعثر عليه من الجيل الضائع، بالأسبانية، مع اهتمامٍ خاصّ بفوكنر، الذي كنتُ أتحرّاه بحذر موسى حلاقة دام، نظراً لخوفي الغريب من ألاّ يكون، على المدى البعيد، أكثر من بلاغيٍّ ماكرٍ. هزّني الخجل بعد أن قلت ذلك من أن يبدو ذلك استفزازاً وحاولت أن أوضحه، لكنّ دون رامون لم يمنحني وقتاً لذلك.

- لا تهتمّ، يا غابيتو - أجابني دون رحمة - فلو كان فوكنر في بارّانكيّا لجلس إلى هذه الطاولة.

(*) قالها بالكتلانية.

من ناحية أخرى لفت انتباهه أن رامون غومِث دِ لا سِرنا(*) كان يهمّني إلى حدّ أنني أذكره في زاوية «الزرافة» إلى جانب روائيين آخرين حقيقيين. وضّحت له أنّني لا أفعل ذلك من أجل رواياته، فباستثناء «شاليه الورود» التي أعجبتني كثيراً، ما كان يهمّني منه هو جرأة قريحته وموهبته الكلامية، لكن كمجرّد رياضة إيقاعية لتعلّم الكتابة. بهذا الاتجاه لا أتذكّر جنساً أكثر ذكاء من «غرغِريّاته» الشهيرة. قاطعني دون رامون بابتسامة لاذعة:

ـ الخطر بالنسبة إليك هو أن تتعلم الكتابةَ أيضاً بشكلٍ سيّئ دون أن تنتبه.

ومع ذلك، وقبل أن يغلق الموضوع، اعترف أن غومِث دِ لا سِرنا ووسط فوضاه البرّاقة كان شاعراً جيّداً. هكذا كانت أجوبته فورية وحكيمة، لا تكاد تسعفني أعصابي كي أتمثلها، مختنقاً خوفاً من أن يقطعَ عليَّ أحدٌ تلك الفرصة الوحيدة. لكنّه كان يعرف كيف يديرها. حمل له نادله المعهود كوكاكولا الساعة الحادية عشرة والنصف، فبدا أنّه لم ينتبه، لكنّه شربها على رشفات «بالشلمونة الورقية» دون أن يقطع توضيحاته. كان معظم الزبائن يحيونه من الباب بصوت عالٍ: «كيف حالك، يا دون رامون» ويردّ عليهم بتلويحةٍ من يده، يدِ الفنان دون أن ينظر إليهم.

بينما كان دون رامون يتكلّم، كان يوجّه نظرته الخفية إلى المحفظة الجلدية التي بقيتُ أشدّ عليها بكلتا يديّ بينما أنا أصغي إليه. وحين أنهى الكوكاكولا الأولى فتل الشلمونة كأنّها مفك براغٍ وأمر بثانية. طلبتُ واحدة لي مع علمي بأنّ كلّ واحد يدفع ما يخصّه. سألني أخيراً ما تلك المحفظة الغامضة التي أتمسّك بها كما يتمسك الغريق بالخشبة.

حكيتُ له الحقيقة: كان الفصل الأوّل الذي ما يزال مسودة من

(*) رامون غومِث دِ لا سِرنا(1888 ـ 1963) كاتب أسباني كتب عدّة أجناس أدبية منها جنس ابتدعه بنفسه ألا وهو «غرِغريّاس» الذي عرفه بأنّه خلاصة الدعابة والمجاز. من أعماله مصارع الثيران كاراتشو، امرأة العنبر، الأرملة البيضاء والسوداء، السوق، الرامونية، صور معاصرة وغرِغريّاس.

رواية بدأتها عند عودتي من كاتاكا مع أمّي. وبجرأة ما كنت لأعود وأقدر عليها في مفترق طرق حياة أو موت، تركتُ المحفظة مفتوحة أمامه على الطاولة كاستفزازٍ بريء. ثبّت حدقتيه الصافيتين والزرقاوين رفقة خطيرة، وسألني مندهشاً قليلاً:

ـ هل تسمح؟

كان الفصلُ مكتوباً على الآلة الكاتبة بتصحيحات لا تُحصى على شرائح من أوراق الطباعة المطوية، كما لو أنها منفاخ أكورديون. وضع نظارة القراءة على عينيه دون استعجال، فضّ قطع الورق المستطيلة بمهارة مهنية وسوّاها على الطاولة. قرأ دون أيّة حركة، أو أثر على جلده، أو تبدّل في تنفّسه، وخصلة كاكاتوّا(*) تتحرّك بصعوبةٍ على إيقاع أفكاره. وحين انتهى من قراءة ورقتين كاملتين عاد وطواهما بصمت وفنّ قروسطي، وأغلق المحفظة، وخبّأ النظارة في غمدها، ووضعها في جيب الصدر.

ـ يُلاحظ أنّها ما زالت مادّة أوّلية، كما هو منطقيّ ـ قال لي ببساطة كبيرة ـ لكنك تسير بشكل جيّد.

قام ببعض التعليقات الهامشية حول استخدام الزمنٍ، الذي كان مشكلة حياة أو موت بالنسبة إليّ، بل وأصعبها دون شك، وأضاف:

ـ عليك أن تكون واعياً إلى أنّ المأساة حدثت وأنّ الشخصيات ليست هناك إلا لاستحضارها، حيث يتوجّب عليك أن تتصارع مع زمنين.

بعد سلسلة من التدقيقات الفنيّة التي لم أتمكن من تقييمها، نظراً لعدم خبرتي، نصحني أنّ لا أسمي مدينة الرواية بارَّانكيّا، كما قرّرت في المسودة، لأنّه اسمٌ محكوم بواقع لن يترك للقارئ إلا القليل من المجال ليحلم؛ وختم بنبرته الساخرة:

ـ أو تصرّف كريفي، وانتظر أن يهبطَ عليك الإسم من السماء. أوّلاً وأخيراً أثينا سوفوكليس لم تكن قط أثينا أنتيغون.

(*) طائر مُتسلِّق له منقار معقوف جدّاً وريش أبيض وقنزعة على رأسه.

لكن ما اتبعته للأبد بحرفيته كان الجملة التي ودّعني بها في ذلك المساء:

ـ أشكرك على تقديرك لي، وسأردّه إليك بنصيحة: لا تُرِ أحداً أبداً مسودةَ شيء تكتبه.

كان ذلك حديثي الوحيد معه على انفراد، لكّنها أغنتني عن كل الأحاديث لأنّه سافر إلى برشلونة يوم الخامس عشر من نيسان من العام 1950، كما كان مخطّطاً قبل أكثر من عام، ضامراً في طقم جوخه الأسود وقبعة القاضي. كان ذلك كمن يسفِّرُ طفلَ مدرسة. كان حسن الصحة سليم البصيرة وهو في الثامنة والستين من عمره، لكنّنا ودّعناهُ، نحن الذين رافقناه إلى المطار، كشخص يعود إلى مسقط رأسه كي يحضر جنازة نفسه.

ولم ننتبه إلاّ في اليوم التالي، حين وصلنا إلى طاولتنا في مقهى خابّي، إلى الفراغ الذي خلّفه في كرسيّه، والذي لم يقرر أحد شغله قبل أن نتفق على أن يكون خِرمان. احتجنا إلى عدّة أيام حتى اعتدنا على إيقاع الحديث اليومي الجديد، ووصلت الرسالة الأولى من رامون التي بدا وكأنّه كتَبَها بصوته الحيّ، وكانت بخطّه الدقيق وحبره البنفسجيّ. وهكذا بدأ مراسلة متواترة ومكثّفة مع الجميع من خلال خِرمان، يحكي فيها قليلاً جدّاً عن حياته وكثيراً عن أسبانيا التي سيستمرّ يعتبرها أرضاً عدّوةً ما دام فرانكو حياً وبقيت الهيمنة الأسبانية على كاتالونيا.

فكرة المجلة الأسبوعية جاء بها ألفونسو فوِنمايور وسابقة على تلك الأيام؛ لكن لديّ انطباع أنّ سفر الحكيم الكتلاني سرّع بها. أعلمني ألفونسو، بعد ثلاث ليالٍ ونحن مجتمعون لهذه الغاية في مقهى روما، أنّ كلّ شيء عنده جاهز لإطلاق المشروع. ستكون أسبوعية صغيرة الحجم من عشرين صفحة، صحافية وأدبية، ولم يكن اسمها ـ كرونيكا ـ يعني لأحد كثيراً. نحن أنفسنا بدت لنا هذياناً بعد أربع سنوات من عدم الحصول على الموارد من حيث تفيض، كان باستطاعة ألفونسو فوِنمايور أن يحصل عليها من الحرفيين اليدويين وميكانيكيي السيارات، والقضاة المتقاعدين، بل

وحتى من أصحاب الحانات المتواطئين الذين قبلوا أن يدفعوا إعلاناتهم مقايضةً بروم قصب السكر. لكن كان هناك أسباب للتفكير بأنّها ستلقى ترحاباً جيّداً، في مدينة تحافظ وسط صخبها الصناعي وكبريائها المدني، على إخلاصها الحيِّ للشعراء.

سيكون غيرنا من المساهمين قليلين. الوحيد المهني وعنده تجربة كان كارلوس أوسيّو نوغِرا - إلْ بات أوسيّو -. وهو شاعر وصحافي له ملاحة خاصّة جدّاً به وجسم ضخم. موظّف عند الحكومة ومراقب في «إلْ ناثيونال». حيث عمل مع ألبارو ثِبِّدا وخِرمان بارغاس. والأخر هو روبِرتو (بوب) بريبتو، عالم ضليع من الطبقة الاجتماعية العليا، يستطيع أن يُفكّر بالإنكليزية والفرنسية تماماً كما بالأسبانية، ويعزف على البيانو أعمالاً لأساتذة عظام عن ظهر قلب. ومن أسماء اللائحة التي خطرت لألفونسو فونمايور، ولم يكن مفهوماً سبب ذلك هناك خوليو ماريو سانتو دومينغو. فرضه دون تحفّظٍ بهدف أنّ يكون رجلاً مختلفاً. لكن ما لم نفهمه كثيراً هو تضمينه في لائحة هيئة التحرير، في الوقت الذي بدا فيه أنّه مكرّس ليصبح روكفِلر لاتينياً، ذكياً ومثقفاً ومحباً. لكنّه محكوم دون شكّ بمزاج السلطة. قليلون هم الذين كانوا يعرفون كما نعرف نحن مطلقي المجلة، أنّ الحلم السرّي لسنواته الخمس والعشرين هو أن يكون كاتباً.

المدير، بالحق طبيعيٌّ، سيكون ألفونسو. وخِرمان بارغاس سيكون قبل أيّ شيء كاتب تحقيقات عظيم. كنتُ آمل أن اشترك معه في المهنة، ليس حين يكون لديّ متسع من الوقت - فنحن لم نملكه قط - بل حين أحقّق حلمي وأتعلّم ذلك. ألبارو ثِبّدا سيرسل مساهماته في ساعات فراغه من جامعة كولومبيا في نيويورك. في نهاية اللائحة، ما من أحد كان أكثر منّي حرية ورغبة بأن أعينَّ رئيس تحرير أسبوعية مستقلة ومقلقلة. وتمّ ذلك.

كان ألفونسو يملك منذ سنوات أرشيفاً احتياطياً، وأعمالاً كثيرةً معدّة مسبقاً خلال الأشهر الستة، مع زوايا رأي ومواد أدبية وتحقيقات متقنة، ووعود بدعايات تجارية من أصدقائه الأغنياء. لم

يكن عملي كرئيس للتحرير مقيّداً بساعات عمل محدّدة، وكان راتبي أفضل من راتبِ أيّ صحفي من مقامي، لكنَّه كان مشروطاً بأرباح المستقبل، أيضاً كنتُ مستعداً لعمل المجلة جيّداً وفي الوقت المناسب. أخيراً ويوم سبت الأسبوع التالي، حين دخلت في مكعبي(*) في «إلْ هِرالدو» في الخامسة مساءً لم يرفع ألفونسو فونمايور حتى بصره، وذلك كي ينهي افتتاحيته.

- سارِعْ بأعمالك، يا معلّم - قال لي - ففي الأسبوع القادم ستخرج كرونيكا.

لم أخف، لأنّني كنتُ قد سمعت الجملة في مرّتين سابقتين. ومع ذلك كانت الثالثة الأخيرة. أكبر حدث صحفي في الأسبوع - مع تفوق مطلق - كان وصول لاعب كرة القدم البرازيلي هِلِنو دي فريْتاس إلى نادي دِبّورتيبو خونيور، لكنّنا لم نتعامل معه لننافس الصحافة المختصّة، بل كخبرٍ عظيم ذي أهمية ثقافية واجتماعية. لن تسمح كرونيكا لنفسها بأنْ تُحَدَّ بمثل هذا النوع من التمييز، خاصة والأمر يتعلّق بشيء في غاية الشعبية ككرة القدم. جاء القرار بالإجماع والعملُ فاعلاً.

كنّا قد حضّرنا مواد كثيرة في مرحلة الانتظار، بحيث أنّ الشيء الوحيد الذي تبقّى من آخر ساعة، هو تحقيق عن هِلِنو، كتبه خِرمان بارغاس، المعلّم المتعصب لكرة القدم. ظهر العدد الأوّل في موعده الدقيق في محلات البيع يوم السبت 29 نيسان 1950، عيدِ سانتا كاتالينا دِ سيينا، كاتبةِ الرسائل الزرقاء في أجمل ساحة في العالم. طُبعت «كرونيكا» تحت شعار لي وضعته في اللحظة الأخيرة «أفضل نهاية أسبوع لك». كنّا نعلم أنّنا نتحدّى الاصطفائية اللغوية غير المهضومة التي كانت ما تزال قائمة في الصحافة الكولومبية في تلك الأيام، لكن ما أردنا قوله بالشعار لم يكن له موازٍ في اللغة الأسبانية. كان الغلاف الأوّل رسماً بالحبر لهِلِنو دِي فريْتاس، رسمه ألفونسو مِلو، رسام الوجوه الوحيد بين رسامينا الثلاثة.

(*) تعبيراً عن ضيق المكان.

نفدت الطبعة رغم سرعة الساعة الأخيرة وقلّة الدعم، قبل أن تصل هيئة التحرير، بكامل أعضائها، إلى الملعب البلدي في اليوم التالي ـ الأحد 30 نيسان ـ حيث كانت تجري المباراة العظيمة بين دِبورتيبو خونيور وسبورتينغ وكلاهما من بارَّانكيّا. المجلّة ذاتها كانت منقسمة على نفسها، لأنّ خِرمان وألبارو كانا من أنصار سبورتينغ وأنا وألفونسو من أنصار خونيور. ومع ذلك فاسم هِلِنو وحده، وتحقيق خِرمان بارغاس الرائع، عزَّزا خطأً فكرةَ أنّ «كرونيكا» هي في النهاية مجلة الرياضة العظيمة التي كانت تنتظرها كولومبيا.

كان الملعب ملآن حتى التخمة. بعد ستّ دقائق من بدء الشوط الأوّل أدخل هِلِنو هدفه الأوّل في كولومبيا بتسديدة باليسرى من منتصف الملعب. ورغم أنّ سبورتينغ هو الذي فاز في النهاية بـ 3 مقابل 2، فالمساء كان لِهِلِنو وبعده لنا، بسبب نجاحنا بالغلاف المبكر. ومع ذلك لم يكن هناك من قوّة بشرية، ولا إلهية، قادرة على جعل أيّ جمهور يفهم أنّ كرونيكا لم تكن مجلّة رياضية، وإنّما أسبوعية ثقافية كرَّمت هِلِنو دي فريتاس كخبرٍ من أعظم أخبار العام.

لم تكن رمية أغرارٍ من غير رام، فثلاثة من جماعتنا اعتادوا على أن يعالجوا مواضيع كرة القدم فيٍ أعمدتهم ذات الاهتمام العام، منهم خِرمان بارغاس بالطبع. كان ألفونسو فونْمايور هاوياً دقيقاً مواظِباً على كرة القدم. وعمل ألبارو ثِبِّدا لسنواتٍ في كولومبيا مراسلاً لسبورتينغ نيوز الصادرة في سان لويس، ميسوري. ومع ذلك فالقراء الذين كنّا نتوق إليهم لم يتلقفوا الأعداد التالية بذراعين مفتوحتين، وهجرنا متعصبو الملاعب دون ألم.

في محاولة منا لرأب الصدع، قرّرنا في اجتماع هيئة التحرير أن أكتب التحقيق الرئيسي عن سِباستيان بِراسكوتشيا، أحد نجوم دِبورتيبو خونيور البرازيلي الآخرين بأمل أن نوائمَ بين الرياضة والأدب، كما حاولت أن أفعل مرّات كثيرة مع علوم أخرى خفية في عمودي اليومي. انخفضت حرارة الكرة التي أصابني لويس كارمِلو

كورّيا بعدواها في مراتع كاتاكا إلى الصفر تقريباً. ثمّ إنّني كنتُ من أوائل المتعصبين لبيسبول الكاريبي ـ أو لعبة الكرة، كما كنّا نقول باللغة الدارجة ـ. ومع ذلك قبلت التحدّي.

بالطبع كان نموذجي هو تحقيقُ خِرمان بارغاس. وعزَّزتُ نفسي بتحقيقاتٍ أخرى، وشعرت بالراحة للحديث الطويل مع بِراسكوتشيا، الرجل الذكي واللطيف، وصاحب الإحساس الجيّد بالصورة التي رغبتُ أن أقدِّمه بها لجمهوره. السيّئ في الأمر أنّني عرَّفْتُ بِهِ ووصفته بأنه باسكيّ نموذجيّ، لمجرّد كنيته، دون أن أتوقّف عند تفصيل أنّه كان زنجياً داكناً من أفضل سلالة أفريقية. تلك كانت غلطة حياتي الكبيرة، وفي أسوأ لحظات المجلة؛ حتى أنّني تطابقت حتى الروح مع رسالة قارئ اعتبرني صحفيّاً رياضيّاً غير قادر على التمييز بين الكرة والحافلة الكهربائية. خِرمان بارغاس نفسه، الدقيق في أحكامه، أكّد بعد سنوات في كتاب تذكاريّ أنّ تحقيقي عن بِراسكوتشيا كان أسوأ من كلٍّ ما كتبته. أظنّ أنّه بالَغَ، لكن ليس كثيراً، لأنّه ما من أحد كان يعرف المهنة مثله بتعليقاته وتحقيقاته الصحفيّة المكتوبة، بنبرة دفّاقة تبدو وكأنّها أُمْلِيَتْ بصوت حي على مُنَضِّد الحروف.

لم نَتَخَلَّ عن كرة القدم أو البيسبول، لأنّهما كانتا شعبيَّتين في ساحل الكاريبي، لكنّنا زدنا المواضيع والمستجدات الأدبيّة الراهِنة. كلّ ذلك لم ينفعنا: فنحن لم نستطع قط أن نتجاوز خطأ أنّ «كرونيكا» لم تكن مجلة رياضية، لكنّ متعصبي الملاعب تجاوزوا خطأهم وأسلمونا لقدرنا. وهكذا بقينا نقدّمها، كما كنّا قد قرَّرنا، رغم أنّها بقيت منذ الأسبوع الثالث تطفو في ليمبوس غموضها.

لم أرتعب. فرحلتي إلى كاتاكا مع أمّي، وحديثي التاريخي مع دون رامون بينيِّسْ، وعلاقتي الحميمة مع مجموعة بارَّانكيّا كلها منحتني نَفَساً جديداً دام معي للأبد. منذ تلك الأيام لم أكسب سنتيماً واحداً إلا مما أكتبه على الآلة الكاتبة، وهذا ما يبدو لي نجاحاً أكبر مما يُظَنّ، فحقوق المؤلف الأولى، التي سمحت لي بالعيش من قصصي ورواياتي، دفعوها لي بعد أن تجاوزت الأربعين ونيّفاً من

عمري، وبعد أن نشرت أربعة كتب بمردودٍ مزرٍ. قبل ذلك كانت تُعَكّر حياتي شبكةٌ من المكائد والحيل والأوهام قمتُ بها لأفلت من الطعوم التي لا تُحصى، التي كانت تحاول أن تجعل منّي أيّ شيء إلا كاتباً.

3

بعد أن انتهت كارثة أراكاتاكا، ومات الجدّ وتلاشى ما كان من الممكن أن يبقى من نفوذه المزعزع، أصبحنا نحن الذين نعيش منه في مهبّ الحنين. فقدَت الدارُ روحَها منذ لم يرجع أحدٌ في القطار. بقيت مينا وفرانسيسكا سيمودوسيا بحماية إلبيرا كارِّيّو، التي أخذتهما على عاتقها بإخلاصِ خادمة. وحين فقدت الجدّة بصرها وعقلها حملها أبواي معهما لتلقى على الأقل حياة أفضلَ آن تموت. الخالة فرانسيسكا، العذراء والشهيدة التي لم تتغيّر، بخفَّة دمها غير المعهودة وأمثالها الفظّة، رفضت أن تُسلِّم مفاتيح المقبرة ومخبز قربان التكريسِ المقدّس، بحجة أنّها لو كانت تلك هي إرادة الله لاستدعاها إليه. جلست ذاتَ يومٍ بباب غرفتها مع عددٍ من ملاحفها الطاهرة، وخاطت كفناً مفصّلاً على قدّها بإتقان بلغ حدّ أنّ الموت انتظرها أكثر من أسبوعين حتى أنهته. نامت في تلك الليلة دون أن تودّع أحداً، بلا أيّ مرض أو ألم واستلقت لتموتَ بأحسن صحّة. بعدها علموا أنّها ملأت بيانات وفاتها، وأتمّت إجراءات جنازتها بنفسها. إلبيرا كارِّيّو، التي لم تعرف بدورها، وبإرادة منها، ذكراً، بقيت وحيدة في وحشة الدار الهائلة في منتصف الليل. كان يوقظها الرعبُ من السعال الأبدي في غرف النوم المجاورة، لكنّ هذا لم يهمّها قط لأنّها معتادة على المشاركة في كروب الحياة فوق الطبيعية.

على العكس منها بقي أخوها التوأم إستِبان كارِّيّو حاضرَ

البصيرة وحيوياً حتى في شيخوخته المتقدّمة. تذكّرتُ، في مناسبة تناولتُ فيها معه طعامَ الإفطار، بكلّ التفاصيل البصرية، أنّهم حاولوا أن يلقوا بوالده عن ظهرِ زورق ثييناغا، فقد رفعه الحشد فوق الأكتاف وطوّحوا به كما طوّح البغّالون سانتشو بانثا. في تلك المرحلة كان بّابّالِلو قد مات وقصصت ذكراي للخال إستِبان لأنّها بدت لي لطيفة. لكنّه نهض بقفزة واحدة مغتاظاً، لأنّني لم أحكِها لأحدٍ لحظةَ حدوثها، وتلهف لأن أتمكّن من أن أحدد في ذاكرتي الرجل الذي كان يتحدّث مع الجدّ في تلك المناسبة ليقولَ له من هم الذين حاولوا أن يغرقوه. كما لم يستوعِب كيف لم يدافِع بّابالِلو عن نفسه، وهو الرامي الجيّد الذي كان في مرّات كثيرة خلالَ حَرْبَيْنْ أهليَّتين على خطّ النار، وينام ومسدّسه تحت وسادتِهِ، وقتلَ حتى في مرحلة السلام عدّواً له في مبارزة. في جميع الأحوال قال لي إستِبان إنّ هناك دائماً وقتاً كي ينتقم هو وأخوته للإهانة. إنّه قانون غواخيرا: فالإهانة التي يتعرض لها فرد من أفراد الأسرة على جميع ذكور أسرة المعتدي أن يدفعوا ثمنها. كان خالي إستِبان من الهمّة، بحيث أنّه سحب مسدّسه من الحزام ووضعه على الطاولة كيلا يضيع وقتاً خلال استجوابه لي. منذ تلك اللحظة، وفي كلّ مرّة، كنّا نلتقي في تيهنا كنتُ أُعيد إليه الأمل بأن أكونَ قد تذكّرتُ. حضر ذات مرّة إلى غرفتي في الصحيفة، في المرحلة التي كنتُ أستقصي فيها عن تاريخ الأسرة لرواية أولى لم أنهِها، واقترح عليّ أن نقوم معاً بتحقيقٍ حول الاعتداء. لم يستسلم قط. في آخر مرّة رأيته فيها في كارتاخِنا دِ إنديِاس وقد صار عجوزاً وتصدّع قلبه ودَّعني بابتسامةٍ حزينة:

- لا أدري كيف أصبحت كاتباً، وذاكرتُكَ سيّئة إلى هذا الحدّ.

عندما لم يعد هناك ما نفعله في أراكاتاكا، أخذَنا أبي لنعيش في بارّانكيّا مرّة أخرى، كي يفتح صيدلية أخرى دون أي سنتيم، لكن بقروضٍ جيّدة من باعة الجملة، شركائه في تجارات سابقة. لم تكن تلك هي الصيدليةَ الخامسةَ، كما كنّا نقول في الأسرة، بل الوحيدة التي ننقلها من مدينة إلى أخرى، بحسب تنبّؤاتِ أبي التجارية: مرّتين في بارّانكيّا، مرّتين في أراكاتاكا وواحدة في

سينثِ. وحقّق فيها جميعاً أرباحاً مؤقّتة وديوناً يمكن سدادها. اقتصرت الأسرةُ إذ ذاك، وقد أصبحت بلا الجدّين ولا أخوال، ودون الخدم، على الأبوين والأبناء، وكنّا ستّة ـ ثلاثة ذكور وثلاث إناث ـ خلال تسع سنوات من الزواج.

شعرتُ بقلقٍ كبيرٍ من هذا الحدث الجديد في حياتي. كنتُ قد ذهبت في طفولتي إلى بارّانكيّا عدّةَ مرّاتٍ لزيارة أبويَّ، لكن دائماً بشكل عابر، وذكرياتي عن تلك المرحلة مبعثرة. تمّت الزيارة الأولى وأنا في الثالثة من عمري حين أخذوني لحضور ولادة أختي مارغوت. أتذكّر نتانة وحل المرفأ في الفجر، وعربةَ الحصان الواحد، التي راح سائقها يبعد بالسوطِ حمَّالي الحقائب الذين حاولوا الصعود إلى مقعد الحوذيّ في الشوارع المقفرة والمغبرة. أتذكّر الجدران المتربة وخشبَ أبوابٍ ونوافذ بيت الأمومة الأخضر حيث وُلِدَت الطفلة، والهواءَ المشبعَ برائحة الدواء الذي كان يُستنشَقُ في الغرفة. كانت المولودةُ الجديدة في سرير حديديّ بسيط جدّاً في عمق غرفةٍ مُقفرة، فيها امرأة لا شكّ أنّها أمّي، التي لا أتذكّر منها غير حضورٍ بلا وجه مدَّ إلي يداً هزيلةً وتنهّد:

ـ ما عدتَ تذكرني.

لا شيء آخر؛ فصورتُها الأولى في ذاكرتي تعود لعدّة سنوات لاحقة، وهي صافية وأكيدة، لكنّني لم أستطيع أن أحدّد زمنَها. يبدو أنّها تعود لإحدى زياراتها إلى أراكاتاكا بعد ولادة عائدة روسا، أختي الثانية. كنتُ في فناء الدار أداعِبُ خروفاً حديثَ الولادة حملته إليَّ سانتوس بيِّروس بين ذراعيها من فونسِكا، حين وصلت الخالة ماما وأخبرتني بصرخة بدت لي مرعبة:

ـ جاءت أمّك!

حملتني بما يشبه الجرّ إلى القاعة، حيث كانت تجلس جميع نساء الدار وبعض الجارات في سهرة على كراس مصفوفة بملاصقة الجدران. قطع دخولي المفاجئُ الحديث. مكثت متحجّراً في الباب، ولم أدرِ أيّاً منهنّ أمّي، حتى فتحت ذراعيها، وقالت لي بأكثر الأصوات التي أنكرها حناناً:

ـ ها قد أصبحت رجلاً.

كان لها أنف روماني جميل، وكانت وقورةً وشاحبةً تتميّز أكثر من أيّ وقت آخر بموضة العام: فستان حريري، عاجيّ اللون، خصره عند الوركين، وطوق لؤلؤ من عدّة حلقات، وحذاء فضّي برباط، وكعب عالٍ، وقبّعة قشّ ناعمة لها شكل ناقوس، كقبّعات السينما الصامتة. لفّني عناقها بالرائحة الخاصّة التي أحسست بها دائماً. هزّتني رشقةُ إحساس بالذنب جسداً وروحاً، لأنّني أعرف أنّ من واجبي أن أحبّها، لكنّني شعرتُ أنّ هذا غير صحيح.

أمّا أقدم ذكرى مثبتة وصافية أحتفظ بها عن أبي فتعود إلى الأوّل من كانون الأوّل 1934، اليوم الذي أتمَّ فيه الثالثةَ والثلاثين من عمره. رأيتُهُ يدخل بخطى حثيثة وسعيدة في بيت الجدّين في كاتاكا، بلباس كلّه من القطن الأبيضِ وقبّعة قشّ. هنّأه أحدهم معانقاً، وسأله كم عاماً أكملَ. لم أنس جوابه قط، لأنّني لم أفهمه في لحظته:

ـ عمر المسيح.

دائماً سألت نفسي، لماذا تبدو لي تلك الذكرى قديمة كلّ ذلك القدمِ، إذا كان ثابتاً أنّني التقيت به مرّاتٍ كثيرةً في تلك المرحلة.

لم نعش قط في دارٍ واحدة، لكن بعد ولادة مارغوت تبنّى جداي عادة حملي معهما إلى بارّانكيّا، حتى أنّه عندما ولدت عايدة روسا صارت الدارُ أقل غرابة. أظنّ أنّها كانت داراً سعيدةً فهناك ملكوا صيدليتهم، وبعدها فتحوا أخرى في المركز التجاري. عندنا لنرى الجدّة أرخِميرا ـ ماما خيم ـ واثنين من أولادها، خوليو وإنا، التي كانت جميلة جدّاً، لكنّها مشهورة في الأسرة بسوء حظّها. ماتت في الخامسة والعشرين من عمرها، دون أن يعرف أحد مرضها، وما زالوا يقولون أنّ سبب موتها سحراً ضاراً أعدّه لها خطيب مرفوض. وكلّما كبرنا أكثر، كانت تبدو لي ماما خيمِ أكثر ملاحةً وأكثر بذاءةَ لسان.

في تلك المرحلة ذاتها سبّب لي أبواي محنة عاطفية خلّفت عندي ندبة من الصعب محوها. كان ذلك يومَ عانت أمّي من رشقة حنين

وجلست تعزف على البيانو: «حين انتهى الرقص» الفالس التاريخي لغرامياتها السرّية، وأخذت أبي جرأة رومانسية نفض فيها الغبار عن كمانه ليرافقها، رغم أنّه كان ينقصه وتر. انسجمتْ بسهولة مع أسلوبه، كرومانسية مبكرة، وعزفت كما لم تعزف قط إلى أن نظرت إليه راضية من فوق كتفها، وانتبهت إلى أنّ عينيه كانتا مبلّلتين بالدموع. «من تتذكّر؟»، سألته أمّي ببراءة ضارية. «اللحظة الأولى التي عزفناه فيها سوّية»، أجاب مستلهماً الفالس. وعندئذ ضربت بكلتا يديها مفاتيح البيانو غاضبة.

ـ لم يكن معي، يا مكّار! ـ صرخت ثانيةً ـ أنت تعرفُ مع من عزَفْتَهُ وتبكي لأجلها.

لم تقل الاسم آنذاك ولا في أية لحظة أخرى، لكنّ صرختها جمّدتنا جميعاً رعباً في مختلف نواحي الدار. أنا ولويس إنريكِهْ، اللذان كانت لنا دائماً أسبابنا كي نخاف، اختبأنا تحت السرير. هربت عائدة إلى بيت الجيران، وأصيبت مارغوت بحمى مفاجئة، أبقت عليها في هذيان دامَ ثلاثة أيّام. حتى أخوتي الأصغر الذين اعتادوا على انفجارات غيرةِ أمّي بعينيها التي تقدحان، شرراً وأنفها الروماني المسنون مثل سكينٍ، خافوا. رأيناها تُنزل، برصانتها الغريبة، لوحات القاعة وتحطّمها الواحدة تلو الأخرى على الأرض موقعةً وابلاً مدوياً من البلور. فاجأناها تشم رائحة ثياب أبي قطعةً قطعة قبل أن ترمي بها في سلّة الغسيل. لم يحدث أيّ شيء بعد ليلة العزف الثنائي المأساوي، لكنّ مدوزن البيانو الفلورنسي حمله ليبيعه، وبقي الكمان والمسدّس يتعفنان في خزانة الثياب.

كانت بارّانكيّا آنذاك طليعةَ التقدّم المدني والليبراليةِ الوديعة والتعايش السياسي. العوامل الحاسمة في نموّها وازدهارها هي نهايةُ أكثر من قرنٍ من الحروب الأهلية التي محقت البلد منذ الاستقلال عن أسبانيا؛ ثمَّ انهيار منطقة الموز التي أثخنتها جراحُ القمع الوحشي الذي نكّل بها بعد الإضراب الكبير.

ومع ذلك لم يستطع شيءٌ حتى ذلك الوقتِ أن يؤثّر على روح

أهلها الوثّابة. في العام 1919 كسب الصناعي الشاب ماريو سانتو دومينغو ـ والد خوليو ماريو ـ المجد المدني بتدشين البريد الجوّي بسبع وخمسين رسالة في كيس من الخيش، رماه على شاطئ بورْتو كولومبيا، على بعد خمسة فراسخ عن بارّانكيّا، من طائرة بدائيّة كان يقودها الأمريكي الشمالي وليم نوكس مارتين. في نهاية الحرب العالمية الأولى وصلت مجموعة من الطيارين الألمان ـ بينهم هِلمرث فون كروهن ـ الذين أنشؤوا الخطوطَ الجويّة بطائرات جونكرز إف ـ 13، البرمائية الأولى التي جابت نهر مَغْدَلِنا مثل جنادب إلهية بستة ركاب شجعان وأكياس البريد. ذلك كان أصل الشركة الكولومبية الألمانية للنقل الجوّي ـ سكادْتا ـ إحد أقدم الشركات في العالم.

لم يكن آخرُ انتقال لنا إلى بارّانكيّا بالنسبة إليّ تبديلاً بسيطاً لمدينةٍ وبيت، بل تبديلاً للأب وأنا في الحادية عشرة من عمري. الأب الجديد كان رجلاً عظيماً، لكن بشعور بالسلطة الأبوية مختلف جدّاً عن الشعور الذي جعلنا سعيدين أنّا ومَرغريتا في بيت الجدّين. نحن اللذين اعتدنا أن نكون مالكي نفسينا وسيّديها، كلّفنا التكيّف مع نظام غريب معاناةً كبيرة. كان بابا من جانبه المدهش والمؤثّر، عصامياً بالمطلق، وأكثرَ من عرفتُ من القرّاء نهماً، وإن كان أقلهم تنظيماً. منذ أن تخلّى عن المدرسة الطبية تفرّغ ليدرس على انفراد «المعالجة المثلية»، التي لم تكن تتطلّب آنذاك دراسة أكاديمية، وحصل على إجازته بتقدير شرف. لكنّ لم يكن له بالمقابل مزاج أمّي في تحمّل الأزمات. التي قضى أسوأ هذه الأزمات في شبك نوم غرفته، يقرأ كلّ ما كان يقع بين يديه من ورق مطبوع، ويحلّ الكلمات المتقاطعة. إلاّ أنَّ مشكلته مع الواقع كانت عصيّةً على الحلّ. كان عنده ورع يكاد يكون أسطورياً تجاه الأغنياء، لكن ليس تجاه الغامضين منهم، بل تجاه الذين حصّلوا أموالهم بقوّة ذكائهم ونزاهتهم. كان يكدّس الثروات الهائلة في خياله وهو أرِق في شبك نومه حتى في عزّ النهار، يراكم مشاريع سهلةٍ يستغرب كيف لم تخطر بباله من قبل. كان يحبّ أن يذكر كمثال على ذلك أغرب

الثروات التي علم عن وجودها في صحيفة «داريين»(*): مساحة مئتي فرسخ من الخنزيرات الولود، ومع ذلك، فهذه المراكز التجارية غير المعهودة لم تكن موجودة حيث كنّا نعيش، بل في الفراديس التي سمع بها في تنقلاته كعامل تلغراف. وقد أبقت علينا لاواقعيته المشؤومة مُعلَّقين بين الإخفاق والعودة لارتكاب الخطأ نفسه، تخلَّلتها أيضاً مراحلُ طويلة لم يهبط فيها علينا ولا حتى فتات كفاف خبزنا اليومي من السماء. على أية حال علّمنا أبوانا، في اليسرِ والعسر، أن نحتفل بالأول ونتحمّل الثاني بتسليمٍ وكرامةٍ كاثوليكيين على الطريقة القديمة.

التجربة الوحيدة التي كانت تنقصني هي السفر وحيداً مع أبي، وقد تمّت حين أخذني معه إلى بارّانكيّا لأساعده على إقامة الصيدلية، والتحضير لوصول الأسرة. فاجأني أنّه كان يُعاملني ونحن على انفراد بودٍّ واحترام كشخص كبير، فيوكِل إليّ أعمالاً لم تكن تبدو سهلة بالنسبة لعمري، لكنّني أنجزتها جيّداً وأنا مسرور، رغم أنّه لم يتفق معي دائماً. كان معتاداً على أن يحكي لنا حكايات الطفولة في مسقط رأسه، يكرِّرها عاماً بعد عام للمولودين الجدد، حتى راحت تفقد ملاحتها بالنسبة إلينا نحن الذين كنّا نعرفها، فننهض، نحن الكبار، حين يبدأ بحكايتها بعد الطعام. وقد أهانه لويس إنريكِهْ في إحدى نوبات صراحته، حين قال، وهو ينسحب:

ـ أخبروني حين يعود الجدُّ ليموت.

كانت تلك النوبات التلقائية تُثير سخط أبي وتضاف إلى الأسباب التي تراكمت كي يرسل لويس إنريكّه إلى إصلاحية الأحداث في مِدِلينّ. لكنّه تحول معي إلى شخص آخرَ في بارّانكيّا. أرشفَ النكات الشعبية، وحكى لي عن فصول مهمّة من حياته الصعبة مع أمّه، عن بخل أبيه الأسطوريّ، والصعوبات التي اعترضت دراسته. تلك الذكريات سمحت لي بأن أتحمّل بشكلٍ أفضل بعضَ نزواته، وأفهمَ بعض أشيائه غير المفهومة.

(*) منطقة بنمية وعرة وإستوائية مشهورة بمراعيها وغاباتها على الحدود مع كولومبيا.

تكلّمنا في تلك المرحلة عن الكتب المقروءة والتي ستقرأ، وحصلنا من المحلات الموبوءة في السوق العام على محصول جيّد من قصص طرزان والشرطة السرية وحروب الفضاء. لكنّه أوشك أيضاً أن يقع ضحيّة شعوره العملي، خاصّة حين قرّر أن نطبخ وجبة واحدة في اليوم. اصطدامنا الأوّل وقع حين باغتني أملأ بالمياه الغازية وخبز الحلوى فجواتِ المساء، بعد سبع ساعات من الغداء، ولم أعرف كيف أقول له من أين جئت بالنقود لشرائها. لم أجرؤ على الاعتراف له بإنّ أمّي أعطتني بعض البيزوات خلسةً تحسُّباً للحمية الرهبانية التي كان يفرضها علينا في أسفاره. دام ذلك التواطؤ مع أمّي دوامَ امتلاكها للإيرادات. حين كنتُ طالباً داخلياً في المدرسة الثانوية، كانت تضع لي أشياء متنوعة للاستحمام والنظافة، وثروة قدرها عشر بيزوات في علبة صابون روتير بأملِ أن أفتحها في اللحظة العصيبة. وهكذا فكلّ لحظة من لحظات دراستنا خارج البيت كانت مثالية للعثور على عشر بيزوات.

كان أبي يتدبّر أمره كيلا يتركني ليلاً وحدي في صيدلية بارّانكيّا، لكنّ حلوله لم تكن دائماً مسلية بالنسبة لسنواتي الاثنتي عشرة. فزياراته الليلة إلى الأسر الصديقة كانت تنهكني، لأنّ من كان عنده أولاد بعمري يُجبرون على النوم في الساعة الثامنة ويتركوني أعاني الضجر والنعاس في قفر الثرثرات الاجتماعية. يبدو أنّ النوم قد أخذني خلال زيارة لنا لأسرة طبيب صديق، ولم أعرف كيف استيقظت ولا في أيّة ساعة، ورحت أسير في شارع مجهول. لم يكن عندي أدنى فكرة عن المكان الذي كنت فيه، ولا كيف وصلت إلى هناك، ولم يُفهم إلاّ كحادثِ سرنمة. لم يكن هناك أيّة سابقة كهذه في الأسرة ولم تتكرّر حتى اليوم، لكنّه ما يزال التفسير الوحيد الممكن. أوّل ما فاجأني حين استيقظت كان واجهة حانوت حلاق زجاجية بمرايا مشعة، حيث كانوا يزيّنون ثلاثة أو أربعة زبائن تحت ساعة تشير إلى الثامنة وعشرة دقائق، الساعة التي لا يصدّق أحدٌ أنّ طفلا بعمري يمكن أن يكون فيها وحيداً في الشارع. صعقني الرعبُ فأخطأت باسم الأسرة التي كنّا في زيارتها، ولم أعرف جيّداً عنوان

الدار، لكنّ بعضَ المارّة تمكّنوا من ربط الخيوط بعضها ببعضٍ وحملوني إلى العنوان الصحيح. وجدتُ الجيران في حالة ذعر من كلّ أنواعِ التخمينات حول اختفائي. كلّ ما كانوا يعرفونه عنّي هو أنّني نهضت عن الكرسيّ في منتصف الحديث ظانّين أنّني ذهبتُ إلى الحمّام. تفسير السرنمة لم يُقنع أحداً، وخاصّة أبي، الذي فهم الأمر دون لفٍ ولا دوران على أنّه شيطنة لم أوفّق فيها.

من حسن الحظّ أنّني استطعت بعد أيّام أن أستعيد نفسي في بيت آخر تركني فيه، بينما كان يَحْضر عشاءَ عمل. كانت الأسرة بكاملها مشغولة بمسابقة ألغازٍ شعبية من إذاعة أتلانتيكو، بدت في تلك المرّة عصيّة على الحل: ما هو الحيوان الذي يتبدّل اسمه عندما ينقلب على ظهره؟ وبمعجزة غريبة كنت قد قرأت الجواب في ذلك المساء ذاته في آخر طبعة لِتقويم بريستول، وبدت لي نكتة سيّئة: الحيوان الوحيد الذي يبدّل اسمه هو الخنفساء escarabajo، لأنّه حين ينقلب على ظهره يُصبِحُ escararriba(*). قلته بالسرّ لإحدى صغيرات البيت فسارعت الكبرى إلى الهاتف، وأعطت الجواب لإذاعة أتلانتيكو. ربحت الجائزة الأولى التي بلغت ما يكفي لتسديد إيجار البيت لثلاثة أشهر: مئة بيزو. امتلأت القاعة بالجيران الصاخبين، الذين سمعوا البرنامج وسارعوا لتهنئة الرابحات، لكن ما كان يهمّ الأسرة أكثر من النقود، هو الفوز بذاته في مسابقة شكّلت مرحلةً من مراحل إذاعة ساحل الكاريبي. لم يتذكّر أحد أنّني موجود هناك. حين عاد أبي ليأخذني انضمّ إلى فرحة الأسرة وشرب نخب الفوز، لكن ما من أحد حكى له من كان الرابح الحقيقيّ.

إحدى الفتوحات الأخرى في تلك المرحلة هي سماح أبي لي بالذهابِ وحدي إلى عروض أيام الآحاد الصباحية في مسرحِ كولومبيا. كانوا يعرضون لأوّل مرّة مسلسلاتٍ سينمائية، حلقةً كلّ يومِ أحدٍ، وهو ما كان يخلق نوعاً من التوتّر لا يسمح بلحظة واحدة

(*) لعب باللفظ قائم على الربط بين escara وتعني قشرة واللاحقتين abajo وتعني تحت وarriba وتعني فوق. على افتراض أنّ escarabajo التي تعني خنفساء مكوّنة من escara وabajo وهو أمر غير صحيح لأنّ أصل الكلمة من اللاتينية العامية scarabaius .

من الهدوء خلال الأسبوع. كان غزو مونغو أوّل ملحمة عالمية لم أستطع أن أُحلَّ محلَّها في قلبي بعد سنوات طويلة إلاّ أوديسة الفضاء لستانلي كوبريك. ومع ذلك انتهت السينما الأرجنتينية بأن هزمتها كلّها بأفلام كارلوس غاردِل وليبرتادْ لامارك.

انتهينا في أقل من شهرين من تركيب الصيدلية، وحصلنا على مسكن للأسرة وفرشناه. كانت الأولى في زاوية مطروقة جدّاً من قلبِ المركز التجاري، وعلى بعد أربعة قصبات عن جادّة بوليفار العريضة. على العكس منها كان المسكن يقعُ في شارع متصالِب وفرح من باريّو أباخو، لكنّ سعر الإيجار لم يكن يتناسب مع حقيقة البيت، بل مع ما كان يطمح أن يكون: مسكن ريفي على الطراز القوطيّ مطليّ بحلقاتٍ صفراء وحمراء فيه برجان حربيان.

في اليوم الذي سلّمونا فيه محلّ الصيدلية علّقنا شبكتي النوم إلى حلقات الغرفة الخلفية للحانوت، وكنّا ننام هناك على نار هادئة من حساء العرق. حين شغلنا المسكن اكتشفنا أنّه لا يحتوي على حلقات لشباك النوم، فمددنا الفرش على الأرض ونمنا بأفضل ما أمكن، منذ أن حصلنا على قطٍ مستعار لإبعاد الفئران. حين وصلت أميّ مع بقيّة القبيلة كان الأثاث ما يزال غير كامل، ولم يكن هناك أدوات مطبخ ولا أشياء أخرى كثيرة ضرورية للمعيشة.

رغم طموحاته الفنيّة، كان البيت عاديّاً ولا يكادُ يكفينا، فيه قاعة وغرفة طعام وغرفتا نوم وفناء دار صغير مبلط. عملياً لم يكن يُساوي ثلث الإيجار الذي كنّا ندفعه. ارتعبت أمّي عندما رأته، لكن الزوّج طمأنها بحلم مستقبل ذهبيّ. هكذا كانا دائماً. كان من المحال تصوّر كائنين مختلفين ويتفاهمان ويتحابان مثلهما.

أثّر بي مظهرُ أمّي. كانت حبلى للمرّة السابعة. بدت لي أجفانها وركبتاها منتفخة مثل خصرها. كان عمرها وقتذاك ثلاثاً وثلاثين سنة وذاك هو البيت الخامس الذي تفرشه. أثّر بي وضعها النفسيّ السيّئ، الذي تأزّم منذ أوّل ليلة، مرعوبة من الفكرة ذاتها التي اخترعتها بنفسها، دون أيّ أساس وهو أنّ المرأة إكس عاشت هناك قبل أن يطعنوها بالسكين. كانت الجريمة قد وقعت قبل سبع

سنوات خلال وجود أبويَّ السابق هناك؛ وكانت مرعبة إلى حدّ أنّ أميّ عزمت على ألاّ تعود للعيش في بارّانكيّا. ربّما نسيت المسألة حين عادت في تلك المرّة، لكنّها عادت إليها منذ الليلة الأولى في بيت مكفهر أحست فيه منذ اللحظة الأولى بشيء من أجواء قلعة دراكولا.

كان الخبر الأوّل عن المرأة إكس هو العثور على الجثة العارية التي يصعب التعرّف عليها نظراً لحالة التفسخ. تمكّنوا بصعوبة من أن يثبتوا أنّها جثّة لامرأة عمرها أقلّ من ثلاثين سنة، سوداء الشعر، جذّابة الملامح. ظنوّا أنّهم قبروها حيّةً، لأنّ يدها كانت على عينيها بإيماءة تنمّ عن رعب. وذراعها اليمنى مرفوعة فوق رأسها. الشيئان الوحيدان اللذان دلا على هويتها شريطتان زرقاوان ومشط صغير مزيَّن يمكن أن يكون مشط جديلة. الفرضية الأكثر احتمالاً بين الفرضيات الكثيرة كانت فرضية الراقصة الفرنسية البغي التي اختفت منذ التاريخ المحتمل للجريمة.

كانت بارّانكيّا مشهورة عن حقٍّ بأنّها أحسن مدن البلد ضيافة وأكثرها هدوءاً. لكنها تعاني من فاجعةِ جريمةٍ شنيعةٍ في كلّ عام. ومع ذلك لم يسبق أن هزّت جريمةٌ الرأيَ العام زمناً طويلاً، كما هزّته جريمة المطعونة التي لا أسم لها. صحيفة «لا بّرِنسا»، إحدى أهم صحف البلد في ذلك الوقت، والرائدة بالقصص المصوّرة كلّ أحدٍ - بوك روجرز، طرزان القرود -، لكن منذ سنواتها الأولى فرضت نفسها كرائدة من رائدات صحف الحوادث، أبقت على المدينة عدّة أشهر في حالةِ ترقُّب بعناوينها الكبيرة واكتشافاتها المفاجئة، والتي شهرت في البلد كاتبَ حوادثِ منسيّ، بحقّ أو دون حقّ.

حاولت السلطات أن تقمع معلوماتها بذريعة أنّها كانت تعرقل التحقيق، لكنّ القرّاء انتهوا إلى تصديق السلطات أقل مما صدّقوا لا برِنسا. أبقت المواجهة عليهم متحفّزين عدّةَ أيّام، وأجبرت المحقّقين لمرّة واحدة على الأقل على تغيير مسارهم. كانت صورة المرأة إكس قد فرضت نفسها وقتذاك بقوّة كبيرة على الخيال الشعبي، حتى أنّهم راحوا في كثير من البيوت يوصدون الأبواب بالسلاسل، ويقيمون حراسة ليلية خاصّة تحسباً لأن يتابع

القاتل الطليق تطبيق برنامج جرائمه الشنيعة، وقرّروا ألا تخرج المراهقات وحيدات من بيوتهن بعد السادسة مساء.

ومع ذلك ما من أحد اكتشف الحقيقة، بل كشف عنها بعدَ بعضِ الوقت مرتكبُ الجريمةِ نفسه. إفراين دونكان، الذي اعترف بأنّه قتل زوجته، أنخِلا هويّوس، في التاريخ المقدّر من الطب الشرعي، وأنه دفنها وقبرها في المكان الذي اكتشفوا فيه الجثّة المطعونة. تعرَّف الأقرباءُ على الشريطتين الزرقاوين ومشط الزينة الذي كانت تحمله أنخِلا حين خرجت مع زوجها في الخامس من نيسان في رحلة مزعومة إلى كالامار. وأُغلقت القضّية بمصادفة أخيرة لا يمكن تصوّرها تبدو، وكأنّها أُخرِجَت من كمّ مؤلّف روايات خيالية. كان لأنخِلا هويوس أخت توأم جميلة هي صورة طبق الأصل عنها، سمحت بالتعرّف عليها دون أدنى شك.

تداعت أسطورةُ المرأة إكس متحولةً إلى جريمة عاطفية عادية. لكنّ لغز الأخت المطابقة بقي يطفو في البيوت، لأنّه وصل بهم الأمر إلى التفكير بأنّها هي نفسها المرأة إكس. وقد عادت إلى الحياة بفعل السحر. أغلقوا الأبواب بالمزلاج وبمتاريس الأثاث، كي يمنعوا المجرمَ الفارّ من السجن من الدخول ليلاً بآلياتِ السحر. درجت في الأحياء الغنية كلاب الصيد المدرّبة ضدّ القتلة القادرين على النفوذ من الجدران. في الحقيقة، لم تتمكّن أمّي من التغلّب على الخوف إلى أن أقنعها الجيران بأنّ بيت باريو أباخو لم يُبنَ في أيّام المرأة إكس.

في يوم العاشر من تموز من عام 1939 وضعت أمّي طفلةً ذات ملامح هندية جميلة، عمّدوها باسم ريتا نظراً للتبجيل المُطلَق الذي كان لسانتا ريتا دِ كاسيا في البيت، القائم بين أشياء أخرى كثيرة على الصبر الذي تحمّلت به سوء طبعِ زوجها الفاسق. كانت أمّي تحكي لنا أنّ هذا وصل ذات ليلة إلى بيته، وقد ذهب الكحول بعقله، بعد برهةٍ مصّعت دجاجةٌ على مائدة غرفة الطعام . ودون أن تملك الوقت لتنظيف الغطاء الملوث تمكّنت الزوجة من تغطية الذرق بصحن كي تمنع الزوجَ من رؤيته، وسارعت إلى إلهائه بالسؤال الضروريّ:

- ماذا تريد أن تأكل؟

أطلق الرجل زمجرة:

- خراء.

وعندئذ رفعت الزوجة الصحن وقالت له بملاحتها القدسية:

- هو ذا.

تقول القصّة إنّ الزوج نفسه اقتنع عندئذ بقداسة الزوجة وتحوّل إلى العقيدة المسيحية.

شكّلت صيدلية بارّانكيّا الجديدة فشلاً ذريعاً، خفّفت منه قليلاً السرعةُ التي استدركه بها أبي. بعد عدّة أشهر من تمشية الحال بالبيع بالمفرّق، يفتح فجوتين ليسدّ واحدةً، أظهرَ أنّه أكثر ضلالاً مما بدا حتى ذلك الوقت. وذات يوم رتّب خرجه ومضى يبحث عن الثروات الكامنة في القرى الصغيرة على نهر مغدلِنا. وقد أخذني معه قبل أن يذهب إلى شركائه وأصدقائه، وأعلمهم بكلّ وقار أنّني أحلّ محلّه في غيابه. لم أعرف قط ما إذا قالها ساخراً، كما كان يحبّ أن يفعل حتى في المناسبات الصعبة، أم أنّه قالها جادّاً كما كان يحلو له أن يفعل في مناسبات تافهة. أعتقد أنّ كلّ واحد فهمه كما أراد، فقد كنتُ في الثانية عشرة من عمري هزيلاً وشاحباً، لا أكاد أصلحُ للرسم والغناء. قالت المرأة التي تُديّننا الحليب لأمّي، أمام الجميع، وأمامي ودون أي أثرٍ للخبث:

- اعذريني أنني أقول لك هذا، يا سيّدة، لكنّني أظنّ أن هذا الصبيّ لن يكبر.

تركني الخوف زمناً طويلاً بانتظار موتٍ مفاجئ، وكثيراً ما رحتُ أحلمُ أنّني، وأنا أنظرُ إلى نفسي في المرآة، لا أرى نفسي، بل عجلاً صغيراً(*). شخّصَ طبيبُ المدرسة المرض بأنه الملاريا

(*) Ternero de vientre. الترجمة الحرفية عجل بطن، لكن المعنى المعروف لهذا التركيب هو الحيوان المخصّص للإنتاج ويُطلق على الأنثى فيقال Vaca de vientre. لكنّ المعنى لا يستقيم هنا.

والتهاب اللوزتين والصفراء السوداء، بسبب الإفراط بالقراءات سيّئة التوجيه. لم أحاول أن أُخفّف من فزع أحد، بل على العكس رحت أُبالغ في وضعي كمُعاق، كي أتملّص من بعض الواجبات. ومع ذلك خالف أبي العلمَ، وأعلنني قبل أن يذهب مسؤولاً عن البيت والأسرة أثناءِ غيابه:

ـ كما لو أنّه أنا نفسي.

جمعنا في يوم سفره في القاعة، أعطانا إرشادات ووجّه إلينا تأنيباتٍ احترازية عمّا يمكن أن نسيء عمله في غيابه، لكنّنا انتبهنا إلى أنّها كانت حيلاً منه كيلا يبكي. أعطى كلّ واحدٍ منّا قطعة نقدية من فئة الخمسة سنتيمات، كانت تشكّل ثروة جيّدة بالنسبة لأيّ طفل في ذلك الوقت، ووعدنا أن يُبدّلها لنا باثنتين أخريين إن نحن أبقينا عليها دون مساسٍ حتى عودته. أخيراً توجّه إليّ بنبرة إنجيلية:

ـ أتركهم بين يديك، وبين يديك سأجدهم.

فطرت روحي رؤيته يخرج من البيت بطماقي الخيالة والخرج على كتفه، وكنتُ أنا وحدي من استسلم للدموع حين نظر إلينا للمرّة الأخيرة، قبل أن ينعطف وبودّعنا بتلويحة من يده. فقط عندئذٍ انتبهت وللأبد كم كنتُ أحبّه.

لم يكن صعباً تنفيذ تكليفه. كانت أمّي قد بدأت تعتاد على حالات الوحشة الفجائيّة والمضطربة وتتعامل معها بانزعاجٍ، لكن بأريحيّة كبيرة. كان المطبخ والنظام يتطلّبان حتى من الصغار أن يُساعدوا في المهام المنزلية وهو ما فعلوه بشكلٍ جيّد. في تلك المرحلة انتابني أوّل شعورٍ ببلوغ الرشد، حين انتبهتُ إلى أنّ أخوتي بدؤوا يعاملونني كعمٍّ.

لم أستطع قط الخروج من الخجل. حين اضطررتُ أن أواجه بدمي ولحمي الحيّ الوصيةَ التي تركها لنا الأب التائه، تعلّمتُ أنّ الخجلَ شبحٌ لا يُهزم. في كلّ مرّة كان عليّ أن أطلب قرضاً، حتى المتفق عليه مسبقاً في حوانيت الأصدقاء، كنتُ أقضي ساعاتٍ أحوم حول البيت أكبح رغبتي بالبكاء، وتقلبات البطن، إلى أن أتجرأ على

تحريك فكّيّ المشدودين بشكل يمنع صوتي من الخروج. لم يخلُ الأمر دون وجود حانوتيّ بلا قلب يدبّ الرعب في نفسي: «أيّها الولد البليد، لا يمكن لأحد أن يتكلّم وهو مطبق الفم». أكثر من مرّة عدتُ إلى البيت فارغَ اليدين وبحجّة اخترعتها بنفسي. لم أعد أبداً لأصبح بائساً كما كنتُ حين تكلّمت لأوّل مرّة بالهاتف من حانوت الزاوية. ساعدني صاحب الحانوت على التعامل مع المقسم، لأنّه لم يكن هناك هاتف آلي بعد. شعرت بأنفاس الموت حين أعطاني السماعة. توقّعت صوتاً خدوماً، ولكن ما سمعته كان عواء شخص يتكلّم في الظلمة في الوقت ذاته الذي أتكلّم فيه. فكّرت أنّ مخاطبي لا يفهمني بدوره ورفعت صوتي قدر استطاعتي. الآخر، المغتاظ، رفع بدوره صوته:

- وأنت، لماذا تصرخ بي أيّها الأبله!

علَّقتُ السماعةَ مذعوراً. عليَّ أن أعترف أنّه، ورغم حمى الاتصال، ما زلتُ أضطرّ لأن أكبح خوفي من الهاتف والطائرة، الذي لا أدري ما إذا كان مصدره تلك الأيّام. كيف كان باستطاعتي أن أعمل شيئاً؟ لحسن الحظّ أنّ أمّي كثيراً ما كانت تُردّد الجوابَ: «عليك أن تعاني كي تُصبح مفيداً».

وصلنا الخبر الأوّل من أبي بعد أسبوعين في رسالة مكرّسة لتسليتنا أكثر مما لإعلامنا بأيّ شيء. هكذا فهمتها أمّي، فغسلت في ذلك اليوم الأطباقَ وهي تُغنّي كي ترفع معنويّاتنا. كانت مختلفةً في غياب أبي. تتماهى مع بناتها كما لو كانت أختاً كبرى لهن. تتكيّف معهنّ حتى تصبح أفضلهنّ في ألعاب الطفولة، بل وفي ألعابِ الدمى حتى أنَّها كانت تفقد أعصابها وتتشاجر معهنّ ندّاً لندّ. بالاتجاه ذاته وصلت رسالتان من أبي تحملان مشاريع واعدة جدّاً ساعدتنا على النوم بشكلٍ أفضل.

مشكلة خطيرة عانينا منها هي السرعة التي تضيق بها الملابس علينا. لم يكن هناك من يرث لويس إنريكهْ، ولم يكن ذلك ممكناً لأنّه كان يصل من الشارع مُعدَماً ممزَّق الثيابِ دون أن نفهم السبب قط. كانت أمّي تقول إنّه كمن يسير بين أسلاك شائكة. أخواتي - بين

السابعة والتاسعة من العمر ـ كنّ يتدبّرن أمرهنّ فيما بينهنّ كيفما استطعن بمعجزات بارعة. وقد اعتقدت دائماً أنّ ضرورات تلك الأيّام الضاغطة عجلت ببلوغهنّ قبل الأوان. كانت عائدة انطوائية، ومارغوت تجاوزت إلى حدّ كبير خجلها وأظهرت ودّاً واهتماماً بالمولودة الجديدة. كنتُ أصعب أخوتي، ليس فقط لأنّ عليّ أن أقوم بمساعٍ متميّزة، بل لأنّ أمّي التي يحميها حماس الجميع جازفت بتقليصٍ الأرصدة المنزلية كي تُسجّلني في مدرسة كارتاخِنا دي إندياس، التي تبعد عشر قصباتٍ سيراً على الأقدام عن البيت.

وعملاً بالدعوة إلى المسابقة هرعنا قرابة العشرين متسابقاً في الثامنة صباحاً. من حسن الحظّ أن الامتحان لم يكن كتابياً، وكان هناك ثلاثة مُعلِّمين ينادوننا حسب ترتيب تسجيلنا في الأسبوع السابق. ويجرون لنا امتحاناً مقتضباً حسب وثائق دراساتنا السابقة. كنتُ الوحيد الذي لم يملكها، بسبب عدم توافر الوقت لطلبها من مدرسة مونتِسوري ومدرسة أراكاتاكا الابتدائية، وظنّت أمّي أنّني لن أُقبل دون الأوراق. لكنّني قرّرت التظاهر بالجنون. أخرجني أحد المعلّمين من الصفّ حين اعترفت له أنّني لا أحملها، لكنّ معلّماً آخر أخذني على عاتقه ومضى بي إلى مكتبه ليمتحنني دون شرط مسبق. سألني كم تُساوي القروصة(*)، وكم سنة في الألف ونصف العقد، وجعلني أكرّر أسماء عواصم المناطق والأنهار الوطنية الرئيسية والبلدان التي تحدّنا. كلّ شيء بدا لي روتينياً إلى أن سألني ما الكتب التي قرأتها. لفت انتباهه أنّني ذكرت ذلك العدد الكبير والمتنوّع بالنسبة إلى عمري وأنني قرأت «ألف ليلة وليلة» في طبعة للكبار لم تُحذف منها بعض الأحداث الفاحشة التي أرعبت الأب أنغاريتا. فاجأني أنّه كتاب مهمّ، فقد كنت أفكّر دائماً أنّ الكبار الجدّيين لا يمكن أن يُصدّقوا أن يخرج جنّ من القناني، أو أنّ الأبواب تُفتَح بفعل الكلمات السحرية. المتسابقون الذين تقدّموني لم

(*) Gruesa عدد مؤلف من اثنتي عشر دزينة ويستخدم عادة لحساب الأشياء الدقيقة كالأزرار والإبر. كما أنّ هناك كلمة تدلّ على نصف العقد أو العدد خمسة وهي lustro.

يتأخر أحدُهم، المقبول منهم والمرفوض على حدٍّ سواء، أكثر من ربع ساعة، وأنا بقيت أكثر من نصف ساعة أتحدّث مع الأستاذ حول كلّ أنواع المواضيع. راجعنا أنا وهو رفّ كتب مرصوصة خلف مكتبه الذي تميّز فيه «كنزُ الشباب» بعدد نسخه ورونقه، وكنتُ قد سمعتهم يتحدّثون عنه، لكنّ المعلّم نصحني بأنّ من الأنفع لي أن أقرأ «دون كيخوتِ». لم يجده في المكتبة، لكنّه وعدني بأن يعيره لي فيما بعد. بعد أكثر من نصف ساعة من التعليقات السريعة حول سندباد البحار وروبنسون كروز، رافقني إلى المخرج دون أن يقول ليّ إنّني مقبول. طبعاً فكّرت أنّني لم أكن كذلك. لكنّه ودّعني في الشرفة شادّاً على يدي حتى يوم الاثنين، الثامنة صباحاً، لأُسجّل في الصف الأعلى من المدرسة الابتدائية: السنة الرابعة.

كان هذا هو المدير العام. ويُدعى خوان بِنتورا كاسالينز وأتذكّره كصديق طفولة، دون أيّ أثر للصورة المرعبة التي كوّناها عن أساتذة المرحلة. فضيلته التي لا تُنسى هي معاملته لنا جميعاً كبالغين مماثلين، رغم أنّه ما زال يبدو لي أنّه اهتمّ بي اهتماماً خاصّاً، فهو عادة ما كان يوجّه إليّ في الصف أسئلةً أكثر من الآخرين، ويُساعِدني كي تأتي أجوبتي صحيحة وسهلة. كان يسمح لي بأخذ الكتب من المكتبة كي أقرأها في البيت. اثنان منهما، «جزيرة الكنز» و«الكونت دي مونت كريستو»، شكّلا مخدّري السعيد في تلك السنوات الصعبة. كنتُ ألتهمهما حرفاً فحرفاً بلهفة لأن أعرف وأن لا أعرف في آنٍ معاً ما الذي سيجري في الأسطر التالية كيلا أقطع السحر منهما، كما من ألف ليلة وليلة، وتعلّمت ألاّ أنسى أبداً أنّ علينا أن نقرأ فقط الكتبَ التي تُجبرنا على أن نعيد قراءتها.

بالمقابل، فقراءتي لِـ دون كيخوتِ كانت دائماً موضوعاً مختلفاً لأنّها لم تُحدث عندي التأثّر الذي توقّعه المعلّم كاسالينز. مقتُّ الإطناب المعرفي للفارس الجوّال، ولم أستظرف حماقات حامل أسلحته، حتى أنّني فكّرتُ أنّه ليس بالكتاب الذي طالما يتكلّمون عنه. ومع ذلك قلتُ لنفسي إنّ معلماً بحكمة معلّمنا، لا يمكن أن يخطئ، وجهدت في التهامه كما لو كان مطهّراً أتناوله بالملعقة. قمت

بمحاولات أخرى في الثانوية، حيث كان عليّ أن أدرسه كواجب إجباريّ، ومللته دون أمل، إلى أن نصحني صديق لي أن أضعه على رفّ المرحاض، وأحاول أن أقرأه مع قضاء حاجاتي اليومية. بهذه الطريقة فقط اكتشفته، كاشتعالٍ صامت، وتمتعت به وجهاً وقفا إلى حد أنّني أصبحتُ أُلقي فصولاً كاملة منه عن ظهر قلب.

كما خلّفت عندي تلك المدرسةُ الإلهية ذكرياتٍ تاريخية، عن مدينةٍ ومرحلةٍ لا يمكن استرجاعهما. كانت الدار الوحيدة على قمة رابية خضراء، يُلمح من شرفتها طرفا العالم. إلى اليسار حي البرادو، أفخم وأغلى الأحياء، الذي بدا لي منذ النظرة الأولى نسخة طبق الأصل عن قُنِّ دجاج يونايتد فروت كومباني المكهرب. لم يكن مصادفة: فقد كانت تبنيه شركةُ مهندسي مدنٍ أمريكية شمالية حسب أذواقهم وقوانينهم وأسعارهم المستوردة. وكانت تشكل جاذبية سياحية جليّةً بالنسبة إلى بقيّة البلد. بينما تقع على يمينها ضاحية الباريو أباخو، وهي حيّنا المعفّر بشوارعه المتربة والملتهبة، ودورهِ بجدرانها القصبيّة والطينيّنة وسطوح سعفها، التي كانت تُذكّرنا في كلّ ساعة أنّنا لم نكن أكثر من بشرٍ فانينَ من لحم ودم. لحسن الحظّ أنّنا كنّا نلمح من شرفة المدرسة منظراً بانورامياً للمستقبل: الدلتا التاريخية لنهر مَغْدَلِنا، إحدى أعظم دلتات العالم ولجّة لاس بوكاس دِ ثنيثاس الرمادية.

رأينا في 28 أيّار 1935 ناقلة النفط تاراليت، تحملُ علماً كنديّاً تدخل مطلقة جؤار فرح بين رصيفين من الصخر الحي، ورست في ميناء المدينة بين قصف الموسيقى الألعاب النارية بقيادة القبطان د. ف. ماكدونالد. وهكذا تتوّجت مأثرة مَدَنِيّة دامت سنواتٍ كثيرة، وكلّفت بيزوات كثيرة لتحويل بارّانكيّا إلى ميناء البلاد البحري والنهري الوحيد.

مرّت بعد فترة قصيرة طائرة بقيادة القبطان نيكولاس رِيِّس مانوتاس ملامسةً الأسطحة بحثاً عن بقعة عارية تهبط فيها هبوطاً اضطرارياً، ليس فقط لينجو بجلده، بل وبالمسيحيين الذين سيصطدم بهم عند سقوطه. كان واحداً من روّاد الطيران الكولومبي أهدوه

الطائرة البدائية في المكسيك، وقادها وحيداً من أقصى أمريكا الوسطى إلى أقصاها. حضّر له حشد مجتمع في مطار بارّانكيّا حفلَ استقبال انتصاري بمناديل ورايات وجوقة موسيقية، لكنّ ريِّس مانوتاس أراد أن يحومَ فوق المدينة مرّتين تحيةً لها، فوقع عطل في المحرّك. تمكّن من إصلاحه ببراعة عجيبة، وهبط على سطح أحد أبنية المركز التجاري، لكنّها بقيت عالقةً بخطوط الكهرباء ومتدليةً من أحد الأعمدة. تبعنا أنا وأخي لويس إنريكِهْ الطيارَ بين الحشود المضطربة إلى حيث مكّنتنا قوانا، ولم نتمكّن من رؤيته إلاّ بعد أن أنزلوه بمشقة كبيرة، سليماً معافى، وهم يُصفقون له كبطل.

كما حازت المدينة على أوّل محطّة إذاعية، وقناة مياه حديثة صارت محطّ جاذبية سياحية وتعليمية تُظهر عملية التعقيم الجديدة للمياه، وعلى مجموعة رجال إطفاء شكّلت صفارات إنذارهم وأجراسهم بالنسبة للأطفال والراشدين على حدٍّ سواء عيداً، منذ أن بدأت تُسمع. كما دخلت إلى هناك أوّل السيارات ذات السقوف القابلة للطي التي راحت تنطلق في الشوارع بسرعة جنونية، ساحقة كلّ شيء في الشوارع الجديدة المبلطة. علّقت وكالة دفن الموتى لا إكيتاتيبا، المستلهمة لمزاج الموت إعلاناً ضخماً عند مخرج المدينة: «لا تُسرع، نحن بانتظارك».

في الليل حين لم يكن هناك ملاذ آخر غير البيت، كانت أمّي تجمعنا كي تقرأ لنا رسائل أبي. كانت في معظمها أعمالاً بديعة للتسلية، لكن بينها واحدة واضحة تماماً حول الحماس الذي توقظه «المعالجة المثلية» عند الكبار في منطقة مَغْدَلِنا السفلى. كان أبي يقول: «توجد حالات هنا تبدو أعجوبة». كان يولّد لدينا أحياناً انطباعاً بأنّه سيكشف لنا عن شيء عظيم، لكن ما يليه كان شهراً من الصمت. في أسبوع الآلام حين أصيب أخوان لي صغيران بعدوى الحُماق الخبيث لم نعدم وسيلة للاتصال به دون جدوى، إذ ولا حتى أمهر الخبراء الجغرافيين عرفوا له أثراً.

فهمت في تلك الشهور من الحياة الواقعية واحدة من أكثر الكلمات التي استخدمها جدّاي: الفقر. كنتُ أفسّرها على أنّها الوضع

الذي كنّا نعيشه في بيتهما، منذ أن بدأت تتفكّك شركة الموز. كانا يتذمّران منه في كلّ ساعة. لم يعد هناك نوبتان أو ثلاث نوبات على المائدة، كما في السابق، بل نوبة وحيدة. ولكي لا يتنازلا عن الطقس المقدّس لوجبات الغداء، حتى حين لم يكن عندنا إمكانيات للحفاظ عليها، انتهيا إلى شراء الطعام من مطاعم السوق، كان جيّداً ورخيصاً وينطوي على مفاجأة أنّنا أحببناهُ نحن الأطفال أكثر من الآخر. لكنّه انتهى للأبد حين علمت مينا، أنّ بعض الندماء المواظبين قرّروا ألاّ يعودوا إلى البيت، لأنّهم ما عادوا يأكلون جيّداً كما في السابق.

على العكس كان فقر أبويَّ في بارّانكيّا، مضنياً، لكنّه منحني فرصة أن أقيم علاقة استثنائية مع أمّي، التي كنتُ أشعرُ تجاهها بإعجاب مذهل لم يكن ناتجاً عن حبّ الابن المفهوم، بل عن مزاجها، مزاج اللبؤة الصامتة، لكنّها الضارية أمام الخصم، وعن علاقتها بالله التي لم تكن تبدو علاقة خضوع، بل صراع. فضيلتان نموذجيتان منحتاها في الحياة ثقة صائبة دائماً. في أسوأ لحظاتها كانت تضحك من إمكانياتها الربانيّة ذاتها. كما في المرّة التي اشترت فيها ركبة ثور وغلتها يوماً بعد يوم للمرق اليومي، الذي راح يصبح في كلّ يوم أكثر ميوعة إلى أن لم يبق فيه ما يُعطيه. وذات ليلة عاصفة مروّعة استهلكت زبدة الخنزير لكامل الشهر كي تصنع فتائل من خرق، فالنور انقطع حتى الفجر، وكانت هي نفسها قد أدخلت الخوف من الظلمة في نفوس الصغار كيلا يتحرّكوا من أسرّتهم.

كان أبواي يزوران في البداية الأُسر الصديقة المهاجرة من أراكاتاكا بسبب أزمة الموز وتراجع حالة الأمن العام. كانت زيارات دوّارة يحومون فيها دائماً حول موضوعات الفاجعة التي حلّت بالبلدة. لكن حين ضغط الفقر علينا نحن في بارّانكيّا لم نعد لنشكو في بيتٍ غريب. وقصرت أميّ تكتُّمَها على جملة واحدة: « الفقرُ يُلاحظ في العينين».

بدا لي الموت حتى الخامسة من عمري نهايةً طبيعيةً تقع للآخرين. ملذات وعذابات الجحيم بدت لي مجرّد دروس كي أتعلّم من

الأب أَستِتِ كتاب التعاليم المسيحية(*)، عن ظهر قلبٍ. لم يكن لها أيّة علاقة بي، إلى أن تعلّمت مخاتلةً في سهرة على ميتٍ أنّ القملَ كان يهرب من شعر الميت ويمضي على غير هدى على الوسائد. منذ ذلك الوقت لم يكن الخوف من الموت هو ما أقلقني، بل الخجل من أن يهرب القمل منّي أنا أيضاً خلال السهر عليّ على مرأى من أقربائي. ومع ذلك لم أنتبه في مدرسة بارّانكيّا الابتدائية إلى أنّني مليء بالقمل، حتى نقلته إلى الأسرة كلّها. عندئذ برهنت أميّ مرّة أخرى عن طبيعتها. عقّمت الأولادَ واحداً فواحداً بمُبيدِ حشراتِ الصراصير بعملية تنظيف عميق دشّنتها باسم سلالة عظيمة: الشرطة. لكن السيّئ في الأمر أنّنا لم نكد نتخلّص منه حتى بدأنا نصاب بالعدوى من جديد، لأنّني عدتُ وأصبت بالعدوى في المدرسة. وقتها قرّرت أمّي أن تقطع الشكّ باليقين، فقصّت لي شعري من منبته. كان عملاً بطولياً أن أَظهر يوم الاثنين التالي في المدرسة بقبّعة من الخرق، لكنّني تخطيتُ سخريات رفاقي بشرف وتوّجت العام بأعلى العلامات. لم أرَ بعد ذلك المعلّم كاساليزِز قط، لكنّني بقيتُ ممتناً له امتناناً أبدياً.

وفَّر لي أحدُ أصدقاء أبي، لم نعرفه قط، عملاً في العطلة في مطبعة قريبة من البيت. كاد الأجر يكون عدماً. لكنّ دافعي الوحيد كان تعلّم المهنة. ومع ذلك لم أملك لحظة واحدة لرؤية المطبعة، لأنّ عملي كان يقوم على ترتيب الملازم لتجليدها في قسم آخر. أحد عزاءاتي كان أنّ أمي سمحت لي بأن أشتري بأجريَ ملحقَ «لا برِنسا» الأسبوعي الذي كان يحتوي على قصص طرزان المصوّرة لبوك روجِرز - ويُدعى روخِلْيو الفاتح - ومُتْ أَنْدْ جيفُ - وتسمّيان بِنيتين وإنياس ـ. تعلّمتُ رسمها عن ظهر قلب في عطلة يوم الأحد، وكنتُ أتابع بنفسي فصولَ الأسبوع. تمكّنت من أن أشدّ إليها بحماس بعض الراشدين في القصبة، بل وتوصّلت إلى أن صرتُ أبيعها حتى بسنتيمين.

(*) catecismo هو أيّ كتاب يُحاول أن يُعلّم القارئ من خلال السؤال والجواب، لكنّه يُطلق بشكلٍ خاص على الكتاب الذي يتضمن التعاليم المسيحية.

كانت العملُ مضنياً وعقيماً، ورغم جهدي فإنّ تقارير رؤسائي كانت تتهمني بعدم الحماس للعمل. يبدو أنّهم أعفوني تقديراً للأسرة من روتين الورشة، وأسموني موزّعاً في الشوارع لصورِ دعايةٍ لشرابٍ للسعال يَنْصَحُ به أشهرُ فناني السينما. بدا لي ذلك جيّداً لأنّ المناشير كانت رائعة، تحمل صور الفنانين بالألوان على ورق مصقول. ومع ذلك انتبهتُ منذ البداية إلى أنّ توزيعها لم يكن بالسهولة التي فكّرت بها، لأنّ الناس كانوا ينظرون إليها بتوجّسٍ، لأنّها هديّة والغالبية تنكمش كيلا تأخذها كما لو أنّها مكهربة. عدتُ في الأيّام الأولى إلى الورشة بما زاد معي منها كي يكملوها؛ إلى أن التقيتُ بزملاء لي في الدراسة من أراكاتاكا، الذين ثارت ثائرةُ أمّهم حين رأتني في ذلك العمل، الذي بدا لها عمل متسوّلين. وبّختني صارخة بي لأنّني أسير في الشارع في صندل من الخرق، اشترته لي أمّي كيلا أستهلك حذاء المناسبات.

- قُلْ للويسا ماركيز - قالت لي - أن تُفكّر بما سيقوله أبواها إذا ما رأيا حفيدَهما المفضّل يوزّع دعاية للمسلولين في السوق.

لم أنقل الرسالة إلى أمّي كي أجنِّبَها الانزعاج، لكنني بكيتُ غضباً وخجلاً عدّةَ ليالٍ على وسادتي. انتهت المأساة بأنّني توقّفت عن توزيع المناشير، وصرتُ أرميها في بواليع السوق دون أن آخذا بالحسبان أنَّ مياهها ساكنة والورق المصقول يبقى طافياً، يُشَكِّلُ على السطح فراشاً جميلَ الألوان، تحوّل إلى مشهدٍ منقطِع النظير من فوق الجسر.

لا بدَّ أنّ أمي تلقت رسالة ما من موتاها في حلم موحٍ، لأنّها أخرجتني من المطبعة قبل شهرين دون توضيحات. اعترضتُ كيلا أفقد طبعة لا بّرِنسا الأسبوعية، التي كنّا نتلقفها في الأسرة كما لو أنّها بَرَكة من السماء، لكنّ أمّي بقيتْ تشتريها لنا، وإن اضطرت لأنّ تنقص حبّات بطاطا الحساء حبّةً. مورد آخر منقذ هو المبلغ الزهيد الذي راح يُرسله إلينا الخال خوانيتو في أكثر الأشهر حرجاً. كان ما يزال يعيش في سانتا مارتا بأرباحه القليلة من عمله كمحاسب مُحلَّف، وألزمَ نفسه بأن يُرسل إلينا رسالة كلَّ أسبوع فيها ورقتين

نقديتين من فئة البيزو، كان قبطان المركب النهري أَوْرورا، صديق الأسرة القديم، يُسلّمني إيّاها عند السابعة صباحاً فأعود إلى الدار بالحاجات الأساسية لعدّة أيّام.

وذات أربعاء لم أستطع القيام بالمطلوب، فكلّفت أمي لويس إنريكِهْ بها، الذي لم يُقاوِم إغواء أن يُضاعف البيزوين باللعبِ بآلة النقود في حانة صينية. لم يملك إرادة أن يتوقّف عندما خسر الفيشين الأوّلين، واستمرّ يحاول استعادتهما حتى خسر القطعة النقدية ما قبل الأخيرة. «وصل بي الخوف ـ حكى لي بعد أن كبر ـ حدَّ أنّني اتخذت قراراً بعدم العودة إلى البيت أبداً». كان يعرف جيّداً أن البيزوين يُغطيان حاجات الأسبوع الأساسية. من حسن الحظ أنّ شيئاً حدث للآلة في اللحظة الأخيرة، بحيث أنّها ارتجَّت رجّةً ضارية وتقيّأت فيشات البيزوين اللذين خسرهما كاملة بلا توقّف. «وعندئذٍ أنارني الشيطان ـ حكى لي لويس إنريكِهْ ـ وخاطرت بفيشة أخرى.» ربح. خاطر مرّة أخرى، ثمَّ أخرى، ثمّ أخرى، وربح. «وعندئذٍ تجاوز خوفي خوفَ الخسارة وأفلتت أمعائي ـ حكى لي ـ، لكنّني تابعتُ اللعبِ». وفي النهاية كسب ضعيف البيزوين الأصليين وقد جاءت قطعاً نقدية من فئة الخمسة سنتافو، ولم يجروْ على تبديلها بورق نقديّ من الصندوق خوفاً من أن يوقعه الصيني في ورطة صينية. أخذت النقود من الحجم في جيبه ما جعله يطمر البيزوات الأربعة التي ربحها في عمق الفناء، حيث اعتاد أن يطمر كلّ السنتيمات التي يعثر عليها خارج البيت، قبل أن يعطي أمّي بيزوي الخال خوانيتو قطعاً نقدية من فئة الخمسة. وقد أنفقها شيئاً فشيئاً دون أن يعترف لأحد بالسر، إلا بعد سنوات كثيرة، مذعوراً لأنّه وقع في إغواء المخاطرة بآخر خمسة سنتيمات في حانوت الصيني.

كانت علاقته بالنقود شخصيّة جدّاً. وذات مناسبة حين فاجأته أمي يبحث في محفظة نقود السوق، جاء دفاعه وحشيّاً لكنّه ذكيّاً: النقود التي يأخذها المرء من محفظة أبويه دون إذن لا يمكن أن تُعتبر سرقة لأنّها نقود الجميع، التي ينكرونها علينا حسداً، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا بها ما نفعله نحن الأبناء. وقد وصل بي أمرُ

الدفاع عن حجّته حدّ الاعتراف بأنّني أنا نفسي كنتُ قد اختلست مخبوءات المنزل للضرورات الملحة. فقدت أمّي صوابها «لاتكونا بهذه الحماقة - قالت شبه صارخة بي - لا أنت ولا أخوك تسرقان مني شيئاً، لأنّني أنا نفسي أترك النقود حيث أعرف أنكما ستبحثان عنها حين تكونان في حاجة ماسة إليها». سمعتها في إحدى نوبات الغضب تهمس قانطة، أنّ على الله أن يسمح بسرقة بعض الأشياء لإطعام الأبناء.

سحر لويس إنريكِهْ الشخصي في الجسارة كان مفيداً جدّاً لحل مشاكل عامّة مشتركة، لكنّه لم يصل به الأمر أن يجعلني شريكاً في عمليات احتياله. على العكس، فقد كان يتدبّر أمره دائماً كي لا تقع عليّ أيّة شبهة، وهذا ما عزّز ودّاً حقيقياً استمرّ بيننا للأبد. لم أتركه يعرف بالمقابل كم كنتُ أحسده على ذكائه، وكم كنتُ أعاني من ضربات السوط التي كان ينزلها به أبي. كان سلوكي مختلفاً عن سلوكه، لكنَّ التخفيف من حسدي كان يُكلّفني جهداً. بالمقابل كان يقلقني بيت الأبوين في كاتاكا، الذي لم يأخذوني إليه إلاّ للنوم حين كان عليهم أن يعطوني مطهراً للديدان المعوية، أو زيتَ خروع، حتى كرهت النقود من فئة العشرين سنتيماً التي كانوا يعطونها لي مكافأة على الوقار الذي كنت أتناوله به.

أظنّ أن أوج قنوط أمّي جاء من إرسالها إياي مع رسالة إلى رجلٍ اشتهر بأنّه الأغنى والأكثر سخاءً وإحساناً في المدينة. وهكذا راحت الأخبار عن طيبة قلبه تنتشر بسرعة انتصاراته المالية. كتبت أمي له رسالةً مشحونة بالضيق دون لفّ ولا دوران، تطلب منه مساعدة اقتصادية ملحّة ليس باسمها، فهي قادرة على تحمّل أيّ شيء، بل من أجل أبنائها. لا بدّ أن يعرفها المرءُ حتى يفهم ما عنته تلك الإهانة في حياتها، لكنّ الحالة تطلّبت ذلك. نبّهتني إلى أنَّ السرَّ يجب أن يبقى بيننا، نحن الاثنين، وكان ذلك حتى هذه اللحظة التي أكتبه فيها.

قرعت باب الدار الكبير، الذي فيه شيء من رهبة الكنيسة، ففُتِحَت كوّة على الفور تقريباً، أطلّت منها امرأة لا أذكر منها غير

جليد عينيها. أخذتْ الرسالة دون أن تنبس بكلمة وعادت فأغلقتها. لا بدّ أنها كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً، انتظرتُ جالساً في نجران الباب حتى الثالثة مساءً، حين قرّرت أن أقرعه بحثاً عن جواب. عادت المرأة نفسها لتفتح لي فعرفتني مندهشة، وطلبت منّي أن أنتظر لحظة. كان الجواب أن أعودَ يومَ الثلاثاء من الأسبوع التالي في الساعة ذاتها. وهكذا فعلتُ، وكان الجواب الوحيد أنّه لا جواب قبل أسبوع. اضطررت للعودة ثلاث مرّاتٍ أخرى لألقى دائماً الجوابِ ذاته، إلى أن مضى شهر ونصف، وأطلّت امرأةٌ أخرى أكثر فظاظةً من السابقة، وأجابتني بتكليف السيّد أنّ ذلك البيت ليس بيتاً للتصدُّق.

همتُ في الشوارع الملتهبة بحثاً عن الشجاعة لأحمل لأمّي جواباً ينقذها من أوهامها. في أوج الليل واجهتُها بقلب موجوعٍ بالخبرِ الجاف: مات المحسن الطيب قبل عدّة أسابيع. أكثر ما آلمنيً هو صلاة السبحة التي صلتها أمّي لأجل راحة نفسه الأبدية.

بعد أربع أو خمس سنوات حين سمعنا الخبر الحقيقيَّ عن أنّ المحسن توفّي في اليوم السابق تجمّدتُ بانتظار ردّ فعل أمّي. ومع ذلك لن أستطيع أن أفهم أبداً كيف أنّها سمعت الخبر باهتمام وتأثّر، وتنهّدت من أعماقِ نفسها:

- حفظه الربّ في مملكته الأزلية!

على بعد قصبةٍ من بيتنا أقمنا صداقة مع آل موسكِرا، الأسرة التي كانت تنفِقُ ثروةً طائلة على مجلات القصص المصوّرة التي يكدّسونها في عنبر الفناء حتى السقف. كنّا المحظوظين الوحيدين الذين استطعنا أن نمضي أيّاماً بكاملها نقرأ هناك ديك تراسي وبوك روجرز. مصادفة سعيدة أخرى هي التعرف على رسام مبتدئ يرسم إعلاناتٍ لأفلام سينما لاس كينتاس القريبة. كنتُ أسّاعده لمجرّد الاستمتاع برسم الحروف فيمرّرنا مرّةً أو مرّتين مجاناً لنرى أفلاماً جيّدة عن الرماية والمصارعة. الرفاهية الوحيدة التي كانت تنقصنا هي المذياع لسماع الموسيقى في أيّة ساعة بمجرّد لمسة زر. يصعب اليوم أن نتصوّر كم كانت نادرة في بيوت الفقراء. كنّا أنا

ولويس إنريكِهْ نجلس على مقعد في حانوت الزاوية وُضِع لمسامرات الزبائن فارغي الأعمال، ونمضي أماسٍ كاملة نستمع إلى برامج الموسيقى الشعبية، التي شكّلت كلّ البرامج تقريباً. وصل بنا الأمر أنّه صار لدينا لائحة كاملة بأغاني ميغِليتو بالدِسْ برفقة أوركسترا، كازينو دِ لا بلايا، ودانييل سانتوس برفقة موسيقى حجرة ماتانثِرا، وأغاني البولِرو لأغوستين لارا بصوت تونيا لا نِغرا. اقتصرت تسليتنا الليلية، خاصّة في المناسبتين اللتين قطعت فيهما الكهرباء عنّا لعدم تسديدنا الفاتورة، على تعليم الأغاني لأمّي وأخوتي؛ وخاصة لِليخيا وغوستابو، اللذين كانا يتعلمانها مثل الببغاء، دون أن يفهماها، وكنّا نضحك لترهاتهما الغنائية حتى ننفلق. لم يكن هناك استثناءات. جميعنا ورثنا عن الأب والأمّ ذاكرةً خاصّة بالموسيقى وأذناً جيّدةً لتعلّم أية أغنية من المرّة الثانية. خاصّة لويس إنريكِهْ، الذي وُلِد موسيقياً وتخصّص ذاتيّاً بالعزف المنفرد علىالقيثار لأغاني الحب المصدود الليلية. لم نتأخّر في اكتشاف أنّ جميع الأطفال في البيوت المجاورة التي لا يوجد فيها مذياع كانوا يتعلّمونها أيضاً من أخوتي، وخاصّة من أمّي، التي انتهى بها الأمر إلى أن أصبحت أختاً أخرى في بيت الأطفال ذاك.

كان برنامجي الإذاعي المفضّل هو ساعة من كلّ شيء قليل، للموسيقار والمغني والمعلّم أنخِل ماريّا كاماتشو إي كانو، الذي كان يستأثر، منذ الواحدة ظهراً، بالمستمعين بكلّ أصناف المنوعات البارعة، وخاصة ساعة الهواة المخصّصة لمن هم دون الخامسة عشرة. كان يكفي المرء أن يسجل في مكاتب لا بوث دِ لا بّاتريا(*) ويصل إلى البرنامج قبل نصف ساعة. كان المعلّم كاماتشو إي كانو يرافقُ الهاوي بنفسه على البيانو، يُنفِّذ مساعد له الحكم النهائي بقطع الأغنية، قارعاً ناقوس كنيسة حين يرتكب الهاوي أدنى خطأ. كانت جائزة أفضل أغنية مُؤداة أكثر مما باستطاعتنا أن نحلم به ـ خمسة بيزوات ـ لكن أمّي كانت أكثر وضوحاً بقولها، إنّ الأهمّ هو عظمة تأديتها جيّداً في برنامَجٍ بمثل تلك المكانة.

(*) صوت الوطن.

كنتُ قد عرّفت نفسي حتى تلك اللحظة بكنية أبي ـ غارسيّا ـ واسم المعمودية المركّب ـ غابرييل خوسّهْ ـ، لكن أمّي طلبت منّي، في تلك المناسبة التاريخية، أن أسجّل نفسي بكنيتها أيضاً ـ ماركيز ـ كيلا يشكّ أحد بهويّتي. شكّل ذلك حدثاً في البيت. ألبسوني اللباس الأبيض كما في المناولة الأولى، وأعطوني قبل أن أخرج مغليّ برومور البوتاسيوم. وصلت إلى لا بوث دِ لا باتريا قبل ساعتين من الموعد، وانتهى مفعول المسكّن أثناء انتظاري في حديقة قريبة، لأنّهم لم يكونوا يسمحون لنا بالدخول إلى الاستوديوهات إلاّ قبل ربع ساعة من بدء البرنامج. كنتُ أشعر بعناكب الرعب تدبُّ في داخلي في كلّ لحظة. دخلتُ أخيراً وقلبي ليس منّي. اضطررت أن أبذل جهداً أقصى كيلا أعود إلى البيت، والقول إنّهم لم يسمحوا لي بالمشاركة بالمسابقة، متذرعاً بأية ذريعة. أجرى لي المعلّم اختباراً سريعاً على البيانو ليحدّد طبقة صوتي. ودعوا قبل ذلك سبعةَ متسابقين حسب ترتيب التسجيل، وقرعوا الناقوس لثلاثة منهم نتيجة ارتكاب أخطاء مختلفة. نادوا عليّ باسم غابرييل ماركيز البسيط. غنّيت «التمّ»(*)، وهي أغنية عاطفية حول طائر التمِّ أكثر بياضاً من ندف الثلج، قتله مع حبيبته صيّادٌ قاسي القلب. انتبهت منذ الإيقاعات الأولى إلى أنّ الطبقة كانت عاليةً جدّاً في بعض العلامات التي لم تعزف في الاختبار، ومررت بلحظة ذعر حين قام المساعد بإشارة شكّ واستعدّ لقرع الجرس. لا أدري من أين استمديتُ الشجاعة كي أشير إليه بقوّة ألاّ يقرعه، لكنّ الأمر جاء متأخّراً: فالناقوس قرع بلا قلب. وذهبت البيزوات الخمسة، إضافة إلى هدايا دعائية أخرى، إلى شقراء في غاية الجمال ارتكبت مجزرة بأدائها مقطعاً من مدام بترفلي. عدتُ إلى البيت مُحبطاً من الهزيمة ولم أستطع قط أن أواسي أمّي من خيبة أملها. مرّت سنوات كثيرة قبل أن تعترف لي بأنّ سببَ خجله، هو أنّها أخبرت أقرباءها وأصدقاءها كي يسمعوني أُغنّي، دون أن تعلم كيف تتحاشاهم.

(*) ويسمى أيضاً بالإوزّ العراقي.

لم أنقطع وسط تلك الحمية من الضحك والدموع، عن المدرسة قط، حتى وأنا فارغ المعدة. لكنّ وقت قراءاتي في البيت كانت تضيعه القضايا المنزلية، ولم يكن لدينا ميزانية للكهرباء كي أقرأ حتى منتصف الليل. في جميع الأحوال كنتُ أتدبّر أمري. في الطريق إلى المدرسة كان هناك عدد من ورشات لحافلات الركاب، أمضي ساعاتٍ في واحدة منها وأنا أنظر كيف يخطون على جوانبها خط سيرها ووجهتها. طلبتُ ذات يوم من الرسام أن يتركني أخطّ بعض الأحرف لأرى ما إذا كنتُ كفءً. فاجأته كفاءتي الطبيعية، وسمح لي أحياناً بمساعدته مقابل بيزوات متفرّقة ساعدتنا قليلاً في ميزانية الأسرة. هناك أمل آخر نتج عن صداقتي العرضية مع ثلاثة أخوة من آل غارسيّا، أبناء بحّار يعمل في نهر مَغْدَلِنا شكّلوا ثلاثيّاً للموسيقى الشعبية، لتشجيع حفلات الأصدقاءِ لا يبغون شيئاً آخر غير الفنّ. أكملت معهم رباعي غارسيّا للمشاركة في مسابقة ساعة الهواة في إذاعة أتلانتيكو. ربحنا منذ اليومِ الأوّل بتصفيق مدوٍّ، لكنّهم لم يدفعوا لنا بيزوات الجائزة الخمسة بسبب خطأ لايمكن إصلاحه في الاكتتاب. بقينا نتدرّب معاً بقيّة العام ونغنّي دون مقابل في الحفلات الأسرية إلى أن فرّقتنا الحياة.

لم أتفق قط مع الرواية الخبيثة القائلة بأن الصبر الذي تدبّر به أبي الفقرَ، كان ينطوي على كثير من عدم المسؤولية. على العكس: أعتقد أنّه كان دليلاً بطولياً على تواطؤ صائب قام دائماً بينه وبين زوجته، وسمح لهما بحبس أنفاسهما حتى شفير الهاوية. كان يعلم أنّها تُدير الرعبَ أفضلَ من تحكّمها بالقنوط، وأنّ هذا هو سرّ بقائنا على قيد الحياة. ربّما ما لم يفكّر بهِ هو أنّهُ كان يُخفّف من آلامه، بينما هي تمضي مخلّفة وراءها أفضل ما في حياتها. لم نستطع قط أن نفهم أسباب أسفاره. فجأة أيقظونا ذاتَ سبتٍ في منتصف الليل كي يأخذونا إلى وكالة محلّية لحقل بترول في كاتاكومبو، حيث كانت تنتظرنا مكالمة هاتفية من والدنا. لن أنسَ قط أمّي الغارقة بدموعها في مكالمة مشوّشة بالتقنية.

ـ آه، يا غابرييل ـ قالت أمّي ـ انظر كيف تركتني مع هذا القطيع من الأولاد، وقد مرّت أحيان عدّة لم يكن عندنا ما نأكله.

ردّ عليها بالخبر السيّئ قائلاً إنّ كبده منتفخ. وهو ما كان يحدث له بشكل متكرر، لكنّ أمي لم تكن تأخذ ذلك مأخذ الجدّ تماماً، لأنّه استخدمه ذات مرّة للتستر على أفعاله الشنيعة.

- يحدث لك هذا كلّما أسأت التصرّف - قالت له مازحةً.

كانت تتكلّم وهي تنظر إلى الميكرفون، كما لو أنّ والدي كان فيه وارتبكت أخيراً وهي تحاول أن تُرسل إليه قبلة فقبّلت الميكرفون. هي نفسها لم تستطع السيطرة على قهقهتها، كما لم تستطع قط أن تحكي القصّة كاملةً، لأنّها كانت تنتهي غارقة بدموعها من الضحك. ومع ذلك بقيت في ذلك اليوم غارقة في التفكير، وقالت أخيراً على المائدة وكأنّها لا تكلّم أحداً:

- لاحظت شيئاً غريباً في صوت غابرييل.

وضّحنا لها أنّ جهاز اللاسلكي لا يُشوّه الصوتَ وحسب، بل ويموّه الشخصية. قالت في الليلة التالية وهي نائمة: «في جميع الأحوال كنتُ أسمع صوته، وكأنّه أكثر هزالاً». كان أنفها يبدو حاداً كما في أيّامها السيّئة وتتساءل كيف هي تلك القرى، التي يتجوّل فيها زوجها بعيداً عن عنها، وليس لها ربّ ولا قانون. ظهرت دوافعها الخفيّة أوضح في مكالمتها الثانية باللاسلكي، حين جعلت والدي يعدها بالعودة فوراً إلى البيت، إذا لم يحقّق شيئاً خلال أسبوعين. ومع ذلك وقبل الموعد تلقينا برقية مأساوية من كلمة واحدة من لوس ألتوس دِل روساريو «متردِّد». رأت أمّي في الرسالة تأكيداً على أكثر توقّعاتها وضوحاً، وأمْلَتْ حكمَها غير القابل للطعن:

- إمّا أن تأتي قبل الاثنين، وإمّا أنّني سأذهب مع كلّ العشيرة إلى هناك.

تدبير ناجع. كان أبي يعرف قوّة تهديداتها، فعاد قبل أسبوع من الموعد إلى بارّانكيّا. أدهشنا دخوله وقد ارتدى ملابسه كيفما اتفق، واخضرّ جلده ولم يحلق ذقنه؛ حتى أنّ أمّي ظنّت أنّه مريض. لكنّه كان انطباعاً عرضياً، لأنّه أستعاد خلال يومين مشروع شبابه

بفتح صيدلية متعدّدة الوظائف في بلدة سوكرِ، وهي متكأ مثالي ومزدهر على بعد يوم وليلة في النهر عن بارّانكيا. فقد أقام هناك في فتوته كعامل تلغراف، وكان قلبه ينقبضُ حين يتذكّر رحلته في تلك الأقنية الغسقية والمستنقعات الذهبية والرقصات الأبدية. في إحدى الفترات أصرّ على الحصول على ذلك الشاغر، لكنَّ الحظ لم يحالفه كما في أماكن أخرى مثل أراكاتاكا، وإن كانت أكثر إغواءً. عاد وفكّر بها بعد خمس سنوات تقريباً، أثناء أزمة الموز، لكنّه وجدها مزدحمة بتجّار جملة من ماغانغِه، ومع ذلك وقبل شهر ونصف من عودته إلى بارّانكيّا التقى مصادفةً بواحد منهم، لم يصوِّر له واقعاً مناقضاً تماماً وحسب، بل عرض عليه قرضاً جيّداً في سوكرِ. لم يقبله لأنّه كان على وشك تحقيق حلمه الذهبيّ في ألتوس دِلْ روساريو، لكن حين باغته قرار زوجته، عثر على تاجر الجملة من ماغانغِهْ الذي كان ما يزال ضائعاً في قرى النهر، وأبرما الصفقة.

بعد أسابيع من الدراسة والتسويات مع تجّار جملة أصدقاء ذهب بمظهره وذكائه المستعادين، وجاء انطباعه عن سوكرِ من القوّة، بحيث أنّه تركه مكتوباً في الرسالة الأولى: «كان الواقعُ أفضل من الحنين». استأجر بيتاً له شرفة في الساحة الرئيسية، ومن هناك استعاد علاقته بأصدقاء السنوات السابقة الذين فتحوا له أبوابهم. كان على الأسرة أن تبيع ما استطاعت بيعه وتحزمَ ما تبقى ولم يكن كثيراً؛ وتحمله معها في أحد المراكب البخارية التي كانت تقوم برحلاتها المنتظمة في نهر مَغْدَلِنا. في البريد ذاته أرسل حوالة مدروسة جيّداً للنفقات الفورية، وأعلن عن حوالة أخرى لنفقات السفر. لا أستطيع أن أتصوّر أخباراً أكثر شهية بالنسبة لطبيعة متوهِّمة كطبيعة أمّي، وهكذا لم يأتِ ردّها مدروساً جيّداً لدعم معنويات الزوج وحسب، بل ليحلّي له أيضاً خبر أنّها حامل للمرّة الثامنة.

قمت بالإجراءات والحجوزات على متن «الكابيتان دِ كارو»، وهي باخرة أسطورية كانت تقطع الطريق من بارّانكيّا إلى ماغانغِهْ

في يوم وليلة. بعدها كان علينا أن نتابع في زورق بمحرّك عبر نهر سان خورخِه وقناة موخانا المثالية حتى مكان وجهتنا.

- المهم أنْ نخرج من هنا حتى ولو إلى الجحيم - هتفت أمّي التي طالما شكّكت بسمعة سوكرِ الفاخرة - يجب ألاّ يُترك الزوجُ وحيداً في بلدة مثل هذه.

فرضت علينا العمل بسرعة كبيرة، فقبل ثلاثة أيّام من السفر رحنا ننام على الأرض بعد أن أنجزنا تحضير الأسرّة وكلّ الأثاث الذي استطعنا بيعه. كلّ ما عداه صار في الصناديق ونقود تذاكر السفر مؤمّنة في مخبأ ما من مخابئ أمّي، معدودة جيّداً ومعاد عدّها ألف مرّة.

الموظفّ الذي قام على خدمتي في مكاتب الباخرة كان من اللطف بحيث لم أضطرّ لأن أشدّ على فكّيَّ كي أتفاهم معه. أنا واثق تماماً من أنّني سجّلت حرفيّاً مبالغ التعريفة التي أملاها هو عليّ، بنطق أهل الكاريبي الخدومين الواضح والمتأنّق. أكثر ما أسعدني وأقل ما نسيته هو أنّه حتى سنّ الثانية عشرة لا يدفع المرء إلا نصف التعريفة العادية. وهذا ما يشمل جميع الأبناء باستثنائي، وعلى هذا الأساس رفعت أمّي نقود الرحلةِ جانباً وأنفقت حتى آخر سنتيم معها في تفكيك موجودات البيت.

ذهبتُ يوم الجمعة لشراء تذاكر السفر، واستقبلني الموظّف بمفاجأةِ أنّه لا يُخصم نصف سعر التعريفة بالنسبة لمن هم دون الثانية عشرة، بل فقط ثلاثين بالمئة وهذا ما جعل من المحال علينا تغطية الفارق. تعلّل بأنّني أخطأت في التسجيل، فالمعلومات مطبوعة في لائحة رسميّة وضعها أمام عينيَّ. عدتُ إلى البيت مغموماً ولم تبدِ أمّي أيّ تعليق، غير أنّها ارتدت فستانها الذي ارتدته في الحداد على أبيها وذهبنا إلى الوكالة النهرية. أرادت أن تكون عادلة، أحدٌ أخطأ ويمكن أن يكون ابنها، لكن هذا لا يهمّ. المسألة هي أنّنا لا نملك نقوداً أكثر. وضّح لها الموظّف أنّه لا يمكن فعل أيّ شيء.

«خذي بالاعتبار، يا سيّدة» قال لها «ليست المسألة أنني أريد

أن أخدمك أو لا أريد، إنّه نظام الشركة الجدّية، الذي لا يمكن أن يُستخدم كما تستخدم دوّارة الهواء».

«لكنّهم أطفال»، قالت أمّي وأشارت إليّ كمثل. «تصوّر أنّ أكبرهم سنّاً هو هذا، ولا يكاد يكمل الثانية عشرة» وأشارت بيدها:

- هكذا طولهم.

لم تكن مسألة طول، تعلّل الوكيل، بل مسألة عمر. لا أحد يدفع أقل إلا حديثو الولادة الذين يسافرون مجاناً. بحثت أمّي عن سماوات أعلى:

- مع من يجب أن أتكلّم كي يُسوّى هذا الأمر؟

لم يتمكّن الموظّف من الإجابة. أطلَّ المديرُ، وكان رجلاً متقدِّماً في السن، أكرش مثل حامل، من باب المكتب في منتصف المماحكة، فانتصب الموظّف حين رآه على قدميه. كان ضخماً، محترم المظهرِ وكانت سطوته أكثر من جليّة حتى وهو في قميص بنصف كمٍّ ويتصبّب عرقاً. استمع إلى أمّي باهتمام وأجابها بصوت هادئ قائلاً إنّ قراراً مثل ذاك لا يمكن أن يتم إلا بتعديل الأنظمة في الهيئة العامّة للأعضاء.

- صدّقيني أنّني آسف جدّاً - ختم - شعرت أمّي بنفحة القوّة فهذّبت طرحها.

«أنت على حقٍّ، يا سيّد»، قالت، «لكنّ المشكلة أنّ موظّفك لم يوضّح الأمر جيّداً لابني، أو أنّ ابني فهم خطأ وأنا تصرّفت على أساس هذا الخطأ. كلّ شيء عندي محزَّم وجاهز للشحن، ونحن ننام على الأرض العارية، ونقود السوق لا تكفينا إلا لهذا اليوم، والاثنين سوف أسلّم البيت للمستأجرين الجدد.» انتبهت إلى أنّ موظّفي القاعة يُصغون إليها باهتمام، وعندئذٍ توجّهت إليهم: «ماذا يمكن أن يُشكّل هذا بالنسبة إلى شركة بهذه الأهمية؟» ثم ودون أن تنتظر جواباً سألت المديرَ وهي تنظر إلى عينيه مباشرةً:

- هل تؤمن بالله؟

ارتبك المدير. والقاعة بكاملها بقيت متحفّزة بسبب الصمت الذي طال أكثر من اللازم. عندئذٍ تمدّدت أمّي على المقعد جمعت ركبتيها اللتين راحتا ترتعدان، وشدّت بكلتا يديها على محفظتها في حضنها، وقالت بتصميم خاصّ بقضاياها الكبيرة:

ـ لن أتحرّك من هنا ما لم تحلوها لي.

صعق المدير وتوقّف جميع الموظفين عن العمل كي ينظروا إلى أمّي. كانت شاحبة وحازمة بأنفها المسنون، تعلوها لآلئ العرق. كانت قد خلعت ثوب الحداد على أبيها، لكنّها ارتدته لأنّه بدا لها أكثر ملاءمة لتلك المهمة. لم ينظر إليها المدير ثانية، بل إلى موظّفيه دون أن يدري ما يفعله، وأخيراً صاح بالجميع:

ـ هذه مشكلة لا سابقة لها!

لم يرفّ لأمّي جفن: «كانت دموعي واقفة في حنجرتي، لكن كان عليَّ أن أقاوم، وإلاّ لبدوت في وضع سيِّئٍ جدّاً» حكت لي فيما بعد. عندئذٍ طلب المديرُ من الموظّف أن يأخذ الوثائق إلى مكتبه. ففعل هذا ذلك، وعاد ليخرج بعد خمس دقائق، فاغر الفم وغاضباً، لكنّه يحمل كلّ التذاكر جاهزةً للسفر.

نزلنا في الأسبوع التالي في بلدة سوكرِ وكأنّنا ولدنا فيها. كانت بحدود الستة عشر ألف نسمة، مثل الكثير من بلديات البلد آنذاك والجميع يعرف بعضهم بعضاً، ليس بأسمائهم بقدر ما بحياتهم السرّية.

لم تكن البلدة وحدها بحراً من المياه الراكدة التي تبدّل ألوانَ غطاءِ أزهارِها حسب الفترة الزمنية والمكان وحالتنا النفسية ذاتها، بل والمنطقة كلّها. كان بهاؤها يُذكّر بمستنقعات الحلم في جنوب شرق آسيا. لم توجد سيّارة واحدة طيلة السنوات الكثيرة التي عاشتها الأسرة فيها. ما كان وجودها ليُجدي فشوارعها المستقيمة الترابية المسوّاة كانت تبدو دروباً معدّة للأقدام الحافية، وكثير من البيوت لها مرافئها وزوارقها الخاصة في مطابخها للتنقل المحلّي.

شعوري الأوّل كان الإحساس بحرّية فائقة التصوّر. فكلّ ما

كان ينقصنا أو كنّا نتوق له نحن الأطفال وُضِع بين أيدينا. كلٌّ يأكلُ آن يحلو له وينام ساعةَ يشاء، ولم يكن من السهل الاهتمام بأحد، وكان البالغون، رغم قوانينهم الصارمة، منهمكين بأمورهم الخاصة بحيث لا يستطيعون أن يهتمّوا ولا حتى بأنفسهم. كان شرط الأمان الوحيد للأطفال هو أن يتعلّموا السباحة قبل المشي، فالبلدة كانت تشطرها قناة من المياه الداكنة، تفيد في الوقت ذاته كقناة ومجرى مائي، إلى شطرين. كانوا يلقون بهم منذ السنة الأولى من عمرهم من النوافذ إلى الماء في أطواق نجاة كي يتحرّروا من الخوف من الماء في البداية، ثمّ دون أطواق نجاة كي يتحرّروا من خوفهم من الموت. بعد سنوات برز أخي خايِمه وأختي ليخيا اللذان تجاوزا المخاطر الأولية في بطولات سباحة الأطفال.

إنَّ ما جعل من سوكرِ بلدةً لا تُنسى بالنسبة إليّ هو شعوري بالحرّية التي كنّا نتحرّك فيها نحن الأطفال في الشارع. فخلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع صرنا نعرف من يعيش في كلّ بيتٍ، ونتصرّف فيها كأنّنا معروفين منذ الأزل. كانت العادات ـ المبسطة بفعل الاستخدام ـ عادات حياة حديثة ضمن ثقافة إقطاعية: الأثرياء ـ مربو مواشٍ وصناعيو سكر ـ في الساحة العامّة، والفقراء حيث يستطيعون. بالنسبة للإدارة الكنسية كانت ميدان بعثات تبشيرية لها سلطة وسيطرة على إمبراطورية مائية فسيحة. في مركز ذلك العالم كانت كنيسةُ الأبرشية في ساحة سوكرِ الكبيرة، نسخةٌ مصغّرةٌ عن كاتدرائية كولونيا، نسخها خوري أسباني صار معماريّاً عن ظهر قلب. كانت ممارسة السلطة مباشرة ومطلقة. ففي كلّ ليلة وبعد صلاة السبحة تقرع نواقيس برج الكنيسة قرعات تنطبق على التصنيف الأخلاقي للفيلم المعلن عنه في السينما المجاورة، حسب كتالوج المكتب الكاثوليكي للسينما. وكان هناك مبشر مناوب، يجلس بباب مكتبه، ويراقب الدخول إلى المسرح من الرصيف المقابل كي يُعاقب المخالفين.

خيبتي الكبرى نتجت عن العمر الذي وصلتُ فيه إلى سوكرِ. كانت تنقصني ثلاثة أشهر كي أعبر خطّ الثلاثة عشر المشؤوم. في

البيت ما عادوا يتحمّلونني كطفل، كما لم يعترفوا بي كبالغ، في ليمبوس ذلك العمر انتهيتُ إلى أنّني كنت الوحيد بين الأخوة الذي لم يتعلّم السباحة. لم يكونوا يعرفون ما إذا كانوا سيجلسونني إلى مائدة الصغار أم إلى مائدة الكبار. نساء الخدمة ما عدن يُبدلن ملابسهنّ أمامي ولا حتى والأنوار مطفأة، لكنّ واحدة منهنّ نامت في فراشي عدّة مرات عارية دون أن تعكّر حلمي. لم أملك الوقت لأشبع من تلك النزوات الحرّة حين اضطررت للعودة إلى بارّانكيّا في كانون الثاني من العام التالي كي أبدأ الدراسة الثانوية، لأنّه لم يكن يوجد في سوكرِ مدرسة مؤهّلة للعلامات الرائعة التي يُعطيها المعلم كاسالينز.

بعد نقاشات واستشارات طويلة، بمشاركة نادرة منّي، وقع اختيار أبويّ على مدرسة سان خوسِهْ التابعة لمؤسّسة يسوع في بارّانكيّا. لا أفهم من أين جاؤوا بكلّ تلك الموارد في تلك الأشهر القليلة، إذا كانت الصيدلية والعيادة المثلية ما تزلان قيد التجريب. لقد قدّمت أمي دائماً مبرراً لا يتطلّب براهين: «الله كبير». لا بدّ أنّهم حسبوا، أثناء وضع نفقات الانتقال، حساب الإقامة وإعالة الأسرة، لكن ليس حساب متطلباتي المدرسية. وانتقلتُ من شخص لا يملك غير زوج من الأحذية الممزقة وغيارٍ واحد من الثياب أرتديه ريثما تغسل لي أمّي الغيار الآخر، إلى شخصٍ زوّدته أمّه بملابس جديدة في صندوق بحجم تابوت، دون أن يحسبوا حساب أنّني سأكبرُ خلال ستّة أشهر شبراً. كانت هي أيضاً من قرّرت أن أبدأ بارتداء البنطلونات الطويلة بعكس العرف الاجتماعي المتبع من قبل أبي، والقائل بأنّه لا يمكن استخدامها ما لم يبدأ الصوت بالتغيّر.

الحقيقة أن النقاشات حول تربية كلّ ولد من الأولاد حافظت دائماً على حلمي بأنّ يأمر والدي في إحدى حالات غضبه الملحمية ألا يعود أيٌّ منّا إلى المدرسة. لم يكن هذا ممكناً. فهو نفسه كان عصامياً في تعلمه بسبب جبروت الفقر، وكان أبوه يستلهم الأخلاقَ الفولاذية لِدون فِرناندو السابع، الذي كان ينادي بالتعليم الفردي في البيت للمحافظة على تماسك الأسرة. كنتُ أخاف المدرسةَ كما

الزنزانة، ومجرّد فكرة أن أعيش خاضعاً لنظام الجرس تُرعبني، لكنّها أيضاً كانت فرصتي الوحيدة كي أتمتع بحياتي حرّةً منذ الثالثة عشر من عمري، واحتفظ بعلاقة جيّدة مع الأسرة، لكن بعيداً عن نظامها، حماسها الديموغرافي وأيّامها المتقلبة، وأنا أقرأ دون أن آخذ نَفَسَاً ما دام النور يُساعدني.

مأخذي الوحيد على مدرسة سان خوسِهْ، أكثر مدراس الكاريبي تشدّداً وكلفة، هو نظامها العسكري. لكنّ أمّي أوقفتني بحجّة مقنعة: «هناك يُصنع الحكّام». وحين لم يعد هناك إمكانية للتراجع. غسل أبي يديه.

- ليكن معلوماً أنّني لم أقل لا ولم أقل نعم.

هو كان يفضل المدرسة الأمريكية كي أتعلَّم الإنكليزية، لكنّ أمّي استبعدتها بحجةّ أنّها كانت وكراً للوثريين. اليوم عليّ أن أعترف وعلى شرف ذكرى أبي أنّ أحدَ أخطاء حياتي ككاتب، هو أنّني لا أتكلّم الإنكليزية.

أن أعود لأرى بارّانكيّا من فوق جسر سفينة الكابيتان دِ كارو التي سافرنا على متنها قبل ثلاثة أشهر عكّر قلبي، وكأنّني أحسست مسبقاً بأنّني أعود وحيداً إلى الحياة الحقيقية. من حسن الحظّ أنّ أبويّ كانا قد رتّبا موضوعَ إقامي وطعامي عند ابن خالي خوسه ماريّا بالدِبلانكِثْ وزوجته هورتِنسيا، الشابين والطريفين، اللذين جعلاني أُشاطرهما حياتهما الوادعة في قاعة وغرفةِ نوم وفناءٍ صغير مبلط، بقي دائماً في الظل بسبب الثياب المنشورة على الأسلاك كي تجف. كانا ينامان مع طفلهما ابن الستة أشهر في الغرفة، وأنامُ في القاعة على الكنبة التي تتحوّل ليلاً إلى سرير.

كانت مدرسةُ سان خوسِهْ على بعد ستّ كوادرات، في حديقة لوزٍ فيها أقدم مقابر المدينة، حيث ما يزال يُعثر على بعضِ العظام الصغيرة المتناثرة وبقايا ثياب تالفة على سطح البلاط. في اليوم الأوّل لدخولي إلى الفناء الرئيسي أُقيم احتفال للسنةِ الأولى بثياب الآحاد المكونة من بنطلون أبيض وسترة من زرقاء، ولم أستطع أن

أكبح رعبي منٍ أن يعرفوا كلّ ما كنتُ أجهله. لكن سرعان ما انتبهتُ أنّ عودَهم بضّ مثلي عودي أمام قلق المستقبل.

شبحٌ شخصي تمثّل لي في الأخُ بِدرو رِّيّس، مشرف القسم الأساسي، الذي أصرّ على أنّني لم أكن مُهيّئاً للثانوية، وتحوّل إلى كابوسٍ يقطع عليّ الطريق في المكان الذي لا يخطر ببالي، ويمتحنني امتحاناتٍ تلقائيةً تنطوي على مكائدَ شيطانية: «هل تعتقد أنّ الله يستطيع أن يصنع حجراً ثقيلة إلى حدّ أنه لا يستطيع أن يحملها؟»، كان يسألني دون أن يمنحني وقتاً للتفكير. أو هذا الفخ الآخر اللعين: «كم سيزيد وزن الأرض لو أنّنا وضعنا لخط الاستواء زنارٍ من ذهب بسماكة خمسين سنتيمتراً؟» ولم أكن أُوفَّقُ بأيٍّ منها حتى ولو كنتُ أعرف الأجوبة، لأنّ لساني كان ينعقد من الخوف كما في يومي الأوّل مع الهاتف. كان رعباً له أساسه، لأنّ الأخ رّيّس على حقّ. فأنا لم أكن مهيَّئاً للثانوية، لكنّني لا أستطيع أن أتنازل عن حظّي الحسن بأنّهم استقبلوني دون امتحان. كنتُ أرتعد من مجرّد رؤيته. وكان بعض الرفاق يعطون حصاره لي تفسيراً خبيثاً، لكن ما من أسباب تجعلني أفكّر بذلك. ثمّ إنّ ضميري كان يُساعدني، لأنَّني تخطّيتُ امتحاني الشفوي الأوّل دون مسابقة، حين ألقيت مثل ماء دافق شعرَ فراي لويس دِ ليون، ورسمت على اللوح بالطباشير الملوَّنة مسيحاً بدا كأنّه من لحم ودم. وقد بلغ سرور لجنة التحكيم حدّاً نسيتْ معه أن تمتحنني بالرياضيات والتاريخ الوطني.

سُوِّيَت المشكلة مع الأخ رّيّس لأنّه احتاج في أسبوع الآلام إلى من يرسم له بعض الرسومات لدرس النبات، ورسمتُها له دون أن يرفّ لي جفن. لم يتراجع فقط عن محاصرته لي، بل صار يتسلّى في الاستراحات بالإجابات المؤسّسة جيّداً، على الأسئلة التي لم أستطع أن أجيبه عليها، أو أخرى أغرب منها راحت تأتي في الامتحانات اللاحقة من سنتي الأولى، كما لو بمحض المصادفة. ومع ذلك كان، في كلّ مرّةٍ يلقاني فيها ضمنَ مجموعة، يسخر ميتاً من الضحك من أنّني الوحيد في الثالث الأساسي الذي تجري أموره بشكل جيّد في الثانوية. اليوم أنتبِهُ إلى أنّه كان على حقّ. لا سيّما في الإملاء، الذي

شكّل جلجلتي على امتداد دراستي ومازال يخيف مصحّحي كتاباتي الأصلية. وأكثرهم لطفاً يُعَزّون أنفسَهم بالاعتقاد بأنّها عثرات ضاربِ الآلة الكاتبة.

إحدى حالات الراحة وسط تخوّفاتي كان تعيين الرسام والكاتب هِكْتور روخاس هِراثو أستاذَ كرسيّ للرسم. وهو بحدود العشرين من عمره. دخل إلى الصف برفقة الأب المشرف، فدوّت تحيته مثل صفقةِ بابٍ في الحرّ الخانق عند الثالثة مساءً. بدا بجمال فنانِ سينما وأناقته السهلة، يرتدي جاكيتاً من وبر الجمل ضيقة جدّاً، وبأزرار ذهبية، وصدرة خيالية وربطة عنق من الحرير المطبوع. لكن أكثرها غرابة كانت قبّعته التي لها شكل بطيخة، بينما الحرارة تبلغ ثلاثين درجة في الظل. كان طويلاً طولَ العتبة العليا، بحيث عليه أن ينحني حين يرسم على اللوح. كان الأب المشرف يبدو بجانبه وكأنّ الله قد تخلّى عنه.

منذ البداية بدا وكأنّه لا يملك منهجاً ولا صبراً على التعليم، لكن مزاجه الخبيث كان يُبقي علينا في حالة تحفّز، كما كانت تُدهشنا رسومه الماهرة التي يرسمها على اللوح بالطباشير الملوّنة. لم يمكث في الأستاذية أكثر من ثلاثة أشهر، ولم ندرِ قط لماذا، لكن من المحتمل أنّ تعليمه العلماني لم ينسجم مع النظام العقلي لمؤسّسة يسوع.

منذ بداياتي في المدرسة اشتهرتُ بأنّني شاعر، أوّلاً للسهولة التي كنتُ أحفظ بها عن ظهر قلب قصائدَ كتب النصوص الكلاسيكية والرومانسية الأسبانية، وأنشدها بأعلى صوتي، ثم بالأهاجي التي كنتُ أنظمها مقفاةً وأهديها لرفاق الصف في مجلة المدرسة. ما كنتُ لأكتبها أو أعيرها مزيداً من الاهتمام لو تصوّرت أنّها تستحقُّ عظمةَ الحرف المطبوع. فهي في الواقع أهاجٍ لطيفة راحت تدور في قصاصاتٍ ورقية طيّارة في قاعات الدرس المنوّمة في الساعة الثانية بعد الظهر. قبض الأبُ لويس بّوسادا ـ مشرف القسم الثاني ـ على واحدة منها وقرأها جَهْماً مُقَطِّبَ الجبين، وانتهرني بصرامته المعهودة، ومع ذلك خبّأها في جيبه. طلبني الأبُ أرتورو مِخيّا إلى

مكتبه كي يقترح عليّ نشر الأهاجي المصادرة في مجلة الشباب، صوت طلبة المدرسة الرسمي. كان ردّ فعلي التلعثم من المفاجأة والخجل والسعادة، بحيث خرجت برفضٍ غير مناسب إطلاقاً:

- إنّها بعض ترّهاتي.

سجّل الأب مِخيّا ملاحظة حول جوابي، ونشر الأبيات بهذا العنوان: «بعض ترهاتي» - مع توقيع غابيتو، في العدد التالي من المجلة، وبإذن من الضحايا. اضطررت أن أنشر في عددين متتاليين سلسلةً أخرى بناءً على طلب زملائي في الصف. وهكذا فإنّ هذه الأشعار الصبيانية - شئت أم أبيتُ - هي تماماً عملي الأوّل.

كان الهوس بقراءة ما يقع بين يديَّ يشغل وقت فراغي، وكلَّ الدروس تقريباً، وأستطيع أن أنشد قصائدَ كاملة من لائحة الشعر الشعبي التي كانت دارجة في كولومبيا. وأجمل قصائد العصر الذهبي والرومانسية الأسباني، بعضها تعلّمتُها من كتب النصوص المدرسية ذاتها. هذه المعارف غير المناسبة بالنسبة إلى عمري كانت تُزعِج المعلمين، ففي كلّ مرّة يوجّهون فيها إليّ سؤالاً قاتلاً أجيبهم بنصٍّ أدبي أو فكرةٍ من كتابٍ ليسوا في وضع يسمح لهم بتقييمه. قال ذلك الأب مِخيّا: «إنّه طفلٌ متصنّعُ النطق» كيلا يقول غير محتمل. لم أضطر قط لأن أجهد ذاكرتي، فالقصائد وبعض مقطوعات النثر الكلاسيكية الجيّدة كانت تبقى منقوشة في ذاكرتي بعد قراءتين أو ثلاثة. أوّل قلم حبر ملكتُهُ فزتُ به من الأب المُشرف لأنّني أنشدته دون تعثّر السبع وخمسين عشرية(*) من «الدُوار» لغاسبار نونييثْ دِ أَرْثِ(**).

كنتُ أقرأ في قاعة الدرس فاتحاً الكتاب على ركبتيَّ وبوقاحة،

(*) dcima وتعني العشر، وهي في الشعر مقطوعة شعرية يتألّف البيت الواحد منها من ثمانية مقاطع وأربع قوافٍ: الأوّل والرابع والخامس، ثم الثاني والثالث، وأخيراً السادس والسابع والعاشر والثمن والتاسع.

(**) غاسبار نونييثْ دِ أَرْثِ (1834 - 1903) شاعر أسبانيّ عمل نائباً وحاكماً لبرشلوناً وسجن ونُفيَ بسببِ أفكاره الليبرالية. اشتهرت أعماله الشعرية بجزالة الشكل.

ولم تكن حصانتي ممكنة لولا تواطؤ المعلّمين. الشيء الوحيد الذي لم أتمكّن من الحصول عليه بتملّقي المخادِع هو إعفائي من قدّاس السابعة صباحاً اليومي. بالإضافة إلى ترهاتي كنت أقوم بدور المغني الإفرادي في الكورس، أرسم كاريكاتيرات ساخرة، وأنشد قصائد في الجلسات المحترمة، وأشياء أخرى كثيرة كانت في غير أوانها ومكانها، بحيث أنّ أحداً لم يكن يدري في أيّة ساعاتٍ كنتُ أدرس. السبب كان في غاية البساطة: لم أكن أدرس.

لا أفهم حتى الآن لماذا كان معلميَّ يهتمون بي كلّ ذلك الاهتمام، وسط كلّ تلك الحيوية السطحية، دون أن يصرخوا مستنكرين أخطائي الإملائية. على العكس من أمّي التي كانت تُخفي عن أبي بعضَ رسائلي كي تحافظ على حياته، وتعيد إليَّ أخرى مصحّحةً، وأحياناً مع تمنياتها لي بالتوفيق على بعض التقدم الذي أحرزه في القواعد والاستخدام الجيّد للكلمات. لكن مضت سنتان ولم يظهر عليَّ تحسن ملموس. اليوم تبدو مشكلتي هي ذاتها. لم أفهم قط لماذا يُقبل بوجود أحرف خرساء، أو حرفان مختلفان بلفظ واحد(*)، وقواعد أخرى كثيرة باطلة.

هكذا كان أنّني اكتشفت ميلاً سيرافقني طوال حياتي: حب تبادل الحديث مع طلاّب أكبر منّي. حتى اليوم حين أكون في اجتماعات شباب يمكن أن يبدوا كأحفادي، علي أن أجهد نفسي كيلا أشعر بأنّني أصغر منهم. وبذلك صادقت اثنين من زملائي الأكبر مني سنّاً، صارا فيما بعد رفيقيَّ في فترات تاريخية من حياتي. الأوّل هو خوان بِ. فِرناندِثْ، ابن واحد من مؤسسي ومالكي صحيفة «إلْ هِرالدو» في بارّانكيّا، حيث مارستُ أوّل تخبطاتي الصحفية، وحيث تأهّل هو منذ حروفه الأولى وحتى شغله للإدارة العامّة. أمّا الثاني فهو إنريكِهْ سكوبِّل، ابن مصوّرٍ كوبيٍّ أسطوريٍ في المدينة وهو

(*) هذه مشكلة ما زالت تشغل اللغويين والتربويين بخاصّة فأحرف مثل b و v و g حين يأتي بعدها حرف e و i لها لفظ j وكذلك c قبل a و o و u لها لفظ q. كما أنّ حرف h عملياً لا يُلفظ وإذا وُجِد في الترجمة فهو ليس إلاّ للدلالة على وجوده وليس على لفظه.

نفسه كاتب تحقيقات. ومع ذلك فامتناني له لم يكن بسبب عملنا المشترك في الصحافة، بقدر ما كان بسبب بسبب مهنته كدابغ جلود وحشية كان يصدِّرها إلى نصف العالم. أهداني في أحد أسفاري الأولى إلى الخارج جلدَ تمساح أمريكي طوله ثلاثة أمتار.

ـ هذا الجلد يكلّف مبلغاً كبيراً ـ قال لي دون أيّة مأساوية ـ لكنّني أنصحك ألاّ تبيعه ما لم تشعر بأنّك تموت من الجوع.

ما زلتُ أتساءل حتى الآن إلى أيّ حدٍّ كان العالِمُ كيكِ سكوبِّلْ يعرفُ أنّه يمنحيني تميمةً أبديةً. الحقيقة أنّه كان من المفترض أن أكون قد بعته مرّاتٍ كثيرة، خلال مجاعاتي المتكرّرة. ومع ذلك ما زلتُ أحتفظ به مغبراً شبه مهترئ، لأنّني منذ أن حملته في حقيبتي عبر العالم كلّه لم ينقصني سنيتم واحد للطعام.

كان المعلمون اليسوعيون الصارمون في الصف مختلفين في الاستراحات، حيث راحوا يعلموننا ما لا يقولونه في الداخل، ويخففون عن أنفسهم بما وَدّوا أن يعلّموه في الحقيقة. أعتقد أنّني أذكر بما يسمح به عمري إذ ذاك أن هذا الاختلاف كان يظهر عليهم أكثر من اللازم وساعدنا أكثر. كان الأب لويس بوساداٍ كاتشاكو فتياً جداً ذا عقلية تقدمية، عمل لسنواتٍ كثيرة في القطاعات النقابية، وعنده أرشيف بطاقات تغطي كلّ الجوانب الموسوعية المختزلة، وخاصة المؤلفين والكتب. أمّا الأب إغناثيو ثالديبار فكان باسكياً جبلياً، بقيت أتردّد عليه في كارتاخِنا حتى شيخوخته الحسنة في دير سان بِدرو كلابِر. وكان الأب إدواردو نونييث قد قطع مراحل كبيرة في كتابة تاريخ عظيم عن الأدب الكولومبي، لم أعرف عن مصيره شيئاً قط. وبالنسبة إلى الأب العجوزِ مانوِل هيدالغو، معلم الغناء، فكان طاعناً في السن، يترصد الميولَ بنفسه، ويسمح لنفسه بغارات من الموسيقى الوثنية لم تكن بالحسبان.

أجريت مع الأب بيستشاكون، المدير، بعض الدردشات العرضية خرجتُ منها بيقين أنّه كان ينظر إليَّ كراشدٍ، ليس فقط بسبب الموضوعات التي كنّا نطرحها، بل بسبب تفسيراته الجريئة. كنتُ في حياتي حازماً في تفسير مفهوم الفردوس والجحيم، اللذين لم أتمكن

من المواءمة بينهما وبين معلومات أصول الدين، بسبب عوائق جغرافية بسيطة. في مواجهة هذه العقائد أراحني المديرُ بأفكاره الذكية. فالفردوس هو دون مزيد من التعقيدات اللاهوتية حضور الربّ. طبعاً الجحيم هو العكس. لكنّه اعترف لي في مناسبتين بمشكلته بوله «في جميع الأحوال في الجحيم توجد نار»، لكنّه لم يكن يتمكّن من تفسير ذلك. بهذه الدروس في الاستراحات أكثر مما في الدروس الرسمية، أنهيت العام وصدري مُدَرَّع بالميداليات.

بدأتْ أوّلُ عطلة لي في سوكرِ ذاتَ أحدٍ في الرابعة مساءً، في مرفأ مُزيّن بأكاليل الزهر والبالونات الملونة، وساحةٍ صارت سوق فصح. ما إن وطأت اليابسة، حتى تعلّقتْ إلى عنقي فتاةٌ رائعة الجمال، شقراءُ وذات تلقائية ثقيلة وخنقتني بالقبل. إنّها أختي من أبي قبل زواجه: كارمِن روسا، ذهبت لتقضي بعض الوقت مع أسرتها المجهولة. كما وصل في تلك المناسبة ابن آخر لأبي، أبِلاردو، وهو خياط ماهر أقام ورشة في جانب من الساحة الكبرى، وكان معلم حياتي في فترة البلوغ.

ساد البيت الجديد بأثاثه الحديث جوّ احتفالي، وجاء أخ جديد: خايِم، الذي وُلد خديجاً في أيّار في برج الجوزاء، الحسن الطالع. لم أعلمَ به حتى وصولي، إذ يبدو أنّ أبوي صمّما على أن يُخفّفا من الولادات السنوية، لكنّ أمّي سارعت لتوضّح لي بأنه كان مكرّساً لسانتا ريتا، نظراً للازدهار الذي حلّ بالبيت. كانت متجدّدة الشباب سعيدة، صادحةً أكثر من أيّ وقت مضى، وأبي يطفو في جوّ من مزاجه الحسن، عيادته مليئة والصيدلية مليئة بالمواد الطبية المتنوعة، وخاصّة أيّام الآحاد حيث يصل المرضى من الجبال المجاورة. لا أدري ما إذا كان يعلم بأن ذلك التدفق إنّما يعود بالفعل إلى شهرته بأنّه مداوٍ جيّد، رغم أنّ الفلاحين لم يكونوا يعزون ذلك إلى فضائل كريّات سكَّرِهِ ومياهِهِ العجيبة، بل إلى فنون سحره.

كانت سوكرِ أفضل من ذكراها، نظراً لتقاليد انقسام سكانها في أعياد الميلاد إلى حيَّين كبيرين: ثوليا في الجنوب، وكونغوبيو في

الشمال. كان يُقام فيها، بالإضافة إلى تحديات ثانوية أخرى، سباقُ عرباتٍ رمزية يمثّلُ في مباريات فنية المنافسة التاريخية بين الحيَّين. يلتقون أخيراً في ليلة عيد الميلاد في الساحة الرئيسية، وسط مناظرات كبيرة، يقرّر فيها الجمهور أيّ الحيَّين هو الفائز في ذلك العام.

ساهمت كارمِن روسا منذ وصولها في إضفاء رونقٍ جديدٍ على عيد الفصح. كانت حديثة وغندورة، سيطرت على الرقص مع صف من خاطبي ودها الهائجين. أمي الغيورة جدّاً من بناتها، لم تكن كذلك معها، بل على العكس راحت تُسهِّل لها علاقاتها الغرامية التي أضفت مسحةً غير معهودة على البيت. كانت علاقة متواطئتَيْن، لم تعرفها أمّي قط مع بناتها. حلّ أبِلاردو من ناحيته أمور حياته بطريقة أخرى في ورشة، من مكانٍ واحد يقسمه حاجز. كان وضعه جيّداً كخياط، لكن ليس أفضل من قناعته كفحل، فالوقت الذي كان يقضيه مع رفيقته في الفراش خلف الحاجز، أكثر من الذي كان يقضيه وحيداً وضجراً وراء آلة الخياطة.

خطرت لأبي في تلك العطلة فكرة غريبة هي أن يعدَّني للتجارة. «تحسّباً للطوارئ» نبّهني. أولَ شيء علّمني إيّاه هو تحصيل ديون الصيدلية من البيوت. أرسلني في أحد تلك الأيام لتحصيل عدد منها من لا هورا، الماخور الطبيعي في ضواحي البلدة. أطللتُ من باب غرفةٍ نصف مفتوح يؤدّي إلى الشارع، فرأيتُ إحدى نساءِ البيت تنام القيلولة في فراش نفخ، حافية وبلباس داخليّ لا يكاد يغطي فخذيها. استوت في فراشها قبل أن أكلمها، نظرت إليّ ناعسةً، وسألتني عمَّ أريد. قلتُ لها إنّني أحمل رسالة من أبي إلى المالك دون أليخيو مولينا، لكنها وبدل أن توجّهني أمرتني بالدخول، وإنزال مزلاج الباب، وأشارت إلي بسبابتها إشارةً عبّرت بها عن كلّ شيء:

ـ تعالَ إلى هنا.

وذهبتُ إلى هناك. وكلمّا اقتربت كلما راح نفسها المنهك يملأ الغرفة مثل نهر يفيض، إلى أن تمكّنت من الإمساك بذراعي بيدها اليمنى، وزلقت يسراها في فتحة سروالي. شعرت برعب لذيذ.

ـ إذن أنت ابن دكتور الكُرَيَّات ـ قالت لي. بينما راحت تتحسسني داخل البنطلون بخمس أصابع رشيقة شعرت أنّها عشرة. أنزلتْ بنطلوني دون أن تتخلى عن الهمسِ بكلمات دافئة في أذني، ثم خلعتْ ملابسها الداخلية من رأسها، واستلقتْ على ظهرها في الفراش، عاريةً إلاّ من سروال داخلي أزهاره ملونة ـ أنت من سيخلع هذا ـ قالت لي ـ إنّه واجبك كرجل.

أرخيت تكّته، لكنّ العجلة لم تمكّني من خلعه، فاضطُرَّتْ إلى أن مساعدتي في خلعه بساقين ممطوطتين وحركة سابحة سريعة. بعدها رفعتني من إبطيّ في الهواء ووضعتني فوقها على طريقة المبشِّر الأكاديمية. ما تبقى قامت به بنفسها إلى أنّ متُ وحيداً فوقها سابحاً في حساء فخذيها، اللذين كفخذي مهرة.

استرخت بصمت، ووضعية نصف جانبية محدّقة بعينيّ، وأنا دعمتُ نظرتها بأمل أن أعود لأبدأ، دون خوف وعلى مهل الآن. فجأة قالت لي إنّها لن تقبض منّي البيزوين عن خدمتها، لأنّني لم أكن مهيّئاً. ثم استلقت على ظهرها وتفحّصت وجهي.

ـ ثمّ إنّك الأخ العاقِل للويس إنريكِهْ. أليس صحيحاً؟ لك صوته ذاته.

وقعت في سذاجة أن أسألها لماذا تعرفه.

ـ لاتكن أبله ـ ضحكتْ ـ عندي هنا حتى سرواله الداخلي الذي اضطررت لأن أغسله له في المرّة الأخيرة.

بدا لي ذلك مبالغة نظراً لعمر أخي، لكنّها حين أرتني إياه انتبهت إلى أن ذلك صحيحاً. قفزت بعد ذلك عارية من الفراش بملاحة راقصة باليه، ووضّحت لي، بينما راحت ترتدي ملابسها، أنّ دون إليخيو مولينا موجود إلى اليسار في الباب التالي من البيت. أخيراً سألتني:

ـ هذه هي تجربتك الأولى، أليس صحيحاً؟

قفز قلبي.

ـ على الإطلاق ـ كذبت ـ هذه هي السابعة.

ـ في جميع الأحوال ـ قالت بإيماءة ساخرة ـ عليك أن تقول لأخيك أن يُعلّمك قليلاً.

منحني التدشينُ دفعاً حيوياً. كانت العطلة تمتد من كانون الأوّل وحتى شباط، وتساءلتُ كم مرّة عليّ أن أحصل على بيزوين كي أعود إليها. أخي لويس إنريكِهْ الذي كان أصبح خبيراً بالجسد، وينفجر ضاحكاً لأنّ هناك من هو بعمرنا، وعليه أن يدفع بيزوين مقابل شيء يُمارِسه اثنان في آن معاً ويسعدُان به.

ضمن روح لا موخانا الإقطاعية كان يسعد سادة الأرض أن يُدشّنوا عذراوات إقطاعاتهم، ثم يهجرونهنَّ لمصيرهنَّ بعد عدّة ليالٍ من سوء الاستخدام. كان هناك من يمكن أن نختارها من بين من كنَّ يخرجن لاصطيادنا في الساحة، بعد رقصتين. ومع ذلك كنَّ ما يزلن حتى في تلك العطلة يسببن لي الخوف ذاته الذي سبّبه لي الهاتف، وأراهنّ يعبرنَ مثل غمام في الماء. لم أتمتع بلحظة هدوء واحدة بسبب الخراب الذي خلّفته مغامرتي العرضية الأولى في جسدي. حتى الآن لا أعتقد أنّ من المبالغة الاعتقاد بأن تلك التجربة هي سبب حالتي النفسية القاسية التي عدت بها إلى المدرسة، مبهوراً بترّهة فذّة للشاعر البوغوتي دون خوسِهْ مانوِل مارُوكين، الذي كان يخلب لبّ المستمعين منذ المقطع الأوّل:

الآن والنباح يكلب، والصياح يديك،
الآن والخمار يبيض والأصوات العالية تجرسُ،
الآن والنهيق يحِمر والزقزقة تعصفر،
والصفير يصفر والقُباع يخنزر
والفجر الوردي يحقل الامتدادات الذهبية
أُلألِئُ انسكابات سائلة تماماً كما أدمع سكباً
وأبرد من الارتعاد بينما الجمر يروح
آتي لأتنهّد أُطلق، أنفذُ من تحتك.

لم أُدْخِل الفوضى حيث كنتُ أمرّ منشداً مقاطع من القصيدة اللامتناهية وحسب، بل تعلّمتُ أيضاً أن أتكلّم بانسيابية ابن بلد لا أحد يعرف من أين. وكثيراً ما كان يحدث أنّني أجيب على أيّ سؤال، لكن دائماً يأتي جواباً غريباً ومضحكاً تقريباً، إلى حدّ أنّ المعلمين كانوا يتهرّبون مني. يبدو أنّ أحداً قلق على صحتي النفسية حين أعطيته في أحد الامتحانات جواباً صحيحاً، لكن يصعب فكّ رموزه من الوهلة الأولى. لا أتذكّرُ أنّه كان يوجد سوءُ نيّة في تلك المزاحات السهلة التي كانت ما تزال تسلّي الجميع.

لفت انتباهي أنّ الرهبان كانوا يُكلّمونني كما لو أنّهم فقدوا رشدهم فأسايرهم من جانبي. دافعٌ آخر للخوف هو أنّني اخترعت قدوداً(*) ساخرة عن الأناشيد الدينية بكلمات وثنية. من حسن الحظّ أنّ أحداً لم يفهمها. حملني مُسعفي بالاتفاق مع أبويّ إلى طبيب اختصاصي أجرى لي فحصاً مضنياً، لكنّه مضحك جدّاً، لأنّه بالإضافة إلى سرعته الذهنية كان يتمتّع بظرافة شخصية وأسلوب ساحر. جعلني أقرأ بطاقةً، جملُها مقلوبة، عليّ أن أعيدها إلى وضعها الصحيح. وفعلت ذلك بحماس جعل الطبيبَ لا يُقاومُ الحماس للعبي، وخطرت لنا تجارب كأنت من العبقرية بحيث أنّه سجّل ملاحظاته ليضمّها إلى فحوصاته المستقبلية. وبعد استقصاء دقيق لعاداتي، سألني كم مرّة أستمني. وأجبته بأوّل ما خطر ببالي: لم أجرؤ على ذلك قط. لم يصدّقني وعلّق كما لو كان بزلّة لسان بأنّ الخوف عامل سلبي على الصحة الجنسيّة، وبدا لي أنّه بعدم تصديقه هذا إنّما يحثّني على ذلك. بدا لي رجلاً رائعاً أردت أن أراه حين كبرتُ، وبعد أن أصبحت صحفياً في «إلْ هِرالدو»، كي يحكي لي الاستنتاجات التي توصّل إليها من فحوصه الخاصة، لكنّ الشيء الوحيد الذي علمته عنه هو أنّه انتقل إلى الولايات المتحدة قبل سنوات. أحد رفاقه القدماء كان أكثر وضوحاً، إذ قال لي بتأثر كبير إنّه لم يكن ليستغرب أن يكون في مصحّ عقلي في شيكاغو، لأنّه دائماً بدا له أسوأ حالاً من مرضاه.

(*) بمعنى القدّ في الغناء العربي.

جاء التشخيص ليقول إنّني أعاني من إنهاك عصبي زادت القراءةُ بعد تناول الطعام من حدّته. نصحني بالاسترخاء التام لمدة ساعتين خلال عملية الهضم وبنشاطٍ بدني أقوى من الرياضة المقرّرة. ما زالت تُدهشني الجدّية التي أخذ بها أبويّ ومعلّميّ أوامره. نظّموا لي القراءة، ونزعوا مني الكتاب أكثر من مرّة حين كانوا يجدونني أقرأ من تحت المقعد في الصف. أعفوني من المواد الصعبة، وأجبروني على القيامٍ بنشاطات بدنية لعدّة ساعات في اليوم. وهكذا رحتُ ألعب وحيداً في فناء كرة السلّة، أسدِّدُ رميات بلهاء، وأقرأ عن ظهر قلب، بينما البقية في الصف. انقسم زملائي في الصف منذ اللحظة الأولى فمنهم من ظنّ أنّني مجنون منذ البداية، ومنهم من ظن أنّني كنتُ أفتعل الجنون كي أستمتع بالحياة، ومنهم من كانوا يُعاملونني على قاعدة أنّ المجانين هم المعلمون. من هنا جاءت رواية أنّي طُرِدت من المدرسة لأنّني رميت معلّم الرياضيات بالمحبرة، بينما كنتُ أكتب تمارين معادلة من الدرجة الثالثة على اللوح. من حسن الحظّ أنّ أبي فهم الأمر بطريقة بسيطة، وقرّر عودتي إلى البيت دون أن أنهي العام أو أستهلك مزيداً من الوقت والمال، على وعكةٍ، يمكن أن تكون مجرّد مرضٍ في الكبد.

بالمقابل لم يكن هناك بالنسبة إلى أخي أبِلاردو مشكلة في الحياة لا تُحل في الفراش. بينما كانت أخواتي يعاملنني بحنوٍّ، علّمني هو الوصفة السحرية منذ أن رآني أدخل في ورشته:

ـ ما ينقصك أنت هو قضيب جيّد(*).

أخذَ الأمر على محمل الجدِّ، وصار يذهب في كلّ يوم لمدّة نصف ساعة إلى صالة البلياردو الموجودة عند الزاوية، ويتركني خلف حاجز حانوت الخياطة مع صديقات له من كلّ الألوان، ولم يتركني مرّة واحدة مع امرأة واحدة. كانت فترة خروج عن الأعراف خلاّقة. بدا أنّها تؤكّد التشخيص السريري لأبِلاردو، ففي العام التالي عدتُ إلى المدرسة سليمَ العقل.

(60 في النص ساق جيّدة.

لم أنسَ قط الفرحة التي استقبلوني بها في مدرسة سان خوسِه، والإعجاب الذي تلقوا به كُرَيات أبي الدوائية. لم أذهب في تلك المرّة لأعيش عند عائلة بالدِبلانكِثْ، التي ما عاد البيتُ يتسعُ لها بسبب ولادة ابن ثانٍ، بل إلى بيت دون إليثِرْ غارثيّا، شقيق جدّتي لأبي، المشهور بطيبته ونبله. عمل في مصرفٍ حتى سنّ التقاعد، وأكثر ما أثّر بي هو شغفه الأبدي باللغة الإنكليزية. درسها على امتداد حياته في الفجر، وفي الليل حتى ساعة متأخرة جدّاً، كتمارين مغناة بصوت ممتازٍ ونبرة حسنة، بما سمح له عمره بذلك. كان يذهب في أيّام العطل إلى الميناء ليصطاد سيّاحاً يتكلّمُ معهم، وقد انتهى به الأمر بإتقانها تماماً كما أتقن القشتالية دائماً، لكنّ خجله منعه من التحدّث بها مع أحد معروف. لم يتمكّن أبناؤه الذكور الثلاثة، وجميعهم أكبر منّي سنّاً، وابنته فالنتينا من سماعه يتكلّمها قط.

اكتشفتُ بفضل فالِنتينا ـ التي كانت صديقة كبيرة لي وقارئة ملهمة ـ وجودَ حركة «رمل وسماء»، التي شكّلتها مجموعة من الشعراء الشباب، وضعوا نصب أعينهم تجديد شعر ساحل الكاريبي باتباع مثل بابلو نيرودا الجيد. في الواقع جاؤوا ردّاً محلياً على مجموعة «حجر وسماء» التي سادت في تلك السنوات في مقاهي شعراء بوغوتا والملاحق الأدبية، التي كان يديرها إدواردو كارَّانثا، ويرعاها الشاعر الأسباني خوان رامون خيمِنِثْ، بتصميم سليم على كنس أوراق القرن التاسع عشر الميتة. لم يكونوا أكثر من ستة شعراء ما يكادون يغادرون المراهقة، لكنّهم اقتحموا بقوّة ملحقات الساحل الأدبية، حيث راحوا ينظرون إليهم كوعد فني عظيم.

كان زعيم «رمل وسماء» يُدعى ثِسَرْ أوْغوستو دِلْ بايِّه، وعمره اثنتان وعشرون عاماً تقريباً، نقل اندفاعه المجدّد ليس للموضوعات والمشاعر وحسب، بل إلى إملاءِ وقواعدِ قصائدِهم. بدا لدعاة الإصطفاء اللغوي مرتدّاً، وللأكاديميين أحمقَ، وللكلاسيكيين مجنوناً. ومع ذلك فالحقيقة أنّه كان، رغم تحزبيّته المُعدية ـ مثل نيرودا ـ رومانسياً ضالاً.

أخذتني ابنة عمّي فالنتينا ذات يومِ أحد إلى البيت الذي كان

يعيش فيه ثِسَرْ مع والديه، في حي سان روكِ، أكثر أحياء المدينة بهجةً. كان قوي العظم، رِبْعاً ونحيلاً، له أسنان أرنب كبيرة وشعر أشعث كشعراء زمنه. وكان على الأخصّ محبّاً للعربدة، مفتوح أزرار السروال(*). كان بيته، وهو من بيوت الطبقة الوسطى الفقيرة، مغطى بالكتب ولا يتسع لكتاب واحد آخر. كان والده رجلاً جدّياً وأقرب للحزن، تبدو عليه سمات الموظّف المتقاعد، مغموماً من ميول ابنه العقيمة. استقبلتني أمّه بشيءٍ من الحسرة، كابن آخر مصاب بالمرض ذاته الذي طالما أبكاها.

شكّل ذلك البيت بالنسبة إليّ كشفاً لعالم ربّما حدستُ به وأنا في الرابعة عشرة من عمري، لكنني لم أتصوّر قُط إلى أيّ مدى. منذ ذلك اليوم الأوّل تحوّلت إلى زائره الأكثر تردّداً، وأخذت الكثير من وقت الشاعر، الذي لا أدري حتى اليوم كيف استطاعَ أن يتحمّلني. وقد وصل بي الأمر حدَّ أنّني فكّرت أنّه يستخدمني لتطبيق نظرياته الأدبية، التي ربّما كانت اعتباطية لكنّها مبهرة، كمحاوِر مندهش لكنّه مُسالم. كان يعيرني كتبَ شعراء لم أسمع بأسمائهم قط، وأناقشها معه دون أدنى حدٍّ من الوعيّ بجرأتي، خاصة نيرودا، الذي حفظت له «القصيدة العشرون» عن ظهر قلب كي أُغيظ أحد اليسوعيين الذين لا يستسيغون مجاهيل ذلك الشعر. اضطرب الجو الثقافي في المدينة في تلك الأيّام بسبب قصيدة لميرا دلمار، تناولتها كل وسائل إعلام الساحل، حتى كارتاخِنا دِ لا إندياس. وقد بلغت الكفاءة في الأداء والصوت اللذين قرأها لي بهما ثِسَر دِل بايّه حدّاً جعلني أحفظها عن ظهر قلب من القراءة الثانية.

هناك مرّات أخرى كثيرة لم نستطع أن نتكلّم فيها، لأنّ ثِسَر كان يكتب على طريقته. يمشي في الغرف والممرات كما لو أنّه في عالم آخر، ويمرّ أمامي كلّ دقيقتين أو ثلاث دقائق وكأنّه مسرنم، ثمَّ يجلس فجأة إلى الآلة الكاتبة، يكتب بيتاً، كلمةً وربّما فاصلة منقوطة، ثمّ يعود ويمشي. كنتُ أراقبه مسحوراً بانفعال سماوي

(*) كناية عن استهتاره فيما يتعلّق بالنساء.

لكوني أكتشف الطريقة الوحيدة والسرية لكتابة الشعر. هكذا كان أن علّموني دائماً خلال سنوات دراستي في مدرسة سان خوسِهْ القاعدة البيانية لإطلاق جنياتي. أخر خبر وصلني بعد عامين في بوغوتا عن ذلك الشاعر الذي لا يُنسى، كان برقية من فالِنتينا مؤلّفة من كلمتين وحيدتين لم تملك قلباً لأن توقعها: «مات ثِسَر».

كان أوّل شعور انتابني في بارّانكيّا بغياب أبوي، هو وعيُ المشيئة الحرّة. كان لي أصدقاء حافظتُ عليهم بعيداً عن المدرسة. بينهم ألبارو دِل تورو - الذي كان صدى لصوتي في خطبي الحماسية في الاستراحات - مع قبيلة آل أرتِتا، الذين عادة ما كنتُ أهرب معهم إلى المكتبات والسينما. فالحدّ الوحيد الذي وضعوه لي في بيت الخال إليْثر ليصونوا مسؤوليتهم بالحفاظ علي، هو ألاّ أصل بعد الثامنة ليلاً.

وذات يوم بينما كنتُ أنتظر ثِسَر دِل بايّه، وأنا أقرأ في قاعة بيته، جاءت امرأة مدهِشة تبحث عنه. كانت تُدعى مارتينا فونْسِكا، وهي بيضاء مصبوبة في قالبِ خلاسية، ذكية ومستقلة، يمكن تماماً أن تكون عشيقة الشاعر. عشت لساعتين أو ثلاث ساعات تمامَ متعةِ الحديثِ معها، إلى أن عاد ثِسَر إلى البيت وذهبا معاً دون أن يقولا إلى أين. لم أسمع عنها شيئاً حتى أربعاءِ رمادِ ذلك العام حين خرجتْ من القداس الكبير، ووجدتها تنتظرني على مقعد في الحديقة. ظننتها طيفاً. كانت ترتدي دثاراً من الكتان المطرز يُطَهِّر جمالها، وطوق جواهر وزهرة نار حيّة في تقويرة عنقها. ومع ذلك فإنّ أكثر ما أقدّره من ذكراي عنها هي الطريقة التي دعتني بها إلى بيتها، دون أدنى إشارة إلى التفكير المسبق، ودون أن نأخذ بالاعتبار العلامة المقدسة لصليب الرماد المرسوم على جبيننا. زوجها الذي كان يعمل مرشداً في باخرة في نهر مَغْدَلِنا، كان في رحلة عمل لاثني عشر يوماً. ما الغريب في أن تدعوني زوجته ذات سبت بالمصادفة لتناول فنجانٍ من الشوكولاته مع حلوى الجبن؟ ليس غير أنه في بقية العام كلّه، وبينما الزوج يمضي في باخرته، تكرّرَ الطقس دائماً بين الرابعة والسابعة، وقتِ برنامجِ الشباب في

السينما رِكس، الذي كنتُ أتذرَّعُ به في بيت الخال إلِيْثِر كي أكون معها.

كان اختصاصها المهني التجهيز لترفيع معلّمي المرحلة الابتدائية؛ تستقبلُ المتميّزين منهم في ساعات فراغها بالشوكولاته وحلوى الجبن، ولذلك لم يلفت انتباهَ الجيران الصاخبين تلميذٌ أيام السبت الجديد. كان مدهشاً انسيابُ ذلك الحب السرّي الذي اشتعل بنيران مجنونة من آذار وحتى تشرين الثاني. اعتقدتُ بعد السبتين الأوّلين أنّني لن أستطيع تحمّل رغباتي الجامحة بالبقاء معها في كلّ ساعة.

كنّا في مأمن من كلّ خطر، لأنّ زوجها كان يُعلن عن وصوله إلى المدينة بإشارةٍ تعرف من خلالها أنّه يدخل الميناء. هكذا حدث أنّ سُمِعَ الجؤار البعيد في السبت الثالث من غرامنا، بينما نحن في الفراش. تخشّبتُ.

- اهدأ - قالت لي وانتظرت جؤارين آخريين. لم تقفز من السرير، كما توقّعت بسبب خوفي، بل تابعت رابطةَ الجأش - ما زال أمامنا ثلاث ساعات من الحياة.

وصفته لي بأنّه «زنجيّ، طوله متران وفتر وله سبطانة مدفع(*)». أوشكتُ أن أكسر قواعد اللعبة من وخز الغيرة، وليس بأية طريقة: أردت أن أقتله. نضجها هو الذي حلَّ المشكلةَ، وقادتني منذ ذلك الوقت عبر أخطار الحياة الواقعية مثل ذئب صغير في جلد خروف.

كان وضعي في المدرسة سيئ جدّاً، ولم أبغِ أن أعرف شيئاً عن ذلك، لكنّ مارتينا أخذت على عاتقها جلجلتي المدرسية. فاجأتها صبينتي في إهمال الدروس إرضاءً لشيطانِ ميلٍ لا يقاوم لحبِّ الحياة. «شيء منطقيّ - قلت لها - لو كان هذا السرير هو المدرسة، وكنتِ أنت المعلّمة، ما كنت لأصبح الأوّل في الصف وحسب، بل في المدرسة كلّها.» أخذت ذلك على أنّه مثل صائب.

(*) كناية عن القضيب.

ـ صحيح، هذا الذي سنقوم به ـ قالت لي.

شرعتْ، دون تضحيات كبيرة، بمهمة إعادة تأهيلي وفق برنامج ثابت. كانت تحلّ لي الواجبات وتحضّر لي دروس الأسبوع التالي بين تقلبات الفراش وتوبيخات الأم. وحين لا تكون الواجبات جيدة وتأتي في وقتها المناسب كانت تعاقبني بحرماني من يوم سبتٍ عن كلّ ثلاثة أخطاء. لم أتجاوز قط الخطأين. راح التبدُّلُ يظهر عليَّ في المدرسة.

ومع ذلك فما علَّمتني إيّاه في الممارسة كان صيغة صحيحة، من المؤسف أنها لم تفدني إلاّ في المرحلة الثالثة من الثانوية: إذا ما أوليتُ الدروس انتباهي في الصف وقمتُ بواجباتي بنفسي بدل أن أنسخها عن زملائي، سأستطيع أن أحصل على درجة جيدة، وأن أقرأ كما يحلو لي في ساعات فراغي، وأن أتابع حياتي الخاصة دون سهرٍ منهك، أو خوفٍ بلا طائل. وبفضل هذه الوصفة السحرية صرتُ الأوّل على دفعتي في ذلك العام: 1942، وحصلتُ على ميدالية تفوّق وألقاب فخرية من كل نوع. لكن الامتنان السرّي حصده الأطباء على حسن مداواتهم لي من الجنون. في الاحتفال انتبهتُ إلى أنَّ العاطفة التي عبّرت بها في السنوات السابقة عن شكري لجداراتٍ لم استحقها، كانت تنطوي على جرعة كلبية سيئة. في السنة الأخيرة، وحين صرت أستحقّها بدا لي أنّ من اللائق ألا أشكرها. لكنّني رددتُ من كلّ قلبي بقصيدة «السيرك» لغيِّرمو بالِنثيا، التي أنشدتها كاملةً في ختام الاحتفال، دون مُلَقِّن، وأنا أكثر خوفاً من مسيحي أمام الأسود.

كنتُ قد أعددتُ في عطلة ذلك العام الخيِّر لزيارةِ الجدّة ترانكيلينا في أراكاتاكا، لكنّها اضطرت أن تذهب مستعجلة إلى بارّانكيّا كي تجري عملية سادّ. واكتملت فرحتي برؤيتها من جديد مع فرحتي بقاموس الجدّ الذي حمله إلي كهدية. لم تعِ قط أنّها تفقد بصرها، أو أنّها لم تبغِ الاعتراف بذلك، إلى أن لم يعد باستطاعتها أن تتحرّك من غرفتها. أُجريت العمليةُ في مشفى كاريداد بسرعة وبتوقعات متفائلة. حين رفعوا عنها الضماد وهي جالسة في

سريرها فتحت عيني شبابها الجديد المشعتين، استضاء وجهها ولخّصت فرحتها بكلمة واحدة:

- أرى.

أراد الجرّاح أن يعرف بدقّة ما الذي تراه أكثر من غيره، فَمَسَحت الغرفة بنظرتها الجديدة، وعدّدت الأشياء واحداً واحداً بدقّة مذهلة. انقطع نفس الطبيب، وحدي من كان يعرف أنّ الأشياء التي تُعدّدها الجدّة لم تكن الأشياء الموجودة أمامها في غرفة المشفى، بل في غرفة نومها في أراكاتاكا، التي كانت تتذكّرها عن ظهر قلب وبالترتيب. لم تستعد بصرها قط.

أصرّ أبواي على أن أقضي العطلة معهم في سوكرِ وأن آخذ الجدّة معي. كانت أكثر شيخوخة مما يوجبه عمرها، وكان عقلها في مهب الريح، راقَ جمالُ صوتها، وصارت تغنّي أكثر وبإلهام أكبر من أيّ وقت مضى. حرصت أمّي على أن تحافظ عليها نظيفة وحسنة الهندام، مثل دمية ضخمة. كان واضحاً أنّها تعي العالم، لكنّها تعزوه للماضي. خاصّة برامج الإذاعة التي كانت توقظ عندها اهتماماً طفولياً. كانت تُميِّز أصوات مختلف المذيعين، وتحدّد قائلةً إنّهم أصدقاء شبابها في ريوهاتشا، لأنّه لم يدخل مذياع بيتها في أراكاتاكا قط. كانت تناقض أو تنقد بعض تعليقات المذيعين، وتناقش معهم أكثر الموضوعات تنوّعاً، أو تؤنّبهم على أيّ خطأٍ نحوي، كما لو أنّهم من لحم ودم بجانب سريرها، وترفض أن يُبدّلوا لها ملابسها ما لم يودّعوها. وعندئذ تردّ عليهم بتهذيب تام:

- طابت ليلتك، يا سيّد.

ألغاز الكثير من الأشياء الضائعة والأسرار الدفينة أو المسائل الممنوعة توضّحت في مونولوجاتها: من الذي أخذ مضخة الماء مخبَّأةً في صندوق، واختفت من دار أراكاتاكا، من كان الأب الحقيقيّ لِماتيلدِ سالمونا المسكين، الذي خلطَ أخوته بينه وبين آخر فجندلوه بالرصاص.

كما لم تكن عطلتي الأولى في سوكرِ دون مارتينا فونْسِكا سهلة، لكن ليس هناك أدنى إمكانية كي تذهب معي. مجرّد فكرة أنّني لن أراها خلال شهرين بدا لي أمراً غير واقعي. لكن لم يبدُ لها كذلك. على العكس، فحين تطرّقتُ للموضوع معها، لاحظتُ أنّها سبقتني بثلاث خطوات.

ـ هذا ما كنتُ أريد أن أحدّثك به ـ قالت لي دون غموض ـ الأفضل لنا نحن الاثنين أن تذهب الآن لتدرس في مكان آخر، ونحن مجنونين بحاجة إلى حَجرْ. وهكذا ستنتبه إلى أن ما بيننا لن يكون أبداً أكثر مما كان.

اعتبرتُ كلامها سخرية.

ـ سأذهب غداً بالذات، وسأعود خلال ثلاثة أشهر كي أبقى معك.

ردّت عليّ بموسيقى تانغو:

ـ ها، ها، ها،ها!

عندئذٍ اكتشفتُ أنه كان من السهل إقناع مارتينا حين تقول نعم، لكن ليس حين تقول لا. وهكذا أمسكتُ القفاز المبلل بالدموع، وقرّرتُ أن أصبح شخصاً آخر في الحياة التي فكّرت بها لنفسي: مدينة أخرى، مدرسة أخرى، أصدقاء آخرين، بل وحتى طريقة أخرى بالحياة. ما كدتُ أفكّر بذلك، حتى كان الشيء الوحيد الذي قلته لوالدي ببعض الوقار، مستنداً إلى سلطة ميدالياتي الكثيرة، هو أنّني لن أعودَ إلى مدرسة سان خوسِهْ، ولا إلى بارّانكيّا.

ـ مبارك الرب! ـ قال هو ـ دائماً كنتُ أتساءل من أين جئتَ بالرومانسية للدراسة عند اليسوعيين.

لم تتوقّف أمّي عند التعليق.

ـ إذا لم يذهب إلى هناك فسيذهب إلى بوغوتا ـ قالت.

ـ إذن لن يذهب إلى أيّ مكان ـ ردَّ أبي على الفور ـ، لأنّه لا يوجد من النقود ما يغطي حاجة الكاتشاكو هناك.

شيء غريب، لكن مجرّد فكرة عدم متابعة الدراسة، التي كانت

حلم حياتي، بدت لي وقتذاك غير حقيقية. إلى حدّ أنّني لجأت إلى حلم لم يبدُ لي قط ممكناً.

ـ هناك منح ـ قلت.

ـ وكثيرة جدّاً ـ قال أبي ـ لكنّها للأثرياء.

كان هذا صحيح إلى حدٍّ ما، ليس بسبب المحسوبية، بل بسبب أنّ الإجراءات كانت صعبة والشروط منشورة بشكل سيّئ. ونتيجة للمركزية كان على كلّ من يطمح إلى منحة أن يذهب إلى بوغوتا، وكان قطع ألف كيلومتر في ثمانية أيام يّكلّف ما يغطي ثلاثة أشهر في مدرسة داخلية جيّدة. لكن حتى هذا يمكن أن يكون مستحيلاً. اغتاظت أمّي:

ـ حين يرفع المرء الغطاء عن آلة المال يعرف كيف يبدأ، لكنّه لا يعرف كيف ينتهي.

ثمّ إنّه كان هناك واجبات أخرى متراكمة. لويس إنريكِهْ الذي كان أصغر منّي بسنة سجّل في مدرستين محلّيّتين وفرَّ منهما خلال أشهر قليلة. وكانت مرغَريتا وعايدة تدرسان جيّداً في مدرسة الراهبات الابتدائية، لكنّهما بدأتا تفكّران بمدينة أقرب وأقل كلفة للثانوية. لم يكن غوستابو وليخيا وريتا وخايِمه مستعجلين بعد، لكنّهم يكبرون بإيقاع مهدِّد. وكانوا، سواء هم أو الثلاثة الذين ولدوا فيما بعد، يُعاملونني كما يعاملون شخصاً يصل دائماً كي يذهب.

كان عاماً حاسماً بالنسبة إليَّ. أكبر جاذبيّة بالنسبة إلي، في كلّ عربة من العربات المنافِسة هنّ الفتيات المختارات لملاحتهنّ وجمالهنّ واللواتي يرتدين ثياب ملكات، ويُنشدن أشعاراً تلمح إلى الحرب الرمزية بين نصفي البلدة. أنا، الذي كنتُ ما أزال شبه غريب، رحتُ أستمتع بميّزة أنّني محايد وهكذا تصرَّفتُ. ومع ذلك أذعنت، في ذلك العام، لتوسلات زعماء (حيّ) كونغوبيو لأكتب أشعاراً لأختي كارمِن روسا، التي ستصبح ملكةَ إحدى العربات. لبيتُ رغبتهم بكل سرور، لكنّني تجاوزتُ الحدَّ في هجومي على الخصم نظراً لجهلي بقواعد اللعبة. لم يبق أمامي من مجالٍ آخر غير أن أصلح الفضيحة

بقصيدَتَي مصالحة: واحدة تعويضية لجميلة كونغوبيو، وأخرى لمصالحة الجميلة ثوليا. انتشر خبر الحادث. الشاعر المجهول، الذي لا يكاد يعرفه السكان، صار بطل المرحلة. قدّمني الحادثُ إلى المجتمع واستحققت صداقةَ الطرفين. ومنذ ذلك الوقت لم يكفني الوقت للمشاركة في، وجبات الأطفال، والأسواق الخيريّة واليانصيب الخيري، بل وحتى في خطاب المرشح للمجلس البلدي.

لويس إنريكِهْ، الذي كانت تبرز صورته كعازف قيثار ملهم، وهو ما أدركه فيما بعد، علّمني عزف التيبلي. أصبحنا أنا وهو وفيلادِلفو بِليليا ملوك السهرات بأمل أن نحصد الجائزة الكبرى بأن ترتدي بعض المكرّمات ملابسهنَّ بسرعة الطير، ويفتحن البيتَ، ويوقظن الجارات لنتابع الحفلة حتى موعد الفطور. في ذلك العام أثرت الفرقةُ بانضمام خوسِهْ بّالِنثيا، حفيد أحد الإقطاعيين الميسورين والمسرفين إليها. كان خوسِهْ موسيقياً فطرياً قادراً على أن يعزف على أيّة آلة تقع بين يديه؛ له هيئة فنان سينمائي، وكان نجماً في الراقص، ذا ذكاء مبهر وحظّ يُحسد عليه أكثر مما يمكن أن يُحسد على غرامياتاته العابرة.

بالمقابل لم أكن أُجيدُ الرقص، ولم أستطع تعلّمه، ولا حتى في بيت الآنسات لوازو، الأخوات الست المعوقات بالولادة، ومع ذلك يعطين دروساً بالرقص الجيّد، دون أن ينهضن عن كراسيهنّ الهزّازة. أبي الذي لم يكن قط غير حساس أمام الشهرة، اقترب منّي برؤية جديدة. كرّسنا لأوّل مرّة ساعاتٍ طويلة لتبادل الحديث. كنا لا نكاد نعرف بعضنا. في الحقيقة وأنا أنظر اليومَ إلى ذلك، لم أعش مع أبويَّ أكثر مما مجموعه ثلاث سنوات، بما فيها سنوات أراكاتاكا وبارّانكيّا وكارتاخِنا وسينثِ وسوكرِ. كانت تجربة لطيفة جدّاً سمحت لي بمعرفتهما بشكل أفضل. أمي قالت لي هذا: «ما أروع أن تصبح صديقاً لأبيك». بعد أيّامٍ وبينما كانت تُحضِّر القهوة في المطبخ قالت لي أكثر من ذلك:

- أبوك فخور جداً بك.

أيقظتني في اليوم التالي على رؤوس أصابعها، وهمست في

أذني: «أبوك أعدّ لك مفاجأة». وبالفعل زفّ لي، حين نزل لتناول الفطور، الخبرَ بحضور الجميع وبنبرة وقورة:

ـ حضِّر أمتعتك لأنّك ستذهب إلى بوغوتا.

الصدمة الأولى كانت خيبة كبيرة، فما كنت أودّه إذ ذاك هو أن أبقى غارقاً في اللهو الأبدي. لكنَّ البراءة تغلبت. لم يكن هناك من مشكلة بالنسبة لثياب البلاد الباردة، فأبي كان عنده ثوب من الصوف الاسكتلندي وآخر من المخمل، وما من واحد ينغلق على خصره. وهكذا ذهبنا إلى بِدرو ليون روسالِسْ، المدعو خيّاط المعجزات، وفصّلهما على قياسي. كما اشترت لي أمّي معطفاً من جلد الجمل كان لسيناتور ميت. وبينما كنتُ أقيسه في البيت حذّرتني أختي ليخيا ـ صاحبة الرؤيا بطبيعتها ـ سرّاً بأنّ شبح السيناتور كان يتنزّه ليلاً في بيته مرتدياً المعطف. لم أعرها انتباهاً، لكن لو فعلت لأفادني، لأنّني حين ارتديته في بوغوتا رأيت نفسي في المرآة بوجه السيناتور الميت. رهنته بعشرة بيزوات في مونتِ دِ بيبداد وتركته يضيع.

كان الجوّ الأسرويّ قد تحسّن إلى حدّ أنّني أوشكتُ على البكاء عند الوداع، لكنّ البرنامج نفِّذ حرفياً، دون عواطف. في الأسبوع الثاني من كانون الأوّل أبحرت من ماغانغِهْ على متن دافيد أرانغو، سفينة القيادة في شركة نابيرا كولومبيانا، بعد أن عشت ليلةً كرجل حرّ. رفيقي في القمرة كان ملاكاً يزن مئتين وعشرين رطلاً، أمردَ الجسد تماماً؛ له الاسم المُغْتَصَب من «جاك السفاح»، وكان آخر الأحياء من قبيلة ضاربي سكاكين السيرك في آسيا الصغرى. بدا لي للوهلة الأولى قادراً على أن يخنقني وأنا نائم، لكنّني انتبهت في الأيام التالية إلى أنّه كان ما يبدوه فقط: طفل عملاق بقلب لا يتسع له جسده.

أُقيمت في الليلة الأولى حفلةٌ رسميّةٌ شاركت فيها أوركسترا مع عشاء فاخر، لكنّني هربتُ إلى السطح وتأمّلتُ لآخر مرّة أضواءَ العالم الذي كنتُ أستعدّ لنسيانه، دون ألم ولا دموع على هواي حتى الفجر. وأجروُ اليومَ على القول بأن الشيء الوحيد الذي أود لو أعودَ

لأجله طفلاً هو التمتع مرّة أخرى بتلك الرحلة. فقد اضطررتُ لأن أقوم بها ذهاباً وإياباً عدّة مراتٍ خلال السنوات الأربع التي كانت قد تبقّت لي من الثانوية، وسنتين أخريين من الجامعة، وتعلّمت في كلّ مرّة من الحياة أكثر مما من المدرسة. بل وأفضل مما من المدرسة. في الفترات التي كان فيها منسوبُ المياه كافياً تستغرق الرحلة صعوداً خمسة أيّام من بارّاكيليا إلى بورتو سالغار، حيث كانت المسافة تُقطَع إلى بوغوتا بيوم واحد في القطار. أمّا في أيّامِ الجفاف، وهي أكثرها تسلية للإبحار إذا لم يكن المرء مستعجلاً، فيمكن أن تدوم ثلاثة أسابيع.

كانت أسماء البواخر سهلة ومباشرة: أتلانتيكو، مِدلينّ، كابيتان دِ كارو، دافيد أرانغو. كان قباطنتها كما هو حال قباطنة كونراد(*) متسلطين وحسني الجبلة، يأكلون كالوحوش ولا يعرفون النوم وحدهم في قمراتهم قمرات الملوك. كانت الرحلات بطيئة ومدهشة؛ ونجلس نحن الركاب في الشرفات طوال اليوم كي نشاهد القرى المنسية، التماسيحَ الأمريكية المتمدّدة، مفتوحة الفكوك بانتظارِ الفراشات الغافلة، وأسراب البلشونات التي تُقلِعُ مذعورة من أثر مخور الباخرة، أسراب بطِّ المستنقعات الداخلية، الزالاخات(**) التي كانت تصدحُ وهي ترضع صغارها على الشواطئ الفسيحة. وكان المرء يستيقظ فجراً على امتداد الرحلة مذعوراً من صخب القردة طويلة الذنب والببغاوات. وكثيراً ما كان يقطع القيلولة نتنُ يثير الغثيان من بقرة غارقة، راكدة بلا حراك على خط الماء بينما يقف زمّاح ملكي(***) وحيداً على بطنها.

من الغريب الآن أن يعرف أحد شخصاً آخر في الطائرات. كنا

(*) إشارة إلى أبطال روايات جوزيف كونراد الروائي البريطاني (1857 - 1924).

(**) وتُعرّف أيضاً باسم عروس البحر وهي حيوان مائي ثديي يُشبه الفقمة، ولا يتنفّس في الماء، من الفصيلة الأطومية ورتبة الخيلان، تشبه السمك في شكلها الظاهر وتتغذّى على الأعشاب البحرية، لها يدان قصيرتان على شكل زعانف وذلك مشقوق، للأنثى ثديان في صدرها، توجد في أنهار أمريكا وأفريقيا. يبلغ طول بعضها خمسة أمتار.

(***) وهو نوع من البغاث، يعيش على الجيف النافقة.

ننتهي نحن الطلاب في البواخر النهرية بأن نبدو أسرةٍ واحدة، ونتفق كلَّ سنةٍ على اللقاء في الرحلة. وكانت الباخرة تُحاصر أحياناً حتى خمسة عشر يوماً في حيدٍ رملي، دون أن يقلق أحد. فالحفلة تستمر ورسالة من القبطان مختومة بخاتمه تفيدنا كذريعة للوصول متأخرين إلى المدرسة.

منذ اليوم الأول لفت انتباهي أفتى أفراد مجموعة عائلية كان يعزف على الباندونيون(*) كما لو أنّه في حلم، يتنزه أياماً بكاملها على سطح الدرجة الأولى. لم أستطع تحمّلَ الغيرة، فمنذ أن سمعت الأكورديونات الأولى لفرانسيسكو إل هومبرِ في احتفالات العشرين من تموز في أراكاتاكا ألححت على جدّي كي يشتري لي أكورديوناً، لكنّ جدّتي حشرت نفسها بيننا بسخرياتها الدائمة، بأنّ الأكورديون آلة تافهة. بعد ثلاثين عاماً اعتقدت أنّني عرفت في باريس عازف أكورديون الباخرة الأنيق في مؤتمر دوليٍّ لأطباء الأعصاب. كان الزمن قد فعل به فعله: ربّى لحية بوهيمية وثيابه كبرت بمقدار قامتين، لكن ذكرى مهارته بقيت حيّة بحيث لم يكن من الممكن لي أن أخطئ به. ومع ذلك فردّ فعله لم يكن من الممكن أن يكون أكثر فظاظة، حين سألته دون أن أقدِّم نفسي:

- كيف حال الباندونيون؟

أجابني مفاجَأً:

- لا أدري عمَّ تكلّمني.

شعرت وكأنّ الأرض تبتلعني، وقدّمت له اعتذاراتي المتواضعة لأنّني خلطت بينه وبين طالب كان يعزف الباندونيون في دافيد أرانغو، في أوائل كانون الأوّل من عام 1944. وعندئذٍ أنعشته الذكرى. كان ذلك هو الكولومبي سلمون حكيم، أحد كبار أطباء الأعصاب في هذا العالم. الخيبة كانت في أنّه بدّل الباندونيون بالهندسة الطبية.

(*) آلة موسيقية تُشبِه الأكورديون.

راكب آخر لفت انتباهي لنفورِه، كان شاباً صحيح البنية، وبشرته ضاربة للحمرة، يضع نظارة لقصر النظر وله صلعة مبكرة اعتنى بها جيّداً. بدا لي صورة تامّة للسائح الكاتشاكو. فقد استأثر منذ اليوم الأوّل بأكثر الكراسي ذات المساند راحة، ووضع عدّة أبراج من الكتب على طاولة صغيرة، وقرأ دون توقّف منذ الصباح، حتى أخرجته من استغراقه سهرات الليل اللاهية. كان يظهر في كلّ يوم بقميصٍ بحرٍ مختلفٍ ومزهر، ويتناول فطوره وغداءه وعشاءه، ويتابعِ القراءة وحيداً على أكثر الطاولات عزلة. لا أظنّه بادل أحداً التحيةَ. وقد عمّدته باسم «القارئ النهم».

لم أقاوم أغواءَ تشمّمِ كتبه. كانت في معظمها رسائلِ عسيرة الهضم عن القانون العامِ، التي كان يقرؤها نهاراً ويُعلّم تحتها ويُسجل ملاحظاتٍ هامشيةً. مع برودة المساء يقرأ الروايات. كان بينها واحدة أذهلتني: «القرين» لدوستوفسكي، التي حاولت أن أسرقها من مكتبةٍ في بارّانكيّا ولم أستطع. كنت مسعوراً لقراءتها حتى أنّني وددتُ لو أستعيرها منه، لكنّني لم أجرؤ. وظهر في أحد تلك الأيّام ومعه «مولان الكبير»، التي لم أكن قد سمعت بها، لكنَّني سرعان ما اعتبرتها من الأعمال العظيمة المفضلة بالنسبة إليَّ. بينما لم أكنْ أحملُ معي غير كتبٍ سبق أن قرأتُها، ولا يمكن تكرار قراءتها: «خِرومين» للأب كولوما التي لم أنهِ قراءتها قط؛ «الدوامة» لخوسِهْ أوستاسيو ريبِرا؛ «من جبال أبّنينوس إلى جبال الأندِين» لإدموندو دِ أميسيس، وقاموس الجد الذي كنت أقرؤه بشكل متقطع طوال ساعات. على العكسِ من القارئ الذي لا يلين لم يكن يكفيه الوقت لكل ذلك. ما أريد قوله، ولم أقله، هو أنّني وددت أن أعطي أيّ شيء مقابل أن أكون هو.

المسافر الثالث كان بالطبع جاك السفاح، رفيقي في الغرفة، الذي كان يتكلّم بلغة وحشية ساعاتٍ بكاملها في نومه. وكان لكلامه وقع موسيقيّ يمنح قراءاتي في الفجر خلفية جديدة. قال لي إنّه لم يكن واعياً لذلك، ولا يعرف ما تلك اللغة تلك التي يحلم بها، لأنّه تفاهم في طفولته مع بَهلوانات السيرك بلهجاتهم الآسيوية الستة،

لكنّه نسيها كلّها حين توفيت أمّه. لم يبقَ عنده غير البولونية، لغته الأصلية، لكنّنا استطعنا أن نتأكّد من أنّها لم تكن هي التي كان يتكلّم بها في نومه. لا أتذكّر شخصاً محبوباً مثله، وهو يزيّت ويجرِّب حدَّ سكاكينه المشؤومة على لسانه الورديّ.

مشكلته الوحيدة وقعت في اليوم الأوّل في المطعم، حين شكى للندل أنّه لا يستطيع أن يتحمّل السفر ما لم يقدّموا إليه أربعَ حصص. وضّحَ له المُشرفُ أنّه سيكون له ذلك إذا ما دفع ثمنها مع تخفيض خاص. برّر بأنّه سافر في بحار العالم، وفيها جميعها اعترفوا له بحقّه الإنساني بألاّ يتركوه يموت جوعاً. رُفعت الحالة إلى القبطان، الذي قرَّر على الطريقة الكولومبية تماماً، بأنّهم سيقدّمون له حصّتين وأن تفلت من يد الندل حصّتين أخريين سهواً. وساعد نفسه إضافة إلى ذلك بأنّه كان يأخذ بالشوكة من أطباقِ رفاقه على الطاولة، ومن جيرانٍ آخرين قليلي شهيةٍ استمتعوا بظرافته. على المرء أن يكون هناك حتى يصدّق.

لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسي، إلى أن صعد في لا غلوريا مجموعة من الطلاب، كانوا يشكلون في الليل صوتاً ثلاثياً أو ورباعيّاً ويغنون سيرينادات جميلة وبوليروات حب. حين اكتشفتُ أنّه يفيض عنهم آلة تيبلي،(*) فأخذتُ ذلك على عاتقي، وتدرّبتُ معهم في الأماسي وغنيتُ حتى الفجر. وهكذا عثرتُ لملءِ ساعات الفراغ على مايتعلق بالقلب: من لم يغنِّ لا يمكنه أن يتصوّر ما متعة الغناء.

في ليلة كان قمرها بدراً أيقظنا نحيب يمزّق القلب جاءنا من الضفّة. أمر القبطان كليماكو كوندِ أبِليو، وهو أحد العظماء، بالبحث بالأنوار الكاشفة عن مصدر ذلك النحيب وكان أنثى، زلاخة علقت بين أغصان شجرة ساقطة. رمى رجالُ الباخرة بأنفسهم إلى الماء وربطوها إلى رافعة وتمكنوا من إخراجها. كانت كائناً رائعاً ومؤثِّراً، ما بين المرأة والبقرة، بطول يقارب الأربعة أمتار؛ جلدها أسود ضارب للزرقة وطري، وصدرها ذو ثديين كبيرين كثديي أمّ

(*) آلة موسيقية شبيهة بالقيثار، لكنّها أصغر حجماً منه.

توراتية. القبطان كوندِ أبِليو هو الذي سمعته يقول لأوّل مرّة أنّ العالم سوف ينتهي إذا ما استمرّوا بقتل حيوانات النهر، ومنعَ إطلاق النار من سفينته.

- من يبغِ قتل أحد فليذهب ويقتله في بيته! - صاح - وليس في سفينتي.

أتذكّر بعد سبعة عشر عاماً، يومَ التاسع عشر من كانون الأول من العام 1961، كيوم مشؤوم، لأنّ صديقاً هتف لي من المكسيك بأنّ الباخرة دافيد أرانغوُ احترقت وتحوّلت إلى رماد في ميناء ماعانغِهْ. علقّت الهاتف ينتابني وعيٌ رهيب بأن ذلك اليوم كان نهاية شبابي، وبأنّ القليل مما تبقى لنا من نهر حنيننا قد ذهب إلى الجحيم. نهر مَغْدَلِنا اليوم ميت، بمياهه المتفسخة وحيواناته المنقرضة. أعمال الاستعادة التي كثيراً ما تحدّثت عنها الحكوماتُ المتعاقبة التي لم تفعل شيئاً، تتطلبُ زراعة فنية لما يقارب الستين مليون شجرة في تسعين بالمئة من الملكيات الخاصّة، التي على ملاّكها أن يتنازلوا، عن تسعين بالمئة من دخولهم الحالية، حبّاً بعيون الوطن.

كلّ رحلة خلّفت فينا دروسَ حياةٍ، ربطتنا بطريقة عابرة، لكنّها خالدة، بحياة قرى العبور، حيث تورَّط كثيرون منّا في مصيرها للأبد. زجَّ طالب طبّ شهير نفسه دون أن يُدعى في رقصة عرس، رقص، دون إذن، مع أجمل نساء الحفل فقتله الزوج برصاصة واحدة. وآخر تزوّج في سكرة ملحمية من أوّل فتاة أعجبته في بْورتو بِرِّيّو وما يزال سعيداً معها ومع أولاده التسعة. خوسِهْ بَّالِنثيا، صديقنا في سوكرِ، فاز ببقرة في مسابقة قارعي طبول في تِنِرِيفِ، وباعها هناك بالذات بخمسين بيزو: ثروة بالنسبة لتلك المرحلة. في حيّ التسامح الفسيح في بارّانكابِرمِخا، عاصمة النفط فوجئنا بأننا صادفنا أنخِل كاسيخ بّالِنثيا، ابن أخ خوسّه، الذي اختفى من سوكرِ دون أن يترك أثراً منذ العام السابق، وهو يغنّي مع أوركسترا في ماخور. أمّا حساب الحفلة الصاخبة حتى الفجر فتكفَّلت به الأوركسترا.

أما أكثر ذكرى غير محبّبة عندي فهي ذكرى حانة كئيبة في

بْورتو بِرّيو، أخرجنا رجال الشرطة منها، وكنا أربعة ركاب، ضرباً بهراواتهم، دون أن يُقدموا لنا أيّة توضيحات أو يسمعوا منّا شيئاً، واعتقلونا بتهمة اغتصاب طالبة. وحين وصلنا إلى المخفر وجدناهم قد وضعوا خلف القضبان الفاعلين الحقيقيين، دون أن يُخدَشوا، وكانوا زعراناً محليين لا علاقة لهم بباخرتنا.

في المحطة الأخيرة، بْورتو سالغار، كان علينا أن ننزل في الخامسة صباحاً بلباس الأراضي المرتفعة. كان الرجال الذين يرتدون ثياب الجوخ السوداء والصدارات والقبعات الفطرية الشكل ويعلقون معاطفهم إلى أذرعهم، قد بدّلوا هيئاتهم بين قفز الضفادع ونتن النهر المشبع بالحيوانات النافقة. عند النزول حدثت لي مفاجأة غير معهودة. في آخر ساعة أقنعت صديقةٌ أمّي بأن تعمل لي صرة من كورّونتشو، مع شبك نوم من السيزال، ومعطف من الصوف، ومبولة للطوارئ، كلّ ذلك مفلوف بحصير من الحلفاء ومربوط على شكل صليب بحبال شبك النوم. لم يستطع أصدقائي الموسيقيون أن يتحمّلوا الضحك من رؤيتي محمّلاً بمثل تلك الأمتعة في مهد الحضارة، فقام أكثرهم جرأة بما لم أكن لأجرؤ على القيام به: ألقى بها إلى الماء. كان آخر ما رأيته في تلك الرحلة التي لا تُنسى هي الأمتعة، التي قفلت راجعة إلى مصدرها، مترنّحة مع التيار.

كان قطار بُورْتو سالاغار يصعد في الساعات الأربعة الأولى كأنّه يحبو فوق القمم الصخرية. وكان في أكثر المناطق انحداراً يتدلى كي يستجمع قواه ويعود ليحاول الصعود بلهاثِ تنين. كان لابدَّ أحياناً من أن ينزلَ الركابُ كي يُخفِّفوا الوزن، ويصعدوا سيراً على الأقدام حتى القمة التالية. كانت القرى على الطريق كئيبة وباردة، وفي المحطات المقفرة لا تنتظرُنا غير البائعاتِ الدائمات اللواتي يعرضنَ عبر نوافذ العربة بعضَ الدجاجات السمينة والصفراء مطبوخة بكاملها، وبعض البطاطا البيضاء، رائعة الطعم. هناك شعرتُ لأوّل مرّة بحالة للجسد مجهولة وخفيّة: البرد. من حسن الحظّ أنَّ السهوب الشاسعة كانت تنفتح في المساء

فجأة خضراءَ وجميلة مثل بحر للسماء حتى الأفق. راح العالم يعود ليصبح هادئاً ومقتضَباً. ويعودُ جوّ القطار ليصبح جوّاً آخر.

كنتُ قد نسيتُ تماماً القارئَ النهمَ حين ظهر فجأة وجلس مقابلي بمظهر المستعجل. كان غير معقول. فقد أدهشته أغنية بوليرو غنيناها في ليالي الباخرة، وطلب منّي أن أنسخها له. لم أفعل ذلك وحسب، بل وعلّمته أن يغنيها. أدهشني رهافة سمعه الجيّد وحرارة صوته حين غناها وحده، فقد كان دقيقاً وحسناً من المرّة الأولى.

- ستموت تلك المرأة حين تسمعها! - صاح مشعّاً.

وهكذا فهمت حزنه. فمنذ أنِ سمع البوليرو، مغنى من قبلنا في الباخرة، شعر أنّها ستكون كشفاً بالنسبة لخطيبته التي ودّعته قبل ثلاثة أشهر في بوغوتا، وكانت تنتظره في ذلك المساء في المحطّة. لقد عاد وسمعها مرّتين أو ثلاث مرّات، وبات قادراً على أن يعيد تركيبها قطعة قطعة، لكنّه حين رآني وحيداً في كسل القطار قرّر أن يطلب مني المعروف. أنا أيضا فطنتُ لأن أقول له، بكلّ قصدية وخارج السياق، كم فاجأني على الطاولة كتاب يصعب العثور عليه. كانت دهشته صحيحة:

- أيّها.

- القرين.

ضحك راضياً.

- لم أنتهِ منه بعد - قال - لكنّه أحد أغرب الأشياء التي وقعت بين يديّ.

لم يتعدَّ ذلك. شكرني بكلّ طبقات صوت البوليرو، وودّعني شادّاً بقوّة على يدي.

كان الظلام قد بدأ يُخيِّم حين خفّف القطارُ من سرعتِهِ، مرّ بعنبر مليء بالخرداوات الصدئة، ووقف على الرصيف المظلم. أمسكت بالصندوق من مقبضه وجررته نحو الشارع قبل أن يعيقني الناس. كنتُ على وشك الوصول حين صرخ أحدهم:

- يا شاب، يا شابّ!

التفتّ كما التفت عددٌ من الشبان وآخرون أقل شباباً يجرون معي، وإذا بالقارئ النهم يمرُّ بجانبي ويعطيني كتاباً دون أن يتوقّف:

ـ هنيئاً لك!

صرخ لي وضاع في الزحام.

كان الكتاب هو «القرين». ذُهِلتُ بحيث لم أتمكن من الانتباه لما جرى معي.

خبّأتُ الكتاب في جيب المعطف، ولفحتني ريح الصباح الصرصر حين خرجت من المحطّة. وضعت الصندوق على الرصيف موشكاً على الانهيار، وجلست عليه لأستنشق الهواء الذي كان ينقصني. لم يكن في الشارع من نَفَس واحد. الشيء القليل الذي استطعت أن أراه كان زاوية جادة مشؤومة وجليدية تحت رذاذ مطر خفيف مختلط بالهباب، على ارتفاع ألفين وأربعمئة متر، وفي جوٍّ هواؤه قطبي يعوقُ التنفس.

انتظرتُ في الشارع، ميتاً من البرد، ليس لأقل من نصف ساعة. أحداً يجب أن يصل، فأبي أعلم في برقية عاجلة دون إليْثر تورِّسْ أرانغو، وهو قريب له سيكون عوناً لي. لكن ما كان يقلقني آنذاك ليس أن يأتي أحد أو لا يأتي، بل الخوف من أن أبقى جالساً على صندوق جنائزي دون أن أعرف أحداً على الجانب الآخر من العالم. فجأة هبط رجل وجيه يحمل مظلّةً حريرية، ويرتدي معطفاً من وبر الجمل يصل حتى ركبتيه. أدركتُ أنّه مُنجدي، رغم أنّه لم يكد ينظر إليّ، ومرّ عابراً ولم أجرؤ على القيام بأيّة إشارة. دخل إلى المحطّة راكضاً وعاد ليخرج بعد دقائق دون أيّة بارقة أمل. اكتشفني أخيراً، وأشار إليّ بسبّابته:

ـ أنت غابيتو، أليس كذلك؟

وأجبته من أعماق روحي:

ـ تقريباً.

4

كانت بوغوتا آنذاك مدينة قصيّة وكئيبة، يهطل فيها مطر ناعم مُسهِّدٌ منذ بداية القرن السادس عشر. لفت انتباهي أنّ في الشارع رجال كثيرون مستعجلون، يرتدون، مثلي منذ وصلت، جوخاً أسود وقبعات قاسية. بالمقابل لا تُرى امرأة واحدة تبعث العزاء في النفس، فدخولها إلى المقاهي المكفهرة في المركز التجاري كان ممنوعاً، مثله مثل دخول الرهبان بجلابيبهم والعسكر بلباسهم الموحّد. في الحافلات الكهربائية والمباولِ العامّة لافتة حزينة: «إن لم تخشَ الله فَاخشَ الزهري».

أدهشتني الخيول القويّة العملاقة التي تجرّ عربات البيرة، وشرر الحافلات الذي يتطاير عند انعطافها في الزوايا، وتلكّؤ المرور من أجل إفساح الطريق للجنازات التي تمضي على الأقدام تحت المطر. كانت من أكثر الأشياء كآبة، بعرباتها الفاخرة وخيولها المزينة على الطريقة الأمريكية بالقطيفة، وقنزعات الريش الكبير الأسود، تنقل جثثاً من أسر راقية، تتصرّف مثل مخترعي الموت. من سيارة الأجرة رأيتُ في فناء كنيسة لاس نييبِس أوّلَ امرأة في الشارع، كانت رشيقةً، صموتةً، أنيقة كملكة في حداد، لكنّني احتفظت للأبد بنصف الوهم الأوّل، لأنّها كانت تغطي وجهها بوشاح كتيم.

كان انهياراً معنوياً. فالبيت الذي قضيت فيه الليلةَ كبير ومريح، لكنّه بدا لي شبحياً بحديقة وردِهِ الداكنة وبرده الذي ينخر العظم. إنه بيت عائلة تورِّس غامبوَا، أقرباء والدي ومعارفي، لكنّهم بدوا لي

غريبي الأطوار على العشاء وهم متلفعون بأدثرةِ النوم. دهشتي الكبرى حدث حين انزلقت تحت الملاحف وأطلقت صرخة رعب، لأنّني شعرتُ بها متشرّبةً بسائل جليدي. وضّحوا لي أنَ المرّة الأولى تكون كذلك، وأنّني سأعتاد شيئاً فشيئاً على غرابة الطقس. بكيتُ ساعاتٍ طويلة بصمتٍ قبل أن أتمكن من النوم الشقيّ.

تلك كانت حالتي المعنوية بعد أربعة أيّام من وصولي، وأنا أسير بكلّ سرعة مواجهاً البرد والمطر الناعم باتجاه وزارة التربية، حيث سيفتحون التسجيل لمسابقة المنح الوطنيّة. كانت صفوف المتقدّمين تبدأ في الطابق الثالث من الوزارة، أمام باب مكتب التسجيل ذاته وتهبط ملتوية عبر الأدراج حتى المدخل الرئيسي. لقد كان المشهد يمزّق القلب. وعندما انقشع الجوُّ في حدود العاشرة صباحاً كان الصف قد امتدّ قصبتينِ أخريين في جادة خيمِنِث دِ كِسادا، بل وكان هناك متسابقون لاذوا بالبوابات. بدا لي أن من المحال الحصول على أيّ شيء في مثل ذلك التدافع.

شعرت بعد منتصف النهار بقليلٍ بنقرتين على كتفي. كان ذلك هو قارئ الباخرة النهم، الذي عرفني بين آخر مَن في الصف، لكن معرفتي به بقبعة الفطر وزيّ الكاتشاكو الجنائزي كلّفتني جهداً. هو سألني أيضاً مرتبكاً:

ـ لكن ماذا تفعل هنا؟

فأعلمته بالأمر.

ـ يا له من شيء مبهج!

قال هو، ميتاً من الضحك ـ تعال معي ـ وأخذني من ذراعي نحو الوزارة. عندئذٍ عرفت أنّه الدكتور أدولفو غومِث تامَرا، المدير الوطني للمنح في وزارة التربية.

كانت تلك هي المصادفة الأقل احتمالاً والأكثر سعادة في حياتي. وبممازحة طلابية خالصة، قدّمني غومِثْ تامَرا إلى مساعديه على أنّني أفضل مغنّي بوليرو رومانسي. قدّموا لي قهوة، وسجّلوني دون أيّة إجراءات أخرى، ليس قبل أن يُنبِّهوني إلى أنّهم لا يخترقون

القوانين، بل يردون العرفان لآلهة المصادفة التي لا يُعرف كنهها. أعلموني أنّ الامتحان العام سيكون يوم الاثنين القادم في مدرسة سان بارتولومِهْ. قدّروا عدد المتقدمين من كلّ البلد بحدود الألف، يتنافسون على ثلاثمئة وخمسين منحة، بمعنى أن المعركة ستكون طويلة وشاقة، وربّما ضربة قاضية بالنسبة إلى آمالي. المقبولون المحظوظون سيعرفون النتائج وبعض المعلومات عن المدرسة التي يُحدِّدونها لهم بعد أسبوع. كان هذا جديداً وخطيراً بالنسبة إليّ، فهم أنفسهم يمكن أن يرسلوني إلى مِدلينّ أو بيتشادا. وضحوا لي أنّ هذا اليانصيب الجغرافي قد أقرَّ لإعطاء دفعٍ للحراك الثقافي بين مختلف المناطق. حين انتهت الإجراءات، صافحني غومِثْ تامَرا بالقوة المتحمسة ذاتها التي شكرني بها على البوليرو.

ـ كنْ يقظاً ـ قال لي ـ مصيرك الآن بين يديك.

عند مخرج الوزارة، عرض عليّ رجل صغير عليه مظاهر الرهبنة أن يحصل لي دون امتحانات على منحة في المدرسة التي أشاء مقابل خمسين بيسو، كان هذا المبلغ ثروة بالنسبة إليّ، لكنّني أظّن أنّني لو ملكته لدفعته كي أتفادى رعب الامتحان. بعد أيّام عرفت الغشاش من صورته في الصحف كرأسٍ لعصابةٍ من الغشاشين الذين يتقنعون بزي الرهبان، كي يقوموا بصفقات غير مشروعة مع أجهزة رسمية.

لم أفتح صندوق أمتعتي ليقيني بأنّهم سيرسلونني إلى أيّ مكان. وكان تشاؤمي مُدلّلاً بحيث أنّني ذهبتُ عشيةَ الامتحان مع موسيقيي الباخرة إلى حانة بائسة في حي لاس كروثِسْ الوعر. كنّا نغنّي من أجلِ الجرعة، فمقابل كلّ أغنية يقدّمون لنا كأساً من التشيتشا الوحشي، مشروب الذرة المخمرة، الذي كان السكارى الذواقون يشعشعونه بالبارود. وهكذا وصلتُ متأخراً إلى الامتحان، ورأسي ينبض، لا أتذكّر لا أين كنتُ ولا من حملني إلى البيت في الليلة السابقة، لكنّهم استقبلوني بدافع الشفقة في قاعة هائلة ومزدحمة بالمتسابقين. نظرة طائرة على الأسئلة كفتني كي أنتبه إلى أنّني خاسر مسبقاً. تسليت بالعلوم الاجتماعية، التي بدت لي أسئلتها أقل

قسوة، فقط كي أصرف المراقبين عنّي. وسرعان ما شعرتُ بنفسي مستَحْوَذاً بهالة من الإلهام سمحت لي بارتجال أجوبة معقولة ورميات عجيبة من دون رام؛ ما عدا الرياضيات، التي لم تُذعن لي إلا لما أراد الله. قدّمتُ امتحانَ الرسم بسرعة، لكن بشكلٍ جيّد أراحني. قال لي الموسيقيون: «لا بدّ أنّها معجزات التشيتشا»، في جميع الأحوال أنهيت الامتحانات وأنا في حالة من الإنهاك الكامل، مصمماً على أن أكتب لأبويّ رسالة عن الحقوق والأسباب التي لن أعود بسببها إلى البيت.

قمت بواجب المطالبة بنتائج الامتحانات بعد أسبوع. يبدو أنّ موظّفةَ الاستقبال عرفت علامة ما في ملفي، لأنّها حملتني دون أسباب إلى المدير. وجدته في مزاج رائق جدّاً، بالقميص وشيّالِ البنطلون الأحمر الفاخر. راجع العلامات باهتمام مهنيّ، تردّد مرّة أو مرّتين، ثمَّ تنفّسَ أخيراً الصعداء.

ـ لا بأس ـ قال لنفسه ـ باستثناء الرياضيات، لكنّك نجوتَ بشعرة بفضل علامات الرسم الخمسة.

ارتمى إلى الخلف على كرسيّ النوابض، وسألني عن المدرسة التي أفكّر بها.

كانت تلك واحدة من حالات الخوف الهستيري، لكنّني لم أتردّد:

ـ سان بارتولومِهْ، هنا في بوغوتا.

وضع راحة يده فوق كُدسة من الأوراق على المكتب.

ـ هذه كلّها رسائل من الوزن الثقيل توصي بأبناء وأقارب وأصدقاء من أجل وضعهم في مدارس هنا ـ قال. وانتبه إلى أنّه ما كان عليه أن يقول ذلك فتابع: إذا سمحت لي أن أساعِدك، فإنّ أكثر ما يُناسبك هي المدرسة الوطنية(*) في ثيبّاكيرا، على بعد ساعة بالقطار.

(*) Liceo Nacional هي المدارس التي كانت تُعرّف عندنا في المرحلة الاستعمارية باللاييك.

الشيء الوحيد الذي كنتُ أعرفه عن تلك المدينة التاريخية هو أنّ فيها مناجم ملح. قال لي غومِثْ تامَرا إنّها مدرسة استعمارية الطراز انتزعت من جمعية دينية بسبب إصلاح ليبرالي حديث، وفيها الآن مجموعة رائعة من المعلمين الشباب ذوي العقلية الحديثة. فكّرت أنّ من واجبي أن أخرجه من شكوكه.

ـ أبي محافِظ ـ لفتُ انتباهه.

أطلق ضحكة.

ـ لا تكن بهذه الجدّية ـ قال ـ أقول ليبرالياً بمعنى التفكير الواسع.

وسرعان ما استعاد أسلوبه الخاص وقرّر أنّ قدري في ذلك الدير القديم العائد للقرن السابع عشر؛ الذي حُوّل إلى مدرسة لغير المؤمنين، في بلدة حالمة ليس فيها من تسلياتٍ غير الدراسة. وبالفعل فإنّ الرواق القديم بقي غير أبِهٍ بالأبديّة. في مرحلته الأولى كانت هناك لافتة محفورة على البوابة الحجرية تقول: «رأس الحكمة مخافة الله»، لكنّ الشعار استبدل، حين أمّمت الحكومةُ الليبرالية للرئيس ألفونسو لوبِّثْ بّومارِخو التعليم في العام 1936، بشعارِ كولومبيا. من الإيوان، وبينما أنا أستعيد نفسي المنقطع من ثقل الصندوق، أصابني بالكآبة الفناءُ الصغير ذو الأقواس الاستعمارية المنحوتة في الصخر الحي(*) بشرفاته الخشبية المطلية بالأخضر، وأصص أزهاره الحزينة. كلّ شيء بدا خاضعاً لنظام ديني. وكلّ شيءٍ يشي بشكلٍ جليّ أنّه لم يعرف سماحةَ يد امرأة خلال أكثر من ثلاثمئة عام. داهمني، أنا الذي ساءت تربيتي في فضاءات الكاريبي التي لا قانون يحكمها، الرعبُ من أنني سأعيش أربع سنوات حاسمة من رشدي في ذلك الزمن الراكد.

ما يزال يبدو لي حتى اليوم، أنّ من المحال أن يستطيع طابقان، حول فناء كئيبٍ، وبناء آخر من الحجر، غير المصقول

(*) المقصود هنا هي الأعمدة المنحوتة في الصخر الموجود في المكان مباشرة، ودون نقله من مكان آخر.

المرتجل في أرض العمق أن تكفي لسكن، ومكتب المدير، ومكاتب الأمانة، والإدارة، والمطبخ، والمطعم، والمكتبة، وقاعات الدرس الست، ومخبر الفيزياء والكيمياء، والمستودع والخدمات الصحية، والمهجع المشترك بأسرّة الحديد المرتبة في صفوف لخمسين طالباً، جيء بهم، مع قلّة قليلةٍ من أبناء العاصمة، بالإكراه من أكثر ضواحي الوطن كآبةً. من حسن الحظ أنّ حالة المنفى تلك كانت رحمةً منّ عليّ بها نجم سعدي. بفضلها تعرّفتُ، بسرعة وبشكلٍ جيّد، على حال البلد الذي كان من نصيبي في قُرعة العالم. أبناء البلد الكاريبيون الاثني عشر الذين اعتبروني منذ وصولي كواحدٍ منهم، وكذلك أنا، كنّا نمارس تمييزاً قاتلاً بيننا وبين الآخرين: أبناء المدينة والغرباء.

شكّلت المجموعات المختلفة المتوزّعة على زوايا الفناء منذ استراحة الليلة الأولى عَيِّنةً ثريّةً عن الأمّة. لم يكن هناك منافسات ما دام كلّ واحد يلتزم بأرضه. أقمت علاقات فورية مع أبناء الساحل الكاريبي، الذين اشتهرنا وبجدارة أنّنا صاخبون، ومتعصّبون لتضامن المجموعة ومحبون للرقص. كنت استثناء، لكنّ أنطونيو مارتينِث سييرّا، راقص الرومبا الكارتاخيني، علّمني أن أرقصَ الرقصَ الحديث في الاستراحات الليلية. ريكاردو غونثالِث ريبّول، شريكي العظيم في علاقاتي النسائية السرِّية، كان معمارياً شهيراً، ومع ذلك لم ينقطع قط عن أداء تلك الأغنية التي لا تكاد تُدرك، وكان يهمس بها بين أسنانه، ويرقص على إيقاعها وحيداً حتى نهاية أيّامه.

مينْتشو بورغوس، عازف البيانو الفطريّ، الذي أصبح مايسترو أوركسترا وطنية للرقص، أسّس فرقة المدرسة التي أراد أن يتعلّم معها العزف على إحدى الآلات، وعلّمني سرَّ جوابَ البوليرو وغناء البايناتو. ومع ذلك فإنّ مأثرته العظمى كانت في أنّه علّم غيِّرمو لوبِّثْ غِرّا، البوغوتي الخالص، فنَّ عزف على آلة المفاتيح الكاريبية، والذي هو مسألة ثلاثة، اثنين، ثلاثة اثنين.

هومبِرْتو خايمسْ، من إلْ بانكو، كان دارساً لا يكلُّ، لم يهتمّ قط

بالرقص، ويضحّي بنهايات الأسبوع كي يبقى ليدرس في المدرسة. أظنّه أنّه لم يرَ قط مباراة كرة قدم، ولم يقرأ تعليقاً على أيّة مباراة، إلى أن تخرّج من بوغوتا مهندساً، ودخل في «إلْ تييمبّو» محرّراً رياضياً متمرِّناً، وأصبح فيما بعد مديراً لقسمه، وأحد إخباريي الرياضة الجيّدين في البلد. في جميع الأحوال أغرب حالة كانت ولا شكّ حالة سيلفيو لونا، وهو أسمر داكن من تشوكو، تخرّج محامياً، ثمّ طبيباً وبدا مستعدّاً لدراسة اختصاص ثالث حين ضاع عن ناظري.

دانييل روثو - بّاغوثيو - تصرّف دائماً كعالِم في كلٍّ العلوم الإنسانية واللاهوتية، وبشّر بهما في الصف والاستراحة. كنّا نلجأ إليه دائماً كي يُعلمنا عن حالة العالم خلال الحرب العالمية، والتي كنّا لا نكاد نتابعها من خلال الشائعات، إذ لم يكن مسموحاً دخول الصحف والمجلات بشكل دوري والمذياع لانستخدمه إلا للرقص مع بعضنا البعض. لم تُتَحْ لنا الفرصةُ قط لنعرف من أين كان يُخرج باغوثيو معاركَه التاريخية والتي كان الحلفاء يكسبونها دائماً.

سِرخيو كاسترو - من كِتامِ - ربّما كان أفضل طالب على امتداد سنوات الدراسة في المدرسة الوطنية، وحصل منذ دخوله فيها على أعلى الدرجات دائماً. أظنّ أنّ السرّ في ذلك كان النصيحة ذاتها التي نصحتني بها مارتينا فونْسِكا، في مدرسة سان خوسِهْ: لم يكن يضيع كلمة من كلمات المعلّم، أو من مداخلات زملائه في الصف، يُسجّل الملاحظات حتى عن تنفّس الأساتذة، ويرتّبها في دفتر متقن. ربّما للسبب ذاته لم يكن يحتاج للتحضير للامتحانات، وكان يقرأ في نهايات الأسبوع كتبَ مغامراتٍ، بينما نحن الآخرين نكتوي في الدراسة.

كان البوغوتي الخالص ألبارو رويث تورّس أكثر رفاقي ملازمة لي في الاستراحات، يتبادل معي الأخبار اليومية عن الصاحبات في الاستراحات الليلية، بينما نحن نسير بخطوات عسكرية حول الفناء. وآخرون هم خايمه برابو، هومبِرتو غيينّ وألبارو بيدال بارون، الذين كنتُ قريباً منهم جدّاً في المدرسة،

وبقينا نلتقي لسنواتٍ في الحياة الواقعية. كان ألبارو رويث يذهب إلى بوغوتا لزيارة أسرته كلَّ نهاية أسبوع، ويعود بمؤونةٍ جيّدة من السجائر وأخبار الصاحبات. وهو الذي أنعش عندي الرذائل في السنوات التي درسنا فيها سويّة، وهو من أعارني خلال هاتين السنتين الأخيرتين أفضل ذكرياته كي أعيد النسغ إلى هذه المذكرات.

لا أدري ما الذي تعلّمته في الواقع، خلال مرحلة الأسر في المدرسة الوطنية، لكنّ السنوات الأربعة من التعايش المنسجم مع الجميع منحتني رؤية موحّدة عن الأمّة، اكتشفت كم كنّا مختلفين وما هي فائدتنا، وتعلّمت كيلا أنسى ذلك أبداً، أنّ في خلاصة كلّ واحدٍ منّا كان البلد كلّه. ربّما هذا ما أرادوا أن يقولوه في الوزارة حول التنقل الإقليمي، الذي كانت ترعاه الحكومة. في عمر النضج، وحين دعيت إلى غرفة القيادة في طائرة عابرة للأطلسي، جاءت أوّل الكلمات التي وجّهها إليّ القبطان كي يسألني من أين أنا. كفاني أنّني سمعت ذلك حتى أجيبه.

- أنا ساحلي بقدر ما أنت سوغاموسي(*).

فقد كانت له الطريقة ذاتها في الحياة والإيماءة ذاتها ومادة الصوت ذاتها التي لِماركو فيدل بويّا، جاري في المقعد في السنة الرابعة من المدرسة. ضربة الحدس هذه هي التي علّمتني أن أبحر في مستنقعات ذلك المجتمع الطارئ. حتى دون بوصلة وبعكس التيار، وربّما كانت مفتاح براعتي في عملي ككاتب.

كنتُ أشعر أنّني أعيش حلماً، فأنا لم أطمح للمنحة لأنّني أردت أن أدرس، بل لأحافظ على استقلاليّتي عن أيّ التزام آخر، والبقاء على علاقة جيّدة مع الأسرة. كان يكفي ضمان ثلاث وجبات في اليوم كي يفترض أنّنا نعيش في ذلك الملاذ أفضلَ مما في بيوتنا، في ظلّ نظام من الاستقلالية المراقبة، الأقل وضوحاً من السلطة المنزلية.

(*) اسم بلدة كولومبية.

كان يسودُ المطعمَ نظامُ سوقٍ يسمح لكلّ واحد بأن يتدبّر حصّته على كيفه. لم يكن للنقود قيمة. وكانت بيضتا الإفطار العملة الأعلى سعراً، فبهما يمكن شراء أيّ طبق من الوجبات الثلاث. كان لكلّ شيء معادِله الدقيق وما من أحدٍ عكّر، خلال سنوات الدراسة الداخلية الأربعة، صفوَ تلك التجارة المشروعة، ولا لأيّ سبب.

لم يكن المعلمون الذين يأكلون على مائدة أخرى، من القاعة ذاتها، غرباء عن المقايضات الشخصية فيما بينهم، فقد كانوا ما يزالون يجرجرون معهم عادات مدارسهم التي غادروها توّاً. كانوا في غالبيتهم عازبين أو يعيشون هناك دون زوجاتهم، ورواتبهم صغيرة مثل رواتبنا الشهرية العائلية؛ ويشكون من الوجبات بكثير من الحقّ، مثلنا. وأوشكنا خلال أزمة خطيرة أن نتآمر مع واحدٍ منهم من أجل القيام بإضراب عن الطعام. فقط حين كانوا يتلقون هدايا، أو يأتيهم مدعوون من الخارج يسمحون لأنفسهم بأطباقٍ مُلهَمَة، ويخرّبون المساواة لمرَّةٍ واحدة. تلك كانت الحالة في السنة الرابعة، حين وعدنا طبيب المدرسة بقلب ثورٍ كي ندرسه معه في درس التشريح. وأرسله في اليوم التالي إلى برادات المطبخ وهو ما يزال طازجاً ودامياً، لكنّنا حين ذهبنا في طلبه للدرس لم نجده. وهكذا توضّح أنّه في آخر ساعة، ونظراً لعدم وجود قلب ثور، أرسل الطبيب قلب بنّاءٍ لا أهل له، تحطّم حين انزلق من طابقٍ رابع. ونظراً إلى أنّه لم يكن ليكفي الجميعَ، حضّره الطباخون بالصلصة اللذيذة، ظانين أنّه قلب الثور الذي أعلنوا لهم عنه لمائدة المعلمين. أظنّ أنّه كان لهذه العلاقات المفتوحة بين المعلمين والطلاب ارتباط بالإصلاح التربوي الجديد الذي لم يبق منه في التاريخ إلاّ القليل. لكنّه أفادنا على الأقل في تبسيط البروتوكول. تقلّصت الفروقُ بين الأعمار، تمّ التراخي في استخدامِ ربطة العنق، ولم يعد أحد يستنفر لأنّ أساتذة وطلاباً يتناولون معاً بعض الجرعات، ويحضرون أيّام السبت رقصات الصاحبات ذاتها.

هذا الجوّ صار ممكناً فقط، بسبب نوعية الأساتذة الذين سمحوا بشكلٍ عام بعلاقات شخصية سهلة. أستاذنا في الرياضيات حوّل

بمعارفه ومزاجه الفظّ الدروسَ إلى حفلات مخيفة. كان يُدعى خواكين خيرالدو سانتا، وهو أوّل كولومبي حصل على لقبِ دكتوراه في الرياضيات. لشقوتي، رغم جهودي وجهوده الكبيرة، لم أستطع قط أن أنسجم مع درسه. كان يُقال وقتذاك أنّ الميول الشعرية تتداخل مع الرياضيات فينتهي المرء، ليس إلى تصديق ذلك وحسب، بل وإلى الغرق فيه. كانت الهندسة أكثر رحمةً، ربّما بفعل ولطف مكانتها الأدبية. على العكس من الحساب الذي كان ينطوي على بساطة عدوانية. ما زلت حتى اليوم، ولكي أقوم بحسابٍ ذهني، أعيد الأرقام إلى مركباتها الأكثر بساطة، وبخاصّة السبعة والتسعة، اللتين لم أستطع قط أن أحفظ جدوليهما. فأنا لكي أجمع سبعة وأربعة أنزع اثنين من السبعة وأجمع الأربعة مع الخمسة الباقية وأجمع أخيراً الاثنين: أحد عشر! أما الضرب فقد خذلني دائماً لأنّني لم أستطع قط أن أتذكّر الأرقام التي أحملها في ذاكرتي. خصّصت للجبر أفضل معنوياتي، ليس احتراماً لمكانته الكلاسيكيّة وحسب، بل حبّاً ورعباً من المعلّم. لكن دون جدوى. فقد رسّبوني مرّة كلّ ثلاثة أشهر (أي في الجبر) وتأهّلتُ فيه مرّتين، ورسبت في محاولةٍ أخرى غير شرعية، لكنّهم نجحوني إحساناً.

ثلاثة معلمين غيريين هم معلمو اللغات. الأوّل ـ معلّم اللغة الإنكليزية ـ كان مِستِر أبلاّ، كاريبي خالص، بنبرة أوكسفوردية تامّة، وحماس يكادُ يكون إكليريكياً لقاموس ويبِسترِز، الذي كان يقرأه بعينين مغمضتين. المعلّم الذي تلاه هو هِكتور فيغِروَا، المعلم الشاب والجيّد والشغوف بشكلٍ محموم بالبوليرو التي كنّا نغنيها عدّة مرات في الاستراحات. عملت ما استطعتُ في وسن الدروس، وفي الامتحان النهائي. لكنّني أعتقد أنّ درجتي الجيّدة لم تكن بسبب شكسبير بقدر ما كانت بسبب ليو ماريني وهوغو روماني، المسؤولين عن جناتِ الحبِّ الكثيرة وانتحاراته. معلّم اللغة الفرنسية في السنة الرابعة، مسيو أنطونيو يلا ألبان، وجدني مسمَّماً بالروايات البوليسية. كانت دروسه تصيبني، مثل دروس الجميع تقريباً، بالسأم. لكنَّ استشهاداته المناسبة بلغة الشارع الفرنسية ساعدتني كثيراً، بعد عشر سنوات، كيلا أموت جوعاً في باريس.

معظم المعلمين تخرّجوا من المدرسة العليا بإدارة الدكتور خوسِهْ فرانسيسكو سوكارَّاس، وهو طبيب نفسي في سان خوان دِل ثِسَرْ، أصرّ على تغيير التعليم الكنسي الذي ساد قرناً من توالي الحكومات المحافظة، بعقلانية إنسانية. مانوِلْ كولِيو دِلْ ريّو كان ماركسياً جذرياً، ربّما لهذا السبب أعجب بِرلين يوتانغ، وآمن بظهور الموتى. مكتبة كارلوس خوليو كالدِرون، وعلى رأسها كتبُ ابن بلده خوسِه إيوستاسيو ريبِرا، مؤلفّ «الدوّامة»، كانت تتوزّع بالتساوي بين الكلاسيكيين اليونان، وأبناء المهاجرين من أتباع جماعة «حجر وسماء» والرومانسيين من كلّ مكان. وبفضل هؤلاء وأولئك كنّا نقرأ نحن القرّاء القليلين المثابرين سان خوان دِ لا كروث أو خوسِهْ ماريّا بارغاس بيلا، وكذلك رسل الثورة العمالية. غونثالو أوكامبو، أستاذ العلوم الاجتماعية، كان لديه في غرفته مكتبة سياسية جيّدة، تتنقّل كتبها دونٍ خبثٍ بين قاعات الكبار، لكنّني لم أفهم قط لماذا كان يُدرَّسُ«أصلُ العائلة والملكية الخاصة والدولة» لفريدريك إنجلز في أماسي الاقتصاد السياسي الشاقة، ولا يُدرّس في دروس الأدب، كملحمة عن مغامرة إنسانية جميلة. قرأ غيِّرمو لوبِّثْ غِرَّا «أنتي دوهرينغ» وهو لإنجلز أيضاً، في الاستراحات معاراً من الأستاذ غونثالو أوكامبو. ومع ذلك حين طلبته من أوكامبو لأناقشه مع لوبِّثْ غِرَّا، قال لي بأنّه لن يعمل معي معروف السوءِ هذا بإعارتي كتاباً سميكاً أساسياً بالنسبة لتقدّم البشرية، لكنّه طويل ومملّ بحيث أنّه قد لا يدخل التاريخ. ربّما ساهمت هذه المقايضات الإيديولوجية في سمعة المدرسة السيئة كمَخْبَرٍ للفسادِ السياسي. ومع ذلك احتجت لنصف عمرٍ كي أنتبه إلى أنّها كانت أقرب إلى التجربة التلقائية لإقصاء الضعفاء، وتلقيح الأقوياء، ضدّ كل أنواع الدوغمائيات.

علاقتي الأكثر مباشرة كانت دائماً مع الأستاذ كارلوس خوليو كالدِرون، مدرس اللغة القشتالية في الفصول الدراسية الأولى، والأدب العالمي في الرابع، والأسباني في الخامس، والكولومبي في السادس، كما كان مدرّس شيء غريب على تكوينه وأذواقه: المحاسبة. وُلِد في نْييبا، عاصمة مقاطعة هويلا، ولم يكن يتعب من

الإعلان عن إعجابه الوطني بخوسِه إيوستاسيو ريبِرا. اضطُرَّ لأن يقطع دراسته للطب والجراحة التي كان يذكرها كخيبة في حياته، لكنّ شغفه بالفنون والآداب كان لا يُقاوَم. فهو أوّل معلّمٍ فنَّدَ مسوداتي بملاحظاته المناسبة.

في جميع الأحوال كانت العلاقات بين الطلاب والمعلمين ذات طبيعة استثنائية، ليس في الصف وحسب، بل وبشكل خاص في فناء الاستراحة بعد العشاء. كان هذا يسمح لنا بمعاملة مختلفة عن التي اعتدناها والتي كانت ولا شك مناسبة بالنسبة لجو الاحترام والرفاقية الذي عشنا فيه.

هناك مغامرة مريعة أنا مدينٍ بها لأعمال فرويد الكاملة، التي كانت قد وصلت إلى المكتبة. طبعاً لم أكن أفهم شيئاً من تحليلاته الفاحشة، لكن حالاته السريرية كانت تبقي عليّ متحفِّزاً حتى النهاية، مثل أعمال جول فرن الخيالية. طلب منّا المعلّم كالدِرون في درس اللغة القشتالية أن نكتب له قصّة ذات موضوع حر. خطرت لي قصّة مريضة عقلية في حوالى السابعة من عمرها، وبعنوان متحذلق أخذ اتجاهاً مناقضاً لاتجاه الشعر: «حالة ذهان مفرطة». أمر المعلّم بقراءتها في الصف. جاري في المقعد، أورِليو بريِيتو استهجن، دون تحفّظ، حذلقتي بالكتابة دون أيّة أهليّة علمية ولا أدبية عن موضوع بمثل ذلك الصعوبة. أجبته بغيظ أكثر مما بتواضع أنّني أخذتها من حالة سريرية موصوفة من قبل فرويد في مذكراته، وأنّ هدفي الوحيد هو استخدامها للواجب. المعلّم كالدِرون، الذي ربّما ظنّ أنّني منزعج من النقدِ القاسي لبعضِ رفاقي في الصف، ناداني جانباً خلال الاستراحة كي يُشجِّعني على الاستمرار في الطريق ذاته. أشار إلى أنّ القصّة تبينّ أنّني أجهل تقنيات القص الحديث، لكنّني أملك الفطرة والرغبة. بدت له أنّها كُتبت بشكلٍ جيّد، وعلى الأقل بهدف تقديم شيء أصيل. كلّمني لأوّل مرّةٍ عن البلاغة. علّمني بعض الحيل العملية حول الموضوع والوزن كي أنظم دون مزاعم، وختم بأنّ عليَّ، في جميع الأحوال، أن أصرَّ على الكتابة، حتى ولو فقط من أجل الصحة العقلية. ذلك كان أوّل أحاديثنا الطويلة خلال سنواتي في المدرسة،

في الاستراحات وفي ساعات الفراغ التي أدين لها بالكثير في حياتي ككاتب.

كان هذا مناخيَ المثالي. فمنذ مدرسة سان سان خوسِهْ تجذر فيّ هوس قراءة كلّ ما يقع بين يديّ، وبه كنتُ أملأ وقت فراغي ووقت الدروس كلّها تقريباً. في السابعة عشرة من عمري، بإملاء جيّد أو بدونه، كان باستطاعتي أن أردّد دون أن آخذ نفساً القصائدَ التي تعلّمتاها في مدرسة سان خوسِهْ. أقرأها وأعيد قراءتها، دون مساعدة ولا ترتيب، ودائماً خفية تقريباً خلال الدروس. أعتقد أنّني قرأت مكتبة المدرسة، التي لا يمكن تقديم وصف كامل عنها، المكونة من فضلات مكتبات أخرى أقل فائدة منها: مجموعات رسمية، تركة معلمين فترت همّتهم، كتب غير مشكوك بأنها وصلت ناجيةً إلى هناك لا أحد يدري من أي سفينة غارقة. لا أستطيع أن أنسى المكتبة القروية التي كانت تصدرها دار نشر مينِرفا، التي رعاها دون دانييل سامْبِرْ أورتيغا، ووزعت على المدارس والكليات من قبل وزارة التربية. كانت مجموعة في مئة مجلّد، وتضمّ كلّ الجيّد وكلّ السيئ الذي كُتِبَ حتى تلك اللحظة في كولومبيا، وعزمت على قراءتها حسب النظام الرقمي إلى الحدّ الذي تسعفني به الروح. من الأشياء التي ما تزال تُرعبني حتى اليوم، هي أنّني كنتُ على وشك أن أنهيها في السنتين الأخيرتين، ولم أستطع في بقية حياتي أن أعرف يقيناً، ما إذا أفادتني في شيء.

كانت أسحار المهجع شبيهة شبهاً مريباً بالسعادة، إلا عندما كان يُقرع الجرس القاتل منذراً بالخطر ـ كما اعتدنا أن نقول ـ في السادسة من منتصف الليل. فيقفز اثنان أو ثلاثة من ضعفاء العقول من السرير كي يأخذوا الدور الأوّل أمام الأدواش الستة، ذات المياه الجليدية في حمام المهجع. أمّا البقية فكنّا نعتصر آخر قطرات الحلم، حتى يطوف المعلّم المناوب بالقاعة رافعاً البطانيات عن النائمين. كانت تلك ساعة ونصف الساعة من الحميمية المكشوفة لترتيب الملابس، وتلميع الأحذية، والاستحمام بدوش الجليد السائل في الأنبوب دون مرشّة، بينما يُفرِّجُ كلّ منّا عن خيباته صارخاً،

وساخراً من خيبات الآخرين، فتُنتهك أسرار الغرام وتُناقش الصفقات والدعاوى، وتثبت مقايضات المطعم. موضوع النقاش الصباحي كان الفصل المقروء من كتاب الليلة السابقة.

كان غيِّرمو غرانادو يطلق العنان منذ الفجر لموهبته كمغنّ صادح،(*) مغنّياً أغاني التانغو التي لا تنضب عنده. وكنت أغنّي أنا وجاري في السرير، ريكاردو غونثالِث ريبّول، ثنائياً أغاني الغواراتشا(**) الكاريبية الراقصة على إيقاع الخرقة التي نلمّع بها الحذاء عند رأس السرير، بينما صديقي ساباس كاربايّو يطوف في المهجع من طرفه إلى طرفه، كما ولدته أمُّه، والمنشفة معلقة إلى قضيبه الذي من إسمنت مسلح.

لو كان الأمر ممكناً لهرب عدد كبير منّا، نحن الطلاب الداخليين، للإيفاء بمواعيد تمّ اقتراحها في نهايات الأسابيع. لم يكن هناك حرّاس ليليون ولا معلمو مهاجع، باستثناء المناوب الأسبوعي، وبواب المدرسة الأبدي ريبِريتا، الذي كان ينام في الحقيقة مستيقظاً على امتداد الساعة أثناء قيامه بواجباته اليومية. كان يعيش في غرفة الإيوان، ويقوم بواجبه جيّداً، لكنّنا كنّا نستطيع رفع مزاليج بوابات الكنيسة الخشنة ونردّها دون جلبة، نتمتَّع بالليل في بيت غريب، ونعود قبل الفجر بقليل عبر الشوارع الجليدية. لم نعرف قط ما إذا كان ريبِرا ينام حقيقية مثل ميت، كما كان يبدو، أم أنّها طريقة أنيقة للتواطؤ مع فتيانه. لم يكن الذين يهربون كثراً، وكانت أسرارهم تتعفّن في ذاكرة شركائهم الأوفياء. عرفت من قام منهم بذلك روتينياً، وآخرين تجرّؤوا مرّةً بالذهاب بالجسارة التي يمنحها توتر المغامرة، ويعودون منهكين من الرعب. لم نعلم أنَّ أحداً انكشف أمره.

عائقي الاجتماعي الوحيد في المدرسة كان الكوابيس المشؤومة الموروثة عن أمّي، التي كانت تنفجر بين أحلام

(*) تينور مصطلح مستخدم في العربية، وهو صوت بين الرنّان والجهير.
(**) أغنية شعبية راقصة تؤدّى عامّةً بشكلٍ جماعي.

الآخرين مثل صراخ مما وراء القبر. كان جيراني في السرير يعرفونها أكثر من اللازم، ولا يخافون إلا من رعب العواء الأوّل في صمت الفجر، فيروح المعلم المناوب الذي ينام في قمرة الكرتون، يتمشّى مسرنماً من طرف المهجع إلى طرفه الآخر حتى يسود الهدوء من جديد. لم تكن فقط أحلاماً لا يمكن التحكم بها وحسب، بل كان لها علاقة بالضمير الشرير، لأنّها وقعت لي في مناسبتين في بيتين للضلال. أيضاً كانت عصيّة على التفسير، لأنّها لم تكن تقع في أحلامٍ مرّوعة، بل على العكس ضمن أحداث سعيدة ومع أناسٍ، أو في أماكن معتادة سرعان ما تكشف لي بنظرة بريئة عن معلومة مشؤومة. كابوسي لا يكاد يقارن بكابوس جرى لأمّي، حملت فيه رأسها في حضنها، وراحت تفليه من الصئبان والقمل التي لا تتركها تنام. لم أكن أصرخ خوفاً، بل طلباً للنجدة كي يهرع أحد ينهض ويحسن إليّ فيوقظني. لم يكن في مهجع المدرسة وقت لشيء، فمع أوّل أنّة كانت تنهال عليَّ الوسائد التي تنطلق من الأسرّة المجاورة. كنتُ أستيقظُ لاهثاً وقلبي مضطرب، لكنّني سعيد لأنّني حي.

أفضل ما كان في المدرسة هي القراءات بصوتٍ عال قبل النوم. وقد بدأت بمبادرة من الأستاذ كارلوس خوليو كالدِرون بقصّة لمارك توين، كان على طلاّب السنة الخامسة أن يدرسوها لامتحان طارئٍ في الساعة الأولى من اليوم التالي. قرأ الوريقات الأربعة بصوت عالٍ في مقصورته كي يسجل الطلابُ الذين لم يملكوا وقتاً لقراءتها ملاحظاتهم. بلغ الاهتمام بها حدّاً فَرَضَت فيه عادةُ القراءة بصوت عالٍ نفسها علينا كلَّ ليلة قبل النوم. لم يكن الأمر سهلاً في البداية، لأنَّ أحد المعلمين المُرائين فرضَ معياراً لاختيارِ وتفليةِ الكتب التي ستقرأ، لكنّ خطر التمرّد دفعهم للأخذ بمعيار الطلاب الكبار.

بدأت القراءةُ بنصف ساعة. كان المعلّم المناوب يقرأ في قمرته المضاءة بشكل جيّد في مدخل المهجع العام، وكنّا نُسكتِه في البداية بشخير ساخر، حقيقيّ أو مفتعل، لكنّه استحقَّهُ دائماً. راحت تمتدُّ بعدها لتصبح ساعة، حسب أهميّة القصّة، وراح الطلاب يحلون محلّ

المعلّمين بتناوبٍ أسبوعيّ. بدأت الأزمنة الحسنة بقراءة نوستراداموس، والرجل ذي القناع الحديدي، اللتين أرضيتا الجميع. ما لم أفهمه حتى الآن هو النجاح الساحق لِ «الجبل السحري» لتوماس مان، التي تطلّبت تدخّل المدير كي يمنعنا من أن نقضي الليل ساهرين، ننتظر قبلة هانز كاستروب وكلاوديا شوشات. أو التوتر غير المعهود عندنا جميعاً، ونحن جالسون في الأسرّة، كيلا نضيع كلمة واحدة من المبارزة الكلامية الفلسفية المطنبة بين نابثا وصديقه ستيمبريني. امتدّت القراءة في تلك الليلة لأكثر من ساعة، واحتُفل بها في المهجع بعاصفة من التصفيق.

المعلّم الوحيد الذي بقي كواحدٍ من المجاهيل الكبيرة في شبابي، هو المدير الذي التقيته عند وصولي. كان يُدعى ألخاندرو راموس، وكان فظّاً وانطوائيّاً، يضع نظارة ذات عدستين سميكتين تبدوان كأنّهما لأعمى، وقوّة دون استعراضٍ تُثقِل على كلّ كلمة من كلماته، وتجعلها كأنها خنجر من حديد. كان يهبط من ملاذه في السابعة صباحاً ليتفقّد نظافتنا الشخصية قبل دخولنا إلى المطعم، بثيابٍ فاقعة الألوان وأنيقة، وقبّة منشاةٍ كأنّها من الباغة، وربطات عنق فرحة، وأحذية لامعة. كان يُسجِّلُ أيّ عيبٍ في نظافة الشخصية مزمجراً زمجرةً تعني أمراً بالعودة إلى المهجع لتصحيحه. أمّا بقية اليوم فكان يقضيه محبوساً في مكتبه في الطابق الثاني، فلا نراه حتى صباح اليوم التالي في الساعة ذاتها، أو بينما هو يمشي الخطوات الاثنتي عشرة بين مكتبه وقاعة السنة السادسة، حيث كان يملي درس رياضياته الوحيد ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع. كان طلابه يقولون إنّه عبقريّ في الأرقام، وظريف في الصف، ويذهلهم بمعرفته، ويجعلهم يرتعدون رعباً من الامتحان النهائي.

اضطُرِرتُ بعد وصولي بقليل لأن أكتب كلمة افتتاحية لاحتفالٍ رسمي في المدرسة. وافق معظم المعلمين على الموضوع، لكنّهم التقوا على أنّ الكلمة الفصلَ في مثل تلك المناسبة هي للمدير. كان يعيش في نهاية درج الطابق الثاني، لكنّني عانيت من المسافة كما لو كانت رحلة حول العالم سيراً على الأقدام. كنتُ قد نمتُ نوماً سيّئاً في

الليلة السابقة، ووضعت ربطة عنق يوم الأحد، ولم أكد أتذوّق طعام الإفطار. طرقتُ باب الإدارةِ ببطء شديد، بحيث أنّ المدير لم يفتح لي إلاّ في المرّة الثالثة، أذن لي بالدخول دون أن يُرحّب بي. وكان هذا من حسن حظّي، لأنّني لم أكن لأملك صوتاً كي أردّ عليه، ليس لأنه كان جافّاً وحسب، بل لمهابة وترتيب وجمال مكتبه، بأثاثه المصنوع من الخشب الكريم والقطيفة والجدران المغطاة برفوف الكتب المغلّفة بالجلد. انتظر المدير برصانة رسمية أن أستعيد أنفاسي، ثمّ أشار إلى الكرسي الموجودة أمام مكتبه، وجلس هو على كرسّيه.

كنتُ قد أعددت توضيحاً عن سبب زيارتي إعداديَ للخطاب تقريباً. استمع إليه بصمت ووافق على كلّ جملة بحركةٍ من رأسه، لكن دون أن ينظر إليّ بعد، بل إلى الورقة التي راحت ترتجف في يدي. حاولت أن أكسب منه ابتسامةً في بعض النقاط التي اعتقدتُ أنّها طريفة، لكن دون جدوى. وأكثر من ذلك: أنا واثق من أنّه كان قد أصبح على معرفة بمعنى زيارتي، لكنّه تركني أكمل طقس توضيحه له.

حين انتهيتُ مدّ إليّ يدَه من فوق المكتب وأخذ الورقة. رفع نظارته ليقرأ باهتمام عميق، ولم يتوقّف إلاّ لتصحيح شيئين بقلم حبره. ثمّ وضع نظارته، وكلّمني بصوتٍ وعر هزّ قلبي، دون أن ينظر إلى عينيّ.

ـ هنا توجد مشكلتان ـ قال لي ـ أنتَ كتبتَ: «انسجاماً مع النباتات الوفيرةِ في بلدنا، التي عَرَّفَ العالِمُ الأسبانيّ خوسِهْ ثِلِسْتينو موتيس العالَمَ بها في القرن الثامن عشر، نعيش في هذا المدرسة جوّاً فردوسياً». المسألة أنّ وفيراً تكتب بالف بعد الواو ودون الياء وفردوسيّاً لا تحمل شدّة على الياء.

شعرتُ بالإهانة. لم أملك جواباً على الحالة الأولى، لكن لم يكن عندي أدنى شك بالنسبة للثانية، فأجبته على الفور، بما تبقّى لديّ من صوت:

ـ عفوكَ، يا سيدّي المدير، القاموس يقبل فردوسيّاً بنبرة أو دون نبرة، لكنّ تشديد المقطع الثاني بدا لي أكثر موسيقية.

يبدو أنّه شعر بأنّه مهان مثلي، فهو حتى تلك اللحظة لم ينظر إليّ، بل أخذ القاموس من الرف دون أن ينطق بكلمة. انكمش قلبي، لأنّه كان أطلس جدّي ذاته، لكنّه جديد ولامع، وربّما لم يُستخدم. من المحاولة الأولى فتحه على الصفحة المطلوبة، وقرأ ثم قرأ الكلمة وسألني دون أن يرفع نظره عن الصفحة:

ـ في أيّ سنة أنت؟

ـ الثالثة ـ قلت له.

أغلق القاموس بضربة فخّ قويّة، ونظر إلى عينيّ لأوّل مرّة.

ـ أحسنت ـ قال ـ لتبقَ كما هي.

لم ينقصني منذ ذلك اليوم إلاّ أن يُعلنني رفاقي في الصف بطلاً، فقد بدؤوا ينادونني بكلّ الخبث الممكن بـ «السواحليّ الذي تكلّم مع المدير». ومع ذلك فإنّ أكثر ما أثّر بي من تلك الزيارة إنّما كان أنّني اصطدمتُ مرّة أخرى بمأساتي مع الإملاء؛ التي لم أستطع أن أفهمها قط. حاول أحدُ معلمِيَّ أن يُوَجِّهَ إليّ ضربةَ الخلاص، بزفّه لي خبرَ أنّ سيمون بوليفار لا يستحق مجدَه، بسبب إملائه السيّئ جدّاً، وبعضهم كان يواسيني بذريعة أنّها مشكلة الكثيرين. وحتى اليوم وبعد سبعة عشر كتاباً منشوراً، يُكرّمني مصحّحو بروفات المطبعة بتفضّلهم بتصحيح فظائع الإملاء، على أنّها أخطاء مطبعية بسيطة.

كانت حفلات ثيبّاكيرا الاجتماعية تتوافقُ بشكلٍ عام مع ميول وطريقة كلٍّ واحد في الحياة. فمناجم الملح، التي عثر عليها الأسبان مكشوفة، كانت عامل جذبٍ للسياح في نهايات الأسابيع، وتكمتل بالتخمة من اللحم بالفرن والبطاطا المتبلة في أطشات الملح. وكنا نحن الطلاب السواحليين الداخليين، بصيتنا المستَحَق كصاخبين وسيّئي تربية، معروفين بحسن التربية كفنانين في الرقص الموسيقى الدارجة، وبالذوق الحسن في العشق حتى الموت.

وقد وصل بي الأمر من العفويّة حدّاً أنّني في اليوم الذي علمنا

به بنهاية الحرب العالمية خرجنا إلى الشوارع في مظاهرة فرَح، حاملين الأعلام واللافتات، وهاتفين بصيحات النصر. شخص ما طلب متطوِّعاً يُلقي الخطاب، فخرجتُ دون أن أفكّر إلى شرفة النادي الاجتماعي، أمام الساحة الكبرى، وارتجلته بصيحاتٍ رنّانة جعلت الكثيرين يظنّون أنّني حفظته عن ظهر قلب.

كان ذلك هو الخطاب الوحيد الذي وجدت نفسي مجبراً على ارتجاله في سنواتي الستين الأولى. وأنهيته بامتنان شاعري لكلّ واحدٍ من العظماء الأربعة، لكنّ ما لفت انتباه الناس في الساحة هو ما قلته عن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، الذي كان قد تُوفّي قبل وقتٍ قصير: «إنَّ فرانكلين دِلانتو روزفِلت مثل السيد البطل،(*) يعرف كيف يكسب المعارك بعد موته». بقيت الجملة طافية في جوٍّ المدينة لعدّة أيام، وأعيد إنتاجها في لافتاتٍ في الشوارع، وعلى صور روزفِلت، وفي واجهاتِ بعض الحوانيت الزجاجية. وبذلك فإنّ نجاحي العامَّ الأوّل لم يكن في أنّني كنتُ شاعراً أو روائيّاً، بل خطيباً، وأسوأ من ذلك خطيباً سياسيّاً. ومنذ تلك اللحظة لم يقم احتفال عام في المدرسة إلا وصعدوا بي إلى الشرفة، لكن مع فارق أنّ خطاباتي في تلك المرحلة كانت مكتوبة ومنقّحة حتى آخر نَفَس.

ومع الزمن أفادتني تلك الصفاقة في أنّني أُصِبتُ برعب مسرحيٍّ قادني إلى حدٍّ الخرس المطلق، سواء في الأعراس الكبرى كما في حانات الهنود بأدثرتهم ونعال قنّبهم، حيث كنّا ننتهي على الأرض، إلى بيت برِنيثِ، الجميلة والمنفتحة، التي حالفها حظّ جيد بأنّ لا تتزوّج منّي لأنّها كانت مجنونة بهوى آخر، أو إلى مكتبِ التلغراف، حيث كانت ساريتا التي لا تُنسى ترسل لي بالدين برقيات اللحظة الحرجة، حين يتأخّر أبواي بإرسال حوالة بنفقاتي الشخصية،

(*) El Cid Campeador هو رودريغو ديّاث دِ بيبار، المُلقّب بالسيّد (1043 ـ 1099) بطلُ حرب الاستعادة في أسبانيا رغم أنّه قاتل مع العرب المسلمين وضدّهم دون تمييز، وقد تحوّل إلى أسطورة في الأدب: نشيد ميو سيد (سيّدي). عرِف عنه أنّه حين مات وضعوه على جواده كي يُخيفوا به العرب، ومن هنا جاءت الإشارة إلى أنّه يكسب المعارك بعد موته.

ودفعت لي أكثر من مرّة الحوالات مقدَّماً كي تُخرجني من مأزقي. ومع ذلك فأقل ما يمكن أن يُنسى لم يكن حبّاً يخصّ أحداً، بل جنّية المغرمين بالشعر، واسمها ثِثيليا غونثالِثْ بّيثانو، التي تمتّعت بسرعة بديهة، وملاحة شخصية وروح حرّة في أسرة من سلالة محافظة، وذاكرة خارقةٍ بالنسبة لكلّ الشعر. كانت تعيش أمام باب المدرسة مع عمّة أرستقراطية وعازبة في بيت من الطراز الاستعماري تحيط به حديقة من نباتات رقيب الشمس. كانت في البداية علاقة مقتصرة على المباريات الشعرية، لكنّ ثِثيليا انتهت إلى أن أصبحت رفيقة الحياة الحقيقيّة، ميتة من الضحك دائماً، وقد تسرّبت أخيراً إلى دروس أدب المعلّم كالدِرون بتواطؤ من الجميع.

خلال وجودي في أراكاتاكا حلمتُ بالحياة الطيبة، بأن أمضي من مهرجان إلى آخر مغنياً بصوتي الجيّد وأكورديوني، وهو ما بدا لي دائماً أقدم وأسعد طريقة لحكاية حكاية. إذا كانت أمّي قد تخلّت عن البيانو من أجل إنجاب الأولاد، وأبي علّق كمانه كي يعيلنا، فمن غير العدل تقريباً أنّ يؤسِّس أكبر أبنائهم لسابقة الموت جوعاً من أجل الموسيقى. إنّ مشاركتي الطارئة كمُغنٍّ وعازف تيبلي في فرقة المدرسة برهنت على أنّني كنتُ أملك أذناً لتعلّم العزف على آلة أصعب، وأستطيع أن أغنّي.

لم تُحْيَ سهرة وطنية أو جلسة وقورة في المدرسة إلا وكان لي يد فيها بطريقة أو بأخرى. والفضل في ذلك كان دائماً للمعلّم غيِّرمو كِبِدو ثورنوسا، الملحن، ووجيه المدينة، والمدير الأبديّ لفرقة البلدية ومؤلّف «شقيقة النعمان» ـ شقيقة نعمان الطريق، الحمراء كالقلب ـ، أغنية الشباب التي شكّلت في زمنها روح السهرات والأغاني الليلية. كنتُ في أيّام الآحاد وبعد القدّاس الأكبر أوّل الذين يعبرون الحديقة العامّة لحضور موسيقاه، يبدؤها دائماً «بالعقعق ينبح» و«جوقة المطارق» وينهيها بِ «المغني الجوّال». لم يعرف المعلّم قط، كما لم أجرؤ على أن أقول له، أنّ حلم حياتي في تلك السنوات كان في أن أكون مثله.

حين طلبت المدرسةُ متطوّعين لدورة لتقدير الموسيقى، كنّا أنا

وغيِّرمو لوبِّثْ غِرّا أوّل من رفعا إصبعهما. تقرّر أن تتمّ الدورة صباحات أيّام السبت، وتولاها الأستاذ أندرِسْ بيدرو توبار، مخرج أوّل برنامج للموسيقى الكلاسيكية في «صوت بوغوتا». لم نشغل ربع مساحة المطعم المُهيّأ للدرس، لكن سرعان ما سحرنا بطلاقة لسانه الرسولية. كان الكاتشاكو التام، يرتدي بلوزة، وصدرة من الأطلس، وله صوت متماوج وحركة متأنّية. ما يبدو جديداً اليوم بسبب قِدمه هو الحاكي ذو المقبض الذي كان يشغله بمهارةٍ وحبِّ مروّضِ فقمات. كان ينطلق من فرضية أنّنا أغرار حقيقيّون ـ وكان هذا صحيحٍ في حالتنا ـ. وهكذا بدأ بِكرنفال الحيوانات لِسان ـ سينز، واصفاً بمعلومات واسعة طريقة كلّ حيوانٍ بالحياة. ثمّ عزف ـ وكيف لا! ـ بطرس والذئب لِبروكوفييف. السيّئ في تلك الحفلة السبتية هو أنّه انطبع في ذهني تحفّظ مفاده، أنّ موسيقى الموسيقيين العظام هي رذيلة شبه سرّية، واحتجت لسنواتٍ كثيرة كي أستطيع أن أميّز تمييزاً كبيراً بين الموسيقى الجيّدة والموسيقى السيِّئة.

لم أُجرِ بعدها أيّ اتصال مع المدير حتى العام التالي، حين كُلّف بكرسيّ الهندسة في السنة الرابعة. دخل إلى القاعة في الساعة العاشرة من أوّل ثلاثاء. ألقى مزمجراً تحيّةَ الصباح دون أن ينظر إلى أحد، ونظّف اللوحَ بالممحاة حتى لم يبقَ أدنى أثرٍ من الغبار. وعندئذٍ التفت إلينا وسأل ألبارو رويث تورِّس، قبل أن يقرأ لائحة الحضور:

ـ ما النقطة؟

لم يكن هناك وقت للإجابة، لأنّ أستاذ العلوم الاجتماعية فتح الباب دون أن يطرقه، وقال للمدير إنّ هناك مكالمة مستعجلة من وزارة التربية. خرج المدير مسرعاً كي يردّ على الهاتف، ولم يعد إلى الصف. لم يعد بعدها أبداً، فالمكالمة كانت من أجل إبلاغه بإعفائه من منصب المدير الذي شغله بجدارة خلال خمس سنواتٍ في المدرسة، وبعد حياةٍ كاملة من الخدمة الجيّدة.

كان خليفته هو الشاعر كارلوس مارتين، أفتى الشعراء

الجيّدين في جماعة «حجر وسماء»، التي ساعدني ثِسَرْ دِل باليه على اكتشافها في بارّانكيّا. كان في الثلاثين من عمره، وعنده ثلاثة كتب منشورة. كنتُ أعرف بعض قصائده، وتعرّفت عليه ذات مرّة في مكتبة من مكتبات بوغوتا. ومع ذلك لم يكن عندي ما أقوله له قط، ولم أملكُ كتاباً من كتبه كي أطلب منه أن يُوقِّعه لي. ظهر ذات يوم اثنين في استراحة الغداء دون إعلام مسبق. لم ننتظره بتلك السرعةَ. بدا محامياً أكثر مما هو شاعر: بطقمه ذي الخطوط الإنكليزية، وجبينه المكشوف، وشاربه الرفيع، وصرامةٍ هيئته التي كانت تظهر في شعره أيضاً. تقدّم بخطواته المدروسة جيّداً باتجاه أقرب المجموعات إليه، وديعاً ومتحفّظاً قليلاً، ومدَّ لنا يدَه:

ـ مرحباً، أنا كارلوس مارتين.

كنتُ في تلك المرحلة مفتوناً بالنثر الشعري الذي كان ينشره إدواردو كارّانثا في القسم الأدبي من صحيفة «إلْ تييمبّو» وفي مجلة «سابادو»(*). كان يبدو لي جنساً مستلهماً من «أنا وحماري» لخوان رامون خيمِنِث، الذي كان دارجاً بين الشعراء الشباب، الطامحين لمحوِ أسطورة غيِّرمو بَلنسيا من الخريطة. رعى الشاعر خورخِهْ روخاس، وارث ثروة سريعة الزوال، باسمه ومن حسابه، نشرَ بعض الدفاتر الأصيلة، التي أيقظت اهتماماً كبيراً بين أبناء جيله، وجمعت بين مجموعة من الشعراء الجيّدين المعروفين.

كان تغييراً عميقاً في العلاقات الداخلية. فصورة المدير السابق الشبحية استُبدِلت بحضور محسوس يُبقي على المسافات الضرورية، لكنّه يبقى في متناول اليد دائماً. تخلّى عن التفقّد الروتيني بالحضور الشخصي، كما تخلّى عن قواعد أخرى غير ذات معنى، وصار يتحادث مع الطلاب في استراحة الليل.

وضعني الأسلوب الجديد في التعامل على طريقي. ربّما كان كالدِرون قد كلّم المدير الجديدَ عنّي، فقد امتحنني في إحدى الليالي

(*) السبت.

الأولى امتحاناً هادئاً حول علاقتي بالشعراء، ورميته بكلّ ما كان في داخلي. سألني عمّا إذا كنتُ قد قرأت التجربة الأدبية، وهو كتاب لِدون ألفونسو رّيِّسْ، لاقى تعليقات كثيرةً. اعترفتُ له بأنني لم أفعل، فأحضره لي في اليوم التالي. التهمتُ نصفه في ثلاثة دروس متتالية من تحت المقعد، والباقي في استراحات ملعبِ كرة القدم. أسعدني أنّ كاتب دراسات بمثل تلك المكانة يهتمّ بدراسة أغاني أغوستين لارا، كما لو أنّها قصائد لغارثيلاسو، بذريعة جملة فذّة: «أغاني أغوستين لارا الشعبية ليست أغانٍ شعبية». كان ذلك بالنسبة إليّ كما لو أنّني عثرت على الشعر ذائباً في حساء الحياة اليومية.

تنازل مارتين عن شقّة الإدارة الصغيرة الرائعة. وأقام مكتبَه مفتوحَ الأبواب في الفناءِ الرئيسي، وهذا ما قرّبه أكثر من مسامراتنا بعد العشاء. وسكنَ لزمنٍ طويل مع زوجته وأولاده في بيت كبير من الطراز الكولونيالي في حالة جيّدة عند زاوية الساحة الرئيسية، ومعه استوديو جدرانه مغطاة بكلّ الكتب التي يمكن أن يحلم بها قارئ مهتمّ بالأذواق المجدِّدة في تلك السنوات. كان يزوره في نهايات الأسابيع أصدقاؤه من بوغوتا لا سيّما رفاق «حجر وسماء». اضطررت ذات أحدٍ أن أذهب برفقة غيِّرمو لوبِّثْ غِرًّا إلى بيته لمراجعة عرضية، وكان هناك إدواردو كارّانثا وخورخِه روخاس، النجمان الكبيران. أمرنا المدير بالجلوس بإشارة سريعة كيلا نقطع حديثهم. بقينا هناك نصف ساعة دون أن نفهم كلمةً واحدة، لأنّهم كانوا يناقشون كتاباً لِبّول فاليري لم نكن قد سمعنا شيئاً عنه. كنتُ قد رأيت كارّانثا أكثر من مرّة في مكتبات بوغوتا ومقاهيها، وكان باستطاعتي أن أعرفه من جرس صوته وطلاقته المنسجمة مع ثيابه، ثياب المتسكع، وطريقته في الحياة: كشاعر. بالمقابل لم أستطع أن أميِّز خورخِه روخاس بسبب زيّه وأسلوبه الوزاري، إلى أن خاطبَه كارّانثا باسمه. كنتُ أتوق لأن أكون شاهِداً على نقاش حول الشعر بين أعظم ثلاثة، لكنّ هذا لم يحدث. وضع المديرُ، في نهاية الأمر، يدَهُ على كتفي، وقال لضيوفِهِ:

ـ هذا شاعر عظيم.

طبعا قال ذلك ملاطفة، لكنني صُعِقتُ. أصرّ كارلوس مارتين أن يأخذ لي صورة مع الشاعرين الكبيرين، وأخذها بالفعل، لكنّني لم أعرف عنها شيئاً إلا بعد نصف قرن في بيته على الشاطئ الكتلاني، حيث ابتعد ليستمتّع بشيخوخته الحسنة.

هزّت رياحُ التجديدِ المدرسةَ؛ فالمذياع الذي كنّا لا نستخدمه إلا كي نرقص نحن الرجال بعضنا مع بعض، تحوّل مع كارلوس مارتين إلى أداة للبوح الاجتماعي، فسُمِعت نشرات الأخبار الليلة ونوقِشَت في فناء الاستراحة لأوّل مرّة. وازداد النشاطُ الثقافي مع إحداث مركز أدبيّ ونشر صحيفة. وحين وضعنا لائحة بأسماء المرشحين المحتمَلين انطلاقاً من هواياتهم الأدبية الواضحة جيّداً، مَنَحنا عددُهم اسمَ المجموعة: مركز الثلاثة عشر الأدبي. بدا لنا ضربة حظّ، وتحدّياً للخرافة أيضاً. جاءت المبادرة من الطلاب أنفسهم، وكانت تعتمد على اجتماعنا مرّة في الأسبوع نتحدّث فيها عن الأدب، كما أصبحت فعلاً شغلنا الشاغل في أوقات فراغنا داخل وخارج المدرسة. كان كلّ واحد منّا يحمل معه ما يخصّه ويقرؤه ويُخضِعه لرأي الجميع. ورحت أساهم مذهولاً بهذا المثل بقراءة سونِتات وقّعتُها باسم خابيير غارثِسْ المستعار، الذي لم أستخدمه في الحقيقة للتميّز، بل للتخفّي. كانت مجرّد تمارين فنية دون إلهام ولا طموح، لم أعزُ إليها أيّة قيمة شعرية، لأنّها لم تكن تنبعُ من روحي. بدأت بتقليد كِبِدو ولوبِّ دِ بِغا، وحتى غارثيّا لوركا، الذي كانت قصائده ثُمانية المقاطع من التلقائية بحيث يكفي المرء أن يبدأ بها كي يتابعها دون عناء، وقد وصلت بي حمى التقليد هذه حدًّا أنّني قرّرت محاكاة كلّ سونِته من سونِتات غارثِلاثو دِ لا بِغا الأربعين حسب ترتيبها. كما كتبتُ ما كان يطلبه منّي الطلابُ الداخليون ليقدّموه لصديقاتِ آحادهم على أنّه لهم. قرأت لي إحداهنّ بتأثُّرٍ وسرّية تامّة الأبيات التي خصّها بها أحد المتودِّدين على أنّه كاتبها.

أعطانا كارلوس مارتين مستودعاً صغيراً ذا نوافذ مغلقة أمنياً في الفناء الثاني من المدرسة. كنّا قرابة الخمسة أعضاء نضع

مهماتِ الاجتماع التالي. ما من أحدٍ منهم صار كاتباً، لكنّ الأمر لم يتعلّق بذلك، بل بتجريب إمكانيات كلّ واحدٍ منّا. كنّا نناقش أعمال الآخرين إلى حدَّ أنّنا ننفعل، وكأنّ الأمر يتعلّق بمباراة بكرة قدم. اضطرّ ريكاردو غونالِث ريبُّول ذات مرّة أن يخرج من منتصف النقاش، وفاجأ المدير وهو يضع أذنه على الباب يتنصّت على النقاش. كان فضوله مشروعاً لأنّه لم يكن يبدو أنّنا نكرِّس فعلاً ساعاتِ فراغنا للأدب.

وصلنا في نهاية آذار خبر أنّ المدير السابق، دون ألخاندرو راموس، أطلق النار على رأسه في الباركِ ناثيونال(*) في بوغوتا. ما من أحد رضي أن يعزو الأمرَ إلى طبيعته الانطوائية وربّما الكيئبة، كما لم يتصوّر أحدٌ سبباً معقولاً لانتحاره خلف صرحِ الجنرال رافائيلِ أوريبِ أوريبِ، الذي قاتل في أربع حروب مدنية، وكان سياسياً ليبراليّاً اغتاله متعصّبون بضربة فأس في فناء الكابيتوليو. حضر وفدٌ من المدرسة برئاسة المدير الجديد جنازةَ المعلّم ألخاندرو راموس، التي بقيت في ذاكرة الجميع كأنّها وداعٌ لعصر آخر.

كان الاهتمامُ بالسياسة الوطنية قليلاً جدّاً بين الطلاب الداخليين. كثيرا ما سمعت في بيت جدَّيّ، أنّ الفارق الوحيد بين الحزبين بعد حرب الألف يوم، هو أنّ الليبراليين كانوا يذهبون إلى قدّاس الخامسة كيلا يراهم الناس، بينما يذهبُ المحافِظون إلى قدّاس الثامنة كي يظنوا أنّهم مؤمنون. ومع ذلك بدأ الناسُ يشعرون من جديد بالاختلافات الحقيقية بعد ثلاثين عاماً؛ حين خسر حزب المُحافِظين السلطةَ، وحاول الرؤساء الليبراليون الأوائل أن يفتحوا البلد أمام رياح العالم الجديدة. راح حزب المحافظين، المهزوم بصدأ سلطته المطلقة، يفرض النظام ويُنظف داخل بيته ذاته في ظلّ تألُّق موسوليني البعيد في إيطاليا، وظلمات الجنرال فرانكو في إسبانيا، بينما حاولت الإدارةُ الأولى للرئيس ألفونسو لوبِّث

(*) الحديقة الوطنية.

بّومارِخو، مع حلقة من الشباب المثقفين، أن تخلق الظروف لليبراليةٍ حديثة، ربّما دون أن تنتبه إلى أنّها تنفّذ قدريّة انقسامنا التاريخي إلى النصفين اللذين كانا قائمين في البلد. كان أمراً محتوماً. عرفتُ من أحدِ الكتب التي قدّمها إلينا المعلمون نصّاً منسوباً إلى لينين: «إذا أنت لم تحشر نفسك في السياسة، فإنّ السياسة ستحشر نفسها فيك».

ومع ذلك وبعد ستٍ وأربعين سنة من الهيمنة الكهفية للرؤساء المحافظين، راح السلامُ يبدو ممكناً. لقد فتحَ ثلاثةُ رؤساء شُبَّانٍ، يتمتعون بعقلية حديثة، أفقاً ليبرالياً بدا مستعداً لكنس ضبابِ الماضي. ألفونسو لوبِّث بومارِخو، الإصلاحيّ المُجازف والأبرز بين الثلاثة، فرض انتخابه لدورة رئاسية ثانية في العام 1942، دون أن يبدو أنّ هناك ما يستطيع أن يُزعزع إيقاعَ تداول الرئاسة. وهكذا كنّا في السنة الأولى من المدرسة غارقين في أخبار الحرب الأوروبية(*)، التي أبقت علينا في قلق لم تتمكّن السياسة الوطنية من وضعنا فيه. لم تكن الصحافة تدخل إلى المدرسة إلا في حالاتٍ خاصّة جدّاً، لأنّنا لم نعتد التفكير بها. لم يكن هناك أجهزة مذياع محمولة. والمذياع الوحيد في المدرسة كان المذياع الكبير في قاعة المعلمين، الذي كنّا نشغله بأعلى صوته في السابعة ليلاً كي نرقص فقط. كنّا بعيدين عن التفكير بأنهم يخوضون أكثر حروبنا دموية وفوضى.

دخلت السياسةُ فجأة إلى المدرسة. انقسمنا إلى ليبراليين ومحافظين، وعرفنا لأوّل مرّة في أيّ جانبٍ كان كلّ واحد منّا. وظهر اصطفافٌ داخليّ حميمٌ وأكاديميّ قليلاً في البداية، تداعى في الحالة المعنوية ذاتها التي راحت تُفسِد البلد. لم تكد التوترات الأولى في المدرسة تكون محسوسة، لكنّ أحداً لم يشكّ بالتأثيرات الطيِّبة لِكارلوس مارتين الذي ترأس مجموعةَ أساتذةٍ لم يُخفوا قط إيديولوجياتهم، وإذا لم يكن المدير الجديد منتمياً بشكل واضحٍ لأحد

(*) يقصد بها الحرب العالمية الثانية، وكذلك الأمر حين يتكلّم عن الحرب العالمية.

الفريقين، إلاّ إنّه على الأقل قد وافقَ على سماع نشرات الأخبار الليلية من مذياع القاعة، وصارت الأخبار السياسية منذ ذلك الوقت تُغطّي على موسيقى الرقص. كان يُقال دون تأكيد أنّ عنده في مكتبه صورة للينين أو ماركس.

كانت حصيلةُ ذلك الجوّ المُقلقل هي التهديد الوحيد بالتمرّد الذي حدث في المدرسة. فقد راحت الوسائد والأحذية تتطاير في المهجع على حساب القراءة والنوم. لم أستطع أن أحدد السبب، لكنّني أعتقد أنّني أتذكّر - ومعي عدد من الزملاء - أنّه جاء نتيجةِ أحد فصول الكتاب الذي قرَأناه بصوتٍ عالٍ في تلك الليلة: «المُتهوِّر» لرومولو غاليغو. كانت مشاجرة حربيةً غريبة.

دخل كارلوس مارتين الذي استُدعي على وجه السرعة إلى المهجع، وجابَهُ عدّة مرات من طرفه إلى طرفه وسط الصمت الهائل الذي سبّب ظهوره. وأمرنا بنشوة استبدادية، غير معهودة في من هم بطبيعته، أن نُغادرَ المهجع بالبيجامات والأخفاف، واصطففنا في الفناء شديد البرودة، وصبّ علينا هناك خطاباً ملتهباً على طريقة كاتيلينا(*) الطنانة. وعُدْنا بنظام تامٍّ لنتابع نومَنا. كان هذا هو الحادث الوحيد الذي أذكره طيلة سنواتنا في المدرسة.

كان ماريو كونبرس، الذي وصل في ذلك العام إلى المستوى السادس، قد وضعنا في حالة من الاضطراب بموضوع أن نصدر صحيفة مختلفة عن صحف بقيّة المدارس العادية. أحد اتصالاته الأولى كانت معي، وبدا لي من الإقناع بحيث أنّني قبلت أن أصبح رئيساً لتحريرها، سررت لكن دون أن تكون عندي أيّة فكرة عن مهامي. تصادفت التحضيرات النهائية للصحيفة مع اعتقال مجموعة من كبار ضباط القوّات المسلحة للرئيس لوبِّثْ بومارِخو في الثامن من تموز من العام 1944، أثناء قيامِهِ بزيارةٍ رسمية إلى جنوبيّ

(*) Lucio Sergios Catalina (109 – 62 ق. م) نبيل روماني، حاكم أفريقية، تآمر على مجلس الشيوخ فكشف أمره وهاجمه شيشرون بخطابات شهيرة دُعيت «الكاتيلينيات» قتل في معركة.

البلاد. لم يكن في القصّة التي رواها بنفسه أيّة زوائد. ربّما روى للمُحققِّين، دون قصدٍ، روايةً رائعةً مفادها أنّه لم يَعْلَم بما حدث إلا بعد إطلاقِ سراحه. وكان من التشبّثِ بحقائق الحياة الواقعية، بحيث أنّ انقلاب بَاستو بدا حدثاً من الأحداث الكثيرة المضحكة في التاريخ الوطني.

أبقى ألبِرْث بيراس كامارغو، بصفته أوّل رئيسٍ معيَّن، على البلد منوّماً بصوته وخطابه التام ساعاتٍ عدّة عبر الإذاعة الوطنية، إلى أن أُطلِق سراح الرئيس لوبِّث، واستعيد النظام. لكنَّ منعَ التجوّل الصارم، ومراقبة الصحافة، كانا قد فُرِضا. لم تكن التوقّعات واضحة. كان المحافظون قد حكموا البلاد منذ الاستقلال عن أسبانيا في العام 1830 وحتى انتخاب أولايا هِرِّرا بعد قرنٍ، ولم تظهر أيّة علامة توجه نحو اللَبْرَلَة. ومع ذلك بدأ الليبراليون يصبحون في كلِّ مرّة أكثر محافظة، في بلد راحَ يُخلّفُ مِزَقاً من جسده في تاريخه. كانت لديهم في تلك الفترة نخبة من المفكرين الشبان المسحورين بأحلام السلطة، الذين كان مثَلُهم الأكثر جذرية وقابلية للحياة هو خورخِه إلِيثِر غايتان؛ أحد أبطال طفولتي نظراً لنشاطاته المناهضة للقمع في منطقة الموز، والذي سمعت عنه منذ أن وعيتُ دون أن أفهمه. كانت جدّتي معجبة به لكنّني أعتقد أنّ تقاطعاته مع الشيوعيين كان يُقلِقها. كنتُ خلفه حين راح يلقي خطبة مدوّية من شرفة في ساحة ثِيبَّاكيرا، وأدهشني رأسه الذي له شكل بطيخة، وشعرٌ سابل وقاسٍ، وكذلك بشرتُه التي لهنديّ أحمر خالص، وصوته الراعد بنبرةِ زعران بوغوتا، التي ربّما بالغ بها لحسابات سياسية. لم يتحدّث في خطابه، كما يتحدّث الجميع، عن ليبراليين ومحافِظين، أو عن مستغِلّين ومُستَغَلّين، بل عن فقراء وأقلية حاكمة، هذه الكلمة التي سمعتها آنذاك لأوّل مرّة مطروقة في كلّ جملة، فسارعت للبحث عنها في القاموس.

كان مُحامياً مرموقاً، وتلميذاً بارزاً لأخصّائيٍّ القانون الجنائي الإيطالي إنريكو فِرِّي في روما. درس هناك فنون خطابة موسوليني، وعنده شيء من أسلوبه المسرحي على المنصّة. كان

غابرييل توربّاي، منافسه في الحزب، طبيباً مثقفاً وأنيقاً، يضع نظارة ذهبية ناعمة تُضفي عليه سيماءَ فنانين سينمائيين. كان قد ألقى في مؤتمر الحزب الشيوعي المنعقد توّاً خطاباً مرتجلاً فاجأ الكثيرين، وأقلق بعضَ أعضاء حزبه البرجوازيين، لكنّه كان يعتقد أنّه لا يناقض لا بالكلمة ولا بالعمل تربيته الليبرالية ولا ميوله الأرستقراطية. وكانت ألفته مع الدبلوماسية الروسية تعود لعام 1936، حين أقام العلاقات مع الاتحاد السوفييتي بوصفه سفيراً لكولومبيا في روما. بعد سبع سنوات أعلن عنها في واشنطن رسمياً، بصفته وزيراً لكولومبيا في الولايات المتحدة.

كانت علاقاته بالسفارة السوفييتية في بوغوتا وديّة جدّاً، وله في الحزب الشيوعي الكولومبي بعض القادة الأصدقاء الذين باستطاعتهم أن يقرّوا تحالفاً انتخابياً مع الليبراليين، تمَّ الحديث عنه كثيراً في تلك الأيّام، دون أن يتحقَّق أبداً. كما جرت في تلك المرحلة أثناء وجوده سفيراً في واشنطن، شائعاتٌ عن أنّه كان صاحباً سرّياً لنجمةٍ من نجوم هوليوود الكبيرة ـ ربّما كانت جون كروفورد أو بّولِتّ غودار ـ، لكنّه لم يتنازل قط عن حياته كعازب لا يغريه شيء.

كان باستطاعة منتخبي غايتان ومنتخبي توربّاي أن يُشكّلوا غالبية ليبرالية، ويشقّوا طرقاً جديدةً داخل الحزب ذاته، لكن ما من أيّ من الجانبين منفصلين كان باستطاعته أن ينتصر على المحافظين المتحدين والمسلحين.

ظهرت مجلتنا «غاثِتا ليتِراريا»(*) في تلك الأيّام السيّئة. فاجأتنا، نحن الذين كنّا قد طبعنا العدد الأوّل، أناقتها المهنية وطباعتها الجيّدة في ثماني صفحات من الحجم المتوسّط. كان كارلوس مارتين وكارلوس خوليو كالدِرون أكثر المتحمسين لها، وناقشا في الاستراحات بعض المقالات. بينها المقال الأهم الذي كتبه كارلوس مارتين بناء على طلبنا، طرح فيه الحاجة لاتخاذ

(*) الصحيفة الأدبية.

الموقف الذي يمليه الضمير في المعركة ضدّ المتاجرين الصغار بمصالح الدولة، والسياسيين والمتسلقين والمضاربين بالأوراق النقدية، الذين يعيقون مسيرة البلد الحرّة. نُشر مع صورة كبيرة له على الصفحة الأولى. وكان هناك مقال لِكونْبِرسْ عن العالمَ الأسباني، ومقطوعة نثرية غنائية لي موقّعة باسم خابيير غارثِيسْ. أعلن لنا كونْبِرسْ أنّها لاقت بين أصدقائه في بوغوتا حماساً كبيراً، وتوجدُ إمكانيات لتمويلها وإطلاقها بحجم كبير كمجلّة لكلّ المدارس.

وقع انقلاب بّاستو قبلَ أن يتمّ توزيع العدد. في اليومِ الذي أُعلن فيه أن الأمن العام قد تعكّر، اقتحمَ عمدةُ ثيبّاكيرا المدرسةَ على رأسِ فصيل مسلح، وصادر الأعداد التي جهزناها للتداول. كان اقتحاماً سينمائياً لا يمكن تفسيره إلا بوشاية ذكية مفادها أنّ في الصحيفة موادّ تدعو لقلب النظام. في اليوم ذاته وصلت مذكّرة من مكتب الصحافة في رئاسة الجمهورية تقول بأنّ الصحيفة طُبعت دون أن تمرَّ على رقابةِ منعِ التجوّل، وقد عُزل كارلوس مارتين من الإدارة دون إعلام مسبق.

كان ذلك بالنسبة إلينا قراراً أحمقَ جعلنا نشعرُ بأنّنا مهانون ومهمون في آنٍ معاً. لم تتجاوز الطبعة المئتي نسخة توزّع على الأصدقاء، لكنّهم وضّحوا لنا أن شرط الرقابة كان حتمياً، نظراً لحالة الطوارئ، وألغي الترخيص وحتى إشعار آخر لم يأتِ قط.

مرّ أكثر من خمسين عاماً قبل أن يكشف لي كارلوس مارتين لهذه المذكرات ألغاز ذلك الحادث اللامعقول. في اليوم الذي صودرت فيه غاثِتا استدعاهُ وزير التربية نفسه الذي عيّنه ـ أنطونيو روتشا ـ إلى مكتبه في بوغوتا، وطلب منه تقديم استقالته. وجده كارلوس مارتين ومعه نسخة من غاثِتا ليتِراريا، التي علّمَ بالقلم الأحمر عدداً من الجمل فيها اعتبرها تمرّدية. وفعل الشيء ذاته بافتتاحيته ومقال ماريو كونبرسْ، بل وبقصيدة لكاتبٍ معروف شكّ بأنّها مشفرة. قال لهم كارلوس مارتين: «حتى الكتاب المقدّس نفسه إذا ما عُلِّمَ بتلك الطريقة الخبيثة يمكن أن يعني عكس معناه

الحقيقيّ»، فجاء ردُّ فعل الوزير الغاضب من الوضوح، بحيث أنّه هدّده باستدعاء الشرطة. عُيِّن مديراً لمجلة سابادو التي كان على مفكّر مثله أن يعتبرها ترقية عظيمة. ومع ذلك تولّد لديه وللأبد انطباع بأنّه ضحيّةُ مؤامرةٍ من اليمين. كان هدفاً لاعتداء في أحد مقاهي بوغوتا وكاد يصدّه برصاصة. فيما بعد أسماه وزيرٌ جديد رئيساً للقسم القانوني، سجّل خلالها مسيرة مهنية لامعة توّجها بالتقاعد محاطاً بالكتب والحنين في سكون تارّاغونا.

في الوقت ذاته الذي تقاعد فيه كارلوس مارتين سرت في المدرسة، وبيوت وحانات المدينة ـ طبعاً دون أن تكون لها أيّة علاقة به ـ روايةٌ مجهولة المصدر مفادها أنَّ الحرب مع البيرو في العام 1932 كانت كذبة اختلقتها الحكومة الليبرالية، كي تصمدَ بالقوّة في وجه معارضة المحافظين الخليعة. الرواية المعمّمة، والتي نسخت أيضاً على آلة النسخ، كانت تؤكّد أنّ المأساة بدأت، دون أدنى أهدافٍ سياسية، حين عَبَرَ رقيبٌ بيروي نهرَ الأمازون مع دورية عسكرية، واختطف من الضفّة الكولومبية خطيبةَ رئيس إدارة لِتيثيا العسكرية، وهي خلاسية مثيرة للقلاقل، كانوا يدعونها لا بّيلا كتصغير لاسم بّيلار. حين اكتشف رئيس الإدارة العسكرية الكولومبي العمليةَ عَبَرَ الحدود الطبيعية مع مجموعة من المشاة المسلحين، وفكّ أسر بّيلا في الأراضي البيروية. لكنّ الجنرال لويس سانتشِثْ ثِرّو، دكتاتور البيرو المطلق، عرف كيف يستغل المناوشة ليغزو كولومبيا، ويحاول أن يُبدّل الحدود الأمازونية لصالح بلده.

أولايا هِرِّرا ـ تحت الحصار الضاري لحزب المحافِظين المهزوم، بعد نصف قرن من الهيمنة المطلقة ـ أعلن حالة الحرب، والتعبئة الوطنية العامّة، وأمدَّ جيشه بالرجال الموثوقين، وأرسل القوات لتحرير الأراضي التي اخترقها البيرويون. هزّت صرخةُ حربٍ البلدَ، وألهبت طفولتنا: «عاشت كولومبيا، ولتسقط البيرو».ومع اشتداد الحرب دارت روايةٌ تقول بأن طائرات «سكادتا» المدنية حُوِّلَت إلى عسكرية، وسُلِّحَت كأساطيل جوّية حربية، وأنّ واحدة منها وبسبب عدم توافر القنابل فرّقت موكب

أسبوع الآلام في بلدة غِبّي البيروية بجوز هند. الكاتبُ الكبير خوان لوثانو إي لوثانو، الذي استنفره الرئيس أولايا كي يبقيه على اطلاع على الحقيقة في حرب الأكاذيب المتبادلة، كتب بنثره المبهر مبيِّناً حقيقةَ الحادث، لكنّ الرواية المزيّفة بقيت هي السائدة زمناً طويلاً.

بالطبع وجد الجنرال لويس ميغِل ثِرّو في الحرب فرصة سماويةً لتمويل نظامه الحديديِّ. ومن ناحيته عَيَّنَ أولايا هِرِّرا الجنرالَ والرئيسَ المحافظَ السابق ميغِل أباديّا مِنْدِثْ، الذي كان موجوداً في باريس، قائداً عامّاً للقوات المسلحة الكولومبية. عبر الجنرالُ الأطلسيّ في باخرة مجهّزة بالمدفعية، وتوغّل في مداخل نهر الأمازون إلى لِتيثيا، في الوقت الذي بدأ فيه كلا الفريقين بإطفاء نيران الحرب.

استُبدِلَ كارلوس مارتين دون أيّة علاقة بمؤامرة باستو أو حادث الصحيفة، وعُيِّنَ مكانه في الإدارة أوسكار إسبيتيا براندْ، المربي الأكاديمي والفيزيائي المرموق. أيقظ التغيير بين الطلاب الداخليين كلّ أنواع الريبة. تحفظاتي عليه هزّتني منذ التحية الأولى، نظراً للحذر الذي أمعن به في شعري الطويل الذي لشاعر وشاربي الغليظ. كان له مظهر قاسٍ وينظر إلى العينين مباشرة بتعبير صارم. أخافني خبرُ أنّه سيصبح مدرّس الكيمياء العضوية.

وذات سبت من ذلك العام، كنّا في السينما في منتصف برنامج مسائي، حين أعلن صوتٌ مضطرب بمكبر الصوت أنّ في المدرسةِ طالب ميت. كان الحادث مرعباً بحيث أنّني لم أستطع تذكّر الفيلم الذي كنّا نشاهِده، لكنّني لم أستطع أن أنسى قط توتّر كلودِيت كولبِرت وهي توشك أن تُلقي بنفسها في نهر صاخب من فوق حاجز الجسر. كان الميت طالباً من السنة الثانية، في السابعة عشر من عمره، وصل توّاً من مدينته البعيدة باستو، القريبة من الحدود مع الإكوادور. توقّف تنفسه خلال جري أقامه معلّم الرياضة كعقوبةِ نهايةِ أسبوع للطلاب الكسالى. كانتْ الحالة الوحيدة لطالب يموت لأيّ سببٍ خلال وجودي في المدرسة، وأثار بلبلةً كبيرةً ليس في المدرسةً وحدها، بل وفي المدينة. اختارني زملائي كي أقول في

الجنازة بعض كلمات الوداع. في تلك الليلة ذاتها طلبتُ مقابلة المدير الجديد كي أطلعه على كلمتي التأبينية، وقد أرعبني دخولي إلى مكتبه كتكرار خارق للمرة الوحيدة التي دخلت بها على المدير السابق الميت. قرأ المعلّم إسبيتيا الكلمة المخطوطة بتقاسيم ماساوية، ووافق عليها دون تعليقات؛ لكنّه حين نهضت للخروج أشار إليّ بأن أعود لأجلس. كان قد قرأ زوايا وأشعاراً من بين الكثير مما كان ينتقل سرّاً من يد إلى يد في الاستراحات؛ وبدا له بعضها جديراً بأن يُنشر في ملحقٍ أدبيّ. وما كدت أخرج من خوفي العاصف، حتى عبّر هو عمّا شكّلَ دون شك هدفَهُ. نصحني بأن أقصّ شعرَ الشاعر، غير اللائق برجل جدّي، وأن أعدّل من شاربي الكثّ كفرشاة، وأن أتخلىّ عن ارتداء قمصان العصافير والأزهار التي تبدو كرنفالية. لم أتوقّع قط شيئاً مماثلاً، ومن حسن الحظ أنّني تمالكت أعصابي كي أردّ عليه بعدم لباقة. لاحظ هو ذلك، واتخذ نبرة عرفيّة ليبينٍّ لي تخّوفَه من أن تفرض موضتي نفسها على زملائي الأصغر منّي نظراً لشهرتي كشاعر. خرجتُ من المكتب متأثّراً بالاعتراف بعاداتي وموهبتي الشعرية من قِبل جهةٍ بمثل تلك الرفعة، ومستعداً لأن أرضي المدير بتغيير مظهري لمناسبة بمثل ذلك الوقار، حتى أنّني فسّرت احتمال إلغاء التكريم بناء على طلب أسرة المتوفّى على أنّه فشلٌ شخصيّ.

جاءت النهاية ضبابية. اكتشف أحدهم بأنّ زجاج التابوت يبدو أغبش، أثناء عرضه في مكتبة المدرسة. فتح ألبارو رويث تورِّس التابوت بناء على طلب الأسرة، وتأكّد بالفعل من أنّه كان رطباً من الداخل. وبالبحث من غير معرفة عن سبب البخار في صندوق كتيم ضَغَطَ ضغطاً بسيطاً بطرف إصبعه على الصدر، فأصدرت الجثّة أنّةً تمزّق القلب. ارتبكت الأسرة من فكرة أنّ يكون حيّاً، إلى أن وضّح الطبيب أن الرئتين كانتا قد حجزتا الهواء نتيجة توقّف التنفس، وطردتاه عند ضغط الصدر.

ورغم بساطة التشخيص، وربّما لهذا السبب، بقي البعض متخوّفاً من أن يكون قد دُفن حيّاً. بهذه الحالة النفسيّة ذهبت لقضاء عطلة السنة الرابعة، متلهفاً كي أقنع أبويّ بألاّ أستمرّ في الدراسة.

نزلتُ في سوكرِ تحت رذاذ مطرٍ خفيّ. بدا لي سور الميناء مختلفاً عن سورِ حنيني. كانت الساحةُ أصغرَ وأكثرَ عرياً مما هي في الذاكرة، وللكنيسة والتلّ نور هجران تحت أشجار اللوز المقلّمة. كانت أكاليل الزهر الملونة في الشوارع تبشّر بعيد الميلاد، لكنّ هذا لم يُثر عندي حرارة انفعال المرات السابقة. ولم أعرف أيّاً من الرجال النادرين الذين يحملون مظلات وينتظرون في الميناء إلى أن قال لي أحدهم، حين مرّ بنبرتِهِ وصوتِهِ اللذين لا يمكن للمرء أن يُخطئ بهما:

ـ ما الأمر؟

كان هذا أبي، ناحلاً نتيجة فقدانه الوزن. لم يكن يرتدي لباسه القطني الأبيض الذي يُميّزه عن بعدٍ منذ سنوات شبابه، بل بنطلوناً منزلياً، وقميصاً استوائياً قصير الكمين، وقبّعة رئيس عمّالٍ غريبة. كان يرافقه أخي غوستابو، الذي لم أعرفه نظراً لنمو سن التاسعة السريع.

من حسنِ الحظّ أنّ الأسرة حافظت على جسارة الفقر، وبدا أنّ العشاء المبكِّر قد حُضِّر قصداً ليلفتوا انتباهي إلى أنّ ذلك البيت كان بيتي ولا بيت لي سواه. الخبر السعيد على المائدة كان أنّ أختي ليخيا قد ربحت اليانصيب. بدأت القصّة ـ التي روتها بنفسها ـ حين حلمت أمّي أنّ والدها أطلقَ النار في الهواء كي يبعد لصّاً فاجأه يسرقُ بيت أراكاتاكا القديم. حكت أمّي الحلم على مائدة الإفطار، حسب العادة العائلية، واقترحت شراء بطاقة يانصيب تنتهي بالرقم سبعة، لأنّ لهذا الرقم شكل مسدّس جدّي ذاته. حالفهم الحظ في بطاقة اشترتها أمّي ديناً، على أن تدفع ثمنها من نقود الجائزة. لكنّ ليخيا، التي كانت في الحادية عشرة من عمرها، طلبت من أبي ثلاثين سنتيماً لتسدّد ثمن البطاقة التي لم تربح، وثلاثين أخرى أصراراً منها على الرقم الغريب 0207 في الأسبوع التالي.

خبّأ أخي لويس إنريكِهْ البطاقة ليخيف ليخيا، لكنّ خوفه كان أكبر يوم الاثنين التالي، حين رآها تدخل إلى البيت وهي تصرخ مثل مجنونة أنّها ربحت اليانصيب. وفي عجلة الشقاوة نسي الأخُ أين

وضع البطاقة، وفي ارتباك البحث اضطروا لأن يفرغوا الخزائن والصناديق، ويقلبوا البيت رأساً على عقب بدءاً من القاعة وحتى المراحيض. ومع ذلك فأكثر ما أقلقهم هو مقدار الجائزة السحريّ: 770 بيزو.

الخبر السيّئ كان أنّ أبويَّ نفّذا أخيراً حلمهما بإرسال أخي إلى إصلاحية فونتيدونيو - في مِدلين، مقتنعين بأنّها مدرسة للأبناء الخارجين عن الطاعة وليس كما هي في الواقع: سجن لإعادة تأهيل المجرمين الأحداث الخطرين جدّاً.

القرار النهائي اتخذه أبي حين أرسل الابن العاق ليقبض ديناً للصيدلية، وبدل أن يُسلّمه البيزوات الثمانية التي دفعوها له، اشترى آلة تيبلي من النوع الجيّد التي تعلّم العزف عليها مثل مايسترو. لم يُبدِ أبي أيّ تعليق حين اكتشف الآلة في البيت، وبقي يُطالب الابن بقبض الدين، لكنّ هذا كان يردّ عليه دائماً بأنّ صاحبة الدكان لم يكن معها النقود كي تدفع له. كان قد مضى قرابة الشهرين حين رأى لويس إنريكِهْ أبي يغني بمرافقة القيثار أغنية مرتجلة: «انظر، لقد كلّفني هذا التيبلي ثمانية بيزوات».

لم ندرِ قط كيف عرف الأمر، ولا لماذا تظاهر بجهله لاحتيال الابن، لكنّ هذا اختفى من البيت حتى هدّأت الأمّ الزوجَ. وعندئذ سمعنا أبانا يوجّه التهديدات الأولى بإرسال لويس إنريكِهْ إلى إصلاحية مِدلين، لكنّ أحداً لم يُعره اهتماماً، فقد سبق وهدّدني أيضاً بإرسالي إلى معهد أوكانيا اللاهوتي، لا ليعاقبني على شيء، بل من أجل شرف أن يكون عنده ابن راهب في البيت، وتأخر في تصوّره أكثر مما في نسيانه. ومع ذلك فقد كان التيبلي القشة التي قصمت ظهر البعير.

لم يكن دخول دار الإصلاح ممكناً إلاّ بقرار من قاضي الأحداث، لكنّ أبي تخطّى انعدام توافر الشروط بوساطة أصدقاء مُشتَرَكين، ورسالةِ توصية من أسقف مِدلين، صاحب الغبطة غارثّيا بنيتِثْ. من ناحيته قدّم لويس إنريكِهْ برهاناً آخر على طبيعته الطيِّبة، بالفرح الذي أبداه حين تركهم يحملونه وكأنّه ذاهب إلى حفلة.

لم تكن العطلة دونه كسابقاتها. كان يعرف كيف يتكيّف مثل محترف مع فيلادِلفو بِليّليا، الخياط السحري وعازف التيبلي الماهر، ومع المعلم بالدِسْ أيضاً. عند خروجنا من حفلات رقص الأغنياء المربكة، كانت تنقضُّ علينا في عتمة الحديقة العامة مجموعاتٌ من المبتدئات اللواتي يومئن خفية بكلّ أنواع الإغواء. عرضتُ على واحدة كانت تمضي قريبةً، ولم تكن منهنّ، أن تذهب معي وردّت عليَّ بمنطق مثاليّ بأنّها لا تستطيع، لأنّ زوجها نائم في البيت. ومع ذلك أخبرتني بعد ليلتين بأنّها ستترك الباب الخارجيّ دون رتاج ثلاث مرّات في الأسبوع، كي أستطيع الدخولَ دون أن أقرع الباب، حين لا يكون زوجها في البيت.

أتذكّر اسمها وكنيتيها، لكنّني أُفضّل أن أسميها كما في ذلك الوقت: نيغرومانتا. كانت ستكمل العشرين في عيد الميلاد، لها هيئةٌ حبشيّة وبشرةُ كاكاو، ومرحة في الفراش، ورعشة وعرة وحزينة، وغريزة للحب لا تبدو لبشر، بل لنهر مضطرب. منذ الشوط الأوّل اشتعلنا جنوناً في الفراش. زوجها ـ مثل خوان برِبا ـ كان له جسمُ عملاقٍ وصوتُ طفلة. عمل ضابطاً في الأمن العام في جنوبي البلد، ويجرّ خلفه السمعة السيّئة بأنّه يقتل الليبراليين كيلا يفقد دقّة التصويب فقط. كانا يعيشان في غرفة مقسمة بحاجز كرتوني، لها بابٍ على الشارع وآخر على المقبرة. كان الجيران يَشْكون من أنّها تُعكّر صفو الموتى بنباحات الكلبة السعيدة التي تُطلقها، لكن كلّما علا نباحها، أكثر كلّما زادت سعادة الموتى، لأنّها تُعَكّر صفوهم.

في الأسبوع الأوّل، اضطررتُ للهرب من الغرفة عند الفجر، لأنّنا أخطأنا في التاريخ والضابط يمكن أن يصل في أيّة لحظة. خرجت من باب المقبرة وسط وهج المستنقعات ونباحات الكلاب مزعجة الموتى. على الجسر الثاني فوق القنال رأيت كتلة هائلة تأتي، ولم أعرفها حتى عبرت بها. كان هذا هو الرقيب نفسه الذي لو تأخّرتُ خمس دقائق لوجدني في بيته.

ـ صباح الخير، يا أبيض ـ قال لي بنبرة وديّة.

أجبته دون قناعة:

ـ ليحفظك الله، يا رقيب.

وعندئذٍ أوقفني يطلب ناراً. أعطيتها له، مقترباً جدّاً منه كي أحمي عود الثقاب من ريح الصباح. وحين ابتعد مع سيجارته المشتعلة، قال لي بمزاج رائق:

ـ تفوح منك رائحة عاهرة ليس لك قدرة عليها.

دام خوفي أقلّ مما توقَّعتُ، ففي الأربعاء التالي عدت لأستغرق في النوم، وحين فتحتُ عينيّ وجدتُ نفسي مع غريمي المطعون بشرفه وقد راح يراقبني بصمت عند قدم السرير. بلغ رعبي حدّاً جعلني أعاني صعوبة في الاستمرار بالتنفس. هي أيضاً كانت عارية، حاولت أن تتدخّل، لكنّ الزوج أزاحها بسبطانة المسدس.

ـ لا تتدخّلي ـ قال لها ـ فمشاكل السرير تُسوّى بالرصاص.

وضع المسدس على الطاولة، فتح زجاجة روم من قصب سكّر ووضعها بجانب المسدّس، وجلسنا الواحد منّا مقابِل الآخر لنشرب دون كلام. لم يكن باستطاعتي أن أتصوّر ما كان سيحدث، لكنّني فكّرت أنّه لو أراد قتلي لفعل ذلك دون كلّ هذا اللف والدوران. بعد قليل ظهرت نيغرومانتنا ملفوفة بملحفة وعصابة احتفالية، لكنّه صوّب إليها بالمسدّس.

ـ هذا مشكلة رجال ـ قال لها.

قفزت واختبأت خلف الحاجز.

كنّا قد أتينا على الزجاجة الأولى حين انهمر الطوفان. عندئذٍ فتح الزجاجة الثانية وأسند السبطانة إلى صدغه، وأمعن بي النظر بعينيه مثلجتين. عندئذٍ ضغط على الزناد بقوّة، لكنّ الإبرة طرقت دون صوت. لم أكد أستطيع التحكّم برجفة يدي حين ناولني المسدس.

ـ الآن دورك ـ قال لي.

كانت المرّة الأولى التي أمسك بها مسدساً بيدي، وفاجأني بأنّه ثقيل وساخن. لم أدرِ ما أفعل. رحتُ أتصبّبُ عرقاً جليدياً وبطني

كاملاً تبلله رغوة ملتهبة. أردتُ أن أقول شيئاً، لكنّ صوتي لم يخرج. لم يخطر لي أن أطلق عليه النار، وأعدتُ إليه المسدس دون أن أنتبه إلى أنّها كانت فرصتي الوحيدة.

ـ ماذا؟ هل خرئتَ؟ ـ سأل باحتقار سعيد ـ كان باستطاعتك أن تُفكِّر بذلك قبل أن تأتي.

كان باستطاعتي أن أقول له إنّ الفحول يخرئون أيضاً، لكنّني انتبهت إلى أنّه تنقصني فحولة لمثل ذلك المزاح المشؤوم. عندئذٍ فتح طاحونة المسدّس، وأخرج الرصاصة الوحيدة، ورمى بها على الطاولة: كانت فارغة. لم أشعر براحة بل بإهانة رهيبة.

وابل المطر فقد زخمه قبل الساعة الرابعة. كلانا استنفد قوته بالتوتر، ولا أذكر اللحظة التي أمرني فيها بأن أرتدي ملابسي فأطعته ببعض من وقار المبارزة. فقط حين عاد ليجلس انتبهتُ إلى أنّ الذي يبكي كان هو. بكى بكاءاً مراً، بلا حياء، وكأنّه يستعرض دموعه. أخيراً جفّفها بظاهر يده، مخط أنفه بإصبعيه، ونهض.

ـ هل تدري لماذا تذهب حيّاً تماماً؟ ـ سألني. وأجاب نفسه: لأنّ أباك هو الوحيد الذي استطاع أن يشفيني من داء سيلانِ كلبٍ عجوز، لم يقدر عليه أحد طوال ثلاث سنوات.

ربتَ على كتفي ربتة رجلٍ ودفعني إلى الشارع. كان المطر مستمرّاً والبلدة مبللة، فمضيت في الجدول يغمرني الماءُ حتى ركبتيّ والعارُ من بقائي حيّاً.

لا أدري كيف علمت أمّي بالمشكلة، لكنّها شرعت بحملة عنيدة في الأيام التالية كيلا أخرج من البيت ليلاً. راحت خلال ذلك تعاملني كما تعامل أبي، بالتسلية التي لم تكن تفيد كثيراً. كانت تبحث عن علامات تدلُّ على أنّني خلعت ملابسي خارج البيت، تكتشف آثار عطرٍ حيث لا توجد، تُحضّر لي وجبات عسيرة قبل أن أخرج إلى الشارع، منطلقة من الخرافة الشعبية القائلة بأنّه لا زوجها ولا أولادها يستطيعون أن يمارسوا الحبّ أثناء عملية الهضم. أخيراً جلست مقابلي ذات ليلة، لم تملك فيها مزيداً من الذرائع لحجزي، وقالت لي:

- يقولون إنّك متورّط مع زوجة شرطي، وإنّه أقسمَ على أن يرميك برصاصة.

تمكّنتُ من إقناعها بأنّه لم يكن صحيحاً، لكنّ الشائعة تواصلت. كانت نيغرومانتا ترسل إليّ رسائل تقول بأنّها وحيدة، وأنّ رجلها في مهمّة، لأنّه منذ مدّة ضاع عن ناظرها. دائماً كان يُبادرني بالتحية عن بُعد بإشارة يمكن أن تكون إشارة مصالحة، كما يمكن أن تكون إشارة تهديد. في عطلة العام التالي، رأيته لآخر مرّة في ليلة موحلة، قدّم لي فيها جرعة روم قويّ لم أجرؤ على رفضها.

لا أدري بفنون أيّ وهم كان المعلمون والزملاء الذين نظروا إليّ دائماً كطالب منكمش، راحوا ينظرون إليّ في السنة الخامسة كشاعر ملعونٍ، وريثِ الجوّ غير الرسمي الذي انتعش في مرحلة كارلوس مارتين. ألم تكن رغبتي في الظهور بهذه الصورة هي التي جعلتني أشرع بالتدخين في المدرسة، وأنا في الخامسة عشرة من عمري؟ كانت الضربة الأولى رهيبة. أمضيت نصف ليلة أُحتَضَر وسط القيء على أرض الحمام. استيقظت منهكاً، لكنّ الجفاف الذي خلّفه الدخان أثار عندي رغبة جامحة بالاستمرار بالتدخين بدل أن يُثير اشمئزازي، وهكذا بدأتُ حياتي كمدمنٍ شرهٍ على الدخان، إلى حدّ أنّني لم أكن أستطيع التفكير بجملة واحدة ما لم يكن فمي مليئاً بالدخان. لم يكن التدخين مسموحاً في المدرسة أثناء الاستراحات، لكنّني كنتُ أطلب أذناً للذهاب إلى المراحيض، مرّتينِ أو ثلاث مرات خلال الدرس، فقط كي أطفئ رغباتي. وهكذا صرتُ أُدخِّنُ ثلاث علب من ذات العشرين سيجارة في اليوم، بل وأتجاوز الأربعة حسب صخب الليل. وفي مرحلة، خارج المدرسة، ظننت أنّني جُننت من جفاف الحنجرة وألم العظام. قرَّرت أن أتركه، لكنّني لم أقاوم أكثر من يومين من اللهفة.

لا أدري ما إذا كان هو الذي أطلق يدي في نثر واجباتِ الأستاذ كالدِرون المدرسية، التي صارت في كلّ مرّة أكثر جرأة، وفي الكتب النظرية الأدبية التي كان يجبرني تقريباً على قراءتها. اليوم وأنا أراجع حياتي، أتذكّر أن مفهوم القصّة عندي كان أوّلياً، رغم كثرة

ما قرأته منها منذ دهشتي الأولى أمام ألف ليلة وليلة. إلى أن تجاسرت على التفكير بأنّ العجائب التي ترويها شهرزاد كانت تحدثُ حقيقةً، في الحياة اليومية، في زمانها، وأنّها ما عادت تحدث لعدم مصداقيتها والجبن الواقعي عند الأجيال اللاحقة. للسبب ذاته كان يبدو لي محالاً أنّ يعود أحدٌ من زماننا ويصدّق أنّه يمكن لأحدٍ أن يطير فوق المدن والجبال على متن بساط، أو أن يعيشَ عبدٌ من عبيد كارتاخِنا دِ لاس إندياس مئتي سنة معاقباً داخل قارورة، ما لم يتمكّن المؤلّف من إقناع قرّائه بذلك.

كانت الدروس تُصيبني بالملل، باستثناء دروس الأدب ـ التي كنتُ أحفظها عن ظهر قلب ـ وكانت لِي فيها بطولة وحيدة. وبمللي من الدراسة كنتُ أترك كلّ شيء لحُسن الطالع. كانت لي غريزة خاصة، وحدس بالنقاط الحرجة في كلّ مادة، وأتكهّن تقريباً بأكثر ما يهمّ المعلمين منها كيلا أدرس ما عداها. في الواقع لم أكن أفهم لماذا عليّ أن أضحّي بذكائي ووقتي من أجل موادّ لا تثيرني، وبالتالي لن تُفيدني بشيء في حياة لم تكن لي.

تجرّأت على التفكير بأنّ معظم معلميّ كانوا يُقدّرون درجاتي حسب طريقتي في الحياة أكثر مما حسب امتحاناتي. كانت أجوبتي المرتجلة، خواطري المجنونة، اختراعاتي غير العقلانية تُنقِذني. ومع ذلك وعيت حدودي حين أنهيت السنة الخامسة، بذعر أكاديمي لم أشعر بنفسي أنّني كنتُ قادراً على تخطّيه. كانت الثانوية حتى تلك المرحلة طريقاً معبّداً بالمعجزات، لكنّ قلبي كان يُحذّرني بأنّ سوراً منيعاً ينتظرني في نهاية السنة الخامسة. الحقيقة الخالية من الزخارف هي أنّه كانت تنقصني الإرادة، الميل والترتيب والمال والإملاء كي أستطيع أن أمخر بشهادة أكاديمية. أو بالأحرى كانت السنون تطير وأنا لا املك أدنى فكرة عما سأفعله بحياتي، وكان لا بدّ أن تمرّ سنوات كثيرة قبل أن أنتبه إلى أنّ هذه الحالة من الهزيمة ذاتها كانت مناسبة، لأنّه لا شيء في هذا العالم ولا في العالم الآخر ليس مفيداً بالنسبة للكاتب.

البلد نفسه لم تكن أموره تسير بشكلٍ أفضل. فألفونسو لوبِّث

بومارِخو، المحاصر من قبل المعارضة الرجعية المحافظة الضارية، قدّم استقالته من رئاسة الجمهورية يوم الحادي والثلاثين من تموز من العام 1945. خلفه ألْبِرتو يِراسْ كامارغو، معيَّناً من قبل المجلس لإكمال السنة الأخيرة من الدورة الرئاسية. منذ خطاب تولّيه الرئاسة بصوته المسكِّن ونثره الرفيع بدأ يِراس مهمّة تهدئة الأنفس في البلد من أجل انتخاب رئيس جديد.

استطاع مدير المدرسة بوساطة صاحب الغبطة لوبِّثْ يِراس، ابن عمّ الرئيس الجديد، أن يحصل على مقابلة خاصّة لطلب مساعدة من الحكومة للقيام برحلة دراسية إلى شاطئ الأطلسي. أيضاً لم أعرف لماذا اختارني المدير لمرافقته في المقابلة، شريطة أن أصلح قليلاً شعري الكثّ والأشعث وشاربي الجبلي. المدعوون الآخرون كانوا غيِّرمو لوبِّثْ غِرّا، المعروف من قبل الرئيس، وألبارو رويث تورِّسْ، ابن أخت لاورا فيكتوريا، الشاعرة المشهورة بأشعارها الجريئة وهي من جيل الجدد، الذي ينتمي إليه يِراس كامارغو أيضاً. لم يكن أمامي خيار آخر. ليلة السبت، وبينما كان غيِّرمو غرانادوس يقرأ في المهجع رواية ليس لها علاقة بحالتي، قام صبي حلاّق من السنة الثالثة بقص شعري كمجند، وخطَّ لي شاربَ تانغو. تحمّلت سخريات الطلاب الداخليين والخارجيين من شكلي الجديد بقيّة الأسبوع. مجرّد فكرة دخولي إلى القصر الرئاسي كانت تُجمّد الدم في عروقي، لكنّ ذلك كان خطأ القلب، لأنّ علامة ألغاز السلطة الوحيدة التي وجدناها هناك هي الصمت السماوي. وبعد انتظار قصير في قاعة الانتظار بسجادها وستائر أطلسها، قادنا عسكريّ يرتدي اللباس الموحّد إلى مكتب الرئيس.

لم يكن شبه يِراس كامارغو بصورهِ كبيراً. أدهشني كتفاه المثلثين في طقم القماش الإنكليزي التام، ووجنتاه البارزتان وبشرته الشاحبه وأسنانه، أسنان الطفل الجسور، التي صارت متعة رسامي الكاريكاتير، وبطء حركته وطريقته في المصافحة، وهو ينظر إلى العينين مباشرة. لا أذكر الفكرة التي كانت عندي عن كيف كان الرؤساء، لكنّني لا أظنّ أنّ الجميعَ كانوا مثله، ومع الزمن عندما

عرفته بشكلٍ أفضل، انتبهت إلى أنّه ربّما هو نفسه لم يعرف قط أنّه كان كاتباً ضالاً أكثر من أيّ شيء آخر.

قدَّم بعد استماعه باهتمام جليّ تماماً إلى كلمة المدير، بعضَ التعليقات المناسبة، لكنّه لم يُقرِّر شيئاً قبل أن يستمع إلى الطلاب الثلاثة أيضاً. فعل ذلك باهتمام مماثل، وقد سررنا لأنه عاملنا بالاحترام ذاته الذي عامل به المدير. كفتنا الدقيقتان الأخيرتان كي نتيقّن من أنّه كان يعرف عن الشعر أكثر مما يعرف عن الإبحار النهري، وأنّه كان دون شكّ يهمّه أكثر.

منحنا كلّ الذي طلبناه؛ كما وعد بحضور حفل نهاية العام في المدرسة بعد أربعة أشهر. وحضر فعلاً، كما يحضر أكثر أعمال الحكومة جدّية، وضحك كما لم يضحك أحدٌ مع مسرحية جلد الخروف التي مثلناها على شرفه. سرَّ في حفل الاستقبال الأخير كتلميذٍ آخر من التلاميذ، بصورة مختلفة عن صورته، ولم يُقاوِم الإغواء الطلابي بوضع ساقه في طريق من كان يوزّع الكؤوس، والذي كاد لا يملك الوقت لتفاديها.

ذهبتُ محملاً بحماسِ حفل نهاية السنة لأقضي عطلة السنة الخامسة، وكان الخبر الأوّل الذي قدموه لي هو الخبر السعيد، بأنّ أخي لويس إنريكِهْ عاد بعد أن أمضى سنة وستة أشهر في دار الإصلاح. أذهلتني مرّة أخرى طبيعته الحسنة. لم يكن يشعر بأدنى ضغينة ضدّ أحدٍ بسبب الإدانة، وكان يروي المآسي بمزاج رائقٍ. في تأملاته كسجين وصل إلى نتيجة مفادها أنّ أبوينا أدخلاه بقصد حسن. ومع ذلك فإنّ الحماية الأسقفية لم تُنجه من تجربة الحياة اليومية القاسية في السجن، التي وبدل أن تُفسِده أغنت طبيعته ومزاجه الحسن.

وكانت أوّل وظيفة له بعد عودته وظيفة سكرتير في رئاسة بلدية سوكرِ. بعد زمن عانى العمدةُ من تقلبات هضمية مفاجئة، ووصف له أحدهم علاجاً سحرياً خرج توّاً إلى السوق: الكاسِلتزر. لم يحلّه العمدة في الماء، بل ابتلعه كحبّة عادية ومن المعجزة بمكان

أنّه لم يختنق بفورانها الذي لا يحتمل في المعدة. وقبل أن يتعافى من الذعر طلب منه الطبيب أن يرتاح لمدّة يومين، لكن كانت له أسبابه كيلا يُحلّ محلّه أيّ من نوابه الشرعيين، فوضع محلّه أخي. لهذه المصادفة الغريبة ـ ودون العمر القانوني ـ دخل لويس إنريكِهْ تاريخ البلدية كأصغر عمدة.

الشيء الوحيد الذي أقلقني حقيقةً في تلك العطلة، هو أنّ أسرتي في أعماق قلوبها كانت تؤسّس مستقبلها على ما تنتظره منّي، وكنتُ وحدي من يعرف أنّها أوهام باطلة. ثلاث أو أربع جملٍ عرضية قالها أبي في منتصف الطعام دلّتني على أنّ هناك الكثير مما يُقال عن حظّنا المشترك، وسارعت أمّي لتؤكّده «إذا ما استمرّ الأمرُ على هذا المنوال ـ قالت ـ عاجلاً أو آجلاً سيكون علينا أن نعود إلى كاتاكا.» لكنّ نظرة سريعة من أبي دفعتها كي تُصحِّح:

ـ أو إلى أيّ مكان آخر.

كان واضحاً: إنّ إمكانية انتقال جديد إلى أيّ مكان موضوع مطروح في الأسرة، ليس بسبب الجوّ الأخلاقي، بقدر ما كان من أجل مستقبلٍ أرحب للأبناء. حتى تلك اللحظة كنتُ أواسي نفسي بفكرة أن أعزو للبلدة ولناسها، بل ولأسرتي روح الهزيمة التي كنتُ أنا نفسي أعاني منها. لكنّ مأساويّة أبي كشفت مرّة أخرى أنّ من الممكن دائماً العثور على مذنب كيلا يكون هو نفسه.

ما كنتُ أحسّ به في الجوّ كان شيئاً أكثر ثقلاً. أمّي كانت تبدو متعلّقة فقط بصحّة أخي خايمِ، الابن الأصغر، الذي لم يستطع أن يتجاوز وضعه كخديج. كانت تقضي معظم النهار مستلقية معه في شبك غرفة النوم يخنقها الحزن والحرّ المُذِل، وبدا البيت يُعاني من إهمالها، فأخوتي على غاربهم، ونظام الوجبات قد تراخى إلى حدّ أنّنا صرنا نأكل حين نجوع، دون مواعيد محدّدة. أبي أكثر الرجال ارتباطاً بالمنزل راح يقضي النهار في تأمّل الساحة من صيدليته، والأماسي في مباريات معيبة في نادي البلياردو. وذات يوم لم أستطع أن أتحمّل التوتّر أكثر. تمدّدت بجانب أمّي في شبك النوم،

وهو ما لم أستطع فعله في طفولتي، وسألتها ما اللغز الذي يُشتَمُّ في جوٍّ البيت. أخذت هي نفساً كاملاً كيلا يرتجف صوتُها وفتحت لي روحها:

ـ لأبيك ولد في الشارع.

ومن الراحة التي أحسست بها في صوتها أدركت اللهفة التي كانت تنتظر بها سؤالي. اكتشفتْ الحقيقة ببصيرة الغيرة، حين عادت واحدة من صغيرات الخدمة منفعلة، لأنّها شاهدت أبي يتكلّم بالهاتف في مركز التلغراف. وامرأة غيورة لا تحتاج لأن تعرف أكثر من ذلك. كان الهاتف الوحيد الموجود في البلدة، مخصّصاً فقط للمكالمات البعيدة، وحسب مواعيد مسبقة، وانتظار غير أكيد، ودقائق كانت من الغلاء بحيث أنّه لم يكن يُستخدم إلاّ في حالات الخطر الأقصى. كلّ مكالمة، مهما كانت بسيطة، تُوقِظ استنفاراً خبيثاً بين جماعة الساحة. وهكذا حين عاد أبي إلى البيت راقبته أُمّي دون أن تقول له شيئاً، حتى مزّق هو وُرَيْقة كان يحملها في جيبه، تبليغ بدعوة قضائية بتهمة سوء استغلال المهنة. انتظرت أمّي فرصة كي تسأله بتحرّقٍ مع من كان يتكلّم بالهاتف. كان السؤال من الإيحاء، بحيث أنّ أبي لم يعثر في تلك اللحظة على جواب أكثر إقناعاً من الحقيقة:

ـ كنتُ أتكلّم مع مُحامٍ.

ـ أعرف هذا ـ قالت أمّي ـ ما أحتاجه هو أن تحكي لي ذلك بصراحتك ذاتها التي أستحقّها.

اعترفت أمّي بعد ذلك بأنّها هي التي ذُعِرت من القِدْر المتعفِّن الذي كان من الممكن أن ترفع غطاءه دون أن تنتبه؛ وإذا كان قد تجرّأ هو على أن يقول لها الحقيقة فلأنّه يظنُّ أنّها تعرف كلَّ شيء. أو أنّ عليه أن يحكيها لها.

وهكذا كان. اعترف أبي أنّه تلقّى إشعاراً بدعوى جزائية مقامة ضدّه لتماديه في عيادته مع مريضة مدمنة على المخدرات بحقنة مورفين. وقع الحادث في إصلاحيّة منسية قضى فيها فترات قصيرة للاعتناء بالمرضى الذين لا تتوافر لديهم الإمكانيات. وسرعان ما

انتبهت إلى نزاهته: كانت ميلودراما المُخدّر والاغتصاب افتراءً جزائياً من أعدائه، لكنّ الطفل طفله، وجاء في ظروف عادية.

لم يكن من السهل على أمّي أن تتفادى الفضيحةَ، لأنّ هناك شخصاً له وزنه كان يُحرّك خيطان المؤامرة في الظلّ. كان هناك سابقة أبِلاردو وكارمن روسا، اللذين عاشا معنا في مناسبات عديدة محاطينَ بحنان الجميع، وكلاهما كان قد وُلِد قبل الزواج. إلاّ أن أمّي تخطّت أيضاً حنقها الناتج عن اجتراعها لجرعة مرارة الابن الجديد، وخيانة الزوج، وصارعت إلى جانبه بوجه سافر، كي تخرّب كذبة الاغتصاب.

عاد السلامُ إلى الأسرة. ومع ذلك وصلت بعد فترة قصيرة أخبار سرّية من المنطقة ذاتها عن ابنة من أمٍّ أُخرى كان أبي قد اعترف بأنّها ابنته، وتعيش في ظروف مؤسفة. لم تُضِعْ أمي الوقتَ في دعاوى وافتراضات، بل أدارت المعركة كي تحملها معها إلى البيت «الشيء ذاته الذي فعلته مينا مع كثير من أبناء أبي المبعثرين ـ قالت في تلك المناسبة ـ ولم يكن عندها أبداً ما تندم عليه». وهكذا تمكّنت من أن تجعلهم بطريقتها أن يرسلوا إليها الطفلة، دون ضجّة عامّة، وحُلّت المسألة داخل الأسرة التي أصبحت كبيرة.

كان ذلك قد صار ذلك كلّه من الماضي حين التقى أخي خايمِه في حفلة في بلدة أخرى مع فتى مماثل لأخينا غوستابو. كان هذا هو الابن الذي تسبّب بالدعوى القضائية، وقد أحسنتْ أمّه تربيته وقبوله. لكّن أمّنا عملت كلّ الإجراءات الممكنة، وجاءت به ليعيش في البيت ـ حين أصبحنا أحدَ عشر ولداً ـ وساعدته على تعلّم مهنة وشقّ طريقه في الحياة. عندئذٍ لم أستطع أن أخفي دهشتي من أنّ امرأة تملك غيرة مَرَضِيَّة أصبحت قادرة على القيام بمثل هذه الأعمال، وأجابتني هي نفسها بجملة ما زلت أحتفظ بها منذ ذلك الوقت مثل ماسة.

ـ المسألة أنّ دم أبنائي ذاته لا يمكن أن يمضي ضائعاً هناك.

كنتُ أرى أخوتي في العطل السنوية فقط. وبعد كلّ رحلة كان

التعرف عليهم يُكلّفني عناءً وحملَ اسم واحد جديد في ذاكرتي. فإضافة إلى اسم التعميد، جميعنا كنّا نحمل اسماً مختلفاً عن الاسم الذي تضعه لنا الأسرة لسهولة الاستخدام اليومي، ولم يكن اسم تصغير، بل لقباً عرضياً. أنا ومنذ اللحظة التي ولِدت فيها نادوني غابيتو ـ وهو اسم تصغير شاذّ لِغابرييل على شاطئ غواخيرا ـ وقد اعتقدت دائماً أنّه اسم المعمودية، وأن التصغير هو غابرييل. شخص فوجئ بهذا الاسم النزوي، فكان يسألنا لماذا لم يُفضّل أبوانا أن يُطلقا على أولادهما اللقب مرّة واحدة.

ومع ذلك بدا أنّ هذه الاعتباطية عند أمّي تمضي في اتجاهٍ معاكس لموقفها من ابنتيها الكبيرتين مارغوت وعايدة، اللتين طالما حاولت أن تفرضَ عليهما الصرامة ذاتها التي فرضتها عليها أمّها بسبب غرامياتها القويّة مع أبي. أرادت أن تنتقل من البلدة. أبي الذي لم يكن بالمقابل يحتاج لأن يسمع ذلك مرَّتين كي يحزم حقائبه ويذهب ليجوب العالم، كان في تلك المرّة مُعرِضاً. مرّت عدّة أيّام قبل أن يعلم بأنّ المشكلة هي غراميات ابنتيه مع رجلين مختلفين، رغم أنّهما يحملانِ الاسم ذاته: رافائيل. حين حكتا له لم أتمالك نفسي عن الضحك، لتذكّري رواية الرعب التي عانى منها أبي وأمّي فقلتُه لها.

ـ الأمر مختلف ـ قالت لي

ـ بل ذاته. أصررتُ.

ـ حسناً ـ اعترفت هي ـ نفسه، لكن مرّتين دفعةً واحدة.

وكما حدث معها في وقتها لم تكن تُفيد الحجج ولا المساعي. لم نعرف قط كيف كان الأبوان يعرفان، لأنّ كلّ واحدة منهما اتخذت على انفراد احتياطياتها كي لا يُكتَشف أمرها. لكنّ الشهود كانوا مِمّن لا يخطرون ببال، فقد جعلت أختاي أخوتهما الأصغر منهما يرافقونهما أحياناً، ومنحتاهم سلامة النيّة. أكثر ما يدهش هو أنّ أبي ساهم في الترصّد، ليس بالعمل المباشر، بل بمقاومة جدّي نيكولاس السلبية ذاتها لابنته.

«كنّا نذهب إلى حفل راقص فيدخل أبي ويأخذنا إلى البيت إذا

اكتشف أنّ الرافائيلَين موجودان» حكت عائدة روسا ذلك في مقابلة صحفية معها. لم يكونا يمنحانهما إذناً للقيام بنزهة إلى الحقل أو للذهاب إلى السينما، أو أنّهما يرسلانهما مع أحدٍ لا تغيبان عن ناظره. كانت كلّ منهما تخترع حججاً غير مجدية لتنفيذ مواعيدهما الغرامية، فيظهر هناك شبحٌ خفيٌّ سبقهما. ليخيا الصغرى كسبت سمعة الجاسوسة والواشية السيّئة، لكنّها نفسها كانت تعتذر بحجّة أنَّ الغيرةَ بين الأخوة طريقةٌ أخرى في الحبّ.

حاولتُ في تلك العطلة أن أتوسّط مع أبويَّ كيلا يُكرِّرا الأخطاء التي ارتكبها أبوَا أمّي معها، وكانا يجدان دائماً الأعذارَ الصعبة كيلا يفهماها. أكثر ما كان يخُيف هي المناشير التي كشفت أسراراً مُريعة - حقيقية أو مُختلَقة - حتى عند أقل الأسرِ ريبةً. أفشيثْ أبوّاتٌ خفية، وحالاتُ زنى مُخجِلة، وشذوذاتٌ في السرير صارت مشاعية بطرقٍ أقلّ سهولة من المناشير. لكن ما من منشور جاء ليفشي أشياء لن تُعرف، مهما تمّ التستر عليها أو لم تخطر بالبال، عاجلاً أو آجلاً. «المناشير تقوم بالشيء نفسه» كانت إحدى ضحاياه تقول.

ما لم يتوقّعه أبواي هو أن الابنتين سوف تدافعان عن نفسيهما بوسائلهما ذاتها. أرسلا مارغوت للدراسة في مونتِريّا، وعايدة ذهبت بقرارٍ ذاتيّ منها إلى سانتا مارتا. كانتا طالبتين داخليتين، وفي الأيّام الحرّة تجدان من هو جاهز لمرافقتهما، لكنّهما دائماً كانتا تتدبّران أمرهما كي تتواصلا مع الرافائيلين البعيدَين. ومع ذلك فإن أمّي حقّقت ما لم يستطعه أبواها معها. فعائدة أمضت نصفَ حياتها في الدير، وعاشت هناك لا حزناً ولا فرحاً إلى أن شعرت بأنّها بمنجاة من الرجال. وبقينا أنا ومارغوت مرتبطين دائماً بذكريات طفولتنا المشتركة، حين كنتُ أنا نفسي أراقبُ الكبار كيلا يفاجئوها وهي تأكل التراب. وفي النهاية أصبحتْ كأمٍّ للجميع، وخاصّة لكوكي، الذي كان أكثرنا جميعاً حاجةً إليها، وأبقت عليه معها حتى آخر نفس لها.

اليوم فقط أنتبه إلى أيّ حدٍّ كان وضع أمي النفسيّ السيّئ والتوترات الداخلية في البيت متوافقة مع تناقضات البلد القاتلة، التي

لم تكن تظهر، لكنّها موجودة. كان على الرئيس بِراس أن يدعو للانتخابات في العام الجديد، والمستقبل يبدو عكراً. المحافظون الذين تمكّنوا من الإطاحة بلوبِّث، كانوا يلعبون مع خليفته بازدواجية: يتملقونه لعدم تحزّبه الرياضي؛ لكنّهم يثيرون الشقاق في المقاطعة كي يعودوا ويسيطروا على السلطة بالعقل أو بالقوّة.

بقيت سوكرِ منيعة على العنف، والحالات القليلة التي كان يذكرها الناس لا علاقة لها بالسياسة. منها اغتيال خواكين بِغا، الموسيقي المحبوب جدّاً الذي كان يعزف البومباردينو(*) في الفرقة المحلية. كان يعزف في السابعة ليلاً عند مدخل السينما، حين جذَه أحد أقربائه المعادين له جذّةً واحدةً من عنقه المنتفخ نتيجة نفخ الموسيقى، ونزف دمُه على الأرض. كلاهما كان محبوباً جدّاً في البلدة، والتفسير الوحيد المعروف، الذي لم يؤكّد، هو أنّها كانت مسألة شرف. تماماً في الساعة ذاتها التي كانوا يحتفلون فيها بعيد ميلاد أختي ريتا، وخرّب التأثّر بالخبر السيّئ الحفلَ المبرمجَ لعدّة ساعات.

المبارزة الأخرى، السابقة لهذه بكثير، لكنّها لا تُمحى من ذاكرة البلدة، هي المبارزة بين بْلينيو بالماثِدا وديونيسيانو بارّيوس؛ الأوّل من أسرة عريقة ومحترمة، هو نفسه كان ضخماً وساحراً، لكنّه أيضاً ذو طبع شرير ومحبّ للمشاكل حين يتملّكه الكحول. في وعيه السليم يملك مرحَ ولطفَ فارس، لكنّه حين يفرط في الشرب يتحوّل إلى ضارٍ، سرعان ما تمتدّ يده إلى المسدس، يحمل سوط خيّال في حزامه، يضرب به من لا يروق له. الشرطة ذاتها كانت تحاول أن تبقي عليه بعيداً. أبناء أسرته الطيبة، الذين تعبوا من جرّه إلى البيت في كلّ مرّة يُفرط فيها بالشراب انتهى بهم الأمر إلى أن تركوه لقدره.

أما ديونيسيانو بارّيوس فكان يمثل النقيض تماماً: رجل خجول، مهيض الجناح، عدو للمشاجرات، ممتنع عن الشرب منذ

(*) آلة نفخ من نوع البوق.

ولادته. لم يدخل في مشاكل مع أحدٍ قط، إلى أن راح بْلينيو بالماثِدا يستفزّه بسخرياتٍ مهينة من انكساره وطيبته. تفاداه قدر استطاعته إلى أن صادفه بالماثِدا ذات يومٍ في طريقه، وضربه بالسوط على وجه دونما سبب. عندئذٍ تغلّب ديُونيسيانو على خجله وتعبه وحظّه السيّئ، وواجهَ المعتدي بالرصاص الخالص. كانت مبارزة عفوية، كلاهما جرح فيها جروحاً خطيرة، لكن وحده ديونيسيانو من مات.

ومع ذلك فحِدادُ البلدة التاريخي كان على الموت المزدوج لِبْلينيو بالماثِدا وتاسيو أنانيّاس، الرقيب في الشرطة، المشهور بنظافته، والابن المثالي لماوريثيو أنانيّاس، قارع الطبل في الفرقة ذاتها التي كان يعزف فيها خواكين بِغا على البومباردينو. كانت مبارزة رسمية في وسط الشارع، جرحا فيها جراحاً بليغة، وعانى كلٌّ منهما في بيته من احتضار طويل. سرعان ما استعاد بْلينيو صحوَه وأبدى قلقه الفوري على مصير أنانيّاس. ودُهِش هذا بدوره للاهتمام الذي تضرّع به بلينيو من أجل حياته. راح كلٌّ منهما يتوسّل إلى الله ألاّ يموت الآخرُ، وقد بقيت الأسرتان تُطلعانهما على الأمور طيلة بقائهما حيين. عاشت البلدة كلها الذهول، باذلة كلّ الجهد لإطالة حياتهما.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعات من الاحتضار قُرِعت نواقيسُ الكنيسة حداداً على امرأةٍ ماتت توّاً. سمعها المُحتضَران، فظنّ كلٌّ منهما وهو في فراشه أنّها تُقرع على موت الآخر. مات أنانيّاس حزناً في اللحظة تقريباً، باكياً موتَ بْلينيو. علم هذا بذلك فمات بعد يومين باكياً بكاءً مرّاً على الرقيب أنانيّاس.

تجلّى العنفُ في بلدة من الأصدقاء المسالمين مثل تلك البلدة، بطريقةٍ غير قاتلة، لكنّها ليست أقلّ إيذاءً: المنشورات. كان الرعب حيّاً في بيوت الأسر الكبيرة، التي بقيت تنتظرُ صباحَ اليوم التالي كأنّه يانصيبِ الشؤم. فالورقة التأديبية تظهرُ حيث لا أحد ينتظرها، وتشكل راحةً لما لم تقله عنه، وأحياناً احتفالاً سرّياً لما تقوله عن الآخرين. شَحَّم أبي، الذي ربّما كان أكثر من عرفت مسالمةً، مسدَّسَه

المحترم، الذي لم يُطلق به رصاصة قط، وأطلق العنان للسانه في قاعة البلياردو:

- إنّ من يتجرّأ على لمس أيّ من بناتي سوف يلقى رصاصَ هذا الضاري.

شرعت عدّة أسر بالنزوح خوفاً من أن تكون المنشورات مقدّمة لعنف الشرطة، الذي كان يمحق بلداناً بكاملها داخل البلد لتخويف المعارضة.

صار التوتر خبزاً آخرَ يوميّاً للبلدة. فنُظِّمَت في البداية دورياتٌ سريّة لا لاكتشاف مؤلفي المنشورات بقدر ما لمعرفة ما تقوله قبل إتلافها في الفجر. وجدنا، نحن مجموعة السهارى، موظّفَ بلدية في الثالثة ليلاً يتبرّد أمام باب داره، لكنّه كان في الحقيقة، يترصّد من يضعون المنشورات. قال له أخي بين المزاح والجدّ، أنّ بعضها كان يقول الحقيقة. فأخرج مسدّسه ووضع يده على الزناد:

- أعدّ.

عندئذٍ علمنا أنّهم وضعوا منشوراً صادقاً يتناول ابنته العازبة. ولكنّ المعلومات كانت منتشرة حتى في بيته، والوحيد الذي يجهلها هو أبوها.

كان واضحاً في البداية أنّ المنشورات قد كتبها الشخص ذاته، بالقلم ذاته والورق ذاته، لكن كان هناك في تجمّع تجاري، هو من الصغر مثله مثل تجمّع الساحة، حانوت واحد يمكن أن يبيعها، لكنّ صاحبه سارع للبرهان عن براءته. منذ ذلك الوقت عرفتُ أنّني سأكتبُ ذات يوم روايةً عنها، لكن ليس لما كانت تقوله، والذي كان دائماً خيالات شائعة ليس فيها الكثير من الظرافة، بل للتوتر الذي لا يُطاق الذي كانت تتمكن من خلقه داخل البيوت.

في «ساعة الشؤم»، روايتي الثالثة المكتوبة بعد عشرين عاماً، بدا لي أنّ عدم استخدام حالات محدّدة أو حالات يمكن التعرّف عليها، عملاً لائقاً، رغم أنّ بعضها الواقعي كان أفضل من التي ابتدعتها. ثمّ أنّه لم يكن هناك حاجة لذلك، لأنّني دائماً اهتممتُ

بالظاهرة الاجتماعية أكثر من اهتمامي بحياة الضحايا الخاصّة. بعد نشرها فقط عرفت أنّه احتفي بكثير من تلك المنشورات في الضواحي، التي كنّا نحن سكان الساحة الكبرى مكروهين فيها.

الحقيقة أن المنشورات لم تفدني إلا كنقطة انطلاق لحبكة لم أستطع في لحظة من اللحظات أن أحدّد ملامحها، لأنّ ما كنتُ أكتبه ذاته كان يبيّن أن المشكلة الأساسية سياسية وليست أخلاقية، كما كان يُظنُّ. دائماً فكّرت أنّ زوجَ نيغرومانتا كان نموذجاً جيّداً للعمدة العسكري في ساعة الشؤم، لكن ومع تطويري لشخصيته راح يغريني ككائن بشريّ، ولم أملك مبررات لقتله، فقد اكتشفت أنّ كاتب جدّياً لا يستطيع أن يقتل شخصيةً ما لم يكن هناك سبب مقنع، ولم تكن تلك حالته.

اليوم أنتبه إلى أن الرواية ذاتها يمكن أن تكون أخرى. فقد كتبتها في فندق طلابي في شارع كوجاس من الحي اللاتيني في باريس على بعد مئة متر من جادة سان ميشيل، بينما الأيام تمرّ بلا رحمة بانتظار شيكٍ لم يصل قط، وحين اعتبرتها منتهية عملت من الأوراق لفافة، وربطتها بإحدى ربطات العنق الثلاث التي كنت أضعها في أزمنة أفضل، وقبرتها في قاع خزانة الملابس.

بعد عامين وفي مدينة مكسيكو لم أكن أعرف أين وضعتها حين طلبوها منّي لمسابقة أسّو الكولومبية الروائية، بجائزة قدرها ثلاثة آلاف دولار من دولارات أزمنة المجاعة تلك. كان المبعوث هو المصوّر الضوئي غيِّرمو أنغولو، صديقي الكولومبي القديم الذي كان يعرف بوجود الأصل والرواية في مراحل تطوّرها حين كنتُ أكتبها في باريس، وقد حملها معه وهي في النقطة التي وصلت إليها، وما تزال مربوطة بربطة العنق ودون أي وقت لكيّها على البخار، نظراً لضيق الموعد. وهكذا أرسلتها إلى المسابقة دون أيّ أملٍ بجائزة كانت تكفي تماماً لشراء بيت. لكنّها وبالصورة التي أرسلتها بها أعلن عن فوزها من قبل لجنة تحكيم شهيرة في يوم السادس عشر من نيسان من العام 1962، وفي الساعة التي ولد فيها ابننا الثاني غونثالو تقريباً، حاملاً رزقه تحت إبطه.

لم نملك وقتاً ولا حتى للتفكير، حين تلقيتُ رسالة من الأب فِليكس رِسترِبّو، رئيس الأكاديمية الكولومبية للغة، والرجل الطيّب الذي ترأس لجنة تحكيم الجائزة، لكنَّهُ كان يجهل عنوان الرواية. عندها فقط انتبهت إلى أنّ عجلة الساعة الأخيرة أنستني كتابته على صفحة الأولى: بلدة الخراء هذه.

استاء الأبُ رِسترِبّو حين علم بذلك، وطلب منّي عبر خِرمان بارغاس بطريقة في غاية اللطف أن أستبدله بآخر أقلّ قسوة، ويتناسب مع جوّ الكتاب. وبعد كثير من تبادل الرأي معه عزمت على عنوان، ربّما لا يفصح كثيراً عن المأساة، لكنّه يفسح لها المجالَ جيّداً كي تُبحر في بحار الرياء: ساعة الشؤم. بعد أسبوع حدّد لي الدكتور كارلوس أراتغو بِلِثْ، سفير كولومبيا في المكسيك، والمرشح الجديد لرئاسة الجمهورية، موعداً في مكتبه كي يعلمني أنَّ الأبَ رِسترِبّو يرجوني أن أبدّل كلمتين بدتا له غير مقبولتين في النص الفائز: الواقي الذكري والاستمناء. لا أنا ولا السفير استطعنا أن نُخفي دهشتنا، لكنّنا اتفقنا على أنَّ علينا إرضاء الأبَ رِسترِبّو بحلّ متزنٍ كي نضع نهاية سعيدة للمسابقة، التي لا تنتهي.

ـ حسن جدّاً، يا سيّدي السفير ـ قلت له ـ سأحذف إحدى الكلمتين، لكنكّ أنت من سيعمل معروفاً ويختارها.

حذف السفير كلمةَ استمناء مُطلقاً تنهيدةَ راحةٍ. وبذلك حُسِمَ الأمر، وطَبعت دار نشر إيبيروأمريكانا في مدريد الرواية في طبعة كبيرة العدد، رافقتها حملة دعائية هائلة. جاء غلاف الكتاب من الجلد، وورقه كان ممتازاً وطباعته رائعة. لكنّه كان شهر عسل سريع العبور، لأنّني لم أستطع أن أقاوم إغواء القيام بقراءة سابرة، واكتشفت أن الكتاب مكتوب بلغة الهنديّ الأحمر، ودُبلج ـ على طريقة أقلام ذلك الزمان ـ إلى أنقى لهجة مدريدية.

كنتُ قد كتبتُ: «بالطريقة التي تعيشونَ بها حضراتكم، لستم في حال غير آمنة وحسب، بل وتشكلون مثالاً سيئّاً للشعب». جاء نسخ الناشر الأسباني ليوقف شعر رأسي: «بالطريقة التي تعيشون بها (أنتم) الآن، لستم في حال غير آمنة وحسب، بل إنّكم تشكلّون مثالاً

سيّئاً للشعب». والأخطر من ذلك أنّه، ونظراً لأنّ الجملة يقولها راهب، فإنّ القارئ الكولومبي يمكن أن يُفكّر أنّها غمزة من المؤلّف ليدل على أنّ الراهب كان أسبانياً، وبذلك يتعقّد سلوكه ويفقد جانب جوهري من المأساة طبيعته. والمصحِّح الذي لم يكتف بتمشيط قواعد الحوارات، بل سمح لنفسه أيضاً أن يتدخل بيد مسلحة في الأسلوب، فجاء الكتاب مليئاً بالرقع المدريدية التي لا علاقة لها بالأصل. وبالنتيجة لم يبقَ أمامي من مجال غير أن أرفعَ الثقة عن الطبعة باعتبارها مزيّفة، وحرق النسخ التي لم تُبَع بعد. لكنّ جواب المسؤولين كان الصمت المطبق.

منذ تلك اللحظة اعتبرتُ أنَّ الرواية لم تنشر، وانهمكت في مهمة إعادة ترجمتها إلى لهجتي الكاريبية، لأن الرواية الأصلية الوحيدة كانت تلك التي أرسلتها إلى المسابقة، وهي نفسها التي ذهبت إلى مدريد للطباعة. ماإن أُعيدَ النصُّ الأصلي إلى حاله، ونقّحته بالمناسبة بنفسي، حتى نشرته دار نشر إرا في المكسيك، مع الإشارة المطبوعة والواضحة إلى أنّها الطبعة الأولى.

لم أدرِ قط لماذا تنقلني «ساعة الشؤم» من بين جميع كتبي إلى زمانها ومكانها في ليلةٍ كان قمرها بدراً ونسماتها ربيعية. كان يوم سبت والسماء التي انقشعت غيومها لا تتسع للنجوم؛ والساعة قد أعلنت توّاً الحادية عشرة حين سمعت أمّي تهمس في غرفة الطعام بأغنية حبّ كي تنوّم الصغير الذي كانت تمشي به، وهو بين ذراعيها، فسألتها من أين جاءت الموسيقى وأجابتني على طريقتها تماماً:

- من بيوت الفاسقات.

أعطتني خمسة بيزوات دون أن أطلبها منها، لأنّها رأتني أرتدي ملابسي للذهاب إلى الحفلة، ونبّهتني ببصيرتها الصائبة إلى أنّها ستترك باب الفناء دون مزلاج، كي أستطيع العودة في أيّة ساعة دون أن أوقِظ أبي. لم أتمكّن من الوصول إلى بيوت الفاسقات، لأنّه كان هناك تدريب موسيقيين في منشرة المعلّم بالدِسْ، الذي ما إن عاد لويس إنريكِهْ إلى البيت حتى انضمّ إلى مجموعته.

في ذلك العام انضممتُ إليهم لأعزف على التيبلي وأُغنّي مع المعلّمين الستة المجهولين حتى الفجر. دائماً اعتبرتُ أخي عازفاً جيّداً على التيبلي. لكنّني عرفتُ منذ الليلة الأولى أنّ أكثر خصومه حنقاً كانوا يعتبرونه بارعاً. لم يكن هناك من مجموعة أفضل منهم، وكانوا واثقين من أنفسهم إلى حدّ أنّه حين يتعاقد معهم أحدٌ لسهرة مُصالحة، أو رفع ضيمٍ، كان المُعلّم بالدِسْ يُهدِّئه مسبقاً:

ـ لا تهتمّ، سنتركها يموت غيظاً.

لم تكن العطلةُ دونه هي ذاتها. كان يُلهب الحفل حيث يصل، وكان مع لويس إنريكِهْ وفيلادِلفو بِلبيّا، ينسجمون فيما بينهم كمحترفين. وقتها اكتشفتُ وفاء الكحول، وتعلّمتُ أن أعيش بشكلٍ صحيح، أنام نهاراً وأغنّي ليلاً، وكما كانت تقول أمّي: أفلِتُّ من عقالي.

قيل عنّي كلّ شيء، ودبّ الصوت بأنّ رسائلي لا تصل إلى عنوان أبويّ، بل إلى بيوت الفاسقات. أصبحت الزبون الأكثر دقة في الوصول إلى أطباق سانكوتشاهُنّ الأسطورية، المعدّة من مرارة النمر وطبيخ العظاءة، التي كانت تمنح المرء زخماً لثلاث ليالٍ تامّة. ولم أعد أقرأ، ولا أنضمّ إلى روتين مائدة الأسرة. وهذا ما كان ينطبق على الفكرة التي كثيراً ما عبّرت عنها أمّي بقولها، إنّني أفعل على طريقتي ما يحلو لي، بينما المسكين لويس إنريكِهْ هو الذي يجرجر السمعة السيّئة. قال لي في تلك الأيّام، ودون أن يعلم بجملة أمّي: «الشيء الوحيد الذي ينقصني الآن هو أن يقولوا إنّني أفسِدك، وأن يرسلونني مرّة أخرى إلى الإصلاحية».

قرّرت في عيد الميلاد أن أهرب من منافسة العربات السنوية، ومضيتُ مع صديقين متواطئين إلى بلدة ماخاغوال المجاورة. أعلنتُ في البيت أنّني سأذهب لثلاثة أيّام وبقيت عشرة. كان الذنب ذنب ماريّا ألخِاندرينا ثِربانتِسْ، المرأة غير المعقولة، التي تعرّفت إليها منذ الليلة الأولى، وفقدت معها صوابي في أكثر سهرات حياتي قصفاً. حتى جاء الأحدُ الذي لم تُصبح فيه في فراشي، واختفت إلى الأبد. بعد سنوات أنقذتها من حنيني، ليس لملاحتها بقدر ما لوقْعِ

اسمها الرنان، وأعدتها إلى الحياة كي أحمي أخرى في إحدى رواياتي، كمالكة وسيّدةٍ لبيتِ متعٍ لم يوجد قط.

عند عودتي في الساعة الخامسة فجراً إلى البيت وجدتُ أمّي تغلي القهوةَ في المطبخ. قالت لي بهمسها المتواطئ أن أبقى معها، لأنّ أبي قد استيقظ للتو، وهو مستعدّ لأن يبرهن لي أنّني لستُ حرّاً بالقدر الذي أظنّه حتى في العطلة. صبّت لي فنجاناً كبيراً من القهوة الثقيلة، رغم أنّها كانت تعلم أنّني لا أحبّها، وأجلستني بجوار النار. دخل أبي ببيجامته وهو ما يزال في مزاج النوم، وفوجئ برؤيتي مع فنجان القهوة الذي يتصاعد منه البخار، لكنّه سألني سؤالاً ملتوياً:

ـ ألم تكن تقول إنّك لا تشرب القهوة؟

واخترعت له دون أن أدري بماذا أجيبه، أوّل شيء خطر في بالي:

ـ دائماً أشعر بالعطش في مثل هذه الساعة.

ـ مثل كلّ السكّيرين ـ أجابني.

لم ينظر إليّ ثانية ولم يعد ليحدّثني بالموضوع. لكنّ أمّي أخبرتني أنّ الأب المكتئب منذ ذلك اليوم بدأ يعتبرني حالةً لا أمل منها. رغم أنّه لم يسمح لي بمعرفة ذلك قط.

ازدادت نفقاتي إلى حدّ أنّني قرّرت أن أنهب ما في حصالة أمّي. برّأني لويس إنريكهْ بمنطقه القائل إنّ النقود المسروقة من الأبوين مشروعة إذا هي استعملت للسينما وليس للمجون. عذّبني الضيق من تواطؤ أمّي كي لا ينتبه أبي إلى أنّني أمضي في طرق السوء. كانوا على حقّ أكثر من اللازم، فقد لاحظوا في البيت أنّني استمرّ في النوم حتى ساعة الغداء، وصوتي صار مثل صوت ديك أجشّ، وأمضي ساهياً إلى حدّ أنّني لم أسمع، ذات يوم، سؤالين وجّههما إلي أبي. فوجّه إليّ عندئذ أقسى تشخيصاته:

ـ كبدك مريض.

استطعت رغم كلّ شيء أن أحافظ على المظاهر الاجتماعية،

أتركهم يرونني حسن اللباس والتربية في حفلات الرقص الرسمية، وغداء المناسبات التي تُنظِّمها أسر الساحة الكبرى، التي كانت بيوتهم تبقى مغلقة طيلة العام ويفتحونها لأعياد الميلاد، عند عودة الطلاب.

كان ذلك العام عام كايتانو خِنتيل، الذي احتَفَلَ بعطلته بإقامة ثلاث حفلات رقص رائعة. كانت بالنسبة إليّ تواريخ حظّ، لأنّني رقصت فيها مع المرأة ذاتها. أخرجتها في الليلة الأولى للرقص دون أن أكلّف نفسي عناء سؤالها عمّن هي، ولا ابنة من ولا مع من تكون. بدت لي من الكتمان بحيث أنّني عرضتُ عليها في الوصلة الثانية بجدّية أن تتزوّج منّي، فجاء جوابها أكثر غموضاً:

- يقول أبي أنّ الأمير الذي سيتزوّج مني لم يولد بعد.

رأيتها بعد أيام تعبر زقاق الساحة الكبرى في فستان براّق من الأورغانزا تمسك بيدي طفل وطفلة في السادسة أو السابعة من عمرهما. «هما ابناي» قالت لي دون أن أسألها. كانت من الخبث بحيث أنّني بدأتُ أشكّ أن اقتراحي بالزواج منها لم يذهب مع الريح.

تعلّمتُ، منذ ولدتُ في بيت أراكاتاكا، أن أنام في شبك النوم، لكنّني لم أتخذ ذلك كجزء من طبيعتي إلاّ في سوكرِ. فليس هناك ما هو أفضل من ذلك للقيلولة كي يعيش المرء ساعة النجوم، كي يفكّر بهدوء، ولممارسة الحب دون أحكام مسبقة. منذ اليوم الذي عدتُ فيه من أسبوع الخلاعة علّقته إلى شجرتين في الفناء، كما كان يفعل أبي في أزمنة أخرى، ونمت مرتاحَ الضمير. لكنّ أمّي المرعوبة دائماً من أن يموت أبناؤها وهم نيام أيقظتني في نهاية المساء لتتأكّد من أنّني حيّ. عندها استلقت بجانبي وطرحت دون مقدمات الموضوع الذي كان يُنغِّص عيشها.

- أريد أنا وأبوك أن نعرف ما الذي يجري لك.

لا يمكن للجملة أن تكون أكثر صواباً. كنتُ أعرف منذ زمن أنّ أبويَّ يتشاطران القلق من التبدلات التي طرأت على طريقتي في الحياة، وكانت هي ترتجل تفسيراتٍ مبتذلة كي تهدِّئه. ما من شيء

يحدث في البيت لا تعرفه أمّي، وكانت ثورات غضبها قد أصبحت أسطورية. لكنّ الكيلَ طفح حين بقيت أسبوعاً وأنا أعود عند الظهيرة إلى البيت. كان موقفي الدقيق أن أتفادى الأسئلة، أو أتركها معلّقة لفرصة أكثر ملاءمة، لكنّها كانت تعلم أنّ موضوعاً بتلك الجدّية لا يحتمل إلا أجوبة فورية. كانت جميع أدلتها مشروعة: فأنا أختفي مع حلول الليل، بثياب من هو ذاهبٌ لعرس، ولا أعود للنوم في البيت، لكنّني أغفو في اليوم التالي في شبك النوم إلى ما بعد الغداء. لم أعد أقرأ، وتجرّأت للمرة الأولى منذ ولادتي على الوصول إلى البيت، دون أن أدري تماماً أين كنتُ. قالت أمّي: «أنت لا تنظر حتى إلى أخوتك، وتخلط بين أسمائهم وأعمارهم، ففي المرّة السابقة قبّلت حفيدَ كلِمِنثيا مورالِس معتقداً أنّه واحدٌ منهم»، لكنّها سرعان ما وعت مبالغاتها، وعوّضتها بالحقيقة البسيطة:

ـ أخيراً، أصبحت غريب الأطوار جدّاً في هذا البيت.

ـ كلّ هذا صحيح ـ قلتُ لها ـ لكنّ السببَ سهل جدّاً: لقد بلغ عندي السيل الزبى من كلّ شيء.

ـ منّا؟

كان يمكن أن يكون جوابي تأكيدياً، لكنّه لن يكون عادلاً:

ـ من كلّ شيء ـ قلت لها.

وعندئذٍ حكيتُ لها عن وضعي في المدرسة. وبأنهم يحكمون عليّ من درجاتي، وأبواي يفاخران بنتائجي قبل سنوات، فهما لا يحسبان أنّني الطالب الكامل وحسب، بل الصديق النموذجي، الأذكى والأسرع والأشهر ظرافةً. أو كما كانت تقول جدّتي: «الطفل الكامل».

ومع ذلك ولكي أنتهي بسرعة فالحقيقة كانت عكس ذلك تماماً. وكنتُ أبدو كذلك، لأنّني لم أكن أملك شجاعةَ ولا إحساسَ أخي لويس إنريكِه بالاستقلال، الذي لم يكن يفعل إلاّ ما يحلو له. سيحقق دون شك سعادةً ليست بالسعادة التي يتمناها المرء لأبنائه، لكنّها تسمح بتخطّي الحنان المفرط، والخوف غير العقلاني، وآمال الأبوين السعيدة.

بقيت أمي محبطة من الصورة المناقضة لتلك التي كوّناها في أحلامهما المنعزلة.

ـ لا أدري ماذا سنفعل ـ قالت بعد صمتٍ قاتل ـ لأنّنا لو حكينا كلَّ هذا لأبيك لمات بغتة. ألا تنتبه إلى أنّك فخر الأسرة؟

المسألة بالنسبة إليهما كانت بسيطة: بما أنّه لم يكن هناك إمكانية لأن أصبح الطبيب الواضح الذي لم يستطع أبي أن يكونه لنقصٍ في الإمكانات، فإنّه كان يحلم بأن أكون على الأقل مهنياً في أيّ اختصاص.

ـ لن أكون أيّ شيء على الإطلاق ـ خلصتُ ـ أرفضُ أن تعملا منّي ما لا أريد، أو ما تريدانني أن أكونه، ولا سيّما ما تريده الحكومة.

استمرّ الجدال الأحمق قليلاً بقية الأسبوع. أعتقد أنَّ أمّي أرادت كسب الوقت كي تتباحث مع أبي، وقد منحتني هذه الفكرة راحة جديدة. وذات يوم أطلقت اقتراحاً مفاجئاً، كما لو بالمصادفة.

ـ يقولون إنّك إذا ما أردتُ يمكنك أن تُصبِح كاتباً جيّداً.

لم أسمع من الأسرة شيئاً مثل هذا قط. فميولي سمحت منذ طفولتي بافتراض أن أصبح رساماً، موسيقياً، منشداً في الكنيسة، بل وحتى شاعراً في أيام الآحاد. اكتشفتُ نزعةً معروفة من الجميع إلى الكتابة، هي أقرب إلى الكتابة الملتوية والأثيرية، لكنّ ردّة فعلي جاءت هذه المرّة أقرب إلى المفاجأة:

ـ إذا كان عليّ أن أصبح كاتباً فيجب أن أكون من بين الكتاب العظماء، وهؤلاء ما عادوا يصنعونهم ـ أجبتُ أمّي ـ. في جميع الأحوال هناك مِهَنٌ أفضل كي يموت المرء جوعاً.

وبدل أن تتحدّث بكت في إحدى تلك الأماسي دون دموع. لو حدث ذلك اليوم لذعرت، لأنّني أقدّر أنَّ البكاء المكبوت ملاذ صائب للنساء العظيمات لتحصين غاياتهن. لكنّني في الثامنة عشرة من عمري لم أعرف ماذا أقول لأمّي، وخيَّبَ صمتي دموعَها.

ـ حسناً ـ قالت عندئذٍ ـ عِدني إذن على الأقل أن تُنهي الثانوية بأفضل ما تستطيع، وأنا آخذ على عاتقي تسوية بقية الأمور مع أبيك.

شعرنا أنا وهي براحة أنّنا فزنا. قبلتُ لأجلها، كما لأجل أبي، لأنّني خفتُ أن يموتا إن نحن لم نتوصّل إلى اتفاق. هكذا كان أن عثرنا على حلٍّ سهل، أدرس بموجبه الحقوق والعلوم السياسية، التي لم تكن فقط قاعدة ثقافية جيّدة لأيّة مهنة وحسب، بل لأنها اختصاص مؤنسن، دروس في الصباح ووقت حرّ للعمل في المساء. طلبتُ منها وأنا مشغول بالشحنة العاطفية التي تحمّلتها أُمّي في تلك الأيّام، أن تهيِّئ لي الجوّ كي أتكلّم مع أبي وجهاً لوجه. اعترضت، متأكّدة من أنّنا سننتهي إلى المحاكم.

ـ لا يوجد في العالم رجلان متشابهان مثلكما أنت وهو ـ قالت لي ـ وهذا هو الأسوأ للتحادث.

دائماً اعتقدتُ عكس ذلك. فقط الآن وبعد أن مررت بكلّ الأعمار التي مرّ بها أبي في حياته الطويلة، بدأتُ أرى نفسي في المرآة أكثر شبهاً به مما بنفسي.

يبدو أنّ أميّ كلّلت في تلك الليلة عملها الدقيق دقّةَ عملِ الصائغ، فأبي جمع الأسرة حول المائدة، وأعلن بنوعٍ من المصادفة: «سيُصبح عندنا في البيت محام». أمّي الخائفة من أن يفتح أبي الجدال بحضور الأسرة الكامل تَدخّلت بأفضل ما عندها من براءة:

ـ في وضعنا وبهذا الإطار من الأبناء ـ وضّحت لي ـ فكّرنا أن الحلَّ الأمثل هي الدراسة التي تستطيع أنت خلالها أن تنفق على نفسك.

أيضاً لم تكن الأمور بسيطة كما كانت تقول، ولا بشكل من الأشكال، لكنّها يمكن أن تكون بالنسبة إلينا أقلّها سوءاً وأضرارها قد تكون أقلّها دموية. فطلبتُ من أبي رأيه، للاستمرار باللعبة فجاء جوابه فورياً، وبصراحة تمزّق القلب:

ـ ماذا تريدني أن أقولَ لك؟ فأنت تشطر قلبي نصفين، لكن يبقى لي على الأقل فخر أن أساعِدك في أن تُصبِح ما يحلو لك.

تمثّلت ذروة الترف في كانون الأول من العام 1946 برحلتي الأولى في الطائرة، بفضل خوسِه بّالِنثيا، الذي عاد ليظهر ولديه مشكلة كبيرة. كان قد درس خمس سنوات ثانوية متفرّقة في كارتاخِنا، لكنّه أخفق في السنة السادسة. وعدتُه أن أحصل له على مكان في المدرسة الوطنية، كي يحصل أخيراً على شهادته، ودعاني هو لنذهب في الطائرة.

كان الطيران إلى بوغوتا يتمّ مرّتين في الأسبوع على متن طائرة دي. سي ـ 3 تابعة لشركة لانسا، التي لم تكن مخاطرها الكبرى تكمن في الطائرة ذاتها، بل في البقرات المتروكة على غاربها في المدرج الطيني المرتجل في مرعى للخيول. كانت تضطرّ أحياناً لتحوم عدّة مرّات ريثما يبعدونها. كانت تجربة دشّنتُ بها خوفي الأسطوري من الطائرة، في الوقت الذي تمنع فيه الكنيسة حمل خبز القربان المقدّس حماية له من الكوارث. كانت الرحلة تستغرق أربع ساعاتٍ تقريباً دون توقّف، وبسرعة ثلاثمئة وعشرين كيلومتراً في الساعة. كنّا نحن الذين قمنا بالرحلة النهرية العجيبة نهتدي من السماء بخريطة نهر ريو غراندِ دِ مغدلِنا الحيّة. كنّا نتعرّف على البلداتِ مصغَّرةً، وعلى القوارب التي تعمل بالفتيلِ، والدمى الصغيرة وهي تلوّح لنا مودّعة من فناءات المدارس. كان وقت المضيفات، اللواتي كنّ من لحم ودم، ينقضي في طمأنة الركاب الذين يسافرون وهم يُصلّون، وفي إسعاف المصابين بالدوار، وإقناع الكثيرين بعدمِ وجود خطر اصطدام الطائرة بطيور الزمّاح الملكية التي ترصد جيفَ النهر. من ناحيتهم كان المسافرون المحنَّكون يحكون مرَّةً وأخرى عن هذه وتلك الرحلة التاريخية كمآثر بطولية. كان الصعود إلى طائرة بوغوتا غير المُكيّفة ولا المجهزة بأقنعة الأوكسجين، يجعلُ المرء يشعر وكأنّ طبلاً في قلبه، بينما اهتزازات وارتجاج الأجنحة تزيد من سعادة الهبوط. لكن المفاجأة الأكبر هي أنّنا وصلنا قبل وصول البرقيات التي أرسلناها عشية الرحلة.

خلال مرورنا ببوغوتا، اشترى خوسِهْ بّالِنثيا آلاتٍ موسيقيةً لفرقةٍ بكاملها، ولا أدري ما إذا كان قد فعل ذلك بتروٍّ أم بهاجِس، لكن ما إن رآه المدير إسبيتيا يدخل ثابت الخطوِ ومعه قيثاراتٍ وطبولٍ وخشخيشاتٍ، وآلات هرمونيكا، حتى انتبهت أنّه صار مقبولاً. أنا أيضاً ما إن عبرتُ الرواق حتى شعرت بثقل وضعيَ الجديد: طالب في السنة السادسة. لم أعِ حتى تلك اللحظة أنّني أحمل على جبيني نجمة يحلم الجميع بها، وأنَ ذلك يُلاحظ حكماً في طريقة اقترابهم منّا، في نبرة كلامهم معنا، بل وحتى في بعض المهابة والاحترام. ثمّ أنّه كان عام حفلات. ومع أنّ المهجع كان لذوي المنح فقط، إلا أن خوسِهْ بّالنثيا أقام في أفضل فندق في الساحة، كانت إحدى مالكاته تعزف على البيانو، فصارت حياتنا طوال العام يومَ أحد.

تلك كانت قفزة أخرى في حياتي. راحت أمّي تشتري لي ثياباً بالية طوال مرحلة مراهقتي، وحين لم تعد تصلح لي تفصّلها على قياس أخوتي الأصغر مني. كانت السنتان الأولى والثانية أكثر السنوات إشكالية، لأنّ ملابس الجوخ الخاصّة بالطقس البارد غالية وصعبة. رغم أنّ جسمي لم يكن ينمو باندفاعٍ زائد، إلاّ أنّه لم يكن يمنح فرصة لتكييف ثوبٍ واحد لمقاسين مختلفين في عام واحد. وللطامّة الكبرى فإنّ العادة الأصلية لتبادل الملابس بين الطلاب الداخليين لم تستطع أن تفرض نفسها، فالملابس معروفة بحيث أن السخريات من المالكين الجدد كانت لا تُحتمل. حُلَّ هذا الأمرُ جزئيّاً حين فرض إسبيتيا لباساً موحّداً مكوّناً من سترة زرقاء وبنطلون رماديّ، وحَّدَ المظهرَ وأخفى المبادلة.

في السنتين الثالثة والرابعة استخدمتُ اللباس الذي أصلحه لي خياط سوكرِ، لكنّني اضطررتُ في السنة الخامسة لشراء بدلة أخرى جيّدة الحال، لكنّها لا تصلح للسنة السادسة. ومع ذلك فقد تحمَّس أبي لتطلعاتي لإرضائه إلى حدّ أنّه أعطاني نقوداً لأشتري طقماً جديداً على قياسي، كما أهداني خوسِهْ بّالِنثيا طقماً آخر كلّه من وبر الجمل، لم يكد يستخدمه من العام الفائت. سرعان ما اكتشفتُ أن

الجبّة لا تصنع راهباً. فقد حضرتُ، باللباس الجديد الذي يمكن استبداله باللباس الموحّد الجديد، حفلةَ رقص ساد فيها الساحليون، ولم أستطع أن أحصل إلا على فتاة استمرّت معي أقلّ من عمر زهرة.

استقبلني إسبيتيا بحماس غريب. فقد بدا أنّ درسَي الكيمياء الأسبوعيين أملاهما عليّ وحدي بوساطة لمحات سريعة من الأسئلة والأجوبة. هذا الاهتمام الإجباري تكشّف لي وكأنّه نقطة انطلاق جيّدة كي أفي بوعدي لأبويّ بنهاية مشرّفة. ما تبقى قام به منهج مارتينا فونْسِكا الوحيد والبسيط: الانتباه في الدرس لتفادي السهرِ والخوفِ في النهاية المرعبة. كانت طريقة حكيمة في التعليم. فمنذ أن قرّرت تطبيقها في السنة الأخيرة هدأ ضيق صدري. رحتُ أجيب بسهولةٍ على أسئلة المعلمين، الذين صاروا أكثر ألفة، ولاحظت كم كان سهلاً الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي لوالديَّ.

مشكلتي الوحيدة المقلقة كانت صراخي في الكوابيس. كان مشرف الانضباط، غونثالو أوكامبو على علاقة طيّبة بطلابه، دخل ذات ليلة من النصف الثاني من العام في العتمة إلى المهجع، على رؤوس أصابعه، ليطلب مني بعض مفاتيحه التي نسيت أن أعطيها له. لم يكد يضع يده على كتفي حتى أطلقتُ عواءً وحشياً أيقظ الجميع. في اليوم التالي نقلوني إلى مهجعٍ آخر لستةِ أشخاص أُعِدّ على عجلٍ في الطابق الثاني.

كان هذا حلاً لمخاوفي الليلية، لكنّه مغوٍ أكثر من اللازم، فقد صادف أنّه فوق غرفة المؤن، فانسلّ أربعة من المهجع المرتجل إلى المطابخ ونهبوها من أجل عشاء في منتصف الليل. سِرخيو كاسترو البعيد عن الشبهة، وأنا الأقل جرأةً، بقينا في سريرينا كي نقوم بدور المفاوضين في حالة الطوارئ. بعد نصف ساعة عادوا بنصف ما في غرفة المؤن جاهزاً للأكل. كانت أكبر وجبة تناولناها خلال سنوات الدراسة الداخلية كلّها، لكن مع عسر هضم نتيجةَ أنهم اكتشفونا خلال أربع وعشرين ساعة. فكّرت أن كلّ شيء انتهى هناك، ولم ينقذنا من الطرد غير نباهة إسبيتيا التفاوضية.

كانت مرحلة جيّدة في المدرسة، وأقل مراحل البلد حرجاً.

فحيادية الرئيس براس، غير المقصودة، زادت التوتر الذي بدأ يُحسّ به لأوّل مرّة في المدرسة. ومع ذلك أنتبهُ اليوم إلى أنّ هذا التوتّر كان في داخلي قبل ذلك، لكنّني في ذلك الوقت بدأت أعي البلد الذي أعيش فيه. بعضُ المعلمين الذين حاولوا أن يبقوا على الحياد منذ العام الفائت، لم يستطيعوا ذلك في الصفوف، فراحوا يطلقون رشقات غير مهضومة عن أولوياتهم السياسية. خاصّة منذ أن بدأت الحملة القاسية للخلافة الرئاسية.

راح يتضح في كلّ يوم أكثر أنّ الحزب الليبرالي سيخسر بمرشحيه غايتان وتورباي، رئاسةَ الجمهورية بعد خمسة وعشرين عاماً من الحكومات المطلقة. كانا مرشّحين متناقضين، كأنّهما ينتميان إلى حزبين مختلفين، ليس بسبب ارتكاباتهما الشخصية وحسب، بل وبسبب تصميم المحافظين الدمويين، الذين رأوا ذلك بوضوح منذ اليوم الأوّل، فبدل لاوريانو غومِثْ فرضوا ترشيح أوسبينا بِرِثْ، المهندس المأساوي ذا السمعة البطريركية، التي حاز عليها بجدارة. ومع الليبرالية المنقسمة، والمحافظة الموحّدة والمسلحة لم يكن هناك من خيار آخر: انتخب أوسبينا بِرِثْ.

تهيّأ لاورِيانو غومِث مذاك لخلافته لاجئاً إلى استخدام القوى الرسمية بعنفٍ في كافّة المجالات. لقد عاد واقع القرن التاسع عشر التاريخي مرّة أخرى، فلم ننعم بالسلام، بل بهدنات عابرة بين ثمانية حروب أهلية عامّة، وأربع عشرة حرب محلية، وثلاثة انقلابات عسكرية، ثم وأخيراً حرب الألف يوم، التي خلّفت وراءها ثمانين ألف قتيل من كلا الجانبين من سكانٍ لا يكاد يبلغ تعدادهم أربع ملايين نسمة. هكذا ببساطة: كان برنامجاً مشتركاً للتقهقر مئة سنة.

في نهاية العام الدراسي مارس الأستاذ خيرالدو تجاهي استثناءً أبلقَ ما يزالُ يخجلني حتى الآن. حضّر لي استبياناً بمجموعة من الأسئلة والأجوبة البسيطة ليعيد تأهيلي في الجبر الضائع مني منذ السنة الرابعة، وتركني وحيداً في مكتب المعلمين، مفسحاً لي كلّ أنواع الغش. عاد بعد ساعة مفعماً بالأمل فرأى النتيجة مفجعة، فألغى كلّ صفحة منه بعلامة ضرب من أعلاها إلى

أدناها، وقال بزمجرة ضارية: «هذا الرأس ضائع». ومع ذلك ظهرتُ في التصنيفات الأخيرة ناجحاً، لكنني كنت من الحشمة بحيث لم أشكر المعلِّم لأنّه خالف مبادئه وواجباته من أجلي.

وعشيّة الامتحان النهائي الأخير من ذلك العام، وقع لنا أنا وغيّرمو مع الأستاذ غونثالو أوكامبو حادث تسبّبت به مشادة بين سكرانين. كان خوسِهْ بّالِنثيا قد دعانا للدراسة في غرفته في الفندق، الذي كان جوهرة من الطراز الكولونيالي، وله إطلالة رائعة على الحديقة العامة المزهرة وعلى الكاتدرائيةِ في العمق. وبما أنّه لم يتبقَّ علينا غير الامتحان الأخير، تابعنا حتى الليل، وعدنا إلى المدرسة مارّين بحاناتنا البائسة. كان الأستاذ أوكامبو في مناوبته مشرفاً على النظام. فوبّخنا على تأخّرنا وحالَتِنا السيئة، فتوّجناه أنا وهو بالشتائم. أهاج ردّ فعله الغاضب وصراخُنا المهجعَ. وجاء قرار هيئة المدرسين، بأنّنا لا نستطيع أنا ولوبُثْ غِرًا أن نتقدّم إلى الامتحان الأخير والوحيد المتبقي أمامنا. بمعنى: أنّنا على الأقل لن نحصل على الثانوية في ذلك العام. لم نعرف قطّ كيف تمّت المفاوضات السرّية بين المعلمين، لأنّهم أظهروا تضامناً محكماً. يبدو أنّ المدير إسبيتيا أخذَ الموضوع على عاتقه وعلى مسؤوليته ومخاطرته، وتمكّن من جعلنا نتقدّم إلى الامتحان في وزارة التربية في بوغوتا. وهذا ما حدث. رافقنا إسبيتيا بنفسه، وبقي معنا خلال إجابتنا على الامتحان الكتابي، الذي وُضِعت علامته هناك بالذات وبشكل جيّد جدّاً.

لا بدّ أنّها كانت مسألة داخلية معقَّدة جدّاً. لأنّ أوكامبو لم يحضر الجلسة المهيبة، ربّما بسبب قرار إسبيتيا ونتائجنا الرائعة. أخيراً ونظراً لنتائجي الشخصية، استحققتُ كجائزة خاصّة كتاباً لا يُنسى: «حياة مشاهير الفلاسفة» لديوجِنِس لايرثيو. لم يكن هذا أكثر مما توقّعه أبواي وحسب، بل وكنتُ الأوّلَ على دفعة ذلك العام أيضاً، رغم أنّ زملائي في الصف ـ وأنا أكثر من أيّ منهم ـ كنّا نعرف أنّني لم أكن الأفضل.

5

لم أتصوّر قط أنّ قصّتي الأولى ستُنْشَرُ بعد تسعة أشهر من حصولي على الثانوية، في ملحق «إل اسبِكتادور» الأدبي: فين دِ سِمان(*) في بوغوتا، أهم وأكثر ملاحق المرحلة صرامةً. بعد اثنين وأربعين يوماً نُشرت القصّةُ الثانية. ومع ذلك فإن أكثر ما فاجأني هو زاوية تكرسني كاتباً بقلم نائب مدير الصحيفة ومدير الملحق الأدبي إدواردو ثالاميا بوردا، الملقب أوليسِس، أكثر النقاد الكولومبيين نباهة وتحفّزاً لظهور القيم الجديدة في ذلك الوقت.

كان تطوُّراً مفاجئاً إلى حدٍّ أنّ روايته ليست سهلة. كنتُ قد سجّلت في بداية ذلك العام، كما اتفقت مع أبويَّ، في كلّية الحقوق التابعة للجامعة الوطنية في بوغوتا، وأعيش في مركز المدينة تماماً في نزل من نُزُلِ شارع فلوريان، يشغلُ معظمه طلابٌ من منطقة الساحل الأطلسي. وكنتُ بدلَ أن أعمل كي أعيش أبقى في المساءات الحرّة أقرأ في غرفتي أو في المقاهي التي تسمح بذلك. كانت كتب يوفرها الحظّ والمصادفة، وتتعلّق بحظّي أكثر مما بمصادفاتي، فالأصدقاء الذين كان باستطاعتهم شراؤها يعيرونها لي لمدّة محدودة، إلى حدٍّ يضطرّني لأن أسهر ليالي بكاملها كي أعيدها في موعدها. لكن على عكس الكتب التي قرأتُها في مدرسة ثيبّاكيرا، وتستحق أن توضع في أضرحة مؤلفين مُكَرَّسين، كنّا نقرأ هذه

(*) نهاية الأسبوع.

بمتعة الخبز الطازج، مُتَرْجمةً ومطبوعةً توّاً في بوينس أيرس بعد حظر الطباعة الطويل أثناء الحرب الأوروبية الثانية. وهكذا ومن حسن حظّي اكتشفتُ من كانوا مُكْتَشَفين تماماً: خورخِه لويس بورخِسْ. د. هـ. لورنس، وألدوس هكسلي وغراهام غرين وتشستِرتون، ووليم أيريش، وكاترين مانسفيلد وآخرين كثيرين.

كانت هذه الأعمال الجديدة معروضة في واجهاتِ المكتبات البعيدةِ المنال، لكنّ بعض النسخ يتمّ تداولها في مقاهي الطلبة، التي شكّلت مراكز نشطة لترويج الثقافة بين جامِعيّي المقاطعات. كثيرون منهم كانوا يحتفظون بأماكنهم عاماً بعد عام، ويستلمون هناك بريدهم، بل وحوالاتهم البريدية أيضاً. وقد كان فضلُ بعضِ مالكيها أو العاملين فيها عاملاً حاسماً في إنقاذ كثير من الشهادات الجامعية. كثير من المهنيين يمكن أن يكونوا مدينين لهم أكثر مما لمسعفيهم الخفيين.

كنتُ أفضّل «إلْ مولينو»، مقهى الشعراء الكبار، على بعد مئتي متر من نزلي، في زاوية التقاطع بين جادة خيمِنِثْ دِ كِسادا وشارع كارِّرا سِبْتيما(*). كانوا لا يسمحون بطاولة دائمة للطلبة، لكنّ الواحد منّا كان واثقاً من أنّه يتعلّم من الأحاديث الأدبية التي نصغي إليها مقرفصين قرب الطاولات القريبة أكثر وأفضل مما في كتب النصوص المقررة. كان المقهى بيتاً كبيراً، حسنَ الأثاث، من الطراز الأسباني، زخرفَ الرسامُ سانتياغو مارتينِثْ دِلغادو جدرانَه بمشاهدَ من معركة دون كيخوتِ مع طواحين الهواء. ورغم أنّه لم يكن لي مكان محجوز إلا أنّني كنت أتدبّر أمري دائماً، حيث يضعني النُدُل أقرب ما يمكن من المعلم العظيم ليون دِ غريف ـ الملتحي، المزمجر والساحر ـ، الذي كان يبدأ مسامرته مع بعض أشهر كتاب ذلك الوقت عند حلول المساء، وينتهي عند منتصف الليل مع تلامذة الشطرنج، مختنقاً بالكحول الرديئة. قليلة هي الأسماء الفنية والأدبية الكبيرة في البلد التي لم يمرّ أصحابها بتلك الطاولة ونحن كنّا

(*) الشارع السابع.

نتظاهر بالموت على طاولتنا كيلا تفوتنا كلمة واحدة منه. ومع أنّهم كانوا يتحدّثون عن النساء والمؤامرات السياسية أكثر مما يتكلّمون عن فنونهم وعملهم، إلا أنهم دائماً كانوا يقولون شيئاً جديداً نتعلّمه. كنّا نحن أبناء الساحل الأطلسي الأكثر مواظبة، ولم تجمعنا المؤامرات الكاريبية ضدّ الغنادرة المترفين، بقدر ما جمعنا الهوس بالكتب. خورخِهْ ألبارو إسبينوسا، طالب حقوق علّمني الإبحار في الكتاب المقدّس، وجعلني أحفظ عن ظهر قلبٍ أسماء جلساء أيوب، وضع لي ذات يوم مجلّداً مذهلاً على الطاولة وحكم بسلطته التي لمطران:

ـ هذا هو الكتاب المقدّس الآخر.

وكان، ـ كيف لا؟ ـ عوليس لجيمس جويس، الذي قرأته بشكلٍ متقطّعٍ ومتعثّر، إلى أن ما عاد صبري يسمح لي بأكثر. كان خوفاً مبكّراً. بعد سنوات، وقد أصبحتُ ناضجاً سلِساً، انهمكت جدّياً بقراءته من جديد ولم يشكّل لي اكتشافاً لعالم خاصّ، لم أظنّ قط أنّني أملكه في داخلي وحسب، بل كان مساعدةً فنيّة لا تُقدّر بثمن في حرّية اللغةِ واستخدام الزمن وبناء كتبي.

أحد رفاق السنة الرابعة هو دومينغو مانوِل بِغا، طالب الطب الذي أصبح صديقي منذ وجودي في سوكرِ وشاطرني نهمَ القراءةِ. صديقٌ آخر هو ابن خالي نيكولاس ريكاردو، كبير أبناء خالي خوان دِ ديوس، الذي أبقى على فضائل الأسرة حيّةً عندي. وصلَ بِغا ذات ليلة ومعه ثلاثة كتبٍ اشتراها توّاً، أعارني واحداً منها لا على التعيين، كما كان يفعلُ أحياناً كثيرةً ليُساعِدني على النوم. لكنّه حقّق في تلك المرّة النقيض تماماً: ما نمت بعدها بالمتعة السابقة. الكتاب هو المسخ لفرانز كافكا، بترجمة بورخِس المزيّفة، المنشور في دار لوسادا في بوينس أيرِس، الذي رسمَ منذ السطر الأوّل طريقاً جديداً لحياتي وهو اليوم إحدى تحف الأدب العالمي العظيمة: «حين استيقظ غريغور سامسا ذات صباح، بعد حلمٍ مزعجٍ، وجد نفسه وقد تحوّل في فراشه إلى حشرة مريعة». كانتْ كتباً غامضة، لم تكن مضائقها مختلفة وحسب، بل وفي كثير من الأحيان متناقضة مع كلّ

ما عرفتُه حتى ذلك الوقت. لم يكن من الضروري البرهان على الأحداث: يكفي أنّ الكاتب كتبها كي تكون حقيقية، دون أيّ برهان غير قوّة موهبته وسطوة صوته. ومن جديد كانت شهرزاد، لكن ليس في عالمها الألفيّ، حيث كلّ شيء ممكن، بل في عالم لا يستعاض، ضاع فيه كلّ شيء.

انتابتني بعد الانتهاء من قراءة المسخ رغبةٌ ملحة بالعيش في تلك الجنّة الغريبة. باغتني اليومُ الجديد وأنا وراءَ الآلة الكاتبة المحمولة، التي كان يعيرني إيّاها دومينغو مانوِل بِغا، لأحاول كتابة شيء يُشبه بيروقراطيَّ كافكا المسكين الذي تحوّل إلى خنفساء هائلة. لم أذهب في الأيام التالية إلى الجامعة خشيةَ أن ينفكّ السحر، وبقيت أتصبّب قطراتِ حسدٍ حتى نشر إدواردو ثالاميا بوردا على صفحاته زاوية تمزّق القلب، يأسف فيها لأن جيل الكتاب الكولومبيين الجديد يخلو من أسماء تُذْكَر، ولأنّه لا شيء يلوح في الأفق يمكن أن يُعَدِّل ذلك. لا أدري بأيِّ حقٍّ شعرتُ بأنّني معنيٌّ باسم جيلي بتحدّي تلك الزاوية، وأخذتُ القصّة المهجورة لأحاول رفع الضيم عنها. صغتُ فكرةَ حبكةِ الجثّة الواعية في قصّة المسخ، لكنّني خفَّفت من ألغازها الزائفة وأحكامها الأنطولوجية المسبقة.

في جميع الأحوال كنتُ من عدم الثقة بنفسي بحيث لم أجرؤ على أن أستشير بذلك أيّاً من رفاق الطاولة؛ ولا حتى غونثالو مايّارينو، زميلي في كلّية الحقوق، الوحيد الذي كان يقرأ نثري الشعري الذي كنتُ أكتبه كي أتحمّل سأم الدروس. أعدتُ قراءة قصّتي وتصحيحها حتى تعبت، وكتبتُ أخيراً زاوية شخصية لا أذكر منها حرفاً واحداً إلى إدواردو ثالاميا ـ الذي لم أكن قد رأيته قط ـ. وضعتُ كلَّ شيء في مغلّفٍ وأخذته شخصياً إلى قاعة استقبال «إلْ اسبِكْتادور». أذِنَ لي البوّاب بالصعود إلى الطابق الثاني كي أسلّم الرسالة إلى ثالاميا جسداً وروحاً. لكنّ الفكرة بحدّ ذاتها شلّتني، فتركت الظرف على طاولة البواب، وولّيتُ الأدبار.

حدث هذا ذات ثلاثاء ولم يقلقني مصيرُ القصّة قيدَ أنملة، إلاّ أنّني كنتُ واثقاً من أنّها حتى ولو نشرت فإن ذلك لن يكون سريعاً. وهمت ثمّ همت خلال أسبوعين من مقهى إلى آخر، لألهي لهفتي

لمساءات أيّام السبت، حتى جاء الثالث عشر من أيلول ودخلت إلى «إلْ مولينو» وفوجئتُ بعنوان قصّتي على عرض «إلْ اسبِكتادور» التي صدرت للتو: «الاستسلام الثالث».

ردّة فعلي الأولى كانت ثقتي الماحقة بأنّني لا أملك السنتيمات الخمسة لشراء الصحيفة. كان هذا أكبر دليل على الفقر، لأنّ أشياء كثيرة أساسية في الحياة غير الصحيفة تُكلّف خمسة سنتيمات: الحافلة الكهربائية، الهاتف العام، فنجان القهوة، تلميع الحذاء. اندفعت إلى الشارع لا شيء يحميني من رذاذ المطر الهادئ، ولم أعثر في المقاهي القريبة على أحدٍ أعرفه ليتصدّق عليّ بقطعة نقدية. كما لم أجد أحداً في النزل في تلك الساعة الميتة من يوم السبت، غير المالكة، التي كانت كما لو أنها لا أحد، فأنا مدينٌ لها سبعمئة وعشرين مرّة بخمسة سنتيمات أجرة شهرين من السرير والخدمات. حين عدتُ إلى الشارع مستعدّاً لأي شيء، التقيتُ رجلاً مرسلاً من العناية الإلهية نزل من سيارة أجرة وبيده «إلْ اسبِكتادور» وطلبتُ منه بعزيمةٍ أن يهديها إليّ.

هكذا استطعتُ أن أقرأ قصّتي الأولى مطبوعةً بحروف القالبِ، ومرفقة برسوم هِرنان مِرينو، رسام الصحيفة الرسميّ. قرأتها مختبئاً في غرفتي بقلبٍ راجف وبنَفَسٍ واحدٍ. رحتُ أكتشفُ في كلّ سطر السُلْطَةَ الماحقة للحرف المطبوع، فما أشدته بكلّ حبّ وألم كمحاكاة مذعنة لعبقري عالميّ، بدا لي مونولوجاً معقّداً وهشاً لايكادُ يرتكز على ثلاث أو أربع جملٍ مواسية. كان لا بدّ من مرور عشرين عاماً كي أجرؤ على قراءتها مرّة ثانية، وكان حكمي ـ الذي لم تكد تُخفّف منه الرحمةُ ـ أقل من مُرْضٍ بكثير.

الأصعب هو تيّار الأصدقاء المتألّقين الذين غزوا غرفتي بأعداد الصحيفة، وإطراءات مفرطة على قصّة هم بالتأكيد لم يفهموها. كان بين رفاقي الجامعيين من قدّرها ومن فهمها أقلَّ من غيره، ثم من لم يتخطّ، وكان على حقّ، السطرَ الرابع، لكنّ غونثالو مايّارينو، الذي لم يكن سهل عليّ الشكّ برأيه الأدبي أقرّها دون تحفّظ.

كان تلهّفي الأكبر لرأي خورخِه ألبارو إسبينوسا، بمبضعه النقدي المخيف حتى فيما يتخطّى دائرتنا. كنتُ أشعر بحماس متناقض: فأنا أريد أن أراه على الفور لأنهي ريبتي دفعةً واحدة، وفي الوقت ذاته أرتعبُ من فكرة مواجهته. اختفى حتى يوم الثلاثاء، وهو أمر غير مستغرَبٍ من قارئٍ نهم، وحين عاد وظهر في «إلْ مولينو» لم يبدأ بالكلامٍ عن القصّةِ، بلّ عن جرأتي.

ـ أعتقد أنّك تنتبه إلى الورطة التي وضعت نفسك فيها ـ قال لي وقد ثبّت عينيه، عيني الكوبرا الخضراوين، في عينيَّ ـ أصبحتَ الآن في واجهة الكُتاب المعترف بهم، عندك الكثير مما عليك أن تفعله كي تستحق ذلك.

تجمَّدتُ أمام الرأي الوحيد الذي كان باستطاعته، مثل رأي أوليسس، أن يؤثّر بي. لكن قرّرتُ قبل أن ينتهي أن أستبقه برأيي الذي اعتبرتُه دائماً وما زلتُ أعتبره حقيقةً:

ـ هذه القصّة خراء.

ردّ عليّ بإتقانٍ راسخ أنّه لا يستطيع أن يعطي رأياً نهائياً بعد لأنّه لم يكد يملك الوقت الكافي لتصفّحها. لكنّه وضّح لي أنّها حتى ولو كانت سيّئة، كما أقول، إلاّ أن عليّ ألاّ أضيع الفرصة الذهبية التي أتاحتها لي الحياة.

ـ في جميع الأحوال هذه القصّة صارت تنتمي إلى الماضي ـ خلُصَ ـ المهم الآن هي القصّة القادمة.

أفحمني. ارتكبتُ حماقةَ البحثِ عن حجج ضدّه، إلى أن اقتنعتُ بأنّني لن أسمع نصيحة أكثر ذكاء من نصيحته. أسهبَ بفكرته الثابتة القائلة بأنّ أوّل ما يجب فعله هو تصوّر القصّة ثم الأسلوب، لكنّ الواحدَ منهما يتبع للآخر بعبوديةٍ متبادلة، مثله مثل عصا الكلاسيكيين السحرية. انشغلتُ قليلاً برأيه، الذي كثيراً ما ردّدَه، والقائل بأنّني بحاجة إلى قراءة مُعمّقة ومفتوحة للكتاب اليونانيين، وليس فقط لهوميروس، الوحيد الذي قرأته كواجبٍ في الثانوية. وعدته بذلك وأردت أن أسمع أسماءً أخرى، لكنّه بدّل الموضوع

بـ «مزيّفو النقود» لأندريه جيد، التي كان قد قرأها في نهاية ذلك الأسبوع. لم أجرؤ قط على القول له بأنَّ حديثنا ذاك قد يكون هو الذي صاغ حياتي. أمضيت الليلة ساهراً أسجّل ملاحظاتي لقصّة قادمة بعيداً عن تعرّجات الأولى.

ارتبتُ بأنّ الذين راحوا يحدّثونني عنها لم يتأثّروا بها إلى ذلك الحد ـ ربّما لم يقرؤوها، وبالتأكيد لم يفهموها ـ بقدر ما تأثّروا لأنّها نُشِرَتْ بطريقة غير معهودة في صفحة بتلك الأهمية. بداية انتبهت إلى أنّ عيوبي الكبيرة هي الارتباكُ في الكتابة، وجهلُ القلب البشري. وهو ما ظهر جليّاً تماماً في قصّتي الأولى، التي كانت تأمّلاً تجريدياً مشوّشاً، مثقلاً بالإفراط بالمشاعر المُختَلَقَة.

وعند البحث في ذاكرتي عن حالات واقعية لقصّتي الثانية، تذكّرت أنّ إحدى أجمل النساء اللواتي عرفتهنّ في طفولتي، قالت لي إنّها تريد أن تكون داخل قطّ غريب الجمال، تداعبه في حضنها. سألتها لماذا، فأجابتني: «لأنّه أجمل منّي» وعندها ملكتُ نقطةَ ارتكاز للقصة الثانية، وعنواناً جذّاباً: «حواء داخل قطّها». ما تبقى ابتدعتُه، كما في القصّة السابقة، من العدم، وللسبب ذاته ـ كما كنّا نُحبّ أن نقولَ في ذلك الوقت ـ حملتْ كلّ منهما بذرة موتها في داخلها.

نشرت هذه القصّة بطريقة القصّة الأولى، يوم السبت 25 تشرين الأول 1947، موضّحةً برسوم نجم صاعد في سماء الكاريبي: الرسام إنريكِهْ غراو. لفت انتباهي أنّ أصدقائي تلقوها كشيء روتينيٍّ من كاتب مُكرَّس. تألّمْتُ بالمقابل من الأخطاء، وشككت بالصواب، لكنّني تمكّنت من الحفاظ على روحي مضطربةً. الضربة الكبرى جاءت بعد عدّة أيّام، مع زاوية نشرها إدواردو ثالاميا تحت الاسم المستعار المعتاد أوليسِسْ، في عموده اليومي في «إلْ اسبِكتادور». مضى مباشرة إلى مبتغاه: «إنّ قرّاءَ «إلْ فين دِ سِمانا» مُلحق هذه الصحيفة الأدبي لا بدّ أنهم لاحظوا ظهورَ عبقري جديد وأصيل، ذي شخصية قويّة». ثم: «في التخيل الأدبي يمكن أن يحدث كلّ شيء، لكن أن يعرف كيف يُظهر بطبيعية وبساطة ودون مبالغات، اللؤلؤة التي

يتمكن من انتزاعها منه، ليس أمراً يستطيع أن يفعله كلُّ الفتيةِ الذين في العشرين من عمرهم، ويبدؤون علاقتهم بالآداب». وينهي حكمه بـ «مع غارثيّا ماركيز يولد كاتبٌ جديد وبارز».

شكّلت الزاوية، وكيف لا، صدمةَ سعادة، لكنّها أكّدت لي أنّ ثالاميا لم يترك لنفسه أيَّ سبيلٍ للتراجع. كلّ شيء قد تمّ وعليّ أن أُترجِم سماحتَه كنداء إلى ضميري ما بقيت حيّاً. أظهرت الزاوية أيضاً أنّ أوليسِسْ قد اكتشف هويّتي من خلال أحدِ زملائه في التحرير. عرفت في تلك الليلة أنّه غونثالو غونثالِثْ، ابن خالٍ قريب لأقرب أبناء أخوالي، الذي كتب طوال خمسة عشر عاماً في الصحيفة ذاتها، باسم غوغ المستعار وبعاطفةٍ متماسكة، عموداً يردّ فيه على أسئلة القرّاء، على بعد خمسة أمتار من مكتب إدواردو ثالاميا. من حسن حظّي أنّ هذا لم يبحث عنّي ولا أنا بحثتُ عنه. رأيته مرّة على طاولة الشاعر دِ غريف، وعرفتُ صوتَهُ وسعاله الخشنَ المزمن، ورأيته عن قرب في عدّة نشاطات ثقافية، لكنّ أحداً لم يقدّم أحدنا للآخر. بعضهم لأنّه لا يعرفنا، وآخرون لأنّه بدا لهم أنّ من غير الممكن ألا يعرف بعضُنا بعضاً.

من الصعب أن يتخيّل المرءُ إلى أيّ حدٍّ كان الناس يعيشون في ظلّ الشِّعر. كان عاطفة محتدمة، طريقة أخرى في الحياة، كرة مشتعلة تمضي تلقائيّاً في كلّ الاتجاهات. كنّا نفتح الصحيفة، حتى على القسم الاقتصادي أو الصفحة القضائية، أو نقرأ ثُفْلَ القهوة في قعرَ الفنجانِ فنجد الشعرَ ينتظرنا هناك، كي يتكفَّلَ بأحلامَنا. وهكذا صارت بوغوتا بالنسبة إلينا، نحن سكان جميع المقاطعات الأصليين، عاصمةَ البلد ومقرّ الحكومة، وعلى الأخص المدينةَ التي يعيش فيها الشعراء. لم نكن نؤمن بالشعر وحسب، بل ونعرفُ يقيناً ـ كما كتب لويس كاردوثا إي أراغون ـ أنَّ: «الشعر هو البرهان المحسوس الوحيد على وجود الإنسان».

كان العالمُ للشعراء، وجديدُ الشعرِ أهمّ بالنسبة إلى جيلنا من الأخبار السياسية، المثبطة في كلّ مرّة أكثر. كان الشعرُ الكولومبي قد غادرَ القرنَ التاسع عشر مضاءً بالنجم الوحيد: خوسِهْ أسونثيون

سيلبا، الرومانسي الرفيع الذي أطلق، وهو في الثانية والثلاثين من عمره، رصاصةً من مسدّسه على موضِع القلب، الذي علّمَه له طبيبُهُ باليود. لم أولد في الوقت المناسب كي أتعرّف على رافائيل بّومبو(*) أو على إدواردو كاستيليو ـ الشاعر الغنائيّ العظيم ـ الذي كان يصفه أصدقاؤه بأنّه شبح هاربٍ مساءً من القبر، بدثارٍ من طبقتين وبشرةٍ ضاربة للخضرة بفعلِ المورفين وهيئة زمّاحٍ ملكي: التجسيد المادّي للشعراء الملعونين. مررتُ ذات مساء في الحافلة الكهربائية أمام بيت كبير في كارّرا سِبتيما فرأيتُ في بوابته أغربَ رجل رأيته في حياتي، بطقمٍ تامٍّ وقبعة إنكليزية ونظارة سوداء على عينيه الضريريتينْ ودِثارٍ سهوب. هذا هو الشاعر ألبِرتو أنخِلْ مونتويا، الرومانسي المفخّم لنفسه قليلاً، والذي نشر بعضاً من القصائد الجيّدة في عصره. كانوا بالنسبة إلى جيلنا أشباحاً من الماضي، باستثناء المُعلّم ليون دِ غريف، الذي تجسستُ عليه لسنواتٍ في مقهى «إلْ مولينو».

لم يستطع أحد منهما أن يُلامس مجدَ غيِّرمو بَالِنثيا، أرستقراطيّ بّوبّايّان، الذي فرض نفسه، ولم يبلغ الثلاثين من عمره حبراً أعظمَ لجيل المئوية الذي سميّ كذلك، لأنّه صادف في عام 1910 ذكرى قرن الاستقلال الوطني الأول. ولم يحصل إدواردو كاستيليو وبّورفيريو بَاربَا، الشاعران الكبيران من ذريّة الرومانسيين، على النقد العادل الذي كانا يستحقّانه تماماً في بلد يشتعل ببلاغةِ مرمرِ بَالنثيا، الذي قطع ظلّهُ الأسطوريُّ الطريقَ على ثلاثة أجيال. الجيل الذي تلاه مباشرة وظهر في العام 1925 باسم واندفاع «الجُددِ» الذي اعتمد على نموذجين رائعين مثل رافائِيلَ مايا ولَيون غريف مرّة أخرى، لم يُعترف بكامل عظمتهما طيلة وجود بَالِنثيا على العرش. فقد تمتّع هذا حتى ذلك الوقت بمجدٍ خاصّ، حمله بشكلٍ مضطرب إلى أبوابِ رئاسة الجمهورية نفسها.

الوحيدون الذين تجرّؤوا على معارضته خلال نصف قرن هم

(*) رافائيل بومبو (1833 ـ 1912) شاعر وناقد كولومبي من أعمالهِ «مطلع الربيع»، «حواء الأجواء» و «ساعة الظلمات».

شعراء جماعة «حجر وسماء» بدفاترهم الشابة، الذين لم يجمع بينهم في النهاية شيء مشترك غير فضيلة أنّهم ليسوا من أتباع بَالِنثيا: إدواردو كارّانثا، أرتورو كاماتشو، راميرِثْ وأورِليو أرتورو، وخورخِهْ روخاسْ نفسه الذي موّل نشر قصائدهم. لم يكونوا جميعاً متساوين في الشكل والإلهام، لكنّهم معاً هزّوا أطلالَ البرناسيين، وأيقظوا للحياة شعرَ، قلبِ جديد برجعِ متعددٍ لخوان رامون خيمِنِثْ، وروبِن داريّو. وغارثيّا لوركا، وبابلو نيرودا، أو بيثِنتِ هويدوبرو. لم يأتِ قبولهم الجماهيري فورياً، ولا هم أنفسهم كانوا واعين إلى أنّ يُنظَر إليهم كرسُلٍ من العناية الإلهية لِكَنْسِ دار الشعر. ومع ذلك سارع دون بالدومِرو سانين كانو، كاتب المقالة الأكثر احتراماً في تلك السنوات، إلى كتابة مقالة حاسمة للوقوف في وجه أيّ محاولة ضدّ بَالِنْثيا. اعتداله الذي كان مَضْرَباً للمثلِ تجاوز المعقول. من بين الأحكام القطعية الكثيرة كَتَبَ أنّ بَالِنثيا قد «استولى على العلوم القديمة كي يتعرّف على روح أزمنة الماضي الغابرة، لينعم التفكير بالنصوص المعاصرة ويفاجئ، بالقياس، روحَ الإنسان كلّها». وقد كرَّسه مرّة أخرى كشاعر خارج الزمان والحدود ووضعه بين أولئك «مثل لوقراتيوس(*) ودانتي وغوتِهْ الذين حافظوا على الجسد كي ينقذوا الروح». ولا بدّ أنّ أكثرَ من واحدٍ فكّرَ بأنّ بَالِنثيا لم يكن، مع وجود صديق مثل هذا، بحاجةٍ إلى أعداء.

ردّ إدواردو كارّانثا على سانين كانو بمقالةٍ قالتْ كلَّ شيء من عنوانها: «حالة من حالات عبادة الشاعر» وهي أوّل هجوم صائبٍ من أجل وضع بَالِنثيا في حدوده الحقيقيّة، وإعادة قاعدته إلى مكانها وحجمها. اتهمه بأنّه لم يُشعل في كولومبيا شعلةَ الروح بل عملياتِ تجبيرٍ كلامية، وعرَّف أشعارَه: بأنّها أشعار فنانٍ متحذلق، باردٍ وحاذق ونقّاشٍ متقِن. جاءت النتيجةُ التي توصّل إليها سؤالاً موجّهاً إلى نفسه، قصيدةً من قصائده الجيّدة: «إذا كان الشعر لا

(*) Lucrecio أو كما يُكتب في اللاتينية Lucretius (98 - 55 ق.م.) شاعر لاتيني ولد في روما، وألّف ملحمة «في الطبيعة» التي عرض فيها مذهب أبيقور.

يصلح لتسريع دمي، ليفتحَ لي نوافذ على اللغز، ليساعدَني على اكتشاف العالم، ويرافقَ هذا القلب المهجور في وحشته، في الحبّ، في الفرحِ والصدّ، فما هي فائدة الشعر؟» وينتهي بـ: «بالنسبة إليَّ ـ عليَّ اللعنة! ـ فبَالِنثيا لا يكادُ يكون شاعراً جيّداً».

وقد سبَّبَ نشر «حالة من حالات عبادة الشاعر» في «قراءات الأحد» في «إلْ تييمبّو»، الواسعة الانتشار آنذاك، زلزالاً اجتماعيّاً. والنتيجة العجيبة جاءت فحصاً عميقاً للشعر الكولومبي منذ أصوله، وهو أمرٌ من المحتمل أنّه لم يحدث بجدّية منذ أن كتب دون خوان دِ كاستِليانوس «مراثي رجالات العالم الجديد البارزين» في مئة وخمسين ألف بيت(*).

ومنذ ذلك الوقت مضى الشعرُ إلى سماء مفتوحة. ليس فقط بالنسبة إلى الجدد، الذين أصبحوا دارجين، بل ولآخرين ظهروا فيما بعد، وتنافسوا متدافعين لشغل أماكنهم. وأصبح الشعر شعبياً إلى حدّ أنّه من غير الممكن أن نفهم اليوم إلى أيّ حدٍّ راح الناس يعيشون كلَّ عددٍ من «قراءات الأحد» التي كان يُديرها كارّانثا أو من «سابادو» التي كان يُديرها وقتذاك كارلوس مارتين، مدير مدرستنا السابق. وقد فرض كارّانثا بمجدِهِ، إضافة إلى شعرِهِ، طريقتَهُ في أن يكون شاعراً في السادسة مساءً في كارِّرا سِبتيما في بوغوتا، والذي كان كمن يتنزّه في خزانة زجاجية بمساحةِ عشر قصباتٍ وبيده كتاب مستند إلى القلب. كان نموذجاً بالنسبة إلى جيله، وصار مدرسةً عندَ الجيل اللاحق، كلّ جيلٍ على طريقته.

وصل الشاعر بابلو نيرودا إلى بوغوتا في منتصف العام مقتنعاً بأنّ على الشعر أن يكون سلاحاً سياسياً. انتبه في مسامراته في بوغوتا إلى نوع الرجعي، الذي كان يُشكّله لاوريانو غومِثْ، فكتب على شرفه، وبجرّة قلم تقريباً، ثلاثةَ سونِتات تأديبية جاءت بمثابة وداع، يعكسُ المقطع الأوّل منها نبرتها كلّها:

(*) Endecasilabo هو بيت من الشعر من اثني عشر مقطعاً.

وداعاً، يا لاوريانو، يا من لم تُكَلّل بالغار قط،

أيّها الرئيس البائس والملك الدخيل،

وداعاً يا إمبراطور الطابق الرابع،

يا من تقبض قبل الأوان وبلا توقّف.

ورغم تعاطفه مع اليمين، وصداقته الشخصية مع لاوريانو غومِث، فقد أبرز كارّانثا السونِتات في صفحاته الأدبية كسَبَقٍ صحفي أكثر مما كمطلبٍ سياسي. لكنّ الرفض جاء بالإجماع. خاصّة لتناقض نشرهِ في صحيفةِ ليبراليٍّ عظْمُه أحمر، مثل الرئيس السابق إدواردو سانتوس، المعادي لفكرِ لاوريانو غومِث الرجعي، كما لفكرِ بابلو نيرودا الثوري. جاء ردّ الفعل الأكثر صخباً ممن لم يكونوا يسمحون لأجنبيٍّ بمثل هذا التمادي. لكن مجرّد أن تكون ثلاث سونيتات أخلاقية وساذجة أكثر مما هي شعرية قد استطاعت أن تُثير كلّ ذلك الهرج، كان دليلاً مريحاً على سلطة الشعر في تلك السنوات. على أيّة حال لاوريانو غومِث نفسه منعَ، بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية ومعه الجنرال روخاس بّينيّا، في حينها نيرودا من دخول كولومبيا، لكنّه نزل في كارتاخِنا وبونابِنتورا عدّة مرّات كمحطّة بحرية بين تشيلي وأوروبا. وشكّلت كلّ محطةٍ من محطات ذهابه وإيابه احتفالاً عظيماً بالنسبة إلى أصدقائه الكولومبيين.

حين دخلتُ كلّيةَ الحقوق في شباط من عام 1947 بقي تماثلي مع مجموعة «حجر وسماء» سليماً. رغم أنّني تعرّفت على أبرزهِم في بيت كارلوس مارتين في ثيبّاكيرا، إلاّ أنّني لم أجرؤ على أن أذكر به حتى كارّانثا، الذي كان أكثرهم أنساً. وجدتُه في إحدى المناسبات في مكتبة غران كولومبيا قريباً ومكشوفاً. سلّمتُ عليه تسليمَ المعجب. ردّ عليّ بلطفٍ شديد لكنّه لم يعرفني. بينما نهض المُعلِم ليون دِ غريف في مناسبة أخرى، حين حكى له أحد ما أنّني نشرتُ قصصاً في «إلْ إسبِكتادور» ووعدني بقراءتها، عن طاولته في «إلْ مولينو» وجاء إلى طاولتي ليحييني. من سوء الحظّ أن تمرّد التاسع من نيسان حدث بعد أسابيع، واضطررتُ لمُغادرَةِ المدينةِ التي كان

الدخان ما يزال يتصاعد منها. حين عدتُ بعد أربع سنواتٍ كان مقهى «إلْ مولينو» قد اختفى تحت رماده، والمعلّم شدّ الرحال مع جوقة أصدقائه إلى مقهى «إلْ أوتوماتيكو»، حيث أصبحنا أصدقاءَ كتبٍ وأغوارديينتِ(*) وعلّمني كيف أُحرّك قطعَ الشطرنج بلا فنّ ولا حظّ.،

بدا لأصدقاء المرحلة الأولى أنَّ من غير المفهوم أن أصرّ على كتابة القصص، وأنا نفسي لم أفهم ذلك، في بلدٍ الشعرُ فيه هو الفن الأعظم. عرفت ذلك منذ طفولتي نظراً لنجاح «بؤس إنساني»، القصيدة الشعبية التي صارت تُباع في كرّاسات من الورق الخشن أو تُنشَدُ مقابل سنتيمين في أسواق ومقابر قرى الكاريبي. بالمقابل كانت الرواية نادرة. منذ «ماريّا» لِـ خورخِه إيساكس(**)، كُتِبَتْ رواياتٌ كثيرة دون كبيرِ صدى. شكَّلَ خوسِهْ ماريّا بارغاس بيلا ظاهرة فريدة برواياته الاثنتين والخمسين التي تصوّب مباشرة على قلوب الفقراء. كان رحّالة لا يكلّ، متاعه الزائد كتبُه ذاتها، التي كانت تُعرض وتنفد مثلَ الخبزِ على أبواب فنادق أمريكا اللاتينية وأسبانيا. «نسمة» أو «زهرات البنفسج»، روايته الرائعة، حطّمت قلوباً أكثر من روايات معاصرين له أفضل منها بكثير.

الروايات الوحيدة التي تخطّت عصرها هي «الكبش»، التي كتبها الأسباني خوان رودريغِث فريْلِ بين عامي 1600 و1638 في أوج المرحلة الاستعمارية، وهي قصّة هائلة وحرّة عن تاريخ لا نْوبا غرانادا(***)، أصبحت فيما بعد عملاً روائيّاً رئيسياً و «ماريّا» لِـ خورخِهْ إيساكس 1867؛ و «الدوّامة» لِـ خوسِهْ إيوستاسيو ريبِرا 1924؛ و«مركيزة يولومبو» لِتوماس كارّاسكيّا 1926؛ و «أربع سنوات على متنِ نفسي» لإدواردو ثالاميا 1950. ما من أحدٍ منهم استطاعَ أن يُلامِسَ المجدَ الذي طالما حقّقَهُ الشعرُ بعدلٍ أو دون عدل. بالمقابل

(*) مشروب روحيٌّ مُقطّر يُشبِه الفودكا.
(**) خورخه إيساكس (1837 ـ 1895) كاتب كولومبي اشتهر بالرواية المذكورة أعلاه.
(***) غرناطة الجديدة (كانت تابعة لكولومبيا وأصبحت الآن جمهورية مستقلة).

كانت القصّةُ ـ وبسابقة شهيرة مثل سابقة كارّاسكيّا نفسه كاتب أنتيوكيّا الكبير ـ قد غرقت في بلاغةٍ طنّانة لا روح فيها.

والبرهان على أنّ ميولي كانت روائية فقط، هي نثرات الشعر التي خلّفتُها في المدرسة بلا توقيع أو باسماءٍ مستعارة، لأنّني لم أنوِ قط أن أموت لأجلها. وأكثر من ذلك: حين نشرتُ قصصي الأولى في «إلْ إسبِكْتادور»، كان الكثيرون يتنازعون على الجنس الأدبي، لكن دون ما يكفي من الحق. اليوم أفكّرُ أنّ من الممكن تفهّم ذلك لأنّ الحياة في كولومبيا، من وجهات نظر كثيرة، كانت ما تزال في القرن التاسع عشر؛ خاصّةً في بوغوتا الأربعيناتِ الكئيبة، وتحنُّ للاستعمار، حين سجّلتُ دون ميول ولا رغبة في كلّية الحقوق بالجامعة الوطنية.

وللتأكّد من ذلك كان يكفي الغوص في مركز كارّرا سِبتيما وجادة خيمِنِث دِ كِسادا العريضة اللذين عمّدتهما المبالغة البوغوتية على أنّهما أفضل زاوية في العالم. كان الناس يتوقفون أو يقطعون أحاديثهم حين تدقّ ساعةُ برجِ سان فرانسيسكو العامّة مُعلنةً الثانية عشرة ظهراً ليضبطوا ساعاتهم على ساعة الكنيسة الرسمية. حول هذا المفرق وفي القصبات الملاصقة حيث تقع الأماكن الأكثر ارتياداً، يتواعد التجارُ والسياسيون والصحافيون، مرّتين في اليوم، ـ طبعاً والشعراء ـ مرتدين جميعاً الأسودَ حتى أقدامهم، مثل سيّدنا الملك دُون فيليبِّ الرابع.

في أيّامي كطالِب كانت ما تزال تُقرأ في ذلك المكان صحيفة قلّت سابقاتها في العالم. كانت لوحاً جدارياً مثل الألواحِ المدرسية؛ تُعرَض في شرفة «إلْ إسبِكتادور» في الثانية عشرة ظهراً والخامسةِ مساءً حاملة آخرَ الأخبار مكتوبةً بالطباشير. في مثل تلك الساعات كان مرور الحافلات الكهربائية صعباً، إن لم يكن مُحالاً بسبب عرقلة الحشود الذين ينتظرون بقلق. كان قرّاءُ الشارع أولئك يملكون إمكانية أن يُصفِّقوا تصفيقاً حارّاً للأخبار التي تبدو لهم جيّدة، أو يصفروا تصفيراً شديداً أو يرمون اللوحَ بالحجارة حين لا تُعجِبهم. كانت نوعاً من المشاركة الديمقراطية التلقائية يمنحُ «إلْ إسبِكتادور»

ميزاناً أكثر فعاليةً من أيّ ميزانٍ آخر لقياس حرارة الرأيّ العام.

لم يكن التلفزيون قد وُجِد بعد، وهناك نشرات أخبار إذاعية كاملة، لكن في ساعات محدّدة، حيث صار المرءُ ينتظر، قبل الذهاب إلى الغداء أو العشاء، ظهورَ اللوح كي يصل إلى البيت حاملاً معه رؤية أكمل عن العالم. هناك عرف الناسُ وتابعوا بصرامة مثالية لا تُنسى رحلةَ القبطان كونتشا بنِغاس الجويّة من ليما إلى بوغوتا. كان اللوح يتبدّل عدّة مرّاتٍ خارجَ الأوقات المتوقّعة لإشباع نهم الجمهور بنشرات استثنائية. لا أحد من قرّاء تلك الصحيفة الفَريدةَ كانٍ يعلم أن اسمَ مُخترِعَ تلك الفكرة وعبدَها هو خوسِهْ سالغار، المحرِّر المبكّر في «إلْ إسبِكتادور»، ابن العشرين، الذي أصبح واحداً من كبار الصحفيين، دون أن يكون قد تخطّى المدرسة الابتدائية.

كانت مقاهي مركز المدينة هي المؤسّسة المميّزة لبوغوتا، تصبّ فيها عاجلاً أو آجلاً حياة البلد كلّه. فكلّ منها تمتع في لحظته باختصاص ـ سياسيّ، أدبيّ، أو ماليّ ـ، حيث أنّ جزءاً كبيراً من تاريخ كولومبيا في تلك السنين كان على علاقة ما بها. فلكلٍّ مقهاه المفضّل كعلامة مميِّزة لهويّته.

كتّاب وسياسيون من النصف الأوّل من القرن ـ بما في ذلك بعض الرؤساء ـ درسوا في مقاهي شارع كاتورثِ(*)، مقابل مدرسة إلْ روساريو. مقهى الويندسور الذي صنع عصره، عصر السياسيين المشهورين، كان أكثرها ديمومة وملاذاً لرسام الكاريكاتير العظيم ريكاردو رِندون، الذي نفّذ هناك أعماله العظيمة، وخرق بعد سنوات رأسه العبقريّ برصاصة مسدّس في الغرفة الخلفية من لا غران بيّا.

نقيض مساءاتِ السأم كان الاكتشاف العرضي لقاعة موسيقى مفتوحة للجمهور في المكَتبة الوطنية. حوّلتها إلى ملاذي المُفضّل للقراءة بحماية عظماء الموسيقيين، الذين كنّا نطلب أعمالهم كتابياً

(*) الرابع عشر.

من مستخدَمة فاتنة. كنّا نكتشف بين الزوار المألوفين هواياتٍ من كلّ الأنواع من خلال نوع الموسيقى التي كنّا نُفضّلها. وهكذا تعرّفت على معظم موسيقيّي المفضلين من خلال أذواق الآخرين، وذلك لكثرتهم وتنوّعهم، وسئمت شوبان لسنواتٍ طويلة، بسبب مهووسٍ موسيقيّ كان يطلبه بلا رحمة يومياً تقريباً.

وذات مساء وجدت القاعةَ مقفرة لأنَّ الجهازَ مُعَطّل، لكنّ المديرة سمحت لي بالجلوس والقراءة في الصمت. شعرتُ في البداية أنّني في هدأةِ سلام، إلاّ أنّني لم أتمكن من التركيز قبل ساعتين نظراً لدفقةٍ من القلقِ عكّرت قراءتي، وجعلتني غريباً عن نفسي. تأخّرتُ عدّة أيّام قبل أن أنتبه إلى أنّ سبب قلقي لم يكن صمت القاعة، بل جوّ الموسيقى، الذي تحوّل عندي منذ ذلك الوقت، وللأبد، إلى ولهٍ شبهِ سرّيّ.

تسليتي الأكثر خصوبةً في أمسيات الآحاد، حين كانوا يُغلِقون قاعةَ الموسيقى، هي السفر في الحافلات الكهربائيةُ، بزجاجها الأزرق؛ التي تدور بخمسة سنتيمات دون توقّف من ساحة بوليفار وحتى جادّة تشيلي العريضة، وأقضي فيها مساءات المراهقة التي كان يبدو أنّها تجرجر وراءها أذيالَ آحادٍ أخرى كثيرة مُضيّعة. الشيء الوحيد الذي كنتُ أفعله في تلك الرحلة من الحلقات المُفرغة هو قراءة كتب الشعر، ربّما أقطعُ قصبة من المدينة مقابل كلّ ورقةٍ من الشعر أقرؤها حتى تضاء الأنوار تحت الرذاذ السرمديّ. عندها كنتُ أطوف على مقاهي الأحياء القديمة المكفهرة بحثاً عن أحدٍ يتصدّق عليّ بالحديث حولِ القصائد التي أكونِ قد انتهيت توّاً من قراءتها؛ فأعثر عليه أحياناً ـ وكان دائماً رجلاً ـ فنبقى إلى ما بعد منتصف الليل، في زريبة بائسةٍ، مجهزين على أعقاب السجائر التي دخّناها بأنفسنا، نتحدّث عن الشعر، بينما الناس في بقية العالم يُمارِسون الحبّ.

كان الناسُ في ذلك الزمن كلّهم شباباً، لكنّنا كنّا دائماً نعثر على من هم أكثر شباباً منّا. كانت الأجيالُ تدفعُ بعضها بعضاً، خاصّةً بين الشعراء والمجرمين. لا يكاد يعمل المرء شيئاً حتى يظهر أحد

يُهدِّده بعمل أفضل منه. أعثر أحياناً بين الأوراق القديمة على صورٍ التقطها لنا مصوّرون جوّالون في ساحة كنيسة سان فرانسيسكو، فلا أستطيع أن أكبح صرخة تأثّر، لأنّها لا تبدو لنا بل لأبنائنا نحنُ، في مدينةٍ موصدة الأبوابِ، لا شيء فيها سهل، خاصة العيش دون حبّ في مساءات الآحاد. هناك تعرّفت بالمُصادفة على خالي خوسِهْ ماريّا بالدِبلانكِثْ، حين ظننتُ أنّني أرى جدّي يشقّ طريقَه ومعه مظلته بين حشود يوم الأحد الخارجة من القدّاس. لم يكن زيّه يُخفي من شخصيته قيد أنملة: فهو يرتدي دائماً الطقمَ الأسود، والقميص الأبيض، وقبّة السلولويد، وربطة العنق بخطوطها المائلة، والصدارة مع ساعة الجيب، والقبّعة القاسية، والنظارة الذهبية. بلغ تأثري حدّ أنّني قطعت عليه الطريقَ دون أن أنتبه. فرفع مظلّته مهدِّداً، وواجهني على بعد شبرٍ عن عينيّ:

ـ هل أستطيع المرور؟

ـ عفواً ـ قلت له خجلاً ـ المسألة أنّني خلطت بينك وبين جدّي.

بقي ينظر إليّ بعيني فلكيٍّ، وسألني بسخرية خبيثة:

ـ وهل يمكن أن نعرف من هو هذا الجدّ المشهور إلى هذا الحدّ؟

مشوّشاً من حماقتي ذاتها قلتُ له الاسم كاملاً، وعندئذٍ أنزل مظلّته، وابتسم عن طيب خاطر:

ـ حقّاً إنّنا نتشابه ـ قال ـ فأنا ابنه البكر.

كانت الحياة اليومية في الجامعة الوطنية أكثر احتمالاً، ومع ذلك لا أتمكّن من العثور في ذاكرتي على الواقع في تلك الأيام، لأنّني لا أعتقد أنّني كنتُ يوماً طالبَ حقوق، رغم أنّ درجاتي في السنة الأولى ـ الوحيدة التي أنهيتها في بوغوتا ـ تسمح بالاعتقاد بعكس ذلك. لم يكن هناك وقت ولا فرصة لإقامة علاقاتٍ شخصية، كتلك التي كانت تتمّ في المدرسة، فزملاء الصفّ يتبعثرون في المدينة بعد انتهاء الدروس. مفاجأتي الأكثر بهجة هي أنّني وجدت أمين عام

كلّية الحقوق، الكاتب بِدرو غومِث بالدِرّاما، الذي كان عندي أخبار عنه من خلال مساهماته المبكرة في الصفحات الأدبية، وأصبح واحداً من أصدقائي الكبار حتى موته المبكّر.

أكثر زملائي ملازمةً لي، منذ السنة الأولى، هو غونثالو مايّارينو بوتِرو، الوحيد المعتاد على الاعتقاد بأنّ بعضَ عجائبِ الحياة حقيقة، وإن لم تكن صحيحة. هو من علّمني أنّ كلّية الحقوق لم تكن عقيمة إلى الحد الذي كنتُ أفكّر به، فقد أخرجني منذ اليوم الأوّلِ من درسِ الإحصاء والسكان، في السابعة صباحاً، وتحدّاني في مباراة شعرية شخصية في مقهى المدينة الجامعية. كان ينشد في الساعات الميتة قصائدَ الكلاسيكيين الأسبان عن ظهر قلب، فأردّ عليه بقصيدة من قصائد الشعراء الكولومبيين الشباب الذين فتحوا النيران على دُبُر القرن السابق البلاغية.

دعاني ذات يوم أحدٍ لزيارته في بيته، حيث كان يعيش مع أمّه وأخواته وأخوته في جوٍّ من التوتر الأخويِ، شبيه بالذي سادَ في بيت أبويَّ. كان فيكتور أخوه الأكبر، رجلَ مسرحٍ متفرّغ تماماً وخطيباً مشهوراً في مجال اللغة الأسبانية. منذ أن أفْلِتُّ من وصاية أبويَّ لم أشعر قطّ أنّني في بيتي إلاّ بعد أن تعرَّفتُ على بِّبّا بوتِرو، أمّ الأخوة مايّارينو، الأنتيوكية التي لم تُروض في مخ الأرستقراطية البوغوتية المُصمَت. وكانت تملكُ بذكائها الطبيعي وكلامها العجيب قدرةً فريدة على معرفة المكان الدقيق الذي تستعيد فيه الكلماتُ البذيئة لسلالتها الثِربانتِسيّة. كانت أمسيات لا تُنسى وأنا أرى الغروب فوق زمرّدة السهوب اللامتناهية، وأتمتّع بدفء الشوكولاته المعطرة والمعجنات الساخنة. ما تعلّمتُه من بِّبّا بوتِرو، بلغتها الاصطلاحية المكشوفة، وطريقتها في قول أشياء الحياة العامة، كان لا يُقَدّر بثمن للبلاغة الجديدة للحياة الواقعية.

زميلان آخران مماثلان هما غيِّرمو لوبِّثْ غِرّا وألبارو بيدال بارون، شريكاي المتواطئان في مدرسة ثيبّاكيرا. ومع ذلك كنتُ في الجامعة أقرب لِلويس بيّار بوردا وكاميلو تورِّس رِسترِبّو اللذين عملا بأظافرهما وبحبٍّ ملحقَ «لا راثون» الأدبي، الجريدة اليومية

شبه السرية التي أدارها الشاعر والصحافي خوان لوثانو إي لوثانو. في أيام العطل كنتُ أذهب معهم إلى التحرير، وأساعدهم في أمور الساعة الأخيرة الطارئة. التقيتُ أحياناً بالمُدير الذي كنتُ مُعجباً بسونِتاته وأكثر من ذلك بتراجم الشخصيات الوطنية التي كان ينشرُها في مجلّة «سابادو». كان يتذكّر ببعض الضبابية زاوية أوليسِسْ عنّي، لكنّه لم يقرأ أيّة قصّة لي، إلاّ أنّني تهرَّبتُ من الموضوع، لأنّني كنتُ متأكّداً من أنّها قد لا تُعجبه. قال لي منذ اليوم الأوّل عند وداعه لي، إنّ صفحات صحيفته مفتوحة لي، ومع ذلك أخذتُ الأمر على أنّه مجرّد مجاملة بوغوتية.

في مقهى أستورياس، عرّفني كاميلو تورِّسْ رِستربِّرو ولويس بيّار بورد، زميلا دراستي في كليّة الحقوقِ، على بْلينيو أبّولِيو مِندوثا الذي نشر في السادسة عشر من عمره سلسلةً من النثر الشعري، الجنس الدارج الذي فرضه إدواردو كارّانثا من على صفحات «إلْ تييمبّو» الأدبية في البلد. كان مدبوغ الجلد، ويُبرز شعره الداكن والأملس جانبه الهندي الأحمر. استطاع رغم عمره أن يُعزّز الثقة بزواياه في أسبوعية «سابادو»، التي أسسها أبوه، بْلينيو مِندوثا نِيْرو، وزير الدفاع القديم والصحفي النقيّ الكبير الذي ربّما لم يكتب في حياته كلّها سطراً واحداً كاملاً، ومع ذلك علّم الكثيرين أن يكتبوا أسطرهم في صحفٍ يؤسّسها بكلّ أبّهة، ويهجرها ليشغل مناصبَ سياسية عالية، أو ليؤسّس شركاتٍ أخرى عظيمة وكارثية. لم أرَ ابنه أكثر من مرّتين أو ثلاث مرّات في تلك الفترة ودائماً مع زملاء لي. أدهشني أنّه كان يفكّر، وهو في ذلك العمر، مثلَ شيخ، لكنّه ما كان ليخطر لي قط أنّنا وبعد سنواتٍ طويلة سنتقاسم كلّ تلك الأيام الصحفية المجازفة، إذ لم تكن قد خطرت لي بعد خدعة الصحافة كمهنة، كما كانت كعلمٍ تهمّني أقل من الحقوق.

في الحقيقة لم أفكّر قط أنّها ستهمّني، حتى جاء يومٌ أجرت فيه إلبيرا مِندوثا، أخت بْلينيو، مقابلةً مستعجلة مع المغنية الأرجنتينية برتا سينغِرمان التي غيّرت بالكامل الأحكام المسبقة ضدّ المهنة وكشفت عندي عن ميول مجهولة. كانت مقابلة تجاوزت المقابلة

الكلاسيكية القائمة على الأسئلة والأجوبة - التي تركت وما زالت تترك عندي كثيراً من الشكوك - لتكون واحدة من أكثر المقابلات التي نُشِرت في كولومبيا أصالةً. بعد سنوات حين أصبحت إلبيرا مِندوثا صحفيّة عالمية مشهورة وواحدة من صديقاتي الجيّدات، حكت لي إنّها كانت وسيلة يائسة للخروج من فشلها.

شكّلَ وصولُ بِرتا سينغرمان حدث اليوم. طلبتِ إلبيرا - التي كانت تدير القسم النسائي في مجلة «سابادو» - موافقةً لإجراء مقابلة معها، وحصلت عليها مع ممانعة من أبيها نظراً لقلّة خبرتها في ذلك النوع من اللقاءات. كان مقرّ تحرير «سابادو» مكاناً لاجتماع أشهرِ مثقفي تلك السنوات، فطلبت إلبيرا منهم أسئلة لمقابلتها، لكنّها وصلت إلى حافّة الذعر حين اضطرت لأن تواجه الازدراء الذي استقبلتها به بِرتا سينغرمان في الجناح الرئاسي من فندق غرانادا.

راق لها منذ السؤال الأوّل أن ترفضها لأنّها أسئلة غبية وتافهة، دون أن تدري أنّ وراء كلّ سؤال كاتباً جيّداً من الكتاب الكثيرين الذين عرفتهم وأعجبت بهم، خلال زياراتها العديدة لكولومبيا. إلبيرا، التي كانت تتمتع دائماً بذكاء حيّ، اضطُرَّت لأن تبلع دموعها وتتحمّل مكرهةً تلك الفاجعة. لكنّ دخول زوج بِرتا سينغرمان المفاجئ أنقذَ جلدها، فهو من عالجَ الوضع بملمسٍ رائع وملاحةٍ جيّدة، في الوقت الذي أوشكت أن تتحوّل فيه إلى حادث خطير.

لم تكتب إلبيرا الحوارَ الذي أعدّته مع أجوبة المغنية المشهورة، بل كتبت تحقيقاً عن الصعوبات التي لاقتها معها. استغلت تدخّل العناية الإلهية بإرسال الزوج وحوّلته إلى بطل اللقاءِ الحقيقي. ثارت ثائرة بِرتا سينغرمان التاريخية حين قرأت المقابلة. لكنّ «سابادو» كانت قد أصبحت الأسبوعية الأكثر قراءة فسرَّعَ تداولها الأسبوعي بصعودها، حتى وصل عدد النسخ إلى مئة ألف نسخة في مدينة عدد سكانها ستمئة ألف نسمة.

الدم البارد والعبقرية التي استغلت بهما إلبيرا مِندوثا بلاهةَ بِرتا سينغرمان لتكشف عن شخصيتها الحقيقية، جعلتني أفكّر لأوّل

مرّة في إمكانيات التحقيقات الصحفية، ليس كوسيلة إعلامية للنجومية، بل أكثر من ذلك بكثير: كجنس أدبيّ. لم تمرّ سنوات كثيرة حتى جرّبت ذلك بنفسي وتوصلت إلى الاعتقاد، كما أعتقد اليوم أكثر من أيّ وقت مضى، بأنّ الرواية والتحقيقَ الصحفي ابنان لأمٍّ واحدة.

لم أكن قد غامرتُ حتى ذلك اليوم إلاّ بالشعر: أشعار ساخرة في مجلة مدرسة سان خوسِهْ ونثر شعري أو سونِتات حبّ متخيَّل على طريقة «حجر وسماء» في العدد الوحيد الصادر في المدرسة الوطنية. قبلها بوقتٍ قصير أقنعتْ ثِثيليا غونثالث، شريكتي المتواطئة في ثيبّاكيرا، الشاعرَ وكاتبَ المقال دانييل أرانغو، أن ينشر أغنيةً قصيرة كتبتُها باسم مستعار وبحرف كبير من سبع نقاط في زاوية خفيّة من صحيفة «إلْ ُتييمبّو» التي تصدر يوم الأحد. لم يؤثر نشرها فيَّ ولم يجعلني أشعر بنفسي شاعراً أكثر مما كنته. بينما وعيتُ من خلال تحقيقِ إلبيرا الصحفيَّ الذي كنتُ أحمله نائماً في قلبي، وتجاسرت على إيقاظه. بدأتُ أقرأ الصحفَ بطريقةٍ أخرى. كرّرَ كاميلو تورِّسْ ولويس بيّار بوردا العرض الذي قدّمه لي دون خوان لوثانو على صفحات «لا راثون»، لكنّني لم أجروْ أن أقدِّم إلا قصيدتين فنيتين لم أعتبرهما قط لي. اقترحا عليّ أن أتحدّث إلى بْلِينيو أبّوليو مِندوثا لمجلة «سابادو»، لكنّ خشيتي من الوصاية نبّهتني إلى أنّه ينقصني الكثير للمجازفة في العتمةِ بمهنة جديدة. ومع ذلك جاءني اكتشافي بفائدة فورية، فقد كنتُ متورّطاً في تلك الأيام بتأنيب ضمير مفاده أنّ كلّ ما أكتبه، نثراً وشعراً، بما في ذلك نشاطات المدرسة، تقليد سافِر، «لحجر وسماء» فعزمتُ على إحداث تغيير عميق بدءاً من قصّتي التالية. وانتهت التجربة بإقناعي بأنّ الظرف الدال على الحال تنويناً عيب مفقر. وهكذا بدأت أعاقبه أنى خرج لي، وصرتُ في كلّ مرّة أكثر قناعةً بأن ذلك الهوس يُجبرني على العثور على أشكالٍ أكثر ثراء وتعبيراً. منذ زمن طويل لا يوجد في كتبي أيّ منها، إلا في حالات الشواهد النصية. طبعاً لا أدري ما إذا كان مترجمِيّ قد اكتشفوا وقبضوا على جنون الأسلوب هذا لأسباب تتعلق بمهنتهم.

وسرعان ما تخطّت صداقتي مع كاميلو تورِّس وبّيار بوردا حدودَ قاعات الدرس وقاعة التحرير، وصرنا نقضي معاً في الشارع وقتاً أطول مما في الجامعة. كلاهما كان يغلي على نارٍ هادئة ممتعِضاً من وضع البلد السياسي والاجتماعي. وكنتُ أنا المشبع بألغاز الأدب لا أحاوِلُ حتى أن أفهم تحليلاتهما الدورانية وهواجسهما الكئيبة، لكنّ آثار صداقتهما بقيت بين أكثر صداقات تلك السنوات لطفاً وفائدة.

بالمقابل كنتُ في دروس الجامعة راكداً. فقد أسفتُ دائماً لعدم إخلاصي لفضائل أساتذتي ذوي الأسماء الكبيرة، الذين كانوا يتحملون سأمنا. من بينهم ألفونسو لوبِّثْ ميتشِلسِن، ابن الرئيس الكولومبي الوحيد الذي أعيد انتخابه في القرن العشرين. وأعتقد أنّ من هناك جاء الانطباع المعمم القائل بأنّه هو أيضاً مكرّس ليصبح رئيساً بالولادة، كما حدث بالفعل. كان يصل إلى درسه «المدخل إلى الحقوق» بدقّة مستفِزّة وبسترات من الكشمير مصنوعة في لندن. وكان يملي درسه دون أن ينظر إلى أحد، بتلك الطلعة السماوية الخاصّة بالمصابين بقصر النظر الأذكياء، الذين يبدون وكأنّهم يسيرون دائماً عبر أحلام الآخرين. كانت دروسه تبدو لي منولوجات على وتر واحد، كما كان حال أيّ درس ليس شعراً بالنسبة إلي، لكنّ نبرة صوته كانت تملك مزية ساحر أفاعٍ، كانت ممغنطة. وكان لثقافته الأدبية الواسعة منذ ذلك الوقت قاعدة حقيقية، يعرف كيف يستخدمها مكتوبةً وبصوت حيّ، لكنّني لم أبدأ بتقديره إلاّ عندما عدنا وتعارفنا، وأصبحنا بعد سنواتٍ صديقين بعيداً عن وسن الأستاذية. وكانت مكانته كسياسيٍّ صلب تتغذّى على حضوره الشخصيّ شبه السحري، ويمتلك صفاء ذهن وبصيرة خطيرة قادرة على اكتشاف النوايا الخفية للناس. خاصّة من كان حبّه لهم أقل. ومع ذلك فأبرز ميِّزاته كشخصية عامة هي قدرته المذهلة على خلق حالاتٍ تاريخية بجملة واحدة. توصّلنا مع الزمن إلى صداقة جيّدة، لكنّني لم أكن في الجامعة الأكثر إصراراً واجتهاداً، وخفري المستعصي أبقاني على مسافة لا يمكن ردمها، خاصّة مع من كنت

أحترمهم. أعجب بهم. ولذلك كلّه فاجأني أن يستدعيني للامتحان النهائي للسنة الأولى، رغم غيابي عن دروسه الذي استحققت عليه لقب الطالب الخفي.

لجأت إلى حيلتي القديمة بحرف الموضوع بوسائل بيانية. انتبهتُ إلى أنّ المعلّم واعٍ لمكري، لكنّه ربّما قدّره كتسلية أدبية. الزلّة الوحيدة كانت في استخدامي أثناء احتضار الامتحان استخدمتُ كلمة تملّك، فسارع للطلب منّي بتعريفها كي يتأكّد من أنّني كنتُ أعرف عمّا أتكلّم.

ـ تملّك: حصل على ملكيةٍ بالتقادم ـ قلتُ له.

فسألني على الفور:

ـ حصل أم فقد؟

كان الأمر واحداً، لكنّني لم أناقشه لارتباكي الطبيعي، وأعتقد أنّها كانت إحدى مزاحات ما بعد الطعام عنده، طبعاً لأنّه لم يحاسبني في تقديره للعلامة على شكّي. علّقتُ بعدَ سنواتٍ على الحادث، وبالطبع لم يتذكّره، لكنّنا لا أنا ولا هو كنّا وقتذاك متأكّدَيْن من أنّ الحادث كان أكيداً.

كلانا كان يجد في الأدب فسحة لنسيان السياسة وألغاز التملك، ونكتشفُ بالمقابل كتباً مدهشة وكتّاباً منسيين في أحاديث لا متناهية كانت تنتهي أحياناً بإفساد زيارات، وإثارة حنقِ زوجاتنا. أقنعتني أمّي بأنّنا أقرباء وكان الأمر كذلك. إلاّ أنّ شغفنا المشترك بغناء البايّناتو كان يجمعنا أفضل من أيّة رابطة ضالة.

قريب آخر عرضي من ناحية الأب كان كارلوس هـ. بّارِخا، أستاذ الاقتصاد السياسي وصاحب مكتبة غران كولومبيا، المكتبة المفضلة عند الطلاب نظراً للعادة الحسنة في عرض الكتب الجديدة لكبار الكتّاب على طاولات مكشوفة ودون مراقبة. وكنّا نحن طلاّبه بالذات نغزو المكان في غفلة المساء، وننشل الكتب بفن السحر الرقمي بما يتفق مع القانون المدرسي القائل بأن سرقة الكتب جناية وليس خطيئة. وكان دوري في عمليات الاقتحام يقتصرُ، لأسبابٍ لا

تتعلق بالفضيلة بقدر ما تتعلّق بخوفي الطبيعي، على حماية ظهر أكثرنا مهارة شريطة أن يحملوا لي معهم إضافةً إلى كتبهم بعضَ الكتب التي أدلهم عليها. وذات مساء كان أحد شركائي قد سرق للتو «المدينة دونَ لاورا» لفرانسيسكو لويس بِرناردِثْ، حين شعرتُ بمخلب ضارٍ على كتفي وصوت رقيب يقول:

ـ أخيراً، ويحك!

التفتُّ مذعوراً فوقعت على المعلّم كارلوس هـ. بّارِخا، بينما راح ثلاثة من زملائي يهربون باندفاع شديد. من حسن الحظ أنّني انتبهتُ قبل أن أتمكن من الاعتذار إلى أنّ المعلّم لم يباغتني لأنّني لص، بل لأنّه لم يرني في درسه خلال أكثر من شهر. ثمّ وبعد توبيخ أقرب إلى المألوف سألني:

ـ هل صحيح أنك ابن غابرييل إليخيو؟

كان صحيحاً، لكنّني أجبته بالنفي، لأنّني كنتُ أعلم أنّ أباه وأبي في الحقيقة قريبان متباعدان بسبب حادث شخصي لم أفهم قط ما هو. لكنّه علم فيما بعد بالحقيقة، وميّزني منذ ذلك اليوم في المكتبة والصف كحفيد له، وحافظنا على علاقة سياسية أكثر مما هي أدبية، رغم أنّه كتبَ ونشر عدّة دواوين شعرية متباينة المستوى تحت الاسم المستعار سيمونِ لاتينو. ومع ذلك فوعي القرابة أفاده وحدَه كيلا أقدم نفسي ستاراً لسرقة كتبه.

معلّم آخر رائع، هو دييغو مونتانيا كُويَار، نقيض لوبِّثْ ميتشِلسِنْ، الذي يبدو أنّه كان بينهما منافسة خفيّة، لوبِّثْ كَلِيبراليٍّ جسور، ومونتانيا كَيَساريٍّ راديكاليّ. وقد حافظ مع هذا على علاقة جيّدة خارج الأستاذية، وبدا لي أنَّ لوبِّثْ ميتشلْسِن ينظر إليّ دائماً كشاعرٍ فحلٍ بينما ينظرُ مونتانيا كُوِيَار إليّ كداعية جيّد لمعتقداته الثوريةً.

بدأ تعاطفي مع مونتانيا كُوِيّار في مشادة قامت بينه وبين ثلاثة ضباط شبان من المدرسة العسكرية كانوا يحضرون دروسه بثياب خروج عسكرية موحّدة؛ بدقة مواعيد الثكنة، يجلسون معاً على

الكراسي ذاتها، يُسجلون ملاحظات تامّة ويحصلون على تقديرات مستحقة في امتحانات صارمة. نصحهم مونتانيا كْوِيّار منذ الأيّام الأولى على انفرادٍ ألاّ يذهبوا إلى الدرس بلباس المعركة. فأجابوه بأفضل ما عندهم من لباقة أنّهم يُنفِّذون تعليمات عليا، ولم يتركوا فرصة تمرّ دون أن يشعروه بذلك. على أية حالٍ وعلى هامش غرابتهم كان واضحاً دائماً بالنسبة للطلاب وللمعلمين أنّ الضباط الثلاثة طلابٌ جيّدون.

كانوا يصلون دائماً معاً في الموعد بدقّة، بلباسهم الموحّد الكامل ذاته. يجلسون منعزلين، وكانوا أكثر الطلاب جدّية ومنهجية، ومع ذلك بدا لي دائماً أنّهم في عالم مختلف عن عالمنا. وإذا ما توجّه أحد لهم بالكلمة أولوه انتباهاً ووداً، لكن بشكلانية لا تُهزم: لا يردون بأكثر مما يُسألون عنه. في أوقات الامتحانات كنّا ننقسم نحن المدنيين إلى مجموعاتٍ، كلّ مجموعة من أربعة طلاب للدراسة في المقاهي ونلتقي في حفلات الرقص أيام السبت، وفي التراشق الطلابي بالحجارة، وفي حانات تلك الأيام الوديعة ومواخيرها الكئيبة، لكنّنا لم نكن نلتقي أبداً بزملائنا العسكريين.

بالكاد تبادلت معهم التحية خلال السنة الطويلة التي تصادفنا فيها في الجامعة. ثمّ إنّه لم يكن هناك وقت لذلك، فهم يصلون بدقة إلى الدروس ويذهبون مع آخر كلمة من المعلم دون أن يتعاملوا مع أحد، غير عسكريي السنة الثانية الشباب الآخرين، الذين يجتمعون معهم في الاستراحات. لم أعرف قط أسماءهم، كما لم أعرف عنهم بعدها شيئاً. أنتبه اليوم إلى أنّ الانكماش الأكبر لم يكن انكماشهم بقدر ما كان انكماشي، فأنا لم أستطع قط تخطي المرارة التي كان جدّاي يستذكران بها حروبهم الخائبة ومجازر مزارع الموز المريعة.

كانَ خورخِه سوتو دِل كورّالْ، مدرس الحقوق الدستورية، مشهوراً بأنّه يعرف عن ظهر قلب كلّ دساتير العالم؛ ويبقينا في الدرس مندهشين بتألقِ ذكائه وعلمه القانوني الواسع، الذي لم يكن يُعكّره غير غياب روح الدعابة عنده. اعتقدُ أنّه كان واحداً من المدرسين الذين يعملون ما بوسعهم كيلا تَظهر عليهم في الدرس

تبايناتهم السياسية، إلا أنّها كانت تظهر عليهم أكثر مما كانوا هم أنفسهم يظنون، حتى في حركة أيديهم وتشديدهم على أفكارهم، فالجامعة كانت أكثر الأماكن التي يشعر فيها المرء بالنبض العميق لبلدٍ كان بعد أربعين سنة ونيّف من السلام المسلّح على حافّة حرب أهلية.

ورغم غيابي المزمن وإهمالي القانوني، فقد نجحتُ بمواد حقوقِ السنةِ الأولى السهلة بقليل من التحمية في آخر ساعة، ونجحتُ بالموادّ الأصعب بحيلتي القديمة باللعب بالموضوع بوسائل العبقرية. الحقيقة أنّني لم أكن راضٍ عن وضعي، ولا أعرف كيف أستمرّ بالمضي على غير هدى في شارع مسدود. كان فهمي للقانون قليل واهتمامي به أقل بكثير من مواد المدرسة، وصرت أشعر بنفسي راشداً كفاية، كي أتخذ قراراتي بنفسي. أخيراً وبعد ستة عشر شهراً من المغالبة العجائبية، لم يبق لي غير مجموعة جيّدة من الأصدقاء لبقيّة حياتي.

قلّة اهتمامي بالدروس صارت أقل بعد زاوية أوليسِسْ، خاصّة في الجامعة، حيث راح بعض زملائي يُلقّبني بالمعلّم ويقدّمني ككاتب. وقد تصادف هذا مع عزمي على تعلّم صياغة بنية، هي في آن معاً ممكنة وخيالية، لكنّها خاليةٌ من الفجَوات. وذلك باستخدام نماذج تامة وأنوفة مثل أوديب ملكاً لسوفوكلِس التي يقوم بطلها بالتحقيق بمقتل أبيه وينتهي باكتشاف أنّه هو نفسه القاتل؛ ومثل «ساق القرد» لِ و.و. جاكوب، القصّة التامّة، حيث كلّ ما يحدث عرضيّ؛ ومثل «كرة الشحم» لِموباسان وخطائين آخرين كثر، أسكنهم الله مملكته القدسية. على هذه الحال كنتُ حين حدث لي ذات ليلة أحدٍ ما يستحق أن يروى. كنتُ قد أمضيتُ النهار كلّه أخفّف من خيبتي ككاتبٍ مع غونثالو مايّارينو في بيته في جادّة تشيلي العريضة، وبينما أنا عائد إلى النزل في آخر حافلة كهربائية صعد إله حيواناتٍ(*) من لحم ودم في محطّة تشابِّينِرو. لقد قلته بشكل

(*) هو فونوس fauno شبه الإله، حامي الغابات والمراعي في الأساطير الرومانية، ومنه اشتقّت الكلمة التي تُطلق في اللغات اللاتينية والغربية عموماً على مجموعة حيوانات بلدٍ من البلدان.

صحيح: حيوان. لاحظتُ أنّ أحداً من ركّاب منتصف الليل لم يفاجأ برؤيته، وهذا ما جعلني أفكّر أنّه واحدٌ من متنكّرين آخرين يبيعون كلّ شيء أيام الأحد في حدائق الأطفال. لكنّ الواقع أقنعني بأنّه ليس باستطاعتي أن أشكّ، لأنّ قرنيه ولحيته كانت برّية شبيهة بتلك التي لتيسٍ، حتى أنّني شعرت بنتن شعره حين مرَّ. أمام الشارع 26، الذي هو شارع المقبرة، هبط بأدب ربِّ أسرةٍ جيّد، واختفى بين شُجيْرات الحديقة العامة.

عند ما استيقظتُ في منتصف الليل على دويّ قلبي في السرير، كان دومينغو مانوِل بِغا يسألني عمّا يجري لي. فقلتُ له بين النائم والمستيقظ «المسألة أنّ إله حيوانات صعد إلى الحافلة الكهربائية»، فردّ عليَّ وهو في يقظة تامة أنّه إذا كان هذا كابوس فلا بدّ أنّه بسبب سوء هضمِ يوم الأحد، أمّا إذا كان موضوعاً لقصّتي القادمة فهذا شيء رائع. في اليوم التالي لم أدرِ إذا كان ما رأيتُه في الواقعِ في الحافلة الكهربائية إله حيواناتٍ أم هلوسة يوم أحد. بدأتُ أقبلُ أنني نمتُ بسبب تعب النهار ورأيت حلماً هو من الوضوح، بحيث لم أستطع أن أفصله عن الواقع. لكنّ الجوهريّ بالنسبة إليَّ لم ينتهِ عند ما إذا كان الحيوان واقعياً، بل في أنّني عشتُ الحالة كما لو كانت واقعاً. وللسبب ذاته ـ واقعاً كان أو حلماً ـ لم يكن مشروعاً اعتباره سحرَ خيالٍ، بل تجربة عجيبة في حياتي.

وهكذا كتبتها في اليوم التالي بجرّة قلم، وضعتها تحت الوسادة وقرأتها ثمّ قرأتها عدّة ليالٍ قبل أن أنام، وحين أستيقظ في الصباحات. كانت نقلاً عادياً وحرفياً لحادث الحافلة الكهربائية، تماماً كما جرى، وبأسلوب بريئ براءةَ خبرِ تعميدٍ في صفحة اجتماعية. أخيراً، وتحت ضغط الشكوك الجديدة، قرّرتُ أن أُخضعها لبرهان الحرف المطبوع، الذي لا يُخطئ، لكن ليس في «إل اسبِكتادور» بل في ملحق «إلْ تييمبّو» الأدبي. ربّما كانت هذه هي الطريقة لمعرفة معيارٍ مختلفٍ عن معيار إدواردو ثالاميا، دون إحراجه بمغامرةٍ لم يكن هناك ما يدعوه للمشاركة فيها. أرسلتها مع

أحد رفاقي في النزل مرفقةً برسالةٍ لدون خايِمْ بّوسادا، المدير الجديد، الشاب جداً لِـ «ملحق إل تييمبّو الأدبي». ومع ذلك لا القصّة نُشِرت ولا الرسالة رُدَّ عليها.

قصصُ تلك الفترة حسب الترتيب الذي كُتِبتْ ونُشِرت بِهِ في «فين دِ سِمانا» اختفت من أرشيف «إلْ إسبِكتادور» في أثناء الهجوم والحريق الذي أصاب هذه الصحيفة في اضطرابات السادس من أيلول 1952 الرسمية. لا أنا ولا أكثر أصدقائي حرصاً كان عندنا نسخاً منها، وهكذا اعتقدت بشيءٍ من الراحة أنّ النسيان قد حوّلها رماداً. ومع ذلك فإن بعض الملحقات الأدبية أعادت نشرها في لحظتها دون إذنٍ ونُشرَ بعضُها الآخر في مجلاتٍ مختلفة، إلى أن جُمِعت في مجلد، صادر عن دار نشر ألـفيل في مونتِفيديو عام 1972 تحت عنوان إحدى قصصه: «نابو، الزنجي الذي جعل الملائكة تنتظر».

غابت قصّة لم تُضمّن قط في كتاب، ربّما لعدم وجود نسخة موثوقة: «توبال كايين يصوغ نجماً» نشرتها «إلْ إسبِكتادور» يوم 17 كانون الثاني عام 1948. كان اسم البطل، وبما أنّه لا يعرف الجميعُ ذلك، هو اسم حدّاد التوراة الذي اخترع الموسيقى. كانت ثلاث قصص. بدت لي بقراءتها حسب كتابتها ونشرها غير مسؤولة وتجريدية وحمقاء قليلاً، وما من واحدة منها تستندُ إلى مشاعر واقعية. لم أستطع قط أن أحدّدَ المعيار الذي قرأها به قارئٌ بصرامة إدواردو ثالاميا. ومع ذلك فإنّ لها عندي أهمية، ليست عند أيّ شخص آخر، لأنّ في كلّ واحدة منها شيئاً يجيب على تطوّر حياتي السريع في تلك المرحلة.

كثير من الروايات التي قرأتُها وأعجبتُ بها في ذلك الوقت كانت تهمّني بما تنطوي عليه من تعليم فنّي. أيّ بصنعتها السرية. وجدتُ بدءاً من تجريدات القصص الثلاث الماورائية وحتى آخر ثلاث قصص في ذلك الوقت، أدلةً دقيقةً ومفيدة جدّاً على التكوين الأوّلي للكاتب. لم تَخطر ببالي فكرة أن أسبر أشكالاً أخرى. كنتُ أفكّر أن القصّة والرواية لا تشكلان جنسين أدبيين مختلفين وحسب، بل ونظامين

من طبيعتين مختلفتين من الشؤم الخلط بينهما. واليوم ما زلتُ، كما في ذلك الوقت، أؤمن بذلك. وأنا مقتنع أكثر من أيّ وقت مضى بتفوّق القصّة على الرواية.

ما نشرته في «إلْ إسبِكتادور»، على هامِش النجاح الأدبي خلق لي مشاكلَ أخرى أكثر دنيوية وظرافة. أصدقاء غافلون راحوا يوقفونني في الشارع كي أقرضهم ما يسدّون به رمقهم، إذ لم يكونوا ليصدّقوا أنّ كاتباً عنده كلّ هذا النشر لا يتلقى مبالغ طائلة عن قصصه. قليلون جدّاً هم الذين صدّقوا حقيقة أنّهم لم يدفعوا لي قط سنتيماً واحداً على نشرها، ولا أنّني لم أنتظر هذا، لأنّ الدفع لم يكن معتاداً في صحافة البلد. وأخطر من ذلك هي خيبة أبي حين اقتنعَ أنّني لا أستطيع أن أتكفّل بنفقاتي في الوقت الذي كان يدرّس فيه ثلاثةٌ من أخوتي الاثني عشر المولودين حتى ذلك الوقت، والأسرة ترسل إليَّ ثلاثين بيزو شهرياً. النزل وحده كان يُكلّف ثمانية عشر بيزو دون حقٍّ بالبيض مع الإفطار، فوجدتُ نفسي مضطراً دائماً إلى عدم تسديدها كاملة، وذلك كي أغطي بعضَ النفقات الطارئة. من حسن حظّي أنّني اكتسبتُ، لا أدري من أين، عادةَ القيام برسومات وأنا غير واعٍ على هوامش الصحف ومناديل المطاعم وطاولات مرمر المقاهيً. أتجرّأ على الاعتقاد بأنّ تلك الرسومات كانت تنحدر مباشرة من تلك التي رحتُ أرسمها في طفولتي على جدران حانوت صياغة جدّي، وأنّها ربّما كانت صمامات أمان سهلة للترويح عن النفس. عرضَ عليَّ أحدُ سمّاري العرضيين في «إلْ مولينو»، له نفوذ في إحدى الوزارات لتعيين نفسه رساماً دون أن يكون عنده أدنى فكرة عن الرسم، أن أقوم بالعمل عنه ونتقاسم الراتب. لم أكن في حياتي كلّها أقرب للفساد من تلك المرحلة، لكنّني لم أكن قريباً إلى حدٍّ يوجب عليَّ الندم.

ازداد في هذه المرحلة اهتمامي بالموسيقى أيضاً، حيث راحَ الغناء الشعبي لمنطقة الكاريبي ـ الذي دُلّلت به ـ يشقُّ طريقه في بوغوتا. أكثر البرامج سماعاً كان برنامج «الساعة الساحلية»، الذي يمنحه دون باسكوال دشلفيتشيو حيوية، وهو نوع من القنصل

الموسيقي للساحل الأطلسي في العاصمة. وقد أصبح شعبياً جدّاً في صباحات أيّام الآحاد حتى أنّنا كنّا، نحن الطلاب الكاريبيين، نذهب للرقص في مكاتب الإذاعة حتى وقت متأخّر من المساء. ذلك كان أصل الشعبية الهائلة لموسيقانا داخل البلد، ثم في آخر زاوية منه، والدعم الاجتماعي للطلاب الساحليين في بوغوتا

العائق الوحيد كان شبح الزواج بالقوّة. إذ لا أدري ما السوابق التي أنعشت على الساحل الاعتقاد بأنّ الصاحبات يُصبحن سهلات مع الساحليين، ويحكن لنا مكائد في الفراش كي يتزوجن منّا بالقوّة؛ ليس حبّاً، بل أملاً بأن يعشن ولديهنّ نافذة تطل على البحر. لم أحمل قط هذه الفكرة. على العكس أبغض الذكريات إلى حياتي هي ذكريات المواخير المشؤومة خارج أسوار بوغوتا، حيث كنّا نذهب لنستفرِغ سكراتنا السوداء. أوشكتُ في واحدٍ من أكثرها قذارة أن أفقد القليل مما كان قد يبقى في داخلي من الحياة، حين ظهرت امرأة خرجتُ من عندها للتو، عاريةً في الممر وهي تصرخ بأنّني سرقتُ منها اثني عشر بيزو كانت تخبّئها في درج زينتها. جندلني اثنان من قبضايات البيت ضرباً، ولم يكتفيا بأن نزعا من جيوبي آخر بيزوين بقيا معي بعد حبٍّ بائس، بل فكا حتى رباط حذائي وفتشاني بدقة بحثاً عن النقود. في جميع الأحوال قرّرا ألا يقتلاني وأن يُسَلّماني للشرطة، حين تذكّرت المرأة أنّها بدّلت مخبأ نقودها قبل يوم ووجدتها كاملة غير منقوصة.

من بين صداقات الجامعة التي احتفظت بها، صداقةُ كاميلو تورِّس، ولم تكن من أقلّها نسياناً وحسب، بل وأكثرها مأساوية في شبابنا. غابَ يوماً عن الدرس لأوّل مرّة، فانتشر السبب مثل النار في الهشيم. سوّى أموره وقرّر أن يهرب من بيته ليلتحق بدراسة الرهبنة في تشيكينكيرا، على بعد مئة كيلو متراً ونيفٍ من بوغوتا. أدركته أمّه في محطّة القطار وحبسته في مكتبتها. زرته هناك، وهو أكثر شحوباً مما كان عادة، يرتدي سترة بيضاء، رابط الجأش، حيث جعلني أفكّر لأوّل مرّة بحالة من الرضى الرباني. كان قد قرّر الدخول في دراسة اللاهوت بميلٍ أخفاه جيّداً، لكنّه عازم على المضيّ به حتى النهاية.

ـ أصعب ما في الأمر انقضى ـ قال لي.

تلك كانت طريقته في القول بأنّه انفصل عن خطيبته وأنها رحّبت بقراره. وبعد مساء ثريّ قدّم لي هدية لا يمكن فكّ رموزها: «أصل الأنواع» لداروين. ودّعته واثقاً من أنّه وداع أبديّ.

ضاع عن ناظري طوال وجودِهِ في المدرسة اللاهوتية. ووصلتني أخبار ضبابية عن أنّه ذهب إلى لوبيانا لدراسة اللاهوت لمدة ثلاث سنوات، وأنّ اندماجه لم يبدّل روحه الطلابية وطريقته الدنيوية، وأن الكثيرات اللواتي كنّ يتنهدن لأجله كنّ يُعامِلنه كممثل سينمائي نزعت بردةُ القس منه سلاحَهُ.

بعد عشر سنوات حين عاد إلى بوغوتا تمثّل روحاً وجسداً ما تمليه عليه ثيابه لكنّه حافظ على أفضل خصائص مراهقته. كنتُ وقتها قد أصبحت كاتباً وصحفياً دون شهادة، متزوّجاً وعندي ولد، هو رودريغو، الذي وُلِد في الرابع والعشرين من آب من العام 1959 في مستوصف بالِرمو في بوغوتا. قرّرنا في الأسرة أن يكون كاميلو من سيعمّده؛ وبِلّينيو أبولِيو مِنْدوثا أشبينه، الذي أقمنا معه أنا وزوجتي قبل ذلك صداقة أشابين. أمّا الإشبينة فكانت سوزانا لينارِسْ، زوجة خِرمان بارغاس، الذي نقل إليّ فنّه كصحفي جيّد وكأفضل صديق. كان كاميلو أقرب إلى بلينيو منّا، وقبل ذلك بكثير، لكنّه لم يكن يريد أن يقبل أن يكون إشبيناً نظراً لتماثلاته مع الشيوعيين، وربّما أيضاً لروحه الساخرة التي كان من الممكن أن تُخرِّب وقار سرّ القربان المقدّس. فأخذت سوزانا على عاتقها تربية الطفل الروحية وكاميلو لم يجد، أو لم يبغ أن يجد، سبباً آخر كي يقطع الطريق على الإشبين.

تمّ التعميد في مصلى مستوصف بالِرمو، في برودة غبش السادسة مساء، دون أيّ شخص آخر غير الإشبينين وأنا وفلاح بدثاره وخفّه، الذي اقترب كمن ينهض ليساعد في الاحتفال دون أن يُلحَظ. وحين وصلت سوزانا مع المولود الجديد أطلق الإشبين العصيُّ على الإصلاح مازحاً أوّل استفزازاته:

ـ سنعمل من هذا الطفل رجلَ حربِ عصاباتٍ عظيم.

كاميلو، الذي كان يحضِّرُ أدوات سرّ القربان القدّاس، صدّ الهجوم بالنبرة ذاتها: « نعم، لكن رجل حربِ عصابات الرّب» وبدأ الطقس بقرار من العيار الثقيل، غير المعهود في تلك السنوات:

ـ سنعمِّده بالأسبانية كي يفهم من لا يؤمنون ما يعنيه سرّ القربان المقدّس هذا.

كان صوته يدوي بقشتالية رنانة، تابعتها عبر لاتينية سنواتي البضة كخادم للقداس في أراكاتاكا. وفي لحظة صبّ الماء ابتدع كاميلو، دون أن ينظر إلى أحد، صيغة استفزازية أخرى:

ـ ليركع على ركبتيه من يؤمن أن الروح القدس ينزل في هذه اللحظة على هذا المخلوق.

بقينا أنا والإشبينان واقفين، وربّما منزعجينِ قليلاً نظراً لِنفاق صديقنا القس، بينما الطفل يصرخ تحت الماء المُتَجَمِّد.

الوحيد الذي ركع هو الفلاح صاحب الخفّ. بقيت صدمة هذا الحادث معي عبرةً من عبر حياتي الصارمة، لأنّني اعتقدت دائماً بأنّ كاميلو هو من حمل الفلاح، عن سابق وعي كامل على معاقبتنا بدرس تواضعه. أو على الأقل بدرس حُسنِ تربيتِهِ.

عدتُ ورأيته مراتٍ قليلة، ودائماً لسببٍ وجيه وقاهر، دائماً تقريباً على علاقة بأعمال الإحسان التي يقومُ بها لصالح الملاحقين السياسيين. ظهر ذات صباحٍ في بيتي وأنا حديث الزواج ومعه لص بيوت أنهى عقوبته، لكنّ رجالَ الشرطة لم يكفّوا عن ملاحقته: كانوا يسرقونه كلَّ ما يحمله. أهديته ذات مناسبة زوجَ أحذية كشّافٍ يحمل رسماً خاصّاً في أسفله لمزيد من الضمان. بعد أيّام قليلة تعرّفت خادمةُ البيت على نعل الحذاء في صورةٍ لمجرم شوارع وجدوه ميتاً في خندق. كان هذا هو صديقنا اللص.

لا أدعي بهذا الحادث أنّ له علاقة بمصير كاميلو الأخير، لكن بعد أشهر دخل المستشفى العسكري ليزور صديقاً له مريضاً، وما عاد أحد ليعرف عنه شيئاً حتى أعلنت الحكومة أنّه ظهر في جيش

التحرير الوطني كرجل حرب عصابات بكل ما في الكلمة من معنى. مات يوم الخامس من شباط من العام 1966 عن سبع وثلاثين عاماً في معركة مفتوحةٍ مع دورية عسكرية.

تصادف دخول كاميلو في المعهد الكهنوتي مع قراري الحميم بعدم الاستمرار بإضاعة الوقت في كلّية الحقوق، لكنّني أيضاً لم أتشجّع على أن أصطدم مرّة واحدة وللأبد مع أبويّ. عرفت من أخي لويس إنريكِهْ - الذي كان قد وصل إلى بوغوتا بوظيفة جيدة في شباط 1948 - أنّهما كانا راضيين جدّاً عن نتائجي في الثانوية والسنةِ الأولى في الحقوق، حيث أنّهما أرسلا إليّ فجأة آلة كاتبة من أخف وأحدث ما كان في السوق. إنّها أوّل آلة كاتبة ملكتها في هذه الحياة، وأقلّها حظّاً أيضاً، لأنّنا رهناها منذ اليوم الأوّل مقابل اثني عشر بيزو للاستمرار بحفل الترحيب بأخي مع رفاق النزل. في اليوم التالي وقد جننا من ألم الرأس ذهبنا إلى بيت الرهن لنتأكّد من أنّ الآلة ما تزال هناك مختومة على حالها، وتأكّدنا من أنّها ما تزال في وضع جيّد حتى تهبط علينا النقود من السماء كي نستعيدها. جاءتنا فرصة جيدة، دفع لي فيها شريكي الرسام الزائف، لكنّنا قرّرنا في الساعة الأخيرة أن نترك فكّ الرهان إلى أجلٍ آخر. وكلّما مررنا أمام بيت الرهن، أنا وأخي، معاً، أو بشكل فردي، كنّا نتأكّد من الشارع بأنّ الآلة ما تزال في مكانها، ملفوفة مثل جوهرة بورق سيلوفان وشريط من الأورغاندي(*)، بين صفوف من الأجهزة المنزلية المحمية جيّداً. بعد شهر بقيت الحسابات السعيدة التي قمنا بها في نشوة السكر دون تنفيذ، لكنّ الآلة بقيت في مكانها دون أن تُمسّ، وكان يمكن أن تبقى هناك ما دمنا ندفع الفائدة في موعدِها كلّ ثلاثة أشهر.

اعتقد أنّنا كنّا ما نزال غير واعين بعد للتوترات السياسية التي بدأت تُعكّر صفو البلد. ورغم سمعةِ المحافظِ المعتدل التي وصل بها أوسْبّينا بِرِثْ إلى السلطة، فإنّ غالبية حزبه كانت تعلم أنّ النصر لم

(*) نوع من الموسلين الرقيق الشفاف.

يكن ممكناً لولا انقسام الليبراليين. هؤلاء، المذعورون من الصدمة، لاموا ألبِرتو يِراس على النزاهة القاتلة التي جعلت الهزيمة ممكنة. أما الدكتور غابرييل تورباي، المثقل بطبعه المكتئب، فقد ذهب بسبب الأصوات المعادية إلى أوروبا دون وجهة ولا معنى بذريعة تخصص عالٍ في جراحة القلب، ومات وحيداً ومهزوماً بربو الهزيمة بعد سنة ونصف بين أزهار ورقِ غوبولين هوتيل بالاس أتينيه في باريس وسجاده الذاوي. بالمقابل لم يقطع خورخِه إليِثر غايتان حملته الانتخابية للدورة التالية يوماً واحداً، بل جذّرها بعمق ببرنامج إصلاح أخلاقي للجمهورية، تجاوز انقسام البلد التاريخي بين الليبراليين والمحافظين، وعمّقه بجرح أفقيّ أكثر واقعية بين المُستَغِلّين والمُستَغَلِّين: البلد السياسي والبلد الوطني. وبذر بصرخته التاريخية - إلى العمل! - وبطاقتِهِ الخارقة بذرةَ المقاومة حتى آخر زاوية بحملة تحريض عملاقة، وراح يكسب المعركة في أقل من عامٍ حتى وصل قاب قوسين أو أدنى من ثورة اجتماعية حقيقيّة.

بهذه الطريقة وحدها وعينا أنّ البلدَ بدأ يهوي في هاوية الحرب الأهلية ذاتها التي ورثناها منذ الاستقلال عن أسبانيا، وأدركت أحفادَ أحفادِ أبطالِها الأصليين. كان الحزب المُحافِظ، الذي استعاد الرئاسة، بسبب انقسام الليبراليين، بعد أربع دورات متتالية، عازماً، مهما كانت الوسيلة، على ألاّ يخسر من جديد. ولإدراك ذلك سبّقت حكومةُ أوسبّينا بِرِثْ بانتهاج سياسةَ الأرضِ المحروقة التي أدمت البلد، بما في ذلك الحياة اليومية داخل المنازل.

ومع انعدام وعييَ السياسيّ، وبسبب أحلامي الأدبية، لم ألمح ذلك الواقع الجليّ إلا في تلك الليلة وأنا عائد إلى النزل، حين التقيت بشبح وعيي. كانت المدينة المقفرة، التي لفحتها الريح الجليدية التي راحت تهبّ من التلال، مطوّقةً بصوت خورخِه إلِيْثر غايتان المعدني ونبرته السوقية المقصودة في خطابه المعتاد، الذي يلقيه كلَّ يوم جمعة في المسرح البلدي. لم يكن المكان المغلق يتسع لأكثر من ألف

شخص مضغوطين، لكنّ الخطاب راح ينتشر على شكل موجات متحدة المركز أولاً عبر مكبرات الصوت في الشوارع القريبة، ثمّ عبر أجهزة المذياع التي تدوي بأعلى أصواتها مثل ضربات السوط في جوّ المدينة المذهولة، ليتخطاها على امتداد ثلاث أو أربع ساعات إلى المجال الوطني.

انتابني في تلك الليلة شعور بأنّني الوحيد في الشوارع، إلاّ عند زاوية صحيفة «إلْ تييمبّو» الرئيسية التي تحميها، كما في كلّ يوم جمعة، دورية من الشرطة المُسلَّحين كما لو أنهم في حالة حرب. كانَ كشفاً بالنسبة إليّ، أنا الذي سمحت لنفسي بأن أتغطرس وألّا أثِق بغايتان، وأدركتُ في تلك الليلة فجأةً أنّه راح يتخطى البلد الأسباني ليبتدع لغةً سهلةً على الجميع، ليس بما تقوله الكلمات بقدر ما بتأثير ومكر صوته. وكان هو نفسه ينصح مستمعيه في خطبه الملحمية بنبرة أبوية خبيثة أن يعودوا بسلام إلى بيوتهم، فيترجمون ذلك بشكل صحيح كأمر مُرَمّز للتعبير عن رفضهم لكل ما يُمَثِّل عدم المساواة الاجتماعية وسلطة الحكومة الوحشية. الشرطة نفسها، التي عليها حفظ النظام، كانت تجد نفسها مدفوعة بتنبيهٍ تفسره عكسياً.

كان موضوع خطاب تلك الليلة سرداً مُعرّياً للخراب الذي يسبّبه العنف الرسمي وسياسة الأرض المحروقة المتبعة لتدمير المعارضة الليبرالية، مقدماً رقماً كان ما يزال غير محدّد للقتلى على يد قوات الأمن في المناطق الريفية وتجمعات اللاجئين، الذين لا سقف ولا خبز عندهم في المدن. وبعد تعدادٍ مرّوع لعمليات القتل والظلم راح غايتان يرفع صوتَه، ويتلذّذ بالكلام كلمة فكلمة وجملة فجملة بإعجازٍ بيانيٍّ مصيب ساعٍ للتأثير. راح توتر الجمهور يزداد على وقع صوته حتى وصلَ إلى انفجار أخير دوّى في المدينة، وتردّد في الإذاعة في أبعد زاوية من البلد.

انطلقت الحشود المهتاجة إلى الشارع في معركة حامية الوطيس، غير دموية، في ظلّ تسامح سرّي من الشرطة. أعتقد أنّني فهمت أخيراً في تلك الليلة خيبات جدّي وتحليلات كاميلو تورِّس

رِسترِبّو الثاقبة. فاجأني أنّ الطلاب في الجامعة الوطنية ما يزالون ليبراليين بائسين مع وجود بعض الخلايا الشيوعية، لكنّ الصدع الذي راح يحدثه غايتان في البلد لم يشعر أحدٌ بمروره من هناك. وصلتُ إلى النزل مذعوراً من هياج الليلة، ووجدتُ رفيقي في الغرفة يقرأ أورتيغا إي غاسِّت في سريره بسلام.

ـ لقد جئت شخصاً آخر يا دكتور بغا ـ قلت له ـ الآن صرتُ أعرف كيف ولماذا كانت تبدأ حروب الكولونيل نيكولاس ماركيز.

بعد أيام قليلة ـ في السابع من شباط 1948 ـ أقام غايتان أول مهرجان سياسي حضرته في حياتي: استعراض تأبيني لضحايا العنف الرسمي، الذين لا يحصى عددهم في البلد، بحضور أكثر من ستين ألف امرأة ورجل في حداد مطبق، يحملون أعلام الحزب الحمراء وأعلام الحداد الليبرالي السوداء. كان شعارهم واحداً: الصمت المطلق. فعلوا ذلك بمأساوية لا يمكن تصوّرها، حتى في شرفات المساكن والمكاتب التي شهدت مرورنا على امتداد قصبات الجادة الرئيسية الإحدى عشرة المكتظّة. كانت إلى جانبي سيّدة تهمس متمتمة بصلاة، فنظر إليها رجل بجوارها مندهشاً:

ـ من فضلك يا سيّدتي!

أطلقت هي أنّةَ اعتذار وغاصت في لجّة الأشباح. ومع ذلك فإنّ ما جرفني إلى حافّة الدموع هو خطوات وتنفّس الحشود الحذرة في الصمت منقطع النظير. كنتُ قد ذهبت دون أيّة قناعة سياسية، يشدّني فضول الصمت، وفجأة باغتتني الغصّة في حنجرتي. كان خطاب غايتان من شرفة الرقابة المالية في البلدية صلاةً جنائزية بشحنة عاطفية مُروّعة. وبعكس توقعات حزبه نفسه، المشؤومة، تتوّجت الحالة بالشرط الأكثر شؤماً للشعار: لم يحدث أيّ تصفيق.

هكذا كانت «مسيرة الصمت»، أكثر المسيرات التي قامت في كولومبيا إثارة للمشاعر. الانطباع الذي خلّفه ذلك المساء التاريخي بين أنصار وأعداء غايتان هو أنّه لا يمكن لأحد أن يوقف انتخابه. كان المحافظون بدورهم يعرفون ذلك، نظراً لدرجة العنف الذي لوّث

البلد كله، نتيجةَ ضراوة شرطة النظام ضدّ الليبرالية العزلاء، وسياسة الأرض المحروقة. وعاش من حضر في نهايةَ ذلك الأسبوع، مصارعة الثيران في ساحة بوغوتا، أكثر حالات التعبير عن الحالة النفسية في البلد سوداوية، حيث اندفع الناس من المدرجات إلى الميدان منزعجين من وداعة الثور وعجز المصارع عن الانتهاء من قتله. قطّعت الحشود المهتاجةُ الثورَ حياً. كثير من الصحفيين والكتاب الذين عاشوا ذلك الرعب، أو عرفوه سماعاً، فسّروه كأكثر أعراض الغضب الوحشي الذي عاناهُ البلد.

في ذلك الجوّ من التوتر الشديد افتُتِح في بوغوتا المؤتمر التاسع لعموم أمريكا، في الساعة الرابعة والنصف من يوم 30 آذار. وقد جُدِّدت المدينة بكلفة باهظة، حسب النظرة الجمالية المتسمة بالأبّهة لوزير الخارجية لاوريانو غومِثْ، الذي كان بمقتضى منصبه رئيساً للمؤتمر. حضر المؤتمر جميع وزراء خارجية دول أمريكا اللاتينية وشخصيات المرحلة. وحضر الساسة الكولومبيون البارزون ضيوفَ شرف، باستثناء خورخِه إليثر غايتان، الذي اسْتُبْعِد دون شك لاعتراضِ لاوريانو غومِثْ ذي الدلالة الكبيرة، وربّما لاعتراض بعض القادة الليبراليين الذين كانوا يكرهونه بسبب مهاجمته للأقلية الحاكمة في كلا الحزبين. نجم قطبِ المؤتمر كان الجنرال جورج مارشال، موفد الولايات المتحدة والبطل الأكبر للحرب العالمية الحديثة، الذي أحاطت به هالة فنان سينمائي مبهرة بسبب إدارته لإعادة بناء أوروبا التي دمّرتها الحرب.

ومع ذلك فقد كان خورخِه إليثِر غايتان يوم الجمعة، التاسع من نيسان، رجلَ اليوم في الأخبار لتمكّنه من تبرئة الملازم خِسوس ماريّا كورتِسْ بّوبِدا، المتهم بقتل الصحفي إدواردو غالارْثا أوسّا، الذي كان قد وصل منتشياً جدّاً إلى مكتب محاماته في تقاطع كارِّرا سِبّتيما المزدحم مع جادّة خيمِنِث دِ كِسادا العريضة، قبل الثامنة صباحاً بقليل، رغم أنّه بقي في المحكمة حتى الفجر. كانت عنده مواعيد عدّة في الساعات التالية، لكنّه قَبِلَ على الفور دعوةَ بلينيو

مِندوثا نِيْرا إلى الغداء، قبل الواحدة بقليل مع ستّة أصدقاء شخصيين وسياسيين ذهبوا إلى مكتبه لتهنئته على النصر القضائي الذي لم تتمكّن الصحافة من نشره. كان بينهم، طبيبه الشخصي، بِدرو إليسيو كروث، الذي كان إضافة إلى ذلك، عضواً في بطانته السياسية.

في هذا الجوّ المتوتر جلستُ لأتناول غدائي في مطعم النزل، حيث أعيش على بعدِ أقلّ من ثلاث قصبات. لم يكونوا قد قدّموا لي الصحن الأوّل حين وقف ويلْفريدو ماتيو أمام طاولتي مذعوراً.

ـ ضاعَ البلدُ ـ قال لي ـ لقد قتلوا غايتان للتو أمامَ الغاتو نِغرو.

كان ماتيو طالبَ طبٍّ وجراحةٍ مثالياً، من مواليد سوكرٍ مثل آخرين في النزل، يُعاني من رؤى مشؤومة. قبل أسبوع تقريباً أعلن لنا أنّ أوضحَ وأخطر ما يمكن أن يحدث، نظراً لنتائجه المدمرة، هو اغتيال خورخِه إليِثِر غايتان. ومع ذلك لم يكن هذا ليدهش أحداً، لأنّ توقُّعه لم يكن بحاجة للتنبؤات.

لم أكد أمتلكُ أنفاسي لأجتاز جادة خيمِنِث دِ كِسادا وأصل مثل الطير إلى أمام الغاتو نِغرو، عند زاوية طريق كارِّرا سِبتما تقريباً دون نفس. كانوا قد نقلوا الجريحَ للتوّ إلى العيادة المركزية، على بعد أربع قصبات تقريباً من هناك، وهو ما يزال حيّاً، لكن دون أمل. مجموعة من الرجال كانوا يُبلّلون مناديلهم في بركة الدم ليحتفظوا بها كأثرٍ تاريخي. امرأةٌ من نساء كثيرات كنّ يبعن الخرداوات في ذلك المكان، تحمل منديلاً أسود كبيراً وتنتعل خفّاً، دمدمت، والمنديل يقطر دماً:

ـ أولاد القحبة، لقد قتلوه لي.

حاولت شراذم ماسحي الأحذية المسلحين بصناديق خشبهم أن يطيحوا بالستائر الحديدية لصيدلية نوبا غرانادا، حيث حجزت شرطة الحراسة القليلة القامة، المعتدي فيها لحمايته من الحشود المهتاجة. رجل طويلٌ، شديدُ الاعتداد بنفسه يرتدي طقماً رمادياً تامّاً، كأنّه طقم عرس راح يحثّهم بصيحات محسوبة تماماً، كانت من الفاعلية، حيث أنّ صاحب الصيدلية رفع الستارة الفولاذية خوفاً من

أن يحرقوها. المعتدي، المتشبّث بالشرطي، خرَّ رعباً أمام الجموع المهتاجة التي انقضّت عليه.

ـ أيّها الشرطي ـ توسّله بلا صوت تقريباً ـ لا تدعهم يقتلونني.

لن أستطيع أن أنساه أبداً، بشعره الأشعث ولحيته التي لم تُحلق منذ يومين وشحوبه، شحوب الميت وعينيه الجاحظتين من الذعر، وطقم جوخه البنيِّ البالي، ذي الخطوط الشاقولية، والطياتِ التي مزّقها شدّ الحشود. كان ظهوراً آنيّاً وأبدياً، لأنّ ماسحي الأحذية انتزعوه من الشرطة ضرباً بصناديقهم وقضوا عليه رفساً. فقد أثناء تدحرجه الأوّل فردة حذائه.

ـ إلى القصر ـ أمر الرجلُ ذو الطقم الرمادي الذي لم تُعرف هويّته قط ـ إلى القصر!

أطاعه أكثرهم حماساً. أمسكوا الجسد النازف من رسغيه وجرّوه عبر شارع كارٌرا سِبتيما باتجاه ساحة بوليفار، بين آخر الحافلات الكهربائية المحاصرة بسبب الخبر، مطلقين شتائم الحرب ضدّ الحكومة. راحوا يُحمسونهم من الأرصفة والشرفات بالصياح والتصفيق بينما الجثّةُ المشوّهةُ من الضرب تخلّف وراءها على بلاط الشارع مزقاً من ثيابها وجسمها. راح الكثيرون ينضمّون إلى المسيرة حتى أدركت على بعدِ أقل من ست قصبات حجمَ وقوّةَ اندلاع حرب توسعية. لم يبق للجسد غير سرواله الداخلي وفردة حذاء.

لم يكن لساحة بوليفار، التي انتهوا من إعادة تنظيمها للتوّ جلال أيام الجمعة التاريخية، بأشجارها الثقيلة وتماثيلها القبيحة ذات الجمال الرسمي الجديد. كانت الوفودُ قد غادرت البناء الفخم، حيث عُقِدَ قبل عشرة أيام مؤتمرُ عموم أمريكا، لتناول الغداء. وهكذا تابعت الحشود عرضاً حتى القصر الرئاسي، الذي أزيلت زينته أيضاً. هناك تركوا ما تبقّى من الجثّة دون أيّة ثياب غير مزق السروال الداخلي وفردة الحذاء اليسرى ربطتي عنق غير مفهومتين معقودتين حول حنجرته. وبعد دقائق وصل رئيس الجمهورية

ماريانو أوسبّينا بِرِثْ وزوجته للغذاء بعد افتتاح معرض الماشية في بلدة إنغاتيبا. كانا حتى تلك اللحظة يجهلان خبر القتل، لأنّ مذياع سيارة الرئاسة كان مغلقاً.

مكثتُ في مكان الجريمة قرابة عشر دقائق أخرى، مندهشاً من السرعة التي راحت تتبدلُ فيها رواياتُ الشهود شكلاً ومضموناً حتى فقدت أيّ شبه لها بالواقع. كنّا في مفرق جادة خيمِنِثْ وشارع كارِّرا سِبتما في أكثر الساعات ازدحاماً، على بعد خمسين خطوة من «إلْ تييمبّو». كنّا نعرف وقتذاك أن من كانوا يرافقون غايتان حين خرج من مكتبه هم بِدرو إليسيو كروث وألِخاندرو بالييخو وخورخِه باديا وبلينيو مِندوثا نِيْرا، وزير الحرب في حكومة ألفونسو لوبِّثْ بومارِخو الأولى. كان هذا قد دعاه لتناول الغداء. وخرج غايتان من البناء الذي يقعُ فيه مكتبه دون أيّ نوع من الحراسة وسط مجموعة متراصة من الأصدقاء. وما إن وصلوا إلى الرصيف حتى أخذه مِندوثا من ذراعه، وتقدّم به خطوة عن الآخرين، وقال له:

ـ ما أريد قوله لك حماقة.

لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك. فقد غطّى غايتان وجهه بذراعه، وسمع مِندوثا أول طلقة قبل أن يرى أمامه الرجلَ الذي سدّد المسدس وأطلق ثلاث طلقات على رأس الزعيم ببرودة محترف. بعد لحظة راحوا يتكلمون عن طلقة رابعة طائشة، وربّما عن خامسة أيضاً.

بلينيو أبّولِيو مِندوثا، الذي وصل مع أبيه وأختيه إلبيرا وروسا إنِس، تمكن من رؤية غايتان ساقطاً على وجهه في الممر قبل لحظة من حمله إلى العيادة. «لم يبدُ ميتاً ـ حكى لي بعد سنوات ـ كان مثل تمثال عاجزٍ، ممدداً على ظهره على الرصيف، بجانب بقعة من الدم صغيرة، وحزن كبير في عينيه المفتوحتين والجامدتين.» خلال لحظة الإرباك ظنّت الأختان أنّ أباهما مات أيضاً، وأصابهما من الذعر ما جعل بْلينيو أبّولِيُو يصعد بهما إلى أوّل حافلة كهربائية مرّت كي يبعدهما عن المكان، لكنّ السائق انتبه جيّداً إلى ما جرى فرمى بقبّعته على الأرض وغادر الحافلة وسط الشارع كي ينضمّ إلى

صيحات التمرّد الأولى. بعد دقائق كانت تلك أوّل حافلة قلبتها الحشود التي جّن جنونها.

الاختلافات حول عدد الفاعلين ودورهم كانت عصيةً على الحسم، فقد أكَّدَ أحد الشهود أنّهم ثلاثة تناوبوا على إطلاق النار، وقال آخر أنّ الحقيقيّ اختفى بين الحشود الثائرة، وأخذ دون سرعة حافلة أثناء سيرها. كذلك ما أراد مِندوثا نِيْرا طلبه من غايتان حين أخذه من ذراعه كان شيئاً من كثير مما تمّ التفكير به منذ ذلك الوقت، إذ أنّه كان يفوّضه بإنشاء معهد لإعداد القادة النقابيين. أو كما سخر حموه قبل أيّام قليلة: «مدرسة لتعليم السائق الفلسفة». لم يتمكّن من أن يقول له هذا حين دوّت أمامهما الرصاصة الأولى.

بعد خمسين عاماً ما زالت ذاكرتي ثابتة على صورةِ الرجل الذي بدا أنّه يُحرِّض الناس أمام الصيدلية، ولم أجد شهادته بين أيّ من الشهادات التي لا تُحصى وقرأتها عن ذلك اليوم. كنتُ قد رأيته عن قرب شديد بلباس أبناء طبقةٍ عليا، وبشرة رخامية بيضاء، ويتحكّم بدقة كبيرة بأفعاله. لفت انتباهي إلى حدّ أنّني بقيت مشدوداً إلى أنّهم سيأخذونه في سيارة جديدة أكثر من اللازم ما إن يرفعوا جثة القتيل. بدا مُذاك ممحوّاً من الذاكرة التاريخية. بل ومن ذاكرتي أيضاً حتى سنوات كثيرة لاحقة من أيامي الصحفية، حين هاجمتني خاطرة أنّ ذلك الرجل تمكن من جعلهم يقتلون قاتلاً مزيّفاً ليحمي هويّة القاتل الحقيقيّ.

في ذلك الشغب الفالت من عقاله كان الزعيمُ الطلابي الكوبي فيدِل كاسترو، ابن العشرين سنة، موفداً من جامعة هافانا إلى مؤتمرٍ طلابيٍّ، عُقِدَ كردّ ديمقراطي على مؤتمر عموم أمريكا. وقد وصل قبل قرابة ستة أيّام برفقة ألفرِدو غيفارا، إنريكهِ أوبارِسْ ورافائيل دِل بّينو ـ الجامعيين الكوبيين مثله ـ وأوّل مبادرة له هي أنّه طلب موعداً مع خورخِه إلِيْثِر غايتان، الذي كان معجباً به. بعد يومين قابل كاسترو غايتان وأعطاه موعداً يوم الجمعة التالي. سجّل غايتان الموعدَ بنفسه في مفكرة مكتبه، على ورقة التاسع من نيسان: «فيدل كاسترو، الثانية ظهراً».

وحسب ما رواه هو نفسه لمختلف وسائل الإعلام، وفي المرات التي لا تنتهي التي أعدنا فيها حكايتها على امتداد صداقتنا القديمة، سمع فيدل بأوّل خبر عن الجريمة أثناء تجواله في الجوار، ريثما يحضر موعد الثانية بدقة، فباغتته فجأة المجموعاتُ الأولى التي راحت تجري مهتاجة والصيحةُ العامّة:

ـ قتلوا غايتان!

لم يقع في حسبان فيدل كاسترو أن الموعدَ لن يكون ممكناً إلاّ بعد أربع أو خمس ساعات، بسبب الدعوة المفاجئة إلى الغداء التي وجّهها إليه مِندوثا نِيْرا.

لم يكن مكان الجريمة ليتسع لأحدٍ آخر. كان السير قد قُطِعَ والحافلات قُلِبَت، فتوجّهت إلى النزل لأنهي غدائي حين قطع عليّ مُعلّمي كارلوس هـ. بّارِخا الطريق في باب مكتبه، وسألني إلى أين كنتُ ذاهباً.

ـ ذاهب لتناول الغداء ـ قلتُ له.

ـ لا تَنْتَك! ـ قال لي ببلاطة لسانه الكاريبية ـ كيف يخطر لك أن تتناول غداءك وقد قتلوا غايتان للتوّ؟

ودون أن يمنحني الوقتَ للمزيد أمرني بالذهاب إلى الجامعة والوقوف على رأس الاحتجاج الطلابي. والغريب هو أنّني وافقته معاكساً طريقتي بالحياة. تابعت عبر شارع كارِّرا سِبتيما نحو الشمال، بعكس اتجاه الجمهور المضطرب الذي راح يتدافع باتجاه زاوية الجريمة بين فضوليٍّ متألم وغاضب. كانت حافلات الجامعة الوطنية يقودها طلاب يشتعلون حماساً، تتقدَّم المسيرة. وكان الموظفون في حديقة سانتانذِر على بعد مئة متر من زاوية الجريمة يسدون بوابات فندق غرانادا ـ أفخر فنادق المدينة ـ حيث نزل في تلك الأيّام بعض وزراء الخارجية والمدعوين البارزين إلى مؤتمر عموم أمريكا.

فوج جديدٌ من الفقراء راح يظهر في كل المنعطفات في وضعية قتالية واضحة. كثيرون منهم مسلحون بسواطير سرقوها للتوّ في

أول عمليات اقتحام للحوانيت وبدوا توّاقين لاستخدامها. لم أكن أملك نظرة واضحة عن النتائج الممكنة للجريمة، وكنتُ ما أزال رهن الغداء أكثر من الاحتجاج، وبذلك عدتُ على أعقابي إلى النزل. صعدتُ الدرج بقفزاتٍ كبيرة واثقاً من أنّ أصدقائي المسيَّسين على أهبة الحرب. لكن لا: فالمطعم كان ما يزال مقفراً وأخي وخوسِهْ بّالِنثيا ـ اللذان يعيشان في الغرفة المجاورة ـ يُغنيان مع أصدقاء آخرين في غرفة النوم.

ـ لقد قتلوا غايتان! ـ صرختُ.

أومؤوا لي بأنّهم يعرفون، فحالتهم النفسية كانت احتفالية أكثر مما هي جنائزية، ولم يقطعوا الأغنية. جلسنا بعدها لتناول الغداء في المطعم المقفر، مقتنعين بأن ما حدث لن يذهب بعيداً، حتى رفع أحدهم صوت المذياع، كي نسمع نحنُ غير المبالين. كارلوس هـ. بّارِخا، الذي أبرزَ ما حثّني عليه لي قبل ساعة، أعلن عن تشكيل مجلس الحكومة الثوري المؤلف من ليبراليين يساريين بارزين، بينهم أشهر كاتب وسياسي، خورخِه ثالاميا. كان أوّل اتفاق لهم هو تشكيل اللجنة التنفيذية، وقيادة الشرطة الوطنية وجميع المؤسسات الضرورية للحكومة الثورية. تكلّم بعدها أعضاء المجلس الآخرين بشعارات كانت في كلّ مرّة أكثر مبالغة.

أوّل شيءٍ خطر لي، في جلال الحالة، هو ماذا سيفكّر أبي حين يعلم أنّ ابن عمه شديدَ البأس هو الزعيم الأكبر لثورة يسارية متطرّفة. فوجئت صاحبة النزل، وأمام حجم الأسماء المرتبطة بالجامعات، بأنّهم لم يتصرفوا كأساتذة، بل كطلاب سيّئي التربية. كان يكفي تجاوز رقمين من قرص المذياع كي يجد المرء نفسه في بلد مختلف. راح الليبراليون الرسميون يدعون عبر الإذاعة الوطنية للهدوء، ويهتفون في أخرى ضدّ الشيوعيين الموالين لموسكو، بينما أعلى قادة الليبرالية الرسمية يَتَحَدّون مخاطرَ الشوارع التي صارت في حالة حرب، محاولين الوصول إلى القصر الرئاسي للتفاوض حول التزامٍ بالوحدة مع الحكومة المحافظة.

بقينا مصعوقين من الفوضى المجنونة حتى صرخ أحد أبناء

صاحبة النزل فجأة بأن البيت يحترق. وبالفعل كان قد فُتِح شَقّ في جدار الدبش في العمق ودخان أسود وكثيف راح يخلخل هواء غرف النوم. كان ولا شكّ قادماً من دار الإدارة الحكومية، المتاخم للنزل، التي أحرقها المتظاهرون، لكنّ الجذر بدا قويّاً ومقاوماً. وهكذا هبطنا الدرج قفزاً لنجد أنفسنا في مدينة في حالة حرب. راح المهاجمون المتطرفون يلقون من نوافذ دار الحكومة كلّ ما يجدونه في المكاتب. ودخان الحرائق غطى الهواء والسماءُ صارت دثاراً مشؤوماً. قبائل جُنّ جنونها، مسلحة بالسواطير وكلّ أنواع الأدوات المسروقة من حوانيت الحدادة، شرعت تقتحم متاجر شارع كارِّرا سِبتيما والشوارع المتاخمة ويُضرمون فيها النار بمساعدة رجال شرطة متمردين. نظرة خاطفة كفتنا كي ندرك أن الوضع خارج عن السيطرة. سبق أخي تفكيري بصرخة:

_ اللعنة، الآلة الكاتبة!

هُرعنا إلى بيت الرهن الذي لم يكن قد مُسّ بعد بساتره الحديدي المحكم الإغلاق، لكنّ الآلة الكاتبة لم تكن حيث هي دائماً. لم نقلق ونحن نفكّر أنّ باستطاعتنا استعادتها في الأيام القادمة، دون أن ندري أنّ تلك الكارثة المريعة لم يكن لها أيام قادمة.

اقتصرت حامية بوغوتا العسكرية على حماية المراكز الرسمية والمصارف، بينما لم يوكل الامن العام إلى أحد. كثير من كبار قادة الشرطة تحصّنَوا في الفرقة الخامسة منذ الساعات الأولى، وتبعهم كثير من العملاء مع شحنات من الأسلحة المجموعة من الشوارع. فرّغ عددٌ منهم، يحمل شرائط المتمردين الحمراء، بنادقهم على مقربة منا فأحسست أنّها دوّت في صدري. مذّاك وأنا على قناعة بأن البندقية يمكن أن تقتل بدويّها وحده.

عند العودة من بيت الرهن رأينا كيف راحوا يدمرون في لحظاتٍ متاجر شارع كارِّرا أوكتابا، أغنى شوارع المدينة. المجوهرات النادرة، الأقمشة الإنكليزية وقبعات بوند ستريت التي كان الطلاب الساحليون يُعجَبون بها في الواجهات البلورية العزيزة

عليهم، كانت إذ ذاك في متناول الجميع، بحضور جنود جامِدين يحرسون البنوك الأجنبية. كان مقهى سان مارينو الفاخر، الذي لم نستطع قط دخوله، مفتوحاً ومدمراً لمرة واحدة وخالٍ من أُجرائه الذين يرتدون السموكينغ ويُسارعون لمنع دخول الطلاب الكاريبيين إليه.

بعض من كانوا يخرجون محملين بالملابس الناعمة، ولفائف من القماش على أكتافهم، يتركونها مرمية وسط الشارع. أخذتُ واحدة منها، دون أن يخطر لي أنّها ثقيلة جداً، فاضطررت لتركها وأنا حزين في داخلي. كنّا نصادف في كلّ مكان، أجهزة منزلية مرمية في الشوارع، ولم يكن من السهل السير بين زجاجات الويسكي الفاخرة وكلّ أنواع المشروبات الغريبة التي كان الثائرون يحطمونها بسواطيرهم. عثر أخي لويس إنريكِهْ وخوسِهْ بّالِنثيا على صالة النهب في مخزن للثياب الجيدة، بينها طقم سماوي اللون من القماش الفاخر، وعلى قياس أبي تماماً، استخدمه لسنواتٍ في المناسبات الوقورة. غنيمتي الوحيدة الإلهية كانت محفظة من جلد البقر من أغلى صالة شاي في المدينة، أفادتني في حمل مخطوطاتي الأصلية تحت إبطي في كثير من ليالي السنوات التالية، التي لم يكن عندي فيها مكان أنام فيه.

كنتُ في طريقي، مع مجموعة راحت تشقّ طريقها في شارع كارّرا أوكتابا، باتجاه الكابيتوليو حين كنست رشقة رشاش أوائل من أطلّوا على ساحة بوليفار. جمّدنا القتلى والجرحى الفوريون المتكوِّمون وسط الشارع. أمسكني مُحتَضَر سابح بدمه، خرج زاحفاً من بين الكومة، من فتحة بنطلوني السفلى وصاح بتوسّل يُمزِّقُ القلب:

ـ أيّها الشاب، بحبّ الله، لا تتركني أموت!

هربتُ مذعوراً. ومنذ ذلك الوقت تعلَّمتُ أن أنسى فظائع أخرى، عندي وعند الآخرين، لكنَّني لم أنسَ قط عزلة تينك العينين وسط بريق الحرائق. ومع ذلك ما زال يدهشني أنّني لم أفكّر لحظةً واحدة، أنّني وأخي، كنّا سنموت في ذلك الجحيم المفتوح.

بدأت تمطر منذ الساعة الثالثة بعد الظهر على شكل زخّاتٍ، لكن ومنذ الخامسة بدأ ينهال طوفان توراتي أطفأ الكثير من الحرائق الصغيرة، وخفّف من اندفاع التمرّد. فرّقت حامية بوغوتا القليلة، غير القادرة على مواجهة غضب الشارع الحشود. لم تُعَزّز إلا بعد منتصف الليلِ بقوات طوارئ من المناطق المجاورة، وخاصّة من بوايّاكا ذات السمعة السيئة بأنّها مدرسة العنف الرسمي. كانت الإذاعة حتى تلك اللحظة تحرّض ولا تُخبر، وبذلك فكلّ الأخبار كانت بلا مصدر ومعرفة الحقيقة مُستحيلة. استعادت قوات التهدئة في الفجر المركزَ التجاري، الذي دمّرته القبائل، والذي كان خالياً من أيّ نور غير نور الحرائق. لكنّ المقاومةَ المسيّسة استمرّت عدّة أيّام بعد ذلك مع وجود قناصة متوضعين في الأبراج والسطوح. في تلك الساعة كان عدد القتلى في الشارع لا يُحصى.

حين عدنا إلى النُزل، كان مركز المدينة في معظمه مشتعلاً، مع وجود حافلات كهربائية مقلوبة، وأنقاض سيارات تستخدم متاريسَ عرضية. وضعنا في الحقيبة القليل مما له قيمة، ولم أنتبه إلاّ بعد ذلك إلى أنّني نسيت مسوداتِ قصتين أو ثلاث قصص غير قابلة للنشر. وقاموسَ الجدّ، الذي لم أستطِع قط استعادته، وكتاب ديوخِنِسْ لايرْثيو الذي تلقيته كجائزة للسنة الأولى من الثانوية.

أوّل ما خطر لي هو أن أطلب مع أخي مأوى في بيت الخال خوانيتو الذي كان على بعد أربع قصبات فقط عن النزل. كان هناك هناك شقّة صغيرة في الطابق الثاني فيها قاعة وغرفة طعام وغرفتا نوم حيث يعيش الخال مع زوجته وأولاده إدواردو ومارغريتا ونيكولاس، بقي أكبرهم فترة معي في النزل. لم يتسع لنا إلاّ بصعوبة، لكنّ آل ماركيز كاباليرو تمتعوا بالقلب الطيب وارتجلوا لنا أماكن حيث لم تكن موجودة، حتى في غرفة الطعام، ليس لنا وحدنا بل ولأصدقاءَ ورفاقِ نزلٍ آخرين: خوسِهْ بّالِنثيا ودومينغو مانول بِغا وكارمِلو مارتينِث ـ وجميعهم من سوكرِ ـ وآخرون لا نكاد نعرفهم.

صعدنا، قبل منتصف الليل بقليل، حين توقّف المطر، إلى

الشرفة لنرى المنظرَ الجهنّمي للمدينة المضاءة بجمر الحرائق. كانت هضبتا مونسِرّات ولا غوادالوبِّ في العمق كتلتين من الظلال على خلفية سماء مغطاة بالدخان، لكنّ الشيء الوحيد الذي بقيتُ أراه في الضباب الماحق هو وجه المحتَضَر الهائل، الذي كان يزحف باتجاهي ليتوسّل إليّ مساعدةً مُحالة. كان القنصُ في الشارع قد هدأ فلا تُسمع في الصمت الرهيب غير أصوات الطلقات المتفرقة للقناصة الذين لا يحصون، المتوضعين في كلّ أنحاء المركز وضجة القوات التي راحت تقضي قليلاً فقليلاً على كلّ أثرٍ للمقاومة المسلحة وغير المسلحة كي تسيطر على المدينة. الخال المُتأثّر بمشهد الموت عبّر بتنهيدة واحدة عن مشاعر الجميع:

- يا إلهي إنّ هذا ليبدو حلماً!

عند العودة إلى القاعة المظلمة ارتميت على الأريكة. كانت نشرات الأخبار الرسمية من الإذاعات التي احتلتها الحكومة، ترسم مشهداً عاماً من الهدوء التدريجي. ما عاد هناك خُطَبٌ، لكن لم يعد بالإمكان التفريق بدقة بين الإذاعات الرسمية وتلك التي كانت ما تزال بأيدي المتمردين، وحتى هذه كان من المحال تمييزها عن وابل بريد الساحرات الذي لا يمكن كبحه. قيل إنّ جميع السفارات تغصّ باللاجئين، وإنّ الجنرال جورج مارشال ما زال في سفارة الولايات المتحدة بحماية حرس شرف الكلية العسكرية. وكذلك لاوريانو غومِثْ لجأ إلى هناك منذ الساعات الأولى، وأجرى محادثات هاتفية مع رئيسه، محاولاً منعه من التفاوض مع الليبراليين، في ظل وضع اعتبر أن الشيوعيين يتحكّمون به. رئيس الجمهورية السابق، ألبِرتو يِراس، الأمين العام آنذاك لوحدة عموم أمريكا، نجى بأعجوبة حين تمّ التعرف عليه في سيارته غير المدرعة وهو يُغادر الكابيتوليو، وحاولوا أن يجبروه على تسليم السلطة الشرعية إلى المحافِظين. معظم وفود مؤتمر عموم أمريكا أصبحت عند منتصف الليل آمنة.

بين الكثير من الأخبار المتناقضة، أُعْلِنَ أنّ غيِّرمو ليون بالِنْثيا، ابن الشاعر الذي يحمل الاسم ذاته قد رُجِم بالحجارة، وأنّ جثّته مُعَلّقة في ساحة بوليفار. لكنّ فكرة أنّ الحكومة تسيطر على

الوضع بدأت تتبدى ما إن استعاد الجيش الإذاعات التي كانت تحت سيطرة المتمردين. وبدل إعلانات الحرب حاولت الأخبار آنذاك أن تطمئن البلد بعزاء أنّ الحكومة هي التي تسيطر على الوضع، بينما الطبقة العليا الليبرالية تتفاوض مع رئيس الجمهورية على نصف السلطة.

الحقيقة أنّ الوحيدين الذين بدا أنّهم يعملون بشعور سياسي هم الشيوعيون، الذين كانوا أقلية ومغالية، شوهِدوا وسط فوضى الشوارع وهم يوجِّهون الحشودَ - مثل شرطة المرور - باتجاه مراكز السلطة. بينما برهنت الليبراليةُ عن انقسامها إلى النصفين اللذين أدانهما غايتان في حملته: القادة الذين كانوا يُحاولون أن يساوموا في القصر الرئاسي على حصّة من السلطة، ومنتخبوهم الذين قاوموا كيفما استطاعوا وبقدر ما استطاعوا في الأبراج والشرفات.

أول شكّ برز فيما يتعلّق بمقتل غايتان، دارَ حول هوية القاتل. حتى اليوم لا توجد قناعة إجماعية بأنه خوان رُوَا سييرّا، حامل المسدس الوحيد الذي أطلق عليه النار بين حشود الشارع السابع. ما يصعب فهمه هو أن يكون قد فعل ذلك من تلقاء نفسه، إذ لم يبدُ أنّه يمتلك ثقافة مستقلة كي يُقرّر ذلك القتل الماحق ذاتياً، في ذلك اليوم وتلك الساعة، في ذلك المكان وبالطريقة ذاتها. إنكارناثيون سييرّا أمّه وأرملة روا، ابنة الاثنين وخمسين عاماً علمت باغتيال غايتان، بطلها السياسي، من الإذاعة، وكانت تصبغ بالأسود أفضل ثوب عندها كي ترتديه حداداً عليه. لم تكن قد انتهت حين سمعت بأنّ القاتل هو خوان رُوَا سييرّا، ثالث عشر أولادها الأربعة عشر، الذين ما من أحدٍ منهم تخطّى مرحلة الدراسة الابتدائية، بينما أربعة منهم - ابنان وابنتان - ماتوا.

صرّحت هي نفسها بأنّها لاحظت قبل ثمانية أشهر تبدلاً غريباً في سلوك خوان. كان يكلّم نفسه ويضحك دون سببٍ، واعترف للأسرة في لحظةٍ من اللحظات، بأنّه يعتقد بأنّه تجسيد للجنرال فرانسيسكو دِ باولا سانتاندِر، بطل استقلالنا، لكنّهم فكروا بأنّه مزاحُ سكرانٍ سيّئ. لم يُعرف عن ابنها أنّه أساء إلى أحد قط، وتمكنت

من أن تجعل أناساً لهم بعضُ الوزن يمدونه برسائل توصية للحصول على عمل. كان يحمل واحدةً منها في محفظته حين قَتَلَ غايتان. قبل ستّة أشهر كتب واحدة بخطّ يده إلى الرئيس أوسبّينا بِرِثْ، يطلب منه فيها مقابلته ليؤمِّن له عملاً.

وصرّحت الأمّ للمحقِّقين أنّه كان قد طرح مشكلته على غايتان شخصياً أيضاً، لكنَّ هذا لم يمنحه أيَّ أمل. لا يُعرف عنه أنّه أطلق ناراً من سلاحٍ في حياته، لكن الطريقة التي استخدم فيها سلاحَ الجريمة كانتْ بعيدة جدّاً عن أن تكون لمبتدئٍ. كان المسدس من عيار 38 طويلاً وسيّئاً حتى ليُستَغْرَب أنّ طلقةً واحدة لم تخنه.

بعض موظّفي البناء ظنوا أنّهم رأوه في طابق مكاتب غايتان عشيةَ يوم الجريمة. وأكّد البوّابُ دونَ أيّ شك أنّهم رأوه في صباح يوم التاسع من نيسان يصعدُ الدرج ويهبط بعدها في المصعد مع شخص مجهول. كما بدا له أنّهما انتظرا عدّة ساعاتٍ في مدخل البناء، لكنّ رُوَا كان وحيداً في الباب حين صعد غايتان إلى مكتبه قبل الحادية عشرة بقليل.

غابرييل رِستربّو، صحفي «لاخورنادا» ـ صحيفة حملة غايتان الإنتخابية ـ قام بجرد الهويات التي كانَ رُوا سييرّا يحملها معه عندما ارتكب الجريمة. لم يترك مجالاً للشك بهويته وبوضعه الاجتماعي، لكنّه لم يهتدِ قط إلى غاياته. كان يحمل في جيبه اثنين وثمانين سنتيماً معدنياً مختلطاً، في الوقت الذي كان فيه عدد من الأشياء المهمة في الحياة اليومية لا يُكلِّف أكثر من خمسة سنتيمات. كما كان يحمل في جيب سترته الداخلي محفظةً جلدية سوداءَ فيها ورقة نقدية من فئة البيزو، وشهادةَ حسن سلوك، وأخرى من الشرطة، لم يكن بحسبها له أيّة سابقة جرمية وأخرى تحمل عنوانه في حي للفقراء: شارع كارِّرا أوكتابا، رقم 30 ـ 73. وحسب دفتر الخدمة العسكرية، الذي يحمله في الجيب ذاته، كاحتياطي من الدرجة الثانية فهو ابن رافائيل رُوَا وإنكارناثيون سييرّا، ولد قبل واحدٍ وعشرين عاماً: الرابع من تشرين الثاني من عام 1921.

كلّ شيء بدا طبيعياً، باستثناء أنّ رجلاً من وضع متواضع جدّاً

ودون سوابق جنائية كان يحمل معه كلّ تلك البراهين على حسنِ سلوكه. ومع ذلك فالشيء الوحيدُ الذي ترك عندي أثراً لشكٍّ، لم أستطع قط أن أتخطاه، هو الرجل الأنيق وحسن الهندام، الذي دفع به إلى الحشود الهائجة واختفى للأبد في سيارة فاخرة.

وسط حمى المأساة، وبينما كانوا يُحنطون جثّة الرسول المقتول، اجتمع أعضاءُ القيادة الليبرالية في مطعم العيادة المركزية، ليقرّروا صيغاً للطوارئ. وكان أكثرُها استعجالاً الذهابَ إلى القصر الرئاسيّ دون موعد مسبق ليناقشوا مع رئيس الدولة صيغةَ طوارئ قادرة على درء الكارثة التي تُهدِّدُ البلد. قبل التاسعة ليلاً بقليل كان المطر قد هدأ، وشقّت الوفود الأولى طريقَها بأسوأ ما استطاعت في الشوارع التي صارت أنقاضاً، تملؤها الجثث التي جندلها رصاصُ القناصة الأعمى من الشرفات والأسطح.

وجدوا في قاعة انتظار المكتب الرئاسيّ بعضَ الموظفين والسياسيين المحافظين وزوجةَ الرئيس، دونيا بِرتا هِرنانديث دِ أوسبّينا، رابطةَ الجأش جدّاً؛ وهي ما تزال ترتدي الثوب الذي رافقت به زوجها إلى معرض إنغاتيبا، وعلى خصرها مسدس حسب الأصول.

كان الرئيس قد فقد في نهاية المساء كلَّ اتصال بالمناطق الحرجة، ويُحاول أن يُقَيِّمَ وضع الأمّة من وراء باب مغلق مع العسكريين والوزراء. أخذته زيارة القادة الليبراليين على حين غرّة قبل العاشرة ليلاً بقليل، ولم يقبل أن يستقبلهم جماعياً، بل اثنين، اثنين، لكنّهم قرّروا أنّ أحداً منهم لن يدخل في هذه الحالة. أذعن الرئيس، لكنّ الليبراليين اتخذوها في جميع الأحوال سبباً للفتور.

وجدوه جالساً على رأس طاولة اجتماعاتٍ طويلة في طقم كامل، دون أيِّ أثر للحزن. الشيء الوحيد الذي كان يشي ببعض التوتر هي طريقته بالتدخين المتواصل والشره، وإطفاؤهُ السيجارةَ من منتصفها أحياناً ليشعل أخرى. بعد سنوات روى لي أحدُ الزوار كم أدهشه بهاء اشتعالات الرأس الفضيّ للرئيس العصي على الألم. كان جمر الأنقاض تحت السماء المشتعلة يُلمح من نوافذ المكتب الرئاسي البلورية حتى آخر تخوم العالم.

ما يُعرف من ذلك اللقاء، نحن مدينون به إلى القليل مما رواه أبطالُه، وإلى خيانات بعضهم وتخيلاتِ آخرين كثيرة، وإلى إعادة بناء تلك الأيام العمياء التي جمّعها قطعة فقطعة الشاعر والمؤرّخ أرتورو ألابِّ، الذي جعل الحفاظ على هذه الذكريات ممكنة في قسمها الأعظم.

والزوار هم دون لويس كانو، مدير المسائية الليبرالية «إلْ إسبِّكتادور»، بلينيو مِندوثا نِيْرا، الذي حرّض على الاجتماع، وثلاثة آخرون من أكثر الزعماء الليبراليين نشاطاً وشباباً: كارلوس يِراس رِسترِبّو، إدواردو إتشانديّا وألفونسو أراوْخو. وخلال الحديث دخل وخرج ليبراليون بارزون آخرون.

وحسب الاستذكارات الذكية التي سمعتها، بعد سنوات، من بلينيو مِندوثا نِيْرا في منفاه القلق في كاراكاس، ما من أحد حمل معه خطّة جاهزة. كان هو الشاهد الوحيد على اغتيال غايتان وروى ماجرى خطوة فخطوة بفنّه كروائيّ فطري وصحفيٍّ عتيق. أصغى الرئيس إليهم باهتمام وقور، وطلب في النهاية أن يُعبّروا عن أفكارهم لحلّ عادِلٍ ووطني لتلك الحالة الطارئة المريعة.

مِندوثا، المشهور بين أصدقائه وأعدائه بصراحته الخالية من الزخارف، أجاب بأنّ أكثر ما ينصح به هو أن تُوكِل الحكومةُ السلطةَ إلى القوات المسلحة، نظراً للثقة التي كانت تتمتّع بها في تلك الأيام عند الشعب. كان قد عمل وزيراً للحرب في حكومة ألفونسو لوبِّثْ بّومارِخو الليبرالية، ويعرف جيّداً العسكريين من الداخل، ويظنّ أنّهم وحدهم من يستطيعون أن يعيدوا الأمور إلى مجراها الطبيعي. لكنّ الرئيس لم يكن موافقاً على واقعيةِ الصيغة، كما أنّ الليبراليين لم يدعموه.

المداخلة الثانية كانت لدون لويس كانو، المعروف بتألُّق حكمتِهِ. كان يكنّ للرئيس مشاعر تكاد تكون أبويةً، واكتفى بأن قدّم نفسه لأيّ قرار سريع وعادل يوافق عليه أوسبّينا بدعم من الأغلبية. أعطاه هذا تطمينات بالعثور على الإجراءات الضرورية للعودة إلى الوضع الطبيعي، لكن مع التمسك دائماً بالدستور. ذكّرهم، وهو يشيرُ

عبر النافذة إلى الجحيم الذي كان يلتهم المدينة، بسخرية لم يستطع كبتها، بأنّ الحكومة ليست هي التي تسبّبت بذلك.

كان مشهوراً باعتداله وحسن تربيته، على النقيض من أبهة لاوريانو غومِثْ وتكبّر آخرين من أعضاء حزبه، الخبراء في الانتخابات المركبة، لكنّه برهن في تلك الليلة التاريخية على أنّه لم يكن مستعدّاً لأن يكون أقلّ عناداً منهم. وهكذا استمرّ النقاشُ، الذي كانت تقطعه دونيا بِرتا أوسبّينا بأخبارٍ هي في كلّ مرّة أكثر هولاً، حتى منتصف الليل دون التوصُلِ إلى أيٍّ اتفاق.

كانت أعدادُ القتلى في الشوارع والقناصة الذين توضعوا في أماكن لايمكن الوصول إليها، والحشود التي جنّ جنونها من الألم، والغضب والكحول من الماركات الكبيرة المنهوبة من المحلات التجارية الفاخرة قد أصبحت لاتحصى. فمركز المدينة قد دُمّر وما يزال مشتعلاً، والمحلات الفاخِرة نُهبت، وقصر العدل ودار الحكومة وأبنية تاريخية أخرى كثيرة أُحرِقت. هذا هو الواقع الذي راح يُضيّق دون رحمة السبلَ إلى اتفاقٍ رصينٍ بين عددٍ من الرجال ضدّ واحدٍ، في جزيرة المكتب الرئاسي المقفرة.

ربما كان داريّو إتشانديّا، أكثرهم سلطة، لكنّه أقلهم تعبيراً. قدّم تعليقين أو ثلاثة تعليقاتٍ ساخرة على الرئيس وعاد ليلوذ في ضبابه. بدا المرشحَ الذي لا يمكن استبداله ليحل محلّ أوسبّينا بِرِثْ في الرئاسة، لكنّه لم يفعل في تلك الليلة شيئاً كي يستحق أو يتفادى ذلك. راح الرئيس الذي كان يُعتبر محافِظاً معتدلاً، يبدو في كلّ مرّة أقلَّ اعتدالاً. كان حفيداً وابن أخ لرئيسين في قرن واحد، ربَّ أسرة، مهندساً معتزلاً ومليونيراً منذ البداية، وعدداً آخر من الأشياء التي يمارسها دون أدنى ضجيج، إلى حدّ أنّه كان يُقالُ، دون أساس، أنّ الرئيسَ في الحقيقة، سواء في بيته أو قصره، إنّما هي زوجته، امرأة المهمّات الصعبة. حتى ولو كان الأمر كذلك ـ ختم بسخرية لاذعة وفظّة ـ لم يكن عنده أيّ مانع من أن يقبل الاقتراح، لكنّه يشعر بنفسه مرتاحاً جدّاً في إدارة الحكومة من على كرسيّه الذي يجلس عليه بإرادة الشعب.

كان يتكلّم معزّزاً كلامَه بمعلوماتٍ غير متوافرة لدى الليبراليين: المعرفة الفورية الدقيقة والتامة بالأمن العام في البلد. فهو يحاط به علماً في كلّ لحظة، من خلال خروجه عدّة مرات من مكتبه واستعلامه بعمق عن الوضع. لم يكن عدد حاميةِ بوغوتا يصل إلى الألف رجل، وفي كلّ المحافظات كان هناك أخبار خطيرة إلى هذا الحدّ أو ذلك، لكنّها تحت سيطرة القوات المسلحة وولائها. في محافظة بوياكا القريبة، المشهورة بليبراليتها التاريخية ومحافظيتها الفظّة، لم يقمع خوسِهْ ماريّا بيّارِّيال ـ المحافظِ على سن الرمح ـ الاضطرابات المحلية منذ الساعات المبكرة وحسب، بل راح يسيِّر قوّاتٍ أحسنَ سلاحاً لإخضاع العاصمة. وبذلك فإنّ الشيء الوحيد الذي يحتاجه الرئيس هو تلهية الليبراليين باعتداله المدروس جيّداً بالكلام القليل والتدخين البطيء. لم ينظر في لحظة من اللحظات إلى الساعة، لكنّه كان دون شكٍّ يُقَدّر جيّداً الساعة التي ستكون فيها المدينة حسنة الحماية بالقوات الجديدة والمجرّبة أكثر من اللازم في القمع الرسمي.

وبعد تبادل طويل للصيغ التجريبية، اقترح كارلوس يِراس رِستْرِبّو الصيغة التي أقرّتها القيادة الليبرالية في العيادة المركزية، والتي احتفظوا بها كمطلب أقصى: الاقتراح على الرئيس أن يوكل السلطةَ إلى داريّو إتشانديِّا، على مذبح الوفاق السياسي والسلام الاجتماعي. ولا شكّ أن الصيغة كانت ستستقبل دون تحفّظٍ من قبل إدواردو سانتوس وألفونسو لوبِّثْ بّوماخِرو، الرئيسين السابقين اللذين كانا يتمتعان بمصداقية سياسية، لكنّهما لم يكونا في ذلك اليوم في البلد.

ومع ذلك فإنّ جواب الرئيس، الذي قاله بالاعتدال ذاته الذي راح يُدخّن به، لم يكن المنتظر. لم يفوّت الفرصة كي يبرهن عن ذكائه الحقيقي، الذي لم يكن يعرفه إلا القليلون حتى ذلك الوقت. قال إنّ أكثر ما يريحه ويريح أسرته هو أن ينسحب من السلطة ويعيش في الخارج بثروته الشخصية ودون قلق سياسي، لكن يقلقه ما يمكن أن يعنيه بالنسبة إلى البلد أن يخرج رئيس منتخب هارباً من منصبه.

ستكون الحرب حتمية. وأمام إلحاح بِراس رِستربّو الجديد على الانسحاب، سمح لنفسه بالتذكير بواجبه بالدفاعِ عن الدستور والقوانين، فهو لم يعاهد نفسه ووطنه أمامها وحسب، بل وأمام ضميره والله. عندها قالوا إنّه قال جملته التاريخية التي يبدو أنّه لم يقلها قط، لكنّها بقيت له للأبد: «خير للديمقراطية الكولومبية رئيس ميت من رئيس هارب».

ما من أحد من الشهود تذكّر أنّه سمعها من فمه، ولا من فم أحدٍ غيره. عزوها مع الزمن إلى نوابغ عدّة، بل ونوقِشَت مزاياها السياسية وقيمتها التاريخية، دون أن تُناقَش روعتها الأدبية قط. صارت منذ ذلك الوقت شعارَ أوسبّينا بِرِثْ وركناً من أركان مجده. وقدِ وصل بهم الأمر إلى القول بأنّها من اختراع عددٍ من الصحفيين المحافِظين، وبكثير من الحق من اختراعِ الكاتب والسياسي ووزير المناجم والبترول الحالي المعروف جدّاً خواكين إسترادا مونسالبِ، الذي كان بالفعل في القصر الرئاسي، لكنّه لم يكن في قاعة الاجتماعات. وهكذا بقيت في التاريخ على لسان من كان يجب أن يقولها، في مدينة مدمّرة حيث راحت تُنسج خيوطُ الرماد، وفي بلد لن يعود أبداً ليكون ما كان.

أولاً وأخيراً لم تكن ميّزة الرئيس في اختراعه جملاً تاريخية، بل في تلهية الليبراليين بالسكاكر المنوّمة إلى ما بعد منتصف الليل، حينِ وصلت القوات الجديدة لقمع تمرّد الدهماء وفرض السلام المحافِظ. وقتها وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم العاشر من نيسان أيقظَ داريّو إتشانديّا على كابوس قرعات الهاتف الاحدى عشر وسماه وزير دولة لنظام ترضيةٍ من حزبين. سافر لاوريانو غومِثْ، إلى نيويورك مع أسرتَه منزعجاً من الحل وقلقاً على أمنه الخاص، بينما راحت تتبلور شروط توقه الأبدي إلى الرئاسة.

إنّ أيّ حلمْ بتغييرِ اجتماعي عميق، ماتَ غايتان لأجله، قد تبخّر بين أنقاض المدينة التي يتصاعد منها الدخان. يبدو أن عدد القتلى في شوارع بوغوتا وقتلى القمع الرسمي في السنوات اللاحقة، قد وصل إلى المليون، إضافة إلى الفاقة ونفي الكثيرين. قبل زمن طويل

من بدء الزعماء الليبراليين في قمة الحكومة بالانتباه إلى أنهم قد خاطروا بدخول التاريخ بوصفِهم متواطئين.

بين الشهود التاريخيين الكثيرين لذلك اليوم في بوغوتا، كان هناك اثنان لا يعرف بعضهما بعضاً، سيصبحان فيما بعد من أعظم أصدقائي. الأوّل هو لويس كاردوثا إي أراغون، الشاعر وكاتب المقالة السياسية والأدبية الغواتيمالي، الذي حضر مؤتمر عموم أمريكا كوزير لخارجية بلده ورئيس وفده؛ والآخر هو فيدل كاسترو. كلاهما اتُهِم في لحظة من اللحظات بالتورّط في الاضطرابات.

وقد قيل أنّ كاردوثا إي أراغون بالتحديد كان واحداً من المُحرِّضين، محتمياً بصفته موفداً خاصّاً لحكومة خاكوبو أربِنثْ التقدمية في غواتيمالا. يجب أن نفهم أنّ كاردوثا إي أراغون كان موفدَ حكومة تاريخية، وشاعرَ لغة عظيم لم يدخل قط في مغامرة مجنونة. إنّ أكثر ما يؤلم في كتاب مذكراته الجميل هو اتهام إنريكِهْ سانتوس مونتِخو، كاليبان، الذي عزا إليه في عموده الشعبي في «إلْ تييمبّو»، «رقصة الساعات»، المهمةَ الرسمية بقتل الجنرال جورج مارشال. وقد عمل عدد من الموفدين إلى المؤتمر على أن تصحح الصحيفة ذلك النوع من الهذيان، لكنّ ذلك لم يكن ممكناً. فقد أعلنت صحيفة «إلْ سيغلو»(*) الناطقة الرسمية باسم المحافِظين الموجودين في السلطة أنّ كاردوثا إي أراغون كان المحرّض على أعمال الشغب.

تعرّفتُ عليه مع زوجته ليا كوستاكوفسكي بعد ذلك بسنواتٍ كثيرة في مدينة مِكسيكو، في بيته في كويوكان، الذي قُدّس بسبب ذكرياته، وجُمّل أكثر مما هو جميل باحتوائه على الأعمال الأصلية لعظماء الرسامين آنذاك. كنّا نجتمعُ، نحن أصدقاءه، هناك في ليالي الآحاد في السهرات الحميمة ذات الأهمية الخالية من المطامع. كان يُعتبر أحد الناجين من الموت، أوّلاً حين رشَّ القناصةُ سيارته بعد

(*) القرن (مئة عام).

ما لا يكاد يتجاوز الساعات من الجريمة. ثمّ بعد أيّام من التمرّد المهزوم، حين أطلق سكيرٌ مرّ به في الشارع النارَ على وجهه بمسدسٍ استعصى مرّتين. كان يومُ التاسع من نيسان موضوعاً مطروقاً في أحاديثنا التي اختلط فيها الغضب بالحنين إلى السنوات الضائعة.

من ناحيته، كان فيدل كاسترو ضحية كلّ أنواع الاتهامات غير المعقولة، بسبب بعض نشاطاته المتعلّقة بوصفه ناشطاً طلابيّاً. في الليلة السوداء، وبعد يوم رهيبٍ بين الجموع الهائجة والجامحة، انتهى به المطاف إلى ثكنة الفرقة الخامسة للشرطة الوطنية، بحثاً عن وسيلة يكون فيها مفيداً لوضع حدّ للمجزرة في الشوارع. يجب أن نعرفه كي نتصور مدى قنوطه في الحصن الثائر، حيث بدا من المستحيل فرض رأيٍ مشترك.

قابل قادة الحامية وضباطاً آخرين ثائرين وحاول أن يُقنعهم، دون أن يتمكن، بأنّ أيّة قوّة تتجمع في ثكنة هي خاسرة. اقترح عليهم أن يُخرجوا رجالهم ليقاتلوا في الشوارع لحفظ الأمنِ ونظام أكثرِ عدالة. وحرّضهم بكلّ أنواع السوابق التاريخية، لكنّه لم يلقَ أذناً صاغية، بينما راحت القواتُ والدبابات الرسمية تدكّ الحصن. أخيراً قرّر أن يضع رأسه بين الرؤوس ويقول يا قطّاع الرؤوس.

وصل بْلينيو مِندوثا نِيْرا عند الفجر إلى الفرقةِ الخامسة، ومعه تعليمات من القيادة الليبرالية للتوصّل إلى استسلام سلمي ليس للضباط والعناصر المتمرّدة وحسب، بل وللكثير من الليبراليين المنساقين مع التيار، الذين كانوا ينتظرون الأوامر كي يتحرّكوا. خلال الساعات الكثيرة التي استغرقتها مفاوضاتُ الاتفاق بقيت ثابتةً في ذاكرة مِندوثا نِيْرا صورةُ ذلك الطالب الكوبي، الضخم والمجادل، الذي تدخّل مراتٍ كثيرةً في الجدلِ بين القادة الليبراليين والضباط المتمردين بذكاء تجاوزهم جميعاً. لم يعرف مِندوثا من كان فيدل كاسترو إلاّ بعد سنواتٍ، لأنّه رآه مصادفةً في كاراكاس في صورةٍ من صور تلك الليلة الرهيبة، بعد أن أصبح في سييرّا مايسترا.

تعرّفتُ عليه بعد أحد عشر عاماً، حين هرعت ككاتب تحقيقاتٍ

لحضور دخوله المنتصر إلى هافانا، وقامت مع الزمن بيننا صداقة شخصية قاومت عبر السنين عثراتٍ لا تُحصى. في أحاديثي الطويلة معه حول كلّ ما هو إلهي وإنساني، كان يوم التاسع من نيسان موضوعاً لايكلُّ كاسترو من اعتباره كواحدة من المآسي الحاسمة في تكوينه. وخاصّة تلك الليلة في ثكنة الفرقة الخامسة، حيث انتبه إلى أنّ معظم المتمردين الذين كانوا يدخلون ويخرجون يسرفون بخسةٍ في النهب، بدل أن يؤكّدوا بأعمالهم على ضرورة التوصل إلى حلّ سياسيّ.

وبينما كان هذان الصديقان شاهدين على الأحداث التي قسمت تاريخ كولومبيا إلى تاريخَين، بقينا أنا وأخي نعيش في الظلمة مع اللاجئين إلى بيت الخال خوانيتو. لم أعِ في لحظة من اللحظات إلى أنّني كنت كاتباً مبتدئاً سيُحَاوِل ذات يوم إعادةَ بناء شهادتي عن الأيام الفظيعة التي عشناها من ذاكرته. كان شغلي الوحيد في ذلك الوقت هو الأكثر دنيوية: أن أخبر أسرتنا أنّنا أحياء ـ على الأقل حتى ذلك الوقت ـ وأن أستخبر في الوقت ذاته عن أبوينا وأخوتنا، وخاصّة مارغوت وعايدة، الكبيرتين، والطالبتين الداخليتين في مدرستين ومدينتين مختلفتين.

جاء ملاذ الخال خوانيتو معجزة. كانت الأيّام الأولى صعبة بسبب تراشق النيران المستمر ودون أيٍّ خبرٍ موثوق. لكنّنا رحنا شيئاً فشيئاً نسبر المحلات التجارية المجاورة، ونتمكن من شراء بعض الأشياء للأكل. فالشوارع احتلتها القوات المهاجمة ومعها أوامر قاطعة بإطلاق النار. تموّه خوسِهْ بَالِنثيا، العصيّ على التقويم، باللباس العسكري كي يتجول دون حدود وهو يضع قبعة كشاف وطماق وجده في صندوق قمامة، وأُفْلِتَ بمعجزة من الدورية الأولى التي اكتشفته.

سيطر الجيش على الإذاعات التجارية، التي أُسْكِتَت قبل منصف الليل؛ ومراكز البرق والهاتف النادرة بقيت محجوزة للأمن العام، ولم يكن هناك من وسائل أخرى للاتصال. كانت الصفوف أمام المكاتب الغاصّة بالناس من أجل البرقيات لا نهاية لها، لكنّ محطات

الإذاعة أقامت خدمة الرسائل عبر الأثير لمن حالفه الحظ والتقطها. بدت لنا هذه الطريقة الأسهلَ والأكثرَ ثقة فأوكلنا أمرنا إليها دون آمال كبيرة.

خرجنا، أخي وأنا، إلى الشارع بعد ثلاثة أيّام من الحبس. كان مشهداً مرعباً. فالمدينة صارت أنقاضاً، يغشوها الدخان والعكر بسبب المطر المتواصل الذي خفّف من الحرائق، لكنّه أخّرَ الإصلاحات. شوارع كثيرة كانت مغلقة بسبب أوكارِ القناصة على سطوح مركز المدينة، مما أوجب القيام بالتفافاتٍ لا معنى لها، بأمر من الدوريات المسلحة بأسلحة كأنّها لحرب عالمية. رائحة الموت في الشارع كانت لا تُحتمل. لم تكن الشاحنات العسكرية قد تمكنت من جمع أكوام الجثثِ عن الأرصفة، وكان على الجنود أن يواجهوا المجموعات اليائسة التي تحاول التعرف على ذويها.

كانت النتانة، في خراب ماكانه المركز التجاري، لاتسمح بالتنفس، حتى أن أسراً كثيرة تخلت عن البحث عن جثث ذويها. في واحدة من إهرامات الأجداث الكبيرة، برزت جثة حافية ودون بنطال، أما السترة فكانت سليمة تماماً. بعد ثلاثة أيام كان الرماد مايزال يطلق نتانة الأجساد التي لا أهل لها، متعفنةً بين الأنقاض أو مكومة على الأرصفة.

أفقنا أنا وأخي، في الوقت الذي لم نتوقّعه، على صوت تلقيم بندقية أكيدٍ خلفنا وأمرٍ حاسم:

ـ ارفعا أيديكما!

رفعتُهُما حتى دون تفكير، مُتجَمّداً من الرعب إلى أن أعادت إلي الحياةَ قهقهةُ صديقنا أنخِل كاسيخ، الذي لبى نداء القوات المسلّحة كاحتياطي من الدرجة الأولى. وبفضله استطعنا نحن اللاجئين في بيت الخال خوانيتو، أن نبعث برسالة عبر الأثير بعد يوم من الانتظار أمام الإذاعة الوطنية. سمعها أبي في سوكرِ بين عددٍ الذي لا يحصى من الرسائل التي قرئت ليلاً ونهاراً خلال أسبوعين. بقينا أنا وأخي، ضحيتي هوس الأسرة الحتمي، خائفَين من أن تفسّر أمنا

الخبرَ كنوعٍ من التمهيد من الأصدقاء، ليحضِّروها لما هو أسوأ. كدنا نخطئ: فأمنا قد حلمت منذ الليلة الأولى أنّنا، نحن ابنيها الكبيرين، غرقنا في بحرٍ من الدم خلال القلاقل. يبدو أنّه كان كابوساً مقنعاً إلى حدٍّ أنّها تلقت الخبر الحقيقيّ عبر طرق أخرى، فقرّرت ألاّ يعود أيٌّ منّا إلى بوغوتا بعد الآن، حتى ولو اضطررنا للبقاء والموت جوعاً في البيت. يبدو أنّ القرار كان قطعيّاً، لأنّ الأمر الوحيد الذي أعطاه لنا والدانا في أوّل برقية هو أن نُسافر إلى سوكرٍ بأسرع ما يمكن كي نحدّد مستقبلنا.

خلال الانتظار الحرج زيّن لي عدد من الزملاء بالذهب إمكانيةَ أن أتابع دراستي في كارتاخِنا دِ لاس إندياس، ظانِّين بأنّ بوغوتا ستنهض من بين أنقاضها، لكنّ البوغوتيين لن يخرجوا قط من رعب وذعر المذبحة. كانت توجدُ في كارتاخِنا جامعة عمرها مئة سنة، لها ميزاتها مثل الكثير من تحفها التاريخية، وكلّية حقوق متواضعة حيث سيقبلون علاماتي السيئة من الجامعة الوطنية كعلامات جيدة.

لم أبغِ استبعاد الفكرة قبل أن أطبخها على نارٍ هادئة، ولا أن أذكرها لأبويَّ ما لم أحضّرها في نفسي. فقط أعلنت لهم أنني سأسافر إلى سوكرٍ بالطائرة عن طريق كارتاخِنا، لأنّ نهر مَغدلِنا في تلك الحرب الحامية يمكن أن يكون طريقاً انتحاريّاً. وأعلن لهم لويس إنريكِهْ من جهته أنّه سيسافر للبحث عن عملٍ في بارّانكيّا، ما إن يسوّي حساباته مع أرباب عمله في بوغوتا.

في جميع الأحوال كنتُ أعرف أنّني لن أصبح محامياً في أيّ مكان. فقط كنتُ أريدُ أن أكسب مزيداً من الوقت كي أُلهي أبويّ، ويمكن أن تكون كارتاخِنا محطة فنية جيّدةً للتفكير بالأمر. ما لم يخطر ببالي قط هو أنّ ذلك الحساب العقلاني سيقودني لأن أقرّر، وقلبي في يدي، متابعةَ حياتي هناك.

كان حصولنا في تلك الأيّام على خمسة مقاعد في طائرة واحدة لأيّ مكانٍ من الساحل مأثرةً لأخي. بعد أن وقف في صفوف خطيرة لا نهاية لها، وجرى خلال يوم كامل من مكان إلى آخر في مطارٍ

طوارئ، عشر على المقاعد الخمسة في ثلاث طائرات منفصلة، في ساعاتٍ غير متوقعة، ووسط تبادل لإطلاق النار، وانفجارات غير مرئية. حجزوا لي ولأخي أخيراً مقعدين على طائرة واحدة إلى بارّانكيّا، لكنّنا خرجنا في الساعة الأخيرة في طائرتين مختلفتين. كان الرذاذ والضباب المتواصلان في بوغوتا منذ يوم الجمعة الماضية محملين برائحةِ بارودٍ وجثثٍ متفسخة. في الطريق من البيت إلى المطار استجوبونا عند حاجزين عسكريين متتاليين، كان جنودهما يرتعدون رعباً. انبطحوا عند الحاجز الثاني وجعلونا ننبطح أرضاً بسبب انفجار تبعه تبادل لإطلاق نيران من أسلحة ثقيلة، تبينّ أنّه تسرّب غازٍ صناعي. فهمنا ذلك، نحن بعض المسافرين، عندما قال لنا جنديّ عادي أنّ مأساته تكمن في أنّه هناك منذ ثلاثة أيّام في حراسة بلا انقطاع وبلا تموين أيضاً، لأن التموين نفد من المدينة. لم نكد نجرؤ على الكلام منذ أن أوقفونا وانتهى ذعر الجنود بأن أجهز علينا. ومع ذلك وبعد الإجراءات الشكلية بالتعرف على الهويات والأهداف ارتحنا، لأنّنا علمنا أنّ علينا أن نبقى هناك دون أيّة إجراءات أخرى حتى ينقلونا إلى الطائرة. وكان كل ما دخّنته خلال الانتظار سيجارتين من ثلاث سجائر، تصدّق بها عليّ شخص، خبّأت واحدة منها لرعب الرحلة.

وبما أنّه لم يكن يوجد هناك هواتف، فإن الإعلان عن الرحلات وتبدلات أخرى كانت تُعرف على الحواجز المختلفة بوساطة أوامر عسكرية تحملها الدراجات النارية العسكرية. نادوا عند الساعة الثامنة صباحاً مجموعةً من الركاب كي يأخذوا على الفور طائرة إلى بارّانكيّا مختلفة عن طائرتي. علمت فيما بعد أن الثلاثة الآخرين من مجموعتنا قد نقلوا مع أخي من حاجزٍ آخر. انتظاري وحيداً كان مثل علاج حمار بالنسبة لخوفي الفطري من الطيران، فعند ساعة الصعود إلى الطائرة كانت السماء متلبدة، والرعود كجرش الحجارة. ثم، ولأنّهم حملوا سلّم طائرتنا إلى طائرة أخرى اضطرّ جنديان لمساعدتي على الصعود بوساطة سلّم بنّاء. كان المطار ذاته

والساعة ذاتها التي أخذ فيها فيدِل كاسترو طائرة أخرى غادرت به إلى هافانا محملة بثيران المصارعة ـ كما حكى لي هو نفسه بعد سنوات.

من حسن أو سوء حظّي أن طائرتي كانت من نوع دي سي ـ 3 تفوح منها رائحة دهان طري وشحم حديث، دون أنوار فرديّة ولا تهوية يتمّ التحكُم بها من كابين الركاب. كانت مجهزة لنقل القوات وبدل المقاعد المنفصلة في صفوف من ثلاثة مقاعد، كما في الرحلات السياحية، هناك مقعدان طوليان من ألواح الخشب العادية، مثبّتة جيداً في الأرضية. كل ما كان معي من أمتعة هو حقيبة من الكتان مع طقمين أو ثلاثة من الثياب المتسخة، وكتب شعرية وقصاصات من الملحقات الأدبية التي تمكّن أخي لويس إنريكِهْ من إنقاذها. بقينا نحن الركاب جالسين بعضنا مقابل بعض، من غرفة القيادة وحتى ذيل الطائرة. وبدل أحزمة الأمان كان هناك حبال من السيزال المستخدمة لربط البواخر، تشبه حزامين طويلين من أحزمة الأمان الجماعية لكلّ جانب. أقسى ما في الأمر بالنسبة إليّ هو أنّني ما إن أشعلت السيجارة الوحيدة، التي احتفظت بها كي تكفيني مدّة الطيران، حتى أعلن الطيار، الذي كان يرتدي أفرولاً، من الكابين أنّهم يمنعوننا من التدخين، لأنّ صفائح بنزين الطائرة عند أقدامنا تحت أرضية الألواح الخشبية. كانت ثلاث ساعات من الطيران الذي لا ينتهي.

حين وصلنا إلى بارّانكيّا كانت قد أمطرت للتو كما لا تمطر إلاّ في نيسان، والبيوت اقتُلعت من جذورها وحملتها ومعها مرضى وحيدون يختنقون في أسرّتهم تياراتُ الماء في الشوارع، اضطررتُ للانتظار في المطار الذي تعمّه الفوضى بسبب الطوفان حتى انقطع المطر. وعلمتُ بشقّ النفس أنّ طائرة أخي ورفيقيه قد وصلت في موعدها، لكنّ الثلاثة سارعوا إلى مغادرة المحطة الأخيرة قبل بدء الرعود الأولى لأوّل وابل.

احتجتُ إلى ثلاث ساعات أخرى للوصول إلى وكالة السفر، وأضعتُ آخر باص خرج قبل موعِده إلى كارتاخِنا احتساباً

للعاصفة. لم أهتمّ، لأنّني ظننت أنّ أخي ذهب فيه، لكنني خفتُ على نفسي من فكرة أن أنام ليلة في بارّانكيّا دون نقود. أخيراً وبفضل خوسِهْ بّالِنثيا حصلت على مأوى في بيت الجميلتين إليس وليلى ألبرّاثين، وسافرتُ بعد ثلاثة أيّام إلى كارتاخِنا في باص مصلحة البريد الأعرج. كان على أخي لويس إنريكِهْ أن يبقى بانتظار وظيفة في بّارّانكيّا. لم يكن قد تبقى معي أكثر من ثمانية بيزوات، لكنّ خوسِهْ بّالِنثيا وعدني بأن يأتيني بقليلٍ منها في باص الليل. لم يكن هناك مكان فارغ ولا حتى للوقوف، لكنّ السائق قَبِلَ أن يحمل على السطح ثلاثة ركاب، جالسين على حمولتهم وأمتعهم بربع القيمة النظامية. في حالة بمثل هذه الغرابة، وتحت الشمس المباشرة، أظنّ أنّني وعيت أنّ القرن العشرين بدأ في كولومبيا في التاسع من نيسان من العام 1948.

6

في نهاية يوم من الارتجاجات القاتلة في طريق للدواب لفظت شاحنةُ وكالة البريدِ الصغيرة آخرَ أنفاسها في المكان الذي تستحقّه: حرنت في مستنقع من أشجار المانغل الاستوائية تفوح منه نتانة الأسماك المتفسّخة على بعد نصف فرسخ من كارتاخِنا دِ لاس إندياس. «من يسافر في شاحنة صغيرة لا يعلم أين يموت» تذكّرت مع تذكري لجدّي. لم ينتظر الركاب المخبولون، بعد ستّ ساعات من الشمس العارية ونتن المستنقع، إنزال السلم ليترجلوا من الشاحنة، بل سارعوا ليلقوا من جانبها بسلال الدجاج وأحمال الموز، وكلّ أشياء البيع أو الموت التي أفادتهم في الجلوس على سطح الشاحنة. قفز السائق من مقعده وأعلن بصرخة لاذعة:

- لا هِرويكا!(*)

إنّه الاسم الرمزيّ الذي تُعرف به كارتاخِنا دِ لاس إندياس، بسبب أمجاد ماضيها، ولا بدّ أنّها كانت هناك. لكنّني لم أرها لأنّني لم أكن أستطيع التنفسَ إلا بشقّ النفس داخل لباس الجوخ الأسود الذي أرتديه منذ التاسع من نيسان. ثوبيّ الآخران لاقيا مصير الآلة الكاتبة في مونتِ دِ بيداد ذاته، لكن الرواية المشرّفة التي قلتها لوالديّ هي أنّ الآلة الكاتبة وأشياء أخرى غير ذات نفع شخصي اختفت مع الثياب في دوّامة الحريق. السائق الأهوج، الذي سخر

(*) البطلة.

خلال الرحلة من مظهري، مظهرَ قاطع الطريق، كادَ ينفق من الضحك حين تابعتُ الدوران حول نفسي دون أن أجد المدينة.

ـ إنّها في إستك! ـ صرخ بي أمام الجميع ـ وحذارِ فهم يقلّدون البلهاء أوسمة.

وبالفعل كانت كارتاخِنا دِ لاس إندياس خلفي منذ أربعمئة سنة، لكن لم يكن من السهل عليّ أن أتصوَّرها على بعد نصفِ فرسخٍ من مستنقع أشجار المنغل، مختبئة خلف سور أسطوري حفظها من الأوغاد والقراصنة في سنوات عظمتها، وانتهت بالاختفاء تحت أغصان الأشجار الكبيرة المتشابكة ونباتات القنديل الصفراء. وهكذا انضممتُ إلى صخب المسافرين وجررتُ الحقيبةَ عبر أكمة مفروشة بالسرطانات الحيّة التي راحت قشورُها تُطقطق مثل المفرقعات تحت نعل الأحذية. كان من المحال عليَّ ألاّ أتذكّر الصرّة التي رمى بها رفاقي في نهر مَغدلِنا في رحلتي الأولى، أو الصندوق الجنائزي الذي جررتُهُ على طول نصف بلد باكياً من الحنق خلال سنوات المدرسة الوطنية الأولى، ورميتُ به أخيراً في هاوية من جبال الأنديز على شرف تخرّجي من الثانوية. دائماً بدا لي أنّه يوجد شيء من القدر الغريب في تلك الأحمال الزائدة غير المستحَقّة، ولم تكف سنواتي الطويلة لتكذيبها.

لم يكد يُلمَح جانبُ بعضِ قبب الكنائس والأديرة في ضباب المساء حين خرجت علينا عاصفة من الخفافيش التي راحت تطير على مستوى رؤوسنا، وحدها حكمتُها جعلتنا لا نسقط على الأرض. كانت أجنحتها تدوّي مثل عاصفة من الرعود، وتخلّف وراءها رائحة موتٍ كريهة. رميتُ، وقد فاجأني الرعبُ، الحقيبةَ وانكمشتُ على الأرض وذراعيّ فوق رأسي، إلى أن صاحت بي امرأة طاعنةٌ في السن كانت تسير بجانبي:

ـ صلِّ تسبيحة العذراء!

أي الصلاة السرّيّة للحماية من هجوم الشيطان، المكروهة من الكنيسة، والمكرّسة من قبل كبار الملحدين، حين لا تكفيهم الشتائم.

انتبهت المرأةُ إلى أنّني لا أُتقِن الصلاة، فأمسكت بحقيبتي من حزامها الثاني كي تساعدني على حملها.

- صلِّ معي - قالت لي - لكن لا تنسَ: بكثير من الإيمان.

وهكذا لقَّنتني تسبيحةَ العذراء، بيتاً فبيتاً وكرَّرتها بصوت عالٍ وورع لم أشعر به بعدها قط. اختفى جيشُ الخفافيش، رغم أنَّ تصديقي ذلك به يُكلِّفني اليومَ جهداً، من السماء قبل أن ننتهي من الصلاة. ولم يبق عندئذٍ غير هدير البحر في الجروف.

كنّا قد وصلنا إلى باب الساعة الكبير. كان هناك جسر متحرّك يصل منذ مئة عام بين المدينةِ القديمة وربضِ خِستسِماني وبين أحياء المستنقعات الفقيرة والمكتظة، لكنّهم كانوا يرفعونه من التاسعة ليلاً وحتى الفجر. فيبقى السكانُ معزولين، ليس عن بقيّةِ العالم وحسب بل وعن التاريخ. يُقال إنّ المُستَعْمِرين الأسبان أشادوا هذا الجسر خوفاً من أن يتسرّب إليهم أبناء ضواحي البؤس في منتصف الليل ليحزّوا رقابهم وهم نيام. ومع ذلك لا بدّ أن بعضاً من العناية الإلهية بقيت للمدينة، فقد كفاني أن أخطو خطوةً واحدة داخل السور كي أراها بكلِّ عظمتها تحت نور السادسة مساءً الخبازي، ولم أستطع أن أكبت شعوري بأنّني ولدتُ من جديد.

لم يكن الأمر يحتمل أقل من ذلك. كنتُ قد غادرت في بداية الأسبوع بوغوتا وهي تتخبّط في مستنقع الدماء والوحل، وما يزال فيها تلال من جثثٍ لا أصحاب لها، مهجورة بين الأنقاض التي يتصاعد منها الدخان. فجأة صار العالمُ آخر في كارتاخِنا. لا أثر فيها للحرب التي راحت تمحق البلد، وكان يُكلّفني جهداً الاعتقادُ بأنّ تلك الوحدة التي لا ألم فيها، وذلك البحر الذي لا ينقطع، وذلك الإحساس بالوصول، تحدثُ لي في الحياة ذاتها بعد أقلّ من أسبوع.

من كثرة ما سمعتهم يتحدّثون عنها منذ وُلِدتُ عرفتُ الساحةَ الصغيرة التي تتوقّف فيها عرباتُ الخيل وعرباتُ الشحن التي تجرّها الحمير، وفي العمق رواق الأقواس الذي تُصبِحُ فيه التجارة الشعبية أكثر ازدحاماً وجلبةً. رغم أنّه لم يكن معترف به في الضمير

الرسمي، إلاّ أنه كان يُمثِّلُ قلبَ المدينة الفعال منذ بداياتها. في المرحلة الاستعمارية سُمِّيَت «بوّابة التجّار». من هناك كانت تُحرَّك الخيوط الخفيّة لتجارة العبيد وتُحَضِّرُ النفوسَ ضدَّ الهيمنة الأسبانية. بعدها سُمِّيَت «بوّابة الكتبة»، بسبب الخطّاطين العنيدين بصداراتهم وأنصاف أكمامهم المضافة، الذين يكتبون رسائل الحبّ وكلَّ أنواع الوثائق للأميين الفقراء. كثيرون منهم كانوا باعة كتب من تحت الطاولة، وخاصّة الأعمال المدانة من الكنيسة، ويُظنُّ أنّهم كانوا أبواق مؤامرة العامة المحليين (الكريوليين) ضدّ الأسبان. في بداية القرن العشرين عادة ما كان أبي يُخفِّف من اندفاعاته الشعرية بفنّ كتابة رسائل الحبّ في تلك البوّابة. بالمناسبة لم ينتعش لا بهذا ولا بذاك، لأنّ بعض الزبائن الفطنين - أو المعوزين فعلاً - لم يكونوا يطلبون منه حسنة أن يكتب لهم الرسالةَ وحسب، بل وأن يُعطيهم ريالات الطابع الخمسة.

كانت قبل عدّة سنوات تُسمّى «بوّابة الحلوى» بخيشها المتعفن وشحاذيها الذين كانوا يأتون ليأكلوا فائض السوق، وصياح عرّافي الهنود الذين يقبضون غالياً كيلا يعلنوا للزبائن اليومَ والساعةَ التي سيموتون فيهما. كانت زوارق الكاريبي تتأخّر في الميناء من أجل شراء الحلوى بأسمائها التي ابتدعها النساء اللواتي كنّ يصنعنها ويزنها شعرياً الدلالون: حلوى الجود للقرود، حلوى الشواف للطاف، حلوى التين للمجانين، حلوى الطلا لمانولا(*). ففي الحسن والسيّئ بقيت البوابة مركز المدينة الحيوي الذي تُناقش فيه أمورُ الدولة من وراء ظهر الحكومة، والمكانَ الوحيد في العالم الذي كانت تَعْرَفُ فيه بائعات المقالي من سيكون الحاكم المقبل، قبل أن يخطر ذلك ببال رئيس الجمهورية في بوغوتا.

شققتُ طريقي دفعاً، مفتوناً في اللحظة بالجلبة، جارّاً حقيبتي في زحام السادسةِ مساءً. عجوز رثّ الثياب ليس فيه غير العظام راح ينظر إليّ، دون أن يرفّ له جفن من فوق منصة ماسحي الأحذية،

(*) حاولنا أن تخرج بحيث يمكن تصوّر كيف كانوا ينادون بها للبيع.

بعيني باشقٍ جامدتين. جمّدني. وما إن رأى أنّني شاهدتُهُ حتى عرض نفسه ليحمل الحقيبة. شكرته، حتى وضّح بلغته الأم:

- إنها ثلاثون جدياً.

مُحال. ثلاثون سنتيماً أجرة حمل حقيبة تعتبر قضمة كبيرة بالنسبة للبيزوات الأربعة التي تبقّت معي ريثما أتلقى الدعم من والديَّ في الأسبوع التالي.

- هذا يُساوي الحقيبة بكلّ ما فيها - قلتُ له.

ثمَّ أنَّ النزل الذي لا بدّ كانت فيه جماعة بوغوتا لم يكن بعيداً جدّاً. قبل العجوز بثلاثة جِداء. علّق الحذاء الخشبي الذي كان ينتعله، وحمل الحقيبة على كتفه بقوّة لا تصدّق بالنسبة لعظامه، وجرى حافياً مثل رياضيّ في وعر بيوتٍ كولونيالية الطراز متهدّمة بسبب قرون من الهجران. كان قلبي يقفز من فمي أنا ابن العشرين سنة، محاولاً ألا يغيب العجوز الدميمُ الرياضي، الذي لا يمكن أن يبقى ساعات كثيرة على قيد الحياة، عن ناظري. دخل بعد خمس قصبات في باب الفندق الكبير وصعد الدرجَ درجتين فدرجتين. وبِنَفَسٍ لم يتبدّل وضع الحقيبةَ على الأرض ومدّ كفَّهُ: ثلاثون جدياً.

ذكّرْتُهُ بأنّني سبق ودفعت له، لكنّه أصرَّ على أن سنتيمات البوابة الثلاثة لم تكن تتضمّن الدرج. صاحبة الفندق التي خرجت لاستقبالنا أعطته الحق: صعود الدرج يُدفع على حدة، وتنبّأت لي نبوءة صالحة لمدى الحياة:

- سترى أنّ كلّ شيء في كارتاخِنا مختلف.

كما اضطررتُ لأن أواجِه الخبر السيّئ بأنّ لا أحد من رفاقي في نُزل بوغوتا قد وصل، مع أنّهم أكدوا الحجز لأربعة بما فيهم أنا. البرنامج الذي اتفقنا عليه معهم هو أن نلتقي في الفندق قبل السادسة من مساءِ ذلك اليوم. وقد أخّرني تبديل الباص النظامي بباصِ وكالةِ البريد الاعتباطي ثلاث ساعاتٍ، لكنّني وصلت إلى هناك أدقَّ موعداً من الجميع دون أن أستطيع فعل أيّ شيء بأربعة بيزوات إلا ثلاثين سنتيماً. كانت صاحبة الفندق أمّاً ساحرة، لكنّها عبدة

لقوانينها ذاتها، كما ستؤكّد خلال الشهرين اللذين عشتهما في فندقها. وهكذا لم تقبل أن تُسجّلني ما لم أدفع أجرةَ شهر مقدَّماً: ثمانية عشر بِيزو عن ثلاث وجبات في غرفة فيها ستّ أشخاص.

لم أتوقَّع وصولَ مساعدة والديَّ قبل أسبوع، وهذا يعني أنّ حقيبتي لن تجتازَ بسطة الدرج ما لم يصل الأصدقاء الذين يمكن أن يُساعِدوني. جلستُ أنتظرُ في كرسيّ أسقفٍ بأزهار كبيرة مرسومة هبط إليّ كما لو أنه من السماء بعد يوم كامل تحت الشمس في شاحنةِ مأساتي. الحقيقة أنّه ما من أحد كان واثِقاً من أيِّ شيء في تلك الأيّام. أن نتفق على أن نلتقي هناك، في تاريخ وساعة دقيقين، لم يكن له معنى في الواقع، لأنّنا لم نكن نجرؤ على أن نقول ولا حتى لأنفسنا أن نصف البلد كان في حرب دامية، مُغطّى عليها في الأرياف منذ عدّة سنوات، ومفتوحة وقاتلة في المدن منذ أسبوع.

بعد ثماني ساعات من الحبس في فندق كارتاخِنا، لم أفهم ما يمكن أن يكون قد حدث لخوسِهْ بّالِنثيا وأصدقائه. بعد ساعة أخرى من الانتظار دون أخبار رحت أتوه في الشوارع المقفرة. تُعتِم الدنيا في نيسان باكراً. كانت الأضواء العامّة المشتعلة فقيرةً، حيث بدت نجوماً بين الأشجار. كفتني جولة أولى لربع ساعة، على غير هدى في منعرجات القطاع الكواونيالي المبلط، لأكتشف بارتياح كبير في صدري أنَّ تلك المدينة الغريبة لا علاقة لها بالمستحاثّة المعلَّبة التي كانوا يصفونها لنا في المدرسة.

ما من نفس واحدة في الشوارع. فالحشود التي كانت تصل من الضواحي مع الفجر لتعمل أو تبيع كانت تعود جماعات إلى أحيائها في الخامسة مساءً، بينما يحبس سكّان المنطقة المسوّرة أنفسهم في بيوتهم ليتناولوا العشاء، ويلعبوا الدومينو حتى منتصف الليل. لم تكن قد درجت عادة امتلاك السيارات الخاصّة بعد، والقلة القليلة العاملة منها تبقى خارج السور. حتى أكثر الموظفين رفعة كانوا ما يزالون يصلون بالباصات المركّبة محلياً إلى ساحة السيارات، ومن هناك يشقون طريقهم باتجاه مكاتبهم، أو يقفزون فوق بسطات الخرداوات المعروضة على الأرصفة العامّة. أحد أكثر حكام تلك

السنوات المأساوية تأنّقاً كان يتفاخر، بأنّه يصل إلى ساحة السيارات في الباصات ذاتها التي ذهب فيها إلى المدرسة.

التخفيف من السيارات كان إجبارياً لأنّها كانت نقيض الواقع التاريخي: لم تكن تتسع لها شوارعُ المدينة الضيقة والمتعرّجة، حيث يُسمع في الليل وقع حوافر الخيول الضامرة غير المحدوّة؛ وتُسمع في أيّام الحرّ الشديد، حين تُفتَحُ النوافذُ كي تدخل منها رطوبة الحدائق، رشقات أكثر الأحاديث حميمية، بوقعٍ شبحيٍّ. كان العجائز الغافون يسمعون الخطوات الفرورة في الشوارع الحجرية، فيولونها انتباههم دون أن يفتحوا عيونهم حتى يعرفوا أصحابها، ويقولوا منزعجين: «هو ذا خوسِهْ أنطونيو يمضي إلى حيث تشابِلا». في الحقيقة الشيء الوحيد الذي كان يُخرجُ المؤرِّقين عن صوابهم، هو صوت ضربات حجارة الدومينو الجافّة على طاولة، التي كانت تُسمع في كلّ أرجاء المنطقة المسوّرة.

كانت ليلة تاريخية بالنسبة إليَّ. فأنا لم أكد أعرف في الواقع خيالات كتب مدرسة الكلاميين، التي هزمتها الحياة. أثّر فيّ حتى البكاء أن تكون قصور المركيزين القديمة هي نفسها التي أمام عينيَّ مُخلَّعة الأبواب، ينامُ المتسولون في أروقتها. رأيت الكاتِدرائية دون نواقيسها التي أخذها القرصان فرانسيس دراك ليصنع منها مدافع. النواقيس القليلة الناجية عُزِّمت بعد أن حكم عليها سحرة الأسقفِ بالحرق نظراً لصوتها المشؤوم في استحضار الشيطان. رأيتُ الأشجار الذابلة وتماثيل النبلاء التي لا تبدو منحوتات من المرمر، بل أمواتاً من لحم ودم. فهي لم تكن في كارتاخِنا محميةً من عوامل الزمن بل على العكس: فالزمن محفوظ للأشياء التي ما تزال في عمرها الأصلي بينما القرون تشيخ. وهكذا كان أن تكشّفت لي المدينةُ ليلةَ وصولي ذاتها بحياتها نفسها في كلّ خطوةٍ، ليس كمستحاثة من حجر المؤرخين الكرتوني، بل كمدينة من لحم ودم ما عادت ناهضة بأمجادها العسكرية بل بجلالِ أنقاضها.

بهذا النَفَس الجديد، عدتُ إلى الفندق، حين أعلنت ساعة البرج العاشرة. أخبرني الحارسُ شبه النائم أنّ أحداً من أصدقائي لم

يصل، لكنّ حقيبتي بالصون والأمان في مستودع الفندق. عندها فقط انتبهت إلى أنّني لم آكل ولم أشرب منذ فطور بارّانكيّا السيّئ. كانت ساقاي تخونانني من الجوع، لكنّني اكتفيتُ بأن تقبل صاحبة الفندق الإبقاء على حقيبتي عندها وتسمح لي بالنوم في الفندق تلك الليلة الوحيدة فقط، حتى ولو في كرسيّ الصالة. ضحك الحارس من سذاجتي.

ـ لا تكن لوطياً! ـ قال لي بكاريبية فجّة ـ فهذه السيّدة رغم كلّ ما تملكه من مال تنام من السابعة وتستيقظ في الحادية عشرة من اليوم التالي.

بدت لي حجّة مشروعة، إلى حدّ أنّني جلستُ على مقعد في حديقة بوليفار العامة على الطرف الآخر من الشارع، بانتظار وصول الأصدقاء، دون أن أزعج أحداً، حيث لا تكاد الأشجارُ تُرى تحت أضواء الشارع، لأنّ مصابيح الحديقة لا تضاء إلا أيّام الآحاد والأعياد الكبيرة. كانت المقاعد تحمل آثار كتابات كثيرة كتبها وأعادَ كتابتَها شعراء بذيئون. كان يُسمَع خلف واجهة قصر لا إنكيسيثيون(*) التي تعود إلى مرحلة نوّاب الملك(**)، والمنحوتة من الحجر البكر، وبوّابتِهِ الأسقفية، أنينُ عصفور مريض يُمزّق القلب لا يمكن أن يكون من هذا العالم. داهمتني الرغبة بالتدخين والقراءة في آن معاً، الرذيلتان اللتان امتزجتا الواحدة بالأخرى في شبابي بسلاطة وعناد. كانت «الطباق» روايةُ ألدوس هكسلي، التي منعني الخوف الحسّيّ من الاستمرار بقراءتها في الطائرة، ترقد تحت القفل والمفتاح في حقيبتي. وهكذا أشعلتُ آخرَ سيجارة بشعور غريب من الراحة والرعب، وأطفأتها من منتصفها كاحتياطيّ لليلةٍ بلا صباح.

في الوقت الذي كنتُ فيه مستعدّاً نفسياً للنوم على المقعد الذي جلستُ عليه، بدا لي فجأة أنّ هناك شيئاً متخفياً بين أكثر ظلال

(*) التفتيش.

(**) حكومة المناطق أو المستعمرات باسم الملك، وكانت موجودة في نابولي وكاتالونيا وأراغون والبرتغال، وأدركت سلطات واسعة جدّاً في مناطق العالم الجديد (أمريكا) التي سيطر عليها الأسبان.

الأشجار كثافة. كان ذلك تمثال سيمون بوليفار على الجواد.لا أحد غير الجنرال سيمون خوسِهْ أنطونيو دِ لا سانتيسيما ترينيداد بوليفار إي بّالاثيوس، ببزّته البرّاقة ورأسه الذي لإمبراطور، المليء بزَرَق طيور الخطّاف، بطلي منذ أمرني جدّي بذلك.

كان ما يزال هو بطلي الذي لا يُنسى، رغم تناقضاته المستفحلة أو ربّما بسببها. والتي لا تكادُ تُقارَنُ بعدَ كلّ حساب بتلك التي كَسب بها جدّي رتبةَ الكولونيل وغامر بحياته مرّاتٍ كثيرة لأجلها في حرب خاضها الليبراليون ضدّ حزب المحافظين ذاته الذي أسّسه ودعمه بوليفار. كنتُ في هذه الحالة من الضبابية حين عاد بي صوتٌ جازم من وراء ظهري إلى أرض الواقع:

- ارفع يديك!

رفعت يديّ مرتاحاً، واثقاً أخيراً من أنّهم أصدقائي، إلا أنّني وجدتُ نفسي أمام عنصرين من الشرطة، خشنين وأقرب إلى لابسي الأسمال يصوّبان عليّ بندقيَّتيهما الجديدتين. أرادا أن يعرفا لماذا اخترقت قانون منع التجول الذي بدأ منذ ساعتين. لم أكن أعرف حتى أنّهم فرضوه يوم الأحد السابق، كما أعلماني، كما لم أسمع صوتَ النفير أو النواقيس، ولا أيّ شيء يسمح لي بأن أفهم لماذا لا يوجد أحد في الشوارع. بدا الشرطيان كسولين أكثر مما هما متفهّمان حين رأيا أوراقي الثبوتية، بينما رحتُ أوضّح لهما السبب الذي أنا لأجله هناك. أعاداها إليّ دون أن ينظرا فيها. سألاني كم من المال معي وأجبتهما أنّه لا يصل إلى أربعة بيزوات. عندئذ طلب منّي أكثرهما انفتاحاً سيجارةً فأريته العقبَ المطفأَ الذي فكّرتُ بتدخينه قبل أن أنام. انتزعه مني ودخّنه حتى لامست النارُ أظافره. بعد برهة أخذاني من ذراعي على طول الشارع رغبةً بالتدخين أكثر مما عملاً بالقانون، بحثاً عن محلّ مفتوح لشراء بضع سجائر بسنتيم. صفا الليل وبرد تحت ضوء القمرِ البدرِ، فبدا الصمتُ جوهراً لا مرئياً يمكن استنشاقه كالهواء. عندئذٍ فهمت ما حكاه لنا أبي مرّاتٍ كثيرةً دون أن نُصدِّقَه، من أنّه كان يجرّب الكمان في صمت المقبرة، كي يشعر أن فالساتِ حبّه، يمكن أن تُسمع في كلّ أرجاء الكاريبي.

خرجنا مُتعبين من البحث عن بضع سجائر من منطقة السور إلى رصيف الميناء الذي له حياته الخاصة خلف السوق العام، حيث ترسو سفن كوراثاو وأوروبا وبلدانٍ أنتيليّة أخرى. كانت منطقة سهر لأكثر الناس مرحاً في المدينة، الذين كان لهم حقّ الحصول على استثناءٍ من منع التجوّل بسبب طبيعة وظائفهم. كانوا يأكلون حتى الفجر في مطعم شعبي مكشوف بسعر رخيص ورفقة ممتازة. إلى هناك كان ينتهي ليس الموظفون الليليون وحسب، بل وكلّ من يريد أن يأكُل حين لا يعود هناك مكان آخر. لم يكن للمحل اسم رسميّ وكان معروفاً بأقلّ الأسماء انسجاماً معه: لا كوبا(*).

وصل الشرطيان كما لو إلى بيتهما. كان واضحاً أنّ الزبائن الجالسين إلى الطاولة يعرفون بعضهم بعضاً منذ البداية، ويشعرون بالسعادة لوجودهم سويةً. كان من المحال الكشف عن الكنى، فالجميع يتعاملون بألقاب المدرسة، ويتكلّمون صارخين في وقت واحدٍ دون أن يفهموا أو ينظروا من هو المتكلم. كانوا في ثياب العمل، باستثناء رجلٍ ستينيّ وسيم برأسٍ ثلجيَّة وبزة سموكينغ من زمن آخر بجانب امرأة ناضجة ما تزالُ في غاية الجمال ترتدي فستاناً بخرز، استهلكه الاستعمال، وفائض من الجواهر الأصلية. حضورها يمكن أن يكون معلومة حية عن ظرفها، لأن النساء اللواتي يسمح لهنّ رجالهنّ بالظهور في مثل تلك الأماكن سيّئة السمعة نادرات. كان من الممكن أن أفكّر أنّهما سائحان لولا مرحهما والنبرة المحلية، وألفتهما مع الجميع. عرفت فيما بعد أنّهما لم يكونا أيّاً مما بدا عليهما، بل زوجين كارتاخِنيين ضالين، يرتديان لباس المناسبات بأية ذريعة للعشاء خارج البيت، وقد وجدا في تلك الليلة المضيفين نائمين والمطاعم مغلقة بسبب منع التجولّ.

هما من دعوانا للعشاء، الآخرون فتحوا لنا طريقاً في الحانة وجلسنا ثلاثتنا مضغوطين وخائفين قليلاً. أيضاً عاملا الشرطيين بألفة النادلين. واحد منهما كان جدّياً وطليقا وله انعكاسات طفل

(*) الكهف.

جيّد على الطاولة. الآخر بدا مسكيناً إلاّ في الأكل والتدخين. طلبتُ خوفاً أكثر مما اعتدالاً صحوناً أقل منهما، وحين انتبهت إلى أنّني سأبقى نصف جائع، كان الآخران قد انتهيا.

كان المالك والخادم الوحيد في لا كوِبا دُعى خوسِهْ دولورِسْ. زنجيّ، يكاد يكون مراهقاً بجمالٍ مزعج، وكان ملفعاً بملاءة مسلم ناصعة البياض، وقرنفلة حمراء دائمة خلف أذنه. لكن أكثر ما بدا عليه هو ذكاؤه المفرِط الذي يعرف كيف يستخدمه دون تحفّظ لإسعاد نفسه وإسعاد الآخرين. كان واضحاً أنّه لا ينقصه إلاّ القليل كي يكون امرأة، وكانت له سمعة مؤكّدة بأنّه لا ينام إلاّ مع «زوجه». لا أحد مازحه قط حول حالته لأنّه كان يملك ملاحة وسرعة في الردّ، فلا يترك معروفاً لا يشكر عليه، ولا إهانة لا يقبض ثمنها. كان يقوم بكلّ شيء وحده، بدءاً من أنّه يصيب في معرفة ما يحبّ كلّ زبون وحتى قلي شرائح الموز الأخضر بيدٍ وتسوية الحسابات باليد الأخرى، دون أيّة مساعدة من أحد غير مساعدة نادرة من طفلٍ في السادسة من عمره، يدعوه ماما. شعرتُ حين ودعناه بالتأثر لهذه اللقية، لكنّني لم أتخيّل أن ذلك المحل من الساهرين العاقين سيكون واحداً من الأماكن التي لا تُنسى في حياتي.

رافقت الشرطيين بعد تناول العشاء ليكملا جولتهما المتأخّرة. كان القمر صحناً من ذهب في السماء والنسيم يهبّ جارفاً معه آثار موسيقى وصراخ سهرات سكر بعيدة. لكنّ الشرطيين كانا يعرفان أنّه ما أحد ينام باكراً في أحياء الفقراء بسبب منع التجول، فهم يقيمون كلّ يوم حفلاتٍ في بيت مختلف دون أن يخرجوا إلى الشارع حتى الفجر.

حين دقّت الساعة معلنة الثانية عشرة قرعنا باب الفندق، واثقاً بأن الأصدقاء وصلوا، لكن الحارس أرسلنا هذه المرّة إلى الجحيم دون مجاملة لأنّنا أيقظناه دون سبب. انتبه الشرطيان إلى أنّه ليس عندي مكان أنام فيه فقرّرا حملي إلى ثكنتهما. بدت لي مزحة جسورة حتى أنّني فقدت روح الدعابة، ورميتهما بعبارة وقحة.

استوقفني أحد الشرطيين مفاجَأ من ردّ فعلي الصبيانية عند حدّي، واضعاً فوّهة بندقيته على معدتي.

ـ لا تكن وغداً ـ قال لي مغشيّاً عليه من الضحك ـ. تذكّر أنَّك ما تزال سجيناً لخرقك قانون منع التجول.

وهكذا نمتُ ليلتي الأولى السعيدة في كارتاخِنا في زنزانة لستة أشخاص على حصير تخمّرت بالعرق الغريب.

كان الوصول إلى روحِ المدينة أسهل بكثير من التغلب على اليوم الأوّل. سوَّيْتُ في أقلّ من أسبوعين علاقتي بوالديّ، اللذين وافقا دون تحفّظ على قراري بالعيش في مدينة لا حرب فيها. صاحبة الفندق، النادمة على حكمها عليّ بالنوم ليلةً في السجن، رتّبت وضعي بين عشرين طالباً في مستودع بني حديثاً على سطح بيتها ذي الطراز الكولونيالي الجميل. لم يكن هناك من داع للشكوى من شيء، فقد كان نسخة كاريبية عن مهجع المدرسة الوطنية ويكلف أقل من نُزل بوغوتا مع كلّ الخدمات.

حُلّ موضوع الدخول في كلّية الحقوق خلال ساعة من فحص القبول أمام السكرتير إغناثيو بِلِثْ مارتينيث ومعلّم اقتصادٍ سياسي، لم أستطع العثور على اسمه في ذكرياتي. تمّ ذلك، كما كانت العادة، بحضور طلاب السنة الثانية كلهم. لفت انتباهي، من البداية، وضوح رؤية المعلِّمَين ودقّة لغتهما، في منطقة مشهورة داخلَ البلد بفوضى كلام أهلها. جاء الموضوع الأوّل بالقرعة عن حرب انفصال الولايات المتحدة، التي تكاد معرفتي بها تكون عدماً. كان محزناً أنّني لم أكن قد قرأتُ شيئاً للروائيين الأمريكيين الشماليين الجدد، الذين لم يكونوا يصلون إلينا تقريباً، لكنَّ الحظّ حالفني بأن بدأ الدكتور بِلِثْ مارتينِثْ بإشارةٍ عرضية إلى كوخ العم توم، التي كنتُ أعرفها جيّداً منذ المرحلة الثانوية. التقطتُها بسرعة البرق. يبدو أنّ المعلِّمَين عانيا من صدمة حنين، فالدقائق الستون المخصصة للامتحان مرّت كاملة في التحليل العاطفي لعار نظام الرقّ في جنوب الولايات المتحدة، ولم نغادره. وهكذا ما توقّعت أنه سيكون روليت

روسية، جاءَ حديثاً مسلياً، استحقّ تقديراً جيّداً وبعض التصفيق الحميم.

هكذا دخلتُ الجامعة لإنهاء سنة الحقوق الثانية، بشرط لم أنفّذه قط، وهو أن أقدّم امتحانات إعادة تأهيل بمادة أو مادَّتين، كنتُ ما أزال أحملهما من السنة الأولى في بوغوتا. تحمّس بعض زملائي لطريقتي في ترويض المواضيع، لأنّ بينهم بعض المناصرين لحرّية الإبداع في جامعة عطلّتها الصرامة الأكاديمية. كان هذا حلمي الفردي منذ المدرسة الوطنية، ليس نتيجة عدم رضى مجانيّ، بل نتيجة أملٍ وحيدٍ بالنجاح في الامتحانات دون دراسة. ومع ذلك كان المنادون باستقلالية الرأي في قاعات الدرس لا يستطيعون إلاّ أن يذعنوا للقدرية و يصعدوا إلى سقالة إعدام الامتحانات حاملين معهم مجلدات النصوص الاستعمارية القديمة، مُستظهَرَةً. من حسن الحظّ أنّهم كانوا في الحياة الواقعية مُعلِّمين في فنّ الحفاظ على حصة الرقص يوم الجمعة حيّةً، رغم مخاطر القمع الذي كان يزداد وقاحةً يوماً بعد يوم في ظلّ منع التجول. استمرّت حفلات الرقص بتشجيع من سلطات الأمن العام طيلة فترة العمل بقانون منع التجوّل، وحين رُفِع انبعثت من رمادها بحيويّة أكبر من السابق. وخاصّة في توريثِسْ، خِستِماني أو جلد لا بّوبّا، الأحياء الأكثر انهماكاً في اللهو في تلك السنوات الكئيبة. كان يكفي أن يُطلَّ المرءُ برأسه من النافِذة كي يختار الحفلة التي تُعجبه أكثر، فبخمسين سنتيماً كنّا نرقص حتى الفجر على أكثر ألحان الكاريبي حرارة، التي ترفع من درجتها مكبرات الصوت. المرافقات المدعوات مجاملة هنّ أنفسهنّ اللواتي كنّا نراهنّ خلال الأسبوع يخرجن من مدارسهنّ، مع فارق أنّهنَّ كنَّ يرتدين لباس قدّاس الأحد الموحّد، ويرقصن كنساء حياةٍ ساذجات تحت بصر العمّات المتيقظات والأمهات المتحررات. وذات ليلة من ليالي الصيد الثمين هذه، بينما كنتُ في خِستِماني، الذي كان في المرحلة الاستعمارية ربض العبيد، عرفتُ ربتةً قدسية، على ظهري وجلجلةَ صوت:

ـ آه، يا لص!

كان هذا مانوِل ثابّاتا أوليبِيّا، قاطن حيّ لا مالا كريانثا(*) شديدَ البأس، حيث تعيشُ أسرةُ أجدادِ أجدادِه الأفريقيين. كنّا قد التقينا في بوغوتا، وسط حمى التاسع من نيسان، ودهشتنا الكبرى أنّنا التقينا حيّين في كارتاخِنا. كان مانوِل بالإضافة إلى أنّه طبيبٌ مُحسن، روائياً وناشطاً سياسيّاً، ومحرّكاً للموسيقى الكاريبية، لكنّ نزعته الغالبة هي حلّ مشاكل العالم كلّه. ما كدنا نتبادل تجارب الجمعة العمياء وخططنا للمستقبل حتى عرض عليّ أن أجرِّب حظّي في الصحافة. كان الزعيم الليبراليُّ دومينغو لوبِّثْ إسكاورياثا قد أسَّس قبلَ شهر صحيفة «إلْ أونيفِرسال»، التي رأس تحريرها كلِمِنْتِ مانوِل ثابالا. كنتُ قد سمعتهم يتحدّثون عنه ليس كصحفيٍّ، بل كموسوعيّ بكلِّ أنواع الموسيقى وكشيوعي كامن. أصرَّ ثابّاتا أولِيبِيّا على أن نذهب لمقابلته، فهو يعلم أنّه يبحث عن أناس جددٍ ليحرّض على صحافة خلاّقة في وجه الصحافة الروتينية والمستكينة التي تعمّ البلدَ، خاصّة كارتاخِنا، أكثر المدن إذ ذاك تخلفاً.

كان واضحاً بالنسبة إلي أنّ الصحافة ليست مهنتي. كنتُ أريدُ أن أصبح كاتباً مختلفاً، لكنّني أحاول ذلك مقلِّداً آخرين لا علاقة لهم بي. أي أنّني كنتُ إذ ذاك في مرحلة تَفَكّر، وأشعر بنفسي في زقاق مسدود، بعد قصصي الثلاثة التي نُشِرت في بوغوتا، ولاقت مديحاً عظيماً من قبل إدواردو ثالاميا ونقادٍ آخرين وأصدقاء جيّدين وسيِّئين. أصرّ ثابّاتا أوليبِيّا، مواجهاً حججي، على أنّ الصحافة والأدب سينتهيان في المدى القصير إلى أن يُصبِحا شيئاً واحداً، وأنّ علاقةً ما بـ «إلْ أونيفِرسال» يمكن أن توَمّن لي ثلاثة مصائر في آن معاً: تحلّ مشكلتي المعيشية بطريقة كريمة ومفيدة، تضعني في جوٍّ مهنيّ هو بحدٍّ ذاته مهنة مهمّة، وتوفر لي العمل مع مانوِل ثابالا، أفضل معلِّم صحافة يمكن تصوُّره. استطاع انكماشُ الخجل الذي سبّبه لي ذلك التفكير البسيط جدّاً أن يُخلِّصني من كارثة. لكنّ ثابّاتا أوليبِيّا لم يكن يعرف كيف يعيش بعد فشله، وأجلني إلى الساعة

(*) التربية السيئة.

الخامسة من اليوم التالي في الرقم 381 من شارع سان خوان دِ ديوس، مقرّ الصحيفة.

جاء نومي في تلك الليلة متقطِّعاً. في اليوم التالي سألتُ صاحبة الفندق، ساعة الإفطار، أين يقع شارع سان خوان دِ ديوس فدلتني عليه بإصبعها من النافذة.

ـ هناك بالضبط ـ قالت لي ـ على بعد قصبتين من هنا.

هناك كان مكتب الصحيفة مقابل الجدار الحجري الذهبيّ لكنيسة سان بِدرو كابِرْ، أوّل قديس أمريكي، الذي يُعرض جسده السليم منذ أكثر من مئة عام تحت المذبح الأكبر. إنّه بناء قديم من الطراز الكولونيالي، المطرّز بالرقع الجمهورية، وبابين كبيرين وبعض النوافذ التي يُشاهَدُ من خلالها كلّ ما كانت تُشكِّله الصحيفة. لكنّ رعبي الحقيقيّ كان خلف درابزين من الخشب غير المصقول على بعد ثلاثة أمتار من النافذة: رجل ناضج ووحيد يرتدي لباساً من القطن الخام الأبيض وسترة وربطة عنق، له جلد هنديّ أحمر مشدود وشعر أسود وقاس، يكتب بقلم رصاص على مكتب قديم عليه رزم من الأوراق المتأخرة. عدت ومررت بالاتجاه المعاكس بذهول خانق، ثم مررت مرّتين أخريين وفي المرّة الرابعة، كما في الأولى، لم ينتبي أدنى شك بأنّ الرجل هو كلِمِنْتِ مانوِل ثابالا، وهو ينطبق تماماً على الذي كنتُ قد تصوّرتُه، لكنّه أكثر رهبة. اتخذتُ مذعوراً قراراً بسيطاً، هو أن لا أذهب، في ذلك المساء، إلى موعدي مع رجل كانت تكفي رؤيتي له من النافذة كي أكتشف أنّه يعرف أكثر من اللازم عن الحياة وأمورها. عدتُ إلى الفندق وأهديتُ نفسي يوماً آخر من أيّامي التقليدية دون ندم، مستلقياً على ظهري في السرير ومعي «مزيِّفو النقود» لأندريه جيد، وأدخّن دون انقطاع. في الخامسة مساء اهتزّ باب الغرفة بضربة كفّ جافّة كطلقة بندقية.

ـ هيّا، يا وغد! ـ صرخ بي ثابّاتا أوليبِيّا من المدخل ـ فثابالا، الذي ما من أحد في هذا البلد يستطيع أن يسمحَ لنفسه بتركه معلّقاً، بانتظارك.

جاءت البدايةُ أصعب مما كان باستطاعتي أن أتخيّله في كابوس. استقبلني ثابالا وهو لا يدري ماذا يفعل، يدخّن دون توقّف، وباضطراب يزيدُ الحَرُّ من حدّته. أرانا كلَّ شيء. كانت الإدارة والوكالة في جانب؛ وفي جانب آخر قاعة التحرير والورشة مع ثلاثة مكاتب فارغة في تلك الساعة المبكرة، وفي العمق مطبعة رحوية نجت من الفتنة، وآلتا التنضيدِ الوحيدتين.

مفاجأتي الكبرى هي أنّ ثابالا قرأ قصصي الثلاث، وبدت له الزاوية التي كتبها ثالاميا عادلة.

ـ بالنسبة إليَّ لا ـ قلتُ له ـ القصص لا تُعجبني. كتبتُها بدوافع يشوبها قليل من اللاوعي، ثم وبعد أن قرأتها مطبوعة لم أعرف من أين أتابع.

ابتلع ثابالا الدخانَ بعمق، وقال لِ ثابّاتا أوليبًا.

ـ علامة جيّدة.

أمسك مانوِل بالفرصة بسرعة البرق، وقال له إنّني قد أكون مفيداً في الصحيفة في أوقاتِ فراغي الجامعية. قال ثابالا أنّه فكّر بالشيء ذاته حين طلب منه مانوِلْ موعداً لي. قدّمني للمدير، الدكتور لوبِّثْ إسكاورياثا، على أنّني المتعاون الممكن، الذي كلّمه عنه الليلةَ الفائتة.

ـ سيكون شيئاً رائعاً ـ قال المدير بابتسامته الخالدة، ابتسامة الفارس على الطريقة القديمة.

لم نتفق على شيء، لكنّ المعلّم ثابالا طلب منّي أن أعودَ في اليوم التالي كي أتعرَّف على هِكتور روخاس هِراثو، أحد الشعراء والرسامين الجيّدين وكاتب العمود الرائع. لم أقل له، بسبب خجل يبدو لي اليوم غير مبرّر، أنّه كان أستاذي بالرسم في مدرسة سان خوسِهْ. حين خرجتُ من هناك قفز مانوِل فرحاً في ساحة الجمارك، أمام واجهة سان بِدرو كلابِر العظيمة وصاح ببهجة مبكرة:

ـ ها قد رأيتَ، يا نمر، لقد تمّت العملية!

أجبته بعناق ودّي كيلا أُصيبه بالإحباط، لكنّني كنتُ في شكوك جدّية حول مستقبلي. وعندئذٍ سألني مانوِل كيف بدا لي ثابالا؛ وأجبته بالحقيقة. بدا لي صيّاد أرواح. ربّما كان هذا عاملاً حاسماً في المجموعات الشبابية التي تتغذّى من عقله وحذره. ختمتُ قولي، دون شكّ بتقدير مزيَّفٍ من عجوز مبكّر، أنّ من الممكن أن تكون هذه الطريقة في الحياة هي التي منعته من أن يلعب دوراً حاسماً في حياة البلد السياسية.

هتف لي مانوِل ليلاً مغشياً عليه من الضحك من حديث جرى بينه وبين ثابالا. كان هذا قد كلّمه عنّي بحماس كبير، وكرّر ثقته بأنّني سأكون مكسباً مهمّاً لصفحة الرأي، وأنّ المدير يرى الشيء ذاته. لكنّ السبب الحقيقيّ لهاتفه إخباري بأنّ الشيء الوحيدَ الذي يُقلِقُ المعلّم ثابالا هو أنّه يمكن لخجلي المرضي أن يشكّل عائقاً كبيراً في حياتي.

إذا كنتُ قد قرّرتُ في الساعة الأخيرة العودةَ إلى الصحيفة فذلك لأنّ رفيقاً لي في الغرفة، فتح عليّ باب الحمّام، ووضع أمام عينيّ صفحة الرأي في «إلْ أونيفِرسال». كان هناك زاوية مرعبة عن وصولي إلى المدينة، تُلزمني بأن أكونَ كاتباً قبل أن أصبح كذلك وصحفيّاً بارزاً قبل أقلّ من أربع وعشرين ساعة من رؤيتي صحيفة من داخلها لأوّلِ مرّة. عاتبتُ مانوِل، الذي كلّمني على الفورِ بالهاتف ليهنِّئني، وأظهرتُ له، دون مواربة، غضبي لأنّه كتب شيئاً ليس فيه أيّة مسؤولية دون أن يكون قد تحدّث بشأنه معي. ومع ذلك فإنّ شيئاً ما تبدّل فيّ، ربّما للأبد، حين علمتُ أن المُعلّم ثابالا هو الذي كتب الزاوية بخطّ يده. وهكذا حزمت بنطلوني وعدتُ إلى التحرير لأشكره. لم يكد يوليني أهميّة. قدَّمني لِ هِكتور روخاس هِراثو، ببنطلونه الخاكي، وقميص أزهاره الأمازونية، وكلماته الهائلة التي أطلقها بصوتٍ راعد لا يستسلِمُ في الحديث حتى يُمسك بفريسته. طبعاً لم يعرفني كطالبٍ من طلاّبه في مدرسة سان خوسِهْ في بارّانكيّا.

أدخلنا المُعلِّمُ ثابالا ـ كما كان الجميع يُنادونه ـ في فلكه من خلال ذكرياتٍ عن صديقين أو ثلاثة مشتركين وآخرين لا بدّ

أعرفُهم. تركنا بعدها وحدنا، وعاد إلى حربِ قلمه الأحمر الضروس على أوراقه المستعجلة، كأنه لا علاقة له بنا أبداً. وتابع هِكتور حديثَهُ معي تحت صوت مطر الطباعة الناعم، كأنّه لا علاقة له بدورِهِ بثابالا. كان محدِّثاً طلِقاً ويتمتع بذكاء تعبيري مبهر، مغامراً في الخيال، يبتدعُ وقائعَ غير معقولة، ينتهي هو نفسه بتصديقها. تحدّثنا لساعاتٍ عن أصدقاءَ آخرين أحياء وأمواتاً، عن كتبٍ كان يجب ألا تُكتب أبداً، عن نساء نسيننا، ولم يكن باستطاعتنا أن ننساهنّ، عن شواطئَ مثالية في فردوس تولو الكاريبي - حيث وُلِد -، عن السحرة الذين لا يُخطئون، وفواجع أراكاتاكا التوراتية. عن كلّ ما كان وما وجبَ أن يكون، دون أن نشربَ شيئاً، دون أن نتنفّس تقريباً، ونحن ندخِّن مثل مشحرة، خوفاً من ألاّ تكفينا الحياةُ لكلّ ما كان علينا أن نتحدَّث به.

حين أُختُتِم عددُ الصحيفة في العاشرة ليلاً ارتدى ثابالا سترتَهُ، وعقدَ ربطةَ عنقه، ودعانا للعشاء بخطوة باليه ما زال فيها شيء من الشباب. كانت تنتظرهم في لا كوِبا، كما هو متوقّع، مفاجأة أنّ خوسِهْ دولورِسْ وعدداً من الندماء المتأخرين تعرَّفوا عليّ كزبون قديم. المفاجأة ازدادت حين مرَّ أحدُ عناصرِ شرطةِ زيارتي الأولى وأطلق مزحةً مُلتَبِسة، عن ليلتي السيّئة في الثكنة، وصادر لي علبة سجائر لم أكد أفتحها. وأثار هِكتور بدوره مع خوسِهْ دولورِسْ مبارزة مزدوجة المعنى قلبت الندماء على قفاهم من الضحك، أمام صمتِ ورضى المُعلِّم ثابالا. تجرّأت على إدخال جوابٍ خالٍ من الظرافة أفادني على الأقل بالاعتراف بي كواحدٍ من الزبائن القليلين الذين يُميّزهم خوسِهْ دولورِس، كي يخدمهم بالدَّين حتى أربع مرّاتٍ في الشهر.

تابعنا بعد العشاء، أنا وهِكتور، حديث المساء في جادّة لوس مارتيرِس المشجرة مقابل الخليج المنتن بسبب النفايات الجمهورية للسوق العام. كان ليلاً رائعاً في مركز العالم وعبارات كوراثا الأولى تنطلق خلسة. قدّم لي هِكتور في ذلك الفجر الأنوار الأولى عن التاريخ السفلي لكارتاخِنا، المغطى ببحار الدموع، الذي كان أقرب

إلى الحقيقة منه إلى خيال الأكاديميين المَرَضي. نوَّرني حول حياة الشهداء العشرة الذين تُحيط تماثيلهم النصفية بجانبي النصب المقام تخليداً لبطولتهم. الرواية الشعبية ـ التي يبدو أنّها له ـ هي أنّه حين نصبوها في أماكنها الأصلية، لم ينقش النحاتون أسماءَهم وتواريخَهم على التماثيلِ النصفية، بل على قواعِدها. لذلك لم يعرفوا حين أنزلوها لتنظيفها بمناسبة الذكرى المئوية، على من منهم ينطبق هذا التاريخ أو ذاك، واضطروا أن يضعوها كيفما اتفقَ على القواعد، لأنّه ما من أحدٍ كان يميِّز بين تمثالٍ وآخر. كانت القصّة تدور على شكل نكتة منذ سنواتٍ كثيرة، لكنّني فكرتُ، بعكس ذلك، أنّ تكريس النبلاء دون أسماء، لا بسببِ حياتهم المُعاشة، بقدر ما بسبب مصيرهم المشترك، عملٌ تاريخي عادل.

تكرّرت ليالي الأرق تلك يومياً تقريباً خلال سنوات وجودي في كارتاخِنا، لكنّني منذ الليلتين أو الليالي الثلاث الأولى، انتبهتُ إلى أنّ هِكتور يتمتّع بقوّة على الإغواء الفوري، وبشعورٍ بالصداقة هو من التعقيد حيث أنّنا وحدنا، نحن الذين أحببناه كثيراً، كان باستطاعتنا أن نفهمه دون تحفّظ. فقد كان رقيقاً في وقاره، وقادراً في الوقت ذاته على أن يغضب غضباً مدّوياً، وأحياناً كارثيّاً، ويحتفل بعدها بنفسه، كأنّه نعمة من يسوع الطفل. كنّا نفهم كيف كان المعلِّم ثابالا، ولماذا يعمل كلّ ما باستطاعته كي نحبّه كما كان يحبّنا. بقينا في الليلة الأولى، كما في ليالٍ أخرى كثيرة، حتى الفجر في جادة لوس مارتيرِس المشجرة، يحمينا كوننا صحفيينٍ من نظام منع التجول. كان صوت وذاكرةُ هِكتور حاضرين تماماً حين رأى ألَقَ النهار الجديد في أفق البحر وقال:

ـ حبذا لو تنتهي هذه الليلة كما في «كازابلانكا»(*).

لم يقل شيئاً آخر، لكنَّ صوته أعاد إليّ صورة همفري بوغارت وكلود رينس بكلّ ألقهما، وهما يسيران، كتفاً إلى كتف، في ضباب

(*) هو فيلم «كازابلانكا» للممثلين المذكورين همفري بوغارت وكلود رينس.

الفجر باتجاه سطوع الأفق المشع، والجملةَ التي أصبحت أسطورية عن النهاية المأساوية السعيدة: «هذه بداية صداقة عظيمة».

بعد ثلاث ساعات أيقظني المعلّم ثابالا هاتفاً بجملةٍ أقل سعادة.

ـ كيف يسير هذا العمل الرائع؟

احتجت لعدّة دقائق حتى فهمت إلي إنّه يُشيرُ إلى مشاركتي في عددِ اليومِ التالي من الصحيفة. لا أتذكّر أنّنا أبرمنا أيَّ عقد، ولا أنّني قلت نَعم أو لا، حين طلب منّي أن أكتب مساهمتي الأولى، لكنّني شعرتُ في ذلك الصباح أنّني قادرٌ على أيّ شيء بعد السباق الأولمبي لليلة الفائتة. هكذا يجب أن يكون قد فهم ثابالا الأمرَ، فهو قد أشار إلى بعض موضوعات اليوم، واقترحتُ عليه موضوعاً آخر، بدا لي أكثر راهنيةً: منع التجوّل.

لم يمنحني أيّ توجيه. كان هدفي أن أروي مغامرتي في الليلة الأولى من وجودي في كارتاخِنا، وهذا ما فعلته بيدي وخطّي، لأنّني لم أعرف كيف أتعامل مع الآلات ما قبل التاريخية في التحرير. كان مخاضاً دام أربع ساعات تقريباً راجعه المعلّم أمامي دون أيّة إشارة يمكن أن تنمَّ عن تفكيره، حتى عثر على صيغة أقل قسوةً ليقولها لي:

ـ ليست سيّئة لكن من المستحيل نشرها.

لم يفاجئني. على العكس توقّعتُ ذلك، أراحني لعدّة دقائق من عبءٍ كريه بأن أصبح صحفياً. لكنّ دوافعه الواقعية التي كنتُ أجهلها جاءت حاسمة: منذ التاسع من نيسان هناك في كلّ صحيفةٍ يومية من صحف البلد مراقبٌ حكومي، يجلس منذ السادسة مساءً وراء مكتب في التحرير، كأنّه في بيته، يتمتّع بصلاحياتٍ وسلطةٍ تُخوِّله بألا يسمح بأي حرف يمكن أن يَمس الأمن العام.

كانت دوافع ثابالا تثقِل عليّ أكثر من دوافع الحكومة بكثير، لأنّني لم أكتب تعليقاً صحفياً، بل سرداً لحادثٍ خاصٍ دون أيّ مقصد من مقاصد صحافة الرأي. كما أنّني لم أعالج منع التجوّل كأداة مشروعة للدولة، بل كعنجهيّة من بعض رجال الشرطة الأفظاظ كي يحصلوا على السجائر التي تساوي سنتيماً واحداً. من حسن الحظ

أنَّ ثابالا أعاد إليّ، قبل أن يحكم عليّ بالموت، الزاويةَ، التي كان عليّ أن أعيد كتابتها من الألف إلى الياء، ليس له بل للرقيب، وعمل معي معروفاً بأن أصدر حكماً ذا حدّين.

ـ جدارة أدبية، نعم عندكَ، ولم تكن ينقصك ـ قال لي ـ لكن هذا ما سنتكلّم عنه فيما بعد.

هكذا كان هو. فمنذ اليوم الأوّل في الصحيفة، حين تحدّث ثابالا معي ومع ثابّاتا أوليبِيا، لفتت انتباهي عادته غير المسبوقة بالتكلم مع شخص والنظرِ إلى وجهِ آخرَ، بينما أظافره تحترق بجمرة السيجارة ذاتها. سبَّبَ لي هذا في البداية إرباكاً مزعجاً. والشيء الأقل غباءً الذي خطر لي، نتيجة الخجل الخالص، هو الإصغاء إليه بانتباهٍ حقيقيٍّ واهتمامٍ هائل، لكن دون أن أنظر إليه، بل إلى مانولِ لأَستَخْلصَ من الاثنينِ استنتاجاتي الخاصّة. بعدها، حين تكلّمنا مع روخاس هِراثيو، ثم مع الدكتور لويّث إسكاورياثا وكثيرين آخرين، انتبهتُ إلى أنّها طريقة ثابالا الخاصّة حين يتحدّث في مجموعة. هكذا فهمته وهكذا استطعنا، أنا وهو، أن نتبادل أفكاراً ومشاعرَ من خلال متواطئين مُغفلينٍ ووسطاء بريئين. ومع الثقة التي تمنحها السنون، تجرّأت أن أعلّق على انطباعي عنه، فوضّح لي، دون دهشة، أنّه كان ينظر إلى الآخر جانبياً تقريباً كيلا ينفثَ دخانَ السيجارة في وجهه. وهكذا كان أنّني لم أعرف قط أحداً بمثل نباهته الوديعة والحذرة، ولا مثل طبعه المدني، لأنّه عرف دائماً كيف يكون ما أراد أن يكون: حكيماً في الظل.

الحقيقة أنّني كنتُ قد كتبتُ خطاباتٍ وأبياتَ شعرٍ مُبَكرة في مدرسة ثيبّاكيرا، وهتافاتٍ وطنيةً ومذكرات احتجاج على الطعام السيّئ وأشياء أخرى قليلة جداً، دون أن أحسب رسائلي إلى أسرتي، والتي كانت أمّي تُعيدها، مُصَحِّحة لي أخطائي الإملائية حتى بعد الاعتراف بي ككاتب. الزاوية التي نُشِرت لي أخيراً في صفحة الرأي لم يكن لها علاقة بما كنتُ قد كتبته، فما بين ترقيعات ثابالا وترقيعات الرقيبِ لم يبقَ من عملي غير بقايا نثرٍ شعري، بلا معيار ولا أسلوب توّجها بالضربةِ القاضية مصحح البروفات المتعصّب

لغوياً. اتفقنا في الساعة الأخيرة على عمودٍ يوميٍّ، ربّما لتحديد المسؤوليات، يحمل اسمي الكامل وبعنوانٍ دائم: «نقطة ومن أوّل السطر».

ثابالا وروخاس هِراثو، اللذان صقلهما التآكل اليومي، تمكّنا من مواساتي في ضيقي من زاويتي الأولى، وبذلك تجرّأت على الاستمرار بكتابة الثانية والثالثة، اللتين لم تكونا أفضل من الأولى. وبقيت في التحرير عامين تقريباً، أنشر قرابة الزاويتين يومياً وأتمكن من الانتصار على الرقابة بتوقيع ودون توقيع، وأوشكت أن أتزوّج من ابنة أخ الرقيب.

ما زلتُ أتساءل ماذا كان سيصير بحياتي لولا قلم المعلّم ثابالا ومقص الرقابة، التي شكَّلَ وجودُهما بحدّ ذاته تحدّياً خلاّقاً. لكنّ الرقيبَ كان يعيش متحفّزاً أكثر منّا، بسبب هوسه بالملاحقة. فالاستشهاداتُ بالمؤلفين العظام كانت تبدو له، كما حدثَ بالفعلِ مرّات كثيرة، كمائنَ مريبة. صار يرى أشباحاً. كان شخصيةً ثربانتسية(*) رديئةً، يفترضُ معانٍ متصوَّرة. وذات ليلة نحسٍ اضطرّ أن يذهب إلى المرحاض كلَّ ربعِ ساعة، إلى أن تجرّأ أخيراً وقال لنا أنه يكادُ يُجنُّ من الرعب الذي نَسببه له.

- وَيْحَكمْ - صرخ - بهذا الذهاب والإياب لن تبقى لي طيز!

عُسكِرَتْ الشرطةُ كعينة أخرى من عينات صرامة الحكومة في العنف السياسي الذي راح يُدمي البلد. مع بعض الاعتدال على الشاطئ الأطلسي. ومع ذلك أطلقت الشرطة، دون أسباب موجبة النارَ على موكبِ أسبوع الآلام في شوارع بلدة كارمِن دِ بوليفار، على بعد عشرين فرسخاً عن كارتاخِنا تقريباً. كنتُ أعاني من نقطةِ ضعف عاطفي تجاه تلك البلدة، التي ترعرعت فيها الخالة «ماما» واخترعَ جدّي نيكولاس أسماكَه الذهبية الصغيرة الشهيرة. نصحني المعلّمُ ثابالا، المولود في بلدة سان خاثينتو المجاورة، بحزم نادرٍ بمعالجة الخبر في زاوية، دون أن أولي الرقابة اهتماماً مهمّا كانت

(*) نسبة إلى ميغل ثربانتِس مؤلّف دون كيخوتِ.

التبعات. طالبث زاويتي الأولى في صفحة الرأي الحكومةَ بتحقيق عميق حول العدوان، ومعاقبة الفاعلين وانتهت بسؤال: «ماذا جرى في كارمن دِ بوليفار؟». أمام عدم الاكتراث الرسمي، وبعد أن دخلنا في حرب صريحة مع الرقابة، بقينا نُردِّدُ السؤالَ في زاوية يومية من الصفحة ذاتها وبقوّة متصاعِدة، مستعدين لإغاظةِ الحكومة أكثر مما هي مغتاظة. وبعد ثلاثة أيّام تأكّد مدير الصحيفة من ثابالا من أننا نتدارس الأمر مع كامل هيئة التحرير وكان هو نفسه موافقاً بأنّ علينا أن نستمرَّ بالكتابةَ حول الموضوع. وهكذا بقينا نطرح السؤال. الشيء الوحيد الذي علمنا به عن الحكومة في هذه الأثناء وصلنا عن طريق الخيانة: أعطوا أمراً بتركنا وحدنا مع موضوعنا، موضوع المجانين الصعاليك، حتى تنتهي أسطوانتنا. لم يكن أمراً سهلاً، فقد راح سؤالنا اليومي يدورُ في الشارع مثل تحيّة شعبية: «مرحباً، يا أخي، ماذا حدث في كارمِن دِ بوليفار؟».

في ليلة لم تخطر ببال أَغْلَقَتْ دوريةٌ عسكريةٌ شارعَ سان خوان دِ ديوس بضجّة كبيرة من الأصوات والسلاح، ودخل الجنرال إرنِستو بولانيّا بّويو، قائدُ الشرطة المُعَسْكَرة، بقوّة إلى دار «إلْ أونيفِرسال». كان يرتدي بذّة موحّدة بيضاء ورقيقة، يرتديها في التواريخ الكبرى وطماقاً من الجلد اللامع، ويحمل سيفاً مربوطاً برباط حريري، وكانت أزراره ونياشينه شديدة اللمعان وتبدو من ذهب. ولا يبتعدُ قيد أنملة عن شهرته كرجلٍ أنيق وفاتن، رغم أنّنا كنا نعرف أنّه قاسٍ في السلم والحرب، كما برهن عن ذلك بعد سنوات وهو على رأس كتيبة كولومبيا في حرب كوريا. لم يتحرّك أحد خلال الساعتين الطويلتين اللتين تحدّث فيهما مع المدير في جلسة سريّة. تناولا اثنين وعشرين فنجاناً من القهوة السوداء، دون سجائر ولا كحول، فكلاهما كان متحرّراً من العادات السيّئة. وعند خروجه بدا الجنرال أكثر انتفاخاً حين سلّم علينا واحداً فواحداً مودِّعاً. تأخَّر معي أكثر قليلاً، نظر بعينيه، اللتين لوشقٍ، إلى عينيّ مباشرةً وقال لي:

ـ أنت ستصل بعيداً.

خفق قلبي وأنا أفكّر أنّه يعرف كلَّ شيءٍ عنّي، وأبعد شيء بالنسبة إليه يمكن أن يكون الموت. في الجرد الودّي، الذي قدَّمه المُدير لثابالا عن حديثه مع الجنرال، كشف له أنّ هذا كان يعرف بالاسم والكنية من الذي يكتب كلّ زاوية من الزوايا. وقال له المدير بحركة مُمَيِّزة له تماماً أنّها تكتب بأمر منه، وأنّ الأوامر في الصحافة كما في الثكنات تُنَفَّذ. في جميع الأحوال نصحه الجنرال بأن نُخفِّف من الحملة، فقد يحاول أحد وحوش الكهوف أن يُصفّي حسابه معنا باسم حكومته. فهم المدير وفهمنا جميعاً حتى ما لم يقله. أكثر ما فاجأ المُدير هي استعراضاته بمعرفة الحياة الداخلية للصحيفة، كما لو كان يعيش فيها. لم يشكّ أحد بأنّ عميله هو الرقيب، رغم أنَّ هذا أقسم برُفات أمّه أنّه ليس هو. الشيء الوحيد الذي لم يُحاول الإجابة عليه في أثناء زيارته هو سؤالنا اليومي. المدير، المشهور بأنه حكيم، نصحنا بأن نُصدّق كلّ ما قالوه لنا، لأنّ الحقيقة يمكن أن تكون أسوأ.

منذ أن التزمتُ بالحرب ضدَّ الرقابة تغافلتُ عن الجامعة والقصص القصيرة. من حسن الحظ أن معظم المُعلّمين لم يكونوا يقرؤون التفقد، وهذا ما كان يُشجّع على الغياب. ثمّ أنّ المعلمين الليبراليين، الذين كانوا يعرفونِ مُراقصتي للرقابة، راحوا يتعذّبون أكثر منّي باحثين عن طريقة لمُساعدتي في الامتحانات. اليوم وأنا أُحاول أن أرويها لا أعثر على تلك الأيّام بين ذكرياتي، وانتهيت إلى أنّ أصدّق النسيان أكثر من الذاكرة.

نام والداي مطمَئنَّينْ منذ أن أعلمتهما بأنّني أكسبُ من الصحيفة ما يكفني كي أعيش كفافي. لم يكن صحيحاً. فالراتب الشهري كمتدرّب لم يكن يكفيني أسبوعاً واحداً. فقد غادرت الفندق قبل ثلاثة أشهر بعد أن تراكم عليّ دين يصعب تسديده، قايضتني صاحبة الفندق عليه، فيما بعد، بزاوية في الصفحة الاجتماعية عن سنوات حفيدتها الخمس عشرة. لكنّها قبلت بالصفقة لمرّة واحدة فقط.

كان شارع لوس مارتيرِس المشجّر مكانَ النوم الأكثر ارتياداً وبرودةً في المدينة، حتى في ظلّ منع التجوّل. هناك كنتُ أبقى لأنام

جالساً، عند انتهاءِ مسامرات الفجر. أحياناً أخرى كنتُ أنام في قبو الصحيفة فوق بكرات الورق، أو أظهر حاملاً تحت إبطي شبكة نومي في غرف الطلاب العقلاء، طيلة فترة تحمّلهم لكوابيسي وعادتي السيّئة بالكلام في النوم. هكذا انتصرتُ على المصادفة والقدر، آكلاً ما وجدت، ونائماً حيث أراد الله. إلى أن عرضت عليّ قبيلة آل فرانكو مونِرا الإنسانية وجبتين يومياً بسعرٍ أقرب إلى الشفقة. والد القبيلة - بوليفار فرانكو بّارِخا - كان معلّماً ابتدائياً تاريخياً، له أسرة مرحة متعصّبة للفنانين والكتاب، يُجبرني أفرادها على أن آكل بأكثر مما أدفع لهم كيلا يجفّ دماغي. كثيراً ما كنتُ لا أملك ما آكل به، لكنّهم يرضون بأن أقرأ لهم شعراً بعد الطعام. بعض تلك المدفوعات المقابلة كان كوبلات الساق المكسورة(*) لِدون خورخِه مانريكِهْ، و«نشيد الغجر» لغارثيا لوركا.

كانت المواخيرُ تحت السماء المفتوحة في شواطئ تِشكا، بعيداً عن صمت السور المزعِج، أكثرَ سخاءً من فنادق السائحِين على الشواطئ. كنّا قرابة ستّة طلابِ جامعيين نقيم في «إلْ ثيشنِ»، نُحضّر منذ بداية الليل للامتحانات النهائية تحت أضواء فناءِ الرقص الذي يُعمي الأبصار. كانت نسمة البحر وجؤار البواخر في الفجر تلهينا عن النحاس الكاريبي، واستفزازِ الفتيات، اللواتي يرقصن دون سراويل داخلية ويرتدين تنورات واسعة كي يرفعها نسيمُ البحر حتى الخصر. ومن حين إلى آخر كانت بعضُ الماكراتِ الصغيرات المشتاقاتِ لآبائهن تديّننا لننامَ مع القليل مما فاض عنهنّ من الحبّ عند الفجر. استسلمت إحداهُنّ، أتذكّر اسمَها وحجمها جيّداً، لإغواء الخيالات التي أحكيها لها وأنا نائم. ولها الفضلُ في أنّني نجحت في مادّة القانون الروماني دون غشٍّ، ونجوت من عدّة دوريات حين منعت الحكومة النوم في الحدائق العامّة. كنّا نتفاهم مثل زوجين نافعين، ليس في الفراش وحسب، بل وفي الأعمال المنزلية التي كنتُ أقوم بها عند الفجر، كي تنام هي ساعات أكثر.

(*) Coplas de pie quebrdo تركيب شعري يتناوب فيه بيت قصير يحمل هذا الاسم مع بيت آخر أطول منه.

كنتُ قد بدأت في تلك المرحلة أُرَتِّبُ وضعي في كتابة زاوية الرأي، التي اعتبرتُها دائماً شكلاً أدبياً، أكثر مما هي شكل صحفيّ. كانت بوغوتا كابوساً من الماضي تبعد مئتي فرسخ وعلى ارتفاع أكثر من ألفي متر فوق سطح البحر، ولم أكن أذكر منها إلا نتن رماد التاسع من نيسان. كنتُ ما أزال مصاباً بحمّى الفنون والآداب، وخاصّة في مسامرات منتصف الليل، لكنّني بدأت أفقد حماسي ككاتب. وكان هذا صحيحاً إلى حدّ أنّني لم أكتب قصّة قصيرة واحدة بعد القصص الثلاثة، التي نشرتها في «إلْ إسبِكتادور»، إلى أنْ علم إدواردو ثالاميا بمكاني في بداية تموز، وطلب منّي بتوسّطٍ من المعلّم ثابالا أن أُرسِلَ إليه قصّةً أخرى لصحيفته بعد ستة أشهر من الصمت. وبما أنّ الطلب جاء ممن جاء منه، فقد رحتُ أبحث كيفما اتفق عن أفكار ضائعة في مسوداتي، وكتبتُ: «ضلع الموت الآخر»، التي كانت أكثر قليلاً من لاشيء. أتذكّر جيّداً أنّه لم يكن عندي موضوع مسبق ورحت أبتدعه وأنا أكتبه. نُشِرت في الخامس والعشرين من تموز من العام 1948 في الملحق «فين دِ سِمانا» مثل القصص السابقة ولم أعد لكتابةِ قصّةٍ قصيرة حتى العام التالي، حين صارت حياتي أخرى. لم يبق عليّ غير أنّ أتخلّص من بعض دروس الحقوق، التي كنت أتابعها من حين لآخر، فهي آخر ذريعة لي لمداعبة حلم أبويّ.

أنا نفسي لم أكن أعتقد، إذ ذاك، أنّني سرعان ما سأصبح طالباً أفضل من أيِّ وقت مضى في مكتبة غوستابو إيبارّا مِرلانو، وهو صديق جديد عرّفني عليه ثابالا وروخاس هِراثو بحماس كبير. كان قد عاد توّاً من بوغوتا، حاملاً درجة التعليم الأساسي العليا، وانضمّ على الفور إلى مسامرات «إلْ أونيفِرسال» ونقاشات الفجر في شارع لوس مارتيرِس المشجّر. بين حمم هِكتور البركانية وشَكِّيةِ ثابالا الخلاّقة، أمدّني غوستابو بدقّةِ النظام التي كانت أفكاري المرتجلة والمبعثرة وخفّة قلبي بأمسِّ الحاجة إليها. كلّ ذلك وسط رقّةٍ كبيرة وعزيمة حديدية.

دعاني منذ اليوم التالي إلى بيتِ والديه على شاطئ ماربِيّا(*)، شكَّلَ البحرِ العظيم فناءه الداخلي وفيه مكتبة على جدار بطول اثني عشر متراً، جديدة ومرتَّبة، يحتفِظ فيها بالكتب التي عليهم أن يقرؤوها كي يعيشوا دون ندم. وكانت تحتوي على طبعات للكلاسيكيين اليونانيين، واللاتينيين، والأسبان، التي أحسنوا معاملتها، حتى ليبدو أنّها لم تُقرَأ، لكنّ هوامش الصفحات كانت تغصّ بملاحظات حكيمة بعضها باللاتينية، يُردّدها غوستابو بِدَوْرِهِ بصوتٍ حي، ويحمرّ خجلاً حتى جذور شعره، مُحاولاً هو نفسه أن يتفاداه بمزاح لاذع. قبل أن أعرفه قال لي صديق عنه: «هذا الرجل راهب». سرعان ما أدركتُ لماذا كان من السهل تصديق ذلك رغم أنّه كاد يكون من المحال تصديق أنّه كذلك بعد التعرف عليه.

تكلّمنا في تلك المرّة الأولى حتى الفجر، دون توقّف، وأدركتُ أنّ قراءاته كانت طويلة ومتنوّعة، لكنّها تستند إلى معرفة عميقة بمفكري المرحلة الكاثوليكيين، الذين لم أكن قد سمعتُ بهم أبداً. كان يعرف كلّ ما تجب عليه معرفته من الشعر، خاصّة شعر الكلاسيكيين اليونانيين واللاتينيين الذين كان يقرأ أشعارهم في طبعاتها الأصلية. وكانت لديه أحكامه السديدة عن الأصدقاء المشتَركين، وزوّدني بمعلومات قيّمة كي أحبّهم أكثر. أكّد لي أيضاً أهميّة أن أتعرّف على صحفِيّي بارّانكيّا الثلاثة ـ ثِبّدا وبارغاس وفونمايور ـ، الذين كثيراً ما كلّمني عنهم روخاس هِراثو والمُعلّم ثابالا. لفت انتباهي أنّه كان، إلى جانب فضائله الفكرية والمدنية، سبّاحاً، يسبح مثل بطل أولمبي، بجسم تامٍّ ومدرَّبٍ من أجل ذلك. أكثر ما أقلقه عندي هو ازدرائي الخطير للكلاسيكيين اليونانيين واللاتينيين، الذين كانت أعمالهم تبدو لي مملّة وغير نافعة، باستثناء الأوديسة التي قرأتها وأعدتُ قراءتها عدّة مرّات في المدرسة، وهكذا اختار لي من المكتبة، قبل أن أودّعه، كتاباً مجلّد بالجلد وناولني إيّاه ببعض الجلالة. «يمكن أن تُصبح كاتباً جيّداً ـ قال لي ـ لكنّك لن تصبح

(*) مربَلة في التاريخ العربي

ممتازاً ما لم تعرف الكلاسيكيين اليونانين جيّداً.» الكتاب هو أعمال سوفوكليس الكاملة. منذ تلك اللحظة صار غوستابو من الأشخاص الحاسمين في حياتي، لأنّ أوديب ملكاً بدت لي منذ أوّل قراءة عملاً تامّاً.

كانت ليلة تاريخية بالنسبة إليّ، لأنّني اكتشفتُ غوستابو إيبارّا وسوفوكليس في آنٍ معاً، ولأنّه كان من الممكن أن أموت بعد ساعاتٍ ميتةً شنيعة في غرفة خطيبتي السرّية في «إلْ ثيسن»(*). أتذكّر كما لو كان بالأمس اللحظة التي دخل فيها فحلٌ لها، ظنَنْتُهُ ميتاً منذ أكثر من سنة، مطلقاً شتائم ممسوس، فاتحاً الباب رفساً بقدميه. عرفت على الفور أنّه أحد زملائي الجيّدين في مدرسة أراكاتاكا الابتدائية، وقد جاء مهتاجاً ليأخذ مكانه في سريرها. لم أره منذ ذلك الوقت، أظهر حسن ذوقٍ بتجاهله لي حين عرفني عارياً مذعوراً في السرير.

كما تعرّفت في ذلك العام على راميرو وأوسكار دِ لا إسبرِيّا، وهما محدّثان إلى أبعد حدّ، خاصّة في بيوت تمنعها الأخلاق المسيحية. كلاهما كان يعيش مع أبويه في توررباكو، على بعد ساعة عن كارتاخِنا، ويحضران يومياً تقريباً مسامرات الكتّاب والفنّانين في محلِّ مثلجات أمريكانا. كان راميرو، الذي تخرَّجَ من كلية الحقوق في بوغوتا قريباً جدّاً من مجموعة «إلْ أونيفِرسال»، وينشر فيها عموداً عفويّاً. كان والده محامياً قاسياً وليبرالياً منفتحاً وزوجته فاتنة، لا شعر على لسانها؛ وكلاهما يتمتع بعادة التحدث مع الشباب. خلال دردشاتنا الطويلة، تحت ظل أشجار الدردار الوارفة في توررباكو، منحاني معلومات لا تُقدَّر بثمن عن حرب الألف يوم، هذا المنجم الأدبي الذي نضب بعد موت جدّي. ما زال عندي تصوّر عن هذه الحرب يبدو لي أنّه الأكثر صدقية عن الجنرال رافائيل أوريبِ أوريبِ بطلعته المحترمة وعيار معصميه.

إنّ أفضلَ شاهد على ما كنّا عليه، أنا وراميرو، في تلك الأيّام جسّدتْه بلوحة زيتية على القماش، الرسامةُ ثِثيليا بورّاس، التي كانت

(*) البجعة.

تشعر في سهرات الرجال كأنّها في بيتها، معاكسةً بذلك تكلّف وسطها الاجتماعي. كانت اللوحة تُمثّلنا نحن الاثنين جالسَيْنِ إلى طاولة المقهى، الذي كنّا نلتقي فيه معها ومع أصدقاء آخرين مرَّتين في اليوم. حين كنّا سنسلك، أنا وراميرو، طريقين مختلفين تناقشنا نقاشاً ضارياً حول من سيكون صاحب اللوحة. حلّت ثِثيليا المشكلة بالطريقة السُلَيْمانية بأن قصّت اللوحة من نصفها بمقص التقليم وأعطت كلاً منّا حصّته. بقيت حصتي لسنواتٍ ملفوفة في خزانة ثيابِ شقةٍ لي في كاراكاس، ولم أستطع استعادتها قط.

على العكس من بقيّة أنحاء البلاد، لم يُحْدِث العنفُ أضراراً في كارتاخِنا حتى بدايات ذلك العام، حين انتُخِب صديقنا كارلوس ألِمان عضواً في مجلس المنطقة عن دائرة مومبّوكس المتميزة جداً. كان محامياً طازجاً وذا طبيعة مرحة، لكن الشيطان مزح معه لاعباً لعبته السيّئة، بأن اشتبك الحزبان المتعارضان في الجلسة الافتتاحية بالرصاص، فأحرقت رصاصةٌ حشيةَ كتفه. يبدو أنّ ألِمان فكّر بكثير من الحق، أنّ سلطة تشريعية باطلة كسلطتنا لا تستحق أن يُضحي بحياته لأجلها، وفضّل أن يُنفقَ أيّامه سلفاً برفقة أصدقائه الطيبة.

أوسكار إسبرِيّا، الساهر الممتاز، كان متفقاً مع وليام فوكنر، بأنَّ الماخورَ هو أفضل عنوان للكاتب، فالصباحات هادئة وهناك حفلات في كلّ ليلة، والعلاقة بالشرطة جيّدة. تبناه النائب ألِمان تماماً وبقي في ضيافتنا طوال الوقت، ومع ذلك ندمتُ في إحدى تلك الليالي، لأنّني صدَّقت أوهامِ فوكنر حين هوى عشيق لماري رِيِّسْ، صاحبة البيت، بالبابِ ضرباً ليأخذ ابناً لهما في الخامسة من عمره كان يعيش معها. عشيقها الحالي، الذي عمل قبل ذلك صف ضابط شرطة خرج من غرفة النوم بسرواله الداخليّ ليدافع عن شرف وممتلكات البيت بمسدسِ الخدمة فاستقبله الآخر برشقة من الرصاص دوّت مثل طلقة مدفع في قاعة الرقص. اختبأ الرقيب الخائف في غرفته. حين خرجت من غرفتي نصف عارٍ، كان المستأجرون العابرون يتأملون من غرفهم الطفل يبول في نهاية

الممرّ، بينما أبوه يمشط بيده اليسرى شعره ويمسك المسدّس، الذي ما يزال يخرج منه الدخان باليمنى. لم يكن يُسمع في جوّ البيت إلا شتائم ماري، التي كانت تُوبِّخُ الرقيبَ على عدم رجولته.

في تلك الأيام ذاتها دخل إلى مكاتب «إلْ أونيفِرسال» رجل عملاق دون إعلام مسبق، خلع قميصه بإحساسٍ مسرحيٍّ عالٍ، وتمشّى في قاعة التحرير، ليفاجئنا بظهره وذراعيه، مرصوفةً بندوب بدت إسمنتية. بينّ لنا متأثراً بالدهشةِ، التي تمكن من زرعها فينا، خرابَ جسده بصوت مدوٍّ:

- خدوش أسود!

كان هذا إميليو رازورِ، الذي وصل توّاً إلى كارتاخِنا كي يُحضّر لموسم سيركه العائلي المشهور، وأحد أكبر السيركات في العالم. كان قد خرج من هافانا في الأسبوع الفائت على متن عابرة المحيطات إوسكِرا، التي تحمل العلم الأسباني وينتظر وصولها في الأسبوع التالي. كان رازورِ يفتخر بأنه في السيرك قبل أن يولد، وليس من الضروري مشاهدته يعمل كي يكتشف المرء أنّه مروِّض وحوش ضارية كبيرة، يناديها بأسمائها الخاصّة، كما يُنادي أفرادَ أسرته، وتردّ عليه بودٍّ ووحشية في آن معاً. كان يدخل إلى أقفاص النمور والأسود أعزلَ ليطعمها بيده. عانقه دبُّه المُدَلَّل عناقَ حبّ أبقى عليه في المستشفى ربيعاً كاملاً. ومع ذلك فالجاذبية الكبرى لم تكن هو، ولا بلاّع النار، بل الرجل الذي يفكّ رأسه ويتنزّه به تحت ذراعه حول الحلبة. أقل ما يمكن أن ينسى من إميليو رازّورِ هو شخصيته الراسخة. نشرتُ، بعد أن استمعتُ إليه بذهولٍ لساعاتٍ طويلة، زاوية رأيٍ في «إلْ أونيفِرسال» تجرّأت أن أكتبَ فيها أنّه «أكثر رجلٍ، هائلٍ بإنسانيته، عرفته في حياتي». ولم يكونوا كثيرين في سنواتي الإحدى والعشرين، لكنّني أعتقد أنّ العبارة مازالت صالحة. كنا نأكل مع أهل الصحيفة في لا كوْبا، وهناك أيضاً فرض حبّه بقصص ضواريه المؤنسنة بالحبّ. في إحدى تلك الليالي تجرّأت بعد كثير من التفكير على أن أطلب منه أن يحملني معه في سيركه، حتى ولو فقط لأغسل الأقفاص حين لا تكون النمور فيها. لم

يقل لي شيئاً، لكنّه صافحني بصمت. فهمت أنّها إيماءة وحركة سيركية واعتبرت الأمر قائماً. الوحيد الذي كلّمتُه بالأمر هو سالبادور مِسا نيتشولز، وهو شاعر أنتيوكي أحب الخيمة (السيرك) حتى الجنون، وصل حديثاً إلى كارتاخِنا كشريك محليّ لآل رازورِ. هو أيضاً رافق سيركاً حين كان بعمري، ونبّهني إلى أن الذين يرون البهلوانات يبكونَ لأوّل مرّة، يريدون أن يذهبوا معهم، لكنهم لا يلبثون أن يندموا في اليوم التالي، ومع ذلك فهو لم يوافق على قراري وحسب، بل وأقنع المروّض بذلك، شريطة أن نحفظ السرّ تماماً كيلا يتحوّل إلى خبر قبل الأوان. صار انتظار السيرك، المثير حتى ذلك الوقت، أمراً لا يُقاوَم.

لم تصل إوسكِرا في التاريخ المتوقّع، وكان من المحال الاتصال بها. أقمنا بعد أسبوع آخر خدمةَ هواة إذاعية في الصحيفة كي نتقصّى أوضاع الطقس في الكاريبي، لكنّنا لم نستطع أن نمنع رجال الصحافة والإذاعة من أن يبدؤوا بالتفكير بإمكانية وقوع الخبر المريع. مكثنا أنا ومِسا نيتشولز في تلك الأيام الحرجة مع إميليو رازورِ في غرفة الفندق لا نأكل ولا نشرب. رأيناه ينهار، ينكمش حجمه في انتظار ما لا ينتهي انتظارُهُ، إلى أن أكّد القلبُ لنا جميعاً أنّ إوسكِرا لن تصل أبداً إلى مكانٍ، وأننا لن نملك خبراً عن مصيرها. بقي المروِّض يوماً آخر حابساً نفسه، وحيداً في غرفته، وزارني في اليوم التالي في الصحيفة ليقول لي إنّه لا يمكن لمئة سنة من المعارك اليومية أن تختفي في يوم واحد. وهكذا سيذهب إلى ميامي لا يحمل مسماراً ولا أسرة، ليعيد بناء سيركه الغارق من لاشيء، قطعة قطعة. أذهلني تصميمه رغم المأساة، حيث رافقته إلى بارّانكيّا كي أودّعه في الطائرة المتجهة إلى فلوريدا. شكرني قبل أن يركب الطائرة على قراري بالانضمام في سيركه، ووعدني أن يرسل في طلبي ما إن يصبح عنده شيء ملموس. ودّعني بعناق رهيبٍ إلى حدّ أنّني تفهمت من أعماقِ روحي حبَّ أسوده. لم أعرف عنه بعدها شيئاً قط.

أقلعت طائرة ميامي في العاشرة من صباح اليوم ذاته الذي

ظهرت فيه زاويتي عن رازّورِ: السادس عشر من أيلول من العام 1948. كنتُ أستعد للعودة إلى كارتاخِنا في ذلك المساء بالذات، حين خطر لي أن أمرّ على «إلْ ناثيونال»، اليومية المسائية التي كان يكتب فيها خِرمان بارغاس وألبارو ثِبّدا، صديقا أصدقائي في كارتاخِنا. كان قسمُ التحرير في بناء متآكلٍ من المدينة القديمةِ، مشطوراً بحاجز خشبي. في عمق القاعة رجلٌ شاب وأشقر يرتدي قميصاً، يكتب على آلة كاتبة تنفجر مفاتيحُ حروفها في القاعة المقفرة مثل مفرقعات. اقتربتُ على رؤوس أصابعي تقريباً، خائفاً من طقطقة الأرض الكئيبة، وانتظرت في الشرفة حتى عاد ونظر إليَّ، وقال لي بجفاف وصوتٍ مذيع محترِف متناغم:

ـ ما الأمر؟

كان شعره قصيراً، ووجنتاه قاسيتين، وعيناه صافيتين ومركزتين، وبالتالي منزعجتين من مقاطعتي له. أجبته بما استطعت وحرفاً فحرفاً:

ـ أنا غارثّيا ماركيز.

فقط حين سمعتُ أسمي ذاته ملفوظاً بتلك القناعة انتبهتُ إلى أنّ من الممكن تماماً ألا يعرف خِرمان بارغاسِ من أكون، رغم أنّهم قالوا لي في كارتاخِنا بأنهم تحدَّثوا عنّي كثيراً مع أصدقاء بارّانكيّا، منذ أن قرؤوا قصّتي الأولى. كانت «إلْ ناثيونال» قد نشرت زاوية متحمسة لخِرمان بارغاس، الذي لم يكن يهضم الجديد الأدبي دونَ تروٍّ. لكن الحماس الذي استقبلني به أكّد لي أنّه يعرف من يكون كلّ واحدٍ، وأنّ ودّه أكثر واقعية مما قالوه لي. بعد ساعات تعرّفت أيضاً على ألفونسو فونمايور وألبارو ثِبِّدا في مكتب «إل موندو» وتناولنا المقبلات في مقهى كولومبيا. لم يكن دون رامون بينيِّس، العالِم الكتلاني الذي طالما تلهفتُ لمعرفته وأرعبني التعرف إليه، قد ذهب في ذلك المساء إلى مسامرة السادسة. حين خرجنا من مقهى كولومبيا، وعلى كاهلنا خمس جرعات، كانت قد مرَّت سنوات على صداقتنا.

كانت ليلة طويلة من البراءة. قطعَ ألبارو، السائقُ الفذّ، الذي كلّما شرب أكثر كلما ازداد ثقةً بنفسهِ وحكمةً، طريقَ المناسبات التي لا تُنسى. في لوس ألمِندروس(*)، وهي حانة في الهواء الطلق تحت الأشجار المزهرة، حيث لا يستقبلون إلاّ المتعصبين للدِبّورتيبو خونيور(**)، دخل عدد من الزبائن في مشاجرة، أوشكت أن تنتهي بالضرب. حاولتُ تهدئتهم ألاّ أنّ ألفونسو نصحني بعدم التدخّل لأنّ ذلك المكان، مكان دكاترة كرة القدم، سيّء جدّاً بالنسبةِ إلى أنصار السلام. وهكذا قضيت الليلة في مدينة لم تكن بالنسبة إليّ هي ذاتها قط، لا مدينة أبويَّ في سنواتهما الأولى، ولا مدينة سنوات الفقر مع أمّي، ولا مدينة مدرسة سان خوسِه، بل بارّانكيّا مدينة بلوغي الأولى في فردوس مواخيرها.

كان الحيّ الصيني عبارة عن أربع تجمعات سكنية تضج بالموسيقى المعدنية التي تزلزل الأرض، إلاّ أنّه كان يحوي أيضاً متكآت خدمة منزلية تلامس حدودَ الإحسان. كان هناك مواخير عائلية، يقوم على خدمة الزبائن المجرَّبين فيها، قوادون مع زوجاتهم وأولادهم حسب قواعد الأخلاق المسيحية وتمدّن دون مانوِل أنطونيو كارّنيو. كان بعضهم يقوم بدورِ الكفيل كي تضاجع المبتدئاتُ زبائنَ معروفين بالدَّين. مارتينا ألبارادو، وهي أقدمهنّ، كان عندها باب سريّ وتسعيرة إنسانية بالنسبة للقساوسة التائبين. لم يكن هناك غش في الاستهلاك ولا حسابات نشوة ولا مفاجآت أمراض جنسية. آخر أمهات الحرب العالمية الأولى الفرنسيات المدللات، العليلات والكئيبات، كنّ يجلسن منذ المساء في باب بيوتهنّ، تحت وصمة بؤر النور الحمراء، ينتظرن جيلاً ثالثاً ما يزال يؤمن بواقياتهن المقوية للباه. كان هناك صالونات مبرّدة للاجتماعات السرّية للمتآمرين، وملاجئ لرؤساء البلديات الهاربين من زوجاتهم.

(*) اللوز.

(**) نادٍ رياضيّ.

كان «إل غاتو نِغرو»[*] بفناء رقصه المغطى بتعريشة أَستروميليا[**] فردوسَ البحرية التجارية، منذ أن اشترته غواخيريّة[***] مُشقَّرَة، تغني بالإنكليزية وتبيع من تحت الطاولة مراهِمَ مهلوِسة للرجال والنساء. ذات ليلة تاريخية من حولياتهما لم يتحمل ألبارو ثِبِّدا وكيكِ سكوبِّل عنصريةَ اثني عشر بحاراً نرويجياً، اصطفوا أمام الزنجية الوحيدة، بينما اثنتا عشرة بيضاء يشخرن جالسات في الفناء، وتحدَّياهم بالضرب. اثنان ضدّ اثني عشر أجبراهم بالضرب واللكم على الفرار بمساعدة البيضاوات اللواتي استيقظن سعيداتٍ، وأكملنَ عليهم ضرباً بالكراسي. في النهاية توّجوا الزنجيةَ عاريةً مثل ملكة نرويجية بصلحٍ أحمقَ.

كان هناك بيوت أخرى، مرخصة أو سرّية، خارج الحيّ الصيني وجميعها في حالة تفاهم جيّد مع الشرطة. أحدها كان فناءً بأشجار لوز كبيرة مزهرة في حيٍّ فقير فيه دكان بائسة وغرفة نوم فيها سريران فرديان للإيجار، بضاعته صغيرات الجوار المصابات بفقر الدم، ويكسبن بضربة واحدة بيزو من السكارى المطفأين. اكتشف ألبارو ثِبِّدا المكان مصادفةً، فقد تاه ذاتَ مساء في مطر تشرين الأوّل، واضطُرَّ لأن يلوذ بالدكان. دعته صاحبته إلى كأسٍ من البيرة وقدّمت له طفلتين بدل الواحدة مع حق التكرار، ريثما ينقطع المطر. وبقي ألبارو يدعو الأصدقاءَ لتناول البيرة المثلجة تحت أشجار اللوز، لا ليتدفّؤوا مع الطفلات بل ليعلموهنّ القراءة. وحصل لأكثرهنّ اجتهاداً على منح للدراسة في المدارس الرسمية. صارت واحدة منهنّ ممرّضة في مستشفى الإحسان لسنوات. أهدى المالكةَ البيتَ، واحتفظَ بيت الطفلات البائس حتى نهايته الطبيعية باسم جذّاب: «بيت الصغيرات اللواتي يضاجعن بدافع الجوع».

لم يختاروا لي لليلتي التاريخية الأولى في بارّانكيّا إلاّ بيت

(*) القطّ الأسود.
(**) اسم نبات يمكن أن يكون متسلقاً أو شبيها بالدوالي.
(***) نسبة إلى شبه جزيرة غواخيرا في كولومبيا وفنزويلا، التي يبلغ عددُ سكانها الأصليين قرابة الخمسين ألف نسمة.

لانِغرا أوفيميا[*]، بفنائه الإسمنتي الفسيح للرقص بين أشجار التمر هندي الوارفة، وأكواخه التي تؤجّر بخمس بيزوات في الساعة، وطاولاته الصغيرة وكراسيه المطلية بالألوان الفاقعة، حيث تمرّ الكروانات على هواها. كانت أوفيميا بشخصيتها التاريخية المئوية تستقبل وتختار الزبائنَ بنفسها في المدخل من خلف طاولة مكتب؛ أداتها الوحيدة ـ غير المفسّرة ـ مسمار كنيسة هائل. كانت تختار الفتيات بنفسها، لحسن تربيتهنّ وملاحتهنّ الطبيعية. تتخذُ كلٌّ واحدة منهنَّ الاسمَ الذي يُعجبها، ويُفضِّل بعضهنّ اللقبَ الذي يضعه لهنَّ ألبارو ثِبِّدا من خلال ولهِهِ بالسينما المكسيكية: إيرما الشريرة، سوزانا الفاسدة، عذراء منتصف الليل.

كان يبدو من المحال التحادث بوجودِ جوقة كاريبية منتشية تغنيّ ملء رئتها مامبوات جديدة[**] لـ بِرثْ بّرادو وفرقة من مغنّي البولِرو لنسيان الذكريات السيّئة، لكنّنا جميعاً كنّا خبراء بالتحادث صياحاً. وقد أثار خِرمان وإلبارو موضوع الليلة حول المكوِّنات المشتركة بين الرواية والتحقيق الصحفي. كانا متحمّسين لما نشره جون هِرسي للتو عن قنبلة هيروشما الذرية، لكنّني كنتُ أفضِّل، كشهادة صحفية مباشرة، يوميات عام الوباء، حتى وضّح لي الآخرون أن دانييل ديفو لم يكن قد تجاوز الخامسة أو السادسة من عمره حين وقع وباء لندن، الذي أفاده كنموذج.

عبر هذا الطريق وصلنا إلى لغز الكونت دي مونت كريستو، الذي راح الثلاثة يجرجرونه معهم من مناقشات سابقة كأحجية بالنسبة للروائيين: كيف استطاع ألكساندر دوما أن يجعل بحّاراً بريئاً، جاهلاً وبائساً ومسجوناً بلا سبب، يهرب من حصن منيع ويتحول إلى أغنى وأكثر رجال عصره ثقافة؟ كان الجواب أنّه حين دخل إدموند دانتِس في قلعة إيف كان قد بنى في داخله القسّ فاريا، الذي نقل إليه في السجن جوهر حكمته، وكشف له عمّا كان ينقصه

(*) أوفيميا الزنجية.

(**) نوع من الأغاني التي تُغنى مرافقة رقصةً تحمل الاسم ذاته.

لحياته الجديدة: المكان الذي كان يخبَّأ فيه الكنز الخيالي وطريقة الهرب. أيّ أنّ دوما قد بنى شخصيتين مختلفتين جعلهما تتبادلان فيما بعد قدرهما. بحيث أنّ دانتِس حين هرب كان شخصية ضمن أخرى، والشيء الوحيد الذي بقي له من ذاته هو جسده، جسد السّباح الماهر.

كان واضحاً أنّ دوما قد جعل من بطله بحاراً كي يستطيع التخلّص من كيس الكتّان ويسبح حتى الشطّ، حين قذفوا به إلى البحر. ردّ ألفونسو. الضليع والأكثر حدّة دون شكّ، بأنّ ذلك لم يكن يضمن أيّ شيء، لأنّ سبعين بالمئة من بحارة كريستوفر كولومبوس لم يكونوا يعرفون السباحة. ما من شيء كان يرضيه مثل رمي حبات الفلفل في الطبيخ كي يحرمه من أي طعم في الفم. بدأت منتشياً بلا حدود بألغاز الأدب، أشرب روم قصب السكر بالليمون، الذي كان الآخرون يشربونه متلذذين به على جرعات. النتيجة التي خلص إليها الثلاثة هي أنَّ موهبة دوماس وتحكّمه بالمعلومات في تلك الرواية، وربّما في كلّ أعماله، كانا أقرب إلى عمل المحقّق الصحفي منه إلى عمل الروائي.

في النهاية توضّح لي أنّ أصدقائي الجدد كانوا يقرؤون، بكثير من الفائدة، كِبِدو وجيمس جويس وكذلك كونان دوييل. كانوا يتمتعون بروح دعابة لا تنضب وقادرين على أن يقضوا ليال بكاملها وهم يغنون بوليرو وبايّناتو، أو ينشدون، دون تلكّؤ، أفضلَ قصائد العصر الذهبي. وصلنا عبر دروب مختلفة إلى الاتفاق على أنّ قمّة الشعر العالمي تُمثِّلها كوبلات دون خورخِهْ مانريكِه في رثاء أبيه. تحوّل الليل إلى مرحٍ لذيذ أتى على آخر أحكامي المسبقة، التي ربّما كانت ستعيق صداقتي مع تلك العصابة من المرضى بالآداب. وصل شعوري بالراحة معهم ومع الروم الوحشي حدَّ أنّني خلعت عنّي قميص الخجل. سوزانا الفاسقة، التي ربحت في تلك السنة جائزة الرقص في الكرنفالات، أخرجتني للرقص. أبعدوا الدجاج والكروانات من الحلبة وأحاطوا بنا ليُشجِّعونا.

رقصنا مجموعة من المامبو الخامسة لِداماسو بِرِث بّاردو.

وسطوتُ بما فاض عنّي من نَفَسٍ على الخشخيشات في منصّة الفرقة الاستوائيةُ وغنيتُ بشكل متواصل بولِروات دانييل سانتوس، وأغوستين لارا وبيينبِنيدو غرانْدا لأكثر من ساعة. وكنتُ كلّما غنيتُ كلّما شعرت بِنفسي منعتقاً أكثر بنسمة من التحرّر. لم أعرف قط ما إذا كان الثلاثة قد شعروا بالفخر بي أم بالخجل منّي. لكنّني حين عدتُ إلى الطاولة استقبلوني كواحدٍ منهم.

كان ألبارو قد شرع آنذاك بموضوع لم يناقشه الآخرون قط: السينما. بالنسبة إليّ كانت لقية إلهية، لأنّني دائماً اعتبرتُ السينما احتياطاً يتغذّى على المسرح أكثر مما على الرواية. على العكس من ألبارو الذي كان ينظر إليها، بطريقة ما، كما كنتُ أنظر إلى الموسيقى: فن مفيد لكلّ الفنون الأخرى.

راح ألبارو يقودُ، عند الفجر بين النعسان والسكران، السيارةَ، المليئة بالكتب الجديدة وملحقات نيويورك تايمز الأدبية، مثل سائق سيارة أجرة ماهر. تركنا خِرمان وألفونسو في بيتيهما، وأصرّ ألبارو على أن يأخذني إلى بيته كي أتعرّف على مكتبته، التي كانت تُغطّي ثلاثةَ جدرانٍ من غرفة نومه حتى السقف تماماً. أشار إليها بسبابته التي أدارها دورة كاملة وقال لي:

ـ هؤلاء هم الكتاب الوحيدون الذين يعرفون الكتابة.

كنتُ في حالة من الإثارة جعلتني أنسى جوعَ البارحة ونعاسه. كان الكحول ما يزال حيّاً في داخلي كنوع من الرحمة الإلهية. أراني ألبارو كتبَهُ المُفضّلة بالأسبانية والإنكليزية، وتكلّم عن كلّ واحد منها بصوت صدئ وشعرٍ أشعث وعينين أكثر جنوناً من أيّ وقت مضى. تكلّم عن أثورين(*) وساروريان ـ وهما نقطتان من نقاط ضعفه ـ وعن آخرين كان يعرف حياتهم العامّة والخاصّة، حتى وهم في سراويلهم الداخلية. كانت المرّة الأولى التي سمعتُ فيها

(*) اسم مستعار لـ خوسِهْ مارتينِثْ رويثْ (1873 ـ 1967). أديب أسباني من جيل 98. عضو الأكاديمية المكية الأسبانية منذ العام 1924. من رواياته «دون خوان ودونيا إنِسْ» ومن مسرحياته «اللامرئي»، «أسبانيا القديمة».

بفرجينيا وولف التي كان يُناديها بالعجوز وولف مثل العجوز فوكنِر. ذهولي أثاره حتى الهذيان. أمسك كدسة الكتب التي أراني إيّاها، ككتب مفضلة عنده، ووضعها بين يديَّ.

- لا تكن وغداً - قال لي - خذها جميعها وحين تنتهي من قراءتها سنبحث عن غيرها حيثما وُجِدت.

كانت بالنسبة إليَّ ثروة تفوق التصوّر، لم أجرؤ على المغامرة بها دون أن يكون عندي ولو كوخ بائس أحفظها فيه. أخيراً اكتفى بأن أهداني الطبعةَ الأسبانية لـ «السيّدة دلوي» لفرجينيا وولف، مع تنبّؤ قطعي بأنّني سأحفظها عن ظهر قلب.

كان الفجر يبزغ وأريدُ العودة إلى كارتاخِنا في الباص الأوّل، لكنّ ألبارو أصرَّ على أن أنام في السرير المقابل لسريره.

- أيّ هراء! - قال بآخر نفس له - ابقَ لتعيش هنا وغداً سنحصل لك على عمل رائع.

استلقيت بملابسي على السرير، عندها فقط شعرتُ في جسدي بالثقل الهائل لكوني حيّاً. هو فعل الشيء ذاته، ونمنا حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً. قرعت أمُّهُ، سارا ساموديو، المعبودة والمرهوبة الجانب، البابَ بقبضتها المغلقة، معتقدة أنّ ابن حياتِها الوحيد ميت.

- لا تشغل بالك بها، يا معلِّم - قال لي ألبارو من عمق حلمه - فهي في كلّ صباح تقول الشيء ذاته، والخطير في الأمرّ هو أن ذلك سيصبح حقيقة.

عدتُ إلى كارتاخِنا بحيويّةٍ من اكتشفَ العالم. أحاديث ما بعد الطعام في بيت آل فرانكو مونِرا لم تتضمّن قصائد من العصر الذهبي و «عشرون قصيدة» حب لبابلو نيرودا، بل مقاطع من «السيّدة دلوي» وهذيانات شخصيتها الوقحة، سِبتموس وارنِ سميث. صرتُ آخرَ، توّاقاً وصعباً، إلى حدٍّ أنّني بدوت لهِكتور والمُعلِّم ثابالا مقلِّداً واعياً لألبارو ثِبِّدا. سُرَّ غوستابو إيبارّا بنظرته، نظرة القلب الكاريبي الرحيمة، بحديثي عن ليلة بارّانكيّا، بينما كان يُلقِّمني جرعاتٍ، هي

في كلّ مرّة أكثر صواباً، من القصائد اليونانية باستثناء جليّ وغير مُبرّر أبداً لأعمال يوربيدس. كشف لي عن ملفيل: مأثرة «موبي ديك» الأدبية، الخطبة العظيمة عن يونس لكلّ الحيتان المدبوغة في كلّ بحار العالم تحت القبّة الشاسعة المبنية من ضلوع الحيتان. أعارني «بيت السقوف السبعة» لنثانييل هوثورن، الذي طبعني بطابعه مدى الحياة. حاولنا معاً أن نضع نظريّة عن حتمية الحنين في تيه عوليس الأوديسي، حيث ضعنا في متاهة لا مخرج لها. بعد نصف قرن وجدتُها محلولة في نصّ رفيع لميلان كونديرا.

يعود لتلك المرحلة لقائي الوحيد بالشاعر العظيم لويس كارلوس لوبِّث، المشهور أكثر بالأعور، الذي كان قد اخترع طريقة مريحةً لأن يكون المرء ميتاً دون أن يموت، ومقبوراً دون أن يُقبر، خاصّة دون خطابات تكريم. كان يعيش في المركز التاريخي في بيتٍ تاريخيٍّ من شارع تابلون التاريخيّ، حيث وُلِد ومات دون أن يُزعِج أحداً. كان لا يلتقي إلا بعدد قليل جدّاً من أصدقائه الدائمين، بينما راحت شهرة أنّه شاعر عظيم تكبر في حياته، كما تكبر الأمجاد بعد الموت.

كانوا ينادونه بالأعور دون أن يكون كذلك، لأنّه في الواقع لم يكن إلاّ أحول، لكن أيضاً بطريقة مختلفة. كان عند أخيه دومينغو لوبِّثْ إسكوارياثا، مدير «إلْ أونيفِرسال»، الجواب ذاته لمن يسألونه عنه:

ـ هو ذا هناك.

كان يبدو هذا تملّصاً، لكنّه الحقيقة الوحيدة: هو ذا هناك؛ حيّ أكثر من أيّ شخص آخر، لكنّه أيضاً كان يملك فضيلة أنّه كذلك دون أن يعرف هذا أكثر من اللازم، يعي كلّ شيء ومصمّم على أن يقبر نفسه بنفسه، ساعياً إلى ذلك على قدميه. كانوا يتحدّثون عنه كما يتحدّثون عن تحفةٍ تاريخيةٍ، خاصّةً بين من لم يقرؤوه. حتّى أنّني حين وصلت إلى كارتاخِنا لم أحاول أن أراه احتراماً لخصائصهِ كرجل خفيّ. كان وقتها في الثامنة والستين من عمره، ولم يشكّ أحدٌ قط بأنّه شاعر اللغة العظيم على امتداد الأزمنة، رغم أنّنا لم نكن

كثراً. نحن الذين يعرفون من كان ولماذا كان، كما لم يكن من السهل تصديق ذلك نظراً لنوعية أعماله الغريبة.

ثابالا، ورخاس هِراثو، وغوستابو إيبارّا، كلّنا كنّا نعرف عن ظهر قلبٍ قصائدَ له ونُنشدها دائماً، دون أن نُفكِّر بالأمر، بطريقة تلقائية وصحيحة لإنارة أحاديثنا. لم يكن نفوراً بل خجولاً. لا أذكر حتى اليوم أنّني رأيت له صورةً، إن وجدت، بل رأيتُ بعضَ رسوم الكاريكاتير السهلة، التي كانت تُنشر بدلاً عنها. أظنّ أنّنا بتأثير عدم رؤيتنا له نسينا أنّه كان ما يزال حيّاً، حتى سمعتُ ذات ليلة، وأنا أنهي زاويتي اليومية، صرخةً مخنوقة من ثابالا:

- ويحك، الأعور!

رفعتُ نظري عن الآلة، ورأيتُ أغربَ رجل سأراهُ في حياتي: كان أقصر مما كنّا نتصوّره، بشعر هو من البياض بحيث بدا أزرق، ومن التشعث بحيث بدا مستعاراً. لم يكن أعورَ في عينه اليسرى، بل كما يدلّ عليه لقبه: أحول. كان يرتدي، كأنّه في البيت، بنطلوناً قطنياً داكناً وقميصاً مخطّطاً، يده اليمنى على مستوى الكتف، ويحمل قدّاحة فضية وسيجارة مشتعلة لا يُدخِّنها، يسقط رمادها، دون أن ينفضه، حين لا يعود يقوى على حمل نفسه.

مرّ عرَضاً إلى مكتب أخيه، وخرج بعد ساعتين حين لم يبق غيرنا، أنا وثابالا، في قاعةِ التحرير منتظرين كي نُسلّم عليه. مات بعد قرابة السنتين، والصدمة التي خلّفها عند الأوفياء له لم تكن صدمة أنّه مات بل أنّه بُعِث. لم يبدُ وهو معروض في تابوته ميتاً كما كان يبدو وهو حيّ.

في المرحلة ذاتها ألقى الكاتبُ الأسباني داماسو ألونسو(*) وزوجته، الروائية إوْلاليا غالبارّياتو، محاضرتين في مُدرَّج

(*) داماسو ألونسو (1895 - 1996) شاعر ولغويّ أسباني. ينتمي إلى جيل السابع والعشرين الشعري. له: «أبناء الغضب» و «الإنسان والله». كما أن له بحوث هامّة عن الشاعر الصوفيّ الأسباني سان خوان دِ لا كروث، والشاعر لويس دِ غونغورا. رئيس الأكاديمية الملكية للغة (1968 - 1982).

الجامعة. المُعلّم ثابالا، الذي لم يكن يُحب أن يُعكّر حياةَ الآخرين انتصر لأوّل مرّة على حذره وطلب منهما مقابلة. رافقناه أنا وغوستابو إيبارّا وهِكتور روخاس هِراثو. وقع سحرٌ فوريّ معهما. بقينا قرابة أربع ساعاتٍ في قاعة خاصّة من فندق الكاريبي نتبادل انطباعاتٍ عن رحلتهما الأولى إلى أمريكا اللاتينية، وأحلامنا ككتاب جدد. حمل لهما هِكتور ديوان شعر، وحملتُ أنا صورةً عن قصّة منشورة في «إلْ إسبِكتادور». كلانا اهتممنا أكثر من أيّ شيء بصراحة تحفظاتهما، لأنّهما كانا يستخدمانها كتأكيدات متأنية لمديحهما.

وجدتُ في تشرين الأوّل في «إلْ أونيفِرسال» رسالةً من غونثالو مابّارينو، يقول لي فيها إنّه ينتظرني مع الشاعر ألبارو موتيس في فيلا توليبّان، النزل الذي لا يُنسى في منتجع بوكاغراندِ، على بعد أمتار من المكان الذي هبط فيه تشارلز ليندبرغ قبل عشرين سنة تقريباً. كان غونثالو، شريكي في الأماسي الأدبية في الجامعة، قد أصبح محامياً متمرِّساً ودعاه موتيس كي يتعرّف على البحر، بصفته رئيساً للعلاقات العامّة في لانْسا، الشركة الجوّية الأوروبية التي أسّسها طياروها أنفسهم.

التقت قصائد موتيس وقصصي على الأقلّ مرّة واحدة في ملحق «فين دِ سِمانا» وكان كافياً أنّنا رأينا بعضنا بعضاً كي نبدأ حواراً لم ينتهِ حتى الآن، في أماكن لا تُحصى من العالم على امتداد أكثر من نصف قرن. سألنا أولادُنا أوّلاً، ثم أحفادُنا ثانياً، ما الذي كنّا نتحدّث عنه بكلّ ذلك الحماس الحار، وأجبناهم بالحقيقة: دائماً نتحدّث عن الشيء ذاته.

شجّعتني صداقاتي العجيبة مع الناضِجين في الفنون والآداب على العيشِ في تلك السنوات، التي ما زلتُ أذكر أنّها أكثر سنواتِ عمري قلقاً. كنتُ قد نشرتُ في العاشر من تموز آخرَ زاوية في «نقطة ومن أوّل السطر» في «إل أونيفِرسال» بعد ثلاثة أشهر شاقّة لم أتمكّن خلالها من تجاوز حواجز المبتدئ، وفضّلت قطعها بالفضيلة الوحيدة وهي الهرب في الوقت المناسب. لذت في حصانة

التعليقات في صفحة الرأي، دون توقيع، إلاّ حين كانت تنطوي على ملمسٍ شخصيّ. حافظتُ عليها لمجرّد أنّها عمل روتيني حتى أيلول من العام 1950 بزاوية مفخّمة عن إدغار آلان بّو، ميّزتها الوحيدة أنّها كانت الأسوأ.

كنتُ ألح ذلك العام على أن يُعلِّمني المُعلِّم ثابالا أسرارَ كتابة التحقيقات الصحفية. لم يُقرّر ذلك قط، نظراً لطبيعته الغامضة، لكنّه تركني مشوّشاً بلغزِ طفلةٍ، في الثانية عشرة من عمرها، مقبورة في دير سانتا كلارا، نما شعرها بعد موتها حتى وصل خلال قرنين إلى أكثر من مئتي متر. لم أفكّر قط أنّني سأعود إلى الموضوع بعد أربعين سنة، كي أرويه في رواية رومانسية ذات تورّطات مشؤومة. لكنّها لم تكن أفضل أزمنتي للتفكير. فقد كنتُ أثور غضباً لأيّ سببٍ، أغيبُ عن الوظيفة دون تبريراتٍ، إلى أن يُرسل المُعلِّم ثابالا من يهدِّئني. نجحت في الامتحانات النهائية للسنةَ الثانية من الحقوق بضربة حظّ، وبقي عليّ إعادة مادّتين فقط، واستطعت أن أسجّل في الصف الثالث، لكن جرت شائعة بأنّني حقّقتُ ذلك بضغوط سياسية من الصحيفة. واضطرّ المدير لأن يتدخّل حين ضبطوني عند مخرج السينما ومعي دفتر خدمة علم مزيّف، وقد وضعوني على اللائحة كي يُدرجوني في مهمات أمنٍ عام تأديبيّة.

لم أنتبه، في عمايَ السياسي في تلك الأيام، إلى أنَّ منع التجول قد فُرِض من جديد في البلد بسبب تدهور الأمن العام. قامت الرقابة على الصحافة بعدّة حملاتٍ مدوّخة. صار الجوّ غريباً، كما في أسوأ الأزمنة، والشرطة السياسية عُزّزت بمجرمين عاديين يزرعون الرعب في الريف. أجبر العنفُ الليبراليين على هجر أراضيهم ومنازلهم؛ وصرّح مرشّحهم المحتمل، داريّو إتشاديّا، معلّم معلّمي الحقوق المدنية، المُتَشَكِّك بالولادة والقارئ المهووس لليونانيين واللاتينيين، بأنّه مع إحجام الليبراليين عن الانتخابات. فأصبح الطريق ممهداً لانتخاب لاوريانو غومِث، الذي بدا أنّه يقود الحكومة بخيوط خفيّة من نيويورك.

لم أكن أملك آنذاك وعياً واضحاً بأنّ تلك البلايا ليست مجرّد

وصمة عار على جبين المُحافِظين البائسين، بل أعراض تغييرات سيّئة في حياتنا، حتى جاءت ليلة من ليالٍ كثيرة في لا كوبا، حين خطر لي أن أقوم باستعراض نزوتي للقيام بما يحلو لي. أبقى المعلّم ثابالا ملعقة الحساء عالقة في الهواء حين أوشك على تناولها، ناظراً إليَّ من فوق إطار نظارته، وأوقفني فجأةً:

ـ قل لي شيئاً واحداً، يا غابرييل: هل استطعتَ، وسط كلّ هذه الحماقات التي تقوم بها، أن تنتبه إلى أنّ هذا البلد ينتهي؟

أصاب السؤال مرماه. تمدَّدت سكراناً حتى النخاع العظمي كي أنامَ فجراً على مقعد في شارع لوس مارتيرِسْ المشجّر، وحوّلني مطر طوفاني إلى حساء عظام. بقيتُ أسبوعين في المُستشفى أعاني من التهاب رئوي عصيّ على أوّل أنواع المضادات الحيوية المعروفة، ذات السمعة السيئة بأنّ لها عواقب مخيفة، كالعجز الجنسي المبَكِّر. استدعاني والداي إلى سوكرِ، وأنا أكثر ضعفاً وشحوباً مما في الحالة الطبيعية، كي أتعافى من فرط العمل ـ كما قالا في رسالتهما ـ ومضت «إلْ اونيفِرسال» إلى ما هو أبعد من ذلك، حين نشرت مقالَ وداعِ كرّسني كصحفيٍّ وكاتب يتمتّع بإمكانيات معلّم، وفي مقالٍ آخر كمؤلف لروايةٍ لم توجَد قط وبعنوان لم يكن لي: «لقد حصدنا النفل». وجاء هذا أكثر غرابة لأنّه لم تكن عندي أيّة نيّة بارتكاب جريمة العودة لكتابة القصّة الخيالية. الحقيقة أنّ ذلك العنوان، الغريب عنيّ كلّ الغرابة، اخترعه هِكتور روخاس هِراثيو بجرّة آلة كاتبة كمساهمة من المساهمات الأخرى من ثِسر غِرّا بالدِسْ، وهو كاتب وهمي من أعرقِ السلالات الأمريكية اللاتينية، التي أبدعها بنفسه ليُغني به جدلنا. كانَ هِكتور قد نشر في «إلْ أونيفِرسال» خبرَ وصوله إلى كارتاخِنا، وكتبتُ أنا تحيّة إليه في قسمي «نقطة ومن أوّل السطر» بأملِ أن أنفض الغبارَ عن رواية قارّية حقيقية في الضمائر النائمة. في جميع الأحوال ذُكرت الرواية المتوهَّمة، بعنوانها الجميل الذي اخترعه هِكتور، بعد سنواتٍ في مقال نقدي عن كتبي كعمل عظيم من أعمال الأدب الجديد، لا أدري أين نُشر، ولا لماذا.

كان الجوّ الذي وجدته في سوكرِ مناسباً جدّاً لأفكاري في تلك الأيّام. كتبتُ لخِرمان بارغاس، أطلب منه أن يرسل إليّ كتباً، كتباً كثيرةً، كثيرة بقدر ما يمكن، كي أغمر بأعمالٍ عظيمةٍ نقاهةً متوقّعة لمدّة ستة أشهر. كانت البلدة في حالة طوفان، وأبي قد نبذ عبوديةَ الصيدلية وبنى لنفسه داراً في مدخل البلدة تستوعبنا، نحنُ أبناءه الذين أصبحنا أحد عشر ولداً، بعد أن وُلِد إليخيو قبل ستّة عشر شهراً. كانت داراً كبيرةً وسط النور، فيها شرفةٌ للزيارات أمام النهر ذي المياه الداكنة، ونوافذ مفتوحة على نسائم كانون الثاني، وتحتوي على ستّ غرف نوم، حسنة التهوية مع سرير لكلّ فردٍ وليس لكلّ اثنين كما في السابق، وحلقات لتعليق شباك النوم على مستويات مختلفة حتى في الممرات. وكان فناؤها غير المسيّج بالشريط الشائك يمتدّ حتى الجبل البكر بأشجار مثمرة ملكيتها عامّة، وحيوانات خاصّة وغريبة تتنزّه في غرف النوم. أمّي، التي كانت تحنّ إلى فناءات طفولتها في بارّانكاس وأراكاتاكا، تعاملت مع الدار الجديدة كمزرعة فيها بط ودجاج دون قنّ، وخنازير فاسقة تدخل إلى المطبخ لتأكل طعام الغداء. كان ما يزال من الممكن اغتنام الصيف للنوم، والنوافذ مفتوحة، على صوت ربو الدجاج فوق الدعائم ورائحة ثمار شجرة القشطة الشائكة الناضجة والفوّاحة، التي تسقط في الفجر محدثةً خبطاً تلقائياً ومكثفاً. كانت أمّي تقول إنّها «تُحدثُ أصواتاً كأصوات الأطفال». قصر أبي استشاراتٍ بعض الأوفياء القليلين للمعالجة المثلية على الفترة الصباحية، كان ما يزال يقرأ كلَّ ورقةٍ مطبوعةٍ تمرّ بقربه، وهو متمدِّد في شبك نومه المعلّق بين شجرتين؛ وأصيب بعدوى حمى التسلية بالبلياردو للخروج من كآبة المساء. كما هجر أيضاً ملابسَهُ القطنيةَ البيضاء وربطة عنقه، وصار يسير في الشارع بقمصان شبابية، قصيرة الأكمام، كما لم يره أحدٌ من قبل.

كانت الجدّةُ ترانكيلينا إغواران قد تُوفِّيَت قبل شهرين عمياءَ ومعتوهة، وبقيت تُصرِّح في صحوات احتضارها، بصوتها البهيّ ونطقها التام، بأسرار الأسرة. كان موضوعها الأبدي حتى آخر

نفس هو تقاعد الجدّ. حضّر أبي الجثّة «بالصبران الحافظ»، وغطاها بالكلس داخل التابوت ليوفّر لها تفسّخاً وديعاً. لقد أعجبت لويسا سانتياغو دائماً بشغفِ أمّها بالوردِ الأحمر، وعملت لها حديقة منه في عمق الفناء كيلا يخلو منها قبرُها أبداً، وأدرك إزهارُها ألقاً جعل الوقت لا يكفي لإرضاء الغرباء، الذين راحوا يأتون من بعيد متلهفين لمعرفة ما إذا كانت كلّ تلك الورود الفاخرة من عمل الرب أم الشيطان.

كانت تلك التغيرات في حياتي وفي طرِيقتي بالحياة تُواكِبُ التغيرات في بيتي؛ الذي راح يبدو لي في كلِ زيارة مختلفاً، نظراً للإصلاحات والتبديلات التي يقوم بها والداي ولأخوتي الذين يولدون ويكبرون متشابهين بحيث أصبح الخلط بينهم أسهل من تمييزهم. كان خايمهْ، الذي أتمّ العاشرة، أكثر من تأخّر في الانفصال عن حضن الأم، لأنّه خديج، ولم تكن أمّي قد انتهت من إرضاعه حين ولد هِرناندو (نانتشي). بعد ثلاث سنوات وُلد ألفرِدو ريكاردو (كوكي) ثم بعده بسنة ونصف إليخيو (ييّ)، الوحيد الذي بدأ في تلك الإجازة يكتشف معجزة الحبو.

كما كنّا نحصي أخوتي من أبي، قبل وبعد الزواج: كارمِن روسا، في سان ماركوس، وأبِلاردو، اللذان كانا يقضيان فتراتٍ في سوكرِ وخِرماينِ هاناي (إمي) الذي تبنته أمّي كابن لها بموافقة أخوتي، وأخيراً أنطونيو ماريّا كارِت (تونيو)، الذي ربته أمّه في سينثِهْ، وكان يزورنا تكراراً. كان مجموعنا خمسة عشر وكنّا نأكل مثل ثلاثين حين يتوافر الطعام ونجلس حيث نستطيع.

الرواياتُ التي رواها أخوتي الكبار عن تلك السنوات تعطي فكرة تامّة عن كيف كان البيت؛ حيث لم يكونوا لينتهوا من تربيةِ ولد حتى يكون قد وُلِد آخر. أمّي نفسها كانت واعية لذنبها، وتتوسّل بناتها كي يأخذن على عاتقهن الصغار. كانت مارغوت تموت ذعراً حين تكتشف أنّ أمّها حاملٍ من جديد، لأنّها تعرف أنّه لن يكون عندها وقت لتربيتهم جميعاً وحدها، وهكذا توسّلت أمّها قبل أن تذهبَ إلى مدرسةِ مونتِريّا الداخلية، بجدِّيّةٍ مُطلقة، أن يكون الولدُ

التالي هو الأخير. وعدتها أمّي بذلك، كما هو الحال دائماً، ولو فقط لإرضائها، لأنّها كانت واثقة من أنّ اللهَ، بحكمته المطلقة، يحلّ المشكلة بأفضل طريقة ممكنة.

كان الطعام على المائدة كارثياً، لأنّه لم تكن توجدُ طريقة لجمع الجميع. فأُميّ والبنات الكبيرات يمضين في تقديم الطعام مع تتالي وصول الآخرين، ولم يكن غريباً أن يصل أحدٌ ما عند الانتهاء فيُطالِب بحصّته. في الليل كان الصغار، الذين لا يستطيعون النوم من البرد أو الحرِّ، من وجع الضرس أو الخوف من الأموات، حبّاً بالوالدين أو غيرةً من الآخرين، يمضون إلى فراش أبويّ فيصبحُ الجميعُ متكدّسين في فراش الزوجية. وإذا لم يولد آخرون بعد إليخيو فالفضل بذلك يعودُ لمارغوت، التي فرضت سلطتَها حين عادت من المدرسة الداخلية، ووقّت أمّي بوعدِ ألاّ تُنجب ولداً آخر.

من المأساة، أن الواقعَ ملك متسعاً من الوقت، وليُدخل خططاً أخرى بالنسبة إلى الأختين الكبيرتين، اللتين بقيتا عازبتَين طِوال حياتهما. دخلت عايدة، كما في الروايات الوردية، في دير مؤبّد، وتخلّت عنه تماماً بعد اثنتين وعشرين سنة، حين لم تجد رافائيل نفسه ولا أيّ رافائيل آخر في متناول يدها. أضاعت مارغوت بطبيعتها القاسية خطيبَها بسبب خطأ من كليهما. تزوّجت مارغوت، آخذةً بالحسبان سوابق بمثل هذا الحزن، من أوّل رجل أعجبها، وكانت سعيدة، فقد أنجبت خمسةَ أولاد وتسعةَ أحفادٍ. الأخريتان - ليخيا وإمي - تزوّجتا ممن رغبتا حين تعب الوالدان من مصارعة الحياة الواقعية.

يبدو أن ضائقات الأسرة كانت جزء من الأزمة التي بات البلدُ يعيشها بسبب التقلقل الاقتصادي، والنزيف الناتج عن العنف السياسي الذي وصل إلى سوكرِ كمحطّة مشؤومة، ودخل البيتَ متسلّلاً، لكن بخطوات ثابتة. عندها كنّا قد أتينا على الاحتياطي القليل المتبقي معنا، وعدنا فقراءَ كما كنّا في بارّانكيّا قبل الرحيل إلى سوكرِ. لكنّ أمّي لم تتبدلّ بسبب يقينها المجرّب، بأنّ كلّ طفلٍ يأتي معه بخبزه تحت إبطه. تلك كانت حال البيت حين وصلتُ من

كارتاخِنا، في نقاهة من التهاب الرئتين، لكنّ الأسرة تحايلت على الأمر في الوقت المناسب كيلا ألحظ ذلك.

كان الموضوع العامّ المُفضّل في البلدة هو العلاقة المفترضة بين صديقنا كايتانو خنتيلِ ومعلمّة في مزرعة تشابرّال القريبة، الفتاة الجميلة التي تنتمي إلى وضع اجتماعيّ مختلف عن وضعه، لكنّها جدّية جدّاً ومن أسرة محترمة. لم يكن غريباً: فكايتانو كان دائماً نقّار أزهار، ليس في سوكرِ وحسب، بل وفي كارتاخِنا أيضاً، حيث درس الثانويةَ وشرع بدراسة الطب. لكن لم تُعرف له خطيبة حقيقية في سوكرِ، ولا رفيقات مفضلات في الرقص.

رأيناه ذات ليلة يصل من مزرعته على أفضل أحصنته: المعلّمة على السرج والزمام في يدها، وهو على الكفل لافّاً خصرها. لم تكن درجةُ الثقة التي أحرزاها وحدها هي التي فاجأتنا، بل جرأتهما أيضاً على الدخول عبر ممرّ الساحة الرئيسية في أكثر الساعات حركةً وفي بلدة سيّئة الظنّ. وضّح كايتانو لمن أراد أن يُصغي إليه أنّه وجدها أمام باب مدرستها بانتظار من يُحسن إليها، ويأخذها إلى البلدة في مثل تلك الساعة من الليل. حذّرتُه مازحاً بأنّه سيستيقظ في أيّ يوم وعلى بابه منشور، فهزّ كتفيه بإيماءة تميّز بها، وأطلق مزحته المفضَّلة:

ـ لا يجرؤون على فعل ذلك مع الأغنياء.

وبالفعل ذهبت موضة المنشورات بالسرعة التي وصلت بها، وفكّر الناسُ أنّها ربّما جاءت علامةً على سوء مزاجٍ سياسيّ كان يكتسح البلد. عاد الهدوءُ إلى حلم من كانوا يخافونها. بالمقابل شعرتُ بعد أيّام قليلة من وصولي بأنّ تغيّراً ما قد طرأ تجاهي في نفس بعض أنصار والدي، الذين أشاروا إليّ ككاتبِ مقالاتٍ ضدّ الحكومة المحافِظة، منشورة في «إلْ أونيفرسال». لم يكن صحيحاً. فأنا إذا كنتُ قد اضطررت لأنّ أكتبَ ذات مرّة زوايا سياسية فقد جاءت دائماً مُهملة التوقيع وعلى مسؤولية الإدارة، منذ أن قرّرتْ هذه إيقافَ سؤال ماذا جرى في كارمن دِ بوليفار. مقالات عمودي الموقّع كانت تكشف ودون شكّ عن موقف واضحٍ من حال البلد

السيّئة وعن العنف والظلم، لكن دون شعارات حزبية. عملياً لم أكن آنذاك، ولا في أيّ وقت آخر، عضواً في أيّ حزب. أرعبتْ التهمةُ والديَّ وشرعت أمّي تُشعِلُ الشموع للقديسين، خاصّة حين أتأخر بالعودة من الشارِعِ. شعرتُ لأوّل مرّة بجوٍّ حولي كان من القمع، حيثُ قرّرتُ أنْ أُقلّلَ من خروجي من البيت قدرَ المستَطاع.

في تلك الأزمنة السيّئة مَثَلَ في عيادة أبي رجلٌ مدهِش، بدا شبحَ نفسه، له جلد شفاف، يسمح برؤية لون عظامه وبطن منتفخ ومشدود مثل طبل. لم يحتج أن يقول غير جملة واحدة كي لا يُنسى أبداً:

- يا دكتور، جئتُ كي تُخرِجَ قرداً مذنّباً جعلوه ينمو في بطني.

انتبه أبي بعدما فحصه إلى أنّ الحالةَ لم تكن ضمنَ نطاق علمه، فأرسله إلى زميل جرّاح لم يجد القردَ المذنّب الذي اعتقد المريض بوجوده، بل مسخاً هيولياً، لكن له حياته الخاصّة. ومع ذلك فإنّ ما همّني لم يكن بهيمة البطن، بل رواية المريض عن أسطورة عالم لا سييربِّ السحريّ، وهو بلد أسطوريّ ضمن حدود سوكرِ، لا يمكن الوصول إليه إلاّ من خلال أرض السبخ المرتجة التي يتصاعد منها الدخان، حيث أنّ أحد أكثر الأحداث شيوعاً هو الانتقام من إهانة ما، تُسبّب ضرراً كالضرر المتعلق بمخلوق الشيطان داخل البطن.

كان سكّانُ لا سييربِّ كاثوليكيين مقتنعين، لكنّهم يعيشون الدينَ على طريقتهم، بصلوات سحريّة لكلّ مناسبة؛ يؤمنون بالله والعذراء والثالوث المقدّس، لكنّهم يعبدونهم في أيّ شيءٍ يبدو لهم أنّ فيه قدرات إلهية. ما بدا لهم غير حقيقي هو أنّ رجلاً تنمو في داخله بهيمة شيطانية يكون من العقلانية بحيث يلجأ إلى هرطقة جرّاح.

سرعان ما فوجئتُ بأنّ الجميع في سوكرِ يعلمون بوجود لا سييربّ، كشيءٍ واقعي، كانت مشكلتها الوحيدة تكمن في الوصول إليها عبر كلّ أنواع العوائق الجغرافية والذهنية. اكتشفتُ في آخر ساعة بالمصادفة أنّ المعلمّ الضليع في موضوع لا سييربّ هو صديقي أنخِلْ كاسيخ، الذي رأيته لآخر مرّة يُغنّي في جوقة في الحيّ الصيني في بارّانكابِرمِخا خلال رحلتي الثانية أو الثالثة عبر نهر مَغدلِنا. وجدته أكثر استخداماً للعقل من المرّة الفائتة، يروي رواية

مبهرة عن عدّة رحلات قام بها إلى لا سييربٍّ. عند ذلك عرفتُ كلّ ما يمكن أن يُعرَفَ عن لا ماركِسيتا(*)، مالكة وسيّدة تلك المملكة الفسيحة حيث تُعرَفُ عدّة صلوات لفعل الخير أو الشر، لإنهاض مُحتَضَر من فراشه، لا يُعرف عنه غيرُ وصفه الجسدي والمكان الدقيق الذي هو فيه. أو لإرسال أفعى عبر المستنقعات تقتلُ بعد ستة أيّام عدوّاً.

الشيء الوحيد الذي كان محظوراً عليها هو إحياء الموتى، كونه محصور بالله. عاشت كلّ السنوات التي أرادتها، ويُفترض أنّها كانت مئتين وثلاثاً وثلاثين عاماً، لكن دون أن تكون قد شاخَت يوماً واحداً بعد السادسة والسبعين. جمعت قبل وفاتها قطعانها الخرافية وجعلتها تدور يومين وليلتين حول دارها حتى تشكّل مستنقع لا سييربٍّ، البحر الذي لا حدود له المغطى بأنِمونات فوسفورية. يُقال إنّ في وسطها شجرة تحمل قرعاً من ذهب وربِط إلى جذعها زورق يمضي في الثاني من شهر تشرين ثانٍ من كلّ عام، يوم الموتى، مُبحراً دون ربّان إلى الضفّة الأخرى، تحرسه التماسيح البيضاء والأفاعي ذات الأجراس الذهبية، حيث طمرت لا ماركِسيتا ثروتَها التي لا حدود لها.

منذ أن حكى لي أنخِل كاسيخ هذه القصّة الخيالية، راحت تلحّ عليَّ الرغبة بزيارة جنّةِ لا سييربٍّ المحصورة في الواقع. حضّرنا كلّ شيء، خيولاً مُحَصَّنة بصلواتٍ ضد السحر، وزوارقَ لامرئية وأدلاء سحرة، وكلّ ما هو ضروريّ لكتابة قصّة واقع خارقٍ للطبيعة.

ومع ذلك فالبغال بقيت مُسرجة. نقاهتي من التهاب الرئتين البطيء، سخريات أصدقائي في حفلات رقص الساحة، وتنكيل الأصدقاء الكبار المرعب أجبرتني كلّها على تأجيل الرحلة إلى موعدٍ لاحقٍ لم يأتِ قط. ومع ذلك أستحضِر ذلك كلّه كبديل عن الحظّ الحسن، لأنّه ونظراً لغياب لا ماركِسيتا الخيالية، فقد انهمكتُ منذ

(*) المركيزة الصغيرة.

اليوم التالي بعمقٍ في كتابةِ روايتي الأولى التي لم يبق عندي منها غير عنوانها: «البيت».

كنتُ أطمح لأن تكون مأساةَ حربِ الألف يوم في الكاريبي الكولومبي، التي تحدّثت عنها مع مانولِ ثابّاتا أوليبيًا، في زيارة سابقة إلى كارتاخِنا. أهداني في تلك المناسبة، بعيداً عن أيّة علاقة بمشروعي، نشرةً كتبها أبوه عن محاربٍ خَبير بتلك الحرب، ذكّرتني صورتُه المطبوعةُ على الغلاف ببلوزة وشاربين محروقين بالبارود، بطريقةٍ ما، بجدّي. نسيتُ اسمه، لكنّ كنيته استمرّت معي إلى أبد الآبدين: «بوِنديّا». ولذلك فكّرتُ بأن أكتب روايةً بعنوان «البيت» حول ملحمةِ أسرةٍ، يمكن أن يكون عندها الكثير مما عند أسرتنا خلال حروب الكولونيل نيكولاس ماركيز العقيمة.

كان العنوان يرتكز على هدف ألاّ يخرج الفعل من البيت أبداً. وضعتُ عدّةَ بداياتٍ ومخططاتٍ لشخصيات جزئية، أضعُ لها أسماء من الأسرة، أفادتني فيما بعد في كتب أخرى. إنّني شديد الحساسية أمام جملة مؤلّفة من كلمتين قريبتين تسجعان فيما بينهما، وإن كان سجعاً صوتياً، وأُفضِّل ألاّ أنشرها ما لم أجد لها حلاً. لذلك أوشكتُ مرّاتٍ عديدةً على التخلّي عن كنية بوِنديّا، نظراً لأنّه يسجع بطريقة حتمية مع نهايات الفعل الماضي المستمرّ. ومع ذلك انتهت الكنية بأن فرضت نفسها، لأنّني تمكّنت من أن أخلق لها هويّة مُقنِعةً.

كنتُ مشغولاً بهذا حين أصبح في بيتِ سوكرِ صندوقٌ خشبيّ، لا يحملُ أيّة عناوين مرسومة، أو أيّة إشارة إلى المصدر. استلمته أختي مارغوت دون أن تدري مِمَّن، واثقة من أنّه من بقايا الصيدلية المباعة. فكّرتُ بالشيء ذاته وتناولتُ طعام الإفطار مع الأسرة وقلبي في مكانه. قال والدي إنّه لم يفتح الصندوق، لأنّه فكّر أنّه بقايا أمتعتي، دون أن يتذكّر أنّه لم يكن قد بقي عندي أيّ أثر في هذا العالم. قرّر أخي غوستابو، الذي صار عنده خبرة كافية منذ الثالثة عشرة من عمره في تسمير ونزع مسامير أيّ شيء، فَتْحَهُ دون إذن، سمعنا بعدها صياحه:

ـ إنّها كتب!

قفزَ قلبي قبلي. كانت بالفعل كتباً دون أيّ شيء يدلّ على المرسل، حُزمت بيد ماهرة حتى أعلى الصندوق مع رسالة يصعب فك رموزها، نظراً لخطّ جِرمان بارغاس الهيروغليفي وغنائيته المصمتة: «إليك هذه الرزمة، يا مُعلِّم، لنر ما إذا كنت ستتعلّمٍ أخيراً». كانت تحمل أيضاً توقيعَ ألفونسو فونْمايور، وخربشةٍ حدّدت أنّها لِدونْ رامون بينيِّس، الذي لم أكن قد تعرّفت إليه بعد. الشيء الوحيد الذي نصحوني به هو ألاّ أرتكب أيَّ انتحالٍ فاقع. كان في داخل أحد كتب فوكنِر ملاحظة من ألبارو ثِبِّدا، بخطِّه الصعب، مكتوبة إضافة إلى ذلك بسرعة كبيرة، يخبرني فيها أنّه سيذهب في الأسبوع التالي لمدّة عام لاتباع دورة دراسية في مدرسة الصحافةِ التابعة لجامعة كولومبيا في نيويورك.

أوّل شيء فعلتُهُ هو أنّني فردتُ الكتبَ على طاولة غرفة الطعام، بينما أمّي تنتهي من رفع بقايا طعام الإفطار. اضطرّتْ لأن تتسلّح بمكنسة لتُبعدَ الأبناء الصغار الذين كانوا يريدون أن يقصّوا الصور التوضيحية بمقصّ التقليم، وكلاب الشارع التي راحت تشم الكتبَ، كما لو أنّها شيء يؤكل. أنا أيضاً شممتُها، كما أفعل دائماً بأيّ كتابٍ جديد، وتصفَّحتُها كلّها لا على التعيين، قارئاً مقاطعَ متفرّقة. بدّلتُ مكاني ثلاث أو أربع مرّاتٍ في الليل، لأنّني لم أعثر على السكينة، أو لأنّ نورَ ممرِّ الفناء الباهِت أنهكني وأصبحتُ على ظهري معوجّاً، دون أيّة فكرة مفيدة يمكن أن أكون قد استخلصتُها من تلك المعجزة.

كانت ثلاثة وعشرين عملاً متميّزاً لمؤلفين معاصِرين، جميعها بالأسبانية ومنتقاة بقصدٍ واضح لأن تُقرَأ لغاية وحيدة هي تعلّم الكتابة. وبينها ترجمات جديدة مثل «الصخب والعنف» لوليام فوكنر. من المحال عليّ الآن وبعد خمسين عاماً تذكّر اللائحة كاملة وأصدقائي الأبديين الذين كانوا يعرفونها ما عادوا هنا كي يتذكّروها. لم أكن قد قرأت إلا عملين فقط: «السيّدة دلوي» للسيّدة وولف و «الطباق» لألدوس هيكسلي. أفضل ما أتذكّره منها هي أعمال وليام فوكنِر: «الضيعة البائسة»، و «الصخب والعنف»

و«بينما أرقدُ مُحْتَضَرة» و«النخيل البرّي». وكذلك «مانهاتن ترانسفير»، وربّما عمل آخر لجون دوس باسوس؛ و«أورلاند» لفرجينيا وولف؛ و«الفئران والرجال» و«عناقيد الغضب» لجون شتاينبك و«صورة جيني» لِروبرت ناثان و«طريق التبغ» لإرسكين كالدويل. من بين العناوين التي لا أتذكّرها بعد نصف قرن هناك واحد على الأقل لهمنغواي، ربّما كان قصصاً هي أكثر ما أَحَبَّهُ ثلاثيُّ بارّانكيّا؛ وآخر لخورخِه لويس بورخِس لا شكّ أنّه مجموعة قصصية أيضاً، وربّما آخر لِفِليسبِرتو هِرنانِدِث، القاصّ الأوروغوائي الفريد، الذي كان قد اكتشفه أصدقائي بالصراخ. قرأتُها جميعها في الأشهر التالية، بعضها بشكلٍ جيّد وأخرى بشكلٍ أقل، وبفضلها تمكّنتُ من الخروج من الليمبوس الإبداعي الذي كنتُ متورّطاً فيه.

منعوني من التدخين بسبب الالتهاب الرئوي، لكنّني صرتُ أُدخِّن في الحمّام، كما لو خلسة عن نفسي. انتبه الطبيبُ لذلك وكلّمني بجدّية، لكنّني لم أتمكّن من إطاعته. في سوكرِ بينما كنتُ أحاولُ أن أقرأ الكتبَ المستلَمَةَ بنهَم، أُشْعِل السيجارة من جمرة الأخرى حتى لا أعود أستطيع تدخين المزيد، وكنتُ كلّما حاولتُ الإقلاعَ عنه كلّما دخّنتُ أكثر. صرتُ أدخِّن أربع علب في اليوم، أقطعُ طعامي كي أدخِّن، أحرقُ الملاحفَ لأنّني أغفو والسيجارة مشتعلة. كان الخوف من الموت يوقِظني في كلّ ساعة من ساعات الليل، الذي لم يكن باستطاعتي تحمّله إلاّ بالتدخين، إلى أن قرّرت أنّني أفضِّل الموت على ترك التدخين.

بعد عشرين عاماً وأنا متزوّج وعندي أولادٌ كنتُ ما أزالُ أُدخِّنُ. قال لي طبيبٌ، شاهدَ رئتيّ على الشاشة، مذعوراً، إنّني لن أستطيع بعد سنتين أو ثلاث أن أتنفّس. وصل بي الأمر أقصاه بأن صرتُ أمكثُ جالساً ساعاتٍ وساعات مذعوراً لا أفعل شيئاً، لأنّني لا أستطيعُ القراءة، أو سماع الموسيقى، أو التحدث مع الأصدقاء أو الأعداء دون تدخين. وذات ليلة وخلال عشاءٍ عرضيّ في برشلونة كان هناك طبيبٌ نفسي يشرح لآخرين أنّ التدخين ربّما كان أصعب

عادة على الاجتثاث. وتجرّأت على سؤاله عن السبب الأساسي، وجاء جوابه بسيطاً بساطةً مقشعرة للبدن:

- لأنّ الإقلاعَ عن التدخين سيكون بالنسبة إليك كقتل شخصٍ عزيز عليك.

كانت فكرة متبصرة وسريعة. لم أعرف قط لماذا، كما لم أبغِ معرفة ذلك، لكنّني هصرت في المرمدة السيجارةَ التي كنتُ قدَ أشعلتُها للتو، ولم أدخّن بعدها سيجارة واحدة، بلا جزع ولا ندم بقيّة حياتي.

لم تكن العادةُ الأخرى أقلّ ضغطاً. دخلتْ ذات يوم إحدى خادماتِ البيت المجاور، ثم وبعد أن تكلَّمتْ مع الجميع، ذهبت إلى الشرفة واستأذنتني باحترامٍ كبير قائلةً بأنها تريد أن تتكلّم معي. لم أقطع قراءتي حتى سألتني:

- هل تتذكّر ماتيلدِ؟

لم أتذكّر من كانت، لكنّها لم تُصدّقني.

- لا تكن وغداً، يا سيّد غابيتو! - قالت لي بنبرة تأكيدية مُهجّاة: ني - غرو - مان - تا.

كانت على حق: فنيغرومانتا كانت امرأة حرّة، عندها ابنٌ من الشرطيّ الميت، وتعيش وحدها مع أمّها وآخرين من الأسرة في البيت ذاته، لكن في غرفة منعزلة لها مخرجها الخاص باتجاه خلفية المقبرة. ذهبتُ لرؤيتها، واستمرّت لقاءاتُنا لأكثر من شهر. صرتُ في كلِّ مرّةٍ أُؤجّلُ عودتي إلى كارتاخِنا وأريدُ البقاء في سوكرِ للأبد. إلى أن باغتتني في بيتها عاصفة برقٍ ورعدٍ، مثل ليلة الروليت الروسية. حاولتُ تفاديها تحت أفاريز البيت، وحين لم أعد أستطيع أكثر انطلقتُ إلى قارعة الشارع والماء إلى ركبتيَّ. حالفني الحظُّ بأنَّ أمّي كانت وحدها في المطبخ، وحملتني إلى غرفة النوم عبر درب الحديقة كيلا ينتبه أبي. وما إن ساعدتني على خلع قميصي المبلّ، حتى أبعدته عنها مسافة ذراع، ممسكة به برأس إصبعي الإبهام والسبابة ورمت به في الزاوية منكمشة انكماش تقزّز.

- كنتَ مع فلانة - قالت.

تحجّرتُ

- كيف عرفتِ!

- لأنّها رائحة المرّة السابقة ذاتها - قالت دون رحمة - من حسن الحظّ أنّ الرجلَ ميتٌ.

فاجأتني مثل تلك القسوة التي تصدر عنها لأوّل مرّة في حياتها. لا بدّ أنّها انتبهت للأمر لأنّها تطرقت إليه دون أن تُفكّر.

- إنّها الميتة الوحيدة التي أسرّتني حين علمتُ بها.

سألتها مرتبكاً:

- كيف عرفت من هي؟

- آهِ، يا ولدي - تنهّدت - الله يقول لي كلّ ما يتعلّقُ بكم.

أخيراً ساعدتني على خلع بنطلوني المبلّل، ورمت به إلى جانب بقية الملابس. وسرعان ما قالت لي بتنهيدة عميقة، وهي تجفّفُ لي ظهري بمنشفة من الكتّان: «جميعكم ستصبحون مثل أبيكم». وانتهت قائلة من أعماق روحها:

- يا ليتكم تصبحون مثله أزواجاً جيِّدين.

العناية المأساوية التي أخضعتني إليها أمي يجب أن تكون قد صبّت تأثيرها تحسّباً من وقوعي مجدّداً في التهاب الرئة. إلى أن انتبهتُ إلى أنّها تحيكها دون سبب، كي تمنعني من العودة إلى سرير رعود وبروق نيغرومانتنا. لم أرها بعد ذلك أبداً

عدتُ إلى كارتاخِنا معافى وسعيداً، حاملاً معي خبر أنّني أكتبُ «البيتَ» ورحتُ أتكلّم عنها كما لو كانت عملاً ناجِزاً، بينما لم أُنْهِ الفصل الأوّل تقريباً. استقبلني ثابالا وهِكتور، كما لو أنّني الابن المُفضَّل. بدا أساتذتي الطيبين في الجامعة راضخين لقبولي كما كنتُ. تابعتُ في الوقت ذاته كتابةَ الزوايا العرضية جدّاً، التي كانوا يدفعون لي عنها في «إلْ أونيفِرسال» حسبَ الاتفاق. استمرّت

مسيرتي ككاتبِ قصّة قصيرة بالقليل الذي استطعت كتابته تقريباً كي أرضي المُعلِّم ثابالا: «حوار المرآة» و «مرارة لأجل ثلاثة متسرنمين»، المنشورتان في «إلْ إسبِكتادور». رغم أنّه كان يُلاحظ في كلتيهما تخفيف من البلاغة البدائية في القصص الأربعة السابقة، إلاّ أنّني لم أتمكن من الخروج من المستنقع.

كانت كارتاخِنا مُلوَّثة آنذاك بالتوتر السياسي السائد في بقية البلد، وهذا ما كان يجب اعتباره نذيراً بأنّ شيئاً خطيراً سيحدث. أعلن الليبراليون في نهاية العام عن مقاطعتهم لكلّ شيء بسبب وحشية الملاحقة السياسية، لكنّهم لم يتراجعوا عن مخططاتهم الخفية لإسقاط الحكومة. ازداد العنف في الريف وهرب الناسُ إلى المدن، لكنّ الرقابة أجبرت الصحافة على الكتابة بشكلٍ ملتوٍ. ومع ذلك كان معروفاً لدى الجميع أنّ الليبراليين المحاصَرين سلّحوا رجال عصابات في مختلف مناطق البلد. في السهول الشرقية ـ بحر شاسع من المراعي الخضراء التي تشغل أكثر من ربع مساحة الأرض الوطنية ـ تحوّلت حرب العصابات إلى أسطورة. صار يُنظر إلى قائدها العام غوادالوبِّ سالثِدو كشخصية أسطورية حتى من قبل الجيش، وراحت توزّع صوره سرّاً، وتُنسَخُ بالمئات ويُشعلون لها الشموع في مذابح الكنائس.

كان أتباع إسبرِيّا يعرفون، على ما يبدو أكثر مما يقولون، ويتكلمون في الدوائر المغلقة عن انقلاب عسكريٍّ واضح على النظام المحافِظ. لم أكن أعرف أية تفاصيل، لكنّ المُعلِّم ثابالا لفت انتباهي إلى أنَّ عليَّ أن أذهب، في اللحظة التي ألاحظ فيها أيّ اضطراب في الشارع، إلى الصحيفة فوراً. كان من الممكن لمس التوتر باليدين حين دخلتُ إلى محل مثلّجات أمريكانا لحضور موعد في الساعة الثالثة مساءً. جلستُ أقرأ على طاولة منعزلة ريثما يصل شخص ما، لكنَّ أحد زملاء دراستي القدامى، الذي لم أكن قد تكلّمتُ معه بالسياسة قط، قال لي حين عبر بي، دون أن ينظر إليّ:

ـ اذهب إلى الصحيفة فالمعمعة ستبدأ.

فعلتُ العكس: كنتُ أريدُ أن أعرف كيف سيكون الأمر في مركز

المدينة، بدل أن أحبس نفسي في قاعة التحرير. بعد دقائق جلس إلى طاولتي ضابط صحافة من دار الحكومة أعرفُهُ جيّداً، ولم أُفكّر أنّهم عيّنوه لي كي يُحيّدني. تحدّثتُ معه قرابة نصف ساعة، وأنا في أنقى حالات البراءة، وحين نهض كي يذهب اكتشفتُ إلى أنَّ قاعة المثلّجات الهائلة قد أخليت دون أن انتبه. تابع هو نظرتي وتأكّد من الساعة: الواحدة وعشر دقائق.

ـ لا تهتمّ ـ قال لي بارتياح مكبوت ـ لم يحدث شيء.

وبالفعل فإنّ مجموعة من أهمّ القادة الليبراليين اتفقت، بعد أن يئست من العنف الرسمي، مع عسكريين ديمقراطيين من أعلى المستويات، لوضع نهاية للمجزرة التي أطلق لها النظام المحافظ العنانَ على طول البلاد وعرضها، مستعداً للبقاء في الحكم مهما كان الثمن. كان قد شارك معظمهم في مساعي التاسع من نيسان للتوصّل إلى السلام من خلال الاتفاق، الذي وقعوه مع الرئيس أوسبّينا بِرِثْ، ولم يكد يمضي عشرون شهراً حتى انتبهوا، متأخِرين جدّاً، إلى أنّهم كانوا ضحيّة خدعة كبرى. فعملية ذلك اليوم الفاشلة أقرَّها رئيس الإدارة الليبرالية، كارلوس يِراس رِترِبّو شخصياً عبْرَ بّلينيو مِندوثا نِيْرا، الذي كان على علاقة ممتازة مع القوات المسلحة منذ أن كان وزيراً للحرب في ظلّ الحكومة الليبرالية. العمل الذي نسّق له مِندوثا نِيْرا، بالتعاون الحذر مع أعضاء حزبه البارزين في كلّ البلاد كان يجب أن يبدأ في فجر ذلك اليوم بقصفِ القصر الرئاسي بطائراتِ القوات الجويّة. كانت الحركة مدعومة من القواعد البحرية في كارتاخِنا وأبّيايْ وغالبية الحاميات العسكرية في البلاد، ومن تنظيمات نقابية مستعدة للاستيلاء على السلطة للوصول إلى حكومة مصالحة وطنية مدنية.

لم يُعرَف إلاّ بعد فشل الانقلاب أنّه، وقبل يومين من التاريخ المحدّد للعملية، كان الرئيس السابق إدواردو سانتو قد جمع في بيته في بوغوتا الزعماءَ الليبراليين وقادةَ الانقلاب لإلقاءِ نظرة أخيرة على المشروع. وفي أثناء النقاش سأل شخص السؤال المعتاد:

ـ هل سيكون هناك سفك للدماء؟

ما من أحد كان في منتهى السذاجة والكلبية كي يجيب بِـ لا. وضّح قادة آخرون بأنّ الإجراءات قد اتخذت كيلا يحدث ذلك، لكن ليس هناك وصفات سحرية لمنع ما هو غير متوقّع. عمّمت الإدارةُ الليبرالية، الخائفة من حجم مؤامرتها ذاتها، أمراً معاكساً. كثير من المتورّطين الذين لم يتلقّوا الأمرَ في الوقت المناسب أُسِروا أو قُتِلوا في المحاولة. وقد نصح آخرون مِندوثا بأن يستمرّ وحده حتى الاستيلاء على السلطة، إلاّ أنّه لم يفعل ذلك لأسباب أخلاقية أكثر مما هي سياسيّة، لكن لا الوقت ولا الوسائل أسعفته في الوقت المناسب كي يُعلم المتورِّطين. تمكّن من اللجوء إلى السفارة الفنزويلية، والعيش أربع سنواتٍ منفياً في كاراكاس، بمنجى من مجلس حرب حكم عليه غيابياً بالسجن خمسياً وعشرين سنة بتهمة إثارة الفتنةً. بعد اثنتين وخمسين سنة لا يرتجف نبضي كي أكتبَ ـ دون إذن منه ـ أنّه ندمَ بقيّة حياته في منفاه في كاراكاس للتصفيات الجسدية الساحقة التي قام بها المحافظون في السلطة: ليس أقل من ثلاثمئة ألف قتيل في عشرين سنة.

أيضاً كانت بالنسبة إليّ، وبطريقة ما، لحظة حاسمة. فقبل شهرين أنهيتُ السنة الثالثة للحقوق ووضعتُ نهايةً لالتزامي مع «إلْ أونيفِرسال»، فأنا لم أكن ألمح المستقبلَ لا في هذا ولا في ذاك. كانت الذريعة توفير الوقت لي لكتابة الرواية التي لم أكد أبدؤها، رغم أنّني كنتُ أعلم في أعماق نفسي بأن الأمر ليس حقيقة ولا كذباً، بل إنّ المشروع تكشَّف لي بسرعة كصيغة بلاغية من خلال القليل الجيّد الذي عرفت كيف أستخدمه من فوكنِر، وكل ما كان سيّئاً من تجربتي. سرعان ما تعلّمت أن رواية القَصص الموازية للقصص التي يكتبها المرء ـ دون الكشف عن جوهرها ـ هي جزء قيّمٍ من التصوّر والكتابة. لكن لم تكن هذه هي الحالة وقتذاك، بل ونظراً لغياب شيء أظهرُهُ اخترعتُ الرواية المحكية كي أسلّي المستمعين وأخدع نفسي.

أجبرني هذا الوعي على أن أُعيدَ التفكير، من البداية وحتى النهاية، بالمشروع الذي لم أكتب فيه قط أكثر من أربعين ورقة، غير

مرتبة؛ ومع ذلك ذُكِرَت في مجلات وصحفٍ ـ ومن قبلي أيضاً ـ بل وكُتِبَ عنها بعضُ النقد المسبق الرصين من قبل قرّاء متَخَيَّلين. في الأعماق كان دافِعُ عادة روايةِ المشاريعِ الموازية يجب ألاّ يستحقّ العتب بل الشفقة: فالرعب من الكتابة يمكن أن يكون غير مُحتمل، مثله مثل الرعب من عدم الكتابة. في حالتي، أنا مقتنِعٌ بأنَّ رواية القصّة الحقيقية شيء سيّئ الطالع. ومع ذلك يواسيني أن القصّة الشفوية يمكن أن تكون أحياناً أفضل من المكتوبة، ويمكن أن نبدِعَ، دون أن ندري، جنساً أدبياً جديداً يحتاجه الأدب: تَخَيُّل التخيُّل.

حقيقة الحقيقة هي أنّني لم أكن أدري كيف أستمرّ بالحياة. وقد استفدت من نقاهتي في سوكرٍ كي أنتبه إلى أنّني لم أكن أعرف أين أمضي في الحياة، لكنّها لم تمنحني ملامح السبيلَ الصالح ولا أيّة حجّة جديدة أُقنع بها أبويَّ كيلا يموتا، إذا ما مارستُ حرّيتي باتخاذ قراري بنفسي. وهكذا ذهبتُ إلى بارّانكيّا ومعي مئتي بيزو، وفّرتها أمّي من أرصدة المنزل، أعطتها لي قبل العودة إلى كارتاخِنا.

دخلتُ يوم الخامس عشر من كانون الثاني من العام 1949، إلى مكتبة إلْ موندو في الخامسة مساءً، لأنتظر الأصدقاء الذين لم أرهم بعد ليلة أيّار التي ذهبت فيها مع السيّد رازّورِ الذي لا يُنسى. لم أكن أحمل غير حقيبة الشاطئ وغياراً من الثياب وبعض الكتب ورزّاقة الجلد التي تحتوي على مسودّاتي. بعد دقائق وصل الجميعُ، الواحد بعد الآخر، إلى المكتبة. كان ترحيباً صاخباً بغياب ألبارو ثِبّدا، الذي ما يزال في نيويورك. حين اكتملت المجموعة انتقلنا إلى المقبلات، التي لم تَعُد تُتَنَاوَل في مقهى كولومبيا بجانب المكتبة، بل في مقهى أصدقاءَ جديدٍ أقرب إلى الرصيف المقابل: مقهى خابّي.

لم يكن لي وُجْهَة في تلك الليلة ولا في بقية حياتي. الغريب أنّني لم أفكّر قط بأن هذه الوُجْهة يمكن أن توجد في بارّانكيّا، وإذا كنتُ أذهب إلى هناك فلكي أتكلّم عن الأدب وأعبّر عن شكري شخصياً على إرسالية الكتب التي أرسلوها إليّ في سوكرٍ. فاض عنّا الحضور

ولم يفض عنّا الشكرُ، رغم أنّني حاولتُ ذلك مرّاتٍ كثيرةً. لأنّه كان عندنا في المجموعة رعبٌ خفيّ من تبادل الشكر.

ارتجل خِرمان بارغاس في تلك الليلة وجبة لاثني عشر شخصاً، بينهم ما هبّ ودبّ، بدءاً من الصحفيين والرسامين وكتّاب بالعدل وحتى حاكم الناحية، وهو محافِظ من بارّانكيّا، له طريقته الخاصّة بالتمييز والحكم. انسحبت الغالبية، بعد منتصف الليل وانسلّ البقية بعضهم وراء بعض، حتى لم يكد يبق سليم العقل غيري أنا وألفونسو وخِرمان والحاكم تقريباً، كما اعتدنا أن نكون في أسحارِ المُراهَقة.

تلقيت من أحاديث تلك الليلة درساً مفاجِئاً عن طريقة حكام المدن في الحياة خلال السنوات الدامية. كنتُ أُقدِّر أنَّ أقلّ ما يُقلِقُ بين أضرار تلك السياسة الهمجية هو العدد الهائل من اللاجئين إلى المدن، الذين لا سقف ولا خبز عندهم.

ـ بهذه الوتيرة ـ خلُصَ ـ فإنّ حزبي وبدعم من الجيش سيبقى بلا خصوم في الانتخابات المقبلة، وسيكون صاحِب السلطة المطلق.

كانت بارّانكيّا الاستثناء الوحيد، حسب ثقافة التعايش السياسي التي شارك فيها المحافِظون المحلّيون أنفسهم، وجعلت منها ملاذَ سلامٍ في قلب الإعصار. أردتُ أن أبدي اعتراضاً أخلاقياً، لكنّه كبحنُي بحركةٍ جافّة من يده.

ـ عفواً ـ قال ـ هذا لا يعني أنّنا على هامِشِ الحياة الوطنية. بالعكس: لأنّنا محبّون للسلام راحت المأساةُ الاجتماعية في البلد تتسربّ خلسة من البابِ الخلفي، وها هي الآن هنا في الداخل.

عندها علمتُ أنّ هناك قرابة خمسة آلاف لاجئ جاؤوا من الداخل في أسوأ حالةٍ من الفقر، لا يعرفون كيف يؤهّلونهم، ولا أين يخبّئونهم كيلا تُفتَضح المشكلة. صار هناك، ولأوّل مرّة في تاريخ المدينة، دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في النقاط الحساسة، يراها الجميع، لكن الحاكمَ يُنكِرُ وجودَها، والرقابة تمنعُ التنديد بها في الصحافة.

في الفجر، وبعد أن سفَّرنا السيّدَ الحاكم بما يشبه الجرّ، ذهبنا

إلى تشوبّ سوِيْ، مكان إفطار سهارى الفجر الكبار. اشترى ألفونسو من كشك الزاوية ثلاثة أعداد من «إلْ هِرالدو»، كان في صفحة الرأي زاوية وقّعها بّوك، وهو اسمه المستعار في عموده شبه اليومي. كانت مجرّد ترحيبٍ بي، لكنّ خِرمان سخر منه لأنَّ الزاويةَ تقول إنّني هناك في إجازةٍ غير رسمية.

- كان من الأفضل له أن يقول أنه يبقى ليعيش هنا كيلا تكتبَ زاويةَ ترحيب وبعدها زاوية وداع - سخر خِرمان -. هذا يعني نفقات أقل بالنسبة إلى صحيفة شحيحة كـ «إلْ هِرالدو».

كان ألفونسو يُفكّر جدّياً، أنه لن يُضير قسمَ الرأي وجودُ كاتبِ عمودٍ إضافي. لكنّ خِرمان كان شموساً مع بزوغ نور الفجر.

- سيكون طابوراً خامساً، لأنّ عندكم الآن أربعة.

ما من أحد منهما استشارني، كما كنتُ أرغب لأقولَ نعم. لم نتكلّم أكثر عن الموضوع. كما لم يكن ذلك ضرورياً، لأنّ ألفونسو قال لي في تلك الليلة إنّه تكلّم مع إدارة الصحيفة، وبدا لهم أنّ من الحَسَنِ وجود كاتب عمود جديد، شريطة أن يكون جيّداً، لكن دون تطلعاتٍ كثيرة. في جميع الأحوال لم يكن باستطاعتهم أن يحلّوا شيئاً قبل أعياد العام الجديد. وهكذا بقيت بحجّة الوظيفة، رغم أنّهم في شباط قالوا لي لا.

7

وهكذا نُشِرت أوّل زاوية لي في صفحة الرأي من «إلْ هِرالدو» في بارّانكيّا، يومَ الخامس من كانون الثاني من العام 1950. لم أبغِ أن أضع اسمي، كي أنجو بجلدي فيما لو لم أتمكّن من شقٍّ طريقي، كما حدث لي في «إلْ أونيفِرسال». لم أُفكر بالاسم المستعار مرّتين: سِبْتيموس، أخذته من سِبْتيموس وارن سميث، الشخصية المهووسة في رواية «السيّدة دلوي» لفيرجينيا وولف. عنوان العمود ـ «الزرافة» ـ وهذا هو اللقب السرّي الذي كنتُ وحدي من يَعرف به، لصديقتي الوحيدةَ في حفلات رقص سوكرِ.

بدا لي أنّ رياح كانون الثاني المحمّلة بالمطر، راحت تهبّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى من ذلك العام، فالمرء لا يكاد يستطيع أن يسير بعكسها في الشوارع التي تستمرُّ بجلدها حتى الفجر. كانت مواضيع الأحاديث عند الاستيقاظ تتناول أضرار هذه الرياح المجنونة، التي تجرف معها الأحلامَ، وأقنان الدجاج، وتحوّل ألواح زنك السقوف في الليل إلى مقاصل طيّارة.

أفكّر اليوم بأنّ تلك الرياح المجنونة كنست جذامات ماضٍ عقيم، وفتحت أمامي الأبوابَ إلى حياة جديدة. لم تعد علاقتي بالمجموعة علاقة إرضاء، بل تحوّلت إلى تواطؤ مهني. كنّا في البداية نناقش مواضيع ما زالت مشاريعَ، أو نتبادل ملاحظاتٍ ليست أكاديمية أبداً، لكنّها لا تُنسى. الملاحظة الحاسمة كانت ملاحظة جرت ذات صباحٍ دخلتُ فيه إلى مقهى خابّي، بينما خِرمان بارغاس

ينتهي بصمت من قراءة «الزرافة» المقصوصة من عدد ذلك اليوم. كان أعضاء المجموعة الآخرين ينتظرون رأيَهُ حول الطاولة بنوعٍ من الرعب التبجيلي، الذي زاد من كثافة دخان القاعة. عندما انتهى خِرمانُ منها، مزّقها مزقاً صغيرة دون أن ينظر إليّ أو ينطق بكلمة واحدة؛ ثمَّ حرّكها بين بقايا أعقابِ السجائر وأعواد الثقاب المحروقة في المرمدة. لا أحد قال شيئاً أو علّق على الحادث في أية لحظة، كما أن مزاج الطاولة لم يتبدّل. لكنّ الدرس ما زال يفيدني حتى الآن، كلّما داهمني كسلاً أو سرعةً إغواءُ أن أكتب فقرة كي أخرجَ من حالةٍ حرجة.

انتهى أصحابُ الفندقِ الرخيص، الذي عشتُ فيه قرابة العام، إلى أن صاروا يُعامِلونني كفردٍ من الأسرة. ملكيتي الوحيدة آنذاك هي صندلي التاريخي، وغياران من الثياب كنتُ أغسلهما في الحمّام، والحقيبة الجلدية التي سرقتُها خلال اضطرابات التاسع من نيسان من قاعة الشاي الأكثرِ فخامة في بوغوتا . كنتُ أحملها معي إلى كلّ مكانٍ وفيها أصولُ ما أكتبه، الشيء الوحيد الذي أملكه ويمكن أن أُضَيّعه. ما كنتُ لأخاطِر بتركها ولا في صندوق بنك مرتَجٍ بسبعة أقفال. الشخصُ الوحيد الذي إئتمنته عليها في لياليَّ الأولى هو لاثيدِسْ، بوّابُ الفندق الحذر، الذي قبلها ضماناً لأجرة الغرفة. قلّب لفافات الورق المكتوبة على الآلة الكاتبة والمشتبكة بالتصحيحات تقليباً سريعاً ودقيقاً، ثمَّ خبّأها في درج طاولة العرض(*). استعدتُها في اليوم التالي، وتابعت الوفاء بدفع ما عليّ بدقّة بالغة حتى أنّني كنتُ آخذها مؤتَمَناً على أجرة ثلاث ليالٍ. أصبح هذا اتفاقاً كان من الجديّة، حيث رحتُ أتركها أحياناً على الطاولة، دون أن أقول له أكثر من ليلة سعيدة، وآخذ بنفسي المفتاح من اللوحة وأصعد إلى غرفتي.

كان خِرمان يعيش همَّ احتياجاتي في كلّ ساعةٍ، حتى أنّه صار

(*) El mostrador هي طاولة العرض التي كان الباعة يعرضون أو يفرشون عليها بضائعهم ليراها الزبائن، ثمّ صارت تُطلق على كلّ طاولة حاجز في البارات والمقاهي والفنادق وغيرها.

يعرف ما إذا كان لديّ مكان أنام فيه، ويعطيني خلسة البيزو والنصف، أجرةَ الفراش. لم أعرف قط كيف كان يعرف ذلك. نلتُ، بفضل سلوكي الحسن، ثقةَ طاقمِ الفندق إلى حدّ أن العاهرات كنّ يعرنني قطعَ صابونهنّ الشخصيَ للحمام. في مقرّ القيادة كانت كاتالينا لا غراندِ(*)، مالكته وسيّدته، ترأسُ الحياة بنهديها المكوّرين ورأسها الشبيه بالقرعة. بقي عشيقها الخلاسيّ، خوناس سان بيثنتِ، يعملُ عازف بوق رائع إلى أن كسّروا أسنانه في هجوم لسرقة تلبيستها الذهبية. اضطرّ، وقد تكسّر وفقد المنفاخ الذي ينفخ به، أن يغيّر عمله ولم يكن باستطاعته أن يؤمن عملاً آخر أفضل لقضيبهِ، الذي يبلغ طوله ستّ بوصات، من سرير كاتالينا لا غراندِ الذهبيّ. هي أيضاً كان لها كنزها الحميم، الذي أفادها كي تعتلي، خلال سنتين من أسحارِ بؤسِ المرفأ النهري، عرشَها، عرش الأم القديسة، ولقد حالفني الحظ بأن عرفت طبيعتهما وأيديهما السخيّة في إسعاد الأصدقاء. لكنّهما لم يفهما قط لماذا لم يكن يتوافر معي في كثير من الأحيان البيزو والنصف للنوم، رغمَ أنّ أناساً ميسورين جدّاً يمرّون بسيارات ليموزين رسمية ليأخذوني معهم.

خطوة أخرى من خطوات تلك الأيام السعيدة هي أنّني أصبحتُ سائقاً مساعداً لمونو غِرّا(**)، سائق سيّارة الأجرة الأبيض إلى حد أنّه كان يبدو أمهقَ، وكان من الذكاء والملاحة، حيث أنّهم اختاروه نائب شرف في مجلس المدينة، دون أن يقومَ بحملة انتخابية. كانت أسحاره في الحي الصينيّ تبدو سينمائية، لأنّه يتعهّدُ بنفسه إغناءها - وأحياناً إشعالها جنوناً - بجساراته غير المتوقّعة. كان يُعلِمُني حين تتوافر لديه ليلة بلا عملٍ مستعجل، فنقضيها معاً في الحي الصيني الخطير، الذي تعلّم فيه آباؤنا وآباء آبائنا صِناعَتنا.

لم أستطعْ قط أن أكتشف لماذا غرقتُ فجأةً وسط تلك الحياة البسيطة في فتور مفاجئ. بدت لي روايتي التي كانت في طور الكتابة

(*) كاتالينا الكبيرة.

(**) Mono Querra قرد حرب.

ـ «البيت» ـ بعد قرابة ستة أشهر من البدءِ بها، مهزلة ثقيلة. وكان ما أحكيه عنها أكثر مما أكتبه فيها، والواقع أنَّ الشيء القليل الذي كان منسجماً فيها، هو الأجزاء التي نشرتها قبل ذلك وبعده في «الزرافة» و «كرونيكا» حين لم يعد عندي موضوع أعالجه. كنتُ أبقى في عزلةِ نهاياتِ الأسبوع، حين يلوذ الآخرون ببيوتهم، أكثرَ وحدة من اليد اليسرى في المدينة الخاوية. كنتُ في فقرٍ مدقع وخوفٍ حجلٍ، أحاول أن أواجههما بكبرياء لا يُحتمل وصراحةٍ وحشية. كنتُ أشعرُ أنّني زائد في كلّ مكان، وأكثر من ذلك كان بعضُ معارفي يشعرونني بذلك. وظهر هذا أكثر إحراجاً في قاعة تحرير «إلْ هِرالدو»، حيث كنتُ أكتب حتى عشر ساعات متواصلة في زاوية منعزلة، دون أنّ أتعامل مع أحدٍ، ملفوفاً بدخانِ السجائر الخشنة التي أدخِّنها دون توقّف في وحشة لا فرج فيها. كنتُ أفعلُ ذلك بسرعة كبيرة، وأحياناً كثيرة حتى الفجر، على لفافاتِ ورق المطابع التي أحملها معي في حقيبتي الجلدية إلى كلّ مكان.

نسيتُها في واحدة من غفلاتي الكثيرة في تلك الأيام في سيارة أجرة، وتفهَّمت ذلك، دون مرارة، كلحظة أخرى سيّئة من لحظات حظي العاثر. لم أقم بأيّ جهد لاستعادتها، لكنّ ألفونسو فونمايور، المذعور من إهمالي، كتب ملاحظة ونشرها في نهاية زاويتي: «يوم السبت الأخير نُسيت محفظة ورق في سيارة خدمة عامة. ونظراً لأنّ صاحب هذه المحفظة وكاتبَ هذا القسم هما بالمصادفة شخص واحد، فكلانا نشكر من هي عنده بأن يتكرّم ويتصل بأيٍّ منا. علماً بأنّ محفظة الورق لا تحتوي على أشياء ذات قيمة إطلاقاً: فقط زرافات لم تُنشر» وبعد يوم ترك شخص مسوداتي في بوّابة «إلْ هِرالدو»، لكن دون حقيبة مع ثلاثة أخطاء إملائية مصححة بخط ممتاز وحبر أخضر.

كان دخلي اليومي يغطي تماماً أجرة الغرفة، لكنّ أقلّ ما كان يهمّني في تلك الأيّام هو جحيم الفاقة. في المرات الكثيرة التي لم يكن باستطاعتي أن أُسدِّد فيها أجرتها كنت أذهبُ للقراءة في مقهى روما كما هو حالي في الواقع: وحيداً هائماً في ليلِ جادة بوليفار

العريضة. وأسلم من بعيد على أيّ شخصٍ أعرفه، هذا إذا تكرّمتُ ونظرتُ إليه، وأتابع طريقي إلى مكاني المعتاد المحجوز، حيث أقرأ في كثير من الأحيان إلى أن تُبعدني الشمسُ، فقد كنتُ ما أزال قارئاً نهماً دون أيّة بنية تنظيمية؛ خاصة للشعر، حتى السيئ منه، فقد كنتُ في أسوأ حالاتي النفسية مقتنعاً بأن الشعر السيّئ يقود، عاجلاً أو آجلاً، إلى الشعر الجيّد.

في كتاباتي في «الزرافة» كنتُ أبدو شديدَ الحساسية تجاه الثقافة الشعبية، على العكس من قصصي التي كانت تبدو ألغازاً كافكوية، كتبها شخص لا يعرف في أيّ بلدٍ يعيش. ومع ذلك فحقيقة روحي هي أنّ مأساة كولومبيا تصلني مثل صدى بعيد، لا تؤثّر فيّ إلا حين تطفح أنهاراً من دم. كنتُ أشعل السيجارةَ قبل أنّ أنهي سابقَتَها، أستنشق الدخان بلهفة الحياة، التي يستنشق فيها المصابون بالربو الهواء، فتظهر، العلب الثلاث التي أدخّنها يومياً على أظافري وفي سعالِ الكلب العجوز الذي عكّرَ صفوَ شبابي. أخيراً كنتُ خجولاً وحزيناً، مثل كاريبي جيّد، وغيوراً على حميميّتي فأردّ على أيّ سؤال بخصوصها بقولٍ بلاغيّ. كنتُ واثقاً أن حظّي السيئ فطريّ ولا علاج له، خاصّة مع النساء والمال، لكنّ هذا لم يشغلني، واعتقدتُ أنّني لستُ بحاجة للحظ الحسن كي أكتب جيّداً. لم يكن يهمّني المجد ولا المال ولا الشيخوخة، لأنّني متأكّد من أنّني سأموت في ريعان الشباب وفي الشارع.

رحلتي مع أميّ لبيع بيتِ أراكاتاكا أنقذتني من ذلك الجحيم، ويقيني بالرواية الجديدة دلّني على أفق مستقبلٍ مختلف. كانت رحلة من رحلاتي عمري العديدة الحاسمة، لأنّها برهنت لي في لحمي ذاته أنّ الكتاب الذي حاولتُ أن أكتبه بدعةٌ بلاغية خالصة، ليس له أيّ أساس في الحقيقة الشعرية. تناثر المشروع بالطبع مزقاً حين قابلته بواقع تلك الرحلة الموحية.

إنّ نموذج ملحمة، كتلك التي حلمتُ بها، لم يكن من الممكن أن تكون غير ملحمة أسرتي نفسها، التي لم تصبح قط بطلةً ولا ضحية شيء، بل شاهداً غير ذي نفعٍ على كلّ شيءٍ وضحية له. بدأت

كتابتها ساعةَ عودتي تماماً، إذ لم يعد يفيدني العمل بأدوات مصطنعة، بل بالشحنة العاطفية، التي رحتُ أجرجرها معي دون أن أدري، وانتظرتني على حالها في بيت جدّيّ. منذ خطواتي الأولى على الرمل الحارق في البلدة، انتبهتُ إلى أنّ منهجي ليس الأفضل للكلامِ عن جنّة الحزن والحنين الأرضية تلك، وإن كنت قد استنفدتُ كثيراً من الوقت والجهد للعثور على المنهج الصحيح. حالات القلق في «كرونيكا»، الموشكة على الصدور، لم تكن عائقاً، بل على العكس تماماً: كانت كوابح ناظمة للحزن.

وباستثناء ألفونسو فونمايور ـ الذي باغتني وأنا في حمى الإبداع بعد ساعاتٍ من بدئي الكتابة ـ استمرَّ بقيةُ الأصدقاء يظنون لزمنٍ طويلٍ أنّني مستمرّ بالمشروع القديم لرواية «البيت». قرّرتُ أن يبقى الأمرُ كذلك، نتيجة خوفٍ صبيانيّ من أن ينكشف فشلُ فكرةٍ تكلّمتُ عنها كثيراً كأنها عملٌ خلاّق. لكنّني أيضاً فعلت ذلك انطلاقاً من خرافة الكلام عن قصّة وكتابةِ أخرى مختلفة ما أزال أمارسها، كي لا يُعرَف شيءٌ من شيء؛ خاصةً في المقابلات الصحفية، التي هي، أوّلاً وأخيراً، جنسٌ روائيّ خطير بالنسبة لكتّاب خجولين، لا يريدون أن يقولوا أكثر مما يجب. ومع ذلك يبدو أنّ خِرمان بارغاس اكتشف ذلك بفطنته الغامضة، فقد قال ذلك في رسالة إلى دون رامون بعد أشهر من سفره إلى برشلونة: «أظنّ أن غابيتو هجرَ مشروع «البيت» وهو منهمك الآن برواية أخرى». بالطبع كان دون رامون يعرف ذلك قبل ذهابه.

تيقنت منذُ السطر الأول أنّ الكتابَ الجديد يجب أن يتغذّى من ذكرياتِ طفلٍ في السابعة من عمره، نجا من مذبحة 1928 العامة في منطقة الموز. لكنّني سرعان ما استبعدتها، لأنّ الحكاية كانت ستقتصر على وجهة نظر شخصية، لا تملك ما يكفي من الإمكانيات الشعرية لروايتها. عندئذٍ وعيتُ أنَّ مغامرة قراءة «عوليس» في العشرين من عمري، وبعدها «الصخب والعنف» كان جرأة مبكرة لا مستقبل لها، وقرّرت قراءتهما من منظور أقلّ حذراً. وبالفعل فإنّ كثيراً مما بدا لي متحذلقاً ومصمتاً عند جويس وفوكنر تكشَّفَ عن

جمالٍ وبساطةٍ مرعبين. فكّرتُ أن أُنَوِّع المونولوج بأصواتِ البلدةِ كلّها مثل كورس يوناني، على طريقة «بينما أرقدُ مُحْتَضَرة» التي هي تأملات أسرة بكاملها، موزعة حول شخص مُحتضَر. لم أشعر بنفسي قادراً على تكرار أدواته البسيطة بذكر أسماء الأبطال في كلّ حديث، كما يحدث في النصوص المسرحية، لكنّها منحتني فكرةَ ألا أستخدم غير أصوات الجد والأمّ والطفل، الذين بنبراتهم ومصائرهم المختلفة تماماً، يمكن أن يُعرِّفوا أنفسهم بأنفسهم. لن يكون الجدّ في الرواية أعور مثل جدّي، بل أعرج، والأمّ ساهية، لكنّها ذكية مثل أمّي والطفل جامداً، خائفاً ومتفكِّراً، كما كنتُ دائماً في مثل عمره. لم تكن بأيِّ شكلٍ لقية خلاّقة، بل بالكاد وسيلة فنية.

لم يطرأ على الكتاب الجديد عندَ كتابته أيّ تعديل عميق، ولا كتابة مختلفة عن الأصل، باستثناء حذف وترقيع قمتُ بهما خلال سنتين تقريباً قبل الطبعة الأولى، بما يكاد يكون هوساً بالاستمرار بالتصحيح حتى الموت. جسّدت البلدة ـ المختلفة تماماً عن تلك التي في مشروعي السابق ـ بصرياً في الواقع عندما عدتُ إلى أراكاتاكا مع أمّي، لكنّ هذا الاسم ـ كما نبّهني دون رامون، الحكيم جدّاً ـ بدا لي من قلّة الإقناع مثله مثل اسم بارَّانكيّا، فهو أيضاً كان يخلو من النفحة الأسطورية التي رحتُ أبحث عنها للرواية. وهكذا قرَّرتُ أن أسميها بالاسم الذي كنتُ أعرفه ولا شكّ منذ طفولتي، لكنّ شحنته السحرية لم تكن قد تكشفت لي حتى ذلك الوقت: «ماكوندو».

اضطررتُ لأن أبدّل العنوان: «البيت» ـ المألوف جدّاً إذ ذاك بين أصدقائي ـ لأنّه لم تكن له علاقة إطلاقاً بالمشروع الجديد. لكنّني ارتكبت خطأ أن سجلتُ في دفتر مدرسيّ، العناوين التي راحت تخطر لي في أثناء كتابتي لها، فصار عندي أكثر من ثمانين عنواناً. أخيراً عثرت عليه، دون أن أبحث عنه في الكتابة الأولى شبه المنتهية، حين أذعنت لإغواء أن أكتب مقدّمة المؤلف. قفز العنوان في وجهي كأكثر العناوين ازدراءً ورحمة في آنٍ معاً، الذي عمّدت بِه جدّتي ببقاياها الأرستقراطية، شركةَ يونايتِد فروت كومباني المحتَضَرة «عاصفة الأوراق».

أكثر المؤلفين الذين شجّعوني على كتابتها هم الروائيون الأمريكيون الشماليون، لا سيّما الذين أرسل لي أصدقائي في بارّانكيّا أعمالَهم إلى سوكرِ. خاصّة بسبب التشابهات، بمختلفِ أنواعِها، التي وجدتها بينٍ ثقافات الجنوب العميق وثقافة الكاريبي، التي أتماثل معها تماثلاً مطلقاً وجوهرياً لا يُستبدَل في تكويني ككائن بشريٍّ وكاتبٍ. منذ امتلاكي لهذا الوعيِ بدأتُ أقرأ كروائيٍّ محتَرِفٍ حقيقيّ، ليس فقط تمتعاً، بل وفضولاً لا يرتوي لاكتشاف كيف هي مكتوبة كتب الحكماء. كنتُ أقرؤها في البداية من بداياتها، ثم من نهاياتها وأُخضعها إلى عملية استئصال جراحيّة حتى أستنبط أكثر ألغاز بنائها خفية. لذلك لم تكن مكتبتي قط إلاّ أداة عمل، حيث أستطيع أن أراجع في لحظة فصلاً لدوستويفسكي أو أدقّقَ في معلومة حول داء الصرع عند يوليوس قيصر، أو آليَّةِ عمل المفحِّم في السيارة. بل عندي أيضاً كتاب تعليم ارتكاب للجرائم الكاملة، لاحتمال أن تحتاجه إحدى شخصياتي العاجزة. ما تبقى قامَ به أصدقائي، الذين كانوا يُوجِّهونني في قراءاتي ويعيرونني الكتب التي عليَّ أن أقرأها في اللحظة المناسبة، ومن قاموا بقراءة لا ترحم للأصول قبل نشرها.

أمثلة مثل هذه وعّتني بنفسي، وانتهى مشروع «كرونيكا» بأن منحني أجنحةً. كانت معنوياتنا من السموّ بحيث أنّنا، ورغم العوائق التي لا يمكن تجاوزها، استطعنا أن نملك مكاتِبَ خاصّة في طابق ثالث من دون مصعدٍ، بين صياح الباعة والحافلات، التي لا قانون يضبطها، في شارع سان بْلاسْ، الذي كان يتحوّل، منذ الفجر وحتى السابعة مساءً، إلى بازارٍ مضطرب. والمكاتب لا تكاد تتسع لنا؛ ولم يكونوا قد ركبوا الهاتف بعد، بينما المكيّف حلم بعيد المنال يمكن أن يُكلّفنا أكثر من الأسبوعية، لكنّ فونْمايور مَلَكَ من الوقت ما ملأ به المكتبَ بموسوعاته المُخلّعة، وقصاصات صحفِهِ بكلّ اللغات، وكتبِ المِهن الغريبة. كانت على مكتبه موسوعة «أونْدِرْوود» التاريخية، التي سبق وأنقذها مجازفاً بحياته من حريق في إحدى السفارات، وصارت اليوم تحفةً في متحفِ بارّانكيّا الرومانسي. شغلتُ المكتب

الآخر الوحيد، بصفتي الجديدة كرئيس للتحرير، بآلةٍ كاتبةٍ مستعارة من «إلْ هِرالدو». كان هناك طاولة رسم لألِخاندرو أوبرِغون، أورلاندو غِرّا وألفونسو مِلو، الرسامين الثلاثة المشهورين الذين التزموا بعقلهم السليم بتزويد المساهمات مجّانياً بالرسوم التوضيحية، وهكذا فعلوا، أوّلاً بشهامتهم الفطريّة جميعاً، وثانياً لأنّنا لم نكن نملك سنتيماً واحداً بين أيدينا، ولا لأنفسنا. كان كيكِ سكوبِّلْ المصوّرَ الأكثر مثابرة وتضحية.

بالإضافة إلى عملي في التحرير، الذي تُحتّمه عليّ طبيعة منصبي، كان عليّ أن أُراقِبَ عملية الإخراج، وأساعِدَ أيضاً مُنَقِّحَ البروفات، رغم إملائي السيّئ. وبما أنّني بقيتُ ملتزماً بالاستمرار بكتابة زاوية «الزرافة» لِـ «إلْ هِرالدو» لم يكن عندي متسع من الوقت لمساهماتٍ منتظمة في «كرونيكا». لكنّني ملكتُه بالمقابل لكتابةِ قصصي في ساعات الفجر الميتة.

ألفونسو، المتخصص في كلِّ الأجناس، وضع ثقل إيمانه في القصص البوليسية المشغوف بها جدّاً؛ يُترجمها أو يختارُها، فأُخضِعها أنا لعملية تبسيطٍ شكلية، لا بدّ ستفيدني في مهنتي. وكانت مهمّتي تقوم على توفير المساحة بحذف ليس فقط الكلمات غير المجدية، بل والأحداثِ الزائدة، إلى أن أتركها في جوهرها الخالص، دون أن أؤثّر على قدرة الإقناعِ فيها. بمعنى أنّني أمحو كلّ ما يمكن أن يفيض عن جنس شديد الفَعل، كلّ كلمة فيه يجب أن تجيب عن كامل البنية. كان هذا من أكثر التمارين فائدة في تحقيقاتي الهادئة لتعلّم تقنية أن أحكي حكاية.

أنقذتنا بعضُ أفضلِ قصصِ خوسِهْ فِليكسْ فُونْمايور في أيّام سبتٍ كثيرة، لكنّ توزيعها بقي جريئاً. إلاّ أنَّ خشبةَ الخلاصِ الأبديّة كانت تأتي من طبيعة ألفونسو فُونمايور، الذي لم يُعتَرفَ له قط بفضائله كرجلِ أعمالٍ؛ ووضع كلَّ طاقتهِ في مؤسستنا بعنادٍ فاق قواه، حاول هو نفسه بمزاجه الساخر الرهيب أن يُخرِّبَه في كلّ خطوة من خطواته. كان يقوم بكلّ شيء، بدءاً من كتابة أكثر الافتتاحيات تألقاً، وحتى الزوايا غير المجدية، بالجَلَد الذي يحصلُ

فيه على الإعلانات والقروض التي لا تخطر ببال، وكتاباتٍ حصريّة من مساهمين صعبي المراس. لكنّها كانت معجزات عقيمة. كنّا نُحاوِل، حين يعودُ الباعةُ الجوّالون بالأعداد ذاتها التي ذهبوا بها للبيع، أن نوزّعها شخصياً في المطاعِم المُفضَّلة، بدءاً من مطعم إلْ ترِثِرْ هومبرِ(*) وحتى مطاعم الميناء النهري المكفهرّة، حيث نُضطرُّ لأن نقبض الأرباحَ القليلة أنواعاً من الكحول.

لا شكّ أنّ باتِ أوسيّو كان أكثرَ المساهمين دقّةً واستقطاباً للقراء. وتبيّن، منذ العدد الأوّل من «كرونيكا» أنَّهُ واحدٌ من أكثرنا عصمة، وانتهت زاويته «يومية ضاربة الآلة الكاتبة»، التي كتبها تحت الاسم المستعار لِ دولي مِلو، بأنِ اكتسحت قلوب القرّاء. ما من أحد كان باستطاعته أنِ يُصدِّق أنّ كلّ تلك الأعمال المتناثرة كتبَها بكثير من المروءة رجلٌ واحد.

كان باستطاعة بوبْ برييتو أن يمنع غرق «كرونيكا» بأيّ لقيةٍ طبّية أو فنّيّة من العصور الوسطى. لكنّه في موضوع العمل يملكُ قاعِدَةً صافية: لا إنتاج إذا لم تدفعوا. طبعاً سرعان ما توقّف الإنتاجُ والألم يعتصِرُ نفوسنا.

تمكّنا من نشر أربع قصصٍ غامضة مكتوبة بالإنكليزية لِ خوليو ماريو سانتودومينغو، ترجمها ألفونسو بقلقِ صيّادِ يعاسيب في أدغال قواميسه الغريبة، وزيّنها بالرسوم التوضيحية ألخِانْدرو أبْرِغون بحساسية فنان عظيم. لكنّ خوليو ماريو كان يكثر من السفر وفي اتجاهات متضاربة حيثُ تحوَّل إلى شريك خفيّ. وحده ألفونسو فونْمايور عرف كيف يعثر عليه، ويكشف لنا عن ذلك بجملة مقلقة:

ـ في كلّ مرّة أرى فيها طائرة تعبرُ، أُفكّر أنَّ خوليو ماريو سانتودومينغو على متنها.

أمّا بقيةُ المُساهمين فعرضيون يُبقون على أعصابنا مشدودة حتى آخر لحظات إغلاق العدد ـ أو الدفع.

(*) الرجل الثالث.

اقتربت بوغوتا منّا بالتساوي، لكنّ أحداً من الأصدقاء المُفيدين لم يبذل جهداً من أيّ نوع، للإبقاء على الأسبوعية. باستثناء خورخ ثالاميا، الذي أدرك التشابه بين مجلّته ومجّلتنا، وعرض علينا اتفاقاً لتبادل الموادّ أعطى نتائج جيّدة. لكنّني أعتقد أنّه ما من أحد قدَّر ما كانت تنطوي عليه «كرونيكا» من معجزة. كان مجلس التحرير مؤلّفاً من ستّة عشر عضواً مختاراً من قبلنا، حسب الميزات المعترف بها من قبل كلّ واحدٍ منّا، وجميعهم بشر من لحمٍ ودم، لكنّهم من القوّة والانشغال بحيث يمكن تماماً الشكّ بوجودهمً.

كانت «كرونيكا» بالنسبة إليّ ذات أهمّية جانبية، إذ أجبرتني على ارتجالِ قَصَص طارئة، لملء فراغات غير متوقّعة، في ساعة إغلاق العدد الحرجة. كنتُ أجلس إلى الآلة، بينما يقوم منضدّو الحروف والمخرجون بعملهم، وأخترع من العدم قصة بحجم الفراغ. وهكذا كتبتُ «عن كيف يرتدي نتانائيل ثوب عروس» التي حلّت لي مشكلةً طارئة عند الفجر، و «عينا كلب أزرق» بعد ستّة أسابيع.

أصبحت القصّةُ الأولى منهما أصلاً لسلسلةٍ من القصصِ، لها الشخصيةُ نفسها، التي أخذتُ اسمها من أندريه جيد دون إذنٍ منه. كتبتُ بعدها «نهاية نتانائيل» كي أحلَّ مأساةً أخرى في آخر لحظة. كلاهما شكّل جزءاً من متتالية من ستّ قصص، وحين انتبهت أنّه لا علاقة لها بي حفظتها دون حزن في الأرشيف. أَتَذَكّرُ واحدةً من تلك التي كانت بين بين، دون أدنى فكرة عن موضوعها: «عن كيف ترتدي نتانائيل ثوب العروس» لا يبدو لي اليوم أنّ هذه الشخصية تُشبِهُ أحداً عرفته، ولم تكن مبنية على معايشات خاصّة أو غريبة، كما لا أستطيع أن أتصوّر كيف يمكن لقصّةٍ ذات موضوع ملتَبَس أن تكون لي. بالمُختَصَر كانت نتانائيل مخاطرة أدبية خالية من أيّة أهمية إنسانية. من الحسن تذكّر هذه الفواجع كيلا ننسى أنّ الشخصيةَ لا تُخترع من الصفر، كما أردتُ أن أفعل مع نتانائيل. من حسن الحظّ أنّ الخيالَ لم يسمح لي بالابتعاد كثيراً عن نفسي، ومن سوئه أنّني كنتُ مقتنعاً بأنّ العمل الأدبيَّ يُدفع ثمنه تماماً كما يربط

القرميد بعضه ببعض، وإذا كنّا ندفع جيّداً وفي مواعيدَ دقيقة لمُنَضِّدي الأحرف، فحريّ بنا أكثر أن ندفع للكُتَّاب.

أفضل صدى عن عملنا في «كرونيكا» وصلنا في رسائل دون رامون إلى خِرمان بارغاس. كان يهتم بأقل ما يخطر في فكرنا من الأخبار، وبالأصدقاء، وبأحداث كولومبيا، بينما خِرمان يُرسِل إليه قصاصات من الصحافة، ويحكي له في رسائل لا نهاية لها الأخبار التي تمنعها الرقابةُ. أي أنّه كان هناك بالنسبة إليه مجلتا «كرونيكا»: المجلة التي نصنعها نحنُ، وتلك التي كان يُلخِّصها له خِرمان في نهايات الأسابيع. شكَّلت تعليقاتُ دون رامون المُتَحَمِّسة أو الصارمة على مقالاتنا طموحَنا الأكبر.

من بين الأسباب المتعدّدة التي أرادوا أن يُفسروا بها تعثّر «كرونيكا» بل وحتى تردّد المجموعة، عرفتُ مصادفةً أنّ بعضهم عزاها لسوء حظّي الفطريّ والمُعدي. ويذكرون، كبرهان قاتل على ذلك، تحقيقي عن بِراسكوتشيا، لاعبِ كرةِ القدم البرازيلي، الذي أردنا أن نوائم من خلاله بين الرياضة والأدب في جنس جديدِ، وشكّل فشلاً ذريعاً. لم أعلم بسمعتي المشينة إلاّ بعد أن انتشرت بين زبائن خابّي. ناقشتُ الأمرَ، وأنا محبط حتى النخاع العظمي، مع خِرمان بارغاس، الذي كان على علم بها، مثل بقية المجموعة.

ـ هوِّن عليك، يا مُعلِّم ـ قال لي دون أدنى شكّ ـ لا يمكن تفسير أنّك تكتب كما تكتب إلا أنه حظ حسن لا يمكن لأحدٍ أن يهزمه.

لم تكن كلّها ليالٍ سيّئة. فليلة السابع والعشرين من تموز من العام 1950، في بيت أفراح لا نِغرا إيوفيميا، كان لها قيمة تاريخية معيّنة في حياتي ككاتب. لا أدري لأيّ سبب حسن رتّبت المالكة صحن سانكوتشو ملحمياً من أربع أنواع من اللحم، وطيور الكروان التي أفزعتها الروائح الحادّة، أطلقت العنان لزعيقها حول النار. أمسك زبونٌ مسعور بكروانٍ من رقبته، وألقى به حيّاً في القدر الفائر. بصعوبة استطاع الطائرُ أن يُطلق زعقةَ ألم وخفقة جناحٍ أخيرة، وغاص في الجحيم العميق. حاول القاتل الوحشيُّ الإمساكَ بآخر، لكنّ لا نِغرا إيوفيميا كانت قد نهضت عن عرشها بكلّ قوّتها.

ـ ويحك، على رسلك، ـ صاحت ـ فطيور الكروان ستقتلع عينيك!

وحدي من همَّه الأمرُ، لأنّني الوحيدُ الذي لم يجرؤ على تذوّق صحن السانكوتشو المدنس . وبدل أن أذهب لأنام سارعتُ إلى مكتب «كرونيكا» وكتبتُ بجرّة قلم واحدة قصّةَ زبائن الماخور الثلاثة، الذين اقتلعت طيور الكروان عيونهم ولم يصدّقها أحد. لم يبلغ حجمها أكثر من أربع صفحات من ورق الاستدعاء بفاصل فراغين بين السطور؛ كانت مروية بضمير المتكلّم الجمعي، وصوت من غير اسم؛ ذات واقعية شفافة، ومع ذلك فهي أكثر قصصي غموضاً، كما أنّهّا أدخلتني في طريقٍ أوشكتُ أن أهجره لأنني لم أعد أستطيع ذلك. بدأتُ الكتابةَ بها في الرابعة فجراً من يوم الجمعة، وانتهيتُ منها في الثامنة صباحاً، مُعذباً بانبهارٍ عرَّاف. عدّلت بتواطؤ صائبٍ من بّورفيريو مِندوثا، مخرج «إلْ هِرالدو» التاريخي، الحجمَ المعد لطبعة «كرونيكا» التي كان سيتمّ تداولها في اليوم التالي. أمليتُ، يائساً من مقصلة إنهاء العدد في اللحظة الأخيرة، على بّورفيريو العنوانَ النهائيّ الذي وقعتُ عليه أخيراً، فكتبه مباشرةً على الرصاص المصهور: «ليل الكروانات».

شكّلَ هذا بالنسبة إليَّ بداية مرحلة جديدة بعد تسع قصص، كانت ما تزال في البرزخ الميتافيزيقي، حين لم يكن عندي أيّ مشروع للاستمرار بجنس لم أتمكن من الإمساك به. أعاد خورخِهْ ثالاميا نشرها في الشهر التالي في «كريتكا»(*)، مجلة الشعر العظيم الرائعة. عدتُ وقرأتها بعد خمسين عاماً قبل كتابة هذه الفقرة، وأعتقدُ أنّني لا أودّ أن أبدّل فيها فاصلة واحدة. شكّلت تلك بداية ربيع لي، وسط الفوضى التي كنتُ أعيش فيها، ولا بوصلة لها.

بالمقابل كانَ البلدُ يدخلُ في دوَّامة، فَـ لاوريانو غومِثْ قد عاد من نيويورك ليُعْلَن مرشَّحاً محافِظاً لرئاسة الجمهورية. امتنع الحزبُ الليبرالي أمام ضغط العنف عن دخول الانتخابات. وانتُخِب غومِثْ دون منافس له في السابع من آب من العام 1950. وبما أنّ

(*) النقد.

المجلسَ(الكونغرس) كان مغلقاً فقد تسلّم منصبه أمام المجلس الأعلى للعدالة.

لم يكد يحكم فعلياً، فقد انسحبَ بعد خمسة عشر شهراً من الرئاسةِ، لأسباب صحيّة حقيقيّة. حلّ محلّه القانوني والبرلماني المحافِظ روبرتو أوردانِتا أربلايث بصفته أوّل رئيسِ جمهورية معين. فسر المطلعون جيداً ذلك، على أنّه صيغة من الصيغ المميزة لاوريانو غومِث، لتركِ السلطة في أيدٍ أخرى، لكن دون أن يخسرها وليستمر في الحكم من بيته، من خلال شخص وسيط. وفي الحالات المستعجلة بالهاتف.

أظنّ أن عودة ألبارو ثِبِّدا، متخرجاً من جامعة كولومبيا، قبلَ شهرٍ من التضحية بالكروان، كانت عاملاً حاسماً في تحميلي سوء حظّ تلك الأيّام. عاد أقلّ شَعراً، ودون شاربه الكثّ، وأكثر عتوّاً مما كان حين ذهب. خِرمان بارغاس وأنا، اللذان كنّا ننتظره منذ أسابيع، خائفين أن يكونوا قد روّضوه في نيويورك، أُغشي علينا من الضحك حين رأيناه يهبط من الطائرة بسترةٍ وربطةِ عنق وهو يُحيينا من على سلّم الطائرة بباكورة همنغواي: «على الجانب الآخر من النهر وبين الأشجار». انتزعته من بين يديه، وداعبته من كلا الجانبين، وحين أردتُ أن أسأل ألبارو شيئاً سبّقَ عليّ قائلاً:

- إنّه خراء!

هَمَسَ خِرمان بارغاس، الذي خنقه الضحكُ في أذني: «عاد كما هو» ومع ذلك وضّح لنا ألبارو، فيما بعد، أنّ رأيه بالكتاب كان مزاحاً، فهو لم يكد يقرؤه خلال رحلته من ميامي. في جميع الأحوال ما رفع من معنوياتنا أنّه جاء أكثر اضطراباً من قبل بداءِ الصحافة والسينما والأدب. خلال الأشهر التالية، وبينما راح يتكيّف من جديد، رفع حرارتنا إلى أربعين درجة.

كانت عدوى فورية. «الزرافة»، التي راحت تدور حول نفسها منذ أشهرٍ وهي تتخبّط خبط عشواء، بدأت تتنفّس من خلال فقرتين مستخرجتين مسروقتين من مسودّة «البيت»، إحداهما «ابن

الكولونيل»، الذي لم تولَد قط، والأخرى هي «ني»، الطفلة الفرورة التي طرقتْ بابها مرّاتٍ كثيرة بحثاً عن طرقٍ مختلفة، ولم تُجب قط. كذلك استعدتْ اهتمامي، الذي كان لي في بلوغي، بالقصص المصوّرة، ليس كتسلية يوم أحدٍ، بل كجنسٍ أدبيّ، محكوم، دون مُبرّرٍ، بأن يكون مصيره غرفَة الأطفال. كان بطلي وسط كلّ ذلك ديك تراسي. ثمَّ، وكيف لا! استعدتُ ولهي بالسينما الذي طبعَهُ في ذهني الجدُّ وغذّاه أنطونيو داكونتِ في أراكاتاكا، وحوّله ألبارو ثِبِّدا إلى ولهٍ إنجيليٍّ بالنسبة إلى بلدٍ كانت تُعرف فيه أفضل الأفلام من خلال روايات الزوار. من حسن الحظّ أنّ عودتَهُ صادفت تدشين عرضِ فيلمين عظيمين: «مقتحم الغبار»، من إخراج كلارنس براون عن رواية وليم فوكنر، و«صورة جيني»، من إخراج وليم ديترل عن رواية روبِرت ناتان، وقد نقدتهما في الزرافة بعد نقاشاتٍ مستفيضة مع ألبارو ثِبّدا. بلغ اهتمامي بالسينما حدَّ أنّني بدأتُ أشاهدها من منظور آخر. لم أكن أعرف قبل التعرّف عليه أنَّ اسمَ المخرج، الذي كان آخر ما يظهر في ثبت الأسماء، هو الأهم. كانت كتابة السيناريو وتحريك الممثلين بالنسبة إليّ مسألة سهلة، فما عداهما يقوم به أعضاء الفريق. حين عاد ألبارو أعطاني دورة كاملةً أساسها الجمل الجاهزة والروم الأبيض، حتى الفجر على طاولات أسوأ الحاناتِ، ليُعلِّمني دفعة واحدة ما علّموه له من السينما في الولايات المتحدة، حالِمَين بصنع ذلك في كولومبيا.

بعيداً عن الانفجارات المضيئة كان انطباعنا، نحن الأصدقاء الذين كان نتابع ألبارو في سرعته التي لطرّاد، هو أنّه لا يملك سكينة كي يجلس ليكتب. نحن الذين كنّا نعيش ذلك عن قرب، لم يكن باستطاعتنا أن نتصوّره جالساً لأكثر من ساعةٍ وراء أيّ مكتب. ومع ذلك استدعتنا بعد شهرين أو ثلاثة من عودته تيتا مانوتا ـ خطيبته لسنوات طويلة وزوجته على امتداد حياته ـ مذعورةً لتُخبرنا أنّ ألبارو باع شاحنته التاريخية الصغيرة، ونسيَ في صندوقٍ أوراقِها أصولَ قَصصه غير المنشورة دون أن يكون عنده نسخة عنها. لم يقم بأيّ جهدٍ للعثور عليها بذريعته الخاصة به جدّاً، والقائلة بأنّها

«ستّ أو سبع قصص خرائية». ساعَدْنا نحن الأصدقاء والمراسلين الصحفيين تيتا في بحثها عن الشاحنة التي بيعت وابتيعت عدّة مراتٍ على امتداد الساحل الكاريبي والداخل حتى مدلين. أخيراً عثرنا عليها في ورشة في سينثِلِخو على بعد يقارب مئتي كيلومتراً. كانت الأصول المكتوبة على لفائف ورق طباعة مجعّدة وغير كاملة، فعهدنا بها إلى تيتا خشية أن يعود ويضيعها إهمالاً أو عمداً.

نشرت قصتان من هذه القصص في «كرونيكا» واحتفظ خِرمان بارغاس بالأخرى خلال سنتين تقريباً ريثما ينم العثور على حل لطباعتها. قامت الرسامة ثيثليا بّورّاس المخلصة دائماً للمجموعةُ بوضع الرسوم التوضيحية الملهمة التي كانت صورة شعاعية لألبارو، المرتدي ثياب كلّ من يمكن أن يكونه: سائق شاحنة، بهلوان معرض، شاعر مجنون، طالب في جامعة كولومبيا أو في أيّة مهنة، باستثناء أن يكون رجلاً عادياً وطبيعياً. نشرت مكتبةُ موندو الكتابَ بعنوان كلّنا كنّا بالانتظار، وشكّل حدثاً في عالم النشر. وحده النقد المتخصص لم يولِهِ اهتماماً. كانت بالنسبة إليّ ـ وهذا ما كتبتُهُ في ذلك الوقت ـ أفضل مجموعة قصصية نُشِرَت في كولومبيا.

كتب ألفونسو فوِنْمايور بدوره تعليقاتٍ نقديةٍ، وهو أستاذ في الآداب في الصحف والمجلات، لكنّه خجل جدّاً من جمعها في كتاب. كان قارئاً ذا شراهة فائقة، يكاد لا يُقارن به ألبارو موتيس أو إدواردو ثالاميا. لقد كان هو وخِرمان بارغاس ناقدين عنيفين لأعمالهما الخاصّة أكثر مما لأعمال الآخرين، لكنّ هوسهما بالعثور على قيم شبابية لم يُخطئ قط. حدث ذلك في الربيع الإبداعي الذي سرت فيه شائعة ضاغطة، بأنّ خِرمان يقضي الليلَ ساهراً يكتبُ قصصاً رائعة، لكن أحداً لم يعرف عنها شيئاً إلاّ بعد سنواتٍ كثيرة، حين حبس نفسه في غرفة نومه في بيت أبويه، وأحرقها قبل ساعات من زواجه من صديقتي سوزانا لينارِسْ، كي يضمن ألا تُقرأ حتى من قبلها. يُفترض أنّها ضمّت قصصاً ومقالاتٍ، وربّما مسودة روايةٍ أيضاً. لكنّ خِرمان لم يقل قط كلمةً واحدة عنها لا قبل ذلك ولا بعده. ما يُعرف هو فقط أنّه اتخذ احتياطاته العنيفة كي لا تعرف بها

حتى المرأة التي أصبحت زوجتَه بدءاً من اليوم التالي. انتبهت سوزانا لذلك، لكنّها لم تدخل إلى الغرفة لمنعه، لأنّ حماتها ما كانت لتسمح لها بذلك. «في تلك الأيام ـ قالت لي سوزي بعد سنوات بمزاجها المتهوّر ـ لم يكن من الممكن لخطيبة أن تدخل إلى غرفة خطيبها قبل الزواج».

لم يمضِ عامٌ حتى صارت رسائلُ دون رامون في كلّ مرّة أقلَّ وضوحاً وأكثرَ حزناً وندرة. دخلتُ إلى مكتبة موندو يومَ السابع من أيّار من العامِ 1952، في الثانية عشرة ظهراً ولم يكن على خِرمان أن يقول لي شيئاً كي أنتبه إلى أنّ دون رامون قد تُوفّي قبل يومين في برشلونةِ أحلامه. كان التعليق الوحيد الذي أدلينا به جميعاً، بينما رحنا نصل إلى المقهى عند الظهيرة، هو ذاته:

ـ يا للرهبة!

لم أكن وقتها على وعي بأنّني أعيش عاماً مختلفاً في حياتي وأنا اليوم لا أشكّ بأنّه كان حاسماً. وكنتُ قد اقتنعت حتى ذلك الوقت بسحنة الفاسق. كنتُ محبوباً ومحترماً من الكثيرين ومقدَّراً من بعضهم، في مدينة يعيش فيها كلٌّ على طريقته وراحته. كنتُ أُمارس حياةً اجتماعيةً مكثّفة، أشارِك في الجدالات الفنّية والاجتماعية بصندلِ رحالة، يبدو أنّني ابتعته لتقليد ألبارو ثِبِّدا، وبنطلون كتّان واحدٍ، وقميصين بخطوط منحرفة، أغسلهما في الحمّام.

ومن يوم لآخر ولأسبابٍ مختلفة ـ بعضها تافه ـ شرعتُ أُحسِّن من ملبسي، قصصتُ شعري على طريقة المجندين، خفّفت شاربي وتعلّمت استخدامَ حذاءِ سيناتورٍ أهداه إليّ الدكتور رافائيل ماريّاغا، عضوِ المجموعة الجوّال ومؤرّخ المدينة، دون أن يدشّنه لأنّه كان كبيراً على قدميه. وبديناميكيةِ الوصولية الاجتماعية اللاواعية، بدأتُ أشعرُ بالاختناق من حرّ غرفة راسغاثييلوس(*)، وكأنّ أراكاتاكا في سيبيريا، وأعاني من الزبائن العابرين الذين يتكلّمون بصوت عالٍ

(*) ناطحة السحاب.

حين ينهضون، ولا أتعب من الدمدمة، لأنّ نساءَ الليل كنّ يتابعن سَوْقَ شراذم بحارة المياه العذبة إلى غرفهن.

اليومَ أعي أنّ مظهري الذي كان لمتسوّل، لم يكن لأنّني كنتُ فقيراً ولا شاعراً، بل لأنّ طاقاتي مُركّزة بعمقٍ على عنادي بتعلّم الكتابة. وما إن لمحتُ الطريق الصحيح حتى هجرتُ راسغاثييلوس وانتقلتُ إلى حي البرادو، على الطرف العمراني والاجتماعي الآخر، على بعد قصبتين عن بيت مِيْرا دِلمار وخمسة عن الفندق التاريخي، حيث كان أبناء الأغنياء يرقصون مع حبيباتهم العذراوات بعد قدّاس الأحد. أو كما قال خِرمان، بدأت أتحسن نحو الأسوء.

كنتُ أعيشُ في بيت الأخوات أبيلا - إستير ومايِّتو وتونيا - اللواتي سبقَ وتعرّفت عليهنّ في سوكرِ، وكنّ مصراتٍ على تخليصي من الضياع. وبدل غرفة الكرتون التي أضعتُ فيها الكثير من حساسيات الحفيد المدلّل، صار عندي غرفة خاصّة مع حمامٍ خاصّ، ونافذة تُطلّ على الحديقة، وثلاث وجبات يومية بأكثر قليلاً من راتبي، راتبِ الحوذيّ. اشتريتُ بنطلوناً وستّة قمصان استوائية رُسِمَت عليها أزهارٌ وطيور، استحققتُ عليها لزمنٍ سمعةَ لوطيٍّ باخرة سريةً. أصدقاء قدماء لي ما عدت أصادفهم، صرتُ ألتقي بهم في كلّ مكان. اكتشفتُ أنّهم يلقون عن ظهر قلب كلّ هذايانات «الزرافة» ومتعصبون لِ «كرونيكا» بسبب ما سموه بالشرف الرياضيّ، بل ويقرؤون قصصي دون أن يتمكنوا من فهمها. التقيت بِ ريكاردو غونثالِثْ رييّولْ، جاري في غرفة النوم في المدرسة الوطنية، الذي استقرّ في بارّانكيّا، حاملاً شهادة مهندس معماريّ، وقد حلّ أموره بسيارة شيفروليه ذيل البطّة، مجهولة العمر، يحمل فيها كالسردين عند الفجر حتى ثمانية مسافرين. وكان يأخذني من البيت في بداية الليل ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع، لنلهو مع أصدقاء جددٍ مهووسين بتقويم البلد، بعضهم بصيغٍ سياسية سحرية، وآخرون بالشجار مع الشرطة.

حين علمت أمّي بهذه المُستجِدات أرسلت إليَّ رسالة تميّزها تماماً: «المال يجرّ المال». لم أخبر المجموعة بشيء عن انتقالي،

حتى التقيتُ بهم ذات ليلة على طاولة مقهى خابي، وأمسكت بصيغة لوبِّ دِ بِغا السحرية: «وانتظمتُ بما يناسب تنظيمَ فوضاي». لا أذكر سخرية مماثلة ولا حتى في ملعب كرة القدم. راهن خِرمان على أنّه لن تخطر لي فكرة واحدة ممكنة خارج راسغاثيبيلوس. لم أكن حسبَ ألبارو لأستمرَّ حياً على الوجبات اليومية الثلاث وتوقيتها. وألفونسو احتجّ معاكساً على التدخل في حياتي الخاصّة، وأنهى الموضوع بنقاش حول الضرورة الملحة لاتخاذ قرارات جذرية بالنسبة لمصير «كرونيكا». أظنّ أنّه كان يشعر بأنّهم مسؤولون عن فوضاي، لكنّهم كانوا من اللباقة بحيث لا يشكرونني على قراري بتنهيدة ارتياح.

على عكس ما كان متوقّعاً تحسّنت صحّتي ومعنوياتي. صرتُ أقرأ أقلَ بسبب ضيق وقتي، لكنّني رفعت من مستوى «الزرافة»، وجهدتُ في الاستمرار بكتابةِ «عاصفة الأوراق» في غرفتي الجديدة على الآلة الكاتبة الأثرية التي أعارها لي ألفونسو فُونمايور، وفي الأسحار التي كنتُ أضيعها قبل ذلك مع مونو غِرّا. كان باستطاعتي في مساء عادي، أن أكتبَ في غرفة تحرير الصحيفة، «الزرافةَ» وزاويةً، وبعضاً من كثير من الأخبار، التي لا أُوقِّعها، وأن أركّز قصّة بوليسية، وأكتبَ زوايا آخر ساعة لإغلاق عدد «كرونيكا». من حسن الحظ أنّ الرواية التي كنتُ أعمل بها راحت، بدلَ أن تُصبح سهلة مع مرور الأيام، تفرضُ معاييرها الخاصّة على معاييري، وكنتُ من السذاجة، حيث فهمت ذلك على أنّه بشائر رياح مواتية.

وكنتُ من علوّ الهمّة بحيث ارتجلت على عجلة قصّتي العاشرة ـ «هناك مَنْ عَبَثَ بهذه الورود» ـ، لأنّ نوبة قلبية خطيرة أصابت المُعَلِّقَ السياسيّ، الذي كنّا قد حجزنا له ثلاث صفحاتٍ من «كرونيكا» لمقال في الساعة الأخيرة. ولم أكتشف أنّ قصّتي مأساة جديدة متحجرة من تلك التي كنتُ أكتبها دون أن أنتبه، إلاّ وأنا أصحِّح البروفة المطبوعة. راح هذا التناقض يزيد من حدّة ندمي على إيقاظي صديقاً لي قبل منتصف الليل بقليل، كي يكتب لي المقالة في أقلّ من ثلاث ساعات. بهذه الروح كتبتُ القصّة في ذات الوقت،

وعدتُ يومَ الاثنين لأطرح على مجلس التحرير موضوعَ ضرورة أن ننزل إلى الشارع بتحقيقات صدام، لإخراجِ المجلّة من جمودها. ومع ذلك فالفكرة ـ فكرة الجميع ـ رُفِضَت مرّة أخرى بذريعة أسعدتني: إذا ما نزلنا إلى الشارع بالمفهوم المثالي الذي كنّا نملكه عن التحقيقات، فإنّ المجلّة لن تعود لتصدر في موعدها. يبدو أنّني فهمت ذلك كنوعٍ من المجاملة، لكنّني لم أستطع قط أن أتجاوز الفكرة السيّئة القائلة بأنّ اعتبارهم الحقيقيّ هو الذكرى السيئة عن تحقيقي عن بِراسكوتشيا.

في تلك الأيام شكّلت المكالمة الهاتفية لرافائيل إسكالونا، مؤلف الأغاني التي كانت وما زالت تُغنّى في هذا الجانب من العالم عزاءً جيّداً لي. كانت بارّانكيّا مركزاً حيوياً بسبب المرور المعتاد للمغنين الجوالين مع الأكورديون، الذين كنّا نعرفُهُم من حفلات أراكاتاكا، ومن انتشارهم الكبير في إذاعات ساحل الكاريبي. من المغنين المعروفين جيّداً آنذاك غيِّرمو بْويْتراغو، الذي كان يُقدَّر لأنّه يتابع يوماً بيوم جديدَ المقاطعة. ومغنٍّ آخر شعبيّ جدّاً هو كرِسّنثيو سالثِدو، الهندي الأحمر الحافي، الذي كان يقف في زاوية مطعم أمريكانا للوجبات السريعة، ليغني ببساطة أغاني غلاله الخاصة وغلال الآخرين، بصوته الذي ينطوي على شيءٍ من الصفيح، لكن بفنّية خاصة به فرضته على حشود شارع سان بلاس اليومية. قسم جيّد من شبابي الأوّل أمضيته متسمّراً بجانبه، دون حتى أن أُحيّيه أو أدعه يراني، إلى أن تعلّمتُ عن ظهر قلبٍ قائمة كبيرة من أغاني الجميع.

بلغت ذروة هذا الشغف أقصاها ذات مساء خمول قاطعني فيه الهاتف، بينما أنا اكتبُ «الزرافة». صوتٌ شبيهٌ بكثير من الأصوات التي عرفتها في طفولتي حَيّاني دون صيغٍ مسبقة:

ـ أخي العزيز، أنا رافائيل إسكالونا.

التقينا بعد خمس دقائق في مقصورة من مقهى روما؛ لنُقيم صداقةً لمدى الحياة. ما كدنا ننتهي من تبادل التحيّة حتى رحت أعتصر إسكالونا، كي يُغني لي أغانيه الأخيرةَ: أشعار متفرقة،

بصوت خافت وموزون تماماً، يرافقه بنقرات من أصابعه على الطاولة. كان الشعر الشعبيُّ يتنزّه بحلّة جديدة في كلّ مقطع. غنّى: «سأهديك باقة من زهرة «لا تنسني» كي تفعل ما تعنيه». من ناحيتي برهنت له أنّني أعرفُ عن ظهر قلبٍ أفضل أغاني بلده، التي تعلمتها منذ طفولتي المبكرة، في نهر التراث الشفوي المضطرب. لكنّ أكثر ما أدهشه هو أنّني كلّمتُه عن المقاطعة كما لو كنتُ أعرفها.

قبل أيام كان إسكالونا قد سافر في الباص من بيّانوِبا إلى بايّدوبّار، بينما راح يُلحِّنُ ويؤلّف عن ظهر قلب موسيقى وكلماتِ أغنيةٍ جديدة، لكرنفالات الأحد القادم. تلك كانت طريقته الماهرة، لأنّه لم يكن يعرف كتابة النوتة الموسيقية ولا العزف على أيّة آلة. في إحدى البلدات على الطريق صعد إلى الباص مغنٍّ جوالٌ يحتذي نعلاً ويحمل أكورديوناً، من أولئك الذين لا يُحصى عددهم، ويجوبون المنطقة ليُغنّوا من سوق إلى سوق. أجلسه إسكالونا إلى جواره وغنّى له في أذنه المقطعين الوحيدين، اللذين أنهاهما من أغنيته الجديدة.

نزل المغني الجوال سعيداً في بيّانوِبا، وتابع إسكالونا طريقَه في الباص إلى بايّدوبّار، حيث اضطُرَّ لأن ينام ويعاني من حرارة أربعين درجة ناتجة عن زكام شائع. بعد ثلاثة أيّام، حلَّ أحدُ الكرنفال، والأغنية غير المنتهية التي غناها إسكالون سرّاً لصديقه العابر، كنست كلّ الأغاني القديمة والجديدة، بدءاً من بايّدوبّار وحتى رأس بِلا. وحده عرف بينما هو يتصبّب عرقَ حمّى كرنفالِهِ، مَنْ نشرها، ومَنْ سمّاها «سارة العجوز».

القصّة حقيقية، لكنّها ليست مستغربة في منطقة ومهنة، أكثر ما فيها طبيعية هو المُذهل. الأكورديون، الذي ليس أصلياً ولا شائعاً في كولومبيا، وهو آلة شعبية في مقاطعة بايّدوبّار ربّما تمّ استيراده من أورُبا وكوراثاو. توقّف الاستيرادُ من ألمانيا خلال الحرب العالمية، وما كان موجوداً منه في المقاطعة بقي بفضل عناية أصحابه من أهل البلد به. واحد منهم هو لياندرو ديّاث، النجار، الذي لم يكن ملحناً عبقرياً، وعازفَ أكورديون ماهراً وحسب، بل

الوحيد الذي عرف كيف يُصلحه طوال الحرب، رغم أنّه كان أعمى بالولادة. طريقة هؤلاء المغنين الجوالين في الحياة هي أنّهم يُغنّون، من بلدة إلى أخرى، أحداثَ التاريخ اليومي الطريفة والبسيطة، في الاحتفالات الدينية والمدنية، وخاصّةً في الكرنفالات. لكنّ حالة رافائيل إسكالونا كانت مختلفة، فهو ابن الكولونيل كلِمنتِ إسكالونا، وابن أخت الأسقف الشهير ثِلِدون، وحاصل على الثانوية من المدرسة التي تحمل اسمه في سانتا مارتا، بدأ يؤلّف منذ نعومة أظفاره، مُحدِثاً فضيحة في الأسرة، التي كانت تعتبر الغناء بمرافقة الأكورديون من عمل الصنّاع. لم يكن المغنيَ الجوّالَ الوحيد الذي يحمل الثانوية وحسب، بل وواحداً من القليلين الذين يعرفون القراءة والكتابة في تلك الأيام، ومن الرجال الأكثر كبرياءً وعشقاً على امتداد العصور، لكنّه لم ولن يكون الأخير: فهم الآن يُعدّون بالمئات وفي كلّ مرّة أكثر شباباً. هكذا فهم بيل كلنتون الأمر في أخر أيّامه في الرئاسة، حين سمع مجموعةً من الأطفال الابتدائيين، الذين سافروا من المقاطعة ليُغنوا له في البيت الأبيض.

التقيتُ في تلك الأيّامِ السعيدةِ مصادفةً بمِرثِدِس بارتشا، ابنة صيدلاني سوكرِ، التي عرضتُ عليها الزواج وهي في الثالثة عشرة من عمرها. وبعكس المرات السابقة قبلت أخيراً دعوة مني للرقص في الأحد التالي في فندق البرادو. عندئذ عرفت أنّها انتقلت مع أسرتها إلى بارّانكيّا بسبب الوضع السياسيّ، الذي صار في كلّ مرّة أكثر قمعاً. كان أبوها ديمِتريو ليبرالياً صلباً، لم يلن أمام التهديدات الأولى، التي وجهوها له حين تفاقمت الملاحقات والعار الاجتماعي الذي سبّبته المناشير. ومع ذلك انصاع أمام ضغط أهله، وحزم أمتعته القليلة، التي بقيت له في سوكرِ، واستقرّ في البرادو. ورغم أنّه كان بعمر أبي، إلا أنّه حافظ على صداقة شبابية معي، كنّا نزيد من حرارتها في الحانات المقابلة، وقد انتهينا مع المجموعة في أكثر من مرّة، بسكرة عمياء في حانة إلْ ترِثِر هومبرِ. كانت مرثِدِس تدرس وقتذاك في مدلين ولا تذهب إلى بيت أسرتها إلاّ في عيد الميلاد. كانت دائماً مرحةً ولطيفة معي، لكنّها تتمتّع بذكاء لاعبي

الخفّة، وتتملص من الأسئلة والأجوبة، فلا تترك نفسها تُحاصَرُ بشيء. اضطررت أن أقبل ذلك كاستراتيجية أكثر رحمة من اللامبالاة أو الرفض، وأكتفي بأن ألتقي بأبيها وأصدقائه في الحانة المقابلة. إذا كان هو لم ينتبه إلى اهتمامي في تلك الإجازة الشائقة، فذلك لأنّه كان السر الأكثر مداراة خلال قرون المسيحية العشرين الأولى. تباهى في مناسبات عدّة في إلْ تِرتِر هومبرِ بالجملة التي ذكرتها لي أثناء رقصتنا الأولى في سوكرِ: «يقول أبي إنّ الأمير الذي سيتزوّج مني لم يولد بعد». كما لا أعلم ما إذا صدّقت هي ذلك، لكنّها كانت تتصرّف وكأنّها تصدق، حتى عشية عيد ذلك الميلاد التي قبلت فيها أن نلتقي يوم الأحد التالي في رقصة فندق برادو الصباحية. وأنا من الإيمان بالخرافة بحيث أنّني عزوت قرارها إلى تسريحة وشارب الفنان، اللذين عملهما لي الحلاق، وإلى الثياب الكتانية الخام وربطة العنق الحريرية، التي اشتريتها للمناسبة في مزاد تركيّ. كنتُ واثقاً من أنّها ستذهب مع أبيها، كما تفعل حين تذهب إلى كلّ مكان، فدعوت أختي عايدة روسا، التي كانت تقضي إجازتها معي. لكنّ مِرثِدس حضرت وحدها، ورقصت بطبيعية وسخرية، حتى أنّ أيّ عرضٍ جدّيٍّ منّي كان سيبدو مضحكاً. في ذلك اليوم افتُتِحت أيّام صديقي بّاتشو غالان، مبدع موسيقى «مِرِكومبِهْ» التي رُقِصَ عليها لسنوات وكانت الأصل لرقصات كاريبية ما زالت حيّة. كانت ترقص بشكل ممتاز على الموسيقى الدارجة، وتستغلّ مهارتها لتتحايل بمراوغة سحرية على اقتراحاتي، التي أحاصرها بها. يبدو لي أنّ تكتيكها كان موجّهاً لجعلي أعتقد أنّها لا تأخذني على مأخذ الجد، لكنّها فعلت ذلك بمهارة سمحت لي أن أجد دائماً الطريقة للمضي معها إلى الأمام.

في الساعة الثانية عشرة تماماً ارتاعت من الساعة، وتركتني مصلوباً في منتصف الرقصة. لكنّها لم ترض أن أرافقها ولا حتى إلى الباب. بدا ذلك لأختي في غاية الغرابة فاعتبرت نفسها مسؤولة بشكلٍ ما، وما زلتُ حتى الآن أسألُ نفسي عما إذا كان لذلك المثل

السيِّئ علاقة بقرارها المفاجئ بالدخول في دير مدلين للراهبات السالِسيات(*). منذ ذلك اليوم اخترعنا، أنا ومِرْثِدِس، لغةً شخصية نتفاهم بها دون أن يقول أحدُنا للآخر شيئاً، بل وحتى دون أن نلتقي.

عدتُ وعلمتُ بأخبارها بعد شهر، يوم 22 كانون الثاني من العام التالي، من رسالة مقتضبة تركتْها لي في «إلْ هِرالدو»: «لقد قتلوا كايتانو». بالنسبة إلينا لم يكن من الممكن أن يكون كايتانو إلاّ واحداً: كايتانو خِنتيلِ، صديقنا في سوكرِ، الذي كان على وشك أن يتخرّج طبيباً، محرّك الرقص العاشق لمهنته. الرواية الفورية جاءت تقول إنّ أخوين لمعلّمة مدرسة تشابّارال الصغيرة، التي رأيناه يحملها على جواده، قتلاه طعناً بالسكين. اكتملت القصّة، برقيةً بعد أخرى خلال النهار.

لم يكن ذلك زمن الهواتف السهلة بعد. والمكالمات الشخصية بعيدة المدى كانت تتمُّ بإرسال برقيات مسبقة. ردّ فعلي الفوري كانت ردّ فعل المحقِّق الصحفيّ. قرَّرتُ السفر إلى سوكرِ لكتابته، لكنّهم فسّروه في الصحيفة على أنّه دافع عاطفي. وأنا أفهم ذلك اليوم، فنحن الكولومبيين نقتل منذ ذلك الوقت بعضنا بعضاً، لأيِّ سببٍ، وأحياناً نفتعل الأسباب كي نفعل ذلك، لكنّ الجرائم العاطفية كانتْ حكراً على أثرياء المدن المُترفين. بدا لي الموضوعُ أبديّاً وبدأتُ أجمع المعلومات من الشهود إلى أن اكتشفت أمّي مقاصدي الخفيّة، ورجتني ألاّ أكتبَ التحقيق. على الأقل ما دامت أمُّ كايتانو، دونيا خولييتا تشيمِنتو، على قيد الحياة، التي كانت، وكتتويجٍ للأسباب، صديقتها في السرّ المقدّس، لأنّها إشبينة هِرناندو، أخي الثامن بالتعميد. وكان لحجّتها ـ الضرورية جدّاً في التحقيق الجيّد ـ ثقلها الكبير. اثنان من أخوة المعلمة لاحقا كايتانو حين حاول الاختباء في بيته، لكنّ دونيا خولييتا سارعت وأغلقتْ البابَ

(*) نسبة إلى سان فرانسيسكو دِ سالِسْ، وقد أسّس سان خوان بوسكو في القرن التاسع عشر جمعية دينية لتربية الشباب، والتي ينتمي إليها الدير المذكور أعلاه.

الخارجي، لأنّها ظنّت أنّ ولدها موجود في غرفة نومه. وهكذا فالذي لم يستطع الدخول هو ابنُها، فقتلوه طعناً بالسكين على الباب المغلق.

ردة فعلي الفورية كانت في أن جلستُ أكتبُ تحقيق عن الجريمة، لكنّني وجدت نفسي أمام كلّ أنواع القيود. ما صار يهمّني لم يعد الجريمة بذاتها، بل موضوع المسؤولية الجماعية، الأدبيّ. لكن ما من حجّة أقنعت أمّي، وبدا لي أنّ من عدم الاحترام أن أكتب دون إذنٍ منها. ومع ذلك، ومنذ ذلك اليوم لم يمضِ يومٌ واحدٌ لم تضغط عليّ فيه الرغبة بكتابتها. بدأتُ أذعِنُ لها بعد سنواتٍ كثيرة بينما أنا أنتظر إقلاع طائرةٍ في مطار الجزائر. فجأة فُتِح باب قاعة الدرجة الأولى، ودخل أميرٌ عربيٌّ بعباءته الناصعة التي تليق بمَحْتِدِه، وفي قبضته أنثى طائر حرٍّ زاهية، تحمل بدل غماء التصقُّر الكلاسيكي الجلدّي، غماءً من ذهب مرصّع بالماس. طبعاً تذكّرتُ كايتانو خِنتيلِ، الذي تعلّم من والده فنون التصقّر، في البداية ببواشق أوروبية، ثمّ بنماذج رائعة جيء بها من بلاد العرب السعيدة. كان عنده في مزرعته لحظةَ موته مَصْقَرة(*) محترف، فيه أنثيان وذكر مدرّبة على صيد الحجل، وشاهين أسكتلندي مدرَّب على الدفاع الشخصيّ. كنتُ على علمٍ وقتذاك بالمقابلة التاريخية التي أجراها جورج بْليمبّتون مع أرنسْت همنغواي في «ذي باريس ريفو» حول عملية تحويل شخصية من الحياةِ الواقعية إلى شخصية روائية. أجابه همنغواي: «لو شرحتُ كيف يتمّ ذلك، لتحوّل ذات يوم إلى مرجع للمُحامين المُتخصّصين في التشهير». ومع ذلك، ومنذ ذلك الصباح الرباني في الجزائر، انقلبت حالتي: لم أعد أشعر بنفسي متحمّساً للاستمرار بالعيش بسلام ما لم أكتب قصّة مقتل كايتانو.

بقيت أمّي ثابتةَ العزم على منع ذلك، مهما كانت المبرِّرات، طيلة ثلاثين سنة من المأساة، حين هتفت إلي بنفسها إلى برشلونة كي تخبرني بنبأِ وفاة خوليتا تشيمِنتو، أمّ كايتانو، دون أن تكون قد

(*) على وزن مفعلة، ومبقرة، المكان الذي تُربّى فيه الصقور.

تعافت من فقدان ابنها. لكنّ أمّي بمعنوياتها العالية، لم تجد أسباباً تمنعني بها من كتابة التحقيق.

- شيئاً واحدً أطلبه منكَ كأمّ - قالت لي - عامِلْ كايتانو كما لو كان ابناً لي.

صدرت القصة بعنوان «وقائع موتٍ مُعلن» بعد عامين. لم تقرأها أمّي لسببٍ أحتفظ به كجوهرة أخرى في متحفي الشخصي: «إنّ شيئاً حدث بمثل ذلك السوء في الحياة لا يمكن أن يخرج جيداً في كتاب».

رنّ هاتف مكتبي في الخامسة مساءً بعد أسبوع من مقتل كايتانو، وأنا أكتبُ مادتي اليومية لِ «إلْ هِرالدو». كان المتكلّمُ أبي، الذي وصل إلى بارّانكيّا دون أن يُعلِمَ أحداً بذلك، وينتظرني لأمرٍ ضروري في مقهى روما. أخافني توتّرُ صوته، لكنّ رؤيتي له، كما لم أره قط، أفزعني أكثر: مشوّشاً، ذقنه لم تُحلق، يرتدي ثياب التاسع من نيسان وقد علكها تعرق الطريق، لا يكاد يحميه غير هدوءِ المهزوم.

بلغ بي الضيق من الشدّة، حيث أنّني لا أشعر بنفسي قادراً على أن أنقل الضيق والبصيرة اللذين أخبرني بهما والدي بالكارثة العائلية. سوكرِ، جنّة حياة الدعة والفتيات الجميلات، تهاوت أمام ريح العنف السياسي المزلزلة. فموت كايتانو لم يكن إلا أحد الأعراض.

- أنت لا تُدرك ماهية ذلك الجحيم لأنّك تعيش في واحة سلام - قال لي - لكنّنا نحن الذين ما زلنا أحياء هناك، ما زلنا كذلك، لأنّ الله يعرفنا.

كان واحداً من أعضاء حزب المحافظين القليلين الذين لم يُضطروا للاختباء من الليبراليين المهتاجين بعد التاسع من نيسان، والآن حتى الذين لاذوا بظلّه صاروا يكرهونه لتساهله. لقد رسم لي صورة مرعبة - وحقيقيةً - إلى حدّ أنّها تبرّر كثيراً قراره الصاعق بترك كلّ شيءٍ والانتقال بالأسرة إلى كارتاخِنا. لم يكن عندي قلب

ولا سبب كي أقف ضدّه، لكنّني فكّرت أنّ باستطاعتي أن أُلهيه بحلٍّ أقلَّ جذرية من الانتقال الفوري.

كنتُ بحاجة لوقت للتفكير. تناولنا مُرَطِّبَيْنِ بصمت، كلٌّ مشغول بما لديه، فاستعادة مثاليته المتحمسة قبل الانتهاء، رَبَطت لساني. «الشيء الوحيد الذي يواسيني ـ قال بتنهيدة مرتعشة ـ هو فرحة أن تستطيع أن تُنهي دراستك.» لم أقل له قط كم أثّرتْ بي تلك الفرحة الخيالية الناتجة عن سبب بمثل تلك السخافة. شعرتُ بنفحة باردة على بطني، مصعوقاً بفكرة منحرفة مفادها أنّ رحيل الأسرة لم يكن إلاّ مَكراً منه ليُجبرني على أن أُصبح محامياً. نظرتُ إلى عينيه مباشرة فكانتا بركتين ذاهلتين من ماء راكد. انتبهت إلى أنّه أعزل وحزين إلى حدّ أنّه لا يُجبرني على شيء، ولا يرفض لي شيئاً، لكن كان بي من الإيمان بحكمته الربانية ما يجعلني أؤمن بأنّه سيهزمني من التعب. بل وأكثر من ذلك: كشف لي بهمّتِهِ الآسرة ذاتها أنّه حصل لي على عملٍ في كارتاخِنا، وأنّه جهّز كلّ شيء لاستلامي العمل يوم الاثنين التالي. وظيفة كبيرة، وضّح لي، ليس عليّ أن أفعل أيّ شيء غير أن أذهب، وأقبض راتبي كلَّ خمسة عشر يوماً.

كان هذا أكثر مما أستطيع هضمه بكثير. سبّقتُ عليه وأنا أكزّ بين أسناني، على بعض تحفظاتي، التي تُحَضِّرُه لرفضٍ أخير. حكيتُ له عن حديثي الطويل مع أمّي خلال الرحلة إلى أراكاتاكا، التي لم ألق منه تعليقاً عليها قط، لكنّني فهمت أنّ عدم اكتراثه بالموضوع أفضلُ جواب. أكثر ما أحزنني هو أنّني كنتُ ألاعبه بالنرد المركب، لعلمي أنّني لن أُقْبَل في الجامعة نظراً لرسوبي بمادّتين في الصف الثاني، لم أُعد لهما نفسي بعدها قط، وثلاث مواد أخرى لا يمكن التقدم بها أبداً. أخفيتُ ذلك عن الأسرة كي أجنّبها انزعاجاً غير مجدٍ، ولم أبغِ حتى أن أتخيّل ما ستكون عليه ردّة فعل أبي إذا ما حكيتُ له فيما بعد. في البداية قرَّرتُ ألاّ أُذعن لأيِّ ضعف عاطفي، إذ يُؤلمني أن يُضطرَّ رجلٌ طيبٌ إلى ذلك الحدّ أنْ يَظْهَرَ أمام أبنائه بمثل تلك الحالة من الهزيمة. ومع ذلك بدا لي أنّني بذلك أجعله يثق بالحياة أكثرَ من

اللازم. في النهاية استسلمت للصيغة السهلة، بأن أطلب منه ليلةَ رحمةٍ، كي أُفكّر.

- موافق - قال - شريطة ألاّ يغيب عن ذهنك أنّ مصير الأسرة بين يديك.

فاض الشرطُ. كنتُ من الوعي بضعفي، حيث أنّني حين ودّعته في آخر باص في السابعة ليلاً، اضطُرِرْتُ لأنّ أرشو قلبي كيلا أمضي بجانبه في المقعد المجاور. كان واضحاً بالنسبة إليّ بأنّ الحلقة قد أُغلِقت، وأنّ الأسرة قد عادت لتُفْقَرَ، حيث لا يمكنها أن تستمر في الحياة إلاّ بتضافر جهود الجميع.

لم تكن ليلة صالحة لتقرير أيّ شيء؛ فالشرطةُ قد أجْلَت بالقوّة عدّةَ عائلاتٍ هاربة من عنف الريفِ، من لاجئي الداخل الذين خيّموا في حديقة سان نيكولاس العامّة. ومع ذلك بقي سلام مقهى روما حصيناً. كان اللاجئون الأسبان يسألونني دائماً ماذا أعرف عن دون رامون بينيّس، فأمازحهم قائلاً إنّ رسائله لا تحمل أخباراً عن أسبانيا، بل أسئلةً متلهفة عن بارّانكيّا. لم يعودوا ليذكروه بعد موته، لكنّهم احتفظوا بكرسيّه فارغة إلى الطاولة. هنّأني أحد المثابرين على قراءة «الزرافة» المنشورة في اليوم السابق لأنها ذكّرَته بطريقةٍ ما برومانسية ماريانو خوسِهْ دِ لارا الممزّقة للقلب. أنقذني الأستاذ بِرِثْ دومِنيك من الحرج بجملةٍ من جمله المناسبة: «آمل ألا تحذو حذوه فتطلق على نفسك رصاصة». لا أظنّ أنّه كان سيقول ذلك لو علم إلى أيّ حدٍّ كان هذا صحيحاً في تلك الليلة.

بعد نصف ساعة أخذتُ خِرمان بارغاس من ذراعه إلى عمق مقهى خابّي. وما إن قدّموا لنا طلبنا، حتى قلتُ له إنّني سأستشيره بمسألة عاجلة. جمد الفنجان الذي أوشك أن يرشف منه في منتصف الطريق - تماماً مثل دون رامون -، وسألني مستنفراً:

- إلى أين تمضي؟

أذهلتني بصيرته.

- ويحك كيف عرفت! - قلتُ له

لم يكن يعرفُ، لكنّه توقّع وفكّر بأنّ تركي للعمل سيكون نهاية «كرونيكا» وستكون لا مسؤولية خطيرة، ستُثْقِلُ عليّ بقيّة حياتي. أفهمني أنّ ذلك خيانة إلاّ قليلاً، وأنّه ليس لأحدٍ الحق بقول ذلك لي غيره. لا أحد كان يعرف ماذا سنفعل بِـ «كرونيكا»، لكنّنا جميعاً كنا نعي أنّ ألفونسو نهض بها في لحظة حرجة، حتى باستثمارات تفوق إمكانياته، حيث أنّني لم أستطع قط أن أخلّص خِرمان من فكرته السيئة، بأن انتقالي الحتمي هو بمثابة حكم بالموت على المجلة. أنا واثق من أنه، هو الذي يفهم كلّ شيء، يعرف أنّ دوافعي كانت لا تُرد، لكنّه قام بواجبه الأخلاقي بقوله لي ما كان يفكّر به.

في اليوم التالي، وبينما كان ألبارو ثِبِدا يأخذني إلى مكتب كرونيكا، أبدى لي ملاحظة مؤثّرة جدّاً، عن التوتر الذي راحت تُسبِّبه له الإعصارات الحميمة بين الأصدقاء. لا شكّ أنّه كان يعلم عبر خِرمان بقراري بالمغادرة، وخجله المثاليّ أنقذنا من كلِّ تبرير مجامِل.

- أيّ هراء! - قال لي - الذهاب إلى كارتاخِنا ليس ذهاباً إلى مكان. الفظاعة هي أن تذهب إلى نيويورك، كما حدث لي، ومع ذلك ها أنت تراني في أحسن حال.

كان هذا نوع الأجوبة الرمزية التي تفيده في حالاتٍ كحالتي كي يتخطّى الرغبة بالبكاء. وللسبب ذاته لم يفاجئني أنّه فضّل الحديث لأوّل مرّة عن مشروع صناعة السينما في كولومبيا، الذي كان علينا أن نتابعه دون نتيجة طوال حياتنا. لامسه كطريقة هادئة، ليترك لي بعض الأمل، وكبح السيارة فجأة بين الحشود المكتظّة وحانات شارع سان بلاس البائسة.

- سبق وقلتُ لِـ ألفونسو - صاح بي من النافذة الصغيرة - أن يُرسل بالمجلة إلى الجحيم ولنعمل صحيفة مثل التايم!

لم يكن الحديث مع ألفونسو، بالنسبة إليّ ولا إليه، سهلاً، لأنّ هناك أمر مستعصٍ كان علينا أن نوضِّحه قبل قرابة ستة أشهر، لكنّنا كنّا، أنا وهو، نعاني من نوعٍ من الإرتباك العقلي في الحالات

الصعبة. حدث أنّني في إحدى فورات غضبي الصبيانية في قاعة الإخراج، أزلتُ اسمي وصفتي من ثبتِ هيئة تحرير «كرونيكا»، كإيحاء بانسحابي الرسمي، وحين مرّت العاصفة نسيتُ أن أُعيده. ما من أحد انتبه بعد أسبوعين غير خِرمان بارغاس، فناقش الأمر مع ألفونسو، الذي فوجئ بدوره. بّورفيريو، مدير الإخراج حكى لهما كيف حدثت الفورةُ، واتفقوا على ترك الأمور كما هي إلى أن أبينّ لهم دوافعي. من سوء طالعي أنّني نسيتُ الأمرَ إلى أن اتفقنا أنا وألفونسو ذات يوم على أن أترك «كرونيكا». وحين انتهينا ودّعني ميتاً من الضحكِ بإحدى مزاحاته المميزة، القوية والأخّاذة في الوقت ذاته:

ـ الحظ ـ قال ـ هو أنّنا لن نضطرّ لإزالة اسمك من ثبت التحرير.

عندها فقط عشتُ الحادث من جديد مثل طعنة سكينٍ، وشعرتُ بالأرض تغور تحت قدميّ، ليس بسبب ما قاله ألفونسو بطريقة مناسبة جدّاً، بل لأنّني نسيتُ أن أوضِّح له الأمر. قدّم لي ألفونسو، كما كان متوقّعاً، توضيحَ رجل راشِد. إذا كان ذلك هو العيب الوحيد الذي لم نُسوِّه، فمن غير اللائق أن نتركه معلّقاً دون توضيح. الباقي سيقوم به ألفونسو وألبارو وخِرمان، وإذا ما تطلّب الأمر إنقاذ السفينةِ بجهد الجميع فإنّ باستطاعتي تماماً أن أعودُ خلال ساعتين. كنّا نعتمد على هيئة التحرير، وهي نوع من العناية الإلهية، التي لم نستطع قط أن نجعلها تجلس إلى طاولةِ خشب الجوزِ التي تُتخذ عليها القراراتِ الكبرى، الطويلة.

بعثتْ تعليقاتُ خِرمان وألبارو فيّ الشجاعة التي كانت تنقصني للمغادرة. تفهَّم ألفونسو دوافعي وتلقاها كنوع من الراحة، لكنّه لم يوحِ لي إطلاقاً بأنّ «كرونيكا» ستنتهي بانسحابي منها. بل على العكس نصحني بأن أتناول الأزمةَ بهدوء، هدّأني بفكرة أنّها ستبني له قاعدة راسخة مع هيئة التحرير، وبأنّه سيُخبرني حين يستطيع أن يفعل شيئاً له قيمة في الواقع.

هذه إشارة تدلّ على أنّ ألفونسو كان يُدرك الاحتمال غير المحتمل بأنّ «كرونيكا» قد تنتهي. وهذا ما حدث دون ألم ولا مجدٍ،

يوم الثامن والعشرين من حزيران، بعد ثمانية وخمسين عدداً وأربعة عشر شهراً. ومع ذلك، وبعد نصف قرن لديّ انطباع بأنّ المجلّة شكّلت حدثاً مهمّاً في عالم الصحافة الوطنية. لم تبقَ منها مجموعة كاملة، فقط الأعداد الستة الأولى، وبعض القصاصات في مكتبة دون رامون بينيّس الكتلانية.

مصادفة سعيدة بالنسبة إليّ أنّهم أرادوا في البيت الذي كنتُ أعيشُ فيه أن يُبدِّلوا أثاث القاعة، وعرضوه عليَّ بسعرٍ المزاد. عشيّة يوم السفر، وخلال تصفية حساباتي مع «إلْ هِرالدو»، قبلوا أن يدفعوا لي مقدّماً ستّة أشهر عن «الزرافة». فاشتريتُ بجزء من تلك النقود أثاث مايّتو لبيتنا في كارتاخِنا، لأنّني كنتُ أعلم أنّ الأسرة لا تحمل معها أثاثَ سوكرِ، وليس لديها إمكانية لأن تشتري أثاثاً آخر. لا يمكنني أن أتناسى أنّه وبعد خمسين عاماً من استخدامه، ما زال في حالة جيّدة ومستخدماً، لأنّ أميّ لم تسمح مشكورةً ببيعه.

انتقلتُ بعد أسبوع من زيارة أبي إلى كارتاخِنا، لا أحمل غير الأثاث وأكثر قليلاً ممّا أرتديه من ملابس. على العكس من المرّة الأولى، كنتُ أعرف كلَّ ما هو ضروريٌّ في كارتاخِنا، وأتمنى من كلِّ قلبي أن تسير أمورُ الأسرة بشكلٍ جيّد، وأموري بشكلٍ سيّئٍ، عقاباً لي على انعدام شخصيتي.

كان البيت في موقع جيّد من حيٍّ بّوبّا، في ظل دير تاريخيٍّ بدا دائماً على وشك الانهيار. حُجِزت غرفُ نومِ الطابقِ السفلي وحمّاماهُ للأبوين والأبناء الأحد عشر، أنا الأكبر، في الخامسة والعشرين تقريباً وإليخيو الأصغر في الخامسة. وجميعهم تربوا جيّداً على ثقافة شِباكِ نومِ، وحصرِ الأرضِ الكاريبية، والأسرّةِ ما اتسع لها المكان.

في الطابق العلوي كان يعيش عمّي هِرموخِنِس سول، مع ابنه كارلوس مارتينِث سيماهان. لم يكن البيت كافياً لكلّ ذلك العدد، لكنّ الإيجار كان مقبولاً بسبب التجارة القائمة بين العمّ والمالكة، التي لم نكن نعلم عنها غير أنّها غنيّة جدّاً وتُدعى بّبّا. لم تتأخّر الأسرةُ

بطبيعتها الساخرة التي لا ترحم في العثور على العنوان التام على شكل أغنية: «بيت بِبّا على سفح بّوبا».

وصولُ العشيرة بالنسبة إليّ ذكرى غامضة. كانت الكهرباء قد انقطعت عن نصف المدينة، وحاولنا أن نحضّر البيتَ في الظلمة لنوم الأطفال. كنّا نحن الأخوة الكبار نعرف بعضنا بالصوت، لكنّ الصغار تغيّروا كثيراً بعد زيارتي الأخيرة، وعيونهم الهائلة والحزينة ترعبني على ضوء الشموع. أرعبتني فوضى الصناديق والحزم وشباك النوم المعلقة في الظلمة، كما لو كانت يوماً تاسعاً من نيسان منزلياً. ومع ذلك فالتأثّر الأكبر وقع لي حين حاولتُ أن أحرّك كيساً طويلاً ليس له شكل ويملص من بين يديّ. كان رفات جدّتي ترانكيلينا التي أخرجتها أمّي من قبرها، وحملتها معها كي تُوْدِعَها في مستودع عظام سان بِدرو كلابِر، حيث يرقد رفات أبي وعمّتي إلبيرا في مدفن واحد.

كان عمّي هِرموخِنِس سول الرجل الرباني في تلك الحالة الصعبة. فقد عينوه أميناً عامّاً لقسم الشرطة في كارتاخِنا، وأوّل تدبير جذري اتخذه هو أنّه فتح ثغرة بيروقراطية لإنقاذ العائلة. بما في ذلك أنا، الضال السياسيّ، ذو السمعة الشيوعية التي لم أكتسبها بسبب عقيدتي، بل بسبب طريقتي في اللباس. كان هناك وظائف للجميع. أعطوا أبي منصباً إدارياً ليس فيه مسؤولية سياسية. وعيّنوا أخي لويس إنريكِهْ شرطياً سرّياً، وأنا أعطوني وظيفة قليلةَ العمل في مكاتب المركز الوطني الذي أصرّت الحكومةُ المحافظة على إحداثه، ربّما لمعرفة كم من الخصوم ما زال على قيد الحياة. كان الثمن الأخلاقي للوظيفة أخطر بالنسبة إليَّ من الثمن السياسي، لأنّني كنتُ أتقاضى راتبي كلّ أسبوعين، ولا أستطيع أن أسمح للقِطاع أن يراني بقيةَ أيّام الشهر تفادياً للأسئلة. التبرير الرسمي ليس بالنسبة إليّ وحسب، بل لما يقارب المئة ونيّف من الموظفين هو أنّني في مهمّة خارج المدينة.

كان مقهى موكا، مقابل مكاتب الإحصاء، يغصُّ دائماً بالبيروقراطيين المزيَّفين من القرى المجاورة، لا يذهبون إلاّ كي

يقبضوا رواتبهم. لم يكن هناك سنتيمتر واحد لاستخدامي الشخصي خلال الفترة التي وقّعت فيها على جدول الرواتب، لأنّ راتبي كان أساسياً ويذهب بكامله للميزانية المنزلية. حاول أبي خلال ذلك أن يُسجّلني في كلّية الحقوق، فاصطدم بالحقيقة التي أخفيتها عنه. مجرّد معرفته بالأمر أسعدني كما لو أنّهم سلّموني الشهادة. واستحققت السعادة أكثر لأنّني وجدتُ أخيراً، وسطَ تلك التناقضات والخِدَع، الوقتَ والمكان لإنهاء الرواية.

أشعروني بأنّ دخولي إلى «إل أونيفِرسال» يشبه عودتي إلى البيت. كانت الساعة السادسة مساء، وهي أكثر الساعات حركةً، والصمت المباغِتُ الذي أثاره دخولي إلى آلات الطباعة والآلات الكاتبة، أحدث غصّة في حنجرتي. لم تمرّ لحظة واحدة على فراقي خصلات شعر الهندي الأحمر لدى المعلّم ثابالا. طلب منّي، كما لو أنّني لم أُغادر المكان قط، معروفَ أن أكتب له زاوية متأخّرة مغفلة اسم المؤلف. كان يشغل آلتي الكاتبة مراهق مبتدئ، سقط بسبب السرعة الطائشة التي أخلى لي بها المقعد. أوّل ما فاجأني هو صعوبة كتابة زاوية مغفلة اسم المؤلف بعد سنتين من التوقّف عن كتابة «الزرافة». كنتُ قد كتبتُ ورقة واحدة حين اقترب المديرُ لوبِّثْ إسكاورياثا ليحيّني. كانت برودته الإنكليزية نقطة مشتركة في كلّ مسامرات الأصدقاء والكاريكاتيرات السياسيّة، وقد أدهشني تورُّدُ الفرح عنده حين سلّم عليّ مُعانقاً. ما إن انتهيت من المقالة، حتى وجدتُ ثابالا ينتظرني بورقة صغيرة، أجرى فيها المديرُ عمليات حسابية، ليقترح عليّ راتباً قدره مئة وعشرين بيزو شهرياً مقابل زوايا الرأي. أدهشني المبلغُ غير المعهود في ذلك الوقتِ وذلك المكانِ، إلى حدّ أنّني لم أردّ عليه ولم أشكره، بل جلستُ أكتبُ زاويتين جديدتين، وقد أسكرني الإحساس بأنّ الأرض تدور حقيقةً حول الشمس.

كان هذا أشبه بعودتي إلى الجذور. المواضيع ذاتها منقّحةً بحبر المعلّم ثابالا الأحمر الليبرالي، ومجتزأة من قبل رقيبٍ هزمه مَكر التحرير العاق، ومنتصف الليالي بشرائح اللحم الملوّحة مع

شرائح الموز المقلي في لا كوِبا، وموضوع تشكيل العالم ذاته حتى الفجر في جادة لوس مارتيرِس العريضة. بقي روخاس هِراثو عاماً يبيعُ لوحاتٍ كي ينتقل إلى أيّ مكانٍ، إلى أن تزوّج من روسا إيزابيل، العظيمة، وانتقل إلى بوغوتا. كنتُ أجلس في نهاية الليل لأكتبَ زاوية «الزرافة» التي أرسلها إلى «إلْ هِرالْدو» بالبريد العادي، الوسيلة الحديثة الوحيدة في ذلك الوقت، وقليلاً ما كنتُ أُخْلِف بها تحت ضغط الحاجة القاهرة لتسديد الديون.

الحياة مع الأسرة كاملة وفي ظروفٍ فاجعة ليس مجالاً للذاكرة بل للخيال. كان الأبوان ينامان في غرفةٍ في الطابق السفلي مع بعض أخوتي الصغار. والأخوات الأربعة صرن يشعرن بحقّ كلّ واحدةٍ منهنّ بغرفة مفردة. في الغرفة الثالثة ينام هِرناندو وألفرِدو ريكاردو برعاية خايمِهْ، الذي كثيراً ما أبقى عليهما مستنفرين بخطبه الفلسفية والرياضية. كانت ريتا بسنواتها الأربع عشرة تدرس حتى منتصف الليل في بابِ الشارع، تحت ضوء مصباح العمود العام، كي تُوفر إنارة البيت، تتعلّم دروسَها عن ظهر قلب، مغنيةً إياها بصوت عالٍ بالملاحة واللفظ الحسن اللذين ما زالت تتمتّع بهما. كثير من غرائب كتبي ناتج عن تمارين قراءتها للبغل الذاهب إلى الطاحونة، وشوكولا صبيٍّ القبعة الصغيرة، والعرّاف المتفرّغ للشراب. كان البيتُ يصير أكثرَ حيوية وإنسانية بعد منتصف الليل، فما بين الذهاب إلى المطبخ لشرب الماءِ، والذهاب إلى المرحاض لقضاء حاجات التبول أو التغوّط، أو تعليق شباك النوم التي تتقاطع في مستويات مختلفة من الممرات. كنتُ أعيشُ مع غوستابو ولويس إنريكِهْ في الطابق الثاني ـ حين استقرّ العم وابنه في بيت الأسرة ـ ثمّ مع خايمِهْ خاضعاً لعقوبة ألاّ نتكلّم عن شيء بعد التاسعة ليلاً. وذات فجر، أبقى ثغاءُ خروفٍ يتيمٍ، باهت ورتيب، علينا مستيقظين عدّةَ ساعات. قال غوستابو يائساً:

ـ يبدو كأنه ضوء منارة.

لم أنسَ هذا قط، لأنّه شكّل درساً في التشبيهات التي كنتُ

ألتقطها في ذلك الوقت، «على الطاير»، في الحياة الواقعية للرواية التي كنتُ أشرف على إنهائها.

كان هذا البيت هو الأكثر حيويةً بين بيوت كارتاخِنا العديدة التي راحت تتدهور مثلها مثل موارد الأسرة. في بحثنا عن أرخصِ الأحياء، رحنا نخفض من مستوانا حتى وصلنا إلى بيت توريلْ، الذي كان يظهر فيه ليلاً شبحُ امرأة. حالفني الحظ أنّني لم أكن هناك، لكن شهادات الأبوين والأخوة وحدها، سببت لي من الرعبِ، ما عادل وجودي هناك. غفا والديَّ في الليلة الأولى على أريكةِ القاعة، ورأيا الشبحَ يتنقل بفستانِ أزهار حمراء وشعرٍ قصير ملموم ومعقود خلف الأذنين بشرائط ملونة، من غرفة إلى أخرى، دون أن ينظر إليهما. وصفت أمي حتى بقع فستانه وموديل حذائه. أنكر والدي أنّه رآه كي لا يزيد من خوف الزوجة ولا يرعب الأولاد، لكنّ الألفة التي كان يتحرّك بها شبح المرأة منذ المساء في البيت لم يسمح بتجاهله. استيقظت أختي مارغوت ذات فجر ورأته على حافة سريرها يتفحّصها بنظرة عميقة. لكن أكثر ما أخافها هو رعبها من أنّها مُشاهَدة من عالمٍ آخر.

أكّدت يومَ الأحد التالي إحدى الجارات لأمي عند الخروج من القدّاس، أنّ أحداً لم يعش في ذلك البيت منذ زمن طويل بسبب سفهِ المرأة الشبح التي ظهرت مرّة في غرفة الطعام في عزِّ النهار، بينما الأسرة تتناول غداءها. خرجت أميّ في اليوم التالي، مع اثنين من أخوتي الصغار، تبحث عن بيت تنتقل إليه، وعثرت عليه خلال أربع ساعات. ومع ذلك فقد عانى أخوتي كثيراً لإبعاد فكرة أنّ شبح الميتة لم ينتقل معهم.

في بيت سفح لابّوبّا، ورغم المتسع الكبير من الوقت عندي، إلا أنّ حبّ الكتابة الطافح جعل الأيام قصيرةً بالنسبة لي. هناك ظهر راميرو دِ لا إسبيريّا من جديد يحمل شهادة دكتوراه في القانون، وهو أكثر سياسة وحماسة من أيّ وقت مضى لمقروءاته من الروايات الحديثة. خاصة «الجلد» لِ كورثيو مالابارتِه الذي أصبح في ذلك العام كتاباً محورياً بالنسبة لجيلي. إنّ فعالية النثر، وقوّة

الذكاء، والنظرة القاسية للتاريخ المعاصر، كانت تمسك بتلابيبنا حتى الفجر. ومع ذلك برهن لنا الزمنُ أنّ مالابارته مُقدَّر له أن يكون نموذجاً مفيداً، مزاياه مختلفة عن تلك التي كنتُ أرغب بها، و انتهت بأن هزمت صورته. على العكس تماماً مما حدث لنا في الوقت نفسه مع ألبير كامو.

كان أبناء ده لا إسبيرِيّا يعيشون آنذاك قريبين منّا، ولديهم قبو نبيذٍ عائلي يسرقون منه قناني بريئة ليحملوها إلى بيتنا. وبعكس ما نصحني به دون رامون بينّيس، كنت أقرأ لهم ولأخوتي، مقاطعَ طويلة من مسوداتي من كل ما كتبته في ليالي أرقي في «إل أونيفرسال»، تماماً كما كانت قبل تشذيبها، على لفائف ورق المطبعة ذاتها.

عاد في تلك الأيام ألبارو موتيس وغونثالو مايّارينو، لكنّني ملكت من الحياء المناسب ما جعلني لا أطلب منهما أن يقرأا المسودة، التي لم تكن قد انتهت، أو وُضِع لها عنوان بعد. كنتُ أريد أن أحبسَ نفسي تماماً كي أكتب النسخة الأولى على الورق الرسمي قبل التنقيح، وهي أكبر بأربعين صفحة من الرواية المتوقعة، لكنني كنتُ ما أزال أجهل أنّ ذلك يشكل عائقاً خطيراً. سرعان ما عرفتُ أنّه كذلك: أنا عبد صرامة كمالٍ تجبرني على أن أحسب مسبقا حجم الكتاب، بعدد دقيق من الصفحات لكل فصلٍ و للكتاب ككل. فخطأ واحد بارز في هذه الحسابات يجبرني على إعادة النظر بكل شيء، لأن خطأ واحداً من ضاربة الآلة الكاتبة يوترني، كما لو أنّه خطأ في الإبداع. وكنت أفكر أن هذا المنهج المطلق إنما يعود إلى معيار متشددٍ في المسؤولية، لكنني أعلم اليوم أنه مجرد رعبٍ خالصٍ وماديّ.

بالمقابل أوصلتُ إلى غوستابو إيبارّا المسودة كاملة، وإن كانت ما تزال دون عنوان حين اعتبرتها منتهية، عاصياً مرة أخرى نصيحة دون رامون بينيس. بعد يومين دعاني إلى بيته. وجدته في كرسي خيزران هزاز في شرفة البحر، برونزيّ اللون تحت الشمس، مسترخياً في ثياب البحر، وأثّرت بي الرقة التي كان يداعب بها

صفحاتي، بينما هو يكلمني. مُعلِّمٌ حقيقي لم يملِ عليّ أستذة حول الكتاب، ولم يقل لي ما إذا كان قد بدا له جيداً أو سيئاً، بل جعلني أعي قيمَهُ الأخلاقية. وحين انتهى رمقني مسروراً وختم كلامه ببساطة عادية:

ـ هذه هي أسطورة أنتيغون.

لاحظَ من تعابير وجهي أنني لم أعِ ما عناه، فأخذَ من الرفوف كتاب سوفوكليس وقرأ لي ما أراد قوله. وبالفعل كانت حالة روايتي الدرامية في جوهرها، نفسها عند أنتيغون، المحكوم عليها بأن تترك بأمرٍ من الملك كريونت عمهما، جثةَ أخيها بولينس دون دفن. كنتُ قد قرأت أوديب في كولونا في المجلد الذي أهداه إليّ غوستابو نفسه يوم تعارفنا، لكنّ تذكّري لأسطورة أنتيغون كان من السوء بحيث أنّني لم أكن أستطيع إعادة ترتيبها من الذاكرة في مأساة منطقة الموز التي لم أنتبه إلى تماثلاتها العاطفية حتى تلك اللحظة. شعرتُ بروحي مضطربةً سعادةً وخيبةً. عدتُ وقرأتُ العملَ في تلك الليلة بمزيج غريبٍ من الاعتداد بالنفس، لأنني تقاطعت عن حسن نيّةٍ مع كاتب عظيم، والألمٍ من عار فضيحة الانتحال. بعد أسبوع من أزمةٍ مقلقة قررتُ أن أُجري بعضَ التغييرات العميقة تحفظ حسن نيتي، وأنا ما أزال لا أنتبه للغرور الهائل القائم على تعديل كتابي كي لا يبدو أنّه لسوفوكليس. شعرتُ أخيراً ـ وقد أذعنتُ ـ بحقي الأخلاقي باستخدام جملةٍ من جمله كتضمينٍ تبجيلي، وهكذا فعلت.

الانتقال إلى كارتاخِنا حمانا في الوقت المناسب من تردي سوكرِ الشديد والخطير، لكنّ معظم الحسابات جاءت وهميةً سواءً بسبب ضآلة الدخول أو حجم الأسرة. كانت أمي تقول إنّ أبناء الفقراء يأكلون وينْمون بسرعة أكبر من أبناء الأغنياء، ويكفيها للبرهان على ذلك مثالُ بيتها ذاته. فرواتب الجميع ما كانت لتكفي للعيش دون خوف.

تكفل الزمن بما تبقى. فخايمه أصبح بتآمرٍ آخر من الأسرة مهندساً مدنياً، الوحيد في أسرة تُقَدِّر الشهادة كلقبٍ نبيلٍ. صار لويس إنريكه معلم محاسبة، وتخرج غوستابو في علم المساحة،

وبقي كلاهما عازفاً ومغنياً في سهرات الغرباء. فاجأنا بيّو منذ نعومة أظفاره بموهبته الأدبية الواضحة تماماً، وبطبيعته القويّة التي برهن لنا عنها في الخامسة من عمره، حين فاجأوه وهو يحاول أن يضرم النار في خزانةٍ ثياب، برغبة أن يرى رجال الاطفاء يطفئون الحريق داخل البيت. فيما بعد، عندما دُعِي مع أخيه كوكي من قبل زملائهما الأكبر منهما، لتدخين الماريغوانا رفضها مذعوراً، بينما استنشقها كوكي، الذي كان دائماً فضولياً ومتهوِّراً بعمق. حكى لي بعد سنواتٍ وهو غارق في مستنقع المخدرات، أنّه قال منذ تلك الرحلة الأولى: «خراء! لا أريد أن أفعل شيئاً آخر في الحياة غير هذا». خلال الأربعين سنة التالية وبشغفٍ لا مستقبل له، لم يفعل شيئاً آخر غير إيفائه بوعده، بأن يموت كما يريد. في الثانية والخمسين أفلت من يده الأمر في جنّته المصطنعة، وصعقته نوبة قلبيّة.

أمّا نانتشي ـ الرجل الأكثر مسالمةً في العالم ـ فقد بقِي في الجيش بعد انتهاء خدمته العسكرية الإجبارية، واهتمّ بكلِّ أنواع الأسلحة الحديثة، وشارك في عدد من التدريبات الحربية، لكنَّه لم يُمنح الفرصة للمشاركة في أيٍّ من حروبنا المزمنة الكثيرة. وهكذا اقتنع بوظيفة رجل إطفاء حين خرج من الجيش، وهنا أيضاً لم تسنح له الفرصة لإطفاء أيّ حريق خلال أكثر من خمس سنوات. ومع ذلك لم يشعر بالخيبة قط، نظراً لروحه المرحة التي جعلت منه مُعَلّمَ النكتة التلقائية في الأسرة، وسمحت له بأن يكون سعيداً لمجرد أنه حيّ.

صار بيّو في أصعب سنوات الفقر كاتباً وصحفياً بهمةٍ خالِصة، دون أن يكون قد دخَّن أو شربَ جرعةً واحدةً زائدة في حياته. إنّ ميولهه الأدبية الجارفة، وإبداعه الدقيق فرضت نفسها على أعدائه. مات وهو في الرابعة والخمسين من عمره، في زمن لم يكد يكفيه كي ينشر كتاباً من سبعمئة صفحة، فيه تحقيق رائع عن الحياة السرية في مئة عام من العزلة، قام به طوال سنوات دون أن يُعلمني أو يطلب مني قط معلومةً مباشرة.

عرفتْ ريتا، وهي لم تكد تصبح مراهقة، كيف تستفيد من درس

العِبر الغريبة. عندما عدت إلى بيت أبوي بعد غيابٍ طويلٍ وجدتهُا تعاني من التطهر الذي عانين منه جميعهن، بسببٍ وقوعها بغرام فتى أسمر رشيقٍ، جدّي ومحتشم، كان تناقضه الوحيد معها أنّه أطول منها بشبرين ونصٍف. في تلك الليلة ذاتها وجدت أبي يستمع إلى الأخبار في غرفة النوم. خفّضتُ صوتَ المذياع، جلستُ على السرير المقابل وسألته، مُنطلقاً من حقيّ كابنٍ بكرٍ، ما الذي يحدث بالنسبة لغراميات ريتا. فأطلق جوابه الذي لا شكّ حضّره منذ الأزل.

ـ الشيء الوحيد الذي يحدث، هو أنّ هذا الوغد نشالٌ.

وهذا بالضبط ما كنتُ أتوقّعه.

ـ نشّال ماذا ـ سألته.

ـ نشّال. نشّال ـ قال لي ولم ينظر إليَّ بعد ذلك.

ـ لكن ماذا سرق؟ ـ سألته دون رحمة.

تابع دون أن ينظر إليّ.

ـ حسناً ـ تنهد أخيراً ـ ليس هو، لكن عنده أخٌ مسجونٌ بالسرقة.

ـ إذاً ما من مشكلة ـ قلت له بحماقةٍ سهلة ـ، لأنّ ريتا لا تريد أن تتزوج منه، بل ممن ليس سجيناً.

لم يرد. فنزاهته المجرِّبة تجاوزت كلَّ الحدود منذ الجواب الأول، كان يعرف أيضاً أنّ دعاية الأخ السجين لم تكن صحيحة. حاول دون مزيدٍ من الحجج أن يتمسك بأسطورة الكرامة.

ـ حسناً ـ لكن ليتزوجا ويخلصانا، لأنني لا أريد خطوبة طويلة في هذا البيت.

جاء جوابي فورياً وقاسياً، وهو ما لم أسامح به نفسي قط:

ـ غداً، باكراً.

ـ يا رجل أيضاً يجب ألا نبالغ ـ أجابني أبي مذعوراً ومبتسماً لأول مرة: ـ هذه الفتاة ليس عندها بعد ما ترتديه.

آخر مرّة رأيت فيها العمّة «بّا» وقد شارفت على التسعين من عمرها، كان ذلك في مساءٍ حرّه لئيم، وصلت فيه إلى كارتاخِنا دون سابق إعلان. جاءت إلينا من ريوهاتشا في سيارة أجرة سريعة تحمل معها حقيبة مدرسية، وترتدي ثياب حدادٍ كاملة، وتضع عمامة من الخرق السوداء. دخلت سعيدةً، مفتوحة الذراعين وصاحت للجميع:

- جئتُ مودِّعةً لأنّني سأموت.

احتفينا بها ليس لأنّها هيّ، بل لأنّنا كنّا نعرف إلى أيّ مدى كانت تعرف شغلها مع الموت. بقيت في البيت تنتظر ساعتها في غرفة الخدمة، المكان الوحيد الذي قبلت به للنوم، وماتت هناك تفوح منها رائحة العذرية، عن عمر قدّرنا أنّه مئة سنة وسنة.

كانت تلك الفترة الأكثر تركيزاً في «الْ أونيفِرسال». كان ثابالا يوجّهني بحكمته السياسية، كي تقول زواياي ما يجب أن تقوله دون أن تتعثّر بقلم الرقابة، ولقيت فكرتي بكتابة التحقيقات للصحيفة اهتمامَه لأوّل مرّةٍ. سرعان ما انبثق موضوع السيّاح الذين هاجمتهم أسماك القرش على شواطئ ماربِيّا. ومع ذلك فجُلّ ما خطر ببال البلدية أن تعرضه، هو خمسون بيزو مقابل كلّ سمكة قرش ميتة. وفي اليوم التالي لم تكفي أغصان اللوز لعرض ما تمّ اصطياده ليلاً. كتب هِكتور روخاس هِراثو من بوغوتا، مغشياً عليه من الضحك، في عموده الجديد في «إلْ تييمبّو»، زاوية ساخرة عن خطأ تطبيق منهج الإمساك بالفجل من ورقِهِ على صيد القرش، وهو ما أوحى إليّ بكتابة تحقيق عن صيد الليل. ساندني ثابالا متحمّساً، لكنّ فشلي بدأ في اللحظة التي أبحرتُ فيها، حين سألوني عمّا إذا كنتُ أُصاب بالدوار وأجبتُ بالنفي، وعمّا إذا كنتُ أخاف البحر، والحقيقة أنّني كنتُ أخافه، ومع ذلك أجبتُ بالنفيّ، أخيراً سألوني عمّا إذا كنتُ أعرفُ السباحة - وهو ما كان يجب أن يكون أوّلاً - ولم أجرؤ على أن أكذب وأقول أنّني أعرف. في جميع الأحوال علمتُ على البرّ، من خلال أحاديث البحارة، بأنّ الصيادين كانوا يذهبون إلى لاس بوكاس دِ ثِنيثا على بُعد تسعة وثمانين ميلاً بحرياً عن

كارتاخِنا، ويعودون محمّلين بأسماك القرش البريئة، كي يبيعوها كمجرمين بسعر خمسين بيزو. انتهى الخبر العظيم في اليوم ذاته، وانتهى حماسي للتحقيق. ونشرتُ بدلاً عنه قصّتي الثامنة: نابو، الزنجي الذي جعل الملائكة تنتظر. على الأقل حكم عليها ناقدان جدّيان وأصدقائي الممحِّصون بأنها تمثّل تبدّلاً جيّداً بالاتجاه.

لا أظنّ أنّ نضجي السياسيّ كان كافياً كي يؤثِّر بي، لكنّني عانيت في الحقيقة من انتكاسة شبيهة بالانتكاسة السابقة. شعرت أن بي من الفتورِ ما جعل تسليتي الوحيدة أن يطلع الصباح وأنا أغني مع السكارى في أقبية الأسوار، التي كانتِ في السابق مواخير جنودٍ في عصر الاستعمار، ثمّ سجناً سياسياً مشؤوماً. كان الجنرال فرانكو دِ بّاولا سانتاندِر قد قضى هناك حكماً من ثمانية أشهرٍ، قبل أن ينفيه رفاقُهُ، في القضية والسلاح، إلى أوروبا.

حارس تلك التحف التاريخية، كان مُنضِّد حروفٍ متقاعد، يجتمع رفاقه القائمون على رأس عملهم معه، بعد إغلاق الصحف ليحتفلوا كلَّ يومٍ باليوم الجديد، بدمجانةٍ من الروم الأبيض المهرّب والمركّب بفنونٍ النشّالين. كانوا مُنضّدي حروف ثقّفتهم التقاليد الأسرية، ونحويين ودراميين وسكيري أيام سبت كبار. وانضممت إلى نقابتهم.

أفتاهم كان يُدعى غيّرمو دابيلا تمكّن من العمل على الساحل، رغم تصلّب بعض القادة الإقليميين الذين كانوا يرفضون السماح بقبول الكاتشاكو في النقابة. ربّما تمكّن من ذلك بفَنٍّ من فنونه، فقد كان بالإضافة إلى إتقانه لمهنته وملاحته الشخصية مشعوذاً رائعاً؛ يبهرنا بألاعيبه السحرية، بإخراج العصافير الحيّة من أدراج المكاتب، أو تحويل الورق الذي كتبنا عليه الزاويةَ التي أسلمناها للتو، بينما الطبعةُ على وشك أن تُغلق، إلى بياض. المعلّم ثابالا، المتشدّد في الواجب، كان ينسى لبرهة بادِرفسكيٍ والثورة العمالية، ويطالب بالتصفيق للساحر، مع التنبيه غير المطاع دائماً بأنّها ستكون المرّة الأخيرة. بالنسبة إليّ فإنّ مشاطرتي الساحرَ الرتابةَ اليومية كانت كمن يكتشف الواقع في النهاية.

في واحد من أسحار الأقبيةِ حدثني دابيلا عن إصدار صحيفةٍ، قياسٍ أربعة وعشرين بأربعة وعشرين - أي نصف ورقة - توزع مجاناً في المساءات، ساعةَ إغلاق المتاجر المستعجلة. سوف تكون أصغر صحيفة في العالم، كي تُقرأ في عشر دقائقٍ، وكان ذلك وسميت كومبريميدو(*)، كنت أكتبُها في ساعة واحدة، في الحادية عشرة صباحاً، ويخرجها ويطبعها دابيلا خلال ساعتين، ويوزعها بائع صحفٍ خجول، ليس عنده من النَّفَس ما يكفي كي يُعلِن عنها أكثر من مرة.

صدرت يوم الثلاثاء، الثامن عشر من أيلول من العام 1951 ومن المحال تصور نجاحٍ ساحق أكبر ولا أقصر: ثلاثة أعداد في ثلاثة أيام. اعترف لي دابيلًا أنّه ما كان ليستطيع أن يتصور، ولا بالسحر الأسود، فكرةً بتلك العظمة وقلّةِ التكاليف، يمكن أن تتسع في حيز صغير، وتنفذ في وقت قصير، وتوزع بكل تلك السرعة. أغرب ما في الأمر هو أنني فكرت خلال لحظة من اليوم التالي، منتشياً من تسابق الناس عليها في الشارع، وحماسِ المتعصبين لها، أن حلَّ مشاكلِ حياتي يمكن أن يكون بتلك البساطة. دام الحلم حتى يوم الخميس حين برهن لنا المدير أنّ صدور عدد آخر، سيسبب لنا الإفلاس، حتى ولو قرَّرنا أن ننشر إعلاناتٍ تجارية، إذ سيكون عليها أن تكون من الصغر وارتفاع التكلفة بطريقة غير معقولة. فكرة الصحيفة نفسها التي كانت تقوم على حجمها حملت معها بذرة دمارها بتوالٍ رياضي، فكلما بيعت أكثر صار العجز أكبر.

بقيت معلقاً بالأمل. فالانتقال إلى كارتاخنا كان مناسباً ومفيداً بعد تجربة «كرونيكا»، كما أنّه منحني الجو الملائمَ تماماً للاستمرار بكتابة «عاصفة الأوراق» خاصة بسبب حمى الإبداع التي كنّا نعيشها في بيتنا، حيث أغربُ الأشياء تبدو دائماً ممكنة. كان يكفيني استحضار غداءٍ نتحدث فيه مع أبي حول مصاعب الكثير من الكُتّاب

(*) المضغوطة.

في كتابة مذكراتهم حين لا يعودون يتذكرون شيئاً. كوكي وهو لم يكد يكمل الست سنوات، وصل إلى النتيجة ببساطة عالية:

- إذاً - قال - أول ما يجب على الكاتب أن يكتبه هو مذكراته، وهو ما يزال يتذكر كلّ شيء.

لم أجرؤ على الاعتراف أنه كان يحدث معي مع «عاصفة الأوراق» ما حدث مع البيت تماماً. بعد عام من العمل بكلٍّ فرح، تبدت لي وكأنها متاهة دائريّة بلا مدخل ولا مخرج. اليوم أعتقد أنني أعرف السبب. إنّ مذهب تصوير العادات الأدبي الذي أعطى أمثلة تجديد رائعة في بداياته، انتهى أيضاً إلى تحنيط الموضوعاتِ الوطنية التي كانت تُحاول أن تشقّ لها طرقاً مستعجلة. المسألة أنّني لم أعد إذ ذاك أتحمّل التردّدَ لحظةً واحدة. لم يكن ينقصني غير أن أتيقّن من المعلومات، واعتماد الأسلوبِ قبل النقطة الأخيرة. ومع ذلك لم أشعر بها تتنفّس. لكنّني كنتُ غارقاً بعد كلّ ذلك الوقت من العمل في الظلمات، إلى حدّ أنّني كنتُ أرى الكتابَ يغرق، دون أن أدري أين هي التصدعات. أسوأ ما في الأمر هو أنّه لم تكن تُفيدني أيّة مساعدة في تلك المرحلة من الكتابة، فالتصدعات لم تكن في النص، بل في داخلي، ولا أحد غيري يستطيع أن يكون له عينان ليراها، ولا قلب ليعاني منها. ربّما لهذا السبب أوقفت زاوية «الزرافة» دون أن أفكّر مليّاً عندما انتهيت من تسديدِ السلفة، التي اشتريتُ بها الأثاث، لِـ «إلْ هِرالدو».

من سوء الحظ أنّه لم تكن العبقرية ولا المقاومة ولا الحب كافيةً لهزيمة الفقر. فكلّ شيء كان يبدو لصالحه. عملي في منظمة الإحصاء انتهى خلال سنة، وراتبي من «إلْ أونيفِرسال» لم يكن يكفي لتعويض ذلك. لم أرجع إلى كلّية الحقوق، رغم حيل بعض المعلّمين، الذين تحادثوا كي يدفعوا بي إلى الأمام، رغم عدم اهتمامي باهتمامهم وعِلمِهم. لم تكن نقود الجميع لتكفي حاجات البيت، والهوّة صارت من الكبر، حيث أنّ مساهمتي لم تكفي قط، وكان انعدام الأمل يؤثّر بي أكثر من انعدام المال.

ـ إذا كنّا سنغرقُ جميعاً ـ قلتُ عند الغداء ذات يوم حاسم ـ فدعوني أنجو كي أحاول أن أرسل إليكم على الأقلّ زورقاً بمجاذيف(*).

وهكذا عدتُ في الأسبوع الأوّل من كانون الأوّل إلى بارّانكيّا من جديد، بتسليم من الجميع، وبيقين أنّ الزورقَ سيصل. يبدو أنّ ألفونسو فونمايور تصوّر الأمرَ من أوّل نظرة حين رآني أدخل إلى مكتبنا القديم في «إلْ هِرالدو» فمكتب «كرونيكا» انتهت موارده. نظر إليّ من وراء آلته الكاتبة كمن ينظر إلى شبح وصاح مذعوراً:

ـ أي هراء تعمل هنا دون إعلام مسبق!

قليلة في حياتي هي المرّات التي أجبتُ فيها، بشيء قريب من الحقيقة إلى ذلك الحدّ:

ـ طفح بي الكيل، يا مُعلِّم.

هدأ ألفونسو.

ـ طيّب! ـ ردّ بفطنته المعهودة دائماً وبأكثر أبيات النشيد الوطني كولومبيةً ـ من حسن الحظّ، هذا هو حال البشرية كلّها، التي تئنّ في الأغلال.

لم يُبدِ أدنى فضول بدافِعِ سفري. بدا له حسنَ حظٍّ ناتج عن التخاطر، لأنّه كان يجيب كلّ منْ راح يسأله عنّي في الشهور الأخيرة، بأنّني سأصل إلى هناك في أيّة لحظة كي أستقرّ. نهض من وراء المكتب سعيداً، وهو يرتدي الجاكيت، لأنّني وصلتُ إليه مصادفة، وكأنّني هبطتُ عليه من السماء. كان قد تأخّر نصف ساعة عن موعدٍ، ولم ينهِ الافتتاحيةَ فطلب منّي إنهاءها. بشقّ النفس استطعت أن أسأله عن الموضوع، وأجابني من الممر وبكلّ سرعة وقلّة حياء خاصة بطريقتنا في الصداقة:

ـ اقرأها وسترى.

(*) المقصود هنا مساعدة صغيرة.

في اليوم التالي كان هناك مرة أخرى آلتان كاتبتان الواحدة مقابل الأخرى على مكتب «إلْ هرالدو» وأنا أكتب من جديد «الزرافة» في الصفحة ذاتها و ـ كيف لا ـ السعر ذاته. وبالشروط الخاصة ذاتها بيني وبين ألفونسو، حيث الكثير من الافتتاحيات تحتوي على مقاطع مني أو منه، من المحال التمييز بينها. أراد بعضُ طلبة الصحافة أو الآداب التمييز بينها في الأرشيف، ولم يستطيعوا ذلك إلا في موضوعات محددة، وليس من الأسلوب، بل من المعلومات الثقافية.

أحزنني في إلْ تِرتِرْ هومبرِ الخبر السيئ عن أنهم قتلوا صديقنا اللص الصغير. فقد خرج كما في كل ليلةٍ ليقوم بعمله. الشيء الوحيد الذي عُرِفَ عنه دون أية تفاصيل، هو أنهم رموه برصاصة في قلبه في ذات البيت الذي كان يسرقه. طالبت أختٌ كبيرةٌ له، عضو الأسرة الوحيدة، بجثتِه، ولم يحضر جنازة الإحسان إلاّنا وصاحب الحانة.

عدت إلى بيت بنات آبيلا. بقيت ميرا دِلمار، الجارة مرّة أخرى، تُطهر بسهرها المتعطش لياليَّ السيئة في إلْ غاتو نِغرو. كانت تبدو وأختها أليثيا توأمين بطريقتهما في الحياة، وتمكنهما من جعل الزمن دائرياً حين نكون معهما. استمرتا، بطريقةٍ ما خاصة جداً، في المجموعة. كانتا تدعواننا مرة في العام على الأقل إلى مائدةٍ من طيّبات المأكولات العربية التي كانت تغذي الروح، وتُقام في بيتهما سهراتٌ مفاجئة لزوارٍ مشهورين، بدءاً من فنانين عظام في كلّ المجالات وحتى شعراء ضالين. أعتقد أنّهما مع المعلم بدرو بيابا من نظّمتا هوسي المنحرف بالموسيقى، وأدخلتاني في زمرة المركز الفني السعيدة.

يبدو لي اليوم أنّ بارانكيّا كانت تمنحني منظوراً أفضل لـ «عاصفة الأوراق»، إذ ما إن صار عندي مكتب وآلة كاتبة حتى شرعت بتنقيحها بزخم متجدد. تجرأت في تلك الأيام على أن أعرض على المجموعة، النسخة الأولى المقروءة، مع علمي بأنها لم تكن منتهية. تكلمنا عنها حتى صارت أي ملاحظة زائدة. بقي ألفونسو

يكتب مقابِلي يومين دون حتى أن يمر على ذكرها. في اليوم الثالث وعندما أنهينا أعمالنا في آخر المساء، وضع المسودةَ مفتوحةً على المكتب، وقرأ الصفحات التي علّمها بشرائط ورقية. بدا متحرياً ومنقياً للأسلوب أكثر مما هو ناقد. كانت ملاحظاته من الصواب، حيث أنني استخدمتها جميعاً باستثناء واحدة بدت له مقحمة، رغم أنني برهنت له على أنّها كانت حدثاً واقعياً من طفولتي.

- حتى الواقع يخطئ حين يكون الأدب سيئاً - قال مغشياً عليه من الضحك.

أمّا منهج خِرمان بارغاس فيتلخص في أنّه لا يعلق تعليقاتٍ فورية إذا كان النص جيّداً، بل يعطي فكرة مطمئنة، وينتهي بصيحة تعجّب:

- رائع!

لكنه يتابع في الأيام التالية إطلاق سلسلة من الأفكارِ المتفرِّقة حول الكتاب، تتوج في أية ليلة من ليالي اللهو الصاخبة بحكمٍ سديد. وإذا لم تبدُ له المسودة جيدةً تَوَاعدَ مع المؤلف على انفراد، وقال له ذلك بكلِّ صراحةٍ وأناقةٍ، حتى لا يبقى أمام المتمرن غير أن يشكره من أعماق قلبه رغم رغبته بالبكاء. لم يكن هذا حالي، ففي يوم لم يكن بالحسبان علّق خرمان، بين المزاح والجدّ، على مسودّاتي تعليقاً أعاد الروحَ إلى جسدي.

كان ألبارو قد اختفى من خابي دون أن يترك علامةً تدلّ على أنّه حيّ. بعد أسبوع، وفي الوقت، الذي لم أكن أنتظره قطع عليّ الطريق بالسيارة، في جادة بوليفار العريضة، وصاح بي بأفضل مُحيّا:

- اصعد، يا معلم سأنيكك لأنك فظّ.

تلك كانت جملته المُخدِّرة. طفنا على غير هدىً في المركز التجاري المشتعل قيظاً، بينما ألبارو يطلق صارخاً تحليلاً لقراءته هو أقرب إلى العاطفي لكنه مدهش؛ ويقطعه في كل مرة يرى فيها أحدَ معارفه على الأرصفة، ليصرخ له ببعض شتائمه الودّية أو

الساخرة، ويتابع بعدها استنتاجه المنفعل بصوته المتهدّج من الجهد، وشعره الأشعث، وعينيه الجاحظتين اللتين كأنّهما تنظران إليّ عبر شبكٍ يطلّ على كامل الداخل. انتهينا بتناول البيرة المثلجة في شرفة لوس ألمندروس، تخنقنا أمواجٍ المتعصبين للجونيور والسبورتينغ على الرصيف المقابل. أخيراً داهمنا التيار الجارف للمجانين الهاربين من الملعب خائبين من التعادل، اثنين مقابل اثنين. آخر حكم نهائي لألبارو على مسودَةِ كتابي، صاح لي به في آخر ساعةٍ، من نافذة السيارة:

- في جميع الأحوال ما زال عندك، يا معلم، الكثير من مذهب تصوير العادات.

وتمكنت ممتنّاً من أن أصرخ له:

- لكنه على مذهب فوكنر الجيد؟

وختم كلّ ما لم يقله وما لم يُفكِّر به، بقهقهةٍ رائعة:

- لا تكن ابن عاهرة؟

بعد خمسين عاماً، وفي كلّ مرة أتذكر فيها ذلك المساء أعود، وأسمع قهقهته المدويّة التي دوّت مثل تيّارٍ من حجارةٍ في شارعٍ ملتهب.

بدا لي واضحاً أنّ الثلاثة أعجبوا بالرواية، مع تحفظاتهم الشخصية وربما العادلة، لكنهم لم يقولوها بوضوحٍ، لأنّها بدت لهم طعناً سهلاً. ما من أحدٍ تكلّم عن نشرها، وهذا أيضاً خاصّ بهم جداً، هم الذين كان المهم بالنسبة إليهم هو الكتابة الجيدة. ما عدا ذلك أمرٌ يخصّ الناشرين.

يعني أنني كنت مرة أخرى في بارانكيّا الأزلية، لكن مأساتي في تلك المرة كانت في وعيي بأنّني لن أملك همّةً للاستمرار بزاوية «الزرافة». الحقيقة أنّها أدّت مهمتها، بأن فرضت عليّ العملَ اليوميّ لتعلمِ الكتابة من الصفر، مع التصميم والرغبة العارمة بأن أصبح كاتباً مختلفاً. في كثيرٍ من الأحيان لم أتمكن من الموضوع، فاستبدلتُه بآخر، حين كنتُ أنتبه إلى أنّه ما زال كبيراً عليّ. في جميع

الأحوال كانت رياضةً جوهرية في بنيتي ككاتب، مع اليقين المريح بأنّها مادةً مغذية، دون أيّ التزامٍ تاريخي.

مجرد البحث عن الموضوع اليومي نغصّ عليّ الأشهر الأولى. لم يكن يترك لي وقتاً لشيء آخر: كنت أضيع الساعات باحثاً في الصحف الأخرى، مسجلاً ملاحظاتٍ حول أحاديث خاصة، وتائهاً في خيالاتٍ تنغص عليّ أحلامي، إلى أن خرجت الحياة الواقعية للقائي. بهذا المعنى، فإن أسعد تجاربي كانت تجربة مساءٍ رأيتُ فيه، وأنا أعبر في الباصِ، لافتةً بسيطةً على باب بيتٍ: «يوجد سعف نخيلٍ جنائزية».

أول شيء خطر لي كان قرع الباب للتحقق من معلومات تلك اللقِيَّة، لكنّ خجلي انتصر عليّ، حيث أن الحياة ذاتها علمتني أنَّ أحدَ أكثر الأسرار فائدة للكتابة، هو تعلم قراءةِ هيروغليفيةِ الواقع دون طرق الباب للسؤال عن شيء. وقد توضّح لي هذا أكثر بكثير في السنوات الأخيرة من إعادة قراءة زوايا «الزرافة» المنشورة، التي تتجاوز الأربعمئة، ومقارنتها ببعض النصوص الأدبية التي انبثقت منها.

في عيد الميلاد وصلَت في إجازةٍ هيئة «إلْ إسبِكتادور» بكاملها، بدءاً من المدير العام، دون غابرييل مع كلّ الأولاد: لويس غابرييل، المدير الإداري؛ غيِّرمو معاون المدير آنذاك؛ ألفونسو، معاون المدير الإداري؛ وفيدل، الصغير المتعلّم لكلّ شيء، وجاء معهم إدواردو ثالاميا، أوليسس، الذي كانت له مكانة خاصة في نفسي، لأنه نشر قصصي مع مقدّمة صغيرة. كانوا معتادين على الاستمتاع جماعةً بالأسبوع الأوّل من كلّ عام جديد، في منتجع برادومار، على بعد عشرة فراسخ من بارّانكيّا، حيث يستولون على البار اقتحاماً. الشيء الوحيد الذي أتذكره بشيءٍ من الدقةِ في تلك المعمعة، هو أنّ أوليسس بالذات شكّلَ بالنسبة إليّ واحدةً من مفاجآت حياتي الكبيرة. كنتُ أراه باستمرار في بوغوتا، في البداية في «إل مولينو»، ثمّ وبعد سنوات في «إل أوتوماتيك»، وأحياناً في مسامرات المعلم دِ غريف. تذكرتُهُ من وجههِ النفور وصوتِهِ

المعدني، اللذين استخلصت منهما أنّه نزقٌ، وبالمناسبة تلك هي السمعة التي كان يَتَمَتَّعُ بها بين قراء المدينة الجامعية الجيدين. لذلك تفاديتُهُ في مناسبات عديدة كي لا أُلَطِّخ الصورة التي اخترعتها له لاستخدامي الخاص. أخطأتُ. لقد كان، كما أتذكر، من أكثر الكائنات وداً واندفاعاً لعمل المعروف، رغم أنني أتفهَّم أنه كان يحتاج إلى دافعٍ خاصٍ من العقل أو القلب. لم تكن للمادة الإنسانية عنده علاقة بالمادة الإنسانية عند دون رامون بينيّس، ألبارو موتيس أو ليون دِ غريف، لكنه كان يشاطرُهُم القابليةَ الفطرية، لأن يكون مُعلِّماً في كلّ لحظة، والحظَّ النادرَ بأنّه قرأ مثلهم كلَّ الكتب التي يجب أن تُقْرَأ.

بالنسبة لأبناءِ آلِ كانو الشباب ـ لويس غابرييل وغيِّرمو وألفونسو وفيدل ـ فقد أصبحتُ أكثر من صديقٍ لهم، حين عملتُ محرراً في «إل إسبِكتادور». إنّ لَمِنَ التهوّر أن أُحاولَ تذكُّرَ حوارٍ من أحاديثِ الجميع ضدّ الجميع في ليالِي برادومار، لكن من المحالُ أيضاً أن أنسى إصرارهما غير المحتَمَل على مرض الصحافة والأدب القاتل. جعلوني واحداً منهم، قاصّاً شخصياً مكشوفاً، ومتبنى من قِبَلِهم ولهم. لكنني لا أتذكر ـ كما قلتُ تكراراً ـ أن أحداً منهم اقترح عليّ ولو فقط أن أذهب لأعمل معه. لم آسف على ذلك، لأنه لم يكن عندي في تلك اللحظات السيئة أدنى فكرة عما سيؤول إليه مصيري، ولا حتى لو أنهم تركوا لي أمرَ اختياره.

عاد ألبرو موتيس، المتحمس لحماسة آل كِانو، إلى بارّانكيّا بعد أن عينوه رئيساً للعلاقات العامة في شركة «إسو كولومبيانا» وحاول أقناعي بالذهاب للعمل معه في بوغوتا. ومع ذلك، فإن مهمته الحقيقية كانت أكثر مأساوية: فبخطأ مرعبٍ من أحد المتعهِّدين المحليين، ملأ خزاناتِ المطارِ بنزينَ سياراتٍ بدلاً من بنزين الطائرات، وكان مستبعداً أن تصل طائرةٌ مزوّدة بذلك الوقود الخاطئ إلى مكان. كانت مهمة موتيس هيُ إصلاح الخطأ بسرية مطلقة قبل الفجر، دون أن ينتبه موظفو المطارُ وخاصةً الصحافة إلى ذلك. وهكذا فعل. استُبْدِلَت المحروقاتُ، بالمحروقات الجيدة، خلال أربع ساعات من شرب الويسكي والأحاديث في الفترات

الفاصلة، في المطار المحلي. لقد فاض عنا الوقت كي نتكلم عن كلِّ شيء، لكن الموضوع الذي لم يكن باستطاعتي تصوره، هو أنَّه كان من الممكن أن تنشر دارُ نشر لوسادا في بوينس أيرس، الروايةَ التي كنتُ على وشك الانتهاء منها. كان ألباروا موتيس يعرف ذلك من خلال الوكيل الجديد لدار النشر في بوغوتا، خوليو ثِسر بيِّغاس، الوزير السابق في حكومة البيرو. الذي لجأ قبلَ وقتٍ قصير إلى كولومبيا.

لا أتذكر تأثراً أشدّ. فدار نشر لوسادا كانت واحدة من بين أفضل الدور في بوينس أيرس التي سدّت فراغاً في النشر تسببت به الحرب الأهلية الأسبانية. كان ناشروها يمدوننا بالأعمال الجديدة المهمة والغريبة التي لا نكاد نملك الوقت لقراءتها. كان باعتها يصلون إلينا دقيقين في مواعيدهم، يحملون إلينا الكتب التي نوصيهم عليها، فنستقبلهم كرُسُلٍ للفرح. فمجرد فكرة أن تستطيع واحدة من تلك الدور أن تنشر «عاصفة الأوراق» أوشكتْ على أن تذهب بعقلي. ما إن ودّعت موتيس في طائرة مزودة بالمحروقات الصحيحة، حتى هرعت إلى الصحيفة لمراجعة الأصل بعمقٍ.

تفرغت في الأيام التالية كلّياً لمراجعةٍ محمومةٍ للنص، الذي كان من الممكن أن يضيع من يديّ. لم تكن أكثر من مئةٍ وعشرين ورقةٍ بفراغٍ مزدوج بين الأسطر. قمت بكثيرٍ من الضبط والتغيير والاختراع، حيث لم أعرف قط ما إذا صارت أفضل أو أسوأ. أعاد خِرمان وألفونسو قراءة الأقسام الأكثر حرجاً، وكانا من طيبة القلب حيث أنهما لم يسجلا ملاحظاتٍ قاسية. في تلك الحالة من القلق، راجعت النسخةَ الأخيرة وروحي في راحتي، واتخذتُ القرار الرصين بعدم نشرها. سيتحوّل هذا الأمر في المستقبل إلى هوس. فما أن أشعر بالرضى عن كتابٍ منتهٍ، حتى يتولّد لديَّ انطباع ماحق بأنني لن أكون قادراً على كتابة آخر أفضل.

من حسن الحظ أنّ ألباروا موتيس ارتابَ من تأخري، وطار إلى بارّانكيّا كي يأخذ الأصلَ الوحيد المبيض، دون أن يمنحني وقتاً لقراءة أخيرة، ليرسله إلى بوينس أيرس. لم تكن قد وُجِدَت آلاتُ

النسخ التجارية بعد، والشيء الوحيد الذي بقي عندي هو المسودة الأولى المنقحة على الهوامش وبين السطور بحبرٍ من مختلف الألوان لتفادي الاختلاطات. رميتُ بها إلى القمامة، ولم أستعد هدوئي طوال الشهرين الطويلين اللذين استغرقهما الردّ.

في يوم من الأيام سلّموني في «إلْ هِرالدو» رسالةً كانت قد ضاعت بينَ أوراق مكتب رئيس التحرير، أوقف عنوانُ دار نشر لوسادا بوينس أيرس قلبي، لكنني ملكتُ من الحياء ما جعلني لا أفتحها هناك، بل في غرفتي الخاصة. وبفضل هذا واجهت دون شهود، الخبر الذي لا مواربة فيه، بأنّ «عاصفة الأوراق» قد رُفضت. لم أُضْطَرّ لأن أقرأ القرارَ كاملاً لأشعرَ بالصدمة القاسية بأنني سأموت في تلك اللحظة.

كانت الرسالة قراراً رفيعاً لدون غيّرمو د تِورٍّ، رئيس مجلس إدارة دار النشر معزّزاً بسلسلة من الحجج البسيطة، التي يُلمس فيها أسلوب ونبرة وغرورُ أهل قشتالة البيض. عزائي الوحيد كان في الاعتراف الأخير المفاجئ: «يجب الاعتراف للمؤلف بأنّه يتمتّع بمواهب مراقبٍ وشاعرٍ، رائعة». ومع ذلك ما زال يدهشني حتى اليوم، بعيداً عن خوفي وخجلي، أنّ أكثر الاعتراضات فظاظةً تبدو لي مناسبة.

لم أنسخ الرسالة قط، كما لم أعرف أين استقرت، بعد أن دارت عدة أشهرٍ بين أصدقاء بارّانكيّا، الذين استعانوا بكل أنواعِ المُبرِّرات البلسمية في محاولةٍ لمواساتي. بالمناسبة عندما حاولتُ الحصول على نسخة من الرسالة لتوثيق هذه المُذكّرات، بعد خمسين عاماً لم يعثروا على أثر لها في دار النشر في بوينس أيرس. لا أتذكر ما إذا كانت قد نُشِرَت كخبرٍ، رغم أنني لم أرغب بذلك، لكنني أعلم أنني احتجتُ إلى زمن كافٍ كي أستعيد معنوياتي، بعد أن هدئتُ على مزاجي، وكتبتُ بعضَ رسائل الحنق التي نشرت دون ترخيص مني. خيانة الأمانة هذه سببت لي ألماً كبيراً، لأنَّ ردة فعلي النهائيّة هي الاستفادة مما هو مفيد في القرار وإصلاح ما يمكن إصلاحه، حسب رأيي، والمضيّ قدُماً.

التشجيعُ الأفضل جاءتني به آراءُ خرمان بارغاس وألفونسو فونمايور وألبارو ثبِّدا. التقيت بألفونسو في مطعم في السوق العامة، حيث اكتشف واحةً للقراءة في معمعة السوق. استشرته عمّا إذا كان عليّ أن أترك روايتي على حالها، أم أعيد كتابتها ببنية أخرى، فقد بدا لي أنها تفقد في النصف الثاني التركيز الموجود في النصف الأول. استمع ألفونسو إليّ بشيءٍ من عدم الصبر، وأعطاني قراره.

ـ انظر، يا مُعلِّم ـ قال لي أخيراً كمُعلِّم بكلِّ معنى الكلمة ـ إنّ غيِّرمو دِ تورٍّ من الاحترام بقدر ما يعتقد هو، لكنه لا يبدو لي متابِعاً، مواظباً للرواية الحالية.

في أحاديث أخرى عبثية، في تلك الأيام، واسيتُ نفسي بأنّ غيِّرمو دِ تورٍّ سبق ورفض أصول ديوان «إقامة في الأرض» لبابلو نيرودا، في العام 1927. كان فونْمايور يفكر بأنّ مصير روايتي يمكن أن يكون آخر لو أن القارئ كان خورخِه لويس بورخِس، بالمقابل كان الأذى أسوأ لو أنه رفضها بدوره.

ـ لذلك لا تنزعج أكثر ـ خلُص ألفونسو ـ فروايتُكَ جيدة بقدر ما بدت لنا، الشيء الوحيد الذي عليك أن تفعله من الآن فصاعِداً هو أن تستمرَّ في الكتابة.

أفادني خِرمان ـ الوفيّ لطريقته المُتَعقِّلة ـ بعدم مبالغته. كان يفكر بأن الروايةَ، لا هي سيئةٌ إلى حدّ ألا تُنشر في قارة يُعاني فيها جنس الرواية من أزمة، ولا هي جيدة إلى حدّ أن تُثار فضيحة دولية من أجلها، فالخاسر الوحيد في هذه الحالة سيكون المؤلف المبتدئ والمجهول. لخص ألبارو ثِبِّدا رأي غِيِّرمو دِ تورٍّ بواحدة من لوحاته المتألقة:

ـ المسألة أن الأسبان أفظاظ جداً.

حين انتبهت إلى أنني لا أملك نسخةً مبيضةً عن روايتي أعلمتني دار نشر لوسادا، عبر شخص ثالث أو رابع، أنّ القاعدة المتبعة عندهم هي أنّهم لا يعيدون الأصول. من حسن حظّي أن خوليو ثِسر

بيِّغاس كان قد عمل نسخة منها قبل أن يرسلها إلى بوينس أيرِس فأرسلها إليَّ. عندئذ شرعت بتصحيح جديد على أرضية استنتاجاتِ الأصدقاء، حذفت فصلاً طويلاً عن البطلة التي كانت تتأمل من ممرٍّ البيغونيا وابلَ مطرٍ دام ثلاثة أيام، وحوَّلتُه فيما بعد إلى (نجوى إيزابيل وهي تتأمّل هطول المطر في ماكوندو). كما حذفت حواراً سطحياً للجد مع الكولونيل أوريليانو بوِنديّا، قبل قليلٍ من مذبحة مزارع الموزِ وقرابة الثلاثين ورقة كانت تربكُ وحدةَ البناء في الرواية شكلاً ومضموناً. بعد عشرين عاماً تقريباً ساعدتني هذه الفقرات، في الوقت الذي ظننت أنني نسيتها، على تعزيز الحنين على طول وعرض «مئة عام من العزلة».

كنتُ على وشك أن أتجاوز الصفعةَ، عندما نُشِرَ خبرٌ عن أنَّ الرواية الكولومبية المختارة للنشر في دار نشر لوسادا، بدل روايتي، هي رواية «المسيح من الخلف» لإدواردو كاباڀّرو كالدِرون. كان ذلك خطأ أو إساءة حقيقية سيئة النية، لأنّ الأمر لم يكن يتعلق بمسابقةٍ، بل ببرنامجِ دار نشر لوسادا كي تدخل سوقَ كولومبيا بمؤلفين كولومبيين، وروايتي لم تُرفَض في منافسة مع أخرى، بل لأن دون غيِّرمو دِ تورِّ لم يعتبرها صالحة للنشر.

كان إحباطي أكبر مما اعترفت به لنفسي آنذاك، ولم أملك من الشجاعة على تحمّله دون أن أقنع نفسي به. وهكذا وقعتُ دون إعلامٍ مُسبق على صديقِ طفولتي لويس كارمِلو كورِّيا، في مزرعة موز سبيّا - على بعد فراسخ قليلة من كاتاكا - حيث عمل في تلك السنوات كمراقب دوام ومفتش ضرائب. بقينا يومين نستذكِرُ، كما نفعل دائماً، طفولتَنا المشتركةَ. ذاكرته، حدسه وصراحته كانا بالنسبة إليِّ موحياً إلى حدّ أنّها تسبب لي بعضَ الخجل. بينما كُنّا نتحدَّث كان هو يصلح بصندوقِ معداته أعطالَ البيت، وأنا أصغي إليه تُهدهدني نسمةُ المزارع الخفيفة في شبكِ نومي. زوجته لا نِنا سانتيشْ راحت تصحح لنا حماقاتنا، وتُذكِّرنا بما ننساه، مغشياً عليها من الضحك في المطبخ. أخيراً أدركتُ، في مشوار مصالحةٍ عبر شوارع أراكاتاكا المقفرة، إلى أيّ حدّ استعدت عافيتي النفسية،

ولم يبق عندي أدنى شك أنّ «عاصفة الأوراق» ـ رُفضت أم لم ترفض ـ هي الكتاب الذي عزمتُ على كتابته بعد رحلتي مع أمي.

ذهبتُ، مرتاحاً لتلك التجربة، أبحثُ عن رافائيل إسكالونا في جنّته في بايّدوبّار، محاولاً أن أنكشَ عالمي حتى الجذور. لم أُدهَش لأنّ كلَّ الذي وجدتُه، وكلّ الذي كان يحدث، وكلّ الناس الذين قُدِّموا إليّ، كانوا كما لو أنّني عشتُ معهم، ليس في حياةٍ أخرى، بل في الحياة التي كنت أعيشها. بعدها تعرّفت في أحدِ أسفاري الكثيرة على الكولونيل كلِمِنتِ إسكالونا، والد رافائيل، الذي أدهشني منذ اليوم الأول بوقاره وبصورته التي لبطريركٍ على الطريقة القديمة. كان ناحلاً، مستقيماً مثل عود خيزران، مدبوغَ الجلد، قويَّ العظام، ذا وقارٍ مجربٍ. منذ شبابي المبكر لاحقني موضوع القلق والوقار، الذين انتظر بهما جدّايَ حتى نهاية عمرهما المديد، تقاعدَ المحارب القديم. ومع ذلك وبعد أربع سنواتٍ، بينما أنا أكتبُ أخيراً الكتابَ، في فندقٍ قديم في باريس، فإنَّ الصورةَ المطبوعةَ في ذاكرتي دائماً لم تكن صورةَ جدي، بل صورة دون كلِمِنْتِ إسكالونا، كتكرارٍ ماديٍّ للكولونيل الذي لم يكن لديه من يكاتبه.

عرفت من رافائيل إسكالونا أنّ مانوِل ثاباتا أولِيبِيّا قد استقرَّ كطبيبٍ للفقراء في بلدة لابّاث، على بعد كيلومتراتٍ قليلة من بايِّدوبّار، فذهبنا إليه. وصلنا عند حلول المساء وفي الجوّ شيءٌ يُعيق التنفس. ذكّرني ثاباتا وإسكالونا أنّ البلدةَ وقعت قبل عشرين يوماً تقريباً ضحيةَ هجوم قامت به الشرطةُ، التي زرعت الرعب في المنطقة، كي تفرض الإرادة الرسمية. كانت ليلة رعبٍ. قتلوا دون تمييزٍ، وأشعلوا النارَ في خمسة عشر بيتاً.

لم نعرف الحقيقة بسبب الرقابة الحديدية. كما لم تُسنَح لي فرصةٌ لتصوّرها. غادرها خوان لوبث، وهو أفضل موسيقيٍّ في المنطقة، منذ تلك الليلة السوداء كي لا يعود. طلبنا من أخيه الأصغر بّابلو أن يعزف لنا في بيته، فقال لنا ببساطةٍ جريئة:

ـ لن أغني بعد الآن أبداً.

عندئذٍ عرفنا أنّه ومعه جميع موسيقيي البلدة، وليس هو وحده، خبؤوا أكورديوناتهم وطبولهم وخشخيشاتهم ولم يغنوا بعدها قط، حداداً على قتلاهم. كان ذلك مُتَفهماً، ولم يتمكن إسكالونا نفسه، الذي كان أستاذاً للكثيرين، ولا ثاباتا أوليبِيّا، الذي بدأ يُصبح طبيبَ الجميع، من أن يجعل أحداً يغني.

هرع أهلُ القرية أمام إلحاحنا ليُقَدِّموا مبرراتهم، لكنّهم كانوا في أعماق أنفسهم يشعرون أنه لا يمكن للحداد أن يدوم أكثر. «كأننا متنا مع الميتين» قالت امرأةٌ تضعُ وردةً حمراء خلف أذنها؛ فأيَّدَها الناس. يبدو أن بابلو لوبث شعر عندئذٍ بأنه مُخَوَّلٌ بليِّ عنقِ ألمه فقد دخل إلى بيته، دون أن يقولَ كلمةً واحدة، وخرج ومعه الأكورديون. غنى كما لم يغنِّ من قبل، وبينما هو يُغَنّي بدأ يصل موسيقيّون آخرون. فتح أحدُهم الحانوتَ المقابل وقدّم الجرعات على حسابه، وأشرعت الحوانيت الأخرى أبوابها على مصراعيها بعد شهرٍ من الحدادِ، وأُشعِلَت الأضواءُ وغنينا جميعاً. بعد نصف ساعةٍ كانت البلدة كلها تغني. خرج أول سكرانٍ بعد شهرٍ إلى الساحة المقفرة، وراح يغني ملءَ صوته أغنيةً لِ إسكالونا، مهداةً إلى إسكالونا نفسه، تكريماً لمعجزته ببعث الحياة في البلدة.

من حسن الحظ أن الحياة كانت تستمرُّ في بقية العالم. بعد شهرين من رفض مخطوطي الأصلي، تعرَّفتُ على خوليو ثِسر بيّغاس، الذي كان قد قطع علاقته مع دار نشر لوسادا، وعينوه ممثلاً لدار نشر غونثالث بّورتو في كولومبيا، ولباعةِ الموسوعاتِ والكتب العلمية والفنية بالتقسيط. كان بيّغاس أطولَ وأقوى وأقدرَ رجلٍ في وجهِ مخاطرِ الحياة الواقعية، ومستهلكاً مفرطاً لأغلى أنواع الويسكي، ومتحدِّثاً لا غنى عنه ومؤلفاً لحكايات الصالونات. خرجتُ في ليلة لقائنا الأوّل في الجناح الرئاسي من فندق البرادو، مترنحاً بحقيبة وكيلٍ مسافرٍ مكتظّة بنشراتِ الدعاية، وعيِّنات الموسوعات المصوَّرة، وكتبِ الطب والحقوق والهندسة الصادرة عن دار نشر غونثالِثْ بّورتو. قبلتُ منذ كأس الويسكي الثاني أن أصبح بائع كتب بالتقسيط في مقاطعة بّاديّا، من بايّدوبّار وحتى لا غواخيرا. كان

ربحي، هو السلفة النقدية للعشرين بالمئة من ثمن المبيع، التي كانت تكفيني كي أعيشَ دون ضيق بعد دفع نفقاتي، بما فيها الفندق.

هذه هي الرحلة التي أسطرتُها أنا نفسي، بسبب عيبي المُزمِن في تقدير الصفات التي أستخدمها في الوقت المناسب. الأسطورة هي أنّني كنتُ قد خططت كي تكون الرحلةُ حملةً أسطورية بحثاً عن جذوري في أرض أجدادي، متبعاً مسارَ أمّي الرومانسي ذاته، الذي دفعتْها فيه أسرتها كي تُنقذها من عاملِ تلغراف أراكاتاكا. الحقيقة أنَّ رحلتي لم تكن واحدة، بل اثنتين قصيرتين وطائشتين.

فقط في الرحلة الثانية عدتُ إلى القرى المحيطة بِ بايِّدوبّار. وكنتُ قد قرَّرتُ، ما إن أُصبِحَ هناك، أن أُتابعَ حتى رأسِ لا بِلا سالكاً الطريق الذي سلكته أمّي العاشقة، لكنّني لم أصل إلاّ إلى ماناوْرِ دِ لا سييرّا ولا بّاثْ وبيّانوبا على بعد فراسخ قليلة من بايِّدوبّار. لم أعرف آنذاك سان خوان دِلْ ثِسر ولا بارّانكاس، التي تزوَّجَ فيها جدّايَ ووُلِدَتْ أمّي وقَتَل الكولونيل نيكولاس ماركِيز مِدرادو بّاتشِكو، كما لم أعرف ريوهاتشا، التي هي منبتُ قبيلتي حتى العام 1984، حين أرسل الرئيس بِليساريو بِتانكورْ من بوغوتا، مجموعةً من الأصدقاء المدعوّين لافتتاحِ مناجِم حديد ثِرِّخون. كانت الرحلة الأولى إلى بلدة غواخيرا المتخيَّلَة، التي بدت لي أسطورية تماماً، كما وصفتها مرّاتٍ كثيرة دون أن أعرفَها، لكنّني لا أظنّ أن ذلك حدث بسبب ذكرياتي المزيّفة، بل بسبب ذكرى الهنود الحمر الذين اشترى جدّي الواحدَ منهم بمئة بيزو لبيتِ أراكاتاكا. مفاجأتي الأعظم كانت بالطبع رؤيتي لريوهاتشا، مدينة الرمل والملح، التي وُلدت فيها سلالتي، بدءاً من أجداد أجدادي، ورأت جدّتي عذراءَ لوس رِمديوس تطفئُ الفرن بنفخة واحدة حين أوشك الخبز أن يحترق، وقام جدّي بحروبه، وعانى السجنَ بجناية حبٍّ، وتكوّنتُ أنا خلال شهر عسل أبويَّ.

لم أملك في بايّدوبّار كثيراً من الوقت لبيع الكتب. كنت أعيش في فندق ويل كوم(*)، وهو عبارة عن بيتٍ من طرازٍ كولونيالي مُعتنى به

(*) أهلاً وسهلاً.

جيداً في إطار الساحة الكبيرة، في فنائه فسحة طويلية مسقوفة بسعف النخيل، مع طاولات بارٍ خشنة، وشباك نوم معلّقةٍ إلى حلقات كبيرة. كان المالك فيكتور كوهن يسهر مثل الكلبً حارسِ الجحيم(*) على ترتيب البيت، كما يسهر على سمعته الأخلاقية التي يتهددها الغرباء الخلعاء. كان من أنصار نقاء اللغة، حيث ينشد عن ظهر قلب ثربانتس بثأثأته وسأسأته القشتالية، ويُشكّك بأخلاق غارثيا لوركا. انسجمت معه جيداً نظراً لتمكنه من أعمال دون أندرِسْ بيّو ونظراً لإنشاده الصارم للرومانسيين الكولومبيين، واختلفت معه لهوسِهِ بمنع الخروج على الأعراف الأخلاقية في جو فندقه النقي. كلّ ذلك بدأ بطريقةٍ في غاية السهولة، لأنه كان صديقاً قديماً لعمّ خوان دِ ديوس، وكان يُسَرُّ باستحضار ذكرياته.

جاءت الفسحة المسقوفة من ذلك الفناء بالنسبة إلي ضربة حظٍّ، لأنّني رحتُ أقضي فيها الساعات الطويلة التي تفيض عني بالقراءة في شبك نومي، في قيظ الظهيرة. وصل بي الأمرُ، في أيّام الجوعِ الشديد، أنّني قرأت بدءا من مقالات الجراحة وحتى كتَب تعليمِ المحاسبة، دون أن أفكِّر أنها ستفيدني في مغامراتي الكتابية. كان العمل شبه تلقائي، لأنّ غالبيةَ الزبائن كانوا يمرّون بطريقة ما بغربال آل إغواران و آل كوتس، أمّا أنا فكانت تكفيني زيارة تمتد حتى الغداء أستذكر فيها براعات الأسرة. كان بعضهم يُوَقِّع العقدَ دون أن يقرأه، كي نلتقي في الوقت المناسب ببقية القبيلة التي تنتظرنا على الغداء في ظلّ الأكورديونات. جمعت غلّتي الكبيرة بين بايِّدوبّار ولا بّاث في أقل من أسبوع، وعدتُ إلى بارانكيّا متأثّراً بأنني كنت في المكان الوحيد الذي أفهمه فعلاً من العالم.

في يوم الثالث عشر من حزيران، كنتُ أمضي باكراً جداً في الباص لا أدري إلى أين، حين علمتُ أن القوّات المسلحة استولت على السلطة، نتيجة الفوضى التي خيَّمت على الحكومة والبلد كله. في

(*) Cerbero كلب بثلاث رؤوس كان يحرس، حسب الأسطورة اليونانية، بوّابة الجحيم ويُطلق على البواب المتجهّم والقاسي.

السادس من أيلول من العام السابق، أضرمت مجموعةٌ من عصابات المحافظين والشرطة بلباسها الموحد النارَ في أبنية «إلْ تيمبو» و«إلْ إسبكتادور»، أهم صحيفتين في البلد، وهاجموا بالرصاص مقرّات الرئيس السابق ألفونسو لوبث بّومارِخو وكارلوس يِراس رِشترِبّو رئيس الإدارة الليبرالية. وقد تمكن هذا الأخير، المعروف كسياسي قاس المزاج، من تبادل إطلاق النار مع المعتدين، لكنه وجد نفسه في النهاية مضطراً للهرب عبر سياجٍ بيت الجيران. أصبح العنف الرسمي الذي راح يعاني منه البلد بدءاً من التاسع من نيسان لا يحتمل.

إلى أن جاء ذلك الثالث عشر من حزيران، وأخرج قائد الفرقة العسكرية الجنرال غوستابو روخاس بّينيّا الرئيسَ المكلَّف روبِرتو أوردانِتا أربِلايث من القصر. لاوريانو غومث الرئيس الفعلي، الذي كان ينعم في معتزل جيّد بناءً على نصيحة أطبائه، تولّى من جديد القيادة، من كرسيّ عجلاته، وحاول أن يقوم بانقلاب على نفسه ويحكم الشهور الخمسة عشر المتبقية على انتهاء مدته الدستورية. لكن روخاس بّينيّا وأركان حربه جاؤوا ليبقوا.

جاء الدعمُ الوطني لقرار الجمعية التأسيسيّة، التي أعطت الشرعيةَ للانقلاب العسكري، فورياً وشاملاً. قُلِّد روخاس بّينيّا زمامَ السلطة حتى نهاية الدورة الرئاسية في آب من العام التالي، وسافر لاوريانو غومث مع أسرته إلى بنيدورم، على الشاطئ الشرقي من أسبانيا، مُخلِّفاً وراءه انطباعاً وهمياً بأنَّ أيام حنقه قد انتهت. أعلن البطاركة الليبراليون عن مساندتهم للمصالحة الوطنية، بنداءٍ وجّهوه إلى أنصارهم المسلحين في كل البلد. أهمّ صورة نشرتها الصحفُ في الأيام التالية كانت لطلائع الليبراليين الذين غنّوا أغنية عرسان ليلية تحت شرفة غرفة نوم الرئيس. كان على رأس هذا التكريم دون روبيرتو غارثيّا بِّنيا، مدير صحيفة «الْ تييمبو»، وأحد أكثر المعارضين تشدداً للنظام المخلوع.

على أية حال، كانت أكثر الصور تأثيراً في تلك الأيام صورة الصف اللامتناهي لرجال حرب العصابات الليبراليين وهم يُسلِّمون

أسلحتهم في السهول الشرقية، يقودهم غوادلوب سالثِدو الذي لامست صورته، صورة قاطع الطريق الرومانسيّ، شغافَ قلوب الكولومبيين الذين عانوا من العنف الرسمي. لقد شكّلوا جيلاً جديداً من المحاربين ضدّ النظام المحافِظ المعروفين بطريقة ما كبقايا حرب الألف يوم، كانوا يحافظون على علاقات ليست سرِّية أبداً مع القادة الشرعيين للحزب الليبرالي.

كان يقودهم غوادَلوب سالثِدو، الذي نشر في البلد على كل المستويات، معه وضده، صورةً أسطوريةً جديدةً. ربما لهذا السبب جندلته الشرطة ـ بعد سبع سنواتٍ من استسلامه ـ رمياً بالرصاص في مكان ما من بوغوتا لم يُحَدَّد قط، كما لم تُعرَف ظروفُ موته معرفةً يقينية.

التاريخ الرسمي هو السادس من حزيران من العام 1977 وقد أودِع جثمانه في احتفالٍ مهيب في مدفن مُرَقّم من مقبرة بوغوتا المركزية بحضور سياسيين معروفين. فغوادالوبّ سالثِدو، حافظَ ومن ثكناته العسكرية على علاقاتٍ ليست سياسية وحسب، بل واجتماعية مع الزعماء الليبراليين المنكوبين. ومع ذلك هناك على الأقل ثمانية روايات مختلفة حول موته. ولا يخلو الأمر من وجود شكّاكين في تلك المرحلة، وفي هذه أيضاً ما يزالون يتساءلون عمّا إذا كان الجثمانُ جثمانه، وعمّا إذا كان فعلاً موجوداً في المدفن الذي دُفِن فيه.

بهذه الحالة من المعنويات، شرعتُ بالرحلة التجارية الثانية إلى المقاطعة، بعد أن تأكّدتُ من بيِّغاس أنّ كلّ شيءٍ مرتب. وقمتُ كما في المرّة السابقة بمبيعاتي بسرعة كبيرة في بايّدوبّار، لزبائن مقتنعين مسبقاً. ذهبتُ برفقة رافائيل إسكالونا وبّونتشو كوتِس إلى بيّانوبا ولا بّاث وبّاتيال ومانـاوْرِ في الجبال لزيارة أطباء بيطريين ومزارعين. بعضهم كان قد تكلّم مع مشترين من رحلتي الأولى، وينتظرني بطلبات خاصّة. كلّ الساعات كانت صالحة لإقامة الحفلات مع الزبائن أنفسهم وأصدقائهم الفرحين فنُصبح ونحن نغني برفقة الأكورديونات الكبيرة، دون أن نقطع التزامات، أو ندفع

ديوناً مستعجلة، لأنّ الحياة اليومية كانت تسير بإيقاعٍ طبيعي في صخب اللهو. كنّا في بيّانوبا مع عازفِ أكورديون وعازفَيّ علبة موسيقى، يبدو أنّهم كانوا أحفاداً لشخص سمعناه في طفولتنا في أراكاتاكا. وبهذه الطريقة فإنّ ما بدا عادة صبيانية، تكشّفت لي في تلك الرحلة، عن مهنةٍ ملهَمة سترافقني للأبد.

في قلبِ الجبال عرفت في تلك المرّة ماناورِ، البلدة الجميلة والهادئة والتاريخية بالنسبة إلى الأسرة، لأنّهم أخذوا أمّي إلى هناك حين كانت طفلة، كي يُخفِّفوا عنها الحمى الثلاثية التي قاومت كلّ أنواع العقاقير. وقد سمعتهم يتحدّثون عن ماناورِ، ومساءات شهر أيار فيها وصيامهم الطبي، حتى إذا حَلَلْتُ فيها لأوّل مرّة، انتبهتُ إلى أنّني أتذكّرها كما لو أنّني عرفتها في حياة سابقة.

كنّا نشرب بيرة مثلجة في الحانة الوحيدة في البلدة، حين اقترب من طاولتنا رجلٌ بدا كأنَّه شجرة بمهاميز خيلٍ ومسدس حربيّ على خصره. قدّمه لنا رافائيل إسكالونا، ومكث هو يحدِّق في عينيَّ ويدي في يدِهِ.

ـ هل لك علاقة ما بالكولونيل نيكولاس ماركيز؟ ـ سألني.

ـ أنا حفيده ـ قلتُ له.

ـ إذن جدُّكَ قتَلَ جدّي ـ قال هو.

أيّ أنّه كان حفيد مِدرادو بّاتشِكو، الرجل الذي قتلَهُ جدّي في مبارزة مفتوحة. لم يفسح لي المجال كي أخاف، لأنّه قال ذلك بطريقة حارّة جدّاً كما لو أنّها شكلٌ من أشكال القرابة أيضاً. بقينا نسكر معه ثلاثةَ أيّام وثلاثَ ليالٍ في شاحنته الصغيرة، ذات العمق المزدوج، نشرب البراندي الساخن، ونأكل سانكوتشو الجديان على ذكرى الجدين الميتين. مرّت عدَّةُ أيام قبل أن يعترف لي بالحقيقة. كان قد اتفق مع إسكالونا على تخويفي، لكنّه لم يملك من القلب ما يسمح له بالاستمرار بمزحة الجدين الميتين. في الحقيقة كان يُدعى خوسِهْ بّرودِنثيو أغيلار، يمتهن التهريب، وهو شخص مستقيم وطيّب القلب. وتكريماً له، عمّدتُ باسمه الخصمَ الذي قتله خوسِه أركاديو بوندِيّا برمح في حلبة مصارعة الديكة في «مئة عام من العزلة».

السيّئ في الأمر أنّ الكتب المُباعة لم تكن قد وصلت في نهاية رحلة الحنين تلك، التي ما كان باستطاعتي أن أقبض السلفَ دون وصولها. بقيتُ أملكُ سنتيماً واحداً؛ وعدّاد الفندق يمضي بسرعة أكبر من ليالي القصف. بدأ فيكتور كوهِن يفقد القليلَ من الصبر الذي تبقى لديه، بسبب الأكاذيب التي راحت تقولُ بأنّني أُبدِّدُ نقود ديونه على عاهرات وضيعات وبنات هواء بائسات. الشيء الوحيد الذي أعاد إليَّ هدوئي كان الحبّ المصدود في الرواية الإذاعية «الحقّ بالولادة» لِدون فِليكس ب. كايغْنِثْ، الرائعة، التي أنعش صداها الشعبيُّ أوهاميَ القديمة تجاه أدب الدموع. وقد استطاعت روايةُ «الشيخ والبحر» لهمنغواي، التي وصلت فجأة في مجلة «لايف إن إسبنيول»(*) أن تُعافيني من همومي.

حملَ البريدُ ذاته شحنةَ الكتب التي كان عليّ أن أُسلّمها إلى أصحابها كي أقبض سُلَفي. دفع الجميع في الموعد، لكنّني كنتُ مديناً للفندق بضعف ما كسبته. حذّرني بيِّغاس من أنّني لن أحصل على مليم واحد قبل ثلاثة أسابيع. وعندئذٍ تحدّثتُ بجدّية إلى فيكتور كوهِنْ، فَقبل سنداً بدين موقعاً من كفيل. وبما أنّ إسكالونا وزمرته لم يكن في متناول يدي، فقد صنع لي المعروفَ صديقٌ ربّانيٌّ دون أيّة التزامات، لمجرّد أن قصّةً لي نشرت في «كرونيكا» أعجبته. والحقيقة أنّني عندما جدّ الجدُّ لم أستطع أن أدفع لأحدٍ شيئاً.

صارَ السندُ تاريخياً بعد سنواتٍ، حين راح فيكتور كوهِن يُريه لأصدقائه وزوّارِه، ليس كوثيقةٍ دامغة، بل كتذكار. في آخر مرّة رأيته فيها كان باسِقاً ونبيهاً، سليمَ المزاجِ على أبواب المئة سنة. عدتُ ورأيتُ السندَ غير المدفوع بعد خمسين عاماً تقريباً في أثناء تعميدِ ابنٍ لصديقتي كونسولو أراوْخونوغِرا، الذي كنتُ إشبينه. أراه فيكتور كوهِن بملاحته ورقّته الدائمة لكلٍّ من أراد أن يراه. فاجأتني نظافة الوثيقةِ التي كان قد كتبها بنفسه، والرغبة الهائلة بالدفع التي كانت تلاحَظ من وقاحة توقيعي. احتفل فيكتور بذلك في تلك الليلة

(*) الحياة الأسبانية.

راقصاً على نغمة باسِيو بايّناتو بأناقة المرحلة الاستعمارية، ما رقصها أحدٌ منذ سنواتِ فرانسيسكو إلْ هومبْرِ. في النهاية شكرني الكثيرون لأنّني لم أدفع في الوقت المستحَق قيمةَ السندِ، الذي كان السبب بتلك الليلة التي لا تُقدَّرُ بثمن.

كان في سحر الدكتور بيِّغاس الجذاب المزيد مما يمكن أن يقدّمه، لكن ليس كتباً. ليس من الممكن نسيان مهارته الجليلة التي كان يصارع بها دائنيه، والفرح الذي كانوا يستقبلون به مُبرراته كيلا يسددها في مواعيدها. أكثر مواضيعه سحراً كان على علاقة بروايةِ «أُغلِقت الدروب» للكاتبة البارّانكيّة أُولْغا سالثِدو دِ مِدينا، التي أثارت ضجّة اجتماعية أكثر منها أدبية، بسوابق نادرة في المنطقة. وفكّرتُ مستلهماً النجاحَ الذي حقّقته الرواية الإذاعية الحقّ بالولادة، التي تابعتها باهتمام متزايد طوال الشهر، أنّنا أمام ظاهرة شعبية لا نستطيع نحن الكتاب أن نتجاهلها. وعند عودتي من بايّدوبار، طرحتُ الموضوع على بيِّغاس، حتى دون أن أذكر الدَّيْن، واقترحَ عليّ أن أكتبَ إعداداً بخبث كافٍ لمُضاعفة الجمهور، الذي أسرتْهُ مأساةُ فِليكس كايغنوت المتألّقة، ثلاثةَ أضعاف.

قمت بإعدادها للبث الإذاعي حابساً نفسي أسبوعين بَدَوَا لي أكثر كشفاً من المُتَوَقَّع، حاسِباً الحوارات، ودرجات التكثيف، والمواقِف والأزمنة الفرورة التي لم تكن تشبه شيئاً مما كتبتُه قبل ذلك. ونتيجة عدم خبرتي في الحوار - الذي ما زال لا يُشكّل نقطة قوّة عندي -، جاءت التجربة قيّمةً وكنتُ ممتنّاً لما تعلّمته أكثر مما ربحته منها. ومع ذلك، لم يكن هناك ما أشكو منه في هذا الجانب، لأنّ بيِّغاس دفع لي نصفَ المبلغ مُقدَّماً، ووعد بتسديد الدين السابقِ من الدخل الأوّل من الرواية الإذاعية.

سُجلت في إذاعة أتلانتيكو بأفضل توزيعٍ محلي ممكن، وأخرجها بلا تجربة ولا إلهام بيِّغاس نفسه. نصحوه للقيام بدور الراوي بخِرمان بارغاس كمذيع مختلف، نظراً لتناقض اعتدالِه مع صخب الإذاعة المحلية. كانت المفاجأة الأولى، أنَّ خِرمان قبل، والثانية أنه ومنذ التمرين الأول توصل هو نفسه إلى نتيجة، أنه ليس

الشخص المأمول. عندئذ أخذ بيّغاس على عاتقه مسؤوليةَ الراوي بإيقاع صوتِهِ وصفيره الأنديزي الذي انتهى إلى تشويه طبيعة تلك المغامرة الجريئة.

انقضت الرواية الإذاعية كاملةً مُخلِّفة من الأحزان أكثر مما من الأمجاد، وكانت تجربة رائعةً بالنسبة إلى تطلعاتي النهمة كراوٍ في أيّ جنس أدبي. حضرت التسجيلات التي تمَّت مباشرةً على الأسطوانة البِكر بإبرة فِلاحة، راحت تُخَلِّف وراءها كتلاً من خيوطٍ سوداء ولامعة، مثل غزل بناتٍ يكادُ لا يُرى، أحملُ في كلِّ ليلة قبضةً منه، وأوزعها على أصدقائي كتذكارٍ فريدٍ. بين تعثراتٍ و تخبطاتٍ لا تُحصى، بُثَّت الروايةُ الإذاعية في الوقت المناسب باحتفالٍ هائلٍ تميَّز به المحرِّضُ على العمل.

ما من أحدٍ استطاع أن يخترع حجّة مجاملة تجعلني أصدّق أنّ العمل أعجبه، لكنّه استقطب جمهوراً جيّداً، ونالت قسطاً من الدعاية كافٍ لإنقاذ ماء الوجه. من حسن الحظّ أنّه منحني نشاطاً في جنس بدا لي مُشرَعاً على آفاق لا تخطر ببال. وقد بلغ إعجابي بدون فِليكسْ ب. كايغنوت، وامتناني له، حدَّ أنّني طلبتُ منه، بعد عشر سنواتٍ تقريباً، مقابلة خاصّة، حين عشتُ عدّة أشهر في هافانا كمحرِّرٍ في الوكالة الكوبية للصحافة اللاتينية. لكن ورغم كلّ أنواع الحجج والذرائع لم يُتِح لي المجال لرؤيته قط، ولم يبقَ لي منه غير درسٍ رائع قرأته في إحدى المقابلات معه: «الناس دائماً يريدون أن يبكوا: الشيء الوحيد الذي أفعله، هو أنّني أمنحهم الذريعة». سحر بيّغاس لم يتسع من ناحيته للمزيد. فقد تعقّد كلّ شيء مع دار نشر غونثالث بّورتو ـ كما حصل له من قبل مع لوسادا ـ ولم يكن هناك من طريقة لتسوية حساباتنا الأخيرة، لأنّه رمى بأحلام عظمته ليعود إلى بلده.

أخرجني ألبارو ثِبّدا ساموديو من المطهر، بفكرته القديمة، بتحويل «إلْ ناثيونال» إلى صحيفة حديثة، وهو ما تعلّمه في الولايات المتحدة. باستثناء مساهماته العرضية، الأدبيّة دائماً، في «كرونيكا»، لم تُتَح له حتى ذلك الوقت فرصةٌ لممارسة اختصاصه

الذي حصل عليه من جامعة كولومبيا إلاّ بالمضغوطات النموذجية التي كان يرسلها إلى «سبّورتينغ نيوز» في سان لويس في ميسوري. أخيراً استدعاه صديقنا خوليان دابيس إتشانديّا، أوّل رئيس لألبارو، ليتولّى كاملَ شؤونِ صحيفة «إلْ ناثيونال» المسائية. وكان ألبارو نفسه هو الذي ورّطه بالمشروع الفلكي الذي عرضه عليه عند عودته من نيويورك، لكن ما إن أُسِر الماموث، حتى استدعاني لمساعدته لتحميله دون ألقاب أو واجبات محدّدة، لكنه دفع لي مقدَّماً أوّلَ راتب كفاني كي أعيش دون أن أقبضه كاملاً.

كانت مغامرةً قاتلة. وضع ألبارو الخطّةَ كاملة حسب نماذج الولايات المتحدة. وصار دابيس إتشانديّا مثل الله في عليائه، رائدَ الأزمنة البطولية للصحافة الحسّية المحليّة، وأكثر من عرفته من الرجال غموضاً، حسنَ المولِد، عاطفياً أكثرَ مما هو رؤوف. بقية اللائحة شكّلها صحافيون صداميون كباراً، من الدفعة المقدامة، جميعهم أصدقاء فيما بينهم، وزملاء منذ سنوات طويلة. نظريّاً، كان لكلّ واحد مجاله المحدد جيّداً، لكن بعد ذلك لم يعرف أحدٌ قط من عمل هذا أو ذاك، كيلا يستطيع الماموث الفنيّ أن يخطو الخطوةَ الأولى. جاءت الأعدادُ القليلة التي صدرت نتاجَ عملٍ بطولي، لكنّ لم يُعرف قط مِن عمل مَن كانت. كانت البلاكات عند دخولها إلى الطباعة تختلط، والمادة المستعجلة تختفي، وكنّا، نحن الطيّبين، نُجنّ غيظاً. لا أتذكّر مرّة واحدة خرجت فيها الصحيفة في موعدها ودون ترقيع بسبب الشياطين القابعة في الورشات. لم يُعرف قط ما جرى. ربّما التفسير الذي ساد كان الأقل انحرافاً: لم يستطع بعض المحنَّكين المتحجّرين أن يتحمّلوا النظام المجدّد، فتواطئوا مع توائم أرواحهم حتى تمكنوا من تخريب المشروع.

ذهب ألبارو بصفقة بابٍ. كنتُ أملك عقدَ عملٍ من الممكن أن يشكّل ضماناً لي في الظروف العادية، لكنّه كان قميصَ سجنٍ في أسوئها. حاولت متلهفاً أن أخرج من الوقت الضائع بشيء نافع بسرعة الآلة الكاتبة، شيءٍ ذي قيمةٍ بالربطِ بين بقايا المحاولات

السابقة المبعثرة، مقاطع من «البيت»، والمحاكاة الساخرة لفوكنر القاسي في «نور في آب» و «مطر الطيور الميتة» لنثانييل هوثورن، ومن القصص البوليسية التي بشمتني لتكرارها، ومن بعض الآثار التي خلّفتها عندي رحلتي مع أمّي إلى أراكاتاكا. تركتُها تتدفّق على هواها في مكتبي العقيم، حيث لم يبق غير طاولة المكتب المفكّكة والآلة الكاتبة في آخر أنفاسها، إلى أن وصلتُ بجرّة قلم واحدة إلى العنوان النهائي: «يوم بعد السبت» واحدة من القصص القليلة التي أرضتني منذ الكتابة الأولى.

حاصرني في «إلْ ثاثيونال» بائعُ ساعات معصمية طيّار. لم أملك قط واحدة منها لأسباب جليّة في تلك السنوات، والساعة التي عرضها عليّ كانت ترفاً وغالية. اعترف لي البائعُ نفسه بأنّه عضو في الحزب الشيوعي، مكلّفٌ ببيع الساعات كطعمٍ لصيد المتبرّعين.

ـ كمن يشتري الثورة بالتقسيط ـ قال لي

أجبته بمزاج رائق:

ـ الفرق هو أنّكم تعطونني الساعةَ فوراً بينما الثورة لا.

لم يرتح البائع للنكتة السيئة، وانتهى بي الأمر إلى أن اشتريت ساعةً أرخصَ، لمجرّد إرضاء خاطره، وعلى أقساط يمرّ هو نفسه ليأخذها في كلّ شهر. إنّها أوّل ساعة أحصل عليها، وكانت من الدقة والديمومة، حيث أنّني ما زلتُ أحتفظ بها كتحفة من تلك الأزمنة.

عاد ألبارو موتيس في تلك الأيام بخبرٍ عن الميزانية الكبيرة لمؤسّسته الثقافية، وبالظهور القريب لمجلّة «لامبار»ا(*)، لسانِ حالها الأدبي. أمام دعوته للمساهمة اقترحت عليه مشروعاً مستعجلاً: أسطورة لا سييرْبِ. فكّرت أنّه إذا كان عليّ أن أقصّها ذات يومٍ، فيجب ألاّ يكون من خلال أيِّ موشور بلاغي، بل مستخلصة من المخيلة الجمعية كما هي: حقيقة جغرافية وتاريخية. أي ـ أخيراً ـ تحقيق صحفيّ عظيم.

(*) المصباح.

ـ افعل ما يخرج معك ومن حيث تريد ـ قال لي موتيس ـ لكن افعله، فهذا هو الجوّ والنبرة التي نبحث عنها للمجلة.

وعدته بها بعد أسبوعين. كان قد هتف قبل ذهابه إلى المطار إلى مكتبه في بوغوتا، وأمر بالدفع مُقدَّماً. الشيك الذي وصلني بعد أسبوعٍ بالبريد قطع أنفاسي؛ خاصّةً حين ذهبت لأقبضه، وأقلق مظهريَ أمينَ الصندوق. جعلوني أمرّ على مكتب أعلى، حيث سألني مدير بالغ اللطف أين أعمل. أجبته حسب عادتي أنّني أكتبُ في «إل هِرالدو»، رغم أنّه لم يعُد إذ ذاك صحيحاً. لا أكثر. فحص المدير الشيك على المكتب، راقبه بريبة مهنية، ثم أصدر قراره أخيراً:

ـ المسألة أنّها وثيقة تامّة.

في ذلك المساء، حين بدأتُ بكتابة «لا سييربِّ» أبلغوني عن مكالمة لي من المصرف. خطر لي ألاّ يكون الشيك سليماً لأيّ من الأسباب الممكنة التي لا تُحصى في كولومبيا. لم أكد أستطيع أن أبلع لعابي، حين اعتذر موظّف المصرف بنبرته الأنديزية المدللة عن عدم معرفته في الوقت المناسب، أنّ الشحاذَ الذي قبض الشيك كان صاحبَ زاوية «الزرافة».

عاد موتيس مرّة أخرى في نهاية العام. لم يكد يتلذذ بالغداء كي يُساعدني على التفكير بطريقة مستقرة وبشكلٍ دائم، وكي أكسب أكثر دون تعب. ما بدا له لاحقاً أفضل، هو أن يعلَم آل كانو أنّني جاهز للعمل في «إلْ إسبِكتادور»، وإنْ كانت فكرة العودة إلى بوغوتا بحدّ ذاتها توتِّرني. لكنّ ألبارو لا يهدأ له بالٌ حين يتعلّق الأمر بمساعدة صديق.

ـ لنفعل شيئاً ـ قال لي ـ سأرسلُ إليك التذاكر كي تذهب متى تشاء وكيفما تشاء، لترى ما الذي يجري لنا.

كان عرضاً أكبر من أن يسمح لي بالرفض، لكنّني كنتُ واثقاً من أنّ آخرَ طائرة في حياتي، هي التي أخرجتني من بوغوتا بعد التاسع من نيسان. ثمّ إنَّ دخلي الإضافي الضئيل من الرواية الإذاعية، ونشر الفصل الأوّل من «لا سييربِّ» بشكلٍ بارزٍ في مجلة

«لامبارا»، أكسبني بعض نصوص الدعاية لإرسال بعض المساعدات المخفِّفة للأسرة في كارتاخِنا. وهكذا قاومت من جديد إغواء الانتقال إلى بوغوتا.

كلّمني ألبارو ثِبِّدا وخِرمان وألفونسو ومعظم سمّار خابّي ومقهى روما، مشيدين بـ «لا سييربِّ» حين نُشِرَ الفصلُ الأوّلُ منها في «لامبارا». كانوا موافقين على أنّ الصيغة المباشرة للتحقيق هي الأنسب بالنسبة إلى موضوع على الحد الخطير لما لا يمكن تصديقه. قال لي ألفونسو وقتذاك، بأسلوبه النائس بين المزاح والحقيقة، شيئاً لم أنسه قط: «المصداقية، يا مُعلِّمي العزيز، تتوقّف كثيراً على الوجه الذي يبديه المرء عندما يحكي». كنتُ على وشك أن أُفضي لهم بعرض العمل الذي عرضه علي ألبارو موتيس، لكنّني لم أجرؤ، واليوم أعرفُ أنّه كان خوفاً من أن يوافقوا عليه. عاد وألحّ مرّاتٍ عدّةً، حتى بعد أن ثبّت لي الحجز بالطائرة وألغيته في آخر ساعة. أكَّد لي بأنّه لم يكن يقوم بمسعى وساطة لِـ «إلْ إسبِكتادور» ولا لأيّة وسيلة مكتوبة أو مقروءة. هدفه الوحيد ـ أصرّ حتى النهاية ـ كان التحدث حول سلسلةٍ من المساهمات الثابتة للمجلة، ودراسة بعض التفاصيل الفنية حول سلسلة «لا سييربِّ» الكاملة، التي سيُنشَر الفصلُ الثاني منها في العدد الذي كان على وشك الصدور. كان ألبارو موتيس يظهر ثقة بأنّ مثل تلك التحقيقات ستشكِّلُ ضربةً لمذهب العادات والتقاليد الأفطس في أرضه ذاتها. كان هذا هو الدافع الوحيد من بين الدوافع التي طرحها عليّ الذي تركني في حالة من الفكّر.

وذات ثلاثاء رذاذه حزين انتبهتُ إلى أنّني لا أستطيع الذهاب حتى ولو أردت، لأنّه لم يكن لديّ من الثياب غير قمصان الراقص. في السادسة مساء لم أجد أحداً في مكتبة الموندو، وبقيتُ أنتظر في الباب وغصّة دامعة في حنجرتي بسبب الغروب الحزين الذي رحتُ أعاني منه. كان هناك على الرصيف المقابل، واجهة فيها ملابس رسمية لم أرها قط، رغم أنّها موجودة هناك منذ البداية. وعبرتُ، دون أن أفكِّر بما أفعل، شارعَ سان بلاس تحتَ رماد الرذاذ، ودخلتُ

ثابتَ الخطوِ إلى أغلى متجر في المدينة. اشتريتُ لباساً كهنوتياً من جوخ له زرقة منتصف الليل، ممتاز بالنسبة إلى روح بوغوتا في تلك الأيام؛ وقميصين بيضاوين قاسيي القبّة، وربطة عنق مخطّطة بخطوط مائلة، وزوج من الأحذية التي أشاع الممثِّلُ خوسِهْ موخيكا استخدامَها قبل أن يُصبح قديساً. الوحيدون الذين أخبرتهم بذهابي، هم خِرمان وألبارو وألفونسو. الذين أقرّوا أنّه قرار ذكيّ بشرط ألاّ أعودَ غندوراً.

احتفلنا بذلك في «إلْ ترثِر هومبر» بحضورِ كاملِ المجموعة حتى الفجر، كاحتفال مسبق بعيد ميلادي القريب، فخِرمان بارغاس، الذي كان حارس سجل القديسين، أخبرهم أنّني سأُتمّ يومَ السادس من آذار القادم السابعة والعشرين من عمري. شعرتُ وسط فأل أصدقائي العظيمين الحسن أنّني مستعد لالتهام السنين الثلاث والسبعين المتبقية لي نيِّئةً، كي أكمل المئةَ الأولى من حياتي.

8

اتصل بي مدير «إلْ إسبِكتادور»، غيِّرمو كانو هاتفياً حين علم بوجودي في مكتب ألبارو موتيس، فوق مكتبه بأربعة طوابق في بناء افتُتِح للتو على بعد خمس قصبات من مقرّه القديم. كنتُ قد وصلت في العشية وأستعد لتناول الغداء مع مجموعة من أصدقائه، لكنّ غيِّرمو أصرّ على أن أمرّ لأسلِّم عليه قبل ذلك. وهكذا كان. بعد العناق على طريقة العاصمة المبالِغة في الكلام الطيب، وبعض التعليقات حول خبر اليوم، أمسكني من ذراعي وابتعد بي جانباً عن زملائه في التحرير: «اسمع مني نصيحة، يا غابرييل ـ قال لي ببراءة لا يأتيها الشك ـ لماذا لا تعمل معي معروفاً وتكتب زاوية رأي تنقصني لإنهاء العدد؟» وأشار بإبهامه وسبّابته إلى حجم نصفِ كأس من الماء وخلص قائلاً:

ـ بهذا الحجم.

سألته، وأنا أكثر ظرافة منه، أين يمكنني أن أجلس، فأشار إلى مكتب فارغ عليه آلة كاتبة من أزمنة أخرى. اتخذتُ وضعية مريحة دون ما أسئلة أخرى، مفكِّراً بموضوع جيّدٍ بالنسبة إليهم، وبقيت جالساً هناك على الكرسي ذاته، والمكتب ذاته، والآلة ذاتها، خلال الثمانية عشر شهراً التالية.

بعد دقائق من وصولي خرج إدواردو ثالاميا بوردا، معاونُ المدير، من المكتب المجاور، منهمكاً برزمةٍ من الأوراق. جفل حين عرفني.

ـ يا رجل، دون غابو! ـ صاح تقريباً بالاسم الذي سبق واخترعه لي في بارّانكيّا كترخيم لغابيتو الذي كان وحده من يستخدمه. لكنّه تعمم هذه المرّة التحريرَ وبقوا يستخدمونه حتى في الكتابة: غابو.

لا أتذكّر موضوع الزاوية التي كلّفني غيِّرمو كانو بها، لكنّني كنتُ أعرف تماماً منذ الجامعة الوطنية أسلوبَ سلالة «إل إسبِكتادور». خاصّة أسلوب قسم «يوماً بيوم» في صفحة الرأي، التي كانت تتمتَّعُ بسمعةٍ مُسْتَحّقة وقرّرت تقليدَه بالدم البارد، الذي كانت تواجه به لويسا سانتياغو شياطينَ بلواها. أنهيتها بنصف ساعة، وقمتُ ببعض التصحيحات بالقلم وسلّمتها إلى غيِّرمو كانو، الذي قرأها واقفاً من فوق إطار نظارة قصر النظر. لم يبدُ تركيزاً خاصّاً به وحسب، بل وبسلالة كاملة من أسلافه، التي بدأت بِدون فيدِل كانو، مؤسِّس الصحيفة عام 1887 واستمرت مع أخيه لويس وعزّزها ابنُه دون غابرييل، وتلقاها حفيدُه غيِّرمو الذي استلم الإدارة العامّة وهو في الثالثة والعشرين من عمره ناضجةً في تيار الدم، وقام كما كان سيفعل أسلافه ببعض المراجعات السريعة لشكوك صغيرة، وانتهى بالاستخدام العملي والمبسّط لاسمي الجديد.

ـ ممتاز، يا غابو.

انتبهتُ في ليلة عودتي إلى أنّ بوغوتا لن تعودَ لتكون ذاتها بالنسبة إليّ ما عاشت ذكرياتي. وكان التاسع من نيسان مثل الكثير من كوارث البلد الكبرى قد عمل للنسيان أكثر مما للتاريخ. ففندق غرانادا في حديقته المئوية قد دُمّر، وراح يرتفع مكانه مصرف الجمهورية الجديد أكثر من اللازم. وشوارع سنواتنا القديمة، التي خلت الآن من حافلاتها الكهربائية لا تبدو ملكاً لأحد، وزاوية الجريمة التاريخية فقدت عظمتها بالفراغات التي أحدثتها الحرائق. «نعم الآن تبدو فعلاً مدينة كبيرة» قال شخصٌ كان يرافقنا مندهشاً. وانتهى بأنّ مزّق قلبي بجملته الشعائرية:

ـ علينا أن نشكر التاسع من نيسان.

ومع ذلك فأنا لم أكن قط أفضل مما كنتُ في النُزل الذي لا اسم له، وأنزلني فيه ألبارو موتيس. بيت بجانب الحديقة الوطنية جَملَتُهُ

الكارثةُ، حيث لم أستطع أن أتحمّل في الليلة الأولى حسدي لجاريَّ في الغرفة المجاورة، اللذين كانا يُمارسان الحبَّ كما لو أنّهما في حرب سعيدة. لم أستطِع في اليوم التالي حين رأيتهما يخرجان أنّ أصدّقَ أنّهما هما: طفلة هزيلة بلباسِ ملجأ أيتام عام وسيّد طاعِن في السن، فضّي الشعر، بطول مترين، يمكِن أن يكون جدّها. ظننتُ أنّني أخطأتُ، لكنّهما تكفّلا بتأكيده في كلِّ الليالي التالية بميتاتهما الصارخة حتى الفجر.

نشرت «إلْ إسبِكتادور» زاويتي في صفحة الرأي بين الزوايا الجيّدة. قضيتُ الصباحَ في المتاجر الكبيرة أشتري الملابس التي كان يفرضها عليّ موتيس بالنبرة الإنكليزية المدوية التي يخترعها ليُضحِكَ الباعة. تناولنا الغداء مع غونثالو مايّارينو وبعض الكتّاب الشباب المدعوّين لتقديمي في المجتمع. بعدها لم أعرف شيئاً عن غيِّرمو كانو، إلاّ بعد ثلاثة أيام، حين هتف لي إلى مكتب موتيس.

ـ اسمعْ، يا غابو، ماذا جرى معك؟ ـ قال لي بصرامة أساء بها تقليدَ المدير العام ـ البارحة ختمنا العددَ متأخرين بانتظار زاويتك.

نزلتُ إلى التحرير لأتحدَّث معه، وما زلتُ حتى الآن لا أعرف كيف بقيتُ أكتبُ زوايا مهملة التوقيع كلّ مساء على امتداد أكثرَ من أسبوع، دون أن يُكلِّمني أحدٌ عن الوظيفة أو الراتِب. كانوا خلال دردشات استراحةِ المحررين يُعامِلونني كواحدٍ منهم، وكنتُ كذلك عملياً دون أن أتصوّر إلى أيّ حدٍّ.

روتينياً كان غيِّرمو كانو، يتصدّر بزاوية سياسية قسمَ «يوماً بيوم»، الذي لم يحمل توقيعاً قط، حسب ترتيب حدّدته الإدارة، تليها زاوية حرّة الموضوع لغونثالو غونثالِثْ، الذي تولّى إضافة إلى ذلك أكثرَ الأقسام ذكاء وشعبيةً في الصحيفة ـ «أسئلة وأجوبة» ـ يجيب فيه على أيّ شكّ عند القرّاء باسم غوغ المستعار، والمأخوذ من اسمه ذاته، وليس من اسم جيوفاني بّابّيني(*)، تليها زواياي، وفي

(*) Giovanni Papini (1881 ـ 1956) كاتب إيطالي يَشبِه روجيه غارودي، إذ مرّ بعددٍ من التحولات الفكرية لينتهي، كاثوليكياً مع كتابه تاريخ المسيح، من أعمال غوغ ورسائل إلى البشر، الكتاب الأسود ويوم القيامة.

حالاتٍ نادرة جداً زاوية خاصّة لإدوارود ثالاميا، الذي شغل يوميّاً أفضل مكانٍ في صفحة الرأي ـ «المدينة والعالم» ـ باسم أوليسِسْ المستعار ليس من هوميروس ـ كما اعتاد أن يقول ـ بل من جيمس جويس.

اضطرّ ألبارو موتيس أن يقوم برحلة عملٍ إلى بّورْتو برينثيبٌ في الأيّام الأولى من العام الجديد، ودعاني لمرافقته. كانت هايتي آنذاك بلدَ أحلامي بعد أن قرأتُ «مملكة هذا العالم» لأليخو كاربِنيير. وفي يوم 18 شباط لم أكن قد أجبتُه بعد، حين كتبتُ زاوية عن ملكة إنكلترا الأم الضائعة في وحشة قصر باكينغهام الهائل. لفت انتباهي أنّهم نشروها في المكان الأوّل من «يوماً بيوم» ولاقت تعليقاً جيّداً في مكاتبنا. في تلك الليلة، وفي حفل قليل العدد في بيت خوسِهْ سالْغار رئيسِ التحرير، قدّم وإدواردو ثالاميا تعليقاً أكثر حماساً. بعد ذلك قال لي خائن ظريف، إنّ هذا الرأي قد أزال بعض التحفظات من أمام الإدارة، كي تقدّم لي عرضها الرسمي بعملٍ ثابت.

في اليوم التالي استدعاني ألبارو موتيس باكراً جدّاً إلى مكتبه ليزفّ إليّ خبرَ إلغاء رحلة هايتي المحزن. ما لم يقله لي هو أنّه هو الذي ألغاها بسبب حديث عرضيّ جرى بينه وبين غيِّرمو كانو، طلب منه فيه، من كلّ قلبه، ألاّ يحملني معه إلى بّورتو بّرينثيبٌ. ألبارو الذي لم يكن يعرف بدوره هايتي، أراد أن يعرف السببَ. «عندما تعرفه ـ قال له غيِّرمو ـ ستفهم أنّ هذه الرحلة هي أكثر ما يحبّه غابو في العالم.» وأنهى المساء بضربة ماهرة:

ـ لو ذهب غابو إلى هايتي لما عاد أبداً.

فهم ألبارو الأمر وألغى الرحلةَ، وأعلمني بذلك على أنّه قرار من شركته، وهكذا لم أعرف قط بّورتو بّرينثيبٌ، لكنّني لم أعرف الأسباب حتى سنوات قليلة مضت، حين رواها لي ألبارو في استذكارٍ من استذكاراتنا التي لا تنتهي كجدّين. من ناحيته ما إن قيّدني غيِّرمو بعقدٍ إلى الصحيفة، حتى كرّر عليّ طوال سنوات أنّه كان يُفكّر بتحقيق عظيم عن هايتي، لكنّني لم أستطع قط السفر، ولم أسأله عن السبب.

ما كان ليخطر ببالي قط وَهْمَ أن أصبح محرِّراً رئيسياً في «إلْ إسبِكتادور». كنتُ أتفهّم نشرهم لقَصصي، نظراً لندرة وفقر هذا الجنس الأدبي في كولومبيا، لكنّ التحرير اليومي في صحيفة مسائية كان يُشكّل تحدياً مختلفاً تماماً بالنسبة إلى شخص غير ضليع في الصحافة الصداميّة. «إلْ إسبِكتادور» التي كان عمرها نصف قرن، وترعرعت في بيتٍ مستأجر، وعلى الآلات الفائضة عن «إلْ تييمبّو» ـ الصحيفة الغنية والقويّة والجبّارة ـ كانت صحيفةً مسائية متواضعة من ستّة عشر صفحة مزدحمة، لكنّ أعدادها الخمسة آلاف المعدودة بشكلٍ سيِّئ، يتلقفها الناسُ من أيدي الباعة على أبواب الورشات، ويقرؤونها في نصف ساعة في المقاهي الكئيبة من المدينة القديمة. إدواردو نفسه صرَّح عبر الـ بي بي سي في لندن أنّها أفضل صحيفة في العالم. لكنّ أخطرَ ما في الأمر لم يكن التصريح ذاته، بل أنّ جميع من كانوا يحرّرونها تقريباً، وكثيرون ممن يقرؤونها، كانوا مقتنعين بصحّة ذلك.

عليّ أن أعترف أنّ قلبي خفق في اليوم التالي لإلغاء الرحلة إلى هايتي، عندما حدّد لي لويس غابرييل كانو، المدير العام، موعداً في مكتبه. لم تدم المقابلة بكلّ شكلياتها خمسَ دقائق. كان لويس غابرييل مشهوراً بأنّه رجل متجهّم، كريمٌ كصديق وشحيح كمدير جيِّد، لكنّه بدا لي، وبقي يبدو لي دائماً، واضحاً وودوداً. اقترحَ عليَّ بكلمات وقورة أن أبقى في الصحيفة محرّراً رئيسيّاً للأخبار العامة وزوايا الرأي، وكلّ ما هو ضروري لحرج الساعة الأخيرة، براتب شهريّ قدره تسعمئة بيزو. انقطع نفسي وحين استعدتُه سألته كم؟ فكرّره حرفاً فحرفاً: تسعمئة. وبلغ تأثّري حدّ أنّ عزيزي لويس كانو كشف لي بعد أشهرٍ، بينما نحن نتكلَّم عن هذا في حفلٍ، أنّه فسَّر دهشتي كعلامة رفض. وقد عبّر دون غابرييل عن آخر شكوكه بأنّه تخوّفٌ مرتكز على أسس: «أنت ناحل وشاحب إلى حدّ أنّك قد تموت بين أيدينا في المكتب». وهكذا دخلتُ كمحرِّر رئيسي في «إلْ إسبِكتادور»، حيث استهلكتُ في أقلِّ من سنتين أكبرَ كميّة من الورق في حياتي.

كانت مصادفة سعيدة. أرهب مؤسّسة في الصحيفة كان غابرييل كانو، البطريرك الذي نصّب نفسَه بقرار ذاتيّ حاكمَ تفتيش لا يرحم في التحرير. كان يقرأ في الطبعة اليومية، بعدستِهِ الدقيقة، حتى الفاصلة التي لا تخطر ببال. ويعلِّم بالحبر الأحمر عثرات كلّ مقالٍ، ويعرض على لوحة إعلانِ القصاصات المعاَقَبَة بتعليقاته المدمِّرة. وقد فرضت اللوحةُ نفسها منذ اليوم الأول على أنّها «جدار العار» ولا أتذكّر محرِّراً واحداً أُفلِتَ من ريشته الدموية.

لا يبدو أنّ ترقيةَ غيِّرمو كانو المدهشة إلى مدير لِ «إلْ إسبِكتادور»، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، جاءت نتيجةً مبكرة لخصائله الشخصية، بل تنفيذاً لتعيين مُقدَّر له قبل ولادته. لذلك كانت مفاجأتي الأولى في أنّني اكتشفتُ أنّه المدير فعلاً، في الوقت الذي كان الكثيرون منّا يفكّرون من الخارج بأنّه لم يكن سوى ابن مطيع. وأكثر ما لفت انتباهي هي السرعة التي كان يعرف بها الخبرَ.

كان عليه أحياناً أن يواجِهَ الجميع، حتى حين لا يكون هناك مبررات كثيرة، كي يُقنعهم بحقيقته. كانت مرحلة لا يُدرِّسون فيها المهنةَ في الجامعات، بل يتمّ تعلّمها بالمثابرة على المطابع، واستنشاق الحبر، وكانت «إل إسبِكتادور» تملك أفضلَ وأطيبَ المَعلِّمين قلباً، لكنّهمٍ متشددون في العمل. كان غيِّرمو كانو قد بدأ العمل هناك منذ تعلُّمِهِ الحروف الأولى بكتابة زوايا عن مصارعة الثيران هي من الدقة والبلاغة، حيث بدا أن ميوله الطاغية ليست صحفية، بل هي ميول مصارع عجول. وهكذا يبدو أن أقسى تجربة في حياته هي أنّه رأى نفسه يترقّى بين ليلة وضحاها، دون أن يتخلل ذلك تدرّج، من طالبٍ خديجٍ إلى معلّم أكبر. ما من أحد لم يعرفه عن قرب كان باستطاعتهُ أن يلمح، خلف آدابه الرقية والمراوغة قليلاً، عزماً في طبيعته. دخلَ بالولهِ ذاته معاركَ كبيرة وخطيرة، دون أن يتوقّف أبداً أمام يقين، أنّ الموتَ يمكن أن يكمن حتى خلف أكثر القضايا نبلاً.

لم أعرف بعده من هو أكثر منه إعراضاً عن الحياة العامّة، ولا

أكثر عزوفاً عن الصيت الشخصي، ولا أكثر ابتعاداً عن مداهنات السلطة. كان رجلاً قليلَ الأصدقاء، لكنّهم رائعون على قلّتهم، وشعرتُ منذ اليوم الأوّل أنّني واحدٌ منهم. ربّما ساهم في ذلك كوني واحداً من أصغرِ من في قاعةٍ تعجّ بالمجرّبين المحنّكين. وهو ما خلق بيننا نحن الاثنين نوعاً من التواطؤ لم يخمد أواره قط. ما كان في تلك الصداقة من مثالي هو قدرتها على تجاوز تناقضاتنا. فخلافاتنا السياسية عميقة جدّاً، وراحت تتعمّق أكثر كلّما ازداد العالم تفكّكاً، لكنّنا عرفنا دائماً كيف نجد أرضية مشتركة لنتابع النضال معاً من أجل القضايا التي بدت لنا عادلة.

كانت قاعة التحرير فسيحة، اصطفت المكاتبُ على جانبيها وعمّها مزاج رائق وآخر قاس. فيها داريّو باوتيتسا، وهو نوع من معارضي وزير المالية، يبدأ منذ صياح الديكة، يُسوِّدُ فجرَ أرفع الموظفين رتبة بتنبؤاته، التي تكاد تكون صائبة دائماً عن المستقبل المشؤوم. وفيها محرِّر القضايا القانونية فيليبِّ غونثالِث تولِدو، كاتب التحقيقات بالولادة، الذي كثيراً ما استبقَ التحقيقات الرسميّة في فنّ تخريب لقاءٍ وتوضيح جريمة. وكذلك غيِّرمو لاناو، الذي كان يُتابِع أمورَ عدّةِ وزاراتٍ، وقد احتفظ بسرّ أنّه طفل حتى شيخوخته الناعمة؛ وروخِريو إتشِبِرّيا، أحد كبار الشعراء، مسؤول الطبعة الصباحية، الذي لم نره قط نهاراً. ابن عمّي غونثالو غونثالِث، بساقه المجبرة بالجصّ بسبب مباراة سيئة بكرة القدم، كان عليه أن يدرسٍ كي يجيب على أسئلة عن كلّ شيء، وانتهى إلى أن أصبح مختصّاً بكلّ شيء. ورغم أنّه كان في الجامعة لاعب كرة قدم من الدرجة الأولى، إلاّ أنّ عنده إيمان لا ينتهي بالدراسة النظرية لكلّ شيء، مهما كانت التجربة. البرهان الساطع قدّمه لنا في بطولة رمي أوتاد الصحفيين المخروطية بالكرات(*)، حين تفرّغ لدراسة كتاب تعليم قواعد اللعبة بدل أن يتدرّب مثلنا في الملاعب حتى الفجر، وحقّق بطولة تلك السنة.

(*) لعبة تقوم على وضع أوتاد مخروطية في صفّ ويرمي عليها اللاعب بالكرات ويسقط ما يستطيع منها.

بمثل هذه القائمة كانت قاعة التحرير مكاناً دائماً لمرح خاضع أبداً لشعار داريّو باوتيستا، أو فِليبِّ غونثالِثْ تولِدو: «من يتعهّرً ينتاك».

كلّنا كنا نعرف مواضيع الآخرين ونتبادل المساعدة حيثما تطلّب الأمر، وحيث نستطيع. هكذا كانت المشاركة العامة، حيث يمكن القول بأننا كنّا نعمل بصوتٍ عالٍ تقريباً. لكن عندما تتأزّم الأمور لا يُسمع نفسٌ. كان خوسِهْ سالغار يوزّع أوامره من وراء المكتب الوحيد المعترض في آخر القاعة، بينما ينفث جام غضبه معطياً علاج المشعوذ، هو الذي عادةً ما يجوب قاعة التحرير، مُعْلماً ومُشتغِلِماً عن كلّ شيء.

أعتقد أنّ المساء الذي حملني فيه غيِّرمو كانو من طاولة إلى طاولة على طول القاعةِ ليقدّمني للمجموعة كان امتحاناً حاسماً لخجلي المستعصي. فقدتُ النطقَ وانحلّت ركبتايَ، حين زمجر داريّو باوتيستا بصوته الرهيب الشبيه بالرعد دون أن ينظر إلى أحد:

ـ جاء العبقريّ!

لم يخطر لي غير أن أدورَ نصف دورة مسرحية، مادّاً ذراعي للجميع، وأقول لهم أقل ما خرج من روحي ظرافةً:

ـ لخدمتكم.

ما زلتُ أعاني من صدمة السخرية العامّة، لكنّني أيضاً أشعرُ بالراحة التي أحدثها العناقُ والكلمات الطيبة التي رحّبَ بي من خلالها كلّ واحد منهم. منذ تلك اللحظة صرت واحداً من تلك المجموعة من النمور المحسنين، وأتمتّع بصداقة وروح قويّة لم تتزعزع قط. كلّ معلومة كنتُ أحتاجها لزاويتي، مهما صغرت، أطلبها من المحرِّر المختص، ولم يبخل أحدٌ بها عليَّ قط.

الدرس الأول لكاتب التحقيقات الكبير تلقيته من غيِّرمو كانو وعاشته هيئةُ التحرير كاملة، في مساء انهمر مطرُه فوق بوغوتا التي تركها في طوفان كوني ثلاث ساعات متواصلة. جرف تيار المياه المضطربة في شارع خيمِنِثْ دِ كِسادا العريض كلَّ شيءٍ

اعترضَ طريقه في منحدر التلال، وخلّف في الشوارع آثار كارثة. شّلت السياراتُ من كلّ الأنواع وحافلات النقل العام، حيث داهمتها الضرورة، ولجأ آلاف المارّة إلى المباني الغارقة هرباً من الدوامات حتى لم يبق مكان لمزيد. رحنا، نحن محرِّري الصحيفة الذين باغتتهم الكارثة لحظةَ الإغلاق، نتأمّلُ المنظر الحزين من النوافذ دون أن ندري ماذا نفعل، مثل أطفال عوقبوا بوضع أيديهم في جيوبهم. سرعان ما بدا أنّ غيِّرمو كانو قد استيقظ من أحلام لا قرارَ لها، والتفتَ إلى أسرة التحرير المشلولة، وصرخ:

- هذا الوابل خبر!

كان أمراً لم يَخصَ به أحداً ونُفِّذ على الفور. هرعنا نحن المحرّرين إلى أماكن قتالنا للحصول بالهاتف على المعلومات السريعة التي كان يشير إلينا بها خوسِهْ سالغار، لنكتب معاً وبالتقسيط تحقيقَ طوفان القرنِ. بقيت سيارات الإسعاف والدوريات المجهزة باللاسلكي المستدعاة للحالات المستعجلة محاصرةً لا تستطيع حراكاً، بسبب السيارات المعطّلة وسط الشوارع. المجاري المنزلية اختنقت بالمياه، ولم تكفِ طواقم الإطفاء كلها لسدّ الحاجات الطارئة. أحياء بكاملها وجدت نفسها مضطرة للإخلاء مكرهةً بسبب انهيار سدّ مدنيّ. انفجرت المجاري في أحياء أخرى. وشغل الأرصفة عجائز مقعدين ومرضى وأطفال مختنقين. وسط الفوضى نظّم أصحاب خمسة زوارق بمحرّكات، كانت تستخدم للصيد في نهايات الأسابيع، سباقاً في شارع كاراكاس العريض، أكثر شوارع المدينة تضرّراً. وزّع خوسِهْ سالغار هذه المعلومات المتفرقة التي حصلنا عليها فوراً على المحرِّرين فقمنا بإعادة تحريرها للطبعة الخاصّة المرتجلة على وجهِ السرعة. راح المصوّرون المبللون في معاطفهم المطرية يظهرون الصور الطازجة. كتب غيِّرمو كانو قبل الساعة الخامسة بقليل موجزاً محكماً عن واحدٍ من شآبيب المطر الأكثر مأساوية في ذاكرة المدينة. حين توقّف المطر أخيراً وزِّعت «إلْ إسبِكتادور» كما في كلّ يوم، متأخِّرة ساعةً تقريباً.

علاقتي الأوليّة بخوسِهْ سالغار كانت الأصعب، لكنّها دائماً

خلاّقة كما لم تكن أيّة علاقة أخرى. أعتقد أن مشكلته كانت مناقضة لمشكلتي: حاول دائماً أن يبذل محرّرو التحقيقات الأساسيون أكبر جهدٍ عندهم، بينما أنا أتلهّف للدخول في نسيج العمل. لكنّ التزاماتي الأخرى مع الصحيفة كبّلت يديّ، ولم يبق أمامي ساعات أخرى غير ساعات أيّام الآحاد. يبدو لي أنّ سالغار وضع عينه عليّ لكتابة التحقيقات، بينما الآخرون وضعوها عليّ للسينما وتعليقات الرأي والشؤون الثقافية، لأنّهم أشاروا إليّ دائماً كقاصّ. لكنّ حلمي منذ خطواتي الأولى على الساحل كانٍ في أن أصبح كاتب تحقيقات، وكنتُ أعرف أنّ سالغار أفضلُ مُعلِّم، لكنّه يُغلق الأبوابَ في وجهي، ربّما بأمل أن أهوي بها بنفسي كي أدخل بالقوّة. كنّا نعملُ بشكلٍ ممتاز وحميم وحيوي، وفي كلّ مرّة تمرّ عليه مادّةٌ كُتِبت بالاتفاق مع غيِّرمو كانو، بل وحتى مع إدواردو ثالاميا، يوافق عليها دون تأخير، لكنّه لم يكن يغفر المعتاد؛ يتظاهر بالقيام بحركة أنّه يفتح زجاجة بالقوّة ويقول لي بجدّية أكبر مما يبدو أنه يؤمن بها:

- إلوِ عنقَ البجعة.

ومع ذلك لم يكن عدوانياً قط. على العكس تماماً: كان رجلاً ودوداً، تشكّل على نار حيّة، عرف كيف يصعد سلّم الخدمات الجيّدة، بدءاً من توزيع القهوة على الورشات، في الرابعة عشر من عمره، وحتى أصبح رئيس التحرير الأكثر مرجعية مهنية في البلد. أعتقد أنّه لم يكن باستطاعته أن يغفر لي أن أشتت نفسي بين شعوذاتٍ شاعرية، في بلد يحتاج أكثر ما يحتاج إلى كتّاب تحقيقات صدامية. بالمقابل كنتُ أفكرُ أنّه ما من جنس من أجناس العمل الصحفي أفضل من التحقيقات للتعبير عن الحياة اليومية. ومع ذلك أعرف اليومَ، أن العناد الذي حاولنا أنا وهو أن نعمل به ذلك كان أفضل حافز ملكته لتحقيق الحلم الهارب، بأن أصبح كاتب تحقيقات محض.

جاءتني الفرصةُ تلقائيّاً في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة من صباح التاسع من حزيران من العام 1954، بينما أنا عائد من زيارة صديق في سجن مودِلو(*) دِ بوغوتا. قوّات من الجيش

(*) السجن النموذجي.

مسلحة كما لو استعداداً للحربِ، كانت توقف حشداً طلابياً على الحدّ في طريق كارِّرا سِبتيما علىٍ بعد قصبتين من الزاوية ذاتها التي اغتالوا فيها خورخِه إليثر غايتان قبل ستّ سنوات. كانت مظاهرة احتجاجٍ على مقتل طالب، وقع قبل يوم على يد قوّات كتيبة كولومبيا، المُدرّبةً من أجل حرب كوريا، وأوّل صدام مدنيّ في الشارع مع حكومة القوات المسلحة. لم تكن تُسمع من المكان الذي كنتُ فيه غير النقاشات بين الطلاب الذين يُحاولون الوصول إلى القصر الرئاسي، وبين العسكر الذين يُحاولون أن يمنعوهم. لم نتمكن بين الحشود من فهم ما راحوا يصرخون به، لكنّ التوتر كان يُحس في الجو. سُمعَت فجأة ودون أي تحذير رشقةُ رشاشٍ، تلتها رشقتان متتاليتان. فقتل على الفور عددٌ من الطلاب وبعضُ المارة. الباقون الأحياء الذين حاولوا نقلِ الجرحى إلى المستشفى رُدّوا بأعقاب البنادق. أخلت القوّةُ القطّاعَ وأغلقت الشوارع. عدت في أثناء الانفجارِ لأعيش لثوانٍ رعبَ التاسع من نيسان كلّه، في الساعة ذاتها، والمكان ذاته.

صعدتُ شبه راكضٍ القصباتِ الثلاثة المنحدرة نحو دار «إلْ إسبِكتادور» ووجدت هيئة التحرير في مشادة حربية. حكيتُ غاصّاً ما استطعتُ رؤيتَه في مكان المجزرة، لكنّ أقلّنا معرفة شرع بكتابةِ أوّل خبرٍ عن هويّة الطلاب التسعة القتلى، وحالة الجرحى في المستشفيات. كنتُ واثقاً من أنّهم سيأمرونني بأن أروي الحادث، كوني الوحيد الذي شاهده، لكنّ غيِّرمو كانو وخوسِهْ سالغار كانا متفقين على أن يكون التقرير جماعياً، يضع فيه كلّ واحد ما يخصّه، ليتولى فيليبّ غونثالِثْ تولِدو أمرَ وحدة الموضوع النهائية.

ـ اهدأ ـ قال لي فيليبّ، مشغولاً بخيبتي ـ يعرفُ الناسُ أنّنا جميعاً نعمل هنا في كلّ شيء وإن كان مهملَ التوقيع.

واساني أوليسِس من ناحيته بفكرة أن زاوية الرأي التي عليّ أن أكتبها يمكن أن تكون الأهم، لأنّها تتعلّق بمشكلة من مشاكل الأمن العام في غاية الخطورة. وكان على حقّ، لكنّها من الدقة والحرج في سياسة الصحيفة، حيث أنّها كُتبت بأيدٍ عدّة وعلى أعلى المستويات.

أعتقدُ أنّه كان درساً عادلاً للجميع، لكنّه بدا لي ممزِّقاً للقلب. كان ذلك نهاية شهر العسل بين حكومة القوات المسلحة والصحافة الليبرالية. فقد بدأ شهر العسل هذا قبل ثمانية أشهر حين استولى الجنرال روخاس بينيّا على السلطة، وهو ما سمح للبلد أن يتنفّس الصعداء، بعد حمّام الدم الذي قامت به حكومتان متعاقبتان ودام حتى ذلك اليوم. كما كان تجربة ناريّة بالنسبة لأحلامي ككاتب تحقيقات محض.

بعد قليل نُشِرَت صورة لجثّة طفلٍ مجهول، لم يتمكنوا من تحديد هويته في مدرّج الطب الشرعي، وبدت لي مماثلةً لجثّة الطفلِ الآخر الذي اختفى ونُشِرَت صورته قبل أيّام. عرضتُهما على رئيس القسم القانوني، فيليبّ غونثالِثْ تولِدو، فاستدعى أمَّ الطفل الأوّل الذي لم يكن قد تمّ العثور عليه. كان درساً للأبد. أمّ الطفل تنتظرنا أنا وفيليبّ في قاعة انتظار المُدرّج. بدت لي من الفقرِ والهزال ما جعلني أبذلُ قصارى جهدي متمنّياً من كلّ قلبي ألا تكون الجثّة لطفلها. في القبو الجليدي، وتحت الإضاءة الكثيفة كان هناك قرابة العشرين طاولة مصفوفة، وعليها جثث مثل توابيتٍ من حجر تحت الملاءات المتسخة. تبعنا نحن الثلاثة الحارسَ الرصين حتى الطاولة ما قبل الأخيرة في العمق. تحت الملاءة كان يبرز نعلُ حذاء بائس صغير، وقد تآكلت طسّتا(*) الكعبين المعدنيتين من كثرة الاستعمال. عرفتهما المرأة، شحب لونها، لكنّها حبست نفسها الأخير إلى أن رفع الحارسُ الملاءة بعصا مصارعِ ثيران. كان جسد طفل في التاسعة من عمره، مفتوح العينين الذاهلتين، يرتدي الملابس المجرجرة ذاتها التي كانت عليه حين وجدوه بعد عدّةِ أيّام من وفاته في حفرة في الطريق. أطلقت المرأة عواءً وانهارت وهي تصيح على الأرض. أنهضها فيليبّ وسيطر عليها بهمسات مواسية، بينما أنا أتساءل ما إذا كان كلّ ذلك يستحق أن يكون المهنة التي أحلم بها. أكّد لي إدواردو ثالاميا بالنفي. هو أيضاً كان يُفكِّر أنّ

(*) هي قطعة معدنية توضع في طرف كعب الحذاء ومقدّمته لحمايته من الاستهلاك.

الخبر الأحمر، المتأصّل عند القراء، اختصاصٌ صعبٌ، يتطلَّبُ طبيعةً خاصّة وقلباً مجرّباً. لم أحاول هذا بعد ذلك قط.

واقعٌ آخر مختلف تماماً أجبرني على أن أكون ناقداً سينمائياً. لم يخطر لي قط أنّ باستطاعتي أن أصبح كذلك، لكنّني في مسرح أولمبيا لصاحبه دون أنطونيو داكونتِ في أراكاتاكا، وبعدها في مدرسة ألبارو ثِبّدا الجوّالة لمحتُ العناصرَ الأساسيةَ لكتابة زوايا ذات توجّه سينمائي بمعيار أقرب إلى الفائدة من القائم حتى تلك الفترة في كولومبيا. كان إرنِستو فولكِنينغ، الكاتب والناقد الأدبي الألماني الكبير، المستقر في بوغوتا منذ الحرب العالمية يبثّ عبر الإذاعة الوطنية تعليقاتٍ حول الأفلام المعروضة لأوّل مرّة، لكنّه كان مقتصراً على مستمعين متخصّصين. كان يلتفّ حول لويس بيثِنْزْ، صاحب المكتبة الكتلاني، المقيم في بوغوتا منذ الحرب الأسبانية، مُعلِّقون آخرون رائعون لكنّهم عرَضِيون. كان أوّل من أسّس نادٍ سينمائيّ، بالتواطؤ مع الرسام إنريكِهْ غراو والناقِد هِرناندو سالثِدو، وبعناية من الصحفية غلوريا بالِنثيا دِ كاستانيو كاستيّو التي حملت البطاقة رقم واحد. كان في البلد جمهور هائل لأفلام العنف العظيمة والمأساة المبكية، لكنّ السينما النوعية اقتصرت على دوائر الهواة المثقفين، وكانت مجازفة أصحاب دور العرض بعرض أفلام يدوم الإعلان عنها ثلاثة أيّام، تتراجع في كلّ مرّة أكثر. كان استخلاص جمهور جديد من ذلك الحشد الضبابي يتطلّب تربيةً صعبة لكنّها ممكنة لتحريك زبائن مقبولين للأفلام النوعية، ومساعدة أصحاب دور العرض الذين يريدون ذلك، لكنّهم لا يتمكنون من تمويلها. العائق الأكبر كان أنّ هؤلاء يُبقون فوق الطاولة تهديدَ الصحافة بحجب الإعلانات السينمائية، التي كانت تُشكّل مصدراً أساسيّاً لدخل الصحافة ـ كانتقام للنقد المعادي. كانت «إلْ إسبِكتادور» الأولى في تحمّل المخاطرة، وكلّفتني بمهمّة نقدِ العروض الافتتاحية للأسبوع بشكل أقرب ما يكون إلى بطاقة تعريف أساسية للهواة منها إلى الاستعراض البابوي. الاحتياط العام المُتَّفق عليه هو أن أحملَ دائماً بطاقة الدخول المجانية كمعروف لم

يُستخدَم، كدليلٍ على أنّني دخلتُ إلى العرض بالتذكرة المشتراة من شبّاك التذاكر.

طمأنت الزوايا الأولى أصحاب دور العرض، لأنّها علّقت على أفلامٍ من عينات جيّدة من السينما الفرنسية. من بينها «بوتشيني» وهوً تلخيص موسّع لحياة موسيقيّ عظيم. «القمم الذهبية»، الذي يتناولُ قصّةَ المغنية غريس مور المروية بشكلٍ جيّد، و «حفلة إنريكيتا»، وهو كوميديا سلمية لجان دلانوا. كان المستثمرون الذين كنا نلتقيهم عند الخروج من المسرح يُظهرون لنا رضاهم عن زوايانا النقدية. بالمقابل أيقظني ألبارو ثِبِّدا هاتفاً من بارّانكيّا في الساعة السادسة صباحاً، حين علم بجرأتي.

- كيف يخطر لك أن تنقد أفلاماً دون إذن منّي، أيّها الوغد! - صاح ميتاً من الضحك عبر الهاتف - مع قسوتك بالنسبة إلى السينما!

تحوّل إلى مساعدي الدائم، طبعاً، رغم أنّه لم يوافق قط على فكرة أنّ المسألة لا تتعلّق بخلق مدرسة، بل بتوجيه جمهورٍ أوّلي لم يتشكّل أكاديمياً. شهر العسل مع المستثمرين لم يكن أيضاً بالحلاوة التي كنّا نظنّ أنها موجودة في البداية. حين واجهنا السينما التجارية الخالصة والبسيطة، شكا حتى أكثر المُتفهِّمين منهم من قسوةِ تعليقاتنا. وكان لإدواردو ثالاميا وغيِّرمو كانو من المهارة ما كفاهما كي يلهياهم بالهاتف حتى نهاية نيسان، حين اتهمنا صاحب دار عرض، له كبرياء زعيم، في رسالة مفتوحةٍ بأنّنا نُخيف الجمهور كي نضرب مصالحهم. بدا لي أن أسَّ المشكلة هي أنّ مؤلف الرسالة لم يكن يعرف معنى كلمة أخاف، لكنّني شعرتُ بنفسي على حافّة الهزيمة، لأنّني لم أظنّ أنّ من الممكن في أزمة نموٍّ الصحيفة أن يتنازل دون غابرييل كانو عن الإعلانات السينمائية لمجرّد المتعة النقدية. في اليوم ذاته الذي وصلت فيه الرسالة استدعى أولادَهُ وأوليبِس لاجتماعٍ عاجل، فاعتبرت أنّ موتَ وقبر القسمِ أمرٌ مفروغ منه. ومع ذلك فإنّ دون غابرييل، حين مرَّ أمام مكتبي بعد الاجتماع، قال لي بخبث جَدٍّ، ودون أن يُحدِّد الموضوع:

- اطمئن، يا سميّي الصغير.

في اليوم التالي ظهر في زاوية «يوماً بيوم» الردُّ على المُنتِج، مكتوباً بقلم غِيِّرمو كانو بأسلوب حصيفٍ مقصودٍ، قالت نهايته كلَّ شيء: «لا يُخوّف الجمهور ولا يُضرّ بمصالح أحدٍ إطلاقاً أن تنشر الصحافة نقداً سينمائياً جادّاً ومسؤولاً، يشبه قليلاً النقد في بلدانٍ أخرى ويُخالِف النماذج القديمة الضارة التي تكيل المديح المُفرِطَ للجيّد والسيّئ منها على حدٍّ سواء». لم تكن الرسالة الوحيدة ولا جوابنا الوحيد. راح موظّفو دور السينما يحاصروننا بهتافات فجّة، وصرنا نتلقى رسائل متناقِضة من القرّاء المُضلَّلين. لكنّ كلّ شيء جاء مفيداً: فقد استمرّ العمودُ حتى لم يعد النقد السينمائي عرضياً في البلد، وتحوّل إلى عملٍ رتيبٍ في الصحافة والإذاعة.

منذ ذلك الوقت وفي أقل من سنتين نشَرْتُ خمساً وسبعين زاوية نقدية، كان يجب أن تُحمّل بالساعات المستخدمة في مشاهدة الأفلام. إضافة إلى ما يُقارِب الستمئة زاوية رأي، وخبر موقّع أو مغفل من التوقيع كلَّ ثلاثة أيّام، وما لا يقل عن ثمانين تحقيقاً بين مذيّل ومهمل التذييل. المساهمات الأدبية نُشرت منذ ذلك الوقت في «ماغازين دومينيكال» على الصحيفة ذاتها، بينها عدد من القصص وسلسلة «لا سييربِّ» كاملة، التي كانت قد أوقفت في مجلّة «لامبارا» نتيجة خلافات داخلية.

كان ذلك أوّل رخاء في حياتي، لكن دون أن أملك وقتا للتمتع به. الشقّة الصغيرة التي استأجرتها مفروشةً مع خدمة الغسيل، لم تكن أكثر من غرفة نوم وحمّام وهاتف وإفطار في الفراش، ونافذة كبيرة مع المطر الناعم الدائم في أكثر مدنِ العالم حزناً. لم أستخدمها إلاّ للنوم من الساعة الثالثة فجراً، بعد ساعةِ قراءةٍ وحتى أخبار الإذاعة في الصباح كي أستنير حول راهِنِ اليوم الجديد.

لم أتوقف عن التفكير، بشيء من القلق، بأنّها كانت المرَّة الأولى التي يكون فيها لديَّ منزل ثابت وخاص أعيش فيه، لكن دون أن أملك الوقت ولا حتى كي أنتبه لذلك. فقد كنت منشغلاً بتدبير حياتي الجديدة إلى حدٍّ أنّ نفقاتي الوحيدة الملحوظة اقتصرت على مبلغ

المساعدة الذي كنتُ أُرسله للأسرة بموعدٍ دقيق من نهاية كلِّ أسبوع.
اليوم فقط أنتبه إلى أنّني لم أكد أملك الوقت للاهتمام بحياتي الخاصّة. ربّما لأنّه ما تزال تعتمل في داخلي فكرة أمّهات الكاريبي القائلة بأنّ نساء بوغوتا يُسلِّمن أنفسَهنَّ، دون حبٍّ، لأهل الساحل لمجرّدِ تحقيقِ حلمِ بالعيش مقابل البحر. ومع ذلك فقد حقّقت ذلك في شقّة العازب الأولى في بوغوتا دون مخاطر، منذُ أن سألتُ البوّاب عما إذا كانت زيارات الصديقات في منتصف الليلة مسموحة، وأعطاني جوابه الحكيم:

ـ ممنوعة، يا سيّدي، لكنّني لا أرى ما يجب أن لا أراه.

في نهاية تموز وقف خوسِهْ سالغار دون إعلام مسبق مقابل طاولتي، بينما أنا أكتب زاوية رأي، وأمعن فيّ بصمتٍ طويل. قطعت جملة من منتصفها، وقلت له بفضولٍ:

ـ ما الأمر!

لم يرف له جفن وهو يلعب لعبة مصارعة العجول الخفيّة، بقلمه الملون وابتسامته الشيطانية ذات المقاصد الظاهرة عليه أكثر من اللازم. وضّح لي دون أن أسأله أنه لم يأذن لي بالتحقيق بمجزرة الطلاب في شارع كارِّرا سِبتيما، لأنّه كان خبراً صعباً على حديثِ عهد بها. بالمقابل عرض عليّ من جانبه، وعلى مسؤوليته، شهادةَ كاتبِ تحقيقات بطريقة مباشرة، لكن دون أدنى رغبة بالتحدي، إذا كنتُ قادراً على قبول عرض قاتل:

ـ لماذا لا تذهب إلى مدلين، وتحكي لنا ما الذي جرى هناك؟

لم يكن فهم ما عناه سهلاً، لأنّه كان يكلّمني عن شيءٍ حدث قبل أكثر من أسبوعين وهو ما يسمح بالشكّ بأنّ الأمر يتعلّق بشيء بائتاً تماماً. كان معروفاً أنّ انهياراً بالتربة قد وقع يوم الحادي والعشرين من تموز في لا مِدْيا لونا(*)، المكان شديد الانحدار إلى الشمال من مدلين لكنّ فضيحة الصحافة، وفوضى السلطات وذعر

(*) الهلال.

المنكوبين أحدثت ارتباكاً إدارياً وإنسانياً لم يسمح برؤية الواقع. لم يطلب منّي سالغار أن أحاول تحديدَ ما حدث إلى الحد الممكن، بل أمرني ببساطة أن أعيدَ صياغة الحقيقة على أرض الواقع، ولا شيء غير الحقيقة، كلّ الحقيقة في أقصر وقت. ومع ذلك كان في طريقته بقول ذلك شيء جعلني أفكّر أنّه أطلق لي العنان أخيراً.

الشيء الوحيد الذي كان يعرفه العالم كلّه عن مدلين حتى ذلك الوقت، هو أنّ كارلوس غاردِل مات فيها متفحِّماً في كارثة جويّة. كنتُ أعرف أنّها أرض كتّابٍ وشعراء عظام، وتوجد فيها مدرسة لا برِسِنتاثيون(*)، التي بدأت مِرثِدِس بارتشا الدراسة فيها في ذلك العام. لم يبدُ لي، أمام مهمّةٍ بمثل ذلك الهذيان، خيالياً أن أعيد بناء مذبحة انهيار الجبلِ قطعة فقطعة. وهكذا هبطتُ في مدلين في الساعة الحادية عشرة صباحاً وسط عاصفةٍ جاءت من الشدّة، حيث توهّمتُ أنني آخر ضحايا الانهيار.

تركتُ الحقيبة في فندق نوتيبارا وفيها ملابس ليومين، وربطة عنق للطوارئ، ونزلتُ إلى الشارع في مدينة مثالية ما تزال تلفّها تصفيات العاصفة. رافقني ألبارو موتيس كي يساعدني في التغلّب على الخوف من الطائرة، ونوّرني بمعرفة بعض الناس من أصحاب المواقع الجيّدة في حياة المدينة. لكنّ الحقيقةَ المرعبة هي أنّني لم أكن أعرف أبداً من أين أبدأ. سرت على هواي في الشوارع المشعة تحت الرمال الذهبية لشمسٍ ما بعد العاصفة الساطعة، فاضطررت بعد ساعةٍ أن ألوذ بأوّل مخزن، لأنّها عادت وأمطرت رغم الشمس. عندئذٍ بدأت أشعر بأول خفقات الذعر في صدري. حاولت أن أكبتها بصيغة جَدّيَ السحرية وسط المعركة، لكنّ الخوفَ من الخوف انتهى بهزيمة معنوياتي. انتبهتُ إلى أنّني لن أكون أبداً قادراً على القيام بما أوكلوه إلي، ولم أملك الجرأة على قوله لهم. عندئذٍ أدركتُ أنّ أذكى ما يمكن فعله هو أن أكتب رسالة شكرٍ إلى غيِّرمو كانو، وأعود إلى بارّانكيّا، إلى الرضا التي كنتُ عليها قبل ستّة أشهر.

(*) التجلّي، أي عيد تجلّي العذراء في الهيكل.

بالفرج الهائل الذي يشعر به من يخرج من الجحيم أخذتُ سيارة أجرة لأعود إلى الفندق. نشرة أخبار الظهيرة قدّمت تعليقاً مطوّلاً بتناوب صوتين، كما لو أن الانهيارات حدثت البارحة. نفَّث السائق عن نفسه بما يشبه الصراخ ضدّ إهمال الحكومة وسوء استخدام المساعدات للمتضرِّرين، وشعرتُ بطريقة ما أنّني مسؤول عن غضبهم العادل. لكنّ الطقس عاد عندئذٍ لينقشع، وأصبح الهواء صافياً وفوّاحاً بسبب انفجار الأزهار في حديقة بِرِّيّو. فجأة شعرت لا أدري لماذا بضربة من مخلب الجنون.

- اعمل لي شيئاً - قلت للسائق - خذني قبل المرور على الفندق إلى مكان الانهيارات.

- لكن لا يوجد هناك ما يُرى - قال لي - لا شيء غير الشموع المشتعلة، والصلبان الصغيرة على الأموات الذين لم يستطيعوا إخراجهم.

هكذا أدركتُ أن الضحايا كما الناجين كانوا من مناطق مختلفة من المدينة، وأنّ هؤلاء اجتازوها جماعياً لإخراج جثث الذين سقطوا في الانهيار الأوّل. المأساة الكبرى حدثت حين ملأ الفضوليون المكانَ وانزلق جزء آخر من الجبل في انجراف ماحِقٍ. وهكذا فالوحيدون الذين استطاعوا أن يحكوا الحكاية، هم الذين أُفلِتوا من الانهيارات المتتالية وبقوا أحياء على الطرف الآخر من المدينة.

- فهمتُ - قلتُ للسائق محاوِلاً أن أسيطر على ارتعاش صوتي -. خذني إلى حيثُ الأحياء الناجون.

استدار بالسيارة نصف استدارة وسط الشارع، وانطلق بالاتجاه المعاكِس. صمته لم يكن نتيجة سرعة اللحظة، بل نتيجة الأمل بإقناعي بمبرِّراته.

كانت بدايةُ الخيط طفلين في الثامنة والحادية عشرة من عمرهما، خرجا من بيتهما للتحطيب في السابعة من صباح يوم الثاني عشر من تموز. كانا قد قطعا قرابة المئة متر، حين شعرا بدويّ انهيار التراب والصخور تسقط فوقهما من جانب التل.

استطاعا الإفلات بصعوبة. في البيت بقيت أمّهما وأخواتهما الصغيرات وأخ حديث الولادة محاصَرين. الناجون الوحيدون هم الطفلان وأبُ الجميع، الذي خرج باكراً إلى عمله كرمّالٍ على بعد عشرة كيلومترات من البيت.

كان المكان أرضاً جرداء موحشة فوق الطريق من مدلين إلى ريونِغرو، الذي لم يبقَ فيه منذ الثامنة صباحاً سكان لمزيد من الضحايا. نشرت الإذاعات الخبر مبالِغة بكثير من التفاصيل الدامية، وصيحات الاستغاثة القائلة بأنّ طلائع المتطوّعين وصلوا قبلَ رجال الإنقاذ. عند الظهيرة وقع انهياران آخران دون ضحايا، زادا حالةَ العصابِ العامّ، واستقرت هناك إذاعة محلّية قامت بالنقل المباشر من مكان الكارثة. في تلك الساعة وصل إلى هناك جميع سكان القرى والأحياء المجاورة، إضافة إلى فضوليي المدينة كلّها تشدّهم صيحات الإذاعة والركاب الذين ينزلون من الباصات الواصلة بين القرى ليعيقوا أكثر مما ليساعدوا. كان هناك، بالإضافة إلى الجثث القليلة التي بقيت في الصباح، ثلاثمئة جثّةٍ أخرى ناتجة عن الانهيارات المتتالية. ومع ذلك، وحين أوشك الليل على الحلول، كان ما يزال هناك أكثر من ألفي مندفع أرعن يُقدّمون الخدمات للباقين الأحياء. عند المساء لم يكن قد بقي مكان سهل ولا حتى للتنفس. في الساعة السادسة، كان الحشد مكتظّاً وفوضوياً حين انهار جرف آخر جارف قُدر بمئتي ألف متر مكعب مُحدِثاً دويّاً هائلاً أوقع من الضحايا كما لو أنّه حدث في حديقة برِّيّو في مدلين. كانت الكارثة من السرعة، حيث أن الدكتور خابيير مورا، أمين الأشغال العامّة في البلدية وجد بين الأنقاض جثة أرنب لم يُسعِفهُ الوقتُ للهرب.

حين وصلتُ بعد أسبوعين إلى المكان، لم يكونوا قد انتشلوا إلا أربعاً وسبعين جثّة وعدداً من الباقين الأحياء. لم تكن الغالبية ضحية الانهيارات، بل التهور والتضامن غير المنظم. وكما هو الأمر في الزلازل، لم يكن من الممكن إحصاء عدد الأشخاص الذين يعانون من مشاكل واستغلوا الفرصة للاختفاء دون أن يُخلِّفوا أثراً، تهرّباً من دَيْنٍ أو استبدالاً لزوجة. ومع ذلك لعب حسنُ الحظِّ دوره. فقد

برهن تحقيقٌ لاحقٌ أنّ هناك منذ اليوم الأوّل، وبينما هم يُحاولون القيام بعمليات الإنقاذ، كتلةً صخرية يوشك أن يحدث فيها انسلاخ آخر من خمسين ألف متر مكعب. استطعت بعد أكثر من خمسة عشر يوماً، وبمساعدة الناجين المستريحين، إعادةَ صياغة القصّة التي لم تكن ممكنة في لحظتها نظراً لعوائق وبلبلةِ الواقع.

اقتصرت مهمّتي على إنقاذ الحقيقة الضائعة في شواشِ الافتراضاتِ المتناقضة، وإعادة بناء المأساة الإنسانية بالترتيب الذي وقعتْ فيه، بعيداً عن كلِّ حسابٍ سياسيّ وعاطفيّ. كان ألبارو موتيس قد وضعني على الطريق القويم حين أرسلني مع خبيرة الدعاية ثِثيليا وارِّن، التي نظّمت لي المعلومات التي عدتُ بها من مكان الكارثة. نُشر التحقيقُ على ثلاث حلقاتٍ، وحقّق على الأقل فضيلةِ إيقاظِ الاهتمام، الذي تأخّر أسبوعين، بخبر منسيّ وترتيبِ فوضى المأساة.

ومع ذلك فإنّ أفضل ذكرى لي عن تلك الأيّام ليس ما قمتُ به، بل ما أوشكتُ أن أقومَ به بفضل خيال صديق بارّانكيّا القديم الهاذي، أورلاندو ريبِرا، فيغوريتا، الذي التقيت به فجأة في واحدة من استراحات التحقيق. كان يعيش في مدلين منذ عدّة أشهر، سعيداً، حديثَ الزواج من سول سانتاماريّا، الراهبة الساحرة ذات الروح الحرّة التي ساعدها على الخروج من أحد أديرة العزل، بعد سبع سنواتٍ من البؤس والطاعة والعفّة. كشف لي فيغوريتا في واحدة من سكراتنا أنّه كان قد أعدَّ مع زوجته، بمجازفةٍ ومبادرة منه، خطّةً رائعة لإخراج مِرثِدِس بارتشا من مدرسة داخلية. كان هناك راهب صديق، مشهور بفنونه بترتيب الزيجات، جاهزاً لتزويجنا في أيّة ساعة. الشرط الوحيد بالطبع هو أن تكون مِرثِدِس موافقة، لكنّنا لم نعثر على الطريقة التي نستشيرها بها داخل جدران أسْرِها الأربعة. اليوم يتآكلني الحنق أكثر من أيّ وقت مضى، لأنّني لم أملك الجرأة على أن أعيش مأساة تلك القصّة. مِرثِدِس لم تعلم، من ناحيتها، بالخطّة إلا بعد خمسين سنة ونيّف حين قرأَتْها في مسودات هذا الكتاب.

كانت واحدة من آخر المرّات التي رأيتُ فيها فيغوريتا. انزلق في كرنفال 1960، بقناع نمر كوبي، من العربة التي كانت تقلّه إلى بيته في بارانُوَا بعد معركة الأزهار، وانقصفت رقبته على البلاط المغطى بأنقاض ونفايات الكرنفال.

في الليلة الثانية من عملي حول الانهيارات في مدلين، كان ينتظرني في الفندق محرِّران من صحيفة «إلْ كولومبيانو» - فتيين إلى حدّ أنهما كانا أصغر منّي - متحمّسان لإجراء مقابلة معي حول قصصي المنشورة حتى ذلك الوقت. عانيا في إقناعي، لأنّ عندي مذ ذاك حتى الآن حكم مبتسر، وربّما غير عادل تجاه المقابلات، بمعنى جلسة أسئلة وأجوبة، يجهد الطرفان فيها للحفاظ على حديث كاشف. عانيت من هذا الحكم المبتسر في الصحيفتين اللتين عملتُ فيهما، خاصّة في «كرونيكا»، حيث حاولتُ أن أنقل عدوى تحفّظاتي إلى المشاركين معي. ومع ذلك منحتُ تلك المقابلة الأولى لِـ «إلْ كولومبيانو» وكانت ذات صراحة انتحارية.

اليوم لا يُحصى عددُ المقابلات التي ذهبتُ ضحيتها على امتداد خمسين سنة وفي نصف العالم، ولم أتمكّن حتى الآن من إقناعِ نفسي بفعالية هذا الجنس بأيّ اتجاه كان. معظم المقابلات التي لم أستطِع تفاديها، مهما كان موضوعها، يجب أن تُعتبر جزءاً مهماً من أعمالي التخيّلية، لأنّها لا تتعدّى ذلك: تخيلات حول حياتي. بالمقابل أعتبر أنّها لا تُقدّر بثمن، ليس للنشر، بل كمادّة ارتكاز للتحقيق الصحفي، الذي أقدِّره كجنس فائق لأهمِّ مهنة في العالم.

في جميع الأحوال لم تكن أزمنة مهرجانات. فحكومة الجنرال روخاس بّينيّا، الذي دخل في صراع مفتوح مع الصحافة وقسم كبير من الرأي العام، توّج شهر أيلول بعزمه على توزيع مقاطعة تشوكو القصيّة والمنسية بين جاراتها الثلاث المزدهرة: أنتيوكيّا، كالداس وبايّه. لم يكن الوصول من مدلين إلى كيبْدو، عاصمة المنطقة ممكناً إلا عبر طريق باتجاه واحدٍ، هو من السوء، حيث أن قطع المئة والستين كيلومتر كان يحتاج إلى عشرين ساعة. وحالها اليوم ليس أفضل.

كنّا في تحرير الصحيفة نعتبر أنّه ليس هناك الكثير مما يُعْمَل، لمنع التقسيم الصادر بأمر من حكومة على علاقة سيّئة بالصحافة الليبرالية. في اليوم الثالث أخبرَ بريمو غِرِّرو مراسلُ «إلْ إسبِكتادور» في كيبْدو أنّ مُظاهرةً شعبية من عائلاتٍ بكاملها، بما فيهم الأطفال، احتلوا الساحة الرئيسية عازمين على البقاء هناك تحت الشمس وفي الليل، حتى تتراجع الحكومة عن قرارها. راحت صور الأمهات المتمردات، وهنَّ يحملن أولادهنّ بين أذرعهن، تتلاشى مع مرور الأيام بسبب الخبل الناتج عن عدم النوم في قرية معرضة لتقلبات الجوّ. وكنّا نعزِّز هذه الأخبار يومياً في التحرير بزوايا رأي أو تصريحات سياسيين ومفكرين تشوكويين مقيمين في بوغوتا، لكنّ الحكومة بدت عازمة على أن تكسب المعركة بلامبالاتها. ومع ذلك، وبعد عدّة أيّام، اقترب خوسِه سالغار من مكتبي بقلم البهلوان واقترح عليّ أن أذهب للتحقيق بما كان يحدث حقيقة في تشوكو. حاولت أن أمتنع بالقليل من السلطة التي أحرزتها من خلال تحقيق مدلين لكنّها لم تكفني لكلّ ذلك. صاح غيِّرمو كانو الذي كان يكتب خلفنا دون أن ينظر إلينا:

ـ اذهب، يا غابو، فنساء تشوكو أفضل من اللواتي كُنتَ تريد أن تراهن في هايتي!

وهكذا ذهبت دون أن أسأل حتى كيف يمكن الكتابة عن مظاهرة احتجاج ترفض العنف. رافقني المصوِّرُ غيِّرمو سانتشِثْ، الذي جلدني منذ أشهر بصخب أن نقوم معاً بعمل تحقيق حربيّ. ومن ضجري من كثرة ما سمعته، صرختُ به:

ـ أيّة حرب، ويحك!

ـ لا تكن وغداً، يا غابو ـ قذفني بالحقيقة دفعة واحدة ـ، فأنا أسمعك في كلِّ لحظة تقول إنّ هذا البلد في حرب منذ الاستقلال.

حضرَ فجرَ الثلاثاء، الحادي والعشرين من أيلول إلى قاعة التحرير بلباس محارب أكثر مما بلباس كاتب تحقيق صحفيّ، ومعه الكاميرا وأكياس معلقة إلى كلّ أنحاء جسمه كي نذهب لنُغطّي حرباً

مسكوت عنها. كانت المفاجأة الأولى أنّ تشوكو يتمّ الوصول إليها قبل الخروج من بوغوتا، من مطارٍ ثانوي، دون أيّ نوع من الخدمات بين حطام الشاحنات المستهلَكة والطائرات الصدئة. وكانت طائرتنا ما تزال موجودة بأعجوبة السحر، وهي من نوع كاتالينا الأسطورية، التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية، جهّزتها شركة مدَنَيّة للشحن. لم يكن فيها مقاعد، وكان داخلها خالياً ومظلماً بنوافذ صغيرة مغبشة، محملّة بالألياف لصناعة المكانس. كنّا المسافرين الوحيدين. علّمنا مساعد قبطان يرتدي قميصاً، وكان شاباً رشيقاً مثل طياري السينما، كيف نجلسُ على رزم الشحن التي بدت له أكثر راحة. لم يعرفني، لكنّني كنتُ أعلم أنّه لاعب بيسبول بارز في دوريّات ماتونا في كارتاخِنا.

جاء الإقلاع مرعباً، حتى بالنسبة لمسافر مُجَرَّب مثل غيِّرمو سانتشِثْ، بسبب جؤار المحركات المُضني وجلبة خردة الهيكل، لكن ما إن توازنت في سماء السهوب الصافية حتى انسابت بشجاعة مُحاربٍ محنّك. ومع ذلك فاجأنا بعد محطّة مدلين وابلٌ طوفاني فوق غابة مُتشابكة بين سلسلتين جبليتين، فاضطررنا أن ندخل فيه مواجهةً. وعندها عشنا ما لم يعشه إلا القليل من البشر. أمطرت في الطائرة ذاتها من خلال الثقوب الموجودة في الهيكل. جاءنا مساعد الطيار الصديق وهو يقفز فوق رزم المكانس بصحافة اليوم لنستخدمها كمظلاتٍ. غطيتُ أنا بصحيفتي حتى وجهي، لا لأحمي نفسي من الماء، وإنما للحيلولة دون أن يرونني أبكي من الرعب.

بعد ما يقارب الساعتين من الحظ والمصادفة مالت الطائرة نحو اليسار، وهبطت في وضعية الهجوم فوق غابة مكتظّة ودارت دورتي استكشاف فوق ساحة كيبْدو الرئيسية. غيِّرمو سانتشِثْ، المستعد لأن يلتقط من الجوِّ صوراً للمظاهرة المستنفدة من طول السهر، لم يجد غير الساحة مقفرة. دارت الطائرةُ البرمائية المفكّكة دورةً أخيرةً كي تتأكّد من أنّه لا يوجد عائق، حيّاً كان أو ميتاً، في نهر أتراتو الوديع، وقامت بالهبوط المائي السعيد في سبات الظهيرة.

كانت الكنيسة المرقّعة بألواح خشبية ومقاعد الإسمنت الملطخة ببقايا العصافير، والبغل الذي لا صاحب له، ويشدّ أغصان شجرة عملاقة، العلامة الوحيدة التي تدلّ على وجود بشري في الساحة المغبرّة والموحشة التي لا تشبه شيئاً آخر غير عاصمة أفريقية. كان هدفنا الأول هو التقاط الصور المستعجلة للحشد المنتصب على قدميه احتجاجاً، وإرسالها إلى بوغوتا في طائرة العودة، ريثما نلتقط المعلومات الكافية الأوّلية التي نستطيع أن نرسلها برقيّاً للطبعة الصباحية. لا شيء من هذا كان ممكناً، لأنّ شيئاً لم يحدث.

جبنا، دون شهود، الشارعَ الطويل الموازي للنهر، المحاط بالحوانيت المغلقة ساعةَ الغداء، والمساكن ذات الشرفات الخشبية والأسقف الصدئة. كان ديكور المسرح جاهزاً تنقصه المسرحية. زميلنا الطبيب بريمو غيرِّرا، مراسل «إلْ إسبِكتادور» كان ينام القيلولة في شبك نومه الربيعي غير مبالٍ تحت أغصان أشجار بيته المتشابكة، كأنّ الصمتَ الذي يحيط به صمتَ قبور. لم يكن بإمكان الصراحة التي وضّح لنا بها كسله أن تكون أكثر موضوعية. فبعد مظاهرات الأيّام الأولى راح التوتّر ينخفض نظراً لغياب الموضوعات. وعندئذٍ تمّ استنهاضُ البلدة كلها بتقنيات مسرحية، والتُقِطت بعضُ الصور التي لم تُنشَر، لأنّها لا تنطوي على كثير من المصداقية، وألقيت الخطبُ الوطنية التي هزّت البلدَ بالفعل، لكنّ الحكومةَ بقيت لا يُعكّر صفوها شيء. حافظ بريمو غيرِّرا على الاحتجاج حيّاً في الصحافة، من خلال البرقيات فقط، بمرونة أخلاقية لا بدّ أنّ الله نفسه غفرها له.

كانت مشكلتنا المهنيّة بسيطة: فنحن لم نقم بتلك المهمّة الطرزانية كي نعلم بأنّ لا وجود للخبر. بالمقابل كانت الوسائل متوافرة لدينا لتأكيد صحّتها ولتنفيذ الهدف. عرض بريمو غِرِّرا إعداد مظاهرة منقولة ولم تخطر لأحد فكرة أفضل. كان النقيب لويس أ. كانو، الحاكم الجديد المُعينّ على خلفية استقالة الحاكم السابق الغاضبة، مساعدنا الأكثر حماساً. وقد ملك من المروءة حدّ أنّه أخّر إقلاع الطائرة كي تستلم الصحيفةُ من غيِّرمو سانتْشِثْ

الصورَ طازجةً في الوقت المناسب. وهكذا كان أن أصبح الخبرُ المُختَرَع بدافع الحاجةِ، الخبرَ الصحيح الوحيد، وقد عظَّمته الصحافة والإذاعة في البلد كلّه، وأمسكت به الحكومة العسكرية لإنقاذ ماء الوجه. بدأ في تلك الليلة ذاتها استنفار عامٌ بين السياسيين التشوكويين ـ بعضهم له تأثير كبير في بعض قطاعات البلد ـ وأعلن الجنرال روخاس بينيّا بعد يومين، إلغاء قراره ذاته بتوزيع مزقِ تشوكو بين جيرانها. لم نعد أنا وغيِّرمو سانتشِثْ إلى بوغوتا فوراً، لأنّنا أقنعنا الصحيفةَ بأن تسمح لنا بأن نطوف في داخل تشوكو لنتعرّف على واقع ذلك العالم الخياليّ بعمق. حين دخلنا إلى قاعة التحرير، بعد عشرة أيّام من الصمت، وقد دبغتنا الشمسُ وكاد يهوي بنا النعاسُ، استقبلنا خوسِهْ سالغار سعيداً لكن ضمن حالته.

ـ هل تعلمان ـ سألنا بيقينه الذي لا يُهزَم ـ منذ متى انتهى خبر تشوكو؟

واجهني السؤال لأوّل مرّة بشرط الصحافة القاتل. وبالفعل لم يعد أحد يهتمّ بتشوكو منذ أُعلن القرارُ الرئاسي بعدم تقطيعها. ومع ذلك فإنّ خوسِهْ سالغار ساندني في مخاطرة طبخ ما يمكن طبخه من ذلك السمك الميت.

ما حاولنا أن ننقله في أربع حلقاتٍ طويلة، هو اكتشاف بلدٍ آخرَ غير متصوّر داخل كولومبيا، والذي لم يكن عندنا وعي به. وطنٍ ساحر من غابات مزهرة وطوفانات أبدية، حيث كلُّ شيء يبدو روايةً غير حقيقية عن الحياة اليومية. الصعوبة الكبيرة في بناء طريق برّي كانت تكمن في الأعداد الهائلة من الأنهار الجموحة، لكن أيضاً لم يكن هناك غير جسر واحدٍ في كلّ المنطقة. وجدنا طريقاً بطول خمس وسبعين كيلومتراً عبر الغابة العذراء شُيِّد بتكاليف باهظة لوصل سكان إتْشمينا بأهل يوتو، لكنّه لم يكن يمرّ بهذه ولا بتلك انتقاماً من المُقاول، للدعاوى التي أقامها ضدّه، عمدتا البلدتين.

طلب منّا عامِلُ البريد في إحدى القرى الداخلية أن نأخذ معنا بريدَ ستّةِ أشهر لزميلهِ في إتْشمينا. صندوق تبغ وطنيٍّ صغير كان

يُكَلّف هناك ثلاثين سنتيماً، كما في بقية البلد. لكن حين كانت تتأخّر طائرة التموين الأسبوعية يرتفع سعر التبغ مع كلّ يوم تأخير، حتى يجد السكان أنفسهم مجبرين على تدخين السجائر الأجنبية التي تصبح بالمحصلة أرخص من الوطنية. كان كيس الأرز يُكلِّف خمسة عشر بيزو أكثر من مكان الإنتاج، لأنّهم ينقلونه مسافة ثمانين كيلومتراً عبر الغابات العذراء على ظهر البغال، التي تتسلّق مثلَ القطط سفوح الجبال. كانت النساء في أكثر القرى فقراً ينخلن الذهب والبلاتين في الأنهار، بينما الرجال يصطادون الأسماك التي يبيعونها في نهايات الأسابيع إلى التجار الجوّالين، بثلاث بيزوات فقط عن كلّ اثنتي عشر سمكة، وأربعةِ غرامات من البلاتين.

كلُّ ذلك كان يحدث في مجتمعٍ مشهور بتلهّفه للدراسة. لكنَّ المدارس كانت نادرة ومبعثرة، وعلى الطلاب أن يقطعوا كلَّ يوم عدّةَ فراسخ سيراً على الأقدام، وفي الزوارق ذهاباً وإياباً. وكان بعض هذه المدارس يعجّ بالطلاب، حيث يُستخدم المكانُ الواحد أيام الاثنين والأربعاء والجمعة للذكور، والثلاثاء والخميس والسبت للإناث. وبحكم الواقع كانت الأكثر ديمقراطية في البلد، لأنّ ابن عاملة الغسيل، الذي لا يكاد يكون عنده ما يأكله، يذهب إلى مدرسة ابن العمدة ذاتها.

قليلون نحن الكولومبيين الذين كنّا نعرف آنئذٍ أنّه توجدُ في قلب أدغال تشوكو واحدة من أكثر المدن حداثة، وتُدعى أنداغويا، في منعطف نهري سان خوان وكوندوتو، وفيها نظام هاتفي تام، وأرصفة للبواخر والزوارق تعودُ ملكيتها للمدينة ذاتها، بشوارعها العريضة الجميلة والمُشجرة. كانت البيوت صغيرة ونظيفة وحولها وجائب فسيحة مسيّجة بالأسلاك، ولها أدراج خشبية ساحرة في المداخل تبدو مزروعة بين العشب. في وسط المدينة كازينو فيه كباريه ـ مطعم وبار تُقدم فيه المشروبات الكحولية المستوردة بسعر أقل من بقية البلد. كانت مدينة يقطنها أناس من كلّ أنحاء العالم، نسوا الحنين ويعيشون هناك أفضل مما في بلادهم تحت السلطة الأحادية للحاكم المحلي لتشوكو باثيفيكو. كانت أنداغويا في

الحياة الواقعية بلداً أجنبياً يقوم على الملكيات الخاصّة، التي تنهب مناكيشها الذهبَ والفضة من أنهارها ما قبل التاريخية وتنقلها في البواخر الخاصة، التي تخرج عبر فتحات نهر سان خوان إلى جهات العالم كلّه بلا رقابة من أحد.

تلك هي تشوكو التي أردنا أن نكشف عنها الستارَ للكولومبيين دون أيّة نتيجة. إذ ما إن مرَّ الخبر حتى عاد كلُّ شيءٍ إلى حاله، وبقيت المنطقة الأكثر نسياناً في البلد. أعتقدُ أنَّ السببَ واضح: كانت كولومبيا منذ الأبد بلداً كاريبيَّ الهويّة، مفتوحاً على العالم عبر حبل سرّته بنما. وقد حكم علينا القطع القسريّ أن نكون ما نحن عليه اليوم: بلداً أنديزي العقلية بالشروط المناسبة كيلا تكون القناة الواصلة بين المحيطين لنا، بل للولايات المتحدة.

كان من الممكنِ للإيقاع الأسبوعي للتحرير أن يكون قاتلاً، لولا أنّنا كنّا نجتمع في مساءات الجمعة بعد تحرّرنا من العمل، في بار فندق كونتينِنْتال، على الرصيف المقابل في لقاءات ترويح عن النفس عادة ما كانت تدوم حتى الفجر. وقد عمّد إدواردو ثالاميا تلك الليالي باسم مناسب: «أيام الجمعة الثقافية» التي شكّلت فرصتي الوحيدة للتحدث معه، كيلا يفوتني قطارُ جديدِ الأدبِ العالمي، الذي كان يتابعه بقدرته الخارقة على القراءة لحظةً بلحظة. الباقون الأحياء من أماسي السمر الكحولية اللامتناهية، والنهايات المفاجئة كنّا - إضافة إلى صديقين أو ثلاثة لأوليسِسْ - المحرّرين الذين لا يرهبنا أن نلوي عنق البجعة حتى الفجر.

دائماً لفت انتباهي أن ثالاميا لم يُبْدِ قط أيّة ملاحظ حول زواياي، رغم أنَّ كثيراً منها مُستلهم من زواياه. ومع ذلك وحين قامت «أيام الجمعة الثقافية» أطلق العنانَ لأفكاره حول هذا الجنس. اعترف لي أنّه لم يكن متفقاً مع آرائي في الكثير من زواياي، ويقترح عليَّ آراء أخرى، لكن ليس بنبرة رئيسٍ لتلميذه، بل بنبرة كاتبٍ لكاتب.

ملاذ آخر معتاد بعد عروض النادي السينمائي، هي سهرات منتصف الليل في شقّة لويس بيثِنْزْ وزوجته نانسي، على بعد عدّة

قصبات من «إلْ إسبِكتادور». هو المتعاون مع مارثِل كولين رِبال، رئيس تحرير مجلة «سينماتوغرافي فرانسيس» في باريس، كان قد بدّل أحلامه بالسينما بمهنة المكتبيِّ الجيّدة في كولومبيا، بسبب الحروب في أوروبا. كانت نانسي تتصرّف كمُضيفة ساحرة قادرة على أن تجعل غرفةَ طعامٍ مخصصةً لأربعةِ أشخاص تتسع لاثني عشر. تعارفا بعد زمن قصيرٍ من وصوله إلى بوغوتا في العام 1937، خلال حفل عشاء عائلي. لم يبقَ غير مكان واحد على المائدة بجانب نانسي، التي رأت مذعورةً المدعوَّ الأخير يدخل بشعر أبيض وبشرةٍ مُتَسَلِّقِ جبالٍ حمّصتها الشمس. «يا له من حظٍّ سيّئ! ـ قالت لنفسها ـ الآن حظّي أن يجلس بجانبي هذا البولونيّ، الذي لن يعرف حتى الأسبانية». أوشكت أن تُصيبَ بالنسبة إلى اللغة، لأن الواصل الجديد كان يتكلّم القشتالية بنبرة كتلانية خالصة، متقاطعة مع الفرنسية وكانت هي من بوياكا مغرورة وطليقة لسان. لكنّهما تفاهما منذ التحيّة الأولى بشكل ممتاز، حتى أنّهما قرّرا البقاء للعيش معاً للأبد.

كانت سهراتهما تُرتجل بعد العروض السينمائية الافتتاحية الكبيرة في شقّة مكتظّة بخليط من كلّ أنواع الفنون، حيث لم يكن هناك متسع للوحة واحدة للفنانين المبتدئين في كولومبيا، بعضهم سيصبح مشهوراً في العالم. كان ضيوفهما يُختارون من صفوة الفنانين والأدباء، وبين حين وآخر يظهر هناك أبناء مجموعة بارّانكيّا. دخلتُ أنا كمن يدخل إلى بيته منذ ظهور أوّل نقد لي عن السينما، وحين كنتُ أخرج من الصحيفة قبل منتصف الليل، أقطع القصبات الثلاث مشياً على الأقدام، وأجبرهم على السهر. كانت المُعلّمة نانسي، التي بالإضافة إلى أنّها طاهية رائعة، مزوِّجة لا تلين، ترتجل حفلات عشاء بريئة كي أدخل في علاقة مع فتياتٍ أكثر عالم الفن جاذبية وتحرّراً، ولم تغفر لي قط وأنا في الثامنة والعشرين من عمري أنَني قلتُ لها أنّ موهبتي الحقيقية ليست موهبة كاتب ولا صحفي، بل عازب لا يُغلَب.

أتمّ ألبارو موتيس، في أوقات الفراغ التي كانت تتبقى له من أسفاره العالمية، على أكمل وجه دخولي في الجماعة الثقافية. وكان

ينظّم بصفته رئيساً للعلاقات العامّة في شركة «إسّو الكولومبية» حفلاتِ غداء في أغلى المطاعم، وهو ما أفاده ومنحه وزناً في عالم الفنون والآداب، وأحياناً كثيرة مع مدعوّين من مدن أخرى في البلاد. الشاعر خورْخِه غايتان دوران، الذي كان مهووساً بإصدار مجلة أدبية تُكلّف مبالغ طائلة، حلّ الموضوع جزئياً من مخصصات ألبارو موتيس لدعم الثقافة. كان ألبارو كاستانيو كاستيّو وزوجته غلوريا بالنثيا يُحاولان منذ سنوات تأسيس إذاعة مكرّسة تماماً للموسيقى الجيّدة، ولجعل البرامج الثقافية في متناول اليد. جميعنا، باستثناء ألبارو موتيس، الذي عمل كلّ ما باستطاعته لمساعدتهما، كنّا نضحك منهما لعدم واقعية مشروعهما، وهكذا أسّسا إذاعة HJCK «العالم في بوغوتا»، ببثّ قدرته 500 وات، كان يشكّل الحدّ الأدنى في ذلك الوقت. لم يكن التلفزيون قد دخل إلى كولومبيا بعد، ومع ذلك اخترعت غلوريا بالِنثيا أعجوبة خارقة، وأخرجت برنامجاً إذاعياً لعرض الأزياء.

الراحة الوحيدة التي كانت تسمح لي بها أزمنة الضيق تلك، هي أماسي الآحاد في بيت ألبارو موتيس، الذي علّمني الاستماع إلى الموسيقى دون أحكام مسبقة على النوعية. كنّا نستلقي على السجادة ونستمع بالقلب إلى أعمال كبار الموسيقيين دون مضاربات معرفية. كان هذا أصل شغفٍ بدأ في القاعة الصغيرة الخفية في المكتبة الوطنية، ولم ننسها قط. اليوم سمعتُ من الموسيقى ما استطعت الحصول عليه، خاصّة موسيقى الحجرة الرومانسية، التي أعتبرها قمّة الفنون. لم أكن أملك في المكسيك وأنا أكتبُ «مئة عام من العزلة» ـ بين عامي 1965 و 1966 ـ غير أسطوانتين استهلكتا من كثرة ما استمعتُ إليهما: «استهلالات» لديبوسي و«يا لليلة ذلك اليوم» لفرقة البيتلز. بعدها وحين أصبح عندي في برشلونة منها ما يكاد يبلغ ما أردتُ دائماً أن يكون عندي بدا لي تصنيفها حسب الأحرف الأبجدية مفرطاً في التقليدية، فتبنيت من أجل راحتي الخاصة ترتيبها حسب الآلات: التشيللو، آلتي المفضّلة بدءاً من فيفالدي وحتى براهمز، الكمان من كوريّللي وحتى

شونبِرغ، وموتّرة المفاتيح(*) والبيانو من باخ وحتى بارتوك، إلى أن اكتشفتُ معجزة أنّ كلّ ما يُصوِّتُ موسيقى، بما في ذلك الصحون والملاعق والشوك في المجلى، ما دامت تقوم بوهم أنّها تدلّنا أين تمضي الحياة.

محدوديتي هي أنّني لم أكن أستطيع الكتابةَ مع الموسيقى، لأنّني أمنح ما أستمع إليه انتباهاً أكبر ممّا أكتبه، واليوم ما زلت لا أحضر إلاّ القليل من الحفلات الموسيقية، لأنّني أشعر أنّ نوعاً من الحميمية في المقعد يحدث ولا يتناسب مع وجود جيران غرباء. إلاّ أنّه ومع مرور الزمن، ووجود إمكانيات امتلاك موسيقى جيّدة في البيت تعلّمتُ أن أكتب بوجود خلفية موسيقية متناسبة مع ما أكتب. ليليات شوبّان للفصول الهادئة أو سداسيات براهمز للأماسي السعيدة. بالمقابل بقيتُ سنواتٍ طويلة لا أستمع إلى موزارت، منذ أن داهمتني الفكرة الفاسدة بأن موزارت غير موجود، لأنّ الجيدَ جيد حين يكون بيتهوفن والسيّئ سيئ حين يكون هايدن.

في السنوات التي أستحضرها في هذه المذكرات تمكّنت من تحقيق معجزةَ ألا يعيقني أيُّ نوعٍ من الموسيقى عن الكتابة، ربّما لستُ واعِياً لفضائل أخرى، فالمفاجأة الكبرى منحني إيّاها موسيقيان كتلانيان، يافعان وطموحان، اعتقدا أنّهما اكتشفا تماثلاتٍ مدهشة بين «خريف البطريرك»، روايتي السادسة و «كونشرتو البيانو الثالث» لِ بِلا بارتوك. صحيح أنّني كنتُ أستمع إليها دون رحمة وأنا أكتبها، لأنّها كانت تخلق لي حالة نفسية خاصّة جدّاً وغريبة قليلاً، لكنّني لم أفكّر قط أنّها يمكنها أن تؤثّر فيّ إلى حدّ أنّ تُلحظ في كتابتي. لا أدري كيف علم أعضاء الأكاديمية السويدية بنقطة ضعفي تلك، فوضعوها كخلفية أثناء تسليمي الجائزة. طبعاً شكرتهم من أعماق روحي، لكنّهم لو سألوني ـ مع كلّ امتناني واحترامي لهم ولِ بِلا بارتوك ـ لفضلتُ بعض المعزوفات

(*) Clave آلة موسيقية وتريّة،قديمة، مزوَّدة بلوحة مفاتيح تُعتبر الأصل الذي تطوّرت عنه آلة البيانو.

الطبيعية المنفردة التي كان يعزفها فرانسيسكو إل هومبرِ في حفلات طفولتي.

لم يكن يوجدُ في كولومبيا في تلك السنوات مشروعٌ ثقافيّ سيقام، ولا كتاب سيكتب، أو لوحة سترسم إلا ويمرّ بمكتب موتيس. كنتُ شاهِداً على حوارٍ بينه وبين رسامٍ شابٍّ كان كلّ شيء عنده جاهزاً للقيام برحلة بحرية ضرورية عبرً أوروبا، لكن تنقصه النقود للسفر. لم يكد ألبارو يسمع منه القصّة كاملة حتى أخرج من مكتبه محفظته السحرية.

ـ هي ذا التذكرة ـ قال له.

كنتُ أحضرُ مذهولاً الطبيعيةَ التي كان يقوم بها بهذه المعجزات، دون أدنى حدٍّ من استعراض القوّة. لذلك ما زلتُ أتساءل عما إذا لم يكن له دور بالطلب الذي عرضه علي أوسكار دِلغادو، أمين الجمعية الكولومبية للكتّاب والفنانين في حفلة كوكتيل، بأن أتقدَّم إلى المسابقة الوطنية للقصّة القصيرة، التي كان على وشك أن يُعلن إلغاؤها. قالها بطريقة كانت من السوء، حيث بدت لي غير لائقة، لكنَّ شخصاً سمعها وضَّح لي أنّه في بلدٍ كبلدنا لا يمكن لشخص أن يكون كاتباً ما لم يعلم أنّ المسابقات الأدبية مجرّد مسرحيات إيمائية اجتماعية. «حتى جائزة نوبل»، خلص دون أدنى خبث، واستنفرني منذ ذلك الوقت، حتى دون أن يُفكّر، لاتخاذ قرار آخر هائل اعترضني بعد سبعة وعشرين عاماً.

كانت لجنة تحكيم مسابقة القصّة القصيرة مؤلفة من هِرنادو تِيِّثْ وخوان لوثانو إي لوثانو، وبِدرو غومِثْ بالدِرّاما وثلاثة كتّاب ونقّاد آخرين من الجامعات الكبيرة. وهكذا لم أُقِم اعتبارات أخلاقية ولا اقتصادية، بل أمضيت ليلةً في التصحيح الأخير لِ «يوم بعد السبت»، القصّة التي كنتُ قد كتبتُها في بارانكيا بضربة إلهام في مكاتب «إلْ ناثيونال». وبعد استراحة دامت أكثر من عامٍ في الدرج بدت لي قادرة على أن تُلهِب لجنةَ تحكيم جيّدة. وهكذا كانً، وحصلت على جائزة فائقة التصور من ثلاثة آلاف بيزو.

في تلك الأيام ذاتها ودون أيّة علاقة بالجائزة، هبط عليّ في المكتب دون صامويِل ليزمان باوم، الملحق الثقافي في السفارة الإسرائيلية، الذي كان قد انتهى للتو من افتتاح مؤسسة للنشر بديوانٍ شعري للمعلّم ليون دِ غريف: «أوراق الدفتر الخامسة المبعثرة». كانت الطبعة مقبولة، والأخبار عن ليزمان باوم جيدة. وهكذا أعطيته نسخة مرقّعة جدّاً من «عاصفة الأوراق» وودّعته بسرعة، واعداً إيّاه بأن نتكلمّ لاحقاً. خاصّة عن النقود، التي هي في النهاية ـ وهذا هو الصحيح ـ الشيء الوحيد الذي لم نتكلّم عنه قط. رسمت ثِثيليا بورّاس لوحة غلاف حديث ـ أيضاً لم تستطع أن تقبض ثمنها ـ مستندة إلى وصفي لشخصية الطفل. قدّمت ورشة طباعة «إلْ إسبِكتادور» الغلاف الملوّن هديّةً.

لم أعد لأعرف شيئاً عن الأمر إلاّ بعد قرابة خمسة أشهر، حين هتفت دار نشر سيبّا في بوغوتا، التي لم أكن قد سمعت بها قط، إلى الصحيفة كي تقول لي إنّ طبعةً من أربعة آلاف نسخة جاهزة للتوزيع، لكنّهم لا يعرفون ما يفعلون بها، لأنّ أحداً لم يعد يعرف عن ليزمان باوم شيئاً. ولا حتى محرّروا التحقيقات في الصحيفة أنفسهم استطاعوا أن يعثروا على أثر له، ولم يعثر عليه أحد حتى شمس هذا اليوم. اقترح أوليسِس على المطبعة أن تبيع النسخ للمكتبات المعتمدة، من خلال حملة صحفية بدأها بنفسه بزاوية لم أستطع حتى اليوم شكره عليها. جاء النقد رائعاً، لكنّ القسم الأعظم من الطبعة بقي في المستودع، ولم يُحدّد قط كمية النسخ التي بيعت، كما لم أتلق من أحد سنتيماً واحداً مقابل حقوق المؤلف.

بعد أربع سنوات ضمّن إدواردو كابايّرو كالدِرون، الذي كان يدير مكتبة الثقافة الكولومبية الأساسية، «عاصفة الأوراق» في طبعة جيب لسلسلة من الأعمال المختارة بيعت على بسطات الشوارع في بوغوتا ومدنٍ أخرى. دفع الحقوق القليلة المتفق عليها، لكن بالموعد الدقيق، وكان لها بالنسبة إليّ قيمة عاطفية، لأنّها أوّل نقود أستلمها عن كتاب. حدثت بعض التغييرات في الطبعة آنذاك لم أعرف

ما إذا كنتُ قد قمتُ بها أنا نفسي، كما لم أهتمّ بأن تدخل في الطبعات التالية. بعد ثلاث عشرة سنة تقريباً حين مررت بكولومبيا بعد إطلاق «مئة عام من العزلة» في بوِينس أيرس، عثرتُ على البسطات في بوغوتا على عدد من النسخ الفائضة عن الطبعة الأولى من «عاصفة الأوراق»، بسعر بيزو واحد للنسخة. اشتريتُ ما استطعتُ حمله. منذ ذلك الوقت عثرتُ في مكتبات أمريكا اللاتينية على نسخ أخرى متفرقة كانوا يُحاولون بيعها ككتب قديمة. وقبل سنتين تقريباً باعت وكالةٌ إنكليزية للكتب القديمة نسخةً من الطبعة الأولى من «مئةِ عام من العزلة»، موقّعة من قبلي بثلاثة آلاف دولار.

ما من حالة من هذه الحالات ألهتني لحظةً واحدة عن عملي كصحفي. فالنجاحات الأوّلية للتحقيقات الصحفية المتسلسلة أجبرتنا على البحث عن عَلَفٍ لتغذية وحش ضار لا يشبع. كان التوتر اليوميّ لا يُحتمل، ليس فقط في تحديد المواضيع والبحث عنها، بل في مجرى الكتابة، المهدّدة دائماً بسحر التخيّل. لم يكن هناك شكّ في «إلْ إسبِكتادور»: المادّة الأولية للمهنة التي لا تتبدّل هي الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وكان هذا يبقينا في حالة من التوتر لا تُطاق. انتهينا أنا وخوسِهْ سالغار إلى حالة من الهوس، لم تسمح لنا بلحظة سلام واحدة، ولا حتى في استراحة أيّام الآحاد.

عُلِم في العام 1956 أنّ البابا بّيو الثاني عشر كان يعاني من نوبة فُواق يمكن أن تُكلّفه حياته. السابقة الوحيدة التي أتذكّرها هي قصّة (P and O) لسومرست موم، التي مات بطلها وسط المحيط الهندي بنوبة فواق قضت عليه في خمسة أيّام، رغم أنه كانت تصله من العالم كلّه كلّ أنواع الوصفات الغريبة، لكنّني أعتقد أنّني لم أكن أعرفها في تلك المرحلة. لم نكن نجرؤ، في نهايات الأسابيع، على الابتعاد كثيراً في رحلاتنا عبر قرى السهوب، نظراً لاستعداد الصحيفة لإصدار طبعة استثنائية في حال وفاة البابا. كنتُ من أنصار أن تكون الطبعة جاهزة مع ترك فراغات تُملأ مع أوّل الهواتف التي تنبئ بموته. بعد سنتين، وبينما كنتُ أعمل مراسِلاً في روما، كانوا ما يزالون ينتظرون نهاية الفواق البابوي.

مشكلة أخرى في الصحيفة كانت لا تُقاوَم هي نزعة الاهتمام المقتصر على الموضوعات المثيرة، التي يمكن أن تجرف في كلّ مرّة مزيداً من القرّاء، وأنا كنت أملك النزعة الأكثر تواضعاً، وهي ألا يغيب عن ناظري جمهور آخر أقل تخديماً، وأكثر ما يفكّر بقلبه. بين الموضوعات القليلة التي استطعت العثور عليها، ما زلت أحتفظ بذكرى التحقيق الأكثر بساطة الذي التقطته بلمح البصر عبر نافذة الحافلة. في بوابة بيت من الطراز الكولونيالي الجميل يحمل الرقم 567، في شارع كارِّرا أوكتابا في بوغوتا، كان هناك لافتة تزدري ذاتها: «مكتب مخلّفات البريد الوطني». لا أذكر أنّ شيئاً ضاع مني في تلك الثنايا، لكنّني نزلتُ من الحافلة الكهربائية وطرقت الباب. الرجل الذي فتحه لي كان مسؤول المكتب مع ستة موظفين منهجيين، يعلوهم صدأُ الروتين، مهمتهم الرومانسية هي العثور على صاحب أيّة رسالة غير واضحة العنوان.

كان بيتاً جميلاً، ضخماً ومغبراً، عالي السقوف، متآكل الجدران، مظلم الممرات، تملأ أروقته أوراق لا أصحاب لها. من بين كلّ مئة رسالة متبقية تدخل كلّ يوم، كان هناك على الأقل عشر رسائل وضعت عليها طوابعها بشكل صحيح، لكنّ أغلفتها بيضاء لا تحمل حتى اسم المرسِل. كان موظفو المكتب يُعَرِّفونها بِـ «رسائل إلى الرجل الخفيّ» ولم يكونوا يألون جهداً في تسليمها أو إعادتها. لكن طقسَ فتحها بحثاً عن أثرٍ كان ذا صرامة بيروقراطية أقرب إلى العبث، إلاّ أنّه يستحق التقدير.

نُشِر التحقيق عن تسليم رسالة واحدة بعنوان «ساعي البريد يقرع الباب ألف مرّة» وعنوان فرعي: «مقبرة الرسائل الضائعة». حين قرأه سالغار قال لي: «هذه البجعة يجب عدم لوي عنقها، لأنّها وُلِدت ميتة». نشره على المساحة الضرورية، لا أكثر ولا أقل، لكن لوحظ عليه من حركته أنّه كان مثلي متألماً جدّاً من مرارة ما كان يمكن أن يكون عليه التحقيق. احتفل روخِليو إتشبِرّيّا به بمزاج رائق، ربّما لأنّه شاعر، لكن بجملة لم أنسها قط: «المسألة أنّ غابو يتمسّك حتى بمسمار ساخن».

شعرت بإحباط إلى حدّ أنّني قرّرت بنفسي وعلى مسؤوليتي - دون أن أخبر سالغار بذلك - العثور على صاحب رسالة استحقّت مني اهتماماً خاصّاً. مرسلة من مستشفى مجانين أغواس دِ ديوس وموجَّهة إلى «سيّدة الحداد التي تذهب كلّ يوم إلى قدّاس الساعة الخامسة في كنيسة لاس أغواس». وبعد القيامً بكلّ التحريات غير المجدية مع القسيس ومساعديه، تابعت مقابلة مؤمني الساعة الخامسة طوال عدّة أسابيع دون أيّة نتيجة. لفت انتباهي أن أكثرهنّ مواظبة كنّ ثلاث عجائز طاعنات جدّاً في السن، يرتدين دائماً لباس الحداد التام، لكن ما من واحدة لها علاقة بمستشفى مجانين لاس أغواس دِ ديوس. كان فشلاً تأخّرت في الخروج منه، ليس بسبب حبّي لذاتي وحسب ولا بسبب عمل إحسان، بل لأنّني كنتُ واثقاً من أنّ وراء قصّة امرأة الحِداد تلك توجد قصّة أخرى مشوِّقة.

وكلّما غصتُ أكثر في مستنقعات التحقيق راحت علاقتي بمجموعة بارّانكيّا تزداد عمقاً. لم تكن أسفارهم إلى بوغوتا كثيرة، لكنّني كنتُ أهجم عليهم بالهاتف في أيّة ساعة، وعند أيّ مأزقٍ، وخاصّة على خِرمان بارغاس، نظراً لمفهومه التربوي للتحقيق الصحفي؛ أستشيرهم في كلّ مأزق، وكانت كثيرة، أو يهتفون هم لي حين يكون هناك دافع لتهنئتي بشيء. بقي ألبارو ثِبِّدا بالنسبة إليّ دائماً زميلَ المقعد المجاور. وكان بعد السخريات الحميمة في الرواح والغدو، التي لا يُستغنى عنها أبداً عند المجموعة، يُخرجني من المستنقع ببساطة أدهشتني دائماً. بالمقابل كانت استشاراتي لألفونسو فوِنْمايور أدبية أكثر من أيّ شيء آخر. كان يملك السحر الصائب لإنقاذي من الضائقات بأمثلة من كبار المؤلفين، أو ليملي عليّ قولاً منقذاً مستخرجاً من خزّانه الذي لا قاع له. مزحته المبهرة جاءت حين طلبتُ منه عنواناً لزاويةٍ عن باعة أطعمة البسطات الذين تلاحقهم السلطات الصحية. أطلق ألفونسو جواباً فورياً:

- من يبيع الطعام لا يموت من الجوع.

شكرته من أعماق روحي، وبدا لي مناسباً إلى حدّ أنّني لم

أستطع مقاومة إغواء سؤاله من قائله. جمّدني ألفونسو بالحقيقة التي لم أكن أتذكّرها:

ـ لك، يا معلّم.

وبالفعل كنتُ قد ارتجلتُها في زاوية لا تحمل توقيعاً، لكنّني نسيتُها. دارت الحكاية لسنوات بين أصدقاء بارّانكيّا، الذين لم أستطع قط إقناعهم بأنّها لم تكن مزحة.

أسلتني رحلة عرضية لألبارو ثِبِّدا، عنبر الأخبار اليومية، لعدّة أيام. وصل بفكرة أن يصنع فيلماً لم يكن عنده منه غير العنوان: «جرادة البحر الزرقاء» وكان خطأً أكيداً، لأنّ لويس بيثنز وإنريكِهْ غراو والمصوِّر نِريو لوبِّثْ قد أخذوا الأمر مأخذ الجد. ولم اسمع بعدها عن المشروع شيئاً إلى أن أرسل بيثِنزْ إليّ مسودّةَ السيناريو كي أضيف من جانبي شيئاً إلى الأساس الأصلي الذي وضعه ألبارو. وهو ما لا أتذكّره اليوم، لكن القصّة بدت لي مسلية وفيها من الجنون جرعة كافية كي تبدو من أفكارنا.

جميعنا عملنا قليلاً من كلّ شيء. لكنّ الأب بحكم الحق الخاص كان لويس بيثِنزْ، الذي فرض كثيراً من الأشياء التي بقيت عنده من خطواته الأولى في باريس. مشكلتي أنّني كنت في معمعة أحد تلك التحقيقات الصحفية المطوّلة التي لا تترك لي وقتاً كي أتنفَّس، وحين تمكّنت من التحرّر كان الفيلم في أوج تصويره في بارّانكيّا.

إنّه عمل أوّلي، ميّزته الكبرى تبدو في السيطرة على الحدس، الذي ربّما كان طائرَ سعد ألبارو ثِبِّدا. في واحدٍ من عروضه الافتتاحية المنزلية في بارّانكيّا، بحضور المخرج الإيطالي إنريكو فولتشيغنوني، الذي أدهشنا بمدى تعاطفه: بدا له الفيلم ممتازاً. وبفضل مثابرة وإقدام تيتا مانوتاس، زوجة ألبارو، جعلها ما تبقّى من «جرادة البحر الزرقاء» تطوف العالم في مهرجانات جريئة.

ألهتنا هذه الأشياء بين الفينة والأخرى عن واقعِ البلد، الذي كان مرعباً. كانت كولومبيا تعتبر خاليةً من رجال حربِ العصابات منذ أن استولت القوات المسلحة على السلطة تحت راية السلام

والوئام بين الأحزاب. لم يشكّ أحد بأنّ شيئاً قد تبدّل، إلى أن وقعت مذبحة الطلاب في شارع كارّرا سِبتيما. العسكر المتعطشون للذرائع أرادوا أن يبرهنوا لنا، نحن الصحفيين، على وجود حربٍ مختلفة عن الحرب الأبدية بين الليبراليين والمحافظين. كنّا في هذه الأجواء حين اقترب خوسِهْ سالغار من مكتبي بواحدة من أفكاره المرعبة:

ـ حضِّر نفسك لتتعرّف على الحرب.

كنّا نحن المدعوّين لمعرفتها، دون تفاصيل كبيرة، دقيقين بالوصول في الخامسة فجراً للذهاب إلى بلدة بيّارّيكا، على بعد مئة وثلاثة ثمانين كيلومتراً عن بوغوتا. كان الجنرال روخاس بينيّا رهن زيارتنا في منتصف الطريق، في إحدى استراحاته المعتادة في قاعدة مِلغار العسكرية، وكان قد وعد بمؤتمر صحفي قبل الخامسة مساءً، مع وجود فائض من الوقت للعودة بالصور والأخبار الطازجة.

المُرسَلون من «إلْ تييمبّو» هم راميرو أنْدرادِ والمصوّر خِرمان كايْثِدو، وأربعة آخرون لم أستطِع تذكّرهم ودانييل رودريغِثْ وأنا من «إلْ إسبِكتادور». ارتدى بعضهم الثياب الميدانية، فقد نُبِّهنا إلى إمكانية التقدّم بعض الخطوات في الغابة.

ذهبنا بالباص حتى مِلغار، ثمّ توزّعنا على ثلاث مروحياتٍ، حملتنا عبر مضيق ضيِّقٍ وموحِشٍ في سلسلة الجبال الوسطى بقممها المسنّنة والمرتفعة. أكثر ما أدهشني هو توتّر الطيارين، الذين راحوا يتفادون بعضَ المناطق التي أسقط فيها رجالُ حرب العصابات مروحيّةً، وعطّلوا أخرى في اليوم السابق. هبطنا بعد خمس عشرة دقيقة طويلة في ساحة بيّارّيكا الهائلة والمدمّرة، بأرضيتها التي كانت من النطرون، ولا تبدو من التماسك بحيث تتحمّل وزن المروحية. كانت تُحيط بالساحة بيوتٌ خشبية وحوانيت خربة ومساكن ليس فيها أحد، باستثناء بيت واحد طُلي للتوّ بقي فندقاً للمدينة حتى حلَّ الرعب.

مقابل الطائرة كانت تُلمح الجبالُ المتفرعة من السلسلة وسقف توتياء البيت الوحيد الذي لا يكاد يُلمح في ضباب السفوح. هناك كان رجالُ حرب العصابات حسب ما روى الضابط الذي رافقنا، ومعهم من الأسلحة القوية ما يكفي كي يردوننا قتلى، ولذلك علينا أن نركض حتى الفندق بخطٍّ منكسر، مُنحنيي الجذوع احتساباً أوّلياً لرمايات محتملة من الجبال. ولم ننتبه إلى أنّ الفندق تحوّل إلى ثكنة حتى وصلنا إلى هناك.

وضّح لنا كولونيل مزود بمعداته الحربيّة، له رشاقة فنان سينمائي وظرافة نبيهة، دون خوف، أنّ طلائعَ رجال حرب العصابات موجودون في بيت الجبل منذ عدّة أسابيع، وقاموا بعدة غارات ليلية على البلدة. كان الجيش واثقاً من أنّهم سيحاولون فعل شيء حين يرون المروحيات في الساحة، لكنّ القوّات جاهزة. ومع ذلك، وبعد ساعة من التحرشات، بل ومن التحديات بمكبرات الصوت، لم يُظهر رجالُ حرب العصابات علامة تدلّ على وجودهم. أرسل الكولونيل يائساً دوريةَ استكشافٍ ليتأكّد من أنّه ما زال في البيت أحياء. خفّ التوتّر. خرجنا نحن الصحفيين من الفندق، وسَبَرْنا الشوارعَ المجاورة، بما فيها أقلّها حراسة حول الساحة. شرعنا أنا والمصوِّر ومعنا آخرون بصعود الجبل عبر سفح متعرِّج على شكل نعل دابة. كان في المنعطف الأوّل جنودٌ مستلقون بين العشبِ في وضعية الرماية. نصحنا ضابطٌ بالعودةِ إلى الساحةِ فمن المحتمل أن يحدث أيّ شيء، لكنّنا لم نوله أذناً صاغية. كان هدفنا الصعود حتى نلتقي بطلائع رجال حرب العصابات وينقذوا يومنا بخبر عظيم. لم يكن هناك وقت. فسرعان ما سمعنا عدّة أوامر متزامنة تلتها رشقة نيران كثيفة من العسكريين. ارتمينا منبطحين بجانب الجنود، وفتح هؤلاء النيران على بيت السفح. أثناء البلبلة أضعت عن ناظري رودريغث، الذي جرى بحثاً عن موضع استراتيجي لآلة تصويره المزوّدة بمقرّب. كان التراشق قصيراً، لكنّه كثيف جدّاً حلّ محلّه صمتٌ قاتل.

كنّا قد عدنا إلى الساحة حين استطعنا أن نرى دوريةً عسكريةً

تخرج من الغابة تحمل جسداً على نقّالة. لم يسمح قائد الدورية، المنفعل، بالتقاط الصور. بحثت بنظري عن رودريغِث فرأيته يظهر على بعد خمسة أمتار على يميني بكاميرته الجاهزة للالتقاط الصور. لم تره الدورية. عندها عشت لحظة في غاية الحرج، متردّداً بين أن أصيح به ألاّ يلتقط الصورة خوفاً من أن يُطلقوا عليه النار، وبين الغريزة المهنية بتركه يلتقطها مهما كان الثمن. لم أملك الوقت لذلك، فسرعان ما سُمِعَ صياحُ قائد الدورية الصاعق:

ـ لن تُلتَقَط هذه الصورة.

أنزل رودريغِث الكاميرا دون سرعة واقترب مني. مرَّ الموكب قريباً منّا، إلى حدٍّ أنّنا شعرنا بعصفةٍ حامضة من الأجسام الحيّة وصمت الميت. ما إن عبروا حتى قال لي رودريغِث هامساً في أذني:

ـ التقطتُ الصورة.

وكان ذلك. لكنّها لم تُنشر قط؛ والدعوة انتهت بكارثة. وقع جريحان آخران من الجيش، وقُتل رجلا حرب عصابات على الأقل جُرّا حتى الملجأ. بدَّل الكولونيل حماسَه بتعبير حزين. وأعطانا الخبر البسيط بأنّ الزيارة قد ألغيت، وأنّ أمامنا نصف ساعة لتناول الغداء والسفر بعدها فوراً عبر الطريق البرّي إلى مِلْغار، لأنّ المروحيات محجوزة للجرحى والجثث. ولم يُكشف قط عن عدد هؤلاء ولا أولئك.

لم يذكر أحد بعدها مؤتمر روخاس بّينيّا الصحفي. مررنا عبوراً أمام بيته في مِلْغار في سيارة جيب لستة ركاب، ووصلنا إلى بوغوتا بعد منتصف الليل. كانت هيئة التحرير تنتظرنا بكامل طاقمها، فقد أخبروهم من مكتب الإعلام والصحافة في رئاسة الجمهورية بأنّنا سنصل برّاً، لكنّهم لم يُحَدّدوا ما إذا كنّا أحياءً أو أمواتاً.

التدخل الوحيد للرقابة العسكرية جاء على موت الطلاب وسطَ بوغوتا. لم يوجد رقيب في التحرير، بعد أن استقال الرقيبُ الأخير للحكومة السابقة والدمعُ يكاد يطفر من عينيه، حين لم يستطع تحمّل

بواكير الأخبار المزيفة وحركات المحررين الساخرة. كنّا نعلم أنّنا لا نغيب عن ناظر مكتب الإعلام والصحافة، وكثيراً ما أرسلوا إلينا تحذيرات ونصائح أبوية بالهاتف. العسكر الذين أبدوا في بداية حكومتهم وداً أكاديمياً للصحافة، تحوّلوا إلى لا مرئيين أو كتومين. ومع ذلك فخيط فالتّ راح ينمو لوحده، وبصمت أوحى باليقين الذي لم يؤكَّد أو يُكذَّب قط، وهو أنّ قائد تلك البؤرة من رجال عصابات توليما فتى في الثانية والعشرين من عمره، لم أستطع أن أؤكِّد أو أنفي أسمه: مانوِل مارولاندو بِلِثْ أو بِدرو أنطونيو مارين، تيروفيخو(*). بعد نيِّف وأربعين سنة أجاب مارولاندو ـ عندما سُئل عن هذه المعلومة في معسكر حربه ـ أنّه لا يتذكّر ما إذا كان في الحقيقة هو نفسه.

لم يكن ممكناً الحصول على خبر آخر. كنتُ أمضي منذ أن عدتُ من بيّارِّيكا، متلهفاً للكشف عنه، لكنّني لم أعثر على مدخل لذلك. كان مكتب الأعلام والصحافة الرئاسي محظوراً علينا، وحادثة بيّارِّيكا البغيضة بقيت طيَّ الكتمان العسكري. كنتُ قد رميت بالأمل في سلّة المهملات، حين انتصب خوسِهْ سالغار أمام مكتبي متظاهراً بالدم البارد الذي لم يملكه قط، وأراني برقية تلقاها للتو.

ـ هو ذا هنا ما لم تره أنتَ في بيّارِّيكا ـ قال لي.

كانت مأساة حشدٍ من الأطفال، أخرجتهم القواتُ المسلحة من قراهم ودروبهم بلا خطّة مسبقة ولا إمكانيات، لتسهيل حرب الإبادة ضدّ رجال حرب عصاباتِ توليما. وقد فصلوهم عن آبائهم دون مهلة لمعرفة من هو ابن من، وكثيرون منهم لا يعرفون قول ذلك. بدأت المأساةُ بتَيّارٍ من مئتي راشدٍ مقادين إلى قرى مختلفة من توليما، بعد زيارتنا إلى مِلْغار، وُضِعوا فيها بأيّة طريقة، ثم تُرِكوا لرحمة الله. بلغ عددُ الأطفال الذين فصلوا عن آبائهم لاعتبارات عملياتية محضة، ووُزِّعوا على عدّة ملاجئ في البلد، قرابةَ ثلاثة آلاف من مختلف الأعمار والظروف. ثلاثون منهم فقط كانوا أيتامَ

(*) لقب يعني الرمية الثابتة.

الآباء والأمهات، وبين هؤلاء توأمان لم يمضِ علي ولادتهما إلاّ ثلاثة عشر يوماً. تمّ التغيير بصمت مطلق، في ظلّ الرقابةِ على الصحافة إلى أن أبرقَ إلينا مراسل «إلْ إسبِكتادور» من أمْبالِما، على بعد مئتي كيلومتر عن بيّارِّيكا، بالتصورات الأولى.

عثرنا خلال ستّ ساعات على ثلاثمئة طفل دون الخامسة في ملجأ أطفالِ بوغوتا، كثيرون منهم دون نَسَبٍ. هِلي رودريغِثْ، ابن السنتين، لم يكد يتمكّن من تهجية اسمه. ماكانٍ يعرف شيئاً من شيء ولا أين هو، ولا لماذا، ولا يعرف حتى اسمي والديه، ولم يستطع أن يُعطي أيّة معلومة للعثور عليهما. العزاء الوحيد هو أنّه كان يملك الحقّ بالبقاء في الملجأ حتى الرابعة عشر من عمره. تُزوِّدُ ميزانية مأوى الأيتام بثمانين سنتيماً شهرياً منحةً من حكومة المنطقة عن كلّ طفل. هرب عشرة منهم في الأسبوع الأوّل، بهدف التسلّل إلى قطارات توليما، ولم نستطع أن نعثر لهم على أثر.

كثيرون منهم عُمِّدوا تعميداً إدارياً في المأوى بِكِنىً من المنطقة ليتمكنوا من تمييزهم، لكنّهم بلغوا من الكثرة والتشابه وكثرة الحركة، بحيث لم يعودوا يُمَيَّزون في الاستراحة، خاصّة في الشهور الأكثر برودة، حين كانوا يُضطرون لأنّ يُحمّوا أنفسهم بالجري في الممرات وعلى الأدراج.

نُشرت قصّةُ تلك الحماقة العملياتية (اللوجستية) في عدة حلقاتٍ عدة متتالية دون استشارة أحد. التزمت الرقابة الصمتَ، والعسكر ردّوا بالتوضيح الدارج: أحداثُ بيّارِّيكا جزءٌ من تحرّكٍ شيوعي واسعٍ ضدّ حكومة القوات المسلحة، التي وجدت نفسها مجبرة على التصرّف بطرق عسكرية. كفاني سطر من ذلك الإعلان كي تدخل في رأسي فكرة الحصول على معلومات مباشرة من خيلبِرتو بييرا، الأمين العام للحزب الشيوعي، الذي لم أره قط.

لا أتذكّرُ ما إذا قمتُ بالخطوة التالية بتفويض من الصحيفة أو بمبادرة شخصية منّي، لكنّني أتذكّر جيّداً أنّني قمتُ بعدّة تحرّكات عبثية للاتصال بقائدٍ من قادة الحزب الشيوعي السرّي، يستطيع أن

يضعني في صورة الوضع في بيّارّيكا. المشكلة الرئيسية أنّ حصار النظام العسكري على الشيوعيين السريين لم يسبق له مثيل. عندئذٍ اتصلتُ بأحد أصدقائي الشيوعيين فظهر، بعد يومين أمام مكتبي، بائعُ ساعات آخر راح يبحث عنّي ليقبض مني القسط الذي لم أستطع دفعه له في بارّانكيّا. دفعتُ له ما استطعت دفعه، وقلت له كما لو سهواً كيف أنّني كنتُ بحاجة ملحّة للكلام مع أحدِ قادته الكبار، لكنّه أجابني بالصيغة المعروفة أنّه ليس هو السبيل إلى ذلك، كما لا يعرف من هو كي يقول لي. ومع ذلك فاجأني في مساء ذلك اليوم ذاته على الهاتف صوت متناغم ولا مبال دون سابق إعلام.

- مرحباً، يا غابرييل، أنا خيلبِرتو بيّيرا.

رغم أنّ بِييرا كان أبرز مؤسِّسي الحزب الشيوعي، إلاّ أنّه لم يكن قد تعرّض في حياته كلّها، حتى ذلك الحين، إلى أيّة لحظة نفي أو سجن. ومع ذلك ورغم خطر أنّ يكون كلا الهاتِفَين مراقَبَيْن، أعطاني عنوان بيته السرّي لأزوره في مساء ذلك اليوم ذاته.

كانت شقّة فيها قاعة صغيرة مليئة بالكتب السياسية والأدبية، وغرفتا نوم في طابق سادس ذي درج شديد الانحدار ومظلم، يصل إليه المرء منقطعَ النفس، ليس بسبب ارتفاعه وحسب، بل بسبب الشعور بالدخول في أحد ألغاز البلد الأفضل حراسة. كان بييرا يعيش مع زوجته ثِثيليا وابنة حديثة الولادة. وبما أنّ الزوجة لم تكن في البيت، أبقى على مهد الطفلة قريباً منه، يهدهدها ببطء حين كانت تنفجر بالبكاء في فترات التوقف الطويلة جدّاً عن الحوار، الذي تناول السياسة كما الأدب، وإن كان خالٍ إلى حدّ كبيرٍ من روحِ الدعابة. كان من المحال تصوّر أنّ ذلك الأربعيني، الورديّ اللونَ والأصلع، صافي زرقة العينين الحادّتين، الطلق والدقيق اللسان، أكثر رجل مطلوب من أجهزة الأمن السّري في البلد.

بداية انتبهت إلى أنّه مُطلعٌ على مجريات حياتي، منذ أن اشتريت الساعةَ في صحيفة «إلْ ناثيونال» في بارّانكيّا. يقرأ تحقيقاتي في «إلْ إسبِكتادور» ويميّز زواياي غير المزيّلة في محاولة لتفسير مقاصدها الباطنية. ومع ذلك، كان موافقاً على أنّ أفضل خدمة

يمكنني أن أقدّمها للبلد، هي في هذا الخطّ، دون أن أسمح لنفسي بالالتزام بأيّ نوع من الاصطفافات السياسية.

ما إن سنحت لي الفرصةُ لأكشف له عن سبب زيارتي حتى دخل في الموضوع. كان مطلعاً على الوضع في بيّارِّيك كأنّه هناك، والذي لم نستطع أن ننشر عنه حرفاً واحداً بسبب الرقابة الرسمية. ومع ذلك قدّم لي معلوماتٍ مهمّةً كي أفهم أنّ ذلك كان مدخلاً لحرب مُزمنة بعد نصف قرن من المناوشات العرضية. كانت لغته في ذلك اليوم، وذلك المكان، تحتوي على عناصر من لغة خورخِه إليثر غايتان، أكثر مما تتضمن من لغة ماركس، مرجعه الأساسي، التوصل إلى حلٍّ لا يبدو أنّه وصول البروليتاريا إلى السلطة، بل نوعاً من تحالف المُستَضعَفين ضدّ الطبقات المسيطرة. نجاح تلك الزيارة لم يكن في توضيح ما كان يحدث وحسب، بل في أنّها نهجٌ لفهم هذا الذي كان يحدث بشكلٍ أفضل. هكذا أوضحت الأمر لغيِّرمو كانو وثالاميا، وتركتُ البابَ نصف مفتوحٍ، عسى أن أرى طرف التحقيق غير المنتهي يظهر. من نافل القول، انّنا أقمنا أنا وبيبيرا، علاقة صداقة ممتازة سهّلت علينا تواصلنا، حتى في أقسى مراحل تخفّيه.

مأساة أناس بالغين أخرى راحت تتفاقم خفية، حتى كسرت الأخبارُ السيئةُ الحصارَ في شباط من العام 1954، حين نشرت الصحافة أنّ محارباً قديماً في كوريا، رهن أوسمتَه كي يأكل. كان مجرّد واحد من أكثر من أربعة آلاف سبق وجُنّدوا عن طريق المصادفة في لحظة أخرى من اللحظات التي لا يمكن تصوّرها في تاريخنا، حين كان أيّ مصير أفضل من لا شيء بالنسبة إلى الفلاحين الذين طردهم العنفُ الرسمي بالرصاص من أراضيهم. لم تكن المدن الغاصّة بالمهاجرين تقدّم لهم أيّ أمل. فكولومبيا، وكما تردّد يوميّاً في زوايا الرأي في الصحف، في الشارع والمقاهي والأحاديث العائلية، كانت بلداً لا يُعاش فيه. كانت الحرب الكورية بالنسبة إلى الكثير من الفلاحين المهجرين، وكثير من الفتية الذين لا مستقبل لهم، حلاً شخصياً. إلى هناك ذهب ما هبّ ودب، خليط بلا تمحيص دقيق، وما كادوا يتوقّفون عند الحالة الجسدية، تقريباً كما

جاء الأسبان لاكتشاف أمريكا. حين عادت هذه المجموعة، غير المتجانسة، قطرة فقطرة، إلى كولومبيا، صار لها علامة مميزة مشتركة: «المحاربون القدماء». كفى أن يتزعّم بعضهم مشاجرة ما كي تقع المسؤولية على الجميع. أُغلِقت الأبوابُ في وجوههم بالذريعة السهلة القائلة، بأنّه ليس لهم حق بالوظيفة، لأنّهم غير متوازنين عقلياً. بالمقابل لم يكن هناك ما يكفي من الدموع بالنسبة إلى الذين لا يُحصى عددهم، وعادوا متحولين إلى ألفي رطل من الرفاة.

برهن خبرُ الذي رهن أوسمته عن التناقض المريع مع خبر آخر نُشِر قبل عشرة أشهر، حين عاد المحاربون القدماء إلى البلد ومعهم ما يقارب المليون دولار نقداً، التي حين بُدِّلت في المصارف، جعلوا سعر صرف الدولار في كولومبيا يهبط من ثلاثة بيزوات وثلاثين سنتيماً إلى بيزوين وتسعين سنتيماً. ومع ذلك، فقد راحت مكانتهم تنخفض كلما واجهوا الواقع في بلدهم. نُشِرت قبل عودتهم روايات متفرّقة تقول أنّهم سيتلقون منحاً خاصّة لدراسة المهن الإنتاجية، وأنّهم سيتلقون تقاعداً مدى الحياة، وتسهيلات للبقاء للعيش في الولايات المتحدة. جاءت الحقيقة عكس ذلك: فقد سُرّحوا بعد وصولهم بقليل من الجيش، والشيء الوحيد الذي بقي في جيوب الكثيرين منهم، هو صور الخطيبات اليابانيّات اللواتي بقين ينتظرنهم في معسكرات اليابان، التي كانوا ينقلونهم إليها ليستريحوا من الحرب.

كان من المحال ألاّ تُذَكّرني تلك المأساة الوطنية بمأساة جدّي الكولونيل ماركيز، في انتظاره الأبدي لمعاش المحارب القديم التقاعدي. وصل بي الأمر أن فكّرتُ أنّ ذلك الشقاء جاء انتقاماً من كولونيل متمرِّد في حرب ضارية ضدّ هيمنة المُحافِظين. بالمقابل حارب الباقون الأحياء من حرب كوريا ضدّ القضية الشيوعية، ولصالح المطامع الإمبريالية للولايات المتحدة. ومع ذلك لم تظهر أسماؤهم حين عادوا في الصفحات الاجتماعية، بل في صفحة الجرائم، فواحد منهم قتل بالرصاص شخصين بريئين، وسأل

قضاتَهُ: «إذا كنتُ قد قتلتُ في كوريا مئة، فلماذا لا أستطيع أن أقتل عشرة في بوغوتا؟».

هذا الرجل، مثله مثل مجرمين آخرين، كان قد وصل إلى الحرب بعد توقيع الهدنة. ومع ذلك، كثيرون منهم راحوا أيضاً ضحيّة العقلية الذكورية الكولومبية، التي تبدّت في غنيمة قتل محاربٍ قديم في كوريا. لم يمضِ على عودة أوّل محارِبٍ ثلاثة أعوامٍ حتى تجاوز عدد ضحايا القتل العنيف اثني عشر قتيلاً. لأسباب مُختلفة قُتل عدد منهم في مشاجرات عبثية بعد قليل من عودتهم. فأحدهم قُتِل طعناً في مشاجرة، لأنّه كرَّر أغنية في حاكي حانة. الرقيب كانتور، الذيّ شرّف أسمَه مغنّياً وعازفاً على القيثار في استراحات الحرب، قُتِلَ رمياً بالرصاص بعد أسابيع من عودته. محارب آخر طُعِن أيضاً في بوغوتا، ولمواراته التراب اضطروا لتنظيم حملة تبرعات بين الجيران. وقتل ثلاثة مجهولون، لم يُلق عليهم القبض قط، أنخِل فابيو غوِسْ، الذي فقد عيناً ويداً في الحرب.

أتذكَّرُ ـ كما لو أنّ ذلك حدث البارحة ـ أنّني كنتُ أكتبُ الحلقةَ الأخير من السلسلة، حين رنَّ الهاتف على مكتبي، وتعرّفت مباشرة على صوت مارتينا فونسِكا المتألّق.

ـ آلو؟

تركتُ المقال من منتصف الصفحة بسبب خفق قلبي، وعبرتُ الشارع العريض لألتقي بها في فندق كونتينِنْتال، بعد اثني عشر عاماً من عدم رؤيتها. لم يسهل عليَّ تمييزها من الباب بين النساء الأخريات اللواتي كنّ يتناولن الغداء في المطعم المكتظّ، حتى لوّحت لي بقفّازها. كانت ترتدي حسب ذوقها دائماً، معطفاً من جلد الأيل، وتضع جلد ثعلب على كتفها وتعتمر قبّعة صيد، وقد بدأت السنون تظهر كثيراً على بشرتها الخوخية التي آذتها الشمس وعينيها المطفأتين، فقد انكمشت بكاملها بفعل علامات الشيخوخة الظالمة. لا بدّ أن كلانا انتبه إلى أن اثني عشر عاماً شيءٌ كثير بالنسبة إلى عمرها، لكنّنا تحملناها جيّداً. حاولتُ خلال سنواتي الأولى في بارّانكيّا أن أقتفي أثرها، إلى أن عرفت أنّها كانت تعيش في بنما،

حيث يعمل زوجها بابورينا خبيراً في القنال، لكنّني لم أتطرّق للموضوع معها خجلاً لا كبرياء.

أظنّ أنّها كانت تتناول الغداءَ مع شخص آخر تركها وحيدة كي تلتقي بي. تناولنا ثلاثة فناجين قهوة قاتلة، ودخّنا معاً نصف علبة من السجائر الثقيلة باحثين، دون هداية، عن طريق للحديث دون كلام، إلى أن تجرّأت على سؤالي عمّا إذا كنتُ قد فكّرتُ بها ذات مرّة. عندئذٍ فقط قلتُ لها الحقيقة: لم أنسها قط، لكنّ مغادرتها كانت من الوحشية بحيث أنّها بدّلت طريقتي في الحياة. كانت هي أكثر رأفةً منّي:

- لا أنسى أبداً أنّك بالنسبة إليّ ابنٌ.

كانت قد قرأت زواياي الصحفية وقصصي وروايتي الوحيدة، وكلّمتني عنها بذكاء ثاقب وحاد، وحده الحب أو الحقد ينتجه. ومع ذلك لم أفعل غير أنّني تفاديت مكائد الحنين بالجبن البائس الذي لا يقدر عليه غيرنا نحن الرجال. حين تمكّنتُ أخيراً من التخفيف من التوتر تجرّأت على سؤالها عمّا إذا أنجبت الابن الذي كانت تريده.

- وُلِد - قالت هي بسعادة - وهو الآن يُنهي دراسته الابتدائية.

- هل هو أسود مثل أبيه؟ - سألتها بالبؤس الخاص بالغيرة.

استعانت بإحساسها الطيب دائماً. «أبيض مثل أمّه - قالت - لكنّ والدَه لم يهجر البيت، كما كنتُ أخاف، بل اقترب منّي أكثر». وأمام حرجي الواضح أكّدت لي بابتسامة قاتلة:

- لا تهتمّ: هو منه. وإضافةً إليه هناك ابنتان متطابقتان كما لو كانتا واحدة.

فرحت بمجيئي، ألهتني ببعض الذكريات التي لا علاقة لها بي، ووقعتُ في وهم التفكير بأنّها تنتظر منّي جواباً أكثر حميميةً. لكنني أخطأتُ أيضاً، ككلِّ الرجال، بالزمان والمكان. نظرتُ إلى الساعة حين طلبتُ فنجانَ القهوة الرابع وعلبة سجائر أخرى، ونهضتُ دون مقدّمات:

ـ حسناً، يا صغيري، أنا سعيدة لرؤيتك ـ قالت ثمّ ختمت ـ فأنا لم أعد أحتمل أنّني قرأتُ كلَّ الذي قرأتُه لك، دون أن أعرف كيف أنت.

ـ وكيف أنا؟ ـ تجرّأت على سؤالها.

ـ آه، لا! ـ ضحكت من كلّ قلبها ـ لن تعرف هذا أبداً.

فقط حين استعدتُ نفسي أمام الآلة الكاتبة، انتبهت إلى اللهفة التي كانت عندي دائماً لرؤيتها، والرعب الذي منعني من البقاء معها بقية حياتنا كلّها. الرعب الماحق ذاته الذي عدتُ لأشعر به مرّاتٍ كثيرة منذ ذلك اليوم، حين كان يرنّ الهاتف.

بدأ العام الجديد 1955 بالنسبة إلى الصحفيين يوم الثامن والعشرين من شباط بخبر مفاده أنّ ثمانية من بحارة المدمِّرة كالداس من البحرية الوطنية سقطوا في البحر، واختفوا خلال عاصفة، حين لم يتبقّ غير أقلّ ساعتين لوصولها إلى كارتاخِنا. كانت قد انطلقت قبلَ أربعةَ أيّام من موبيل، في ألاباما، بعد أن مكثت هناك عدّة أشهر للقيام بإصلاحات دورية.

وبينما كانت هيئة التحرير كاملةً تستمع مصعوقة إلى النشرة الإذاعية الأولى عن الكارثة، التفت غيِّرمو كانو إليّ من كرسيّه الدوّار، وأبقى عليّ تحت نظره، وأمرٌ جديد جاهزٌ على رأس لسانه. خوسِهْ سالغار الذي كان في طريقه إلى الورشات، توقّفَ أيضاً أمامي وأعصابه مشدودة من الخبر. كنتُ قد عدتُ قبل ساعة من بارّانكيّا، حيث أعددتُ خبراً عن المأساة الأبدية في بوكاس دِ ثِنيثا، وكنتُ بدأتُ أسألُ نفسي مرّة أخرى في أية ساعة ستخرج الطائرة المقبلة إلى الساحل كي أكتب الخبر المبكر عن الغرقى الثمانية. لكن سرعان ما توضّح في نشرة الأخبار الإذاعية أن المدمّرة ستصل إلى كارتاخِنا في الثالثة مساءً، دون أخبار جديدة، فهم لم يستعيدوا جثث البحارة الغرقى الثمانية. انفجر غيِّرمو كانو:

ـ ياللمصيبة ـ قال ـ لقد فاتنا القطار.

ابتُسِرت الكارثةُ في سلسلة من النشرات الرسمية، واستُغِلّت

الأخبار لتكريم من قضوا شهداء في الخدمة، لكن ليس أكثر. ومع ذلك كشفت البحرية في نهاية الأسبوع أنّ واحداً منهم، لويس ألِخاندرو بِلاسكو، وصل لافظاً أنفاسَه إلى شاطئ في أورابا، مصاباً بضربة شمسٍ، لكنّ يمكن إنقاذه بعد أن مكث عشرة أيّام دون أكل ولا شرب في عبارة بلا مجاذيف. جميعنا كنّا متفقين على أنّه يمكن أن يُصبِح تحقيق السنة إذا ما استطعنا لقاءه على انفراد، ولو لنصف ساعة.

لم يكن هذا ممكناً. فالبحرية أبقت عليه معزولاً، ريثما يستعيد عافيته في المستشفى البحري في كارتاخِنا. هناك التقاه لبضع دقائق سريعة محرّرٌ ماكر من «إلْ تييمبّو»، هو أنطونيو مونتانيا الذي تسلَّل إلى المستشفى بزيّ طبيب. ومع ذلك، من الحكم على النتائج، فأنّه لم يحصل من الغريق إلا على بعض الرسومات بقلم الرصاص عن وضعه في الباخرة حين جرفته العاصفة، وبعض التصريحات غير المترابطة، وهذا ما وضّح أنّه كانت عنده أوامر بألا يحكي الحكاية. صرّح بِلاسكو بعد أيامٍ قائلاً «لو علمتُ بأنّه صحفيّ لساعدته». ما إن استعاد عافيته حتىً منح، لكن دائماً تحت مظلّة البحرية، مقابلةً لمراسل «إلْ إسبِكتادور» في كارتاخِنا، لاثيدِس أورِوثكو، الذي لم يستطع أن يصل إلى حيث كنّا نريد لنعرف كيف حدث أنّ عصفةَ ريح استطاعت أن تتسبّب بمثل تلك الكارثة التي أوقعت سبعة قتلى.

بالفعل كان لويس ألِخاندرو بِلاسكو خاضعاً لالتزام حديدي يمنعه عن الحركة أو التعبير بحرية، حتى بعد أن نقلوه إلى بيت أبويه في بوغوتا. كان غيِّرمو فونْسِكا، الملازم المختص بالفرقاطات يحلّ أيّ مسألة فنّية أو سياسيّة بمهارته الودّية، لكنه يحذف بالرشاقةِ ذاتها المعلومات الجوهرية من الشيء الوحيد الذي كان يهمّنا في ذلك الوقت، وهي حقيقة المغامرة. كتبتُ لمجرَّدِ أن أكسب الوقتَ عدّةَ زوايا عن الجوِّ الذي عاد فيه الغريق إلى بيت والديه، حين منعني رفاقه في اللباس الموحّد مرّةً أخرى من الكلام

معه، بينما سمحوا له بمقابلة باهتة مع إذاعة محلية. عندها بدا واضحاً أنّنا بين أيدي معلّمين في الفن الرسمي، مَهَرة بتبريد الخبر، وأثارتني لأوّل مرّة فكرةُ أنّهم يُخفون عن الرأي العام شيئاً في غاية الخطورة عن الكارثة. أتذكّره اليوم كنبوءة أكثر منه كارتياب.

كان آذار شهراً، ريحه صرصر ومطره ندف تزيد من شحنة ندمي. لجأت قبل أن أواجه هيئة التحرير مكتئباً من الهزيمة، إلى فندقِ كونتينِنتال المجاور، وطلبتُ جرعةً مُضاعفة على طاولة البار الموحشة. تناولتها برشفات بطيئة، حتى دون أن أخلع معطفي الوزاري السميك، حين شعرت بصوت في غاية العذوبة يكاد يُلامِس أذني:

- من يشرب وحيداً يموت وحيداً.

- ليستجب لك الربّ، يا جميلة - أجبتُ وروحي في فمي، مقتنعاً أنّها مارتينا فونسِكا.

خَلَّفَ الصوتُ في الجوّ أثر غاردينيا دافئة، لكنّها لم تكن هي. رأيتها تخرج من الباب الدوّار وتختفي مع مظلّتها الصفراء التي لا تُنسى في الشارع العريض الذي أوحله المطر الخفيف. عبرت بدوري الشارع بعد جرعة ثانية، ووصلت إلى قاعة التحرير لا تكاد تسندني الجرعتان الأوليتان. رآني غيِّرمو كانو أدخل، فأطلق صيحة فرح للجميع:

- لنرَ ما الخبر الذي يأتينا به غابو العظيم!

أجبته بالحقيقة:

- لا شيء غير سمكة ميتة. - ألححتُ.

عندها انتبهتُ إلى أن سخريات هيئة التحرير القاسيةَ بدأت تستهدفُني. حين رأوني أعبر بصمت، مجرجراً معطفي المبلل، لم يتجرّأ أحد منهم على أن يبدأ السخرية المعتادة.

بقي ألخِاندرو بِلاسكو يستمتع في مجده المكبوت. معلموه لم

يسمحوا له بكلّ أنواع التضليل الدعائي وحسب، بل ورعوه أيضاً. تلقّى خمسمئة دولار وساعة جديدة كي يحكي عبر الإذاعة حقيقةَ أن ساعته تحمّلت تقلبات الطقس القاسية. مصنعُ حذاءِ التنس الذي كان ينتعله دفع له ألف دولار كي يحكي أنّ حذاءه كان من المتانة بحيث أنّه لم يستطع أن يفككه، كي يملك شيئاً يمضعه. في يوم واحد ألقى خطاباً وطنياً، وترك ملكةَ جمال تُقبّله، وظهر للأيتام كنموذج للأخلاق الوطنية. بدأتُ أنساه في اليوم الخالد الذي أعلن لي فيه غيِّرمو كانو أنّه عنده في المكتب، وهو مستعدّ لأن يُوقّع عقداً ليروي لنا مغامرته كاملة. فشعرت بالإهانة.

ـ لم يعد سمكة ميتة، بل متفسّخة ـ أصررتُ.

كانت المرّة الأولى والوحيدة التي رفضتُ فيها القيام بعملٍ للصحيفة، هو واجبي. أذعن غيِّرمو كانو للواقع وصرف الغريقَ دون توضيحات. حكى لي فيما بعد أنّه بعد أن صرفه بدأ يُفكّر في مكتبه، ولم يتمكّن من تفسير ما انتهيتُ من فعله. عندئذٍ أمر البوّاب بأن يُرسل إليه الغريقَ من جديد، وهتف لي معلناً أنّه اشترى منه الحقوق الحصرية للقصّة كاملة.

لم تكن المرّة الأولى، ولا الأخيرة، التي أصرّ فيها غيِّرمو على قضية خاسرة وتتوّجه بأن يصبح على حق. حذّرته مكتئباً، لكن بأفضل أسلوب ممكن، أنّني سأجري التحقيق الصحفيّ لمجرّد الطاعة المهنية، ومع ذلك لن أوقّعه باسمي. وجاء القرارُ، دون أن أفكّر بالأمر، قراراً عرضياً، لكنّه صائبٌ بالنسبة للتحقيق، فقد أجبرني على روايته بضمير المتكلّم بطل القصّة، بطريقته الخاصة وأفكاره الشخصية وموقعاً باسمه. أي أنه المنولوج الداخلي لمغامرة معزولةً، تماماً كما صنعتها الحياة. جاء القرارُ عجيباً، فقد صادف أنّ بِلاسكو رجل ذكيّ ويتمتع بحساسية وتربية حسنة لا تُنسيان، ومرح متناسب مع زمانه ومكانه. ومن حسن الحظّ أنّ كلّ ذلك كان خاضعاً لجِبلة غير متصدّعة.

جاءت المقابلة طويلة، دقيقةً، على امتداد ثلاثة أسابيع كاملة ومنهكة؛ أجريتها وأنا أعلمُ أنّها لم تكن لتُنشر خاماً، بل ستُطبخ في

قدر آخر: تحقيق صحفيّ. بدأته بقليل من سوء النية، محاولاً إيقاع الغريق في تناقضات، كي أكشف حقائقه الخفية، لكنّني سرعان ما تأكّدت من أنّه لا يملكها. لم أضطر لأن أقسر شيئاً. جاء كما لو أنّني أتنزّهُ في مرج من الأزهار، وأختار بأعلى درجات الحرية، المُفَضَّل منها. كان بِلاسكو يصل في تمام الساعة الثالثة مساءً إلى مكتبي في قاعة التحرير، نُراجع الملاحظات السابقة، ونتابع بترتيب خطّي. كنتُ أكتبُ في الليل كلَّ فصلٍ يمليه عليَّ، وأنشره في مساء اليوم التالي. كان من الأسهل والأوثق لي أن أكتبَ المغامرةَ كاملة لتُنْشَرَ بعد مراجعتها والتأكّد من كلّ التفاصيل بعمق. لكن لم يكن هناك وقت. فالموضوع يفقد راهنيته مع كلّ لحظةٍ تمرّ، وأيّ خبر آخر صاخب يمكن أن يطغى عليه.

لم نستخدم مسجلة. لأنها كانت قد اختُرِعَت للتو، وأفضلها كان كبير بحجمه ووزنه مثل آلة كاتبة، والشريطُ المغناطيسي يعلك مثل «غزل البنات». النقل بحدّ ذاته كان مأثرة. اليوم ذاته نعرف أنّ المسجّلات مفيدة جدّاً للتذكّر، لكن يجب ألا نُهمِلَ وجه الشخص الذي نقابله أبداً، والذي يمكن أن يقول أكثر من صوته بكثير، وأحياناً يحدث العكس تماماً. كان عليّ أن أرضى بالطريقة الروتينية بكتابة الملاحظات على دفتر مدرسي، لكن وبفضل هذا لم أَضِع كلمة أو نبرة من الحديث، واستطعت أن أتعمّق أفضل في كلّ خطوة. كان اليومان الأوّلان صعبين جدّاً، لأنّ الغريق أراد أن يروي كلّ شيء في وقت واحد، ومع ذلك سرعان ما تعلّم من ترتيبي وأسئلتي، وخاصّة من غريزته ذاتها، غريزة الراوي والسهولة الوراثية في فهم أدوات المهنة.

كي نحضّر القارئ، قبل أن نُلقي به إلى الماء قرّرنا أن نبدأ الحكاية من أيّام البحّار الأخيرة في موبيل. كما قرّرنا ألاّ نُنهيها عندما وطأ اليابسة، بل حين وصل إلى كارتاخِنا، وصار الجمهور يهتف له، وهي اللحظة التي يستطيع القرّاء أن يتابعوا فيها خيط الرواية بأنفسهم من خلال المعلومات المنشورة. وقد منحنا هذا أربعة عشر حلقةً أبقينا فيها على ترقب القرّاء مدّة أسبوعين.

نُشِرت الحلقةُ الأولى يوم الخامس من نيسان 1955. طبعة «إلِ إسبِكتادور» المسبوقة بالدعاية في الإذاعة نفذت خلال ساعات. العقدة الانفجارية طُرِحت في اليوم الثالث، حين قرّرنا أن نكشف الغطاء عن السبب الحقيقيّ للكارثة، والذي كان حسب الرواية الرسمية عاصفة. وبحثاً عن دقّة أكبر طلبتُ من بِلاسْكو أن يرويها بكلّ تفاصيلها. وكان قد تآلف مع منهجنا العام إلى حدّ أنّني لمحتُ في عينيه بريق خبثٍ قبل أن يُجيبني:

ـ المشكلة أنّه لم تكن هناك عاصفة.

ما حدث ـ دقّق ـ هو أنّه كان هناك قرابة العشرين ساعة من الريح الشديدة، الخاصة بالمنطقة في تلك الفترة من العام، لم تكن متوقّعة بالنسبة إلى المسؤولين عن الرحلة. كان طاقم البحارة قد تلقى رواتب عدّة أشهر متأخّرة قبل الإقلاع، وصرفوها في آخر ساعة بشراء كلّ أنواعِ المواد المنزلية ليأخذوها إلى بيوتهم. يبدو أنّ شيئاً لم يُقلق أحداً حين تجاوزوا كلّ حدّ داخلَ المركب، وربطوا على السطح أكبر الصناديق: ثلاجات وغسالات كهربائية ومدافئ. الحمولة الممنوعة في باخرة حربيّة، وبكمية شغلت أماكنَ حيوية من السطح. ربّما فكّروا أنّه لا يتوجّب عليهم التعامل بكثير من الصرامة في رحلة لا تحمل صفة رسمية وتدوم أقلّ من أربعة أيّام، توقّعات الطقس فيها رائعة. كم من المرّات قاموا بمثلها وسيستمرّون يقومون دون أن يحدثَ أيُّ شيء؟ وشاء سوء الحظّ أن رياحاً لا تكاد تكون أقوى من المعلن عنها خبطت البحرَ تحت شمسٍ زاهية، فجنحت بالسفينة أكثر بكثير مما هو متوقّع، ومَزّقت حبالَ أربطة الحمولة السيّئة التوضيب. ولو لم تكن سفينة بحرية مثل كالداس لغرقت دون رحمة. لكنّ ثمانية من البحارة على السطح سقطوا عن متنها. وهذا يعني أنّ السبب الرئيسي للحادث لم تكن العاصفة، كما أصرّت المصادر الرسميةُ منذ اليوم الأوّل؛ بل ما صرّح به بِلاسكو في التحقيق الصحفي: الحمولة الزائدة من الأجهزة المنزلية الموزّعة بشكلٍ سيّئ على ظهر سفينة حربية.

الجانب الآخر الذي أبقوا عليه طيَّ الكتمان، هو نوع زوارق

النجاة التي كانت في متناول أيدي الذين سقطوا في البحر، والذين لم ينجو منهم غير بِلاسكو. يُفترض أنّه كان يوجد على متنها نوعان من الزوارق النظامية التي سقطت معهم، مصنوعة من الفلين والقنّب بطول ثلاثة أمتار وعرض متر ونصف، ومنصة أمان في الوسط، ومجاذيف، ومجهّزة بالأغذية وماء الشرب وصناديق الإسعافات الأوّلية، وعناصر الصيد والإبحار وكتاب مقدّس. بهذه الشروط يمكن لعشرة أشخاص أن يعيشوا على متنها ثمانية أيّام، حتى دون أدوات الصيد. ومع ذلك حمّلوا على متن كالداس زوارق أصغر خالية من أيّ نوع من التجهيزات. حسب روايات بِلاسكو لم يكن زورقه يملكُ أيّة تجهيزات. السؤال الذي سيبقى عالقاً للأبد، هو كم من الغرقى تمكّنوا من أن يركبوا زوارق أخرى لم تحملهم إلى مكان.

تلك كانت ولا شكّ أهمّ الأسباب التي أخّرت التوضيحات الرسمية حول الغرق. إلى أن انتبهوا إلى أنّها كانت ادعاءات غير مسندة، لأنّ بقية البحارة أصبحوا في بيوتهم يرتاحون ويحكون الحكاية كاملة في كلّ البلد. أصرّت الحكومةُ حتى النهاية على رواية العاصفة، وجعلتها رسمية في تصريحاتها القاطعة. لم يصل الأمرُ بالرقابة حدّ قص الفصول المتبقية. بلاسكو حافظ من جهته ما استطاع على الغموض الصادق. ولم يُعرف قط أنّهم ضغطوا عليه كيلا يكشف عن الحقائق، ولم يطلبوا منا ذلك أو يمنعونا من الكشف عنه.

فكّرنا بعد الفصل الخامس بإصدار نشرة بالحلقات الأربع السابقة، لتغطية طلب القرّاء الذين أرادوا أن يجمعوا الرواية كاملة. غابرييل كانو الذي لم نره في التحرير خلال تلك الأيام العصيبة، نزل من برج حمامه، وذهب مباشرة إلى مكتبي.

- قل لي شيئاً واحداً، يا سميّيَ - سألني - كم حلقةً سيستغرق الغرق؟

كنّا في رواية اليوم السابع، حين أكل بِلاسكو بطاقةَ تعريف كطعام وحيد متوافر لديه، ولم يستطع أن يمزق حذاءه بالعضّ كي يملك شيئاً يمضغه. وهذا يعني أنّه بقيَ أمامنا سبعة حلقات أخرى. ثارت ثائرة دون غابرييل.

ـ لا يا سميِّيَ، لا ـ انفعل متشنجاً ـ يجب ألاّ تقلّ عن خمسين حلقةً.

قدّمت له وجهة نظري، لكن وجهة نظره كانت تستند إلى أنّ أعداد الصحيفة توشك أن تتضاعف. وحسب تقديراته يمكن أن تصل إلى رقم لا سابق له في الصحافة الوطنية. ثمّ ارتجل هيئة تحرير، دُرِست التفاصيل الاقتصادية والتقنية والصحفية، واتُّفِق على حدّ معقول من عشرين فصلاً. أي ستّة حلقات أكثر من المتوقّعة.

رغم أنّ توقيعي لم يكن يظهر في الحلقات المنشورة، فإنّ منهج العمل كان قد شاع وانتشر. ففي ليلة ذهبتُ فيها للقيام بواجبي كناقد سينمائيّ، جرى في بهو المسرح جدل حماسي حول قصّة الغريق. معظمهم كانوا أصدقاءَ أتبادلُ معهم الأفكار في المقاهي المجاورة بعد العرض. كانت آراؤهم تُساعدني على توضيح أفكاري للزاوية الأسبوعية. بالنسبة إلى الغريق كانت الرغبة العامّة ـ مع بعض الاستثناءات النادرة جدّاً ـ بأن تُمطّ إلى أبعد ما يمكن.

أحد هذه الاستثناءات كان رجلاً ناضجاً وأنيقاً يرتدي معطفاً رائعاً من وبر الجمل، وقبّعة على شكل بطيخة، تبعني قرابة الثلاث قصباتٍ من المسرح، بينما أنا عائد وحدي إلى الصحيفة. كانت تُرافِقُه امرأةٌ في غاية الجمال، حسنةُ اللباس مثله، وصديق أقلّ أناقة منه. رفع قبّعته ليحييني وقدّم نفسه باسمه الذي لم أحفظه. قال لي دون لفٍّ ولا دوران أنّه لا يمكن أن يوافق على تحقيق الغريق، لأنّني ألعب معه مباشرة لعبة الشيوعية. وضّحت له دون مبالغة أنّني لستُ أكثر من ناقِلٍ للحكاية التي يحكيها بطلها بنفسه. لكنّه كان يملكُ أفكاره الخاصّة، ويظنّ أنّ بِلاسكو متسلّل إلى القوات المسلحة لصالح الاتحاد السوفييتي. حدستُ وقتها أنّني أتكلّم مع ضابط رفيع المستوى في الجيش أو البحرية، فتحمّست لفكرة التوضيح. لكن يبدو أنّه أراد أن يقولَ لي هذا فقط.

ـ أنا لا أدري ما إذا كنتَ تقوم بهذا عن وعي أو لا ـ قال لي ـ لكن مهما يكن فأنت تقدّم خدمة سيّئة للبلد لصالح الشيوعيين.

زوجته المبهرة قامت بحركة تخوّف، وحاولت أن تأخذه من ذراعه متوسِّلة بصوت خافت جدّاً: «رجاءً، يا روخِليو!». أنهى هو جملته برباطة الجأش ذاتها التي بدأ بها:

- صدِّقني أنّني أسمح لنفسي بأن أقول لك هذا فقط للإعجاب الذي أشعر به تجاه ما تكتب.

عاد وصافحني وترك نفسه ينقاد من زوجته المبتلية به. مرافقه المباغت لم يتمكن من الوداع.

كان هذا أوّل حادثٍ من سلسلة حوادث جعلتنا نفكِّر جدّياً بأخطار الشارع. في حانة بائسة خلف الصحيفة، تقدّم خدماتها لعمال القطّاع حتى الفجر حاول مجهولان، قبل أيّام، الاعتداء المجاني على غونثالو غونثالِثْ، الذي كان يتناول هناك آخر فناجين قهوة الليل. لم يفهم أحد ما الدوافع التي يمكن أن تقوم وراء الاعتداء على أكثر رجال العالم مسالمة، اللهمّ إلاّ أن يكونوا قد خلطوا بيني وبينه بسبب طريقتنا وموضتنا الكاريبيتين، وحرفا غَين الاسم والكنية في اسمه المستعار: غوغ. في جميع الأحوال نبّهني أمن الصحيفة ألاّ أخرج وحدي ليلاً في مدينة، هي في كلّ مرّة أكثر خطورة. بالنسبة إليّ كانت من الأمان، بحيثُ أنّني كنتُ أذهب سيراً على الأقدام من الصحيفة إلى بيتي عند انتهاء دوامي.

وذات فجر من تلك الأيّام العصيبة، شعرت بأنّ ساعتي قد حانت مع شظايا البلور الذي تكسر بقرميدة قُذِفَت من الشارع على نافذة غرفة نومي. كان هذا ألِخاندرو أوبرِغون الذي أضاع مفاتيح شقّته ولم يجد أصدقاء مستيقظين ولا مكاناً في فندق.

حلّ مشكلة ليلته، بعد أن تعب من البحث عن مكانٍ ينام فيه ومن قرع الجرس المعطّل، بقرميدة من البناء المجاور. لم يكد يسلّم عليّ كيلا يوقظني تماماً حين فتحت له الباب، وارتمى على ظهره لينام على الأرض تماماً حتى الظهيرة.

راح التزاحمُ على شراء الصحيفة في باب «إلْ إسبِكتادور» قبل أن تخرجَ إلى الشارع يزدادُ يوماً بعد يوم. كان موظّفو المركز

التجاري يتأخرون في الذهاب إلى منازلهم كي يشتروها ويقرؤوا الفصلَ في الباص. أظنّ أن اهتمام القرّاء بدأ لأسباب إنسانية، واستمرّ لأسباب أدبية، وأخيراً لاعتبارات سياسيّة، لكنّه يستند إلى توتر الحكاية الداخلي. حكى لي بِلاسكو أحداثاً شككتُ بأنّها من اختراعه واكتسبت معانٍ رمزية وعاطفية، مثل النورس الأوّل الذي رفض أن يبتعد عنه. وكان حادث الطائرات مروياً من قبله ذا جمال سينمائي. سألني صديقٌ بحارٌ كيف حدث وعرفتُ البحر بتلك الدقة، فقلت له إنّني لم أفعل شيئاً آخر غير أنني نقلت حرفياً ملاحظات بِلاسكو. بعد نقطة معيّنة لم يكن عندي ما أضيفه.

لم يكن لقيادة البحرية المزاج ذاته. فقبل نهاية السلسلة بقليل وجّهتْ إلى الصحيفة رسالةَ احتجاج، لأنّها حكمت بمعيار متوسّطي وبطريقة ليس فيها كثير من اللياقة على مأساةٍ كان من الممكن أن تقع في أيِّ مكان يمكن للوحدات البحرية أن تعمل فيها. «رغم الحداد والألم الذي يعتصر سبعة بيوت كولومبية محترمة، وكلّ رجال البحرية ـ قالت الرسالة ـ لم يكن عند الجريدة أيّ مانع من الوصول والتمادي في نشر قصة مسلسلة لكتّاب مبتدئين، بكلمات موبوءة ومفاهيم مناقضة للتقنيات وغير منطقية، موضوعة على لسان البحّار المحظوظ والجدير بالتقدير الذي أنقذ نفسه بشجاعة». ولذلك طلبت البحرية تدخّلَ مكتب الإعلام والصحافة في رئاسة الجمهورية، كي يُقرَّ ـ بمساعدة ضابط بحريّ ـ المنشورات التي يمكن أن تتم في المستقبل عن الحادث. من حسن الحظّ أنّنا كنّا حين وصلت الرسالةُ في الحلقة ما قبل الأخيرة، واستطعنا أن نتغافل عنها حتى الأسبوع التالي.

وبالتحضير للنشر النهائي للنص الكامل، طلبنا من الغريق أن يُساعِدنا بإعطائنا لائحة بأسماء وعناوين رفاق آخرين له كانوا يملكون كاميرات، وأرسل لنا هؤلاء مجموعة من الصور المُلْتَقَطة أثناء الرحلة، لكنّها في غالبيتها كانت لمجموعات يظهر في خلفيتها صناديق الأدوات المنزلية على السطح ـ برّادات، مدافئ، وغسالات

مع علامة الصنع بارزة. كانت ضربة الحظّ هذه تكفينا لتكذيب التكذيبات الرسمي. جاءت ردّة فعل الحكومة فورية وجازمة، وتخطّى مُلحَقُ الصحيفة كلّ السوابق والتنبؤات التي كانت تدور. لكنّ غيِّرمو كانو وخوسِهْ سالغار اللذين لا يُهزمان لم يكن عندهم غير سؤال واحد:

- والآن، ويحكَ، ماذا سنفعل؟

لم نكن نملك في تلك اللحظة، وقد دوّخنا المجد، إجابة. كلّ الموضوعات كانت تبدو لنا باطلة.

بعد خمسة عشر عاماً من نشر الحكاية في «إلْ إسبِكتادور» نشرتها دار نشر توسكِتسْ في برشلونة في كتاب مُذَهَّبِ الغلاف، بيع كما لو ليؤكل. كتبتُ في نهاية المقدّمة مستلهماً شعوراً بالعدل وإعجابي بالبحّار البطل: «هناك كتبُ ليست لمن يكتبها، بل لمن يعانيها، وهذا واحدٌ منها. وبالتالي فإنّ حقوق المؤلّف ستكون لمن يستحقّها: ابن وطني المجهول الذي عانى عشرة أيّام بلا طعام أو شراب في زورق، كي يصبح هذا الكتاب ممكناً».

لم تكن جملة عبثية، فقد دفعتْ دارُ نشر توسكِتسْ حقوقَ المؤلّف كاملةً للويس ألخِاندرو بِلاسكو بتعليماتٍ منّي طوالَ أربعةَ عشرَ عاماً. إلى أن أقنعه المحامي غيِّرمو ثيا فِرناندِثْ من بوغوتا بأنّ الحقوق تعود له (قانونياً)، وهو يعلم أنّها لم تكن له إلاّ بقرار منّي تكريماً لبطولته وموهبته كروائي ولصداقته.

قُدِّمت الدعوى ضّدي في المحكمة 22 المدَنِيّة لدائرة بوغوتا. وعندئذٍ أمر محامِيَّ وصديقي ألفونسو غومِثْ مِنْدِثْ دارَ النشر توسكِتسْ، بحذف الفقرة الأخيرة من المقدِّمة في الطبعات التالية، وبعدم الدفع للويس ألخِاندرو بِلاسكو سنتيماً واحداً من حقوق المؤلف حتى تبتَّ العدالة بذلك. وهكذا فعلت، وبعد جلسات نقاش طويلة تضمّنت براهين وثائقية دامغة وفنّية، قرَّر القاضي أنّ المؤلِّف، الوحيد للعمل هو أنا، ولم يستجِب للادعاءات التي أرادها محامي بِلاسكو. وبالتالي فإنّ الدفعات التي منحت له حتى ذلك الوقت

بأمر مني لا تتضمّن أساساً الاعتراف بالبحار كمؤلف شريك، بل قراراً إرادياً وحرّاً ممن كتبه. كما تمّ منذ ذلك الوقت، وبأمر منّي أيضاً، التبرع بحقوق المؤلّف إلى مؤسّسة خيرية.

لم نتمكّن من الحصول على قصّة أخرى كتلك، لأنّها ليست من تلك التي تبتدع على الورق. بل تبتدعها الحياة بشكل يكاد يكون مفاجئ دائماً. نتعلّمها فيما بعد حين نريد أن نكتب سيرةً لبطل سباق الدراجات الأنتيوكي الرهيب رامون هويوس، الذي تتوّج في ذلك العام بطلاً وطنياً للمرّة الثالثة. فنحن أطلقناه بالضجّة التي تعلّمناها من التحقيق الصحفي عن البحار، وأطللناه حتى تسعة عشر حلقةً، قبل أن ننتبه إلى أنّ الجمهورَ كان يُفضِّل رامون هويوس، وهو يتسلّق الجبال ويكون أوّل من يصل إلى الهدف، لكن في الحياة الواقعية.

لمحنا بصيصاً من أملٍ باستعادتها ذات مساء، حين هتف لي سالغار كي أجتمع به فوراً في بار فندق كونتينِنْتال. كان هناك مع صديق له قديم وجَدّيٍّ، قدّمه توّاً لمرافِقه، وهو أبرص يرتدي ثياب عامل له شعر وحواجب كانت من البياض بحيث جعلته يبدو مبهوراً حتى في ظلمة البار. صديق سالغار، الذي كان رجل أعمالٍ معروف قدّمَه كمهندس مناجمٍ ينقّبُ في الأرض البور على بعد مئتي متر من «إلْ إسبِكتادور» بحثاً عن كنزٍ خُرافي تعود ملكيَّتُه للجنرال سيمون بوليفار. ضَمِنَ لنا مرافقه ـ صديق سالغار الحميم وصديقي منذ تلك اللحظة ـ حقيقة القصّة. كانت مريبة لبساطتها: حين كان المحرِّرُ يستعدّ لمتابعة رحلته الأخيرة من كارتاخِنا، مهزوماً ومُحتَضَراً، يُفتَرَضُ أنه فضَّل ألا يحمل معه كنزاً شخصياً كبيراً جمعه خلال حاجات حروبه كاحتياطيّ مستحق لشيخوخة حسنة. حين كان يستعدّ لمتابعة رحلته الأخيرة ـ لا يُعرف ما إذا كان إلى كاراكاس أو إلى أوروبا ـ كان من الحكمة بحيث تركه في بوغوتا بحماية نظام من الرموز اللاسدِمونية الخاصّة(*) جدّاً بعصره، كي يجده حين

(*) Lacedemonico نسبة إلى Lacedemonia وهي منطقة في اليونان، كان أكبر تجمعاتها السكانية في إسبارطة التي عُرفت بقوانينها الصارمة.

يحتاج إليه ومن أيّ مكانٍ في العالم. تذكّرتُ هذا الخبرَ بقلق قاهر بينما أنا أكتب روايةَ «الجنرال في متاهته»، التي كانت قصّة الكنز بالنسبة إليها جوهرية، لكنّني لم أحصل على معلومات كافية كي أكسِبَها مصداقية، بينما بدت لي واهِنةً كعمل متخيّل. هذا الكنز الخرافي الذي لم ينقذه صاحبه قط، هو ما كان يبحثُ عنه الباحثُ بحرصٍ كبير. لم أدرِ لماذا كشفوا لنا عنها، إلى أن وضّح لي سالغار أنّ صديقَه المتأثِّر بحكاية الغريق أراد أن يضعنا أمام أحداث سابقة، كي نتابعها يوماً بيوم، حتى نتمكن من نشرها بالطريقة ذاتها.

ذهبنا إلى الأرض. كانت الأرض البور الوحيدة على الجانب الغربي من حديقة الصحفيين، وقريبة جداً من شقّتي الجديدة. وضّح لنا الصديقُ على خريطة من العهد الاستعماري إحداثيات الكنز بتفاصيل واقعية على هضبتي مونسِرّات وغوادالوبِّ. كانت القصّة مذهلة والجائزة خبر مدوٍّ كخبر الغريق، لكن ببعد عالميّ أكبر.

بقينا نزور المكانَ بتكرار معين كي نبقى مطلعين على المستجدات اليومية، ونستمع إلى المهندس ساعات لا تنتهي بينما نحن نتناول الأغواردييِنتِ والليمون، ونشعر أنّنا في كلّ مرّة أبعد عن المعجزة، إلى أن مضى من الوقت ما لم يبقِ عندنا ولا على الوهم. الشيء الوحيد الذي استطعنا أن نشكّ به فيما بعد، هو أنّ قصّة الكنز لم تكن سوى غطاء لاستثمار منجم لشيء ذي قيمة كبيرة دون الحصول على ترخيص في قلب العاصمة. وإن كان من الممكن أن يكون هذا غطاء آخر للحفاظ على كنز المحرِّر.

لم تكن تلك أفضل الأيّام للأحلام. فمنذ حكاية الغريق نصحوني أن أبقى بعض الوقت خارج كولومبيا، ريثما تخفّ الحالة نظراً للتهديدات بالقتل، الواقعية أو المتخيّلة، التي كانت تصلنا بوسائل متنوعة. كان هذا أوّل ما فكّرتُ به حين سألني لويس غابرييل كانو، دون مقدّماتٍ، عما كنت أُفكّر أن أعمل يوم الأربعاء القادم. وبما أنّه لم يكن عندي أيّ مخطّط قال لي ببرودته المعتادة، أن أُحضِّر أوراقي للسفر كمراسل خاصّ للصحيفة إلى مؤتمر الأربعة الكبار، الذين سيجتمعون الأسبوع المقبل في جنيف.

أوّل ما فعلته هو أن هتفتُ لأمّي. بدا لها الخبرُ من العظمة بحيثُ سألتني عما إذا كنتُ أقصد مزرعةً ما تُسمّى جنيف. فقلتُ لها: «إنها مدينة في سويسرا». ثم ودون أن تتبدّل، وبرزانتها التي لا نهاية لها في تمثّل تعثرات أبنائها التي لا تخطر ببال سألتني، وكم سأبقى هناك، فأجبتها بأنّني سأعود خلال أسبوعين في أقصى حدّ. الحقيقة أنّني كنت ذاهباً لأربعة أيّام، وهي المدّة التي استغرقها الاجتماع. ومع ذلك ولأسبابٍ خارجة عن إرادتي، لم أتأخّر أسبوعين بل ثلاثة أعوام تقريباً. عندها كنتُ أنا من احتاج للمساعدة المالية، ولو من أجل أن آكل مرّةً واحدة في اليوم، لكنّني حاذرت جيّداً ألا تعلم الأسرة بذلك. حاول أحد أصدقائي في إحدى المناسبات أن يُعكّر صفوَ أمّي، ويغدر بي بالقول لها أنّ ابنها يعيش مثل أمير في باريس، بعد أن خدعها بحكاية أنّه سيبقى هناك أسبوعين فقط.

ـ غابيتو لا يخدعُ أحداً ـ قالت له بابتسامة بريئة ـ المسألة هي أنّ الربّ يُضْطَرُّ أحياناً لأن يجعل بعض الأسابيع سنين.

لم يخطر لي قط، أنّني بسببِ العنفِ، أصبحت رجلاً بلا هوية حقيقيّة، مثل ملايين المهاجرين. لم أصوّت قط بسبب عدم امتلاكي بطاقة هوية شخصية. كنتُ في بارّانكيّا أُعرِّف بنفسي ببطاقة المحرر في «إلْ هِرالدو»، التي تحملُ تاريخَ ولادةٍ مزيّفاً، تفادياً للخدمة العسكرية، التي تخلّفت عنها سنتين. وكنتُ أعرّف بهويتي في بعض الحالات ببطاقة بريدية أعطاها لي عامل التلغراف في ثيبّاكيرا. صديق مُرسل من العناية الإلهية وضعني على احتكاك بوكيل إحدى وكالات السفر التي أخذت على عاتقها تسفيري بالطائرة، بالتاريخ المحدّد، مقابلَ سلفة من مئتي دولار، وتوقيعي في ذيل عشرة أوراق من الورق المختوم الأبيض. وهكذا علمت بالمصادفة أن حسابي الصافي في المصرف كان مبلغاً مفاجئاً، لم أملك الوقت لإنفاقه بسبب أعمالي كمحقّق صحفي. النفقة الوحيدة، ما عدا نفقاتي الشخصية التي لم تكن تتجاوز مصروفات طالب فقير، هي إرسالية المساعدة الشهرية للأسرة.

عشيّةَ الرحلة، لفظ وكيل وكالة السفر أمامي اسمَ كلِّ وثيقةٍ من

الوثائق، بينما راح يضعها على المكتب كيلا أخلطَ بينها: بطاقة الهوية، دفتر الخدمة العسكرية مع إيصالات براءة الذمّة من مكتب الضرائب، مع وثيقة التلقيح الصحية ضدّ الجدري والحمى الصفراء. وأخيراً طلب مني علاوةً إضافيةً للفتى الهزيل الذي لُقِّح مرّتين باسمي، كما كان يُلقّح يومياً منذ سنواتٍ عن الزبائن المُستعجلين.

سافرتُ إلى جنيف، في الوقت المنطبق تماماً مع المؤتمر الإفتتاحي لإيزنهاور وبولغانين وإدين وفاور، دون أيّة لغة أخرى غير القشتالية وزوادة لفندقٍ من الدرجة الثالثة، لكنّني مدعوم جيّداً باحتياطياتي المصرفية. كانت العودةُ متوقّعة خلال خمسة أسابيع. لكنّني لا أدري بأيّ حدس وزّعت على أصدقائي كلّ ما أملكه في الشقّة، بما في ذلك مكتبة سينمائية رائعة جمعتها طوال عامين بمساعدة من ألبارو ثِبِّدا ولويس بينيس.

وصل الشاعر خورخِه غايتان دوران حين كنتُ أمزِّقُ أوراقاً غير ذات جدوى، وأخذه الفضول بمراجعة سلّة المهملات عساه يعثر على شيء يمكن أن يفيده لمجلّته. أنقذ ثلاث أو أربع ورقات ممزقة من وسطها، وراح يقرأها بينما كان يعيد تركيبها على المكتب كمتاهة. سألني من أين جاءت، فقلت له إنّها مقدّمة «إيزابيل تراقب المطر في ماكوندو» المحذوفة من مسودة «عاصفة الأوراق». نبّهته إلى أنّها لم تكن جديدة فقد نُشِرَت في «كرونيكا» وفي «إلْ ماغازين دومينيكال»، وفي «إلْ إسبِكتادور»، بالعنوان ذاته الذي وضعته بنفسي، وبتفويض لا أتذكّر أنّني أعطيته له على عجل في مصعد. لم يهمّ غايتان دوران بكل هذا ونشرها في العدد التالي من مجلة «ميتو»(*).

الوداع عشية يوم السفر في بيت غيِّرمو كانو كان عاصفاً إلى حدّ أنّني حين وصلتُ إلى المطار كانت الطائرةُ المتوجهة إلى كارتاخِنا، حيث كنتُ سأقضي تلك الليلة لأودّع أسرتي، قدغادرت، من حسن الحظّ أنّني أدركتُ أخرى عند الظهيرة. حسناً فعلتُ لأنّ

(*) أسطورة.

الجوّ العائلي كان قد فقد لونه منذ المرّة الأخيرة، وصار أبواي وأخوتي يشعرون بأنّهم قادرون على أن يعيشوا دون المساعدة التي كنتُ سأحتاجها أكثر منهم في أوروبا.

سافرت في اليوم التالي باكراً عبر الطريق البرّي إلي بارّانكيّا، كي آخذ رحلةَ باريس في الثانية مساءً. التقيتُ في محطة باصات كارتاخِنا بِـ لاثيدِسْ، بوّاب ناطحة السحاب الذي لا يُنسى، والذي لم أره منذ ذلك الوقت. ارتمى فوقي بعناق حقيقيٍّ وقد اغرورقت عيناه بالدموع، لا يدري ما يقول ولا كيف يُعاملني. وبعد تبادل متعثر للكلام، لأنّ باصه وصل وباصي كان سيغادر، قال لي بحرارة لامست روحي:

ـ ما لا أفهمه، يا دون غابرييل، هو لماذا لم تقل لي قط من أنت.

ـ آه، يا عزيزي لاثيدِسْ ـ أجبته وأنا أكثر ألماً منه ـ لم يكن باستطاعتي أن أقوله لك، لأنّني حتى اليوم أنا نفسي لا أعرف من أنا.

بعد ساعاتٍ، وفي سيارة الأجرة التي كانت تقلّني إلى مطار بارّانكيّا، تحت السماء الجحود الأكثر شفافية من أيّة سماء أخرى في العالم، انتبهت إلى أنّني في جادّة العشرين من تموز العريضة. وبتفكير صار جزء من حياتي منذ خمس سنوات، نظرتُ إلى بيت بارتشا. كانت هناك جالسة مثل تمثال في الباب، رشيقة وقصية، ودقيقة في موضة السنة بفستان أخضر مطرز بالذهبي، وشعر مقصوص مثل جناحي سنونو، وسكينة عميقة خاصة بمن ينتظر أحداً لن يصل. لم أستطع أن أتحاشى زئير أنّني كنتُ سأفقدها ذات خميس من شهر تموز في ساعة مبكرة، وفكّرت لحظة أن أوقِف سيارة الأجرة كي أودّعها، لكنّني فضّلتُ ألاّ أتحدّى مرّة أخرى قدراً مقلقلاً وعنيداً كقدري.

كنتُ في الطائرة المحلّقة ما أزال أعاني آلام الندم. كانت هناك عادةَ أن يضعوا في قفا المقعد الأمامي شيئاً يُدعى، برومانسية حسنة، «رسالة الكتابة»، وهي ورقة على شكل بطاقة بحواف مذهبة،

غلافها من ورق القطن الورديّ، أو البيج، أو الأزرق والمعطر أحياناً. استخدمتها في رحلاتي السابقة لكتابة قصائد وداع، كنتُ أحوّلها إلى حمائم ورقية، وأطلقها للريح عندما أهبط من الطائرة. اخترتُ واحدة زرقاء سماوية، وكتبتُ أولَ رسالة رسمية لمِرثِدِس الجالسة أمام باب بيتها في السابعة صباحاً بفستان عروس أخضر، لا صاحب لها، وشعر السنونو المضطربة على غير هدى، ولا أتلقى منها إلا أجوبة شفهية مراوغة دائماً حين كنّا نلتقي بالمصادفة. لم يكن ما كتبته أكثر من خمسة أسطر، كي أخبرها رسمياً بسفري. ومع ذلك أضفتُ في النهاية حاشية أعمتني كأنّها برق في منتصف النهار، لحظة توقيعي: «إذا لم أتلقّ جواباً على هذه الرسالة، قبل مرور شهر، سأبقى لأعيش في أوروبا إلى الأبد». لم أكد أسمح لنفسي بالوقت للتفكير بالأمر مرّة أخرى، قبل أن أضع الرسالة في صندوق بريد مطار مونتِغو باي المقفر في الثانية فجراً. كان يوم الجمعة قد حل. الخميس من الأسبوع التالي، وحين دخلت إلى فندق جنيف، بعد يوم عمل آخر غير مجدٍ من الاختلافات الدولية، وجدت الرسالة الجوابية.

لا نبالغ إذا قلنا إنَّ كتاب «نعيشها لنرويها» هو أكثر الكتب حميمية، والتي انتظرها القرّاء في العقد الأول من بداية هذا القرن بشغف. إنه يوجز ويعيد خلق الزمن المفصلي في حياة الكاتب العظيم «غابرييل غارسّيا ماركيز»، الذي لا يمكن لنا أن ننسى حسّه النبيل والإنساني، ومواقفه من القضايا العالمية العادلة.

يقدم لنا الروائي الكولومبي الحائز على جائزة نوبل في هذا الكتاب سنوات طفولته وشبابه، التي شكلت تجربته والأساس الذي قامت عليه قصصه ورواياته، التي تفخر بها الآداب المكتوبة باللغة الإسبانية، والآداب العالمية في القرن العشرين.

إننا أمام مذكرات تحكي لنا حياة «غابرييل غارسّيا ماركيز» وتكشف لنا أحداثاً ووقائع غير مسجلة في التاريخ الرسمي المكتوب. وتفصح عن ملامح وأصداء شخصيات وأحداث سكنت رواياته مثل: «مئة عام من العزلة»، و «الحب في زمن الكوليرا»، و «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه»، و «وقائع موت معلن»، وأعمالاً أخرى تجعل من هذه المذكرات دليلاً لها.

إنه يضيء مشاهدات انحفرت عميقاً في الذاكرة، وتكتسب بعد قراءة هذه المذكرات آفاقاً جديدة تبين مدى علاقة النص بالواقع، ومدى مقدرة الخيال على إبداع النص منه.

إننا أمام حياة رجل حوّلها إلى رواية، رواية جديدة لعالم ما يزال يعيشه ماركيز كي يكتبه في فصول لاحقة من مذكراته. إنها رواية تحمل الصدق في عالم يكاد يخلو من الصدق، وقد عملنا على أن نقدمها بأسلوب هو أقرب ما يكون إلى أسلوب الكاتب.

الناشر

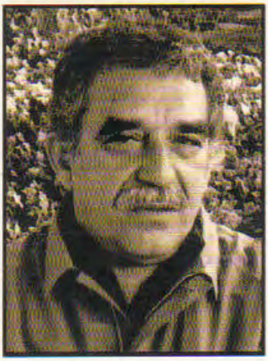

نعيشها لنرويها